تهذيب نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

تأليف

أحمد بن المقري التلمساني

اختصار

دكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة الفهرسة

اســـم الكتـــاب:	نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
تـــــــــأليف:	أحمد بن المقري التلمساني
قام بالتهـــذيب:	رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعـــــــــة:	الطبعة الأولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م
الناشـــــــــر:	مكتبة الإيمان
رقم الإيـــداع:	
الترقيم الـــدولي:	



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، رب يسر بفضلك، الحمد لله الواحد الأحد، المحمود الصمد، الذي لا يفنيه تكرر دور الأحوال، ولا أنواع التغيير والانتقال، و هو خالق الخلائق ومنشئهم، ورازق العباد ومغنيهم، قد كون الأشياء من غير امتثال بأصل، وذرأ البشر من غير اتسام بنسل، ثم شرح منهم صدور أوليائه، حتى انقادت أنفسهم لعبادته، وطبع على قلوب أعدائه حتى ازورت عن الاكتساب لطاعته، ثم اصطفى منهم طائفة أصفياء، وجعلهم بررة أتقياء، فأفرغ عليهم أنواع نعمه، وهداهم لصفوة طاعته، فهم القائمون بإظهار دينه، والمتمسكون بسنن نبيه ، فله الحمد على ما قدر وقضى، ودبر وأمضى، حمدًا لا يبلغ الذاكرون له حدًّا، ولا يحصي المحصون له عددًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله، الذي لا إله إلا هو، شاهد كل نجوى، ومنتهى كل شكوى، {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ} [سبأ: ٣]، وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى، ورسوله المرتضى، بعثه إليه داعيا، وإلى جنابه هاديًا، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار.

أما بعد: فإن أحسن ما يدخر المرء من الخير في العقبى، وأفضل ما يكتسب به الذخر في الدنيا التقوى..

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ

عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾} [لقمان: ٣٣].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾} [الحج: ١].

أما بعد:

فكتاب " **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** " للمقري يعد أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية وكان مصدراً لأكثر ما عرفه المشارقة عن الأندلس في مدى مائة عام أو أكثر ومليء بالفوائد الجمة التي لا غنى للمسلم العادي إليها قبل الدعاة والخطباء، فكثيرًا ما يحتاج المسلم لقصيدة أو لبيت الشعر لإجلاء المقال، وما أكثر القصائد والموشحات الأندلسية وغير الأندلسية التي حواها هذا الكتاب، وقد استفدت كثيرًا من قراءة هذا الكتاب التاريخي الأدبي، ولكن وجدت أنه طويل به الكثير من الاستطراد الذي يخرج غير المتخصص من تسلسل الأفكار والموضوعات فآثرت الإفادة من هذا الكتاب القيم فجاء هذا المختصر.

ونَفْحُ الطِّيْبِ من عيون مؤلفات المكتبة الأندلسية؛ وعنوان الكتاب الكامل هو: نَفْح الطِّيب من غُصن الأندلس الرَّطِيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. وقد صار الكتاب علمًا لمؤلفه كما أصبح المؤلف علمًا لكتابه؛ فلذلك كثيرًا ما يكتفى بالقول: نفح الطيب للمقري. وهو ارتباط بين المؤلف وكتابه يعيد إلينا أمجاد عيون المؤلفات في المكتبة العربية كابن عبد ربه " وعقده " وابن بسام
" وذخيرته " وابن حزم وطوقه ومن إليهم في المكتبة الأندلسية.

وما عملته في المختصر لا يخرج في الغالب عن أحد الأمور التالية:

١ - استبعاد ما لا ضرورة له مما أشار إليه المقري في بعض الأحيان من الأمور الجغرافية، التي يسهل علي القارئ أن يجدها في الكتب الجغرافية، كما

تم حذف مقدمة المقري بكاملها، علي أساس أنه تناول فيها تاريخ حياته إلى قبيل وفاته، و هذا الأمر تناولناه في مقدمة الاختصار، كما أن المقري نفسه يعيد الحديث عن حياته ورحلته العلمية في ثنايا الكتاب، فآثرت الاكتفاء بالحديث عنها مرة واحدة دون الحاجة إلى التكرار.

٢ - إذا تعددت الروايات التي يوردها المقري - و ما أكثر ها -، تم الاكتفاء بذكر واحدة فقط منها، لاسيما وإن كانت تؤدي الهدف منها دون الحاجة إلى غيرها.

٣ - جرى تخريج الأحاديث الشريفة والتعريف ببعض المصطلحات والكلمات المبهمة والغير واضحة التي وردت في المختصر في بداية العمل في هذا المختصر ولكن وجدت أن هذه الإضافة سوف تخرج المختصر من حجمه المستهدف ولهذا اضطررت - آسفًا - عدم سلوك هذا الدرب.

٤ - الإبقاء ما أمكن على رأي المقري في كثير من الأمور الأدبية والمساجلات الشعرية، ورأيه في بعض الأحداث والأحاديث والتراجم والمواقف السياسية.

٥ - تجريد المختصر من كثير من الاستطرادات والإسهابات التي تخرج غير المتخصص من سياق الأحداث وتسلسل وتتابع الأفكار.

٦ - جرى الاعتماد في عمل المختصر على طبعة دار صادر ببيروت سنة ١٩٩٧ م، بتحقيق إحسان عباس.

٧ - كل ما هو موجود في المختصر من كلام المقري إلا ما أضيف له من واو العطف ونحوها لربط الكلام ببعضه.

أسأل الله التواب الغفور أن يغفر لنا ويرحمنا، ونشهده أنا نحبه ونبيه محمدًا والأنبياء والمؤمنين ونبغض الكافرين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

١ - نبذة عن المقري وكتابه :

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي اليعيش بن محمد التلمساني المقَّري نسبة إلى مقَّرة من قرى تلمسان. مؤرخ أندلسي وُلِد بتلمسان بالجزائر ونشأ بها، انتقل إلى فاس فكان خطيبها والقاضي بها. وكان كثير الأسفار، زار مصر والشام والحجاز أكثر من مرة. واشتهر بمؤلفه " نفح الطيب ". وكتابه " أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض " اتخذ فيه من القاضي عياض نواة حشد حولها المعلومات الأدبية والتاريخية. ولم يكتف بأخبار عصره ومصره، بل استوعب أخبار الأجيال السابقة لجيله.

وكان المقري شديد الإعجاب بشخصيَّة الوزير الغرناطي العالم والأديب لسان الدين بن الخطيب، ومن ثم كان غرضه من هذا المؤلف أن يتناول شخصية ابن الخطيب في كل جوانبها.

وينقسم الكتاب قسمين، وكل قسم في ثمانية أبواب:

فالقسم الأول بأبوابه الثمانية يختص بالأندلس، فيصفها في عمرانها وعاصمتها قرطبة وجامعها والزهراء الناصرية والعامرية، ثم يفرد حديثًا عن الخلافة الأموية بالأندلس وعن قوة الإسلام وسلطانه في شبه الجزيرة الأندلسية.

ونجد في هذا القسم تعريفًا بأعلام الشخصيات الأندلسية، التي رحلت إلى المشرق لإكمال دراستها أو تلقي العلم. وكانت الرحلة إلى المشرق من متطلبات التكوين العلمي والأدبي لأهل الأندلس، كما يذكر أولئك المشارقة الذين وفدوا على الأندلس من أعلام الأدباء والمفكرين. وهذا القسم مليء بالأخبار الطريفة والأشعار الكثيرة، كما تتنوع تراجم الشخصيات الأندلسية فيه بين ملوك وأمراء وقواد ووزراء وشعراء وكتاب وقضاة وفقهاء وزهاد وغيرهم. وأهم ما يميز هذا القسم غلبة الطابع الأدبي عليه.

أما القسم الثاني بأبوابه الثمانية فمخصص لابن الخطيب، يتحدث فيه

المَقَّري عن أصله ونشأته وثقافته ومناصبه ورحلاته، كما يعرض لتلاميذه ومريديه وأصدقائه وندمائه وحاسديه وأعدائه.

وأهمية هذا القسم أنه حفظ قدرًا طيبًا من تراث ابن الخطيب النثري، كما حفظ شعره وموشحاته وأزجاله.

وتعد مقدمة الكتاب من معالم النثر الأدبي للمَقَّري. فهي أقرب ما تكون إلى ما عرف بأدب الرحلة، إذ يتحدث فيها عن رحلته من المغرب إلى مصر، برًّا وبحرًا، ويصف ما عاناه من أهوال الرحلة ثم زيارته للبيت الحرام ووصوله بعد ذلك إلى مصر. وخلال كل ذلك يصف ما اعتراه من شوق وما عاناه من وجد وهو بعيد عن بلده يصطلي بالحنين إليها.

كما تحفل المقدمة بطائفة من الشعر له ولغيره في وصف الوطن وحرقة البعد عنه، حتى أضحت المقدمة سفرًا قيمًا في أدب الرحلة وأدب الديار.

وأسلوب النفح مشرق وجذاب، وإن غلب عليه السجع، ذلك أن المقري كان يتشبه في أسلوبه بلسان الدين ابن الخطيب. كما كانت الاستطرادات، لكثرتها، مشتتة لذهن القارئ، بجانب أن بعض الأخبار تتكرر في أكثر من موضع. ومن إيجابيات الكتاب اعتماد المقري أسلوب الرواية فيما يورده من أخبار، فيرجع كل خبر إلى أصله وكل شعر إلى مصدره. ويعد " نفح الطيب " من آخر الموسوعات العربية الكبرى والمتخصصة في التراث الإسلامي الأندلسي؛ لعنايته بالجانب التاريخي السياسي وبأدب الرحلة والبلدان والترجمات وذكر الحروب، كما عكس الأسى والأسف لضياع الأندلس إذ أن الكتاب كُتب وما يزال الجرح نازفًا.

السبب وراء تأليف المقري لكتابه نفح الطيب:

١ - إعجابه بلسان الدين ابن الخطيب، بحيث يقلده في طريقته الإنشائية ويحفظ الكثير من رسائله وشعره، كان كفيلاً بدفعه إلى كتابة مؤلف عنه،

وخاصة لإحساسه بالغربة والوحشة اللتين أحس بهما (مثله الأعلى) حينما لجأ إلى المغرب.

٢ - أن مثل هذا الكتاب كان كفيلاً بأن ينفس عنه كربه، ويعود به من خلال أشعار الحنين ومن خلال التاريخ الماضي والقريب إلى وطنه، عودة نفسية وروحية.

٣ - أن المنهج للتأليف في لسان الدين كان سهلاً مفتوح المسارب أمام عينيه لأنه قد مارس مثل هذا المنهج حينما كتب عن القاضي عياض كتاباً سماه (أزهار الرياض).

٤ - أن انفصام آخر الروابط الإسلامية من الأندلس لم يكن قد مضى عليه إلا سنوات، فكانت صورة (المأساة) ما تزال تلح على مخيلة المقري، وكان الربط بين الماضي والحاضر من الأمور التي تعين على التذكر والتذكير والعبرة في آن واحد؛ وكل من قرأ (نفح الطيب) بتأمل، سيشعر بهذه الناحية، ويكفينا مثلاً على ذلك تلك الوقفة الطويلة التي وقفها المقري وهو يستعيد صورة المنصور بن أبي عامر الذي يمثل البطولة العربية بالأندلس في أوجها.

٥ - كان المقري كغيره من المغاربة يحس مدى إهمال المشارقة للتراث الأندلسي والمغربي، وكان ذلك الإهمال في القديم للاعتداد بالثقافة المشرقية، أما في عصر المقري فكان سببه ضعف الثقافة عامة، وحسبك أن تجد لسان الدين - وهو من هو في المغرب والأندلس - محتاجاً إلى من يعرف المشارقة به ويحدثهم عن أخباره؛ ولهذا وجد المقري أن كتابه مؤلف جامع شامل يحقق هذا الغرض، وكان في البدء يزمع أن يقصره على لسان الدين، ثم وجد أن صورة لسان الدين لا يمكن أن تتضح إلا على محمل من التطور الأدبي والسياسي في الأندلس. وفي الوقت نفسه كان الكتاب يحقق تبيان الصلة الثقافية بين المشرق والمغرب، ولهذا خصص جزءاً كبيراً من كتابه للرحلتين: رحلة المغاربة إلى الشرق ورحلة المشارقة إلى الأندلس والمغرب، وفي هذه الناحية الثانية كان

المقري يحس أنه حلقة في تلك السلسلة الطويلة، وكأنه في مقدمة الكتاب وفي بعض فصوله الأخرى سجل طرفاً من رحله، كما سجل أسلافه من قبل أخبار تنقلاتهم. وبذلك أسعفه مؤلفه هذا على أن يحقق ما قد نسميه (نزعة مغربية) وهي نزعة لا تقتصر على الرحلة وإنما كانت تشمل نقل التراث المغربي الخالص والأندلسي إلى المشارقة.

٦ - كان تأليف " نفح الطيب " بمثابة وعد كان المقري قد قطعه على نفسه وأنجزه، فقد حدث تلامذته فيها عن لسان الدين ومكانته السياسية والأدبية فأثار في نفوسهم حب الاستطلاع إلى مزيد من البيان عنه، وكان أحمد الشاهيني المدرس بالجقمقية أشدهم إلحاحاً في ذلك، ولهذا نزل المقري عند رغبته ووعده، وكان في البداية يزمع أن يسميه (عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب) فلما رأى أن المادة التي اجتمعت لديه قد استفاضت بحيث شملت تاريخ الأندلس وأدبها غير اسم الكتاب وجعله (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب). وعلى هذا النحو أصبح الكتاب قسمين: قسم خاص بالأندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين وما يتعلق به من شئون. وفي كل قسم من هذين القسمين ثمانية فصول.

وقد طبع النفح عدة طبعات في المشرق كان أولها طبعة بولاق سنة ١٢٧٩، ثم كان آخر الطبعات المشرقية طبعة المكتبة التجارية بإشراف الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٤٩).

- مؤلفات المقري:

١ - روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس.

٢ - أزهار الرياض في أخبار عياض.

٣ - إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة.

٤ - إتحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى.

٥ - أجوبة على مسائل أرسلها إليه أستاذه محمد بن أبي بكر الدلائي سماها " إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس ".

٦ - حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي.

٧ - عرف النشق من أخبار دمشق.

٨ - شرح مقدمة ابن خلدون.

٩ - قطف المهتصر في شرح المختصر، شرح على حاشية مختصر خليل.

١٠ - فتح المتعال في مدح النعال.

١١ - وكان المقري قد ختم كتابه السابق برجز في النعال الشريفة ثم أفرده في نسخة بعث بها إلى شيخه الدلائي ولعله المسمى " النفحات العنبرية في نعل خير البرية ".

١٢ - وللمقري أراجيز كثيرة أخرى منها " أزهار الكمامة في شرف العمامة ".

١٣ - والدر الثمين في أسماء الهادي الأمين.

١٤ - ورجز " نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط ".

١٥ - البلدة والنشأة.

١٦ - الغث والسمين والرث والثمين.

١٧ - حسن الثنا في العفو عمن جنى.

١٨ - الأصفياء.

١٩ - الشفاء في بديع الاكتفاء.

٢٠ - القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية.

٢١ - النمط الأكمل في ذكر المستقبل.

٢٢ - أرجوزة في الإمامة.

٢٣ - نظم في علم الجدول.

٢٤ - وذكر في النفح أنه كان يزمع تأليف كتاب في تلمسان يسميه: (أنواء نيسان في أنباء تلمسان) ويبدو أنه لم يحقق ذلك.

٢٥ - شرح له على قصيدة (سبحان من قسم الحظوظ).

٢٦ - ونسبت له المصادر كتاب (الجمان من مختصر أخبار الزمان).

٢٧ - رسالة (إتحاف أهل السيادة بضوابط حروف الزيادة).

٢٨ - وأخيراً كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) موضوع الاختصار.

وفيما كان يزمع الهجرة من مصر ليستوطن الشام، وافته منيته في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ.

وأترك القارئ الكريم مع " المقري " وكتابه " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ".

* * *

القسم الأول

فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المترعة والأكـــواب، والأنبـــاء المنتحية صوب الصواب الرافلـــة من الإفادة في سوابغ الأثـــواب، وفيـــه - بحســـب القصـــد والاختصار، وتحري التوســـط في بعض المواضع دون الاختصار - ثمانية من الأبواب

الباب الأول

في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها، واشتمالها على كثيرٍ من المحاسن واحتوائها، وكرم بقعتها التي سقتها سماء البركات بنافع أنوائها، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصور، وتعداد كثيرٍ مما لها من البلدان والكور، المستمدة من أضوائها

الباب الأول:

في وصف جزيرة الأندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها

ووفور خيراتها واستوائها، واشتمالها على كثيرٍ من المحاسن واحتوائها، وكرم بقعتها التي سقتها سماء البركات بنافع أنوائها، وذكر بعض مآثرها المجلوّة الصور، وتعداد كثيرٍ مما لها من البلدان والكور، المستمدة من أضوائها

فأقول: محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة، ومجاري فضلها لا يشق غباره، وأنّى تجارى وهي الحائزة قصب السّبق، في أقطار الغرب والشرق.

* * *

مقدمات عامة في مزايا الأندلس

قال ابن سعيدٍ: إنّما سميت بأندلس بن طوبالٍ بن يافثٍ بن نوحٍ، لأنّه نزلها، كما أن أخاه سبت بن يافثٍ نزل العدوة المقابلة لها، وإليه تنسب سبتة. قال: وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي، لأنّهم إمّا عربٌ أو متعربون.

وقال ابن غالبٍ: إنّه أندلس بن يافثٍ، والله تعالى أعلم.

وقال الوزير لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى - في بعض كلامٍ له أجرى فيه ذكر البلاد الأندلسية، أعادها الله تعالى للإسلام ببركة المصطفى عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام، ما نصّه: خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرّيع وغدق السّقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحّة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدّن والاعتمار، بما حرمه الكثير من الأقطار ممّا سواها.

قال أبو عامرٍ السالمي، في كتابه المسمى بـ " درر القلائد وغرر الفوائد ": الأندلس من الإقليم الشامي، وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواءً وتراباً، وأعذبها

ماءً وأطيبها هواءً وحيواناً ونباتاً، وهو أوسط الأقاليم، وخير الأمور أوسطها، انتهى.

قال أبو عبيدٍ البكري: الأندلس شاميةٌ في طيبها وهوائها، يمانيةٌ في اعتدالها واستوائها، هنديةٌ في عطرها وذكائها، أهوازيةٌ في عظم جبايتها، صينيةٌ في جواهر معادنها، عدنيةٌ في منافع سواحلها، فيها آثارٌ عظيمةٌ لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة، وكان من ملوكهم الذين أثّروا الآثار بالأندلس هرقلس، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جلّيقية، والأثر في مدينة طرّكونة الذي لا نظير له.

* * *

مساحتها وأبعادها

قال المسعودي: بلاد الأندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحوًا من أربعين مدينة.

ونحوه لابن اليسع إذ قال: طولها من أربونة إلى أشبونة وهو قطع ستين يوماً للفارس المجدّ، وانتقد بأمرين: أحدهما أنّه يقتضي أن أربونة داخلةٌ في جزيرة الأندلس، والصحيح أنها خارجةٌ عنها، والثاني أن قوله: ستين يوماً للفارس المجدّ إعياءٌ وإفراطٌ، وقد قال جماعة: إنّها شهرٌ ونصف.

قال ابن سعيدٍ: وهذا يقرب إذا لم يكن للفارس المجدّ، والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهرٍ، وكذا قال الحجاري، وقد سألت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حساباً بالمراحل الجيدة أفضى إلى نحو شهرٍ بذيفٍ قليلٍ.

قال الحجاري في موضع من كتابه: إن طول الأندلس من الحاجز إلى أشبونة ألف ميلٍ ونيفٍ؛ انتهى.

وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاححة، كما قاله ابن سعيدٍ، وأطال في

ذلك، ثم قال بعد كلامٍ: ومسافة الحاجز الذي بين بحر الزّقاق والبحر المحيط أربعون ميلاً، وهذا عرض الأندلس عند رأسها من جهة الشرق، ولقلّته سميت جزيرة وإلاّ فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالأرض الكبيرة، وعرض جزيرة الأندلس في متوسطها عند طليطلة ستة عشر يوماً. واتفقوا على أن جزيرة الأندلس مثلثة الشكل، واختلفوا في الركن الذي في الشرق والجنوب في حيز أربونة، فممن قال: إنّه في أربونة وإن هذه المدينة تقابلها مدينة برذيل التي في الركن الشرقي الشمالي أحمد بن محمدٍ الرازي وابن حيّان، وفي كلام غيرهما أنّه في جهة أربونة، وحقق الأمر الشريف، وهو أعرف تلك الجهة لتردده في الأسفار برّاً وبحراً إليها وتفرّغه لهذا الفن.

قال ابن سعيد: وسألت جماعةً من علماء هذا الشأن فأخبروني أن الصحيح ما ذهب إليه الشريف، وأن أربونة وبرشلونة غير داخلتين في أرض الأندلس، وأن الركن الموفي على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطرّكونة في موضعٍ يعرف بوادي رنلقاطو، وهنالك الحاجز الذي يفصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة، وفي هذا المكان جبل ألبرت الفاصل في الحاجز المذكور وفيه الأبواب التي فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل، ولم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريقٌ في البر. وذكر الشريف أن هذه الأبواب يقع في مقابلتها في بحر الزقاق البحر الذي بين جزيرتي ميورقة ومنورقة، وقد أخبر بذلك جمهور المسافرين لتلك الناحية، ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبي والركن الشمالي أربعون ميلاً.

قال: وشمال الركن المذكور عند مدينة برذيل، وهي من مدن الإفرنجة مطلة على البحر المحيط في شماليّ الأندلس، قال: ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن إلى الشمال في بلاد الفرنجة، ولهم به جزائر كثيرة. وذكر أن الركن الشمالي عند شنت ياقوه من ساحل الجلالقة في شمال الأندلس الغربي، حيث تبتدئ جزيرة بريطانية الكبيرة فيتصوّر هنالك بحرٌ داخلٌ بين أرضين، من

الناس من يجعله بحراً منفرداً خارجاً من البحر المحيط لطوله إلى الركن المتقدم الذكر عند مدينة برذيل.

وذكر الشريف أن عند شنت ياقوه في هذا الركن المذكور على جبلٍ بمجمع البحرين صنماً مطلاًّ مشبهاً بصنم قادس.

والركن الثالث بمقربةٍ من جبل الأغر حيث صنم قادس، والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط مارّاً مع ساحل الأندلس الجنوبي إلى جبل ألبرت المذكور، انتهى؛ والكلام في مثل هذا طويل الذيل.

قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي: بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكماء بلدٌ كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجناب، منبجس بالأنهار الغزار والعيون العذاب، قليل الهوامّ ذوات السّموم، معتدل الهواء والجوّ والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدرٍ من الاعتدال، وسطةٌ من الحال، لا يتولد في أحدها فضلٌ يتولّد منه فيما يتلوه انتقاصٌ، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقةً غير مفقودةٍ، أمّا الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره، وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره، فمادة الخيرات بالبلد متماديةٌ في كل الأحيان، وفواكهه على الجملة غير معدومةٍ في كل أوانٍ؛ وله خواصٌّ في كرم النبات يوافق في بعضها أرض الهند المخصوصة بجواهر الإنبات: منها أن المحلب؟ وهو المقدّم في الأفاويه والمفضّل في أنواع الأشنان؟ لا ينبت بشيءٍ من الأرض إلا بالهند والأندلس؛ والأندلس المدن الحصينة، والمعاقل المنيعة، والقلاع الحريزة، والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر، والسهل والوعر، وشكلها مثلثٌ، وهي معتمدةٌ على ثلاثة أركان: الأول هو الموضع الذي فيه صنم قادس المشهور بالأندلس، ومنه مخرج البحر المتوسط الشامي الآخذ بقبليّ الأندلس، والركن الثاني هو بشرقي الأندلس بين مدينة نربونة ومدينة برذيل مما بأيدي

الفرنجة اليوم بإزاء جزيرتي ميورقة ومنورقة بمجاورةٍ من البحرين: البحر المحيط والبحر المتوسط، وبينهما البر الذي يعرف بالأبواب، وهو المدخل إلى بلد الأندلس من الأرض الكبيرة على بلد إفرنجة، ومسافته بين البحرين مسيرة يومين، ومدينة نربونة تقابل البحر المحيط، والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جلّيقيّة، حيث الجبل الموفي على البحر، وفيها الصنم العالي المشبه بصنم قادس، وهو الطالع على بلدٍ بريطانيةٍ.

قال: والأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها: أندلسٌ غربيٌّ، وأندلسٌ شرقيٌّ، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي، ويمطر بالرياح الغربية، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمريّة طالعاً إلى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلاً إلى الغرب ومجاوراً للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنّة الحلفاء التي من بلد لورقة، والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى، وتجري أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية، وهو من حدّ جبل البشكنس، هابطاً مع وادي إبره إلى بلد شنت مرية، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلة منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام، وهو البحر المسمّى ببحر تيران، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض، ويسمى البحر الكبير، انتهى.

قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام: بلد الأندلس عند علماء أهله أندلسان: فالأندلس الشرقي منه ما صبّت أوديته إلى البحر الرومي المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس إلى المشرق، وذلك ما بين مدينة تدمير إلى سرقسطة، والأندلس الغربي ما صبّت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل ذلك الحدّ إلى ساحل المغرب، فالشرقي منهما يمطر بالريح الشرقية، ويصلح عليها، والغربي يمطر بالريح الغربية وبها صلاحه، وجباله هابطةٌ إلى الغرب جبلاً بعد جبلٍ. وإنّما قسمته الأوائل جزأين لاختلافهما

في حال أمطارهما، وذلك أنّه مهما استحكمت الريح الغربيّة كثر مطر الأندلس الغربي وقحط الأندلس الشرقي، ومتى استحكمت الريح الشرقية مطر الأندلس الشرقي وقحط الغربي؛ وأودية هذا القسم تجري من الشرق إلى الغرب بين هذه الجبال. وجبال الأندلس الغربي تمتدّ إلى الشرق جبلاً بعد جبلٍ تقطع من الجوف إلى القبلة، والأودية التي تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها إلى القبلة وبعضها إلى الشرق، وتنصبّ كلّها إلى البحر المتوسط للأندلس القاطع إلى الشام، وهو البحر الرومي، وما كان من بلاد جوفي الأندلس من بلادٍ جلّيقيّةٍ وما يليها فإن أوديته تنصبّ إلى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف. وصفة الأندلس شكلٌ مركنٌ على مثال الشكل المثلث: ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس، وركنها الثاني في بلدٍ جليّقيّةٍ حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرةٍ بريطانيةٍ، وركنها الثالث بين مدينة نربونة ومدينة برذيل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامي المتوسط، فيكادان يجتمعان في ذلك الموضع، فيصير بلد الأندلس جزيرةٌ بينهما في الحقيقة، لولا أنّه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب، منه المدخل إلى الأرض الكبيرة التي يقال لها: الأبواب، ومن قبله يتصل بلد الأندلس بتلك البلاد المعروفة بالأرض الكبيرة ذات الألسن المختلفة.

* * *

الأمم التي استوطنت الأندلس

وأوّل من سكن الأندلس على قديم الأيام فيما نقله الإخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قومٌ يعرفون بالأندلش - معجمة الشين - بهم سمّي المكان، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة، كانوا الذين عمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهراً، على دين التمجس والإهمال والإفساد في الأرض، ثم أخذهم الله بذنوبهم، فحبس المطر عنهم، ووالى القحط عليهم، وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها، وغارت عيونها، ويبست أنهارها، وبادت

أشجارها، فهلك أكثرهم، وفرّ من قدر على الفرار منهم، فأقفرت الأندلس منهم، وبقيت خاليةً فيما يزعمون مائة سنةٍ وبضع عشرة سنة، وذلك من حدّ بلد الفرنجة إلى حدّ بحر الغرب الأخضر، وكان عدّة ما عمرتها هذه الأمة البائدة مائة عامٍ وبضع عشرة سنة. ثمّ ابتعث الله لعمارتها الأفارقة، فدخل إليها بعد إقفارها تلك المدّة الطويلة قومٌ منهم أجلاهم ملك إفريقية تخففاً منهم لإمحالٍ توالى على أهل مملكته، وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم، فحمل منهم خلقاً في السفن مع قائدٍ من قبله يدعى أبطريقس فأرسوا بريف الأندلس الغربي، واحتلوا بجزيرة قادس، فأصابوا الأندلس قد أمطرت وأخصبت، فجرت أنهارها، وانفجرت عيونها، وحيت أشجارها، فنزلوا الأندلس مغتبطين، وسكنوها معتمرين، وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا في عمارة الأرض ما بين الساحل الذي أرسوا فيه بغربيها إلى بلد الإفرنجة من شرقيها، ونصّبوا من أنفسهم ملوكاً عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على إقامة دولتهم، وهم - مع ذلك - على ديانة من قبلهم من الجاهلية، وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من أرض إشبيلية اخترعها ملوكهم وسكنوها، فاتسق ملكهم بالأندلس مائة وسبعة وخمسين عاماً إلى أن أهلكهم الله تعالى، ونسخهم بعجم رومة، بعد أن ملك من هؤلاء الأفارقة في مدّتهم تلك أحد عشر ملكاً. ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة وملكهم إشبان بن طيطش، وباسمه سميت الأندلس إشبانية، وذكر بعضهم أن اسمه أصبهان فأحيل بلسان العجم، وقيل: بل كان مولده بأصبهان فغلب اسمها عليه، وهو الذي بنى إشبيلية، وكان إشبانية اسماً خالصاً لبلد إشبيلية الذي كان ينزله إشبان هذا، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كلّه، فالعجم إلى الآن يسمونه إشبانية لآثار إشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدّنيا فيما زعموا، وكان غزا الأفارقة عندما سلّطه الله عليهم في جموعه، ففض عساكرهم، وأثخن فيهم، ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها منه، فابتنى عليهم مدينة إشبيلية اليوم، واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها الله عليه، وغلبهم، واستوت له مملكة الأندلس بأسرها، ودان له من فيها، فهدم

مدينة طالقة، ونقل رخامها وآلاتها إلى مدينة إشبيلية، فاستتم بناء ها، واتخذها دار مملكته، واستغلظ سلطانه في الأرض، وكثرت جموعه، فعلا وعظم عتوّه، ثم غزا إيليا - وهي القدس الشريف - من إشبيلية بعد سنتين من ملكه، خرج إليها في السفن فغنمها وهدمها، وقتل فيها من اليهود مائة ألفٍ، واسترق مائة ألف وانتقل رخام إيليا وآلاتها إلى الأندلس، وقهر الأعداء، واشتد سلطانه. انتهى.

وذكر بعض المؤرخين أن الغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقليلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر إنّما كانت ممّا صار لصاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس، إذ حضر فتحها مع بختنصر، وكان اسم ذلك الملك بريان، وفي سهمه وقع ذلك ومثله ممّا كانت الجن تأتي به نبيّ الله سليمان، على نبيّنا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام. انتهى.

وقال غير واحدٍ من المؤرخين: كان أهل المغرب الأقصى يضرّون بأهل الأندلس، لاتصال الأرض، ويلقون منهم الجهد الجهيد في كل وقتٍ، إلى أن اجتاز بهم الإسكندر، فشكوا حالهم إليه، فأحضر المهندسين، وحضر إلى الزقاق، فأمر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامي، فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامي بشيء يسير، فأمر برفع البلاد التي على ساحل البحر الشامي، ونقلها من الحضيض إلى الأعلى، ثمّ أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الأندلس من الأرض، فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية، وبنى عليها رصيفاً بالحجر والجيار بناءً محكماً وجعل طوله اثني عشر ميلاً، وهي المسافة التي كانت بين البحرين، وبنى رصيفاً آخر يقابله من ناحية طنجة، وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميالٍ، فلمّا كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الأعظم، وأطلق فم الماء بين الرصيفين، فدخل في البحر الشامي، ثم فاض ماؤه فأغرق

مدناً كثيرةً، وأهلك أمماً عظيمةً كانت على الشطين، وطفا الماء على الرصيفين إحدى عشرة قامةٍ، فأمّا الرصيف الذي يلي بلاد الأندلس فإنّه يظهر في بعض الأوقات إذا نقص الماء ظهوراً بيّناً مستقيماً على خطٍ واحدٍ، وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة، وأما الرصيف الذي من جهة العدوة فإن الماء حمله في صدره، واحتفر ما خلفه من الأرض اثني عشر ميلاً، وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسبتة وطنجة، وعلى طرفه من الناحية الأخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء، وبين سبتة والجزيرة الخضراء عرض البحر. انتهى ملخصاً، وقد تكرّر بعضه مع ما جلبناه، والعذر بيّنٌ لارتباط الكلام بعضه ببعضٍ.

قال ابن حيّان في المقتبس: ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف بإشبان المذكور وهو يحرث الأرض بفدنٍ له أيام حراثته، فقال له: يا إشبان، إنّك لذو شانٍ، وسوف يحظيك زمانٌ، ويعليك سلطانٌ، فإذا أنت غلبت على إيليا فارفق بذرية الأنبياء، فقال له إشبان: أساخرٌ رحمك الله؟ أنّى يكون هذا مني وأنا ضعيفٌ ممتهنٌ حقيرٌ فقيرٌ ليس مثلي ينال السلطان؟ فقال له: قد قدّر ذلك فيك من قدّر في عصاك اليابسة ما تراه، فنظر إشبان إلى عصاه، فإذا بها قد أورقت، فريع لما رأى من الآية، وذهب الخضر عنه، وقد وقع الكلام بخلده، ووقرت في نفسه الثقة بكونه، فترك الامتهان من وقته، وداخل الناس، وصحب أهل البأس منهم، وسما به جدّه فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً، وكان منه ما كان. ثم أتى عليه ما أتى على القرون قبله، وكان ملكه كلّه عشرين سنةً، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً.

ثمّ دخل على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمّة يدعون البشتولقات، وملكهم طلوبش بن بيطه، وذلك زمن بعث المسيح ابن مريم عليه السلام، أتوا الأندلس من قبل رومة، وكانوا يملكون إفرنجة معها، ويبعثون عمالهم إليها،

فاتخذوا دار مملكتهم بالأندلس مدينة ماردة، واستولوا على مملكة الأندلس، واتصل ملكهم بها مدّة إلى أن ملك منهم سبعةٌ وعشرون ملكاً.

ثم دخل على هؤلاء البشتولقات أمة القوط مع ملكٍ لهم، فغلبوا على الأندلس، واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة، وتفرّدوا بسلطانهم، واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم، وأقروا بها سرير ملكهم، فبقي بإشبيلية علم الإشبانيين ورياسة أوليتهم.

وقد كان عيسى المسيح عليه السلام، بعث الحواريين في الأرض يدعون الخلق إلى ديانته، فاختلف الناس عليهم، وقتلوا بعضهم، واستجاب لهم كثيرٌ منهم، وكان من أسرعهم إجابةً لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش ملك القوط، فتنصر، ودعا قومه إلى النصرانية، وكان من صميم أعاظمهم وخير من تنصر من ملوكهم، وأجمعوا على أنّه لم يكن فيهم أعدل منه حكماً، ولا أرشد رأياً، ولا أحسن سيرةً، ولا أجود تدبيراً، فكان الذي أصّل النصرانية في مملكته، ومضى أهلها على سنّته إلى اليوم، وحكموا بها، والإنجيلات في المصاحف الأربعة التي يختلفون فيها من انتساخه وجمعه وتثقيفه، فتناسقت ملوك القوط بالأندلس بعده إلى أن غلبتهم العرب عليها، وأظهر الله تعالى دين الإسلام على جميع الأديان.

فوقع في تواريخ العجم القديمة أن عدّة ملوك هؤلاء القوط بالأندلس من عهد أتاناوينوس الذي ملك في السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصري لمضي أربعمائةٍ وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم إلى عهد لذريق آخرهم الذي ملك في السنة التاسعة والأربعين وسبعمائةٍ من تاريخ الصفر، وهو الذي دخلت عليه العرب فأزالت دولة القوط، ستةٌ وثلاثون ملكاً، وأن مدّة أيام ملكهم بالأندلس ثلاثمائةٍ واثنتان وأربعون سنةً، انتهى.

وقال جماعة: إن القوط غير البشتولقات، وإن البشتولقات من عجم رومة، وإنهم جعلوا دار ملكهم ماردة، واتصل ملكهم إلى أن ملك منهم سبعةٌ وعشرون

ملكاً، ثم دخل عليهم القوط، واتخذوا طليطلة دار مملكةٍ، ثم ذكر تنصر ملكهم خشندش مثل ما تقدّم، ثم ذكر أن عدّة ملوك القوط ستةٌ وثلاثون ملكاً.

وذكر الرازي أن القوط من ولد يأجوج بن يافث بن نوح، وقيل غير ذلك، انتهى.

* * *

مناخها وخيراتها

وقال الرازي في موضعٍ آخر نحو ما تقدم وزيادة، ونصّه: أن الأندلس في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي هي ربع معمور الدنيا فهي موسطةٌ من البلدان، كريمة البقعة، بطبع الخلقة، طيبة التربة، مخصبة القاعة، منبجسة العيون الثّرار، منفجرة بالأنهار الغزار، قليلة الهوام ذوات السموم، معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبدان وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال وتوسّط من الحال، وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم، لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكوره، كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصّها برد الهواء وكثافة الجوّ تستأخر بما فيها من ذلك، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان، فمادة الخيرات فيها متصلةٌ كلّ أوانٍ. ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدّم على أجناسه في الطيب والصبر على النار، وبها شجر المحلب المعدود في الأفاويه المقدم في أنواع الأشنان كثيرٌ واسعٌ، وقد زعموا أنّه لا يكون إلا بالهند وبها فقط، ولها خواصٌ نباتيةٌ يكثر تعدادها، انتهى.

وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال: يوجد في ناحية دلاية من إقليم البشرة عود الألنجوج، لا يفوقه العود الهندي ذكاءً وعطر رائحةٍ، وقد سيق منه إلى خيران الصقلبي صاحب المرية، وأن أصل منبته كان بين أحجارٍ هنالك، وبأكشونبة جبلٌ كثيراً ما يتضوّع، ريحه ريح العود الذكي إذا أرسلت فيه النار، وببحر شذونة يوجد العنبر الطيب الغربي، وفي جبل منت ليون المحلب، ويوجد بالأندلس القسط الطيب، والسنبل الطيب، والجنطيانة تحمل من الأندلس إلى جميع الآفاق، وهو عقارٌ رفيعٌ، والمر الطيب بقلعة أيوب، وأطيب كهرباء الأرض بشذونة، درهمٌ منها يعدل دراهم من المجلوبة، وأطيب القرمز قرمز الأندلس، وأكثر ما يكون بنواحي إشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية، ومن الأندلس يحمل إلى الآفاق، وبناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد،

وقد يوجد في غيرها، وعلى مقربة من حصن لورقة من عمل قرطبة معدن البلور، وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي يبره، والحجر البجادي يوجد بناحية مدينة الأشبونة في جبلٍ هنالك يتلألأ فيه ليلاً كالسراج، والياقوت الأحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مالقة إلاّ أنّه دقيق جدّاً لا يصلح للاستعمال لصغره، ويوجد حجرٌ يشبه الياقوت الأحمر بناحية بجّانة في خندق يعرف بقرية ناشرة أشكالاً مختلفةً كأنّه مصبوغٌ، حسن اللون، صبور على النار، وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير، وحجر الشاذنة بجبل قرطبة كثير، ويستعمل في ذلك التذاهيب، وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت، وهو أنفع شيءٍ للحصاة، وحجر المرقشيثا الذهبية في جبال أبّذة لا نظير لها في الدنيا، ومن الأندلس تحمل إلى جميع الآفاق لفضلها، والمغنيسيا بالأندلس كثير، وكذلك حجر الطّلق، ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشلونة إلاّ أنّه جامد اللون، ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية، أقلّ ما لقط منه من شهر نحو ثمانين ربعاً، ومعدن الذهب بنهر لاردة يجمع منه كثير، ويجمع أيضاً في ساحل الأشبونة، ومعادن الفضة في الأندلس كثيرةٌ في كورة تدمير وجبال حمّة بجّانة، وبإقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل، وبأكشونبة معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضّة، وله معادن بناحية إفرنجة وليون، ومعدن الزئبق في جبل البرانس، ومن هنالك يتجهز به إلى الآفاق، ومعادن الكبريت الأحمر والأصفر بالأندلس كثيرةٌ، ومعدن التوتيا الطبية بساحل إلبيرة بقرية تسمى بطرنة، وهي أزكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس، وبجبال قرطبة توتيا، وليست كالبطرينة، ومعدن الكحل المشبه بالأصفهاني بناحية مدينة طرطوشة يحمل منها إلى جميع البلاد، ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى، وما ذكرت هنا وإن تكرّر بعضه مع ما سبق أو يأتي فهو لجمع النظائر، وما لم نذكره أكثر، والله تعالى أعلم.

ومن خواص طليطلة: أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوّس على طول السنين،

يتورثها الخلف عن السلف، وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق إلى الآفاق، وكذلك الصبغ السماوي، انتهى.

وقال المسعودي في " مروج الذهب " بعد كلامٍ ما نصّه: والعنبر كثيرٌ ببحر الأندلس، يجهز إلى مصر وغيرها، ويحمل إلى قرطبة من ساحلٍ لها يقال له: شنترين وشذونة، تبلغ الأوقية منه بالأندلس ثلاثة مثاقيلٍ ذهباً، الأوقية بالبغدادي وتباع بمصر بعشرة دنانير، وهو عنبرٌ جيّدٌ، ويمكن أن يكون هذا العنبر الواقع إلى بحر الروم ضربته الأمواج من بحر الأندلس إلى هذا البحر لاتصال الماء. وبالأندلس معدنٌ عظيمٌ للفضّة، ومعدنٌ للزئبق ليس بالجيّد يجهز إلى سائر بلاد الإسلام والكفر، وكذلك يحمل من بلاد الأندلس الزعفران وعروق الزنجبيل وأصول الطيب خمسة أصناف: المسك، والكافور، والعود، والعنبر، والزعفران، وكلها تحمل من أرض الهند وما اتصل بها إلاّ الزعفران والعنبر، انتهى، وهو وإن تكرّر مع ما ذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدةٍ، والله تعالى أعلم.

وذكر البعض أن في بعض بلاد الأندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهي: الرصاص من زحل، والقصدير الأبيض من المشتري، والحديد من قسم المريخ، والذهب من قسم الشمس، والنحاس من الزهرة، والزئبق من عطارد، والفضة من القمر.

* * *

شيءٌ عن غرناطة وأعمالها

ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة، وقيل: إن الصواب أغرناطة - بالهمز - ومعناه بلغتهم الرّمّانة، وكفاها شرفاً ولادة لسان الدين بها.

وقال الشقندي: أما غرناطة فإنها دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، ولم تخل من أشراف أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل،

انتهى؛ ولو لم يكن لها إلى ما خصّها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها.

وفي بعض كلام لسان الدين ما صورته: وما لمصر تفخر بنيلها وألفٌ منه في شنيلها؟ يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف، فقولنا شنيل إذا اعتبرنا عدد شينه أن كان ألف نيل، انتهى؛ وفيها قيل:

غرناطة ما لها نظيرٌ ::: ما مصر ما الشام ما العراق؟
ما هي إلا العروس تجلى ::: وتلك من جملة الصّداق

وتسمى كورة إلبيرة التي منها غرناطة، دمشق، لأن جند دمشق نزولها عند الفتح، وقيل: وإنما سميت بذلك لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار، وكثرة الأشجار، حكاه صاحب مناهج الفكر، قال: ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس انتقل أهلها إليها فصارت المصر المقصود، والمعقل الذي تنضوي إليه العساكر والجنود. ويشقّها نهرٌ عليه قناطر يجاز عليها، وفي قبليها جبل شلير، وهو جبلٌ لا يفارقه الثلج صيفاً وشتاءً، وفيه سائر النبات الهندي، لكن ليس فيه خصائصه، انتهى.

ومن أعمال غرناطة قطر لوشة، وبها معدن للفضة جيدٌ، ومنها، أعني لوشة، أصل لسان الدين بن الخطيب. وهذا القطر ضخمٌ ينضاف إليه من الحصون والقرى كثيرٌ، وقاعدته لوشة، بينها وبين غرناطة مرحلة، وهي ذات أنهارٍ وأشجارٍ، وهي على نهر غرناطة الشهير بشنيل.

ومن أعمال غرناطة الكبار عمل باغه، والعامة يقولون بيغه، وإذا نسبوا إليه قالوا: بيغي، وقاعدته باغه طيبة الزرع، كثيرة الثمار، غزيرة المياه، ويجود فيها الزعفران.

ومن أعمال غرناطة وادي آش، ويقال: وادي الأشات. وهي مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين والأنهار، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر، وفيها يقول أبو الحسن بن نزار:

وادي الأشات يهيج وجدي كلّما ::: أذكرت ما قضّت بك النعماء
لله ظلّك والهجير مسلّطٌ ::: قد بردّت لفحاته الأنداء
والشمس ترغب أن تفوز بلحظةٍ ::: منه فتطرف طرفها الأفياء
والنهر يبسم بالحباب كأنّه ::: سلخٌ نضته حيّةٌ رقشاء
فلذاك تحذره الغصون فميلها ::: أبداً على جنباته إيماء

ومن أعمال وادي آش حصن جليانة، وهو كبيرٌ يضاهي المدن، وبه التفاح الجلياني الذي خص الله به ذلك الموضع، يجمع عظم الحجم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والذقاء، وبين الحصن المذكور ووادي آش اثنا عشر ميلاً.

ومن غرائب الأندلس أن به شجرتين من شجر القسطل، وهما عظيمتان جدّاً إحداهما بسند وادي آش والأخرى ببشرة غرناطة، في جوف كل واحدةٍ منهما حائكٌ ينسج الثياب، وهذا أمرٌ مشهورٌ قاله أبو عبد الله بن جزيّ وغيره.

وكانت إلبيرة هي المدينة قبل غرناطة، فلمّا بنى الصّنهاجي مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس إليها، ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بعده.

* * *

شهرة سرقسطة وبرجة ومالقة وأشبونة

وذكر غير واحدٍ أن في كورة سرقسطة الملح الأندارني الأبيض الصافي الأملس الخالص، وليس في الأندلس موضعٌ فيه مثل هذا الملح.

قال: وسرقسطة بناها قيصر ملك رومة الذي تؤرخ من مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبيّنا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام، وتفسير اسمها قصر السيد، لأنّه اختار ذلك المكان بالأندلس.

وقيل: إن موسى بن نصير شرب من ماء نهر جلّق بسرقسطة فاستعذبه، وحكم أنّه لم يشرب بالأندلس أعذب منه، وسأل عن اسمه، فقيل: جلّق، ونظر

إلى ما عليه من البساتين فشبّهها بغوطة جلّق الشام، وقيل: إنها من بناء الاسكندر، والله أعلم.

وبمدينة برجة - وهي من أعمال المرية - معدن الرصاص، وهي على وادٍ مبهجٍ ويعرف بوادي عذراء، وهو محدقٌ بالأزهار والأشجار، وتسمى برجة: " بهجة " لبهجة منظرها، وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني، رحمه الله تعالى:

رياضٌ تعشّقها سندسٌ ::: توشّت معاطفها بالزّهر
مدامعها فوق خدّي ربىً ::: لها نضرةٌ فتنت من نظر
وكلّ مكانٍ بها جنّةٌ ::: وكلّ طريقٍ إليها سقر

وبمالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه، ويجلب حتى للهند والصين، وقيل: إنّه ليس في الدنيا مثله، وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي حسبما أنشده غير واحدٍ منهم ابن سعيد:

مالقة حيّيت يا تينها ::: الفلك من أجلك ياتينها
نهى طبيبي عنه في علّتي ::: ما لطبيبي عن حياتي نهى

وقال ابن بطوطة: وبمالقة يصنع الفخّار المذهب العجيب، ويجلب منها إلى أقاصي البلاد، ومسجدها كبير الساحة، شهير البركة، وصحنه لا نظير له في الحسن، وفيه أشجار النارنج البديعة، انتهى.

وقال قبله: إن مالقة إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحسان، جامعةً بين مرافق البر والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطالٍ بدرهمٍ صغيرٍ، ورمّانها المرسيّ الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب، انتهى.

وبكورة أشبونة المتصلة بشنترين معدن التبر، وفيها عسلٌ يجعل في كيس كتانٍ فلا يكون له رطوبةٌ كأنّه سكرٌ، ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه إلا الشّحري.

نبذة عن قرطبة وشهرتها

ومن أشهر مدن الأندلس مدينة قرطبة - أعادها الله تعالى للإسلام - وبها الجامع المشهور، والقنطرة المعروفة بالجسر.

وقد ذكر ابن حيّان أنّه بُنِيَ على أمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ونصه، وقام فيها بأمره على النهر الأعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الأكبر الذي ما يعرف في الدنيا مثله، انتهى.

وفيها يقول بعض علماء الأندلس:

بأربعٍ فاقت الأمصار قرطبةٌ ::: منهنّ قنطرة الوادي، وجامعها
هاتان ثنتان، والزهراء ثالثةٌ، ::: والعلم أعظم شيءٍ، وهو رابعها

وقال الحجاري في " المسهب ": كانت قرطبة في الدولة المروانية قبّة الإسلام، ومجتمع أعلام الأنام، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعديّة واليمانيّة، وإليها كانت الرّحلة في الرواية إذ كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنفٌ بديباج المروج مطرزٌ بالأزهار، تصدح في جنباته الأطيار، وتنعر النواعير ويبسم النّوّار، وقرطاها الزاهرة والزهراء، حاضرتا الملك وأفقا النعماء والسرّاء. وإن كان قد أخنى عليها الزمان، وغيّر بهجة أوجهها الحسان، فتلك عادته وسل الخورنق والسّدير وغمدان، وقد أعذر بإنذاره إذ لم يزل ينادي بصروفه: لا أمان لا أمان.

وقال السلطان يعقوب المنصور ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن ابن علي لأحد رؤساء أجنادها: ما تقول في قرطبة؟ فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامّة الأندلس بقوله: جوفها شمام، وغربيها قمام، وقبلتها مدام، والجنّة هي والسلام.

يعني بالشّمام جبال الورد، ويعني بالقمام ما يؤكل إشارةً إلى محرث

الكنبانيّة، ويعني بالمدام النهر.

ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لأبي عمران موسى بن سعيد العنسي: ما عندك في قرطبة؟ قال له: ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها، فقال السلطان: إن ملوك بني أمية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرةٍ، الديار المنفسحة الكثيرة، والشوارع المتسعة، والمباني الضخمة المشيدة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج الناضر، والمحرث العظيم، والشّعراء الكافية، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها، قال: فقلت: ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول.

قال ابن سعيد: ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سمة العلم والملك متوارثةً فيهم. إلا أن عامّتها أكثر الناس فضولاً، وأشدّهم تشغيباً، ويُضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم، حتى إن السيد أبا يحيى أخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها: كيف وجدت أهل قرطبة؟ فقال: مثل الجمل، إن خففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنجتنبه، وما سلط الله عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامتها شرّاً من عامة العراق، وإن العزل عنها لما قاسيته من أهلها عندي ولاية، وإنّي إن كلّفت العود إليها لقائل: لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين، انتهى.

وقال أبو الفضل التيفاشي: جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبي الوليد بين رشد والرئيس أبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالمٌ بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطربٌ بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً، انتهى.

ومن أعظم مدن الأندلس إشبيلية - قال الشقندي: من محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المباني، ونهرها الأعظم الذي يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلاً

ثم يحسر، وفيه يقول ابن سفرٍ:

شقّ النسيم عليه جيب قميصه ::: فانساب من شطّيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ::: هزءاً فضمّ من الحياء إزاره

وقيل لأحد من رأى مصر والشام: أيهما رأيت أحسن؟ أهذان أم إشبيلية؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية: شرفها غابةٌ بلا أسد، ونهرها نيلٌ بلا تمساح، انتهى.

ويقال: إن الذي بنى إشبيلية اسمه يوليش، وإنّه أول من سمّي قيصر، وإنّه لما دخل الأندلس أعجب بساحاتها وطيب أرضها وجبلها المعروف بالشّرف فردم على النهر الأعظم مكاناً، وأقام فيه المدينة، وأحدق عليها بأسوارٍ من صخرٍ صلدٍ، وبنى في وسط المدينة قصبتين بديعتي الشأن تعرفان بالأخوين، وجعلها أمّ قواعد الأندلس، واشتق لها اسماً من رومية، ومن اسمه، فسمّاها رومية يوليش، انتهى.

وكان الأوّلون من ملوك الأعاجم يتداولون بسكناهم أربعة من بلاد الأندلس: إشبيلية، وقرطبة، وقرمونة، وطليطلة، ويقسمون أزمانهم على الكينونة بها.

وأما شرف إشبيلية فهو شريف البقعة، كريم التربة، دائم الخضرة، فرسخ في فرسخ طولاً وعرضاً، لا تكاد تشمس فيه بقعةٌ لالتفاف زيتونه.

واعلم أن إشبيلية لها كورٌ جليلةٌ، ومدنٌ كثيرةٌ، وحصونٌ شريفةٌ، وهي من الكور المجندة، نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق. وانتهت جباية إشبيلية أيام الحكم بن هشام إلى خمسة وثلاثين ألف دينارٍ ومائة دينار.

وفي إقليم طالقة من أقاليم إشبيلية وجدت صورةً جاريةً من مرمرٍ معها صبي، وكأن حيّةً تريده، لم يسمع في الأخبار ولا رئي في الآثار صورةٌ أبدع منها، جعلت في بعض الحمامات وتعشّقها جماعةٌ من العوام.

وفي كورة ماردة حصن شنت أفرج في غاية الارتفاع، لا يعلوه طائرٌ البتة

لا نسرٌ ولا غيره.

ومن عجائب الأندلس البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش، فإن طول كل جائزة منه مائة شبر وأحد عشر شبراً، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف.

وقال بعض من وصف إشبيلية: إنها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة، وعليه جسر مربوط بالسفن، وبها أسواق قائمة، وتجارات رابحة، وأهلها ذوو أموال عظيمة، وأكثر متاجرهم الزيت، وهو يشتمل على كثير من إقليم الشّرف، وإقليم الشرف على تل عال من تراب أحمر مسافته أربعون ميلاً في مثلها، يمشي بها السائر في ظل الزيتون والتين، ولها - فيما ذكر بعض الناس - قرىً كثيرة، وكل قرية عامرة بالأسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق.

وقال صاحب مناهج الفكر، عند ذكر إشبيلية: وهذه المدينة من أحسن مدن الدّنيا، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة، ويعينهم على ذلك واديها الفرج، وناديها البهج، وهذا الوادي يأتيها من قرطبة، ويجزر في كل يوم، ولها جبل الشرف، وهو تراب أحمر طوله من الشمال إلى الجنوب أربعون ميلاً، وعرضه من المشرق إلى المغرب اثنا عشر ميلاً، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحفت بأشجار الزيتون، انتهى.

* * *

شهرة باجة وجبل طارق

ولكورة باجة من الكور الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية أيام بني عبّاد خاصّيّةٌ في دباغة الأديم وصناعة الكتان، وفيها معدن فضة، وبها ولد المعتمد بن عبّاد، وهي متصلة بكورة ماردة.

ولجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته إلى طارق مولى موسى بن نصير، إذ كان أوّل ما حل به مع المسلمين من بلاد الأندلس عند الفتح، ولذا شهر بجبل

الفتح، و هو مقابل الجز يرة الخضراء، و قد تجوّن البحر هنالك مستديراً حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجز يرة الخضراء، وإذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبتة في البحر بان كأنّه سرج، قال أبو الحسن عليّ بن موسى بن سعيد: أقبلت عليه مرة مع والدي فنظرنا إليه على تلك الصفة، وإنّما سُميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء، وطريف المنسوبة إليه بربريٌّ من موالي موسى بن نصير، ويقال: إن موسى بعثه قبل طارق في أربعمائة رجل، فنزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة إحدى وتسعين، وبعده دخل طارق، والله أعلم.

* * *

كورة طليطلة وما تشتهر به

ومن أعظم كور الأندلس كورة طليطلة، وهي من متوسط الأندلس، وكانت دار مملكة بني ذي النّون من ملوك الطوائف، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة، وسمّاها قيصر بلسانه بزليطة، وتأويل ذلك: أنت فارح، فعرّبتها العرب وقالت: طليطلة، وكانوا يسمّونها وجهاتها في دولة بني أميّة بالثغر الأدنى، ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الأعلى، وتسمى طليطلة مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون إنساناً، ودخلها سليمان بن داود، عليهما السلام، وعيسى بن مريم، وذو القرنين، وفيها وجد طارق مائدة سليمان، وكانت من ذخائر إشبان ملك الروم الذي بنى إشبيلية، أخذها من بيت المقدس كما مر، وقوّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار، وقيل: إنها كانت من زمرد أخضر، ويقال: إنها الآن برومة، والله أعلم بذلك.

ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة، منها مائة وسبعون تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوان ممتلئ من أواني الذهب والفضة، وهو كبير، حتى قيل: إن الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه، وقد قيل: إن أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع، وذكروا فيها غير هذا ممّا

لا يكاد يصدّقه الناظر فيه.

وبطليطلة بساتين محدقة، وأنهار مخترقة، ورياض وجنان، وفواكه حسان، مختلفة الطعوم والألوان، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة، ورساتيق مريعة، وضياع بديعة، وقلاع منيعة، وبالجملة فمحاسنها كثيرة، ولعلّنا نلمّ ببعض متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين، وهي مطلّة على نهر تاجه، وعليه كانت القنطرة التي يعجز الواصفون عن وصفها، وكانت على قوس واحد تكذفه فرختان من كل جانب، وطول القنطرة ثلاثمائة باع، وعرضها ثمانون باعاً، وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم، واحتال في هدمها.

* * *

مدينة المرية وما تشتهر به

ومن مشهور مدن الأندلس المرية، وهي على ساحل البحر، ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران، بناها عبد الرحمن الناصر، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر، وولى عليها مولاه خيران، فنسبت القلعة إليه، وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد، وفيها دار الصناعة، وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام، ومن أبوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر.

وقال بعضهم: كان بالمريّة لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول، وللأسقلاطون كذلك، وللثياب الجرجانية كذلك، وللأصفهانية مثل ذلك، وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور المكللة. ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف. وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً، وساحلها أفضل السواحل، وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة، وقد ألف فيها أبو جعفر ابن خاتمة تاريخاً حافلاً

سمّاه " بمزية المرية "، على غيرها من البلاد الأندلسية " في مجلد ضخم تركته من جملة كتبي بالمغرب، والله سبحانه المسؤول في جمع الشمل، فله الأمر من بعد ومن قبل.

ووادي المرية طوله أربعون ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة، وجنات نضرة، وأنهار مطردة، وطيور مغردة.

قال بعضهم: ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالاً من أهل المرية، ولا أعظم متاجر وذخائر، وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الألف، وهي بين الجبلين بينهما خندق معمور، وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الآخر ربضها، والسور محيط بالمدينة والربض، وغربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة، وأحجار أولية، وكأنما غربلت أرضها من التراب، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار، انتهى.

* * *

شنترة وخواصها

وقال ابن اليسع، عند ذكره مدينة شنترة: إن من خواصّها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضي أربعين يوماً من زراعته، وإن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر، قال لي أبو عبد الله الباكوري، وكان ثقة: أبصرت عند المعتمد بن عبّاد رجلاً من أهل شنترة أهدى إليه أربعاً من التفاح ما يقلّ الحامل على رأسه غيرها، دور كل واحدة خمسة أشبار، وذكر الرجل أن المعتاد عندهم أقل من هذا، فإذا أرادوا أن يجيء بهذا العظم قطعوا أصلها وأبقوا منه عشراً أو أقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب، انتهى.

* * *

شنش وسهيل وتدمير

وبحصن شنش على مرحلة من المرية التوت الكثير، وفيها الحرير والقرمز، ويعرف واديها بوادي طبرنش.

وبغربي مالقة عمل سهيلٍ، وهو عمل عظيم كثير الضياع، وفيه جبل سهيل لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلى منه.

ومن كور الأندلس الشرقية تدمير، وتسمى مصر أيضاً لكثرة شبهها بها، لأن لها أرضاً يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر، وصارت القصبة بعد تدمير مرسية، وتسمى البستان، لكثرة جناتها المحيطة بها، ولها نهرٌ يصب في قبليها.

* * *

أقاليم الأندلس وكور كل إقليم

واعلم أن جزيرة الأندلس - أعادها الله للإسلام - مشتملة على موسطة وشرق، وغرب:

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة: قرطبة، وطليطلة، وجيّان، وغرناطة، والمريّة، ومالقة؛ فمن أعمال قرطبة إستجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور وأسطبة وبيّانة واليسّانة والقصير وغيرها، ومن أعمال طليطلة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها، ومن أعمال جيّان أبّذة وبيّاسة وقسطلّة وغيرها، ومن أعمال غرناطة وادي آش والمنكّب ولوشة وغيرها، ومن أعمال المرية أندرش وغيرها، ومن أعمال مالقة بلّش والحامة وغيرهما، وببلّش من الفواكه ما بمالقة، وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها.

وأمّا شرق الأندلس ففيه من القواعد: مرسية، وبلنسية، ودانية والسهلة، والثغر الأعلى؛ فمن أعمال مرسية أوريولة والقنت ولورقة وغير ذلك، ومن

أعمال بلنسية شاطبة ويضرب بحسنها المثل ويعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر وغير ذلك، وأما دانية فهي شهيرة ولها أعمال، وأمّا السهلة فإنّها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ولذا عدّها بعضهم من كور الثغر الأعلى ولها مدن وحصون، ومن أعمال الثغر الأعلى: سرقسطة وهي أم ذلك الثغر، وكورة لاردة، وقلعة رباح، وتسمى بالبيضاء، وكورة تطيلة، ومدينتها طرسونة، وكورة وشقة، ومدينتها تمريط، وكورة مدينة سالم، وكورة قلعة أيوب، ومدينتها مليانة، وكورة بربطانية، وكورة باروشة.

وأما غرب الأندلس ففيه: إشبيلية، وماردة، وأشبونة، وشلب؛ فمن أعمال إشبيلية شريش والخضراء ولبلة وغيرها، ومن أعمال ماردة بطليوس ويابرة وغيرهما، ومن أعمال أشبونة شنترين وغيرها، ومن أعمال شلب شنت مرية وغيرها.

* * *

الجزر البحرية

وأما الجزر البحرية بالأندلس فمنها جزيرة قادس، وهي من أعمال إشبيلية، وقال ابن سعيد: إنها من كورة شريش، ولا منافاة لأن شريشاً من أعمال إشبيلية كما مر، قال: وبيد صنم قادس مفتاح، ولمّا ثار بقادس ابن أخت القائد أبي عبد الله بن ميمون - وهو عليّ بن عيسى قائد البحر بها - ظن أن تحت الصنم مالاً فهدمه فلم يجد شيئاً، انتهى.

وهي - أعني جزيرة قادس - في البحر المحيط؛ وفي المحيط الجزائر الخالدات السبع، وهي غربي مدينة سلا تلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي الجوّ من الأبخرة الغليظة، وفيها سبعة أصنام على أمثال الآدميين، تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها. وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات، وفيها من المدن والقرى ما لا يحصى، ومنها يخرج قوم يقال لهم: المجوس على دين النصارى:

أولها جزيرة برطانية، وهي بوسط البحر المحيط بأقصى شمال الأندلس، ولا جبال فيها، ولا عيون، وإنّما يشربون من ماء المطر، ويزرعون عليه.

قال ابن سعيد: وفيه جزيرة شلطيش، وهي آهلة وفيها مدينة، وبحرها كثير السمك، ومنها يحمل مملّحاً إلى إشبيلية، وهي من كورة لبلة مضافة إلى عمل أونبة، انتهى.

* * *

قرطاجنة وخواصها

وقال بعضهم، لما أجرى ذكر قرطاجنة من بلاد الأندلس: إن الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطرة واحدة، وبها أقواس من الحجارة المقربصة، وفيها من التصاوير والتماثيل وأشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة، ومن أجب بنائها الدواميس، وهي أربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة، طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة في عرض ستين خطوة، وارتفاع كل واحد أكثر من مائتي ذراع، بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها إلى بعض في العلوّ الشاهق بهندسة عجيبة وإحكام بديع، انتهى.

قلت: أظن هذا غلطاً؛ فإن قرطاجنة التي بهذه الصفة قرطاجنة إفريقية، لا قرطاجنة الأندلس، والله أعلم.

وقال صاحب مناهج الفكر، عندما ذكر قرطاجنة: وهي على البحر الرومي مدينة قديمة بقي منها آثار، لها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى، انتهى.

وذكر قبل ذلك في لورقة أن بناحيتها يوجد حجر اللازورد.

وفي البحر الشامي الخارج من المحيط جزيرتا ميورقة ومنورقة، وبينهما خمسون ميلاً، وجزيرة ميورقة مسافة يوم، بها مدينة حسنة، وتدخلها ساقية جارية على الدوام.

عودٌ إلى ذكر غرناطة

ولما ألمّ الرحّلة ابن بطوطة في رحلته بدخوله لبلاد الأندلس - أعادها الله تعالى للإسلام - قال: فوصلت إلى بلاد الأندلس - حرسها الله تعالى - حيث الأجر موفور للساكن، والثواب مذخور للمقيم والظاعن، إلى أن قال عند ذكره غرناطة ما نصّه: قاعدة بلاد الأندلس، وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً، يخترقه نهر شنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين والجنّات والرياضات والقصور، والكروم محدقة بها من كل جهة، ومن عجيب مواضعها عين الدمع، وهو جبل فيه الرياضات والبساتين، لا مثل له بسواها، انتهى.

وقال الشقندي: غرناطة دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، ولم تخل من أشرافٍ أماثل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن بها إلا ما خصّها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها النساء الشواعر كنزهون القلعية والرّكونية وغيرهما، وناهيك بهما في الظّرف والأدب، انتهى.

وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس، وتسمى بدمشق الأندلس، لأنّها أشبه شيء بها، ويشقّها نهر حدره، ويطلّ عليها الجبل المسمى بشلير الذي لا يزول الثلج عنه شتاءً وصيفاً، ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصّلد، وفي أعلاه الأزاهر الكثيرة، وأجناس الأفاويه الرفيعة، ونزل بها أهل دمشق لمّا جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور، وقرى غرناطة - فيما ذكر بعض المتأخرين - مائتان وسبعون قرية.

وقال ابن جزيّ مرتّب رحلة ابن بطوطة، بعد ذكره كلامه، ما نصّه: قال ابن جزيّ: لولا خشية أن أنسب إلى العصبية لأطلت القول في وصف غرناطة، فقد وجدت مكانه، ولكنّ ما اشتهر كاشتهارها لا معنى إطالة القول فيه، وقال ابن سعيد عندما أجرى ذكر قرية نارجة - وهي قريةٌ كبيرةٌ تضاهي المدن، قد أحدقت بها البساتين، ولها نهرٌ يفتن الناظرين، وهي من أعمال مالقة -: إنّه اجتاز مرة عليها مع والده أبي عمران موسى، وكان ذلك زمان صباغة الحرير

عندهم، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيماً، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب، وسألوا: بم يعرف ذلك الموضع؟ فقالوا: الطراز، فقال والدي: اسم طابق مسمّاه، ولفظ وافق معناه.

* * *

بلنسية وبعض قراها

وقال ابن سعيد: إن كورة بلنسية من شرق الأندلس تنبت الزعفران، وتعرف بمدينة التراب، وبها كمثرى تسمى الأرزة في قدر حبّة العنب، قد جمع مع حلاوة المطعم ذكاء الرائحة، إذا دخل داراً عرف بريحه، ويقال: إن ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الأندلس، وبها منازه ومسارح، و من أبدعها وأشهرها الرّصافة ومنية ابن أبي عامر.

ومن أعمال بلنسية قرية المنصف التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي وقبره كان بسبتة يزار، رحمه الله تعالى، ومن نظمه:

قالت لي النّفس أتاك الردى ::: وأنت في بحر الخطايا مقيم
فما ادّخرت الزاد، قلت: أقصري ::: هل يحمل الزاد لدار الكريم

و من عمل بلنسية قرية بطرنة، و هي التي كانت فيها الوقيعة المشهورة للنصارى على المسلمين، وفيها يقول أبو إسحاق بن معلّى الطرسوني:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم ::: حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ::: لو لم يكن ببطرنةٍ ما كانا

ومن عمل بلنسية متّيطة التي نسب إليها جماعةٌ من العلماء والأدباء.

ومن عمل بلنسية مدينة أندة التي في جبلها معدن الحديد، وأما رندة - بالراء - فهي في متوسط الأندلس، ولها حصنٌ يعرف بأندة أيضاً.

* * *

متفرجات إشبيلية

وفي إشبيلية - أعادها الله - من المتفرّجات والمتنزهات كثيرٌ، ومن ذلك مدينة طريانة، فإنّها من مدن إشبيلية ومتنزهاتها، وكذلك تيطل، فقد ذكر ابن سعيدٍ جزيرة تيطل في المتفرجات.

* * *

شريش ومجبناتها

وقال الحجاري: إن مدينة شريش بنت إشبيلية، وواديها ابن واديها، ما أشبه سعدى بسعيد، وهي مدينةٌ جليلةٌ ضخمة الأسواق، لأهلها هممٌ، وظرفٌ في اللباس، وإظهار الرفاهية، وتخلّقٌ بالآداب، ولا تكاد ترى بها إلاّ عاشقاً ومعشوقاً، ولها من الفواكه ما يعم ويفضل، وممّا اختصت به إحسان الصنعة في المجبنات، وطيب جبنها يعين على ذلك، ويقول أهل الأندلس: من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم، انتهى.

(والمجبنات: نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها، وتقلى بالزيت الطيّب).

* * *

شلب وكورة أكشونبة

وفي شلب يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سيدمير:

أشجاك النسيم حين يهبّ ::: أم سنى البرق إذ يخبّ ويخبو
أم هتوفٌ على الأراكة تشدو ::: أم هتونٌ من الغمامة سكب
كلّ هذاك للصّبابة داعٍ ::: أيّ صبٍّ دموعه لا تصبّ
أنا لولا النسيم والبرق والور ::: ق وصوب الغمام ما كنت أصبو
ذكرتني شلباً وهيهات منّي ::: بعدما استحكم التّباعد شلب

وتسمى أعمال شلب كورة أكشونبة، وهي متصلة بكورة أشبونة، وهي -

أعني أكشونبة - قاعدةٌ جليلةٌ، لها مدنٌ ومعاقلٌ، ودار ملكها قاعدة شلب، وبينها وبين قرطبة سبعة أيام، ولما صارت لبني عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها إلى كورة إشبيلية، وتفتخر شلب بكون ذي الوزارتين ابن عمّار منها، سامحه الله.

ومنها القائد أبو مروان عبد الملك بن بدران، وربما قيل " ابن بدرون " الأديب المشهور، شارح قصيدة ابن عبدون التي أولها:

الدّهر يفجع بعد العين بالأثر ::: فما البكاء على الأشباح والصّور

وهذا الشرح شهيرٌ بهذه البلاد المشرقية، ومنها نحويّ زمانه وعلاّمته أبو محمد عبد الله بن السّيد البطليوسي، فإن شلباً بيضته، ومنها كانت حركته ونهضته، كما في الذخيرة.

* * *

وصف ابن سعيد للأندلس

قال ابن سعيد: وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار، فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحارى فيها معدومة. وممّا اختصّت به أن قراها في نهاية من الجمال لتصنّع أهلها في أوضاعها وتبييضها، لئلا تنبو العيون عنها، فهي كما قال الوزير ابن الحمارة فيها:

لاحت قراها بين خضرة أيكها ::: كالدّرّ بين زبرجدٍ مكنون

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدّر العين بسوادها، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها، وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصّرة من مثلها، والمثال في ذلك أنّك إذا توجهت من إشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش، وهي في نهاية من الحضارة والنّضارة، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك، ثم مالقة، وهذا كثير في

الأندلس، ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدوّ، فحصل لها بذلك التشييد والتزيين، وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدو ما ينيّف على عشرين سنة لامتناع معاقلها، ودربة أهلها على الحرب، واعتيادهم لمجاورة العدوّ بالطعن والضرب، وكثرة ما تنخزن الغلة في مطاميرها، فمنها ما يطول صبره عليها نحواً من مائة سنة. قال ابن سعيد: ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن، وإن كان العدوّ قد نقصها من أطرافها، وشارك في أوساطها ففي البقية منعة عظيمة، فأرض بقي فيها مثل إشبيلية وغرناطة ومالقة والمريّة وما ينضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الممصّرة الرجاء فيها قويّ بحول الله وقوته، انتهى.

قلت: قد خاب ذلك الرجاء، وصارت تلك الأرجاء للكفر معرجاً، ونسأل الله تعالى الذي جعل للهمّ فرجاً، وللضيق مخرجاً، أن يعيد إليها كلمة الإسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجاً، آمين.

* * *

مقارنة ابن سعيد بين الأندلس وسواها

قال ابن سعيد: وأنا أقول كلاماً فيه كفاية: منذ خرجت من جزيرة الأندلس وطفت في بر العدوة، ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة، ثم طفت في إفريقية وما جاورها من المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الإسكندرية والقاهرة والفسطاط، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلّب وما بينهما - لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى، ومدينة دمشق بالشام، وفي حماة مسحة أندلسية، ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع، إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن، وبعض أماكن في تونس، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية، ولكن الإسكندرية أفسح شوارع وأبسط وأبدع، ومباني حلب داخلة فيما يستحسن، لأنها من حجارة صلبة، وفي وضعها وترتيبها إتقان، انتهى.

رخاء الأندلس كما يصفه ابن حوقل

وقال ابن سعيد في المغرب ما نصّه: قواعد من كتاب " الشهب الثاقبة، في الإنصاف بين المشارقة والمغاربة " أول ما نقدم الكلام على قاعدة السلطنة بالأندلس، فنقول: إنها مع ما بأيدي عبّاد الصّليب منها أعظم سلطنة، كثرت ممالكها، وتشعبت في وجوه الاستظهار للسلطان إعانتها، وندع كلامنا في هذا الشأن، وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبي في كتابه لما دخلها في مدة خلافة بني مروان بها في المائة الرابعة، وذلك أنّه لما وصفها قال: وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة، طولها دون الشهر في عرض نيّف وعشرين مرحلة، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر، والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر، إلى أسباب التملك الفاشية فيها، ولما هي به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته، يملك ذلك منهم مهينهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنتهم وصلاح معاشهم وبلادهم. ثم أخذ في عظم سلطانها ووصف وفور جباياته وعظم مرافقه، وقال في أثناء ذلك: وممّا يدلّ بالقليل منه على كثيره أن سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير دخلها في كل سنة مائتا ألف دينار، وصرف الدينار سبعة عشر درهماً، هذا إلى صدفات البلد وجباياته، وخراجاته وأعشاره وضماناته والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك.

وذكر ابن بشكوال أن جباية الأندلس بلغت في مدّة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً، ثم من السوق المستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار.

ثم قال ابن حوقل: ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، مع علم أمير المؤمنين بمحلّها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها.

* * *

الأندلسيون والتشريع

وأمّا قواعد أهل الأندلس في ديانتهم فإنّها تختلف بحسب الأوقات والنظر إلى السلاطين، ولكن الأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان، وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم، وذا كثير في أخبارهم. وأمّا الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكلّ يوم.

* * *

الأندلسيون والتصوف

وأمّا طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق والدّروزة التي تكسل عن الكد وتحوج لوجوه للطلب في الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عذر.

* * *

الأندلسيون والعلوم والآداب

وأمّا حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالةً على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظّم من الخاصة والعامة، يشار إليه ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة، وما أشبه ذلك. ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرءون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جارياً، فالعالم

منهم بارع لأنّه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء، إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظّاً عظيماً عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنّه كلّما قيل: فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زلّ في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدة، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه وإن كان غير خالٍ من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري والله أعلم.

وقراءة القرآن بالسبع، ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونقٌ ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به محاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم. وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب، والنحوي، واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السّمات. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدّةً، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أيّ علم لا يكون متمكناً من علم النحو - بحيث لا تخفى عليه الدقائق - فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عمّا تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي عليّ المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غرّبت تصانيفه وشرّقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه؛ والخاصّ منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعىً عندهم في القراءات

والمخاطبات بالرسائل. وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفلٌ مستثقلٌ.

والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقّع لهم بالصلات على أقدارهم، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين مّا ولكن هذا الغالب. وإذا كان الشخص بالأندلس نحويّاً أو شاعراً فإنّه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب، عادةٌ قد جبلوا عليها.

* * *

تدابير الأندلسيين ومروءتهم

وأهل الأندلس أشدّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك ممّا يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه، فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعةً على حالة تنبو العين عنها.

وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذلّ السؤال، فلذلك قد يُنسبون للبخل، ولهم مروءات على عادة بلادهم، لو فطن لها حاتم لفضّل دقائقها على عظائمه؛ ولقد اجتزت مع والدي على قرية من قراها، وقد نال منّا البرد والمطر أشدّ النّيل، فأوينا إليها، وكنّا على حال ترقّبٍ من السلطان وخلوّ من الرفاهية، فنزلنا في بيت شيخ من أهلها، من غير معرفة متقدمة، فقال لنا: إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به فإنّي أمضي في حوائجكم، وأجعل عيالي يقومون بشأنكم، فأعطيناه ما اشترى به فحماً، فأضرم ناراً، فجاء ابنٌ له صغير ليصطلي، فضربه، فقال له والدي: لم ضربته؟ فقال: يتعلّم استغنام مال الناس والضّجر للبرد من الصغر، ثم لما جاء النوم قال لابنه: أعط هذا الشابّ كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه، فدفع كساءه إليّ، ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبيّ منتبهاً ويده في الكساء، فقلت ذلك لوالدي، فقال: هذه

مروءات أهل الأندلس، وهذا احتياطهم، أعطاك الكساء وفضّلك على نفسه، ثم أفكر في أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص، فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفاً من انفصالك بها وهو نائم، وعلى هذا الشيء الحقير فقس الشيء الجليل؛ انتهى كلام ابن سعيد في المغرب باختصار يسير.

* * *

الباب الثاني

في إلقاء الأندلس للمسلمين بالقياد، وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وصيرورتها ميداناً لسبق الجياد، ومحطّ رحل الارتباء والارتياد، وما يتبع ذلك من خبرٍ حصل بازديانه ازدياد، ونبإٍ وصل إليه اعتيام وتقرر بمثله اعتياد

الباب الثاني:

في إلقاء الأندلس للمسلمين بالقياد، وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد، وصيرورتها ميداناً لسبق الجياد، ومحطّ رحل الارتباء والارتياد، وما يتبع ذلك من خبرٍ حصل بازديانه ازدياد، ونبإٍ وصل إليه اعتيام وتقرر بمثله اعتياد

اعلم أنّه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسول الله، ♂: **زويت لي مشارق الأرض ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها** وقع الخلاف بين لذريق ملك القوط وبين ملك سبتة الذي على مجاز الزّقاق، فكان ما يذكر من فتح الأندلس على يد طارق وطريف ومولاهما الأمير موسى ابن نصير، رحم الله الجميع.

* * *

ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائني

وفي الكتاب الخزائني وغيره سياقة فتح الأندلس على أتم الوجوه، فلنذكر ملخصه، قالوا: استعمل أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك - رحمه الله تعالى - موسى بن نصير مولى عمّه عبد العزيز بن مروان، ويقال: بل هو بكري، وذلك أن أباه نصيراً أصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - في عين التّمر، فادعوا أنهم رهن، وأنهم من بكر بن وائل، فصار نصير وصيفاً لعبد العزيز ابن مروان، فأعتقه، فمن هذا يختلف فيهن وقيل: إنّه لخميٌّ، وعقد له على إفريقية وما خلفها في سنة ثمان وثمانين، فخرج إلى ذلك الوجه في نفر قليل من المطّوّعة، فلمّا ورد مصر أخرج معه من جندها بعثاً، وأتى إفريقية عملهن فأخرج من أهلها معه ذوي القوّة والجلد، وصيّر على مقدّمته طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربر ويفضّ جموعهم، ويفتح بلادهم ومدائنهم، حتى بلغ طنجة، وهي قصبة ملك البربر وأمّ مدائنهم، فحصرها حتى افتتحها -

وقيل: إنها لم تكن افتتحت قبله، وقيل: افتتحت ثم ارتجعت - فأسلم أهلها، وخطها قيرواناً للمسلمين، ثمّ ساروا إلى مدائن على شطّ البحر فيها عمالٌ لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن " سبتة "، وعليها علج يسمى " يليان "، قاتله موسى فألفاه في نجدة وقوّة وعدّة فلم يطقه، فرجع إلى مدينة طنجة فأقام بمن معه، وأخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم، والسفن تختلف إليهم بالميرة والأمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة، فهم يذبّون عن جريمهم ذبّاً شديداً، ويحمون بلادهم حماية تامة، إلى أن هلك غيطشة ملك الأندلس، وترك أولاداً لم يرضهم أهلها للملك، فاضطرب حبل أهل الأندلس، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له: لذريق مجرّب شجاع بطل، ليس من بيت أهل الملك، إلاّ أنّه من قوّادهم وفرسانهم، فولّوه أمرهم، وكانت طليطلة دار الملك بالأندلس حينئذٍ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام، عليه عدّة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط، قد وكّلوا به لئلاّ يُفتح، وقد عند الأول في ذلك إلى الآخر، فكلّما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكّلون بالبيت فأخذوا منه قفلاً وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدّمه، فلمّا قعد لذريق هذا، وكان متهمّماً يقظاً ذا فكر، أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب، فقال لهم: لا أفعل أو أعلم ما فيه، ولابد لي من فتحه، فقالوا له: أيها الملك، إنّه لم يفعل هذا أحد ممّن قبلك، وتناهوا عن فتحه، فلم يلتفت إليهم، ومشى إلى البيت، فأعظمت ذلك العجم وضرع إليه أكابرهم في الكف فلم يفعل، وظن أنّه بيت مال، ففضّ الأقفال عنه ودخل، فأصابه فارغاً لا شيء فيه، إلاّ تابوتاً عليه قفل، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقنعه نفاسةً، فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شقّة مدرجة قد صوّرت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العراب متقلّدي السيوف متنكبي القسيّ رافعي الرايات على الرماح، وفي أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية، فقرئت فإذا فيها: إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من الصور فإن هذه الأمة المصوّرة في هذه الشّقّة تدخل الأندلس، فتغلب عليها

وتملكها، فوجم لذريق وندم على ما فعل، وعظم غمّه و غمّ العجم بذلك، وأمر برد الأقفال وإقرار الحرس على حالهم، وأخذ في تدبير الملك، وذهل عمّا أنذر به.

وقد كان من سير أكابر العجم بالأندلس وقوّادهم أني بعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم إلى بلاد الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته، ويتأدّبوا بأدبه، وينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم، وحمل صدقاتهم، وتولّى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن. فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة، وكانت يومئذ في يد صاحب الأندلس، وأهلها على النصرانية، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه، فلمّا صارت عند لذريق وقعت عينه عليها فأعجبته وأحبها حبّاً شديداً، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضّها، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سراً، بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها جدّاً، واشتدّت حميّته، وقال: ودين المسيح لأزيلنّ سلطانه، ولأحفرنّ تحت قدميه، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب في فتح الأندلس بالذي سبق من قدر الله تعالى.

ثم إن يليان ركب بحر الزّقاق من سبتة في أصعب الأوقات في يذير قلب الشتاء، فصار بالأندلس، وأقبل إلى طليطلة نحو الملك لذريق، فأنكر عليه مجيئه في مثل ذلك الوقت، وسأله عمّا لديه ولم جاء في مثل وقته؟ فذكر خيراً، واعتلّ بذر زوجته، وشدّة شوقها إلى رؤية بنتها التي عنده، وتمنيها لقاءها قبل الموت، وإلحاحها عليه في إحضارها، وأنّه أحبّ إسعافها، ورجا بلوغها أمنيتها منه، وسأل الملك إخراجها إليه، وتجيل إطلاقه للمبادرة بها، ففعل، وأجاز الجارية، وتوثّق منها الكتمان عليه، وأفضل على أبيها، فانقلب عنه. وذكروا أنّه لما ودّعه قال له لذريق: إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشّذانقات التي لم تزل تطرفنا بها فإنها آثر جوارحنا لدينا، فقال له: أيّها الملك، وحقّ المسيح لئن بقيت لأدخلنّ عليك شذانقاتٍ ما دخل عليك مثلها قط؟ عرّض له بالذي أضمره من

السعي في إدخال رجال العرب عليه وهو لا يفطن؟ فلم يتنهنه يليان عندما استقرّ بسبتة عمله أن تهيّأ للمسير نحو موسى بن نصير الأمير، فمضى نحوه بإفريقية، وكلمه في غزو الأندلس، ووصف له حسنها وفضلها، وما جمعت من أسباب المنافع، وأنواع المرافق، وطيب المزارع، وكثرة الثمار، وثرارة المياه وعذوبتها، وهوّن عليه مع ذلك حال رجالها، ووصفهم بضعف البأس وقلّة الغناء، فشوّق موسى إلى ما هناك، وأخذ بالحزم فيما دعاه إليه يليان، فعاقده على الانحراف إلى المسلمين، واستظهر عليه بأن سامه مكاشفة أهل ملّته من الأندلس المشركين والاستخراج إليهم بالدخول إليها وشنّ الغارة فيها، ففعل يليان ذلك، وجمع جمعاً من أهل عمله، فدخل بهم في مركبين وحلّ بساحل الجزيرة الخضراء، فأغار وقتل وسبى وغنم، وأقام بها أيّاماً، ثمّ رجع بمن معه سالمين، وشاع الخبر عند المسلمين، فأنسوا بيليان واطمأنّوا إليه، وكان ذلك عقب سنة تسعين، فكتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه إليه يليان من أمر الأندلس، ويستأذنه في اقتحامها، فكتب إليه الوليد: أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه أنّه ليس ببحر زخّار، وإنّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه، فكتب إليه: وإن كان فلابدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه. فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة في أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم في أربعة مراكب، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الأندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم، ويقال لها اليوم: جزيرة طريف لنزوله بها، وأقام بها أيّاماً حتى تتامّ إليه أصحابه، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسناً، ومالاً جسيماً، وأمتعة، وذلك في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين، فلمّا رأى الناس ذلك تسرّعوا إلى الدخول، وقيل: دخل طريف في ألف رجل، فأصاب غنائم وسبياً، ودخل بعده أبو زرعة شيخ من البرابرة، وليس بطريف، في ألف رجل منهم أيضاً فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرّقوا عنها،

فضرّموا عامّتها بالنار، وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظّمة، وأصابوا سبياً يسيراً، وقتلوا وانصرفوا سالمين.

وقال الرازي: هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافري، الاسم طبق الكنية.

قالوا: ثمّ عاود يليان القدوم على موسى بن نصير محركاً في الاقتحام على أهل الأندلس، وخبره بما كان منه ومن طريف وأبي زرعة، وما نالوه من أهلها، وباشروه من طيبها، فحمد الله على ذلك، واستجدّ عزماً في إقحام المسلمين فيها، فدعا مولىً له كان على مقدّمته يسمّى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيّاً همذانيّاً - وقيل: إنّه ليس بمولى لموسى، وإنّما هو رجل من صدف، وقيل: مولى لهم، وقد كان بعض عقبه بالأندلس يذكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً، وقيل: إنّه بربري من نفزة - فعقد له موسى، وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلّهم البربر والموالي، وليس فيهم عرب إلا قليل، ووجّه معه يليان، فهيّأ له يليان المراكب، فركب في أربع سفن لا صناعة له غيرها، وحطّ بجبل طارق المنسوب إليه يوم سبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين، في شهر أغشت، ثم صرف المراكب إلى من خلفه من أصحابه، فركب من بقي من الناس، ولم تزل السفائن تختلف إليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل، وقيل: حلّ طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة في اثني عشر ألفاً غير ستة عشر رجلاً من البرابرة، ولم يكن فيهم من العرب إلاّ يسير، أجازهم يليان إلى ساحل الأندلس في مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم، أوّلاً أوّلاً، وركب أميرهم طارق آخرهم.

قيل: وأصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة، فقالت له في بعض قولها: إنّه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل إلى بلدهم هذا، ويغلب عليه، ويصف من نعته أنّه ضخم الهامة، فأنت كذلك، ومنها أن في كتفه الأيسر شامة عليها شعر، فإن كان بك هذه العلامة فأنت هو، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته العجوز، فاستبشر بذلك هو ومن معه.

وذكر عن طارق أنّه كان نائماً في المركب فرأى في منامه النبي ، والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم السلام يمشون على الماء حتى مرّوا به، فبشّره النبي ، بالفتح، وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد. وقيل: إنّه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبي ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكبوا القسيّ، فيقول له رسول الله، : يا طارق، تقدم لشأنك، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه، فهبّ من نومه مستبشراً، وبشّر أصحابه، وثابت إليه نفسه ثقةً ببشراه، فقويت نفسه، ولم يشكّ في الظفر، فخرج من البلد، واقتحم بسيط البلاد شانّاً للغارة.

قالوا: ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الأندلس، وتوالي غاراتهم على بد الجزيرة، وأن يليان السبب فيها، وكان يومئذ غائباً بأرض بنبلونة في غزاة له إلى البشكنس لأمر كان استصعب عليه بناحيتهم، فعظم عليه، وفهم الأمر الذي منه أتي، وأقبل مبادراً الفتق في جموعه، حتى احتل بمدينة قرطبة من الموسطة، ونزل القصر المدعوّ بها ببلاط لذريق المنسوب إليه، وليس لأنّه بناه أو اخترعه - وهو بناء من تقدمه من الملوك اتخذوه لمنزلهم في قرطبة إذا أتوها - إلا أن العرب لما غلبوا لذريق وهذا القصر من مواطنه نسبوه إليه، إذ لم يعرفوا من بناه. ويزعم العجم أن الذي بناه ملك منهم كان ساكناً بحصن المدور أسفل قرطبة، وخرج يوماً يتصيد حتى انتهى إلى مكان قرطبة، وهي يومئذ خراب، وكان في موضع قصرها غيضة عليق ملتفة أشبة، فأرسل الملك بازياً له يكرم عليه على حجلة عنّت له من ناحية الكدية المنسوبة بعد إلى أبي عبدة، فتخبّت في ذلك العلّيق، ولجّ البازي في الانقضاض عليها، فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه بالحرجة، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضنّاً منه به، فقطعت، وبدا له تحتها أساس قصر عظيم راقه رصّه، وقد كان ذا همة، فأمر بالكشف عنه، وتقصيّ حدوده طولاً وعرضاً، وتتبع أسّه وأصله، فوجده مبنيّاً من وجه الماء بصمّ الحجارة فوق زرجونٍ

وضع بينها وبين الماء بأحكم صناعة، فقال: هذا أثر ملك كريم، وأنا أولى من جدّده، فأمر بإعادته إلى هيأته، واتخاذه منزلاً من منازل راحاته، فكان إذا طاف بعمله أو مضى في متصيّده نزل فيه، وصار السبب في بناء قرطبة إلى جنبه، ونزول الناس فيها، وتوارث الملوك قصرها من بعد، ونزله لذريق في زحفه إلى العرب أيّاماً، والحشود من أعماله تتوافى إليه، ثم مضى نحو كورة شذونة يبغي لقاءهم في حشوده الكثيرة.

وقيل: إن آخر ملوك الأندلس الذين تلتهم العرب غيطشة، وإنّه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك، فضبطت أمّهم عليهم ملك والدهم بطليطلة، وانحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم، فصار بقرطبة، فلمّا اقتحم طارق الأندلس نفر إليه لذريق واستنفر إليه أجناد أهل الأندلس، وكتب إلى أولاد غيطشة - وقد ترعرعوا، وركبوا الخيل، واتخذوا الرجال - يدعنهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب، ويحذرهم من القعود عنه، ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يداً واحدة، فلم يجدوا بدّاً، وحشدوا، وقدموا عليه بقرطبة، فنزلوا أكناف قرية شقندة بعدوة نهرها قبالة القصر، ولم يطمئنّوا إلى الدخول على لذريق أخذاً بالحزم، إلى أن استتبّ جهاز لذريق وخرج، فانضموا إليه، ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه. والأصح - والله أعلم - ما سبق أن ملك القوط اجتمع للذريق، واختلف في اسمه فقيل: رذريق - بالراء أوله - وقيل: باللام لذريق وهو الأشهر، وقيل: إن أصله من أصبهان ويسمّى الإشبان، والله أعلم.

قالوا: وعسكر لذريق في نحو مائة ألف ذوي عدد وعدّة، فكتب طارق إلى موسى يستمدّه ويعرّفه أنّه فتح الجزيرة الخضراء فرضة الأندلس، وملك المجاز إليها، واستولى على أعمالها إلى البحيرة، وأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، إلا أن يشاء الله، وكان موسى منذ وجّه طارقاً لوجهه، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدّة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من

المسلمين مدداً كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفاً أقوياء على المغانم، حراصاً على اللقاء، ومعهم يليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله يدلهم على العورات، ويتجسس لهم الأخبار، وأقبل نحوهم لذريق في جموع العجم، وملوكها وفرسانها، فتلاقوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: إن هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا، وليس من أهله، وإنّما كان من أتباعنا، فلسنا نعدم من سيرته خبالاً في أمرنا، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم في استيطان بلدنا، وإنّما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم، ثم يخرجوا عنّا، فهلمّ فلنهزم بابن الخبيثة إذا نحن لقينا القوم لعلّهم يكفوننا إيّاه، فإذا انصرفوا عنّا أقعدنا في ملكنا من يستحقّه، فأجمعوا على ذلك، والقضاء يبرم ما ارتأوه.

وكان لذريق ولّى ميمنته أحد ابني غيطشة، ميسرته الآخر، فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة، وأداهما إلى ذلك طمع رجوع ملك والدهما إليهما.

وقيل: لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق، وأرسلوا إلى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعاً وخادماً لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنّهم غير تاركي حقهم لديه، ويسألونه الأمان على أني يميلوا إليه عند اللقاء فيمن يتبعهم، وأن يسلّم إليهم إذا ظفر ضياع والدهم بالأندلس كلّها، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة، وهي التي سميت بعد ذلك صفايا الملوك، فأجابهم إلى ذلك، وعاقدهم عليه، فالتقى الفريقان من الغد، فانحاز الأولاد إلى طارق، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح، وكان الالتقاء على وادي لكّة من كورة شذونة، فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه، ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له، ورمى لذريق نفسه في وادي لكّة وقد أثقلته السلاح، فلم يعلم له خبر ولم يوجد.

وقيل: نزل طارق بالمسلمين قريباً من عسكر لذريق من سلخ شهر رمضان سنة ٩٢، فوجّه لذريق علجاً من أصحابه قد عرف نجدته ووثق ببأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزر عددهم ويعاين هيئاتهم ومراكبهم، فأقل ذلك العلج حتى طلع العسكر، ثمّ شدّ في وجوه من استشرفه من المسلمين، فوثبوا إليه،

فولّى منصرفاً راكضاً، وفاتهم بسبق فرسه، فقال العلج للذريق: من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم يأساً لأنفسهم من التعلّق بها، وصفوا في السهل موطّنين أنفسهم على الثبات، إذ ليس لهم في أرضنا مكان مهرب، فرعب وتضاعف جزعه، والتقى العسكران بالبحيرة، واقتتلوا قتالاً شديداً، إلى أن انهزمت ميمنة لذريق وميسرته، انهزم بهما أبناء غيطشة، وثبت القلب بعدهما قليلاً وفيه لذريق، فعذّر أهل بشيء من قتال، ثم انهزموا ولذريق أمامهم، فاستمرّت هزيمتهم، وأذرع المسلمون القتل فيهم، وخفي أثر لذريق فلا يدرى أمره، إلاّ أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذي فقد وهو راكبه، وعليه سرج له من ذهب مكلّل بالياقوت والزبرجد، ووجدوا أحد خفّيه وكان من ذهب مكلّل بالدرّ والياقوت، وقد ساخ الفرس في طين وحمأة، وغرق العلج، فثبت أحد خفّيه في الطين فأخذ، وخفي الآخر، وغاب شخص العلج ولم يوجد حيّاً ولا ميتاًن والله أعلم بشأنه.

وقال الرازي: كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هزم الله المشركين، فقتل منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة لتلك الأرض، قالوا: وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلّ قدره، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس، فجمع طارق الفيء وخمّسه، ثمّ اقتسمه أهله على تسعى آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع، وتسامع الناس من أهل برّ العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغنم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر، فلحقوا بطارق، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال، ثم أقبل طارقٌ حتى نزل بأهل مدينة شذونة، فامتنعوا عليه، فشدّ الحصر عليهم حتى نهكهم

وأضرّهم، فتهيّأ له فتحها عنوة، فحاز منها غنائم، ثمّ مضى منها إلى مورور، ثمّ عطف إلى قرمونة فمر بعينه المنسوبة إليه، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، ثمّ نازل أهل إستجة وهم في قوّة ومعهم فلّ عسكر لذريق، فقاتلوا قتالاً شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثمّ إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم، فانكسروا، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حرباً مثلها، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها، وكان مغترّاً سيئ التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه، فوثب عليه طارق في الماء، فأخذه وجاء به إلى العسكر، فلمّا كاشفه اعترف له بأنّه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أحبّ، وضرب عليه الجزية، وخلّى سبيله، فوفى بما عاهد عليه، وقذف الله الرّعب في قلوب الكفرة لما رأوا طارقاً يوغل في البلاد، وكانوا يحسبونه راغباً في المغنم عاملاً على القفول، فسقط في أيديهم، وتطايروا عن السهول إلى المعاقل، وصعد ذوو القوّة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة، قيل: وكان من إرهاب طارق لنصارى الأندلس وحيله أن تقدّم إلى أصحابه في تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها في القدور، يرونهم أنهم يأكلونها، فجعل من انطلق من الأسرى يحدّثون من وراءهم بذل فتمتلئ منه قلوبهم رعباً ويجفلون فراراً، قالوا: وقال يليان لطارق: قد فضضت جيوش القوم رعبوا، فاصمد لبيضتهم، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة، ففرّق جيوشك معهم في جهات البلاد، واعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم، ففرّق طارق جيوشه من إستجة، فبعث مغيثاً الروميّ مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس، لأن المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم، ولم يبق فيهم راجلٌ، وفضلت عنهم الخيل، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة، وآخر إلى غرناطة مدينة إلبيرة، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جيّان يريد طليطلة، وقد قيل: إن الذي سار لقرطبة طارق بنفسه، لا مغيث، قالوا: فكمنوا بعدوة نهر شقندة في غيضة أرزٍ شامخة،

وأرسلت الأدلاء فأمسكوا راعي غنمٍ فسئل عن قرطبة فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طليطلة، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها، وسئل عن سورها فأخبر أنّه حصين عالٍ فوق أرضها إلا أنّه فيه ثغرة ووصفها لهم، فلمّا أجنّهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطّأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذٍ أخفى دقدقة حوافر الخيل، وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد، فترجّل القوم حتى عبروا النهر، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً أو أقل، وراموا التعلّق بالسور فلم يجدوا متعلّقاً، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها، فأراهم إياها، فإذا بها غير مستهلة التسنّم، إلا أنّه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلّق بها، فصعد رجل من أشدّاء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها، وأعان بعض الناس بعضاً حتى كثروا على السور، وركب مغيث ووقف من خارج، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا، وقتلوا نفراً منهم، وكسروا أقفال الباب، وفتحوه، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة، فصمد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة فبادر بالفرار عن البلاط في أصحابه، وهم زهاء أربعمائة، وخرج إلى كنيسة بغربيّ المدينة، وتحصن بها، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل، ودافعوا عن أنفسهم، وملك مغيث المدينة وما حولها؛ وقال من ذهب إلى أن طارقاً لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها " مغيث " : إنّه كتب إلى طارق بالفتح، وأقام على محاصرة العلج بالكنيسة ثلاثة أشهر، حتى ضاق من ذلك وطال عليه، فتقدّم إلى أسود من عبيده اسمه رباح، وكان ذا بأس ونجدة، بالكمون في جنانٍ إلى جانب الكنيسة ملتفة الأشجار، لعلّه أن يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم، ففعل، ودعاه ضعف عقله إلى أن صعد في بعض تلك الأشجار، وذلك أيّام الثمر، ليجني ما يأكله، فبصر به أهل الكنيسة، وشدّوا عليه، فأخذوه فملكوه، وهم في ذلك هائبون له

منكرون لخلقه، إذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله، فاجتمعوا عليه، وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقه، وحسبوا أنّه مصبوغ أو مطليّ ببعض الأشياء التي تسوّد، فجردوه وسط جماعتهم، وأدنوه إلى القناة التي منها كان يأتيهم الماء، وأخذوا في غسله وبتدليكه بالحبال الحرش، حتى أدموه وأنتوه، فاستغاثهم، وأشار إلى أن الذي به خلقة من بارئهم، عزّ وجلّ، ففهموا إشارته، وكفّوا عن غسله واشتد فزعهم منه، ومكث في إسارهم سبعة أيام لا يتركون التجمّع عليه والنظر إليه إلى أن يسّر الله له الخلاص ليلاً، ففرّ وأتى الأمير مغيثاً فخبره بشأنه وعرّفه بالذي اطلع عليه من موضع الماء إليها ينتابونه، ومن أي ناحية يأتيهم، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي أشار إليها الأسود حتى أصابوها، فقطعوها عن جريتها إلى الكنيسة، وسدّوا منافذها، فأيقنوا بالهلاك حينئذ، فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا عليه، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسمّيت كنيسة الحرقى، والنصارى تعظّمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدّة البلاء؛ غير أن العلج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند إيقان الهلاك، ففرّ عنهم وحده، وقد استغفلهم ورام اللحاق بطليطلة، فنمي خبره إلى مغيث، فبادر الركض خلفه وحده، فلحقه بقرب قرية تطليرة هارباً وحده، وتحته فرس أصفر ذريع الخطو، وحرك مغيث خلفه، فالتفت العلج ودهش لما رأى مغيثاً قد رهقه، وزاد في حث فرسه فقصر به، فسقط عن الفرس واندقت عنقه، فقعد على ترسه مستأسراً قد هاضته السقطة، فقبض عليه مغيث، وسلبه سلاحه، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد، ولم يؤسر من ملوك الأندلس غيره، لأن بعضهم استأمن وبعضه هرب إلى " جلّيقيّة ". وفي رواية أن مغيثاً استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لملكهم، فضرب أعناقهم جميعاً، فمن أجل ذلك عرفت بكنيسة الأسرى وأن مغيثاً جمع يهود قرطبة فضمنهم إلى مدينتها استنامةً إليهم، دون النصارى، للعداوة بينهم، وأنّه اختار القصر لنفسه، والمدينة لأصحابه.

وأمّا من وجّه إلى مالقة ففتحوها، ولجأ علوجها إلى جبال هنالك ممتنعة، ثمّ لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجّه إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها " غرناطة "، فافتتحوها عنوة، وضموا اليهود إلى قصبة غرناطة، وصار ذلك لهم سنّة متبعة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها، ويمضي معظم الناس لغيرها، وإذا لم يجدوا يهوداً وفّروا عدد المسلمين المخلّفين لحفظ ما فتح، ثم صنعوا عند فتح كورة ريّة التي منها مالقة مثل ذلك.

ومضى الجيش إلى تدمير، وتدمير: اسم العلج صاحبها، سميت به، واسم قصبتها أريولة، ولها شأن في المنعة، وكان ملكها علجاً داهية، وقاتلهم مضحياً، ثمّ استمرت عليه الهزيمة في فحصها، فبلغ السيف في أهلها مبلغاً عظيماً أفنى أكثرهم ولجأ العلج إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيئاً، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زيّ القتال متشبهات بالرجال، وتصدر قدّامهن في بقية أصحابه يغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه، فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور، وعرضوا عليه الصلح، فأظهر الميل إليه، ونكّر زيه، فنزل إليهم بأمان على أنّه رسول، فصالحهم على أهل بلده، ثمّ على نفسه، وتوثق منهم، فلمّا تمّ له من ذلك ما أراد عرّفهم بنفسه، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه، وأخذهم بالوفاء بعهده، وأدخلهم المدينة، فلم يجدوا فيها إلاّ العيال والذرّية، فندموا على الذي أعطوه من الأمان، واسترجحوه فيما احتال به، ومضوا على الوفاء له، وكان الوفاء عادتهم، فسلمت كورة تدمير من معرّة المسلمين بتدبير تدمير، وصارت كلّها صلحاً ليس فيها عنوة، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح، وخلفوا بقصبة البلد رجالاً منهم، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طليطلة.

قال ابن حيّان: وانتهى طارق إلى طليطلة دار مملكة القوط، فألفاها خالية قد فرّ أهلها عنها ولجأوا إلى مدينة بها خلف الجبل، فضم اليهود إلى طليطلة،

وخلف بها رجالاً من أصحابه، ومضى خلف من فر من أهل طليطلة فسلك إلى وادي الحجارة، ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمّي به بعد، فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل، وهي المنسوبة لسليمان بن داود عليهما السلام، وهي خضراء من زبرجدة حافاتها منها وأرجلها، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلاً، فأحرزها عنده، ثمّ مضى إلى المدينة التي تحصّنوا بها خلف الجبل، فأصاب بها حلياً ومالاً، ورجع ولم يتجاوزها إلى طليطلة سنة ثلاث وتسعين. وقيل: إنّه لم يرجع، بل اقتحم أرض جلّيقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة استرقة، فدوخ الجهة، وانصرف إلى طليطلة، والله أعلم. وقيل: إن طارقاً دخل الأندلس بغير أمر مولاه موسى بن نصير، فالله أعلم. قال بعضهم: وكانت إقامته في الفتوح وتدويخ البلاد إلى أن وصل سيّده موسى بن نصير، وكان ما سيذكر.

وأما أولاد غيطشة فإنّهم لما صاروا إلى طارق بالأمان، وكانوا سبب الفتح حسبما تقدم، قالوا لطارق: أنت الأمير أمير عظيم، فاستأذنوه باللّحاق بموسى بن نصير بإفريقية ليؤكّد سببهم به، وسألوه الكتاب إليه بشأنهم معه، وما أعطاهم من عهده، ففعل، وساروا نحو موسى فتلقّوه في انحداره إلى الأندلس بالقرب من بلاد البربر وعرّفوه بشأنهم، ووقف على ما خاطبه به طارق في ذمّتهم وسابقتهم، فأنفذهم إلى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق، وكتب إليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم، فلمّا وصلوا إلى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدهم، وعقد لكل واحد منهم سجلاًّ، وجعل لهم أن لا يقوموا لداخلٍ عليهم، فقدموا الأندلس، وحازوا ضياع والدهم أجمع، واقتسموها على موافقة منهم، فصار منهم لكبيرهم ألمند ألف ضيعة في غرب الأندلس، فسكن من أجلها إشبيلية مقترباً منها، وصار لأرطباش ألف ضيعة، وهو تلوه في السن، وضياعه في موسطة الأندلس، فسكن من أجلها قرطبة، وصار لثالثهم وقلة ألف ضيعة في شرقي الأندلس وجهة الثغر، فسكن من أجلها مدينة طليطلة، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية، إلى أن هلك ألمند كبيرهم، وتخّلف ابنته

سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين، فبسط يده أرطباش على ضياعهم، وضمها إلى ضياعه، وذلك في خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، فأنشأت سارة بنت ألمند مركباً بإشبيلية حصيناً كامل العدة، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثمّ قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق، فأنهت خبرها، وشكت ظلامتها من عمّها واستعدت عليه، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوصلها هشام إلى نفسه، وأعجبه صورتها وحزمها، وكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله بإفريقية بإنصافها من عمّها أرطباش وإمضائها وأخويها على سنّة الميراث فيما كان في يد والدها ممّا قاسم فيه أخويه، فأنفذ لها الكتاب بذلك إلى عامله بالأندلس أبي الخطار ابن عمّه، فتم لها ذلك وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مزاحم، فابتنى بها بالشام، ثم قدم بها إلى الأندلس، وقام لها في دفاع عمها أرطباش عن ضياعها، فنال بها نعمة عظيمة، وولد له منها ولداه إبراهيم وإسحاق فأدركا الشرف المؤثّل والرياسة بإشبيلية، وشهرا ونسلهما بالنسبة إلى أمهما سارة القوطية. وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعد إلى الأندلس، وعرفها، فتوسّلت بذلك إليه لمّا ملك الأندلس ووفدت إليه، فاعترف بذمامها وأكرمها، وأذن لها في الدخول إلى قصره متى جاءت إلى قرطبة فيجدّد تكرمتها ولا يحجب عياله منها، وتوفّي زوجها عيسى في السنة التي ملك فيها عبد الرحمن الأندلس، فزوّجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد.

وكان لها ولأبيها ألمند وعمّها أرطباش في صدر الدولة العربية بالأندلس أخبارٌ ملوكية: فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكي أنّه قصد أرطباش يوماً إلى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصّميل وابن الطّفيل وأبو عبدة وغيرهم، فأجلسهم على الكراسي، وبالغ في تكريمهم، ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بني حزم، وكان في عداد الشاميين، إلاّ أنّه كان

شديد الانقباض عنهم لز هده وور عه، فلمّا بصر به أرطباش قام إليه دونهم إعظاماً، ورقاه إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه، وكان ملبّساً صفائح الذهب، وجذبه ليجلسه مكانه، فامتنع عليه ميمون، وقعد على الأرض، فقعد أرطباش معه عليها، وأقبل عليه قبلهم، فقال له: يا سيدي، ما الذي جاء بك إلى مثلي؟ فقال له: ما تسمعه، إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول، فلم نستعدّ للمقام ولا كثّرنا من العدة، ثمّ حدث بعدنا على موالينا وفي أجنادنا ما قد أيسنا معه من الرجوع إلى أوطاننا، وقد وسّع الله عليك، فأحب أن تدفع إلي ضياعاً من ضياعك أعتمرها بيدي، وأؤدي إليك الحق منها وآخذ الفضل لي طيباً أتعيش منه، فقال: لا أرضى لك بالمساهمة، بل أهب لك هبة مسوّغة، ثمّ دعا بوكيل له فقال له: سلّم المجشر الذي لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبق وغير ذلك، وادفع إليه الضيعة التي بجيّان، فتسلّم ميمون الضيعتين وورثهما ولده، وإليهم نسبت قلعة حزم، فشكره ميمون وأثنى عليه، وقام عنه. وقد أنف الصّميل من قيامه إليه، فأقبل على أرطباش وقال له: كنت أظنّك أرجح وزناً، أدخل عليك وأنا سيد العرب بالأندلس في أصحابي هؤلاء، وهم سادة الموالي، فلا تزيدنا من الكرامة على الإقعاد على أعوادك هذه، ويدخل هذا الصّعلوك فتصير من إكرامه إلى حيث صرت؟ فقال له: يا أبا جوشن، إن أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرهفك ولو كان ولم تنكر عليّ ما فعلته، إنكم أكرمكم الله إنّما تكرمون لدنياكم وسلطانكم، وهذا إنّما أكرمته لله تعالى، فقد روينا عن المسيح، عليه السلام، أنّه قال: من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه، فكأنّما القمه حجراً. وكان الصّميل أمّيّاً، فلذلك عرّض به، فقال له القوم: دعنا من هذا، وانظر فيما قصدنا له، فحاجتنا حاجة الرجل الذي قصدك فأكرمته، فانظر في شأننا، فقال له: أنتم ملوك الناس، وليس يرضيكم إلاّ الكثير، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشراً عشراً، وكتب لهم بها، وأمر وكلاءه بتسليمها إليهم، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم، انتهى.

قال ابن حيّان وغيره: ولمّا بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما أتيح له من الفتوح حسده، وتهيّأ للمسير إلى الأندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم، وقيل: إنّهم كانوا ثمانية عشر ألفاً، وقيل: أكثر، فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، وتنكب الجبل الذي حلّه طارق، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى، فلمّا احتل الجزيرة الخضراء قال: ما كنت لأسلك طريق طارق، ولا أقفو أثره، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان: نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه، وندلك على مدائن هي أعظم خطراً وأعظم خطباً وأوسع غنماً من مدائنه، لم تفتح بعد، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى، فملئ سروراً. وكان شفوف طارق قد غمّه، فساروا به في جانب ساحل شذونة، فافتتحها عنوة، وألقوا بأيديهم إليه، ثمّ سار إلى مدينة قرمونة، وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يليان، دخلوا إليهم كأنّهم فلاّل وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب وأوقعوا بالحراس، فملكت المدينة. ومضى موسى إلى إشبيلية جارتها فحاصرها، وهي أعظم مدائن الأندلس شأناً، وأعجبها بنياناً، وأكثرهم آثاراً، وكانت دار الملك قبل القوطيين، فلمّا غلب القوطيون على ملك الأندلس حولوا السلطان إلى طليطلة، وبقي رؤساء الدين فيها أعني إشبيلية، فامتنعت أشهراً على موسى، ثم فتحها الله عليه، فهرب العلوج عنها إلى مدينة باجة، فضم موسى يهودها إلى القصبة، وخلّف بها رجالاً، ومضى من إشبيلية إلى لفنت إلى مدينة ماردة، وكانت أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عزّ ومنعة، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضاً، وكان في أهلها منعة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات، وآذوهم، وعمل موسى دبّابة دبّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه، فلمّا قلعوا الصخر أفضوا بعده إلى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه، فذبت عنه معاولهم وعدتهم، وثار بهم العدو

على غفلة، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة، فسمّي ذلك الموضع برج الشهداء، ثم دعا القوم إلى السلم، فترسل إليه في تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الأمان واحتال في توهمهم في نفسه، فدخلوا عليه أوّل يوم، فإذا هو أبيض الرأس واللّحية كما نصل خضابه، فلم يتفق لهم معه أمر، وعاودوه قبل الفطر بيوم، فإذا به قد قنأ لحيته بالحنّاء فجاءت كضرام عرفج، فعجبوا من ذلك، وعاودوه يوم الفطر، فإذا هو قد سوّد لحيته، فازداد تعجبهم منه، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله، فقالوا لقومهم: إنّا نقاتل أنبياء يتخلّقون كيف شاءوا، ويتصورون في كل صورة أحبّوا؛ كان ملكهم شيخاً فقد صار شابّاً، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله، فما لنا به طاقة، فأذعنوا عند ذلك، وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جلّيقيّة وأموال الكنائس وحليها للمسلمين، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها، ثم إن عجم إشبيليّة انتقضوا على المسلمين، واجتمعوا من مدينتي باجة ولبلة إليهم، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلاً، وأتى فلّهم الأمير موسى وهو بماردة فلمّا أن فتحها وجّه ابنه عبد العزيز بن موسى في جيش إليهم ففتح إشبيلية وقبل أهلها، ونهض إلى لبلة ففتحها، واستقامت الأمور فيما هنالك، وعلا الإسلام، وأقام عبد العزيز بإشبيلية، وتوجّه الأمير موسى من ماردة عقب شوال من العام المؤرخ يريد طليطلة، وبلغ طارقاً خبرهن فاستقبله في وجوه الناس، فلقيه في موضع من كورة طلبيرة؛ وقيل: إن موسى تقدّم من ماردة فدخل جلّيقية من فج نسب إليه، فخرقها حتى وافى طارق ابن زياد صاحب مقدمته بمدينة استرقة، فغض منه علانية، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد، والله أعلم.

وقيل: لمّا وقعت عينه عليه نزل إليه إعظاماً له، فقنّعه موسى بالسوّط، ووبّخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه. وساروا إلى طليطلة، فطالبه موسى بأداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك، واستعجله بالمائدة، فأتاه بها وقد

خلع من أرجلها رجلاً وخبأه عنده، فسأله موسى عنه، فقال: لا علم لي به، وهكذا أصبتها، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمّل، ولم يقدر على أحسن منه، فأخلّ بها.

وقال ابن الفرضي: موسى بن نصير صاحب فتح الأندلس لخميّ يكنى أبا عبد الرحمن، يروي عن تميم الداريّ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبي.

وقيل: غزا موسى بن نصير في المحرّم سنة ثلاث وتسعين، فأتى طنجة، ثم عبر إلى الأندلس، فدخلها، لا يأتي على مدينة إلاّ فتحها نزل أهلها على حكمه، ثم سار إلى قرطبة، ثم قفل عن الأندلس سنة أربع وتسعين، فأتى إفريقية، وسار عنها سنة خمس وتسعين إلى الشام يؤمّ الوليد بن عبد الملك يجرّ الدنيا بما احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العجل والظّهر، ومعه ثلاثون ألف رأسٍ من السبي، فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك وولي سليمان، فنكب موسى نكباً أداه إلى المتربة، فهلك في نكبته تلك بوادي القرى سنة سبع وتسعين.

قال ابن حيّان: وهذه المائدة المنوّه باسمها المنسوبة إلى سليمان النبيّ عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواع العجم، وإنّما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال الكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضّة، تحمل الشّمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيّام المناسك، ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت تلك المائدة بطليطلة ممّا صيغ في هذه السبيل، وتأنقت الأملاك في تفخيمها، يزيد الآخر منهم فيها على الأوّل، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات، وطار الذكر مطاره عنها، وكانت مصوغة من خالص الذهب، مرصّعة بفاخر الدرّ والياقوت والزمرد، لم تر الأعين مثلها، وبولغ في

تفخيمها من أجل دار المملكة، وأنّه لا ينبغي أن تكون بموضع آلة جمالٍ أو متاع مباهاةٍ إلا دون ما يكون فيها، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة، فأصابها المسلمون هناك، وطار النبأ الفخم عنها. وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذي فعله من غيرته على ما تهيّأ له ومطالبته له بتسليم ما في يده إليه، فاستظهر بانتزاع رجلٍ من أرجل هذه المائدة خبأه عنده، فكان من فلجه به على موسى عدوّه عند الخليفة إذ تنازعا عنده بعد الأثر في جهادهما ما هو مشهور، انتهى.

وقال بعض المؤرخين: إن المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضّة، وكان عليها طوق لؤلؤ، وطوق ياقوت، وطوق زمرد، وكلها مكلّلة بالجواهر، انتهى.

وما ذكره ابن حيّان من أن الذي يكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد الملك صواب، وأمّا ما حكاه ابن خلّكان من أن المنكب له الوليد فليس بصحيح، والله أعلم.

رجع إلى كلام ابن حيّان:

قالوا: ثمّ إن موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضى عنه، وأقرّه على مقدمته على رسمه، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعمالها، وأوغل في البلاد، وطارق أمامه لا يمرّان بموضع إلاّ فتح عليهما، وغنّمهما الله تعالى ما فيه. وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فيم يعارضهما أحد إلاّ بطلب الصلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله، ويكمل ابتداءه، ويوثّق للناس ما عاهدوه عليه، فلمّا صفا القطر كلّه وطمأن نفوس من أقام على سلمهن ووطّأ لأقدام المسلمين في الحلول به، أقام لتمييز ذلك وقتاً، وأمضى المسلمين إلى إفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا، حتى انتهوا إلى وادي رودنة، فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم. وقد دوّخت بعوث

طارق وسراياه بلد إفرنجة فملكت مدينتي برشلونة وأربونة وصخرة أبذيون وحصن لوذون على وادي رودنة، فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جدّاً، وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد إفرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً، وقيل: ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً، ولمّا أوغل المسلمون إلى أربونة ارتاع لهم قارله ملك الإفرنجة بالأرض الكبيرة، وانزعج لانبساطهم، فحشد لهم، وخرج عليهم في جمع عظيم، فلمّا انتهى إلى حصن لوذون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه، وأقبل حتى انتهى إلى صخرة لوذون، فلم يجد بها أحداً، وقد عسكر المسلمون قدّامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرّة لا عيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدوّ الله قارله، فاقتطعهم عن اللجإ إلى مدينة أربونة، وواضعهم الحرب، فقاتلوا قتالاً شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها، ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها، فنازلهم بها أيّاماً أصيب له فيها رجال، وتعذّر عليه المقام، وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلاً إلى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي رودنة شكّها بالرجال فصيّرها ثغراً بين بلده والمسلمين، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس.

وقال الحجاري في المسهب: إن موسى بن نصير نصره الله نصراً ما عليه مزيد، وأجفلت ملوك النصارى بين يديهن حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة، فاجتمعت الإفرنج إلى ملكها الأعظم قارله، وهذه سمة لملكهم، فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الإعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدّة والعدد بجمعهم القليل، وقلّة عدّتهم، وكونهم لا دروع لهم، فقال لهم ما معناه: الرأي عندي أن لا تعترضوهم في خرجتهم هذه، فإنّهم كالسيل يحمل من يصادره، وهم إقبال أمرهم، ولهم

نيّات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكّنون منهم بأيسر أمر، قال: فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميّين والبلديّين والبربر والعرب والمضريّة واليمانية، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء، انتهى.

وقيل: إن موسى بن نصير أخرج ابنه عبد الأعلى إلى تدمير ففتحها، وإلى غرناطة، ومالقة، وكورة ريّة، ففتح الكل، وقيل: إنّه لمّا حاصر مالقة - وكان ملكها ضعيف الرأي قليل التحفظ - كان يخرج إلى جنان له بجانب المدينة طلباً للراحة من غمّة الحصار من غير نصب عين وتقديم طليعة، وعرف عبد الأعلى بأمره، فأكمن له في جذبات الجنّة التي كان ينتابها قوماً من وجوه فرسانه ذوي رأي وحزم، وأرصدوا له ليلاً فظفروا به وملكوه، فأخذ المسلمون المدينة عنوة، وملأوا أيديهم غنيمة.

وقيل: كانت نفس موسى بن نصير في ذلك كلّه تنزعج إلى دخول دار الكفر جلّيقية، فبينما هو يعمل في ذلك ويعدّ له إذ أتاه مغيثٌ الروميّ رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والإضراب عن التوغل فيها، وأخذه بالقفول إليه، فساءه ذلك، وقطع به عن إرادته؛ إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته ذلك غير جليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة، وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إليها والمسير معه في البلاد أيّاماً ويكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل، ومشى معه حتى بلغ المفازة، فافتتح حصن بارو وحصن لكّ، فأقام هناك، وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الأخضر، فلم تبق كنيسة إلاّ هدمت، ولا ناقوس إلا كسر، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية، وسكنت العرب المفاوز، وكان العرب والبربر كلمّا مرّ قوم منهم بوضع استحسنوه حطّوا به ونزلوه قاطنين، فاتسع نطاق الإسلام بأرض الأندلس،

وخذل الشرك، وبينما موسى كذلك في اشتداد الظهور وقوّة الأمل إذ قدم رسولٌ آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى في القفول، وكتب إليه يوبخه، ويأمره بالخروج، وألزم رسوله إزعاجه، فانقلع حينئذ من مدينة لكّ بجليقية، وخرج على الفج المعروف بفج موسى، ووافاه طارق في الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى، فأقفله مع نفسه ومضيا جميعاً ومعهما من الناس من اختار القفول، وأقام من آثر السكنى في مواضعهم التي كانوا قد اختطوها واستوطنوها، وقفل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلّوا بإشبيلية، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس، وأقرّه بمدينة إشبيلية لاتصالها بالبحر نظراً لقربه من مكان المجاز، وركب موسى البحر إلى المشرق بذي حجة سنة خمس وتسعين وطارق معه، وكان مقام طارق بالأندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر، وحمل موسى الغنائم والسّبي، وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة منوّهاً بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته، أسيفٌ على ما لحقه من الإزعاج، وكان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيعاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم وجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً، وقيل: إنّه أوغل في أرض الفرنجة حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار، فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت، فإذا هي: يا بني إسماعيل، انتهيتم فارجعوا، فهاله ذلك، وقال: ما كتب هذا إلاّ لمعنى كبير، فشاور أصحابه في الإعراض عنه وجوازه إلى ما وراءه، فاختلفوا عليه، فأخذ برأي جمهورهم، وانصرف الناس، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصّي الغاية.

وحكى الرازي: أن موسى خرج من إفريقية إلى الأندلس في رجب سنة

ثلاث وتسعين، واستخلف على إفريقية أسنّ ولده عبد الله بن موسى، وكان موسى في عشرة آلاف، قال: وكان عبد الملك بن مروان هو الذي أغزى موسى المغرب في خلافته، ففتح له في أهله البرابرة فتوح كبار، حتى لقد بعث إلى عبد الملك في الخمس بعشرين ألف سبيّةٍ، ثم أردفها بعشرين ألفاً أخرى، كل ذلك من البربر، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك.

وزعم ابن حبيب: أنّه دخل الأندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة، وهو المنيذر، قال: ودخلها من التابعين ثلاثة: موسى الأمير، وعلي بن رباح اللخمي، وحيوة بن رجاء التميمي، وقيل: إن ثالثهم إنّما هو حنش بن عبد الله الصنعاني، صنعاء الشام، وإنّهم قفلوا عنها بقفول موسى، وأهل سرقسطة يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يقفل للمشرق، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه، فالله أعلم.

وقيل: إن التابعين أربعة بأبي عبد الرحمن الحبليّ الأنصاري، واسمه عبد الله ابن يزيد، والله أعلم، وخمّسهم بعضهم بحبّان بن أبي جبلة مولى بني بعد الدار وكان في ديوان مصر، فبعث به عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقّهوا أهلها، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عبّاس وابن عمر، وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس، وانتهى معه إلى حصن من حصون العدو يقال له: قرقشونة، وقيل: بل قفل إلى إفريقية فتوفي بها بعد العشرين ومائة.

وقال بعضهم: إن بين قرقشونة هذه وبين برشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً، وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسمّاة شنت مرية، وقد حكى ابن حيّان أن فيها سبع سوارٍ من فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحيط الإنسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مفرط.

وحنش الصنعاني المذكور تابعي جليل، كان مع علي رضي الله عنه بالكوفة، وقدم مصر بعد قتله، فصار عداده في المصريين، وكان فيمن قام مع

ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه، وكفى الأندلس شرفاً دخوله لها.

وعلي بن رباح بصري تابعي، يكنى أبا عبد الله، وهو لخمي، ولد عام اليرموك سنة خمس عشرة، قال ابن معين: أهل مصر يقولونه بفتح العين، وأهل العراق يقولونه بضمّها، وروى الليث عن ابنه موسى بن عليّ، وكانت لعليّ بن رباح عند عبد العزيز بن مروان مكانة، وهو الذي زفّ ابنته أم البنين لزوجها الوليد، ثمّ عتب عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية.

وأمّا المنيذر الإفريقي فلم ينسبه ابن حبيب، وذكره ابن عبد البر في الصحابة وقال: إنّه المنيذر الإفريقي، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي، قال: حدّثنا المنيذر الإفريقي، وكان سكن إفريقية، وكان صحب رسول الله ، أنّه سمعه يقول: **من قال: رضيت بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيّاً، فأنا الزعيم له، فلآخذنّ بيده، فلأدخلنّه الجنة** وروواه عنه ابن عبد البر بسنده إليه، وسيأتي إن شاء الله تعالى في حق المنيذر مزيد بيان.

ولمّا قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه سأل مغيثاً أن يسلم إليه العلج صاحب قرطبة الذي كان في إساره، فامتنع عليه، وقال: لا يؤديه للخليفة سواي، وكان يدلّ بولائه من الوليد، فهجم عليه موسى فانتزعه منه، فقيل له: إن سرت به حيّاً معك ادعاه مغيث، والعلج لا يذكر قوله، ولكن اضرب عنقه، ففعل، فاضطغنها عليه مغيث، وصال إلباً مع طارق الساعي عليه، واستخلف موسى على طنجة وما يليها من المغرب ابنه الآخر عبد الملك، وقد كان - كما مرّ - استخلف بإفريقية أكبر أولاده عبد الله، فصار جميع الأندلس والمغرب بيد أولاده؛ وابنه عبد الله الذي خلفه بإفريقية هو الفاتح لجزيرة ميورقة. وسار موسى فورد الشام، واختلف الناس: هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده؟ فمن يقول بالثاني قال: قدم على سليمان حين استخلف، وكان منحرفاً عنه، فسبق إليه طارق ومغيث بالشكية منه، ورمياه بالخيانة، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة، وقالا له: إنّه قد غلّ جوهراً عظيم القدر

أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله، فلمّا وافى سليمان وجده ضغيناً عليه، فأغلظ له، واستقبله بالتأذيب والتوبيخ، فاعتذر له ببعض العذر، وسأله عن المائدة، فأحضرها، فقال له: زعم طارق أنّه الذي أصابها دونك، قال: لا، وما رآها قطّ إلا عندي، فقال طارق: فليسأله أمير المؤمنين عن الرِّجل التي تنقصها، فسألهن فقال هكذا أصبتها، وعوضتها رِجلاً صنعتها لها، فحول طارق يده إلى قبائه فأخرج الرِجل، فعلم سليمان صدقه وكذب موسى، فحقّق جميع ما رمي به عنده، وعزله عن جميع أعماله، وأقصاه وحبسه، وأمر بتقصّي حسابه، فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه، حتى اضطره إلى أن سأل العرب معونته، فيقال: إن لخماً حملت عنه في أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً، وقيل: حمله سليمان غرم مائتي ألف، فأدى مائة ألف، وعجز، فاستجار بيزيد بن المهلب أثير سليمان، فاستوهبه من سليمان، فوهبه إيّاه، إلا أنّه عزل ابنه عبد الله عن إفريقية.

وقال الرازي: إن الذي أزعج موسى عن الأندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلاً، وقفل معه من أحبّ المشرق، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الأندلس لطيبها، فأقاموا فيها.

* * *

نهاية موسى وابنه عبد العزيز

وذهب جماعة من أهل التاريخ إلى أن موسى إنّما قدم على الوليد، وأن سليمان وليّ العهد لمّا سمع بقرب موسى بن نصيرمن دمشق - وكان الوليد مريضاً - كتب - أي سليمان - إلى موسى يأمره بالتربص، رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ما رئي ولا سمع مثلها، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس، فأبى موسى من ذلك، ومنعه دينه منه، وجدّ في السير حتى قدم والوليد حيٌّ، فسلّم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر، فلم يمكث الوليد إلاّ يسيراً بعد قدوم

موسى، وتوفّي، واستخلف سليمان، فحقد عليه وأهانه، وأمر بإقامته في الشمس حتى كاد يهلك، وأغرمه أموالاً عظيمة، ودسّ إلى أهل الأندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الأندلس، وهو عبد العزيز بن موسى، وكان تولى الأندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه إيّاه كما سبق، فضبط سلطانها، وضمّ نشرها، وسدّ ثغورها، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة ممّا كان قد بقي على أبيه موسى منها، وكان من خير الولاة، إلاّ أن مدّته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم إيّاه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان الموقع بأبيه موسى لأشياء نقموها عليه، منها: زعموا تزوّجه لزوجة لذريق المكنّاة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح، وباءت بالجزية، وأقامت على دينها في ظل نعمتها إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز، فحظيت عنده. ويقال: إنّه سكن بها في كنيسة بإشبيلية، وإنّها قالت له: لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق - زوجها الأول - أهل مملكته؟ فقال لها: إن هذا حرام في ديننا، فلم تقنع منه بذلك، وفهم لكثرة شغفه بها أن عدم ذلك ممّا يزري بقدره عندها، فاتخذ باباً صغيراً قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه، فينحنون، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له، فرضيت بذلك، فنمي الخبر إلى الجند، مع ما انضم إلى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله، فقتلوه، سامحه الله تعالى.

وقال بعضهم: كانت ولادة موسى بن نصير في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة تسع عشرة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأجلّ السلام، وعلى آله وصحبه أجمعين، انتهى.

وقال الحجاري في المسهب: يحكى أن موسى بن نصير ألقى بنفسه على يزيد بن المهلب لمكانه من أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، وطلب منه أن يكلمه في أن يخفّف عنه؛ فقال له يزيد: أريد أن أسألك فأصغ إليّ؛ قال: سل عمّا بدا لك، فقال له: لم أزل أسمع عنك أنّك من أعقل الناس، وأعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي: كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت

الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار، وتيقنت بعد المرام واستصعابه، واستخلصت بلاداً أنت افترعتها، واستملكت رجالاً لا يعرفون غير خيرك وشرّك، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد من لا يرحمك، ثم إنّك علمت أن سليمان وليّ عهد، وأنّه المولّى بعد أخيه، وقد أشرف أخوه على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالفته، وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك - قال: يعني سليمان وطارقاً - وما رضى هذا الرجل عنك إلاّ بعيد، ولكن لا آلو جهداً، فقال موسى: يا ابن الكرام، ليس هذا وقت تعديد، أما سمعت " إذا جاء الحين غطى العين "؟ فقال: ما قصدت بما قلت لك تعديداً ولا تبكيتاً، وإنّما قصدت تلقيح العقل، وتنبيه الرأي، وأن أرى ما عندك؛ فقال موسى: أما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الأرض عن بعد، ويقع في الفخ وهو بمرأى عينه؟ ثم كلم فيه سليمان، فكان من جوابه إنّه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور، وانقياد الجمهور، والتحكم في الأموال والأبشار، على مالا يمحوه إلا بالسيف، ولكن قد وهبت لك دمه، وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يردّ ما غلّ من مال الله. قال: وآلت حاله إلى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ما يفتكّ به نفسه، وفي تلك الحال مات، وهو من أفقر الناس وأذلهم، بوادي القرى، سائلاً من كان نازلاً به.

وقال أحد غلمانه ممّن وفى له في حال الفقر والخمول: لقد رأيتنا نطوف مع الأمير موسى بن نصير على أحياء العرب، فواحد يجيبنا، وآخر يحتجب عنّا، ولربما دفع إلينا على جهة الرحمة الدرهم والدرهمين، فيفرح بذلك الأمير ليدفعه إلى الموكلين به، فيخففون عنه من العذاب، ولقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالأندلس نأخذ السلوك من قصور النصارى، فنفصل منها ما يكون من الذهب وغير ذلك ونرمي به، ولا نأخذ إلا الدرّ الفاخر، فسبحان الذي بيده العزّ والذل والغنى والفقر.

قال: وكان له مولى قد وفى له وصبر عليه إلى أن ضاق ذرعه بامتداد الحال، فعزم على أن يسلمه وهو بوادي القرى في أسوأ حال، وشعر بذلك موسى، فخضع للمولى المذكور، وقال له: يا فلان، أتسلمني في هذه الحالة؟ فقال له المولى، من شدة ما كان فيه من الضجر: قد أسلمك خالقك ومالكك الذي هو أرحم الراحمين، فدمعت عيناه، وجعل يرفعهما إلى السماء خاضعاً مهيناً بشفتيه، فما سفرت تلك الليلة إلاّ عن قبض روحه، رحمة الله عليه، فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه، وإنّ فعل سليمان به وبولده وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه بالأندلس وقد جيء به من أقصى المغرب بين يديه من وصماته التي تعدّ عليه طول الدهر، لا جرم أنّ الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه.

وذكر ابن حيّان أن موسى كان عربياً فصيحاً. وقد سبق من مراجعة يزيد بن المهلب ما يدل على بلاغته، ويكفي منها ما ذكره ابن حيّان أنّه كتب إلى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الأندلس وغنائمها " إنّها ليست الفتوح، ولكنّها الحشر ". ونص ابن بشكوال على أن موسى بن نصير مات بوادي القرى سنة سبع وتسعين، وأغزى الأندلس سنة إحدى وتسعين، وذكر أن ولايته على الأندلس المباشرة - مذ دخلها إلى حين خروجه منها - سنة واحدة، ومكث فيها مولاه طارق سنة، انتهى. وقد تقدم شيء من ذلك.

* * *

ثبت بأسماء الأمراء

وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الأندلس من لدن الفتح إلى آخر ملوك بني أمية، وإن تقدّم، ويأتي ذكر جملة منهم بما هو أتم ممّا هنا؛ فنقول:

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير.

ثمّ الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة.

ثمّ عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريره إشبيلية.

ثمّ أيوب بن حبيب اللخمي، وسريره قرطبة، وكل من يأتي بعده فسريره قرطبة أو الزهراء والزاهرة بجانبيها إلى أن انقضت دولة بني مروان على ما ينبه عليه.

ثمّ الحر بن عبد الرحمن الثقفي.

ثمّ السّمح بن مالك الخولاني.

ثمّ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي.

ثمّ عنبسة بن سحيم الكلبي.

ثمّ عذرة بن عبد الله الفهري.

ثمّ يحيى بن سلمة الكلبي.

ثمّ عثمان بن أبي نسعة الخثعمي.

ثمّ حذيفة بن الأحوص القيسي.

ثمّ الهيثم بن عديّ الكلابي.

ثمّ محمد بن عبد الله الأشجعي.

ثمّ عبد الملك بن قطن الفهري.

ثمّ بلج بن بشر بن عياض القشيري.

ثمّ ثعلبة بن سلامة العاملي.

ثمّ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي.

ثمّ ثوابة بن سلامة الجذامي.

ثمّ يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

وهنا انتهى الولاة الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة، أفراداً، عددهم

عشرون فيما ذكر ابن سعيد، ولم يعتدّوا في السّمة لفظ الأمير.

قال ابن حيّان: مدّتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصراني - وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين - إلى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة - وهو يوم الأضحى لعشر خلون من ذي الحجّة سنة ثمان وثلاثين ومائة - ست وأربعون سنة وخمسة أيام، انتهى.

* * *

حكام بني أميّة

ثمّ كانت دولة بني أميّة:

أولهم: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

ثمّ ابنه هشام الرضى.

ثمّ ابنه الحكم بن هشام.

ثمّ ابنه عبد الرحمن الأوسط.

ثمّ ابنه محمد بن عبد الرحمن.

ثمّ ابنه المنذر بن محمد.

ثمّ أخوه عبد الله بن محمد.

ثمّ ابن ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله.

ثمّ ابنه الحكم المستنصر، وكرسيهما الزهراء.

ثمّ هشام بن الحكم، وفي أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبي عامر الزاهرة.

ثمّ المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وهو أول خلفاء الفتنة، وهدمت في أيّامه الزهراء والزاهرة، وعاد السرير إلى قرطبة.

ثمّ المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر.

* * *

الحموديون

ثمّ تخللت دولة بني حمّود العلويين:

وأولهم: الناصر علي بن حمّود العلوي الحسني الإدريسي.

ثمّ أخوه المأمون القاسم بن حمّود.

ثمّ المعتلي يحيى بن الناصر علي بن حمّود.

* * *

بقيّة بني أميّة

ثمّ كانت دولة بني أمية الثانية:

وأولها: المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر.

ثمّ المستكفي محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر.

ثمّ المعتدّ هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر، وهو آخر خلفاء الجماعة بالأندلس، وحين خلع أسقط ملوك الأندلس الدعوة للخلافة المروانية.

* * *

ملوك الطوائف ومن بعدهم

واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور في قرطبة، وابن عبّاد بإشبيلية، وغيرهما، ولم يعد نظام الأندلس إلى شخص واحد، إلى أن ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من برّ العدوة، وفتك في ملوك الطوائف، وبعد ذلك ما خلصت له ولا لولده علي بن يوسف، فما صفت لعبد المؤمن بمحمد بن مردنيش الذي كان ينازعه في شرق الأندلس، ثمّ صفت ليوسف بن عبد المؤمن بموت ابن

مردنيش، ثم لمن بعده من بنيه، وحضرتهم مرّاكش، وكانت ولاتهم تتردّد على الأندلس وممالكها، ولم يولوا على جميعها شخصاً واحداً لعظم ممالكها، إلى أن انقرضت منها دولتهم بالمتوكل محمد بن هود من بني هود ملوك سرقسطة وجهاتها، فملك معظم الأندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان، ولم ينازعه فيها إلاّ زيّان بن مردنيش في بلنسية من شرق الأندلس، وابن هلالة في طبيرة من غرب الأندلس، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته، ولمّا قتله وزيره ابن الرّميمي بالمريّة زاد الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر. وكان أهل غرب الأندلس في المائة السابعة يخطبون لصاحب إفريقية السلطان أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، ثم تقلّصت تلك الظلال، ودخل الجزيرة الانحلال، إلى أن استولى عليها حزب الضلال، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقد ذكرت في هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الأندلس ممّا يصلح للمذاكرة، وربما سرّحت طرف القلم في بعضهم.

وبنو جهور المشار إليهم قريباً كانوا وزراء الأمويين، ثمّ إنّه لمّا انتثر سلك الخلافة استبدّ بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدى اسم الوزارة.

* * *

جهور بن محمد بن جهور

قال في " المطمح ": الوزير الأجلّ جهور بن محمد بن جهور، [وبنو جهور] أهل بيت وزارة، واشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزارة، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمّات، ركب متون الفتون فراضها، ووقع في بحور المحن فخاضها، منبسط غير منكمش، واعترفت باستقلاله، فلمّا انقرضت وعاقت الفتن واعترضت، تحيز عن التدبير مدّتها، وخلّى لخلافه أعباء الخلافة

وشدّتها، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدبر، ويذهل الأمر معهم ويدبّر، غير مظهر للانفراد، ولا متصرّف في ميدان ذلك الطّراد، إلى أن بلغت الفتنة مداها، وسوّغت ما شاءت رداها، وذهب من كان يخد في الرياسة ويخبّ، ويسعى في الفتنة ويدبّ، ولمّا ارتفع الوبال، وأدبر ذلك الإقبال، راسل أهل التقوى مستمدّاً بهم، ومعتمداً على بعضهم، تحيّلاً منه وتمويهاً، وتداهياً على أهل الخلافة وذويها، وعرض عليهم تقديم المعتدّ هشام، وأومض منه لأهل قرطبة برق خلّب يشام، بعد سرعة التياثها، وتعجيل انتكاثها، فأنابوا إلى الإجابة، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحجابة، وتوجهوا مع ذلك الإمام، وألمّوا بقرطبة أحسن إلمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، واضطرابات مستثيرة، والبلد مقفر، والجلد مسفر، فلم يبق غير يسير حتى جبذ واضطرب أمره فخلع، واختطف من الملك وانتزع، وانتقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العلوية، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم، ودبّرها بالجد والعزم، وضبطها ضبطاً أمّن خائفها، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها، وخلا له الجوّ فطار، واقتضى اللّبانات والأوطار، فعادت له قرطبة إلى أكمل حالتها، وانجلى به نور جلالتها، ولم تزل به مشرقة، وغصون الآمال فيها مورقة، إلى أن توفّي سنة ٤٣٥ فانتقل الأمر إلى ابنه أبي الوليد، واشتمل منه على طارف وتليد، وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال، وعدم فيها المثال.

* * *

انتقاض حال الأندلس

رجع إلى ما كنّا فيه - وكانت لأهل الأندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع في الكفّار شفت الصدور من أمراضها، ووفت النفوس بأغراضها، واستولت على ما كان لمّلة الكفر من جواهرها وأعراضها، ثم وقع الاختلاف، بعد ذلك الائتلاف، فعصفت ريح العدوّ والحروب سجال، وأعيا العلاج حكماء الرجال، فصار أهل الأندلس يتذكرون موسى بن نصير وطارق، ومن بعدهما من ملوك الأندلس الذين راعت العدوّ الكافر منهم طوارق.

* * *

الباب الثالث

في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس من العز السامي العماد، والقهر للعدوّ في الرواح والغدوّ والتحرّك والهدوّ والارتياح البالغ غاية الآماد، وإعمال أهلها للجهاد، بالجدّ والاجتهاد، في الجبال والوهاد، بالأسنة المشرعة والسيوف المستلّة من الأغماد

الباب الثالث:

في سرد بعض ما كان للدين بالأندلس

من العز السامي العماد، والقهر للعدوّ في الرواح والغدوّ والتحرّك والهدوّ والارتياح البالغ غاية الآماد، وإعمال أهلها للجهاد، بالجدّ والاجتهاد، في الجبال والوهاد، بالأسنة المشرعة والسيوف المستلّة من الأغماد

أقول: قدّمنا في الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين، وفتحهم الأندلس، وما حصل لهم من سلطان بها إلى مجيء الداخل، فتقررت القواعد السلطانية، وعلت الكلمة الإيمانية، كما نسرده هنا إن شاء الله تعالى.

وذكر غير واحد - منهم ابن حزم - أن دولة بني أمية بالأندلس كانت أنبل دول الإسلام، وأنكاها في العدوّ، وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه، كما سترى بعضه.

* * *

عبد الرحمن الداخل

وأصل هذه الدولة - كما قال ابن خلدون وغير واحد - أن بني أمية لمّا نزل بهم بالمشرق ما نزل، وغلبهم بنو العباس على الخلافة، وأزالوهم عن كرسيّها، وقتل عبد الله بن عليّ مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وتتبّع بني مروان بالقتل، فطلبوا بطن الأرض من بعد ظهرها، وكان ممّن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان قومه يتحيّنون له ملكاً بالمغرب، ويرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن ملمة ابن عبد الملك، وكان هو قد سمعها منه مشافهة، فكان يحدّث نفسه بذلك، فخلص إلى المغرب، ونزل على أخواله نفزة من برابرة طرابلس، وشعر

عبد الرحمن بن حبيب، وكان قد قتل ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك لمّا دخلا

إفريقية، فلحق بمغيلة، وقيل: بمكناسة، وقيل: بقوم من زناتة، فأحسنوا قبوله، واطمأن فيهم، ثم لحق بمليلة، وبعث بدراً مولاه إلى من بالأندلس من موالي المروانيين وأشياعهم، فاجتمع بهم وبثّوا له في الأندلس دعوة، ونشروا له ذكراً، ووافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمنية والمضريّة فأصفقت اليمنية على أمره لكون الأمر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصّميل، ورجع بدر مولاه إليه بالخبر، فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة في خلافة أبي جعفر المنصور، ونزل بساحل المنكّب، وأتاه قوم من أهل إشبيلية فبايعوه، ثم انتقل إلى كورة ريّة فبايعه عاملها عيسى بن الصباح، ونهد إلى قرطبة فاجتمعت إليه اليمنية، ونمي خبره إلى والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكان غازياً بجلّيقية، فانفضّ عسكره، ورجع إلى قرطبة، وأشار عليه وزيره الصّميل بن حاتم بالتلطّف له، والمكر به، لكونه صغير السن، حديث عهدٍ بنعمة، فلم يتم ما أراده، وارتحل عبد الرحمن من المنكّب، فاحتلّ بمالقة فبايعه جندها، ثم برندة، ثم بشريش كذلك، ثم بإشبيلية، فتوافت إليه جنود الأمصار، وتسايلت المضرية إليه، حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الصّميل منه زحف حينئذ عبد الرحمن الداخل، وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة، فانكشف يوسف، ونجا إلى غرناطة فتحصّن بها، واتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله، ثم رغب إليه يوسف في الصلح، فعقد له على أن يسكن قرطبة ثم أقفله معه، ثمّ نقض يوسف عهده، وخرج سنة إحدى وأربعين ومائة، ولحق بطليطلة، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر، وقدّم الأمير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني، وكان وفد عليه من المشرق، وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر، فلمّا دخلت السوّدة أرض مصر خرج عبد الملك يؤمّ الأندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة، حتى نزل على عبد الرحمن سنة أربعين، فعقد له على إشبيلية، ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور، وسار يوسف إليهما، وخرجا إليه ولقياه، وتناجز الفريقان، فكانت

الدائرة على يوسف، وأبعد المفرّ، واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة، واحتزّ رأسه، وتقدم به إلى الأمير عبد الرحمن، فاستقام أمره، واستقر بقرطبة، وثبت قدمه في الملك، وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة، وأنفق فيه ثمانين ألف دينار، ومات قبل تمامه، وبنى مساجد، ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور، ثم قطع دعوته، ومهّد الدولة بالأندلس، وأثّل بها الملك العظيم لبني مروان والسلطان العزيز، وجدّد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها، واستلحم الثّوّار عليه على كثرتهم في النّواحي، وقطع دعوة
آل العباس من منابر الأندلس، وسدّ المذاهب منهم دونها، وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة، وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل، لأنه أول داخل من ملوك بني مروان إلى الأندلس، وكان أبو جعفر المنصور يسميه " صقر قريش " لمّا رأى أنّه فعل بالأندلس ما فعل، وما ركب إليها من الأخطار، وأنّه نهد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار، فغلب أهلها على أمرهم، وتناول الملك من أيديهم بقوّة شكيمة، ومضاء عزم حتى انقاد له الأمر، وجرى على اختياره، وأورثه عقبه، وكان يسمّى بالأمير، وعليه جرى بنوه من بعده، فلم يدع أحد منهم بأمير المؤمنين تأدّباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر، وهو ثامن بني أمية بالأندلس، فتسمّى بأمير المؤمنين على ما سنذكره، لما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد الثلاثمائة، وغلبة الأعاجم عليهم، وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم، وتوارث التلقيب بأمير المؤمنين بنوا عبد الرحمن الناصر واحداً بعد واحد.

قال ابن خلدون: وكان لبني عبد الرحمن الداخل بالعدوة الأندلسية مُلكٌ ضخمٌ ودولةٌ متسعة اتصلت إلى ما بعد المائة الرابعة، وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوي أمر الجلالقة، واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها، وملكها من أيديهم،

فملك مدينة لكّ وبرتقال وسمّورة وشلمنقة قشتالة وشقوبية، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة، ثم استعادوها بعده فيما استعادوه من بلاد الأندلس، واستولوا على جميعها حسبما يذكر، ولله سبحانه الأمر؛ انتهى.

وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرّس به مدة، فأصابه صلب المكسر، تامّ الرجولية، فمال معه إلى المداراة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابه للسلم، ولم تتم المصاهرة.

وقال ابن حيّان: ألفى الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً، فأرهف أهلها بالطاعة السلطانية، وحنّكهم بالسيرة الملوكية، وأخذهم بالآداب فأكسبهم عمّا قليلٍ المروءة، وأقامهم على الطريقة، وبدأ فدوّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرط الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العاد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدّته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذوا جانبه، وتحاموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقلّ له الأمر فيها. فلذلك ما ظلّ عدوّه أبو جعفر المنصور - بصدق حسّه، وبعد غوره، وسعة إحاطته - يسترجح عبد الرحمن كثيراً، ويعد له بنفسه، ويكثر ذكره، ويقول: لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذيّ الفذ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونشبه، وتسلّيه عن جميع ذلك ببعد مرقى همّته، ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرةً شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيّهم، وذلّه أبيّهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكاً على قطعته، قاهراً لأعدائه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك لهو الفتى كلّ الفتى لا يكذب مادحه. وجعل ابن حيّان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لأبي

جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصّرامة، والاجتراء على الكبائر والقساوة، وأنّ أم كل واحد منهما بربرية.

وكان الداخل يقعد للعامة، ويسمع منهم، وينظر بنفسه فيما بينهم، ويتوصل إليه من أراده من الناس، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة، وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه، ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه.

وفي كتاب ابن زيدون أنّه كان أصهب، خفيف العارضين، بوجهه خالٌ، طويل القامة، نحيف الجسم، له ضفيرتان، أعور أخشم؛ والأخشم: الذي لا يشم، وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرّب وقطع البر والبحر، وأقام ملكاً قد أدبر وحده.

ولمّا ذكر الحجاري أنّه أعور قال: ما أنشد فيه إلاّ قول امرئ القيس:

لكـــــن عــــــوير وفى بذمّتـــــــه ::: لا عـــــورٌ شـــــانه ولا قصـــــر

وقال ابن خلدون: وفي " سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خلق، فسار عبد الرحمن إليه ولقيه بنواحي إشبيلية، فقاتله أيّاماً، ثمّ انهزم العلاء، وقتل في سبعة آلاف من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوس كثير منهم إلى القيروان ومكّة، فألقيت في أسواقها سرّاً، ومعها اللواء الأسود، وكتاب المنصور للعلاء "، فارتاع المنصور لذلك وقال: ما هذا إلا شيطان، والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاماً هذا معناه، وقد مرّ ذكر ذلك.

وكثرت ثورة رؤساء العرب بالأندلس على عبد الرحمن الداخل، ونافسوه ملكه، ولقي منهم خطوباً عظيمة، وكانت العاقبة له، واستراب في آخر أمره بالعرب، لكثرة من قام عليه منهم، فرجع إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالي، ثم غزا بلاد الإفرنج والبشكنس ومن وراءهم، ورجع بالظّفر، وكان في نسته أن يجدّد دولة بني مروان بالمشرق، فمات دون ذلك الأمل،

وكانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، إذ دخل الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة، ومات سنة اثنتين وسبعين، وقيل: إحدى وسبعين ومائة، في خلافة الرشيد، وأمّه أم ولد بربرية اسمها راح، ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة، بدير حنا من أرض دمشق، وقيل: بالعلياء من تدمر، ومات أبوه في أيام أبيه هشام سنة ثماني عشرة عن إحدى وعشرين سنة، وكفله وإخوته جدّهم هشام، ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الأخماس التي اجتمعت للخلفاء بالأندلس، وأقطعه إيّاها، ووجّه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى، وقيل: إنّه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة: بدر مولى أبيه، وأبو شجاع، وزياد، وعمرو، وقيل: إن بدراً لحقه ولم يخرج معه، فالله أعلم، وخلّف من الولد عشرين، ومنهم أحد عشر رجلاً وتسع إناث.

* * *

هشام بن عبد الرحمن

وتولى المُلك بعده ابنه هشام بعهد منه إليه، وأمّه أم ولد اسمها حلل، وأفضى إليه الملك وهو بماردة والٍ عليها، وكان أبوه يوليه في صباه ويرشحه للأمر، وكان الداخل كثيراً ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام، فيذكر له أن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال، وما أشبه ذلك، وإذا حضر سليمان مجلساً امتلأ سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عينه بمقدار ما يصغر سليمان، وقال يوماً لهشام: لمن هذا الشعر:

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ::: ومن خاله أو من يزيد ومن حجر
سماحة ذا، وبرّ ذا، ووفاء ذا، ::: ونائل ذا، إذا صحا وإذا سكر

فقال له: يا سيدي لامرئ القيس ملك كندة، وكأنّه قاله في الأمير أعزّه الله؛ فضمّه إليه استحساناً بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير، وزاد في عينه. ثم قال لسليمان على انفراد: لمن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرب، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبد

الرحمن، وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية.

وكان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور فيسألون الناس عن سير عمّاله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه، ولم يستعمله بعد.

ولمّا وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال: ليت أن الله تعالى زين موسمنا بمثل هذا.

وفي أيامه فُتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة، وبنى منه المسجد الذي قدّام باب الجنان، وفضلت منه فضلة بقيت مكوّمة.

وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له.

وقصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد ألبة والقلاع، فلقي العدوّ وظفر بهم، وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين. وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بخت فلقي ملكها برمند، وهزمه، وأثخن في العدوّ.

وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدوّ، فبلغ ألبة والقلاع، فأثخن في نواحيها، ثمّ بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجرندة فأثخن فيها، ووطئ أرض برطانة، وتوغل عبد الملك في بلاد الكفر وهزمهم، ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين، ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد جليقية، فانتهى إلى استرقة، فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس، ثم خام عن اللقاء، ورجع أدراجه، واتبعه عبد الملك، وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى، فالتقوا بعبد الملك، وأثخنوا في البلاد، واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشيء، ثم خرجوا سالمين

ظافرين.

ومن محاسنه: أنّه جدّد القنطرة التي يضرب بها المثل بقرطبة كما سبق، وكان بناها السّمح الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فأحكم هشام بناءها إلى الغاية، وقال يوماً لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟ فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلا ليمضي عليها إلى صيده وقنصه، فآلى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها، فلم يمرّ عليها بعد، ووفى بما حلف عليه.

ومن محاسنه أيضاً: إكمال بناء الجامع بقرطبة، وكان أبوه شرع فيه.

ومن محاسنه: أنّه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنّة، رحمه الله.

ثمّ توفّي سنة ثمانين ومائة، لسبع سنين وتسعة أشهر من إمارته، وقيل: لثمان، وكان من أهل الخير والصلاح، كثير الغزو والجهاد، وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر، وولد في شوال سنة ١٣٩ هـ.

* * *

الحكم بن هشام

وولي بعده ابنه الحكم بعهدٍ منه إليه، فاستكثر من المماليك، وارتبط الخيل، واستفحل ملكه، وباشر الأمور بنفسه، وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدوّ الكافر الفرصة في بلاد المسلمين، وقصدوا برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها، وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الجلالقة، فأثخنوا فيها، وخالفهم العدو إلى المضايق، فرجع على التعبية، وظفر بهم، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافراً.

وكانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الرّبض من قرطبة لأنّه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذّاته، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة، مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطّإ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما، فثاروا

به، وخلعوه، وبايعوا بعض قرابته، وكانوا بالرّبض الغربيّ من قرطبة، وكان محلّةً متصلةً بقصره، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم، ولحقوا بفاس من أرض العدوة، وبالإسكندرية من أرض المشرق، ونزل بها جمع منهم، ثم ثاروا بها، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد، وغلبهم، وأجازهم إلى جزيرة أقريطش، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدّة.

وكانت في أيّام الحكم حروب وفتن مع الثوّار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم.

وفي سنة ثنتين وتسعين جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه، وسار إلى حصار طرسونة، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر، فهزمه، ففتح الله على المسلمين، وعاد ظافراً.

ولمّا كثر عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين، فافتتح الثغور والحصون، وخرّب النواحي، وأثخن في القتل والسبي والنهب، وعاد إلى قرطبة ظافراً.

وفي سنة مائتين بعث العساكر مع ابن مغيث إلى بلاد الفرنج فخرب وهدم عدّة حصون، وأقبل عليه أليط ملك الجلالقة في جموع عظيمة، وتنازلوا على نهر، واقتتلوا عليه أيّاماً، ونال المسلمون منهم أعظم النّيل، وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة، ثم كثرت الأمطار، ومدّ النهر، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين.

وهو أوّل من جنَّد الأجناد، واتخذ العدّة، وكان أفحل بني أميّة بالأندلس، وأشدّهم إقداماً ونجدة، وكان يشبّه بأبي جعفر المنصور من خلفاء بني العبّاس في شدّة الملك وتوطيد الدولة وقمع الأعداء، وكان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن، وحضر يوماً عنده، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله إليه كتاباً كره وصوله، فأمر بقطع يده، فقال له زياد: أصلح الله الأمير، فإن مالك بن أنس

حدّثني في خبر رفعه أن " من كظم غيظاً يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمناً وإيماناً يوم القيامة "، فأمر أن يمسك عن الخادم، ويعفى عنه، فسكن غضبه، وقال: آلله إن مالكاً حدّثك بهذا؟ فقال زياد: ألله إن مالكاً حدثني بهذا.

وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة، فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات، وكان نقش خاتمه " بالله يثق الحكم ويعتصم ".

وذكور ولده عشرون، وإناثهم عشرون، وأمُّه جارية اسمها زخرف. وكان أسمر، طوالاً، وأشمّ، نحيفاً. ومدّة ملكه ست وعشرون سنة، سامحه الله.

ومن بديع أخبار الحكم أن العباس الشاعر توجّه إلى الثّغر، فلمّا نزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا حتى كلب العدوّ علينا، فأيّمنا وأيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو، فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أوّلها:

تململت في وادي الحجارة مسهرا ::: أراعي نجوماً ما يردن تغوّرا
إليك أبا العاصي نضيت مطيّتي ::: تسير بهم سارياً ومهجّرا
تدارك نساء العالمين بنصرة ::: فإنّك أحرى أن تغيث وتنصرا

فلمّا دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه، فأنف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التي أغارت من أيّ أرض العدوّ كانت، فَأُعلم بذلك، فغزا بتلك الناحية وأثخن فيها، وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عدداً كثيراً، وجاء إلى وادي الحجارة فأمر بإحضار المرأة وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأحضر، فأمر بضرب رقاب الأسرى بحضرتها، وقال للعباس: سلها: هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة، وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدوّ، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعزّ نصره؛ فارتاح لقولها، وبدا السرور في وجهه وقال:

ألم تر يا عبّاس أنّي أجبتها ::: على البعد أقتاد الخميس المظفّرا

فأدركت أوطاراً وبرّدت غلّةً ::: ونفّست مكروباً وأغنيت معسرا

فقال عبّاس: نعم، جزاك الله خيراً عن المسلمين، وقبّل يده.

وممّا عُيب به أنّه قتل الفقيه أبا زكريا يحيى بن مضر القيسي، وكان قدوة في الدين والورع، سمع من سفيان ومالك بن أنس، وروى عنه مالك وقال: حدّثنا يحيى بن مضر عن سفيان الثوري أن الطّلح المنضود هو الموز، وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم.

* * *

عبد الرحمن بن الحكم

وقام بأمره من بعده ابنه عبد الرحمن، بعهد منه إليه، ثم لأخيه المغيرة بعده، فغزا عبد الرحمن لأول ولايته إلى جليقية وأبعد، وأطال المغيب، وأثخن في أمم النصرانية هنالك، ورجع.

وفي سنة ثمان: أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد إلى ألبة والقلاع، فخرّب كثيراً من البلاد وانتسفها، وفتح كثيراً من حصونهم، وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافراً.

وفي سنة أربع وعشرين: بعث قريبه عبيد الله بن البلنسي في العساكر لغزو ألبة والقلاع، فسار ولقي العدوّ فهزمهم وأكثر القتل والسبي، ثم خرج لذريق ملك الجلالقة، وأغار على مدينة سالم بالثغر، فسار إليه فرتون بن موسى، وقاتله، فهزمه وأكثر القتل والسبي في العدو والأسر، ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبة بالثغر نكايةً للمسلمين، فافتتحه وهدمه، ثم سار عبد الرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقية، فدوّخها وافتتح عدّة حصون منها، وجال في أرضهم، ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم.

وفي سنة ست وعشرين: بعث عبد الرحمن العساكر إلى أرض الفرنجة، وانتهوا إلى أرض بريطانية، وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى

عامل تطيلة، ولقيهم العدوّ، فصبر حتى هزم الله عدوّهم، وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود.

وفي سنة تسع وعشرين: بعث ابنه محمداً بالعساكر، وتقدم إلى بنبلونة، فأوقع بالمشركين عندها، وقتل غرسية صاحبها، وهو من أكبر ملوك النصارى.

وفي أيامه ظهر المجوس، ودخلوا إشبيلية، فأرسل إليهم عبد الرحمن العساكر مع القوّاد من قرطبة، فنزل المجوس من مراكبهم، وقاتلهم المسلمون، فهزموهم بعد مقام صعب، ثم جاءت العساكر مدداً من قرطبة فقاتلهم المجوس، فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها، ورحل المجوس إلى شذونة فأقاموا عليها يومين، وغنموا بعض الشيء، ووصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشبيلية فأقلع المجوس إلى لبلة، وأغاروا وسبوا ثم إلى باجة ثم أشبونة، ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من أشبونة، وسكنت البلاد، وذلك سنة ثلاثين، وتقدّم عبد الرحمن بإصلاح ما خربوه من البلاد، وأكثف حاميتها.

وفي سنة إحدى وثلاثين: بعث العساكر إلى جليقية فدوّخوها، وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق، وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه، لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فثلموا فيه ثلمة ورجعوا.

ثم أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة، فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمّى البرت إلى بلاد الفرنجة فدوّخها قتلاً وأسراً وسبياً، وحاصر مدينتها العظمى جرندة، وعاث في نواحيها، وقفل.

وقد كان ملك القسطنطينية من ورائهم توفلس بعث إلى الأمير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغّبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم حتى إنّه ذكرهما له في كتابه له وعبّر عنهما بابني مراجل وماردة، فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية، وبعث إليه

يحيى الغزال من كبار أهل الدولة، وكان مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة، وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند منازعيه من بني العباس.

ويعرف الأمير عبد الرحمن بالأوسط، لأن الأول عبد الرحمن الداخل، والثالث عبد الرحمن الناصر.

ثم توفّي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين، بربيع الآخر، لإحدى وثلاثين سنة من إمارته؛ ومولده بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة.

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة، وكانت أيّامه أيّام هدوء وسكون، وكثرت الأموال عنده، واتخذ القصور والمتنزهات، وجلب إليها المياه من الجبال، وجعل لقصره مصنعاً اتخذه الناس شريعة، وأقام الجسور، وبنيت في أيّامه الجوامع بكور الأندلس، وزاد في جامع قرطبة رواقين، ومات قبل أن يستتمه، فأتمّه ابنه محمد بعده، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة، ورتب رسوم المملكة، واحتجب عن العامّة.

وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور، وخمسون من الإناث، ونقش خاتمه عابد الرحمن بقضاء الله راض، وهو أول من أحدث هذا النقش، وبقي وراثة لمن بعده من ولده.

وكان كثير الميل للنساء، وولع بجاريته طروب، وكلف بها كلفاً شديداً، وهي التي بنى عليها الباب ببدر المال حين تجنّت عليه. وأعطاها حلياً قيمته مائة ألف دينار. فقيل له: إن مثل هذا لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك، فقال: إن لابسه أنفس منه خطراً، وأرفع قدراً، وأكرم جوهراً، وأشرف عنصراً. وأحبّ أخرى اسمها مدثرة فأعتقها وتزوجها، وأخرى كذلك اسمها الشفاء، وأمّا جاريته قل فكانت أديبة، حسنة الحظ، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الأدب. وكان مولعاً بالسماع، مؤثراً له على جميع لذّاته، وله أخبار

كثيرة، رحمه الله.

* * *

محمد بن عبد الرحمن

ولمّا مات وليّ ابنه محمدٌ، فبعث لأوّل وليته عساكر مع موسى بن موسى صاحب تطيلة، فعاث في نواحي ألبة والقلاع، وفتح بعض حصونها، ورجع، وبعث عساكر أخرى إلى نواحي برشلونة وما وراءها، فعاثوا فيها وفتحوا حصوناً من برشلونة ورجعوا.

ولما استمدّ أهل طليطلة المخالفون من أهل بلاد الأمير محمد عليه بملكي جليقية والبشكنس لقيهم الأمي محمد على وادي سليطة، وقد أكمن لهم، فأوقع بهم، وبلغت عدّة القتلى من أهل طليطلة والمشركين عشرين ألفاً.

وفي سنة خمس وأربعين ظهرت مراكب المجوس، وعاثوا في الأندلس، فلقيهم مراكب الأمير محمد، فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين، واستشهد جماعة من المسلمين.

وفي سنة سبع وأربعين أغزى محمد إلى نواحي بنبلونة وصاحبها حينئذٍ غرسية ابن ونقه، وكان يظاهر أردون بن أذفنش، فعاث في نواحي بنبلونة، ورجع وقد دوّخها وفتح كثيراً من حصونها، وأسر فرتون ابن صاحبها، فبقي أسيراً بقرطبة عشرين سنة. ثم بعث سنة إحدى وخمسين أخاه المنذر في العساكر إلى نواحي ألبة والقلاع فعاثوا فيها، وجمع لذريق للقائهم، فلقيهم وانهزم، وأثخن المسلمون في المشركين بالقتل والأسر، فكان فتحاً لا كفاء له. ثم غزا الأمير محمد بنفسه سنة إحدى وخمسين بلاد الجلالقة، فأثخن وخرب. وفي سنة ثلاث وستين أغزى الأمير محمد ابنه المنذر إلى دار الحرب، وفي السنة التي بعدها إلى بلاد بنبلونة فدوّخها ورجع. وفي سنة ثمان وستين أغزاه أيضاً إلى دار الحرب، فعاث في نواحيها وفتح حصوناً. وفي أيام الأمير محمد

خربت ماردة وهدمت ولم يبق لها أثر. ثمّ توفّي الأمير محمّد في شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين، لخمس وثلاثين سنة من إمارته، ومولده سنة سبع ومائتين.

* * *

المنذر بن محمد

وولي بعده ابنه المنذر، ولم تطل مدّته، وأقام في الملك سنتين إلا نصف شهر، وتوفيّ منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وفيه قيل:

بالمنذر ابن محمّدٍ ::: صلحت بلاد الأندلس

* * *

عبد الله بن محمد

ثمّ ولي أخوه عبد الله، قال ابن خلدون: كان خراج الأندلس قبله ثلاثمائة ألف دينار: مائة ألف للجيوش، ومائة ألف للنفقة في النوائب وما يعرض، ومائة ألف ذخيرة ووفراً، فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثّوار والمتغلّبين في تلك السنين، وقلّ الخراج، انتهى.

وتوفّي الأمير عبد الله سنة ثلاثمائة، ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة.

* * *

عبد الرحمن الناصر

وولي حافده عبد الرحمن الناصر ابن ابنه محمد قتيل أخيه المطرف، وكانت ولايته من الغريب، لأنّه كان شابّاً، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون، فتصدّى إليها واحتازها دونهم، ووجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين، فأطفأ تلك النيران، واستنزل أهل العصيان، واستقامت له

الأندلس في سائر جهاتها بعد نيّف وعشرين سنة من أيّامه، ودامت أيّامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بني أميّة بتلك الناحية، وهو أول من تسمّى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين، عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبدّ موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلاثمائة فتلقب ألقاب الخلافة، وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو إلى دار الحرب، إلى أن هزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين، ومحّص الله فيها المسلمين، فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردّد الصّوائف في كل سنة، فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج ما لم يطؤوه قبل في أيّام سلفه، ومدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية في سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعنّ في مرضاته، ووصل إلى سدّته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب إليها من الثغور الجوفية، فقبّلوا يده، والتمسوا رضاه، واحتقبوا جوائزه، وامتطوا مراكبه، ثم سما إلى ملك العدوة فتناول سبتة - قفل الفرضة - من أيدي أهلها سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر، وأجاز إليه الكثير منهم كما يعلم من أخباره، وبدأ أمره أول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا، انتهى كلام ابن خلدون.

وما أشار إليه ابن خلدون في غزوة الخندق فصّله المسعودي فقال، بعد أن أجرى ذكر مخالفة أمية بن إسحاق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته إياهم على عورات المسلمين، ما ملخصه: وغزا عبد الرحمن صاحب الأندلس سمّورة دار الجلالقة، وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون، وكانت الوقعة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة في شوّال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة أيّام، فكانت للمسلمين عليهم، ثم ثابوا بعد أن حوصروا وألجئوا إلى المدينة، فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين

ألفاً، وقيل: إن الذي منع رذمير من طلب من نجا من المسلمين أميّة بن إسحاق، وخوّفه الكمين، ورغّبه فيما كان في عسكر المسلمين من الأموال والعدّة والخزائن، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين، ثمّ إن أميّة استأمن بعد ذلك إلى عبد الرحمن وتخلّص من رذمير، وقبله عبد الرحمن أحسن قبول. وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكر مع عدّة من قوّاده إلى الجلالقة، فكانت لهم بهم عدّة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى، وكانت للمسلمين عليهم إلى هذه الغاية، ورذمير ملك الجلالقة إلى هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢، انتهى.

* * *

غزوات الناصر

وأخبار الناصر طويلة جدّاً، وقد منح الظفر على الثوّار، واستنزلهم من معاقلهم، حتى صفا له الوقت، وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء، فمن غزواته أنّه غزا سنة ثمان وثلاثمائة إلى جليقية وملكها أردون بن أذفونش، فاستنجد بالبشكنس والإفرنجة وظاهر شانجة بن غرسية صاحب بنبلونة أمير البشكنس، فهزمهم، ووطئ بلادهم، ودوّخ أرضهم، وفتح معاقلهم، وخرب حصونهم، ثم غزا بنبلونة سنة ثنتي عشرة، ودخل دار الحرب، ودوّخ البسائط، وفتح المعاقل، وخرّب الحصون، وأفسد العمائر، وجال فيها، وتوغل في قاصيتها، والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار، ولم يظفر منه بشيء، ثم بعد مدّة ظفر ببعض الثوّار عليه، وكان استمدّ بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة، وفتح ثلاثين من حصونهم، وبلغه انتفاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها في بنبلونة ودوّخ أرضها واستباحها، ورجع إلى قرطبة، ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين إلى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون، وقعد بعدها عن الغزو بنفسه، وصار يردد البعوث والصوائف إلى الجهاد، وبعث جيوشه إلى المغرب فملك سبتة وفاساً وغيرهما من بلاد

المغرب، وطار صيته وانتشر ذكره كما سبق. ولم هلك غرسية بن شانجة ملك البشكنس قام بأمرهم بعده أمه طوطة، وكفلت ولده، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين، فغزا الناصر بلادها، وخرب نواحي بنبلونة وردد عليها كما مرّ الغزوات، وكان قبل ذلك سنة ثنتين وعشرين غزا إلى وخشمة، ثم رحل إلى بنبلونة، فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غرسية على بنبلونة، ثم عدل إلى ألبة وبسائطها فدوّخها وخرب حصونها، ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ رذمير بن أردون، فخام عن لقائه، ودخل وخشمة، فنازله الناصر فيها، وهدم برغش وكثيراً من معاقلهم، وهزمهم مراراً، ورجع، ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة، وهابته أمم النصرانية.

ثم توفّي الناصر لدين الله ثاني - أو ثالث - شهر رمضان، من عام خمسين وثلاثمائة، أعظم ما كان سلطانه، وأعزّ ما كان الإسلام بملكه.

قال ابن خلدون: خلف الناصر في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات، انتهى.

* * *

الحكم المستنصر

ولمّا توفّي الناصر لدين الله تولى الخلافة بعده وليّ عهده الحكم المستنصر بالله فجرى على رسمه، ولم يفقد من ترتيبه إلاّ شخصه، وولي حجابته جعفر المصحفي، وأهدي له يوم ولايته هديّة كان فيها من الأصناف ما ذكره ابن حيّان في المقتبس وهي: مائة مملوك من الإفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو الشّكة والأسلحة من السيوف والرماح والدّرق والتراس والقلانس الهندية، وثلاثمائة ونيّف وعشرون درعاً مختلفة الأجناس، وثلاثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هنديّة، وخمسون خوذة خشبية من بيضات الفرنجة من غير الخشب يسمونها الطشطانة، وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية، وعشرة

جواشن فضّة مذهبة، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس، انتهى.

قال ابن خلدون: ولأوّل وفاة الناصر طمع الجلالقة في الثغور، فغزا الحكم المستنصر بنفسه، واقتحم بلد فرذلند بن غندشلب، فنازل شنت اشتبين وفتحها عنوة واستباحها، وقفل، فبادروا إلى عقد السلم معه وانقبضوا عمّا كانوا فيه، ثمّ أغزى غالباً مولاه بلاد جليقية وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب، فجمع له الجلالقة، ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطأ العساكر بلد فرذلند ودوّخها، وكان شانجة بن رذمير ملك البشكنس قد انتقض، فأغزاه الحكم التجيبيّ صاحب سرقسطة في العساكر، وجاء ملك الجلالقة لنصره، فهزمهم، وامتنعوا بقورية، وعاثوا في نواحيها، وقفل، ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي إلى بلاد برشلونة، فعاثت العساكر في نواحيها، وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القومس، فعاثا فيها، وقفلا، وعظمت فتوحات الحكم وقوّاد الثغور في كل ناحية، وكان من أعظمها فتح قلهرّة من بلاد البشكنس على يد غالب، فعمرها الحكم، واعتنى بها، ثمّ فتح قطوبية على يد قائد وشقة وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث وفي بسطها من الغنم والبقر والرّمك والأطعمة والسبي ما لا يحصى.

وفي سنة أربع وخمسين سار غالب إلى بلد ألبة، ومعه يحيى بن محمّد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فابتنى حصن غرماج، ودوّخ بلادهم، وانصرف.

وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير، وأفسدوا بسائط أشبونة وناشبهم الناس القتال، فرجعوا إلى مراكبهم، وأخرج الحكم القوّاد لاحتراس السواحل، وأمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الأسطول، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جهة من السواحل.

ثمّ كانت وفادة أردون بن أذفونش ملك الجلالقة، وذلك أن الناصر لمّا أعان

عليه شانجة بن رذمير - و هو ابن عمّه، و هو الملك من قبل أردون - وحمل النصرانية على طاعته، واستظهر أردون بصهره فرذلند قومس قشتيلة، وتوقّع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر، فبادر إلى الوفادة على الحكم مستجيراً به، فاحتفل لقدومه، وعبّى العساكر ليوم وفادته، وكان يوماً مشهوداً وصفه ابن حيّان كما وصف أيّام الوفادات قبله، ووصل إلى الحكم وأجلسه، ووعده بالنصر من عدوّه، وخلع عليه، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه، وعاقده على موالاة الإسلام، ومقاطعة فرذلند القومس، وأعطى على ذلك صفقة يمينه. ورهن ولده غرسية، ودفعت الصّلات والحملان له ولأصحابه، وانصرف معه وجوه نصارى الذمّة ليوطّدوا له الطاعة عند رعيته، ويقبضوا رهنه.

وعند ذلك بعث ابن عمّه شانجة بن رذمير ببيعته وطاعته مع قواميس أهل جليقية وسمّورة وأساقفتهم، يرغب في قبوله، ويمتّ بما فعل أبوه الناصر معه، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين.

ثمّ بعث ملكا برشلونة وطرّكونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح وإقرارهما على ما كانا عليه، وبعثا بهدية، هي: عشرون صبيّاً من الخصيان الصقالبة، وعشرون قنطاراً من صوف السمّور، وخمسة قناطير من القصدير، وعشرة أدراعٍ صقلبية، ومائتا سيف فرنجية، فتقبل الهدية وعقد لهم على أن يهدموا الحصون التي تضرّ بالثغور، وأن لا يظاهروا عليه أهل ملّتهم، وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الإجلاب على المسلمين.

ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الأساقفة والقواميس يسألون الصلح، بعد أن كان توقف وأظهر المكر، فعقد لهم الحكم، فاغتبطوا ورجعوا.

ثمّ وفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس بالغرب من جليقية، وهو القومس الأكبر، فأخرج الحكم لتلقّيها أهل دولته، واحتفل لقدومها في يوم

مشهود مشهور، فوصلت وأسعفت، وعقد السلم لابنها كما رغبت، ودفع لها مالاً تقسّمه بين وقدها، دون ما وصلت به هي، وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع، فعاودها بالصّلات لسفرها، وانطلقت.

ثمّ أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط، وتلقّى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة، فبثّوها في أعمالهم، وخطبوا بها على منابرهم، زاحموا بها دعوة الشّيعة فيما بينهم، ووفد عليه من بني خزر وبني أبي العافية، فأجزل صلتهم، وأكرم وفادتهم، وأحسن منصرفهم، واستنزل بني إدريس من ملكهم العدوة في ناحية الرّيف، وأجازهم البحر إلى قرطبة، ثم جلاهم إلى الإسكندرية.

وكان محبّاً للعلوم، مكرماً لأهلها، جمّاعاً للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله، قال أبو محمد بن حزم: أخبرني تليد الخصيّ - وكان على خزانة: العلوم والكتب بدار بني مروان - أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرسة عشون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر. ووفد على أبيه أبو عليّ القالي صاحب كتاب الأمالي من بغداد فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه؛ وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار، ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه، وبعث في كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك. وجمع بداره الحذّاق في صناعة النّسخ والمهرة في الضبط والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كلّه، واجتمعت

بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلاّ ما يذكر عن الناصر العباسيّ بن المستضيء، ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوة، انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

ولنبسط الكلام على الحكم فنقول: إن الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثاني يوم وفاة أبيه يوم الخميس، وقام بأعباء الملك أتم قيام، وأنفذ الكتب إلى الآفاق بتمام الأمر له، ودعا الناس إلى بيعته، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه، وتثقيف مملكته، وضبط قصوره، وترتيب أجناده، وأوّل ما أخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر، كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم، وتكفّلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم، وأوصل إلى نفسه في الليل دون هؤلاء الأكابر من الكتّاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء، فبايعوه، فلمّا كملت بيعة أهل القصر تقدّم إلى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض إلى أخيه شقيقه أبي مروان عبيد الله المتخلف بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة، وتقدم إلى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض أيضاً إلى ابي الأصبغ عبد العزيز شقيقه الثاني، فمضى إليهما كلّ واحد منهما في قطيع من الجند، وأتيا بهما إلى قصر مدينة الزهراء، ونفذ غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لإتيان غيرهما من الإخوة، وكانوا يومئذ ثمانية، فوافى جميعهم الزهراء في الليل، فنزلوا في مراتبهم بفصلان دار الملك، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الوسط من الأبهاء المذهبة القبلية التي في السطح الممرّد، فأوّل من وصل إليه الإخوة فبايعوه، وأنصتوا لصحيفة البيعة، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها، ثم بايع بعدهم الوزراء وأولادهم وإخوتهم، ثمّ أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة، وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن

يمينه وشماله، إلا عيسى بن فطيس فإنّه كان قائماً يأخذ البيعة على الناس، وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة، فاصطف في المجلس الذي قعد فيه أكابر الفتيان يميناً وشمالاً إلى آخر البهو كلّ منهم على قدره في المنزلة، عليهم الظهائر البيض شعار الحزن، قد تقلدوا فوقها السيوف، ثم تلاهم الفتيان الوصفاء، عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية، صفين منتظمين في السطح، وفي الفصلان المتصلة به ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض، بأيديهم السيوف، يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة، ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيّهم وجعابهم، ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول شاكين في الأسلحة الرائقة والعدّة الكاملة، قامت التعبية في دار الجند والترتيب من رجّالة العبيد عليهم الجواشن والأقبية البيض، وعلى رؤوسهم البيضات الصّقيلة، وبأيديهم التّراس الملوّنة والأسلحة المزينة، انتظموا صفين إلى آخر الفصل، وعلى باب السّدّة الأعظم البوّابون وأعوانهم، ومن خارج باب السّدّة فرسان العبيد إلى باب الأقباء، واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة، موكباً إثر موكب، إلى باب المدينة الشارع إلى الصحراء، فلمّا تمّت البيعة أذن للناس بالانفضاض، إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنّهم مكثوا بقصر الزهراء إلى أن احتمل جسد الناصر - رحمه الله - إلى قصر قرطبة للدفن هنالك في تربة الخلفاء.

وفي ذي الحجّة من سنة خمسين تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب، من أهل طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس وأصقاعها، فتوصلوا إلى مجلس الخليفة بمحضر جميع الوزراء والقاضي منذر بن سعيد والملأ، فَأُخذت عليهم البيعة، ووقّعت الشهادات في نسخها.

وفي آخر صفر من سنة إحدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليه محمّداً وزياداً ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقّي غالب

الناصري صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث في الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمّه المملّك قبله شانجة بن رذمير، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير إلى باب المستنصر بالله من ذاته، غير طالب إذن ولا مستظهر بعهد، وذلك عندما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو إليه، وأخذه في التأهّب له، فاحتال في تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه، وخرج قبل أمانٍ بعقد له أو ذمّة تعصمه في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، تكنّفهم غالب الناصري الذي خرجوا إليه، فجاء به نحو مولاه الحكم، وتلقّاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم، ثم تحرّكا بهم ثاني يوم نزولهم إلى قرطبة، فأخرج المستنصر بالله إليهم هشاماً المصحفي في جيش عظيم كامل التعبية، وتقدّموا إلى باب قرطبة، فمرّوا بباب قصرها، فلمّا انتهى أردون إلى باب السّدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة، فخلع قلنسوته، وخضع نحو مكان القبر، ودعا، ثم ردّ قلنسوته إلى رأسه. وأمر المستنصر بإنزال أردون في دار الناعورة، وقد كان تقدّم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء، وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسّع له في الكرامة ولأصحابه، فأقام بها الخميس والجمعة، فلمّا كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة والزينة، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في المجلس الشرقي من مجالس السطح، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفاً في المجلس فيهم القاضي منذر بن سعيد والحكام والفقهاء، فأتى محمّد بن القاسم بن طملس بالملك أردون وأصحابه وعالي لبوسه ثوبٌ ديباجيٌّ روميٌّ أبيض وبليوال من جنسه وفي لونه، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمّة بالأندلس يؤنسونه ويبصرونه، فيهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما، فدخل بين صفّي الترتيب يقلّب الطّرف في نظم الصفوف، ويجيل الفكر في كثرتها

وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها، فراعهم ما أبصروه، وصلّبوا على وجوههم، وتأملوا ناكسي رؤوسهم غاضّين من أجفانهم قد سكّرت أبصارهم حتى وصلوا إلى باب الأقباء أوّل باب قصر الزهراء، فترجل جميع من كان خرج إلى لقائه، وتقدم الملك أردون وخاصّة قوامسه على دوابهم، حتى انتهوا إلى باب السدّة، فأمر القوامس بالترجّل هنالك والمشي على الأقدام، فترجلوا، ودخل الملك أردون وحده راكباً مع محمد بن طملس، فأنزل في برطل البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التي بدار الجند على كرسي مرتفع مكسوّ الأوصال بالفضّة، وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوّه ومناوئه شانجة بن رذمير الوافد على الناصر لدين الله - رحمه الله تعالى - فقعد أردون على الكرسي، وقعد أصحابه بين يديه، وخرج الإذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه إلى أن وصل إلى السطح، فلمّا قابل المجلس الشرقي الذي فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع برنسه، وبقي حاسراً إعظاماً لما بان له من الدنو إلى السرير، واستنهض فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح، إلى أن قطع السطح وانتهى إلى باب البهو، فلمّا قابل السرير خرّ ساجداً سويعةً، ثم استوي قائماً، ثم نهض خطواتٍ، وعاد إلى السجود ووالى ذلك مراراً إلى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى إلى يده فناوله إياها وكرّ راكعاً مقهقراً على عقبه إلى وساد ديباج مثقل بالذهب، جعل له هنالك، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير، فجلس عليه، والبهر قد علاه، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه، فدنوا ممتثلين في تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبّلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم، ووصل بوصولهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون إثر قعوده أمامه وقتاً كيما يفرخ روعه، فلمّا رأى أن قد خفّض عله افتتح تكليمه فقال: ليسرك إقبالك ويغبطك تأميلك، فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته، فلمّا ترجم له كلامه إيّاه تطلّق وجه أردون، وانحط عن مرتبته، فقبّل البساط، وقال: أنا عبد

أمير المؤمنين مولاي، المتورك على فضلهن القاصد إلى مجده، المحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة، ونصيحة خالصة، فقال له الخليفة: أنت عندنا بمحلّ من يستحق حسن رأينا، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا إياك على أهل ملتك ما يغبطك، وتتعرف به فضل جنوحك إلينا، واستظلالك بظل سلطاننا، فعاد أردون إلى السجود عند فهمه مقالة الخليفة، وابتهل داعياً، وقال: إن شانجة ابن عمي تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني، فكان من إعزازه إياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأمّلهم، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته، وأنكرت سيرته، واختارتني لمكانه من غير سعي مني علم الله ذلك، ولا دعاء إليه، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرّاً مضطهداً، فتطوّل عليه - رحمه الله - بأن صرفه إلى ملكه، وقوّى سلطانه، وأعزّ نصره، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التي أسديت إليه، وقصّر في أداء المفروض عليه وحقّه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة، من قرارة سلطاني وموضع أحكامي، محكّماً له في نفسي ورجالي ومعاقلي ومن تحويه من رعيتي، فشتان ما بيننا بقوّة الثقة ومطرح الهمة، فقال الخليفة: قد سمعنا قولك، وفهمنا مغزاك، وسوف يظهر من إقراضنا إيّاك على الخصوصيّة شأنه، ويترادف من إحساننا إليك أضعاف ما كان من أبينا - رضي الله تعالى عنه - إلى ندّك وإن كان له فضل التقدّم بالجنوح إلينا والقصد إلى سلطاننا، فليس ذلك ممّا يؤخرك عنه، ولا ينقصك ممّا أنلناك، وسنصرفك مغبوطاً إلى بلدك، ونشدّ أواخيّ ملكك ونملكك جميع من انحاش إليك من أمتك ونعقد لك بذلك كتاباً يكون بيدك نقرّر به حدّ ما بينك وبين ابن عمّك، ونقبضه عن كل ما يصرّفه من البلاد إلى يدك، وسيترادف عليك من إفضالنا فوق ما احتسبته، والله على ما نقول وكيل.

فكرّر أردون الخضوع، وأسهب في الشكر، وقم للانصراف مقهقراً لا يولّي

الخليفة ظهره، وقد تكنفه الفتيان، فأخرجوه إلى المجلس الغربي في السطح، وقد علاه البهر وأذهله الرّوع، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزّة، فلمّا أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خالياً منه انحطّ ساجداً إعظاماً له، ثم تقدّم الفتيان يه إلى البهو الذي بجوفي هذا المجلس، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب، وأقبل نحوه الحاجب جعفر، فلمّا بصر به قام إليه، وخنع له، وأومأ إلى تقبيل يده، فقبضها الحاجب عنه، وانحنى إليه فعانقه، وجلس معه، فغبّطه، ووعده من إنجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره، ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة، وكانت درّاعة منسوجة بالذهب، وبرنساً مثلها له لوزة مفرغة من خالص البر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العلج تجلة، فخرّ ساجداً وأعلن بالدعاء، ثم دعا الحاجب أصحابه رجلاً رجلاً فخلع عليهم على قدر استحقاقهم، فكمل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم، وخرّ جميعهم خانعين شاكرين، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه، وقدّم لركابه في أوّل البهو الأوسط فرسٌ من عتاق خيل الركاب عليه سرج حلي ولجام حلي مفرغ، وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفه، وقد أعدّ له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون، واستقر أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش.

واستشعر الناس من مسرّة هذا اليوم وعزّة الإسلام فيه ما أفاوضوا في التبجّح به والتحدث عنه أيّاماً، وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة في هذا اليوم مقامات حسان، وإنشادات لأشعار محكمة متان، يطول القول في اختيارها. وقال بعض المؤرخين في حق الحكم: إنّه كان حسن السيرة، مكرماً للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وإنّهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها، وكان عالماً نبيهاً صافي السريرة، وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دحيم

ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا ابن خطاب وأكثر عنه، وأجز له ثابت بن قاسم، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء. وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه، وكان ذا غرام بها، قد آثر ذلك على لذات الملوك، فاستوسع علمه ودق نظره، وجمّت استفادته، وكان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيّاً نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله، بهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه، وقال: عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلاّ وله فيه قراءة أو نظر في أيّ فنّ كان ويكتب في نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن.

توفّي - رحمه الله تعالى - بقصر قرطبة ثاني صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، لست عشرة سنة من خلافته، وكان أصابه الفالج، فلزم الفراش إلى أن هلك - رحمه الله تعالى - وكان قد شدد في إبطال الخمر في مملكته تشديداً عظيماً.

* * *

خلافة هشام بن الحكم وتسلط ابن أبي عامر

وولي بعده ابنه هشامٌ صغيراً سنُّه تسع سنين، ولا ينافيه قول ابن خلدون: قد ناهز الحلم وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر، ونقله من خطّة القضاء إلى وزارته، وفوّض إليه أموره، فاستقل.

قال ابن خلدون: وترقّت حال ابن أبي عامر عند الحكم، فلمّا توفّي الحكم وبويع هشام ولقّب المؤيد بعد أن قتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم المرشّح لأمره تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بممالأة من جعفر بن عثمان المصحفيّ حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ ورؤسائهم فائق وجؤذر، فقتل ابن أبي عامر المغيرة بممالأة من ذكر، وتمت

البيعة لهشام، ثم سما لابن أبي عامر في التغلب على هشام لمكانه في السنّ، وثاب له برأي في الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضاً ببعض، وكان من رجال اليمنية من معافر، دخل جدّه عبد الملك مع طارق، وكان عظيماً في قومه، وكان له في الفتح أثر، وعظم ابن أبي عامر هذا، غلب على المؤيد، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلاّ في النادر من الأيام يسلّمون وينصرفون، وأرضخ للجند في العطاء، وأعلى مراتب العلماء، وقمع أهل البدع، وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين، ثمّ تجرّد لرؤساء الدولة ممّن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطّهم عن مراتبهم، وقتل بعضاً ببعض، كلّ ذلك عن أمر هشام وخطّه وتوقيعه، حتى استأصلهم وفرّق جموعهم، وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدّام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفيّ على نكبتهم، فنكبهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم، وبالغ في خدمته والتنصّح له، واستعان به على المصحفيّ فنكبه ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن عليّ بن حمدون صاحب المسيلة وقائد الشيعة ممدوح بن هانئ بالفائية المشهورة وغيرها، وهو النازع إلى الحكم أوّل الدولة بمن كان معه من زناتة والبربر، ثم قتل جعفراً بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم، ثمّ لمّا خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشّحين للرياسة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرّف عرفاء من صنهاجة، ومغراوة، وبني يفرن، وبني برزال، ومكناسة، وغيرهم، فتغلّب على هشام وحجره، واستولى على الدولة، وملأ الدنيا وهو في جوف بيته، من تعظيم الخلافة، والخضوع لها، وردّ الأمور إليها، وترديد الغزو والجهاد، وقدّم رجال البرابرة وزناتة، وأخّر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر، وبنى لنفسه مدينة لنزله سمّاها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وأمر أن يحيّا

بتحية الملوك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة، ومحا رسم الخلافة بالجملة، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السّكة والطرز، وأغفل ديوانه ممّا سوى ذلك؛ وجنّد البرابرة والمماليك، واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة، وقهر من تطاول إليها من العلية، فظفر من ذلك بما أراد، وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا ستّاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية، ولا فلّ له جيش، وما أصيب له بعث، وما هلكت له سريّة، وأجاز عساكره إلى العدوة، وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض، فاستوثق له ملك المغرب، وأخبتت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه، وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر، ولمّا سخط زيري بن عطية ملكهم لمّا بلغه ما بلغه من إعلانه بالذّيل منه والغضّ من منصبه والتأفّف لحجر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين، ونزل بفاس وملكها، وعقد لملوك زناتة على ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها، وشرّد زيري بن عطية إلى تاهرت، فأبعد المفرّ، وهلك في مفرّه ذلك، ثم قفل عبد الملك إلى قرطبة، واستعمل واضحاً على المغرب، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً، وأشدّ استيلاء، سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته، ودفن هنالك، وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه، انتهى كلام ابن خلدون، وبعضه بالمعنى وزيادة يسيرة.

ولا بأس أن نزيد عليه فنقول: ممّا حكي أنّه مكتوب على قبر المنصور - رحمه الله تعالى:

آثاره تنبيك عن أخباره ::: حتّى كأنّك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله ::: أبداً، ولا يحمي الثغور سواه

وعن شجاع مولى المستعين بن هود: لمّا توجّهت إلى أذفونش وجدته في

مدينة سالم، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره، وامرأته متكئة إلى جانبه، فقال لي: يا شجاع، أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين، وجلست على قبر ملكهم؟ قال: فحملتني الغيرة أن قلت له: لو تنفّس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه، ولا استقر بك قرار، فهمّ بي، فحالت امرأته بيني وبينه، وقالت له: صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟

* * *

الحاجب المصحفي عن المطمح

وقال الفتح في " المطمح " في حق المصحفيّ الحاجب جعفر بن عثمان المصحفيّ، ما صورته: تجرّد للعليا، وتمرّد في طلب الدنيا، حتى بلغ المنى، وتسوّغ ذلك الجنى، ووصل إلى المنتهى، وحصل على ما اشتهى، دون مجد تفرّع من دوحته، ولا فخر نشأ بين مغداه وروحته، فسما دون سابقة، ورمى إلى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة، فبلغ بنفسه، ونزع عن جنسه، ولم يزل يستقل ويضطلع، وينتقل من مطلع إلى مطلع، حتى التاح في أفق الخلافة، وارتاح إليها بعطفه كنشوان السّلافة، واستوزره المستنصر، وعنه كان يسمع وبه يبصر، وحجب الإمام، وأسكب برأيه ذلك الغمام، فأدرك لذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشّرك، فاقتنى اقتناء مدّخر، وأزرى بمن سواه وسخر، واستعطفه ابن أبي عامر ونجمه غائر لم يلح، وسرّه مكتوم لم يبح، فما عطف، ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف، وأقام في تدبير الأندلس ما أقام وبرهانه مستقيم، ومن الفتن عقيم، وهو يجري من السعد في ميدان رحب، ويكرع من العزّ في مشرب عذب، ويفضّ ختام السرور، وينهض بملكٍ على لبّته مزرور، وكان له أدبٌ بارع، وخاطر إلى نظم القريض مسارع.

وقال الفتح في المطمح: وكان ممّا أعين به المنصور على المصحفيّ ميل الوزراء إليه، وإيثارهم له عليه، وسعيهم في ترقيه، وأخذهم بالعصبية فيه، فإنّها وإن لم تكن حميّة أعرابية، فقد كانت سلفية سلطانية، يقتفي القوم فيها سبيل

سلفهم، ويمنعون بها ابتذال شرفهم، غادروها سيرة، وخلّفوها عادة أثيرة، تشاحّ الخلف فيها تشاحّ أهل الديانة، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة، ورأوا أن أحداً لا يلحق فيها غاية، ولا يتعاقد لها راية، فلمّا اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه، ووضعه من أثرته حيث وضعه، وهو نزيع بينهم ونابغ فيهم، حسدوه وذمّوه، وخصدّوه بالمطالبة وعمّوه، وكان أسرع صنف الطائفة من أعالي الوزراء وأعاظم الدولة إلى مهاودة المنصور عليه، والانحراف عنه إليه، آل أبي عبدة وآل شهيد، وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب الرّدافة، من أولي الشرف والإنافة، وكانوا في الوقت أزمّة الملك وقوّام الخدمة، ومصابيح الأمّة، وأغير الخلق على جاه وحرمة، فأحظوا محمد بن أبي عامر مشايعة، ولبعض أسبابه الجامعة متابعة، وشادوا بناءه، وقادوا إلى عنصره سناءه، حتى بلغ الأمل، والتحف بمناه واكتحل، وعند التئام هذه الأمور لابن أبي عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة، وأيقن بالنكبة، وزوال الحال وانتقال الرتبة، وكفّ عن اعتراض محمد وشركته في التدبير، وانقبض الناس من الرواح إليه والتبكير، وانثالوا على ابن أبي عامر، فخف موكبه، وغار من سماء العز كوكبه، وتوالى عليه سعي ابن أبي عامر وطلبه، إلى أن صار يغدو إلى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة إلا اسمها، وابن أبي عامر مشتمل على رسمها، حتى محاه، وهتك ظلّه وأضحاه.

قال محمّد بن إسماعيل: رأيته يساق إلى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلاً فأقبل يدرم، وجوارحه باللواعج تضطرم، وواثقٌ الضّاغط ينهره، والذمن يقهره، والبهر والسّنّ قد هاضاه، وقصّرا خطاه، فسمعته يقول: رفقاً بي فستدرك ما تحبّه وتشتهيه، وترى ما كنت ترتجيه، ويا ليت أن الموت يباع فأغلي سومه، حتى يرده من أطال عليه حومه، ثم قال:

لا تأمننّ من الزمان تقلّباً ::: إنّ الزمان بأهله يتقلّب
ولقد أراني والليوث تخافني ::: فأخافني من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مذلّةً ومهانةً ::: أن لا يزال إلى لئيمٍ يطلب

فلمّا بلغ المجلس جلس في آخره دون أن يسلّم على أحد، أو يومئ إليه بعين أو يد، فلمّا أخذ مجلسه تسرّع إليه الوزير محمّد بن حفص بن جار فعذفه واستجفاه، وأنكر عليه ترك السلام وجفاه، وجعفر معرض عنه، إلى أن كثر القول منه، فقال له: يا هذا، جهلت المرّة فاستجهلت معلّمها، وكفرت النّعم فقصدت بالأذى ولم ترهب مقدّمها، ولو أتيت نكرا، لكان غيرك أدرى، وقد وقعت في أمر ما أظنّك تخلص منه، ولا يسعك السكوت عنه، ونسيت الأيادي الجميلة، والمبرات الجليلة، فلمّا سمع محمّد بن حفص ذلك من قوله قال: هذا البهت بعينه، وأيّ أياديك الغرّ التي مننت بها، وعيّنت أداء واجبها؟ أيد كذا أم يد كذا؟ وعدّد أشياء أنكرها منه أيام إمارته، وتصرف الدهر طوع إشارته، فقال جعفر: هذا ما لا يعرف، والحق الذي لا يردّ ولا يصرف، دفعي القطع عن يمناك، وتبليغي لك إلى منالك، فأصرّ محمّد بن حفص على الجحد، فقال جعفر: أنشد الله من له علم بما أذكره إلا اعترف به فلا ينكره، وأنا أحوج إلى السكوت، ولا تحجب دعوتي فيه عن الملكوت، فقال الوزير أحمد بن عباس: قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن، وغير هذا أولى بك، وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك، فقال: أحرجني الرجل فتكلمت، وأحوجني إلى ما به أعلمت، فأقبل الوزير ابن جهور على محمد بن حفص وقال: أسأت إلى الحاجب، وأوجبت عليه غير الواجب، أوما علمت أن منكوب السلطان لا يسلّم على أوليائه لأنّه إن فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى:{ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا } [النساء: ٨٦] فإن فعلوا لطاف بهم من إنكار السلطان ما يخشى ويخاف، لأنّه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف، وإن تركوا الرد أسخطوا الله، فصار الإمساك أحسن، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن، فانكسر ابن حفص، وخجل ممّا أتى به من النقص.

* * *

عبد الملك المظفر الحاجب

ولنرجع فنقول: ولمّا توفّي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفّر أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيّامه أعياداً دامت مدّة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع، تشبيهاً بسابع العروس، ولم يزل مثل اسمه مظفّراً إلى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في المحرّم، وقيل: سنة ثمان وتسعين.

وكاتبه المعز بن زيري ملك مغراوة بعد أن استرجع فاساً والمغرب إثر موت أبيه، فكتب له العهد على المغرب، وثارت الطوائف في ممالكهم، وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم.

* * *

عبد الرحمن شنجول

قال ابن خلدون: ثمّ قام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقب بالناصر لدين الله، وقيل: بالمأمون، وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام، والاستبداد عيه والاستقلال بالملك دونه، ثمّ ثاب له رأي في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده، فأجابه، وأحضر لذلك ملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد، فكان يوماً مشهوداً، فكتب عهده من إنشاء أبي حفص بن برد بما نصّه: (هذا ما عهد به هشامٌ المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامّة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصّة، وأعطى به صفقة يمينه بيعةً تامّةً، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمّه ما جعل الله إليه من الإمامة، وعصب به من أمر المؤمنين، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمّة علماً تأوي إليه، وملجأ تنعطف عليه، أن

يكون يلقى ربّه تبارك وتعالى مفرّطاً ساهياً عن أداء الحق إليها، وتقصّى عند ذلك من إحياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند هذا الأمر إليه، ويعوّل في القيام به عليه، ممّن يستوجبه بدينه وأمانته، وهديه وصيانته، بعد اطّراح الهوى، والحرّي للحق، والتزلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه، وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده، ويفوّض إليه الخلافة بعده، لفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلوّ منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبي المطرّف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وفّقه الله؛ إذ كان أمير المؤمنين - أيّده الله تعالى - قد ابتلاه واختره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً في الخيرات، سابقاً في الحلبات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمأثرات، ومن كان المنصور أباه، والمظفّر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه؛ مع أن أمير المؤمنين؟ أيّده الله؟ بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، يرى أن يكون وليّ عهده القحطاني الذي حدّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي قال:♂**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق النـــاس بعصــاه**ـــ. فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً، ولا إلى غيره معدلاً، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته، وفوّض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعاً راضياً مجتهداً، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه، وأنجزه وأنفذه، ولم يشرط فيه مثنوية ولا خياراً، وأعطى على الوفاء به في سرّه وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه، وذمة نبيه محمّد ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه، وذمة نفسه، أن لا يبدّل ولا يغير ولا يحول ولا يزول، وأشهد الله على ذلك والملائكة، وكفى بالله شهيداً، وأشهد من أوقع اسمه في هذا وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرّف عبد الرحمن بن المنصور وفّقه الله تعالى، وقبوله ما قلّده، وإلزامه نفسه ما ألزمه)، وذلك في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة. وكتب الوزراء والقضاة وسائر

الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم، وتسمّى بعدها بولي العهد.

ونقم عليه أهل الدولة ذلك، فكان فيه حتفه، وانقراض دولته ودولة قومه، وكان أسرع الناس كراهةً لذلك الأمويين والقرشيين، فغصّوا بأمره، وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمنية، فاجتمعوا لشأنهم، وتمشّت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة في غزاة من صوائفه، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وخلعوا هشاماً المؤيد.

* * *

بيعة المهديّ بالله

وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء، لقّبوه: المهدي بالله، وطار الخبر إلى عبد الرحمن الحاجب ابن المنصور بمكانه من الثّغر، فانفضّ جمعه، وقفل إلى الحضرة مدلّ بمكانه، زعيماً بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة تسلّل عنه الناس من الجند ووجوه البربر، ولحقوا بقرطبة، بايعوا المهدي القائم بالأمر، وأغروه بعبد الرحمن الحاجب، لكونه ماجناً مستهتراً غير صالح للأمر، فاعترضه منهم من قبض عليه، واحتزّ رأسه، وحمله إلى المهدي وإلى الجماعة. وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن، ولله عاقبة الأمور.

* * *

خبر الفتنة البربريّة

وكان رؤساء البربر وزناتة لحقوا بالمهديّ لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره، وكانت الأموية تعتدّ عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين، وتنسب تغلّب المنصور وبنيه على الدولة إليهم، فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون، ولولا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس، ولغطت ألسنة

الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم، وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلّحوا، وردّ بعض رؤسائهم في بعض الأيّام من باب القصر، فانتهبت العامة دورهم، وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم، فاعتذر إليهم وقتل من اتّهم من العامة في أمرهم، وهو مع ذلك مظهر لبغضهم، مجهر بسوء الثناء عليهم، وبلغهم أنّه يريد الفتك بهم، فتمشّت رجالاتهم، وأرّوا نجواهم، اشتوروا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، وفشا في الخاصّة حديثهم، فعوجلوا عن مرامهم ذلك وأغرى بهم السواد الأعظم، فثاروا بهم، وأزعجوهم عن المدينة، وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر، وأحضرا بين يدي المهدي، فضرب أعناقهما.

* * *

بيعة سليمان المستعين

ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بجنود البربر، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتوامروا، فبايعوه ولقّبوه المستعين بالله، ونهضوا به إلى ثغر طليطلة، فاستجاش بابن أذفونش، ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية إلى قرطبة، وبرز إليه المهدي في كافة أهل البلد وخاصة الدولة، فكانت الدائرة عليهم، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم، ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة. ولحق المهدي بطليطلة. واستجاش بابن أذفونش ثانية، فنهض معه إلى قرطبة، وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من ظاهر قرطبة، ودخل قرطبة - أعني المهدي - وملكها، وخرج المستعين مع البربر، وتفرّقوا في البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد، ثمّ ارتحلوا إلى الجزيرة الخضراء، فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتّباعهم، فكرّوا عليهم، فانهزم المهدي وابن أذفونش ومن معه من المسلمين والنصارى، واتبعهم المستعين إلى قرطبة، فأخرج المهدي هشاماً المؤيد للناس، وبايع له، وقام بأمر حجابتهن ظنّاً منه أن ذلك ينفعه، وهيهات، وحاصرهم

وحاشية المؤيد بالمهديّ وأن الفتنة إنّما جاءت من قبله، وتولى كبر ذلك واضحٌ العامري، فقالوا المهديّ، واجتمع الكافّة على المؤيد، وقام واضحٌ بحجابته، واستمر الحصار، ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيئاً، إلى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة، وعدمت المرافق، وجهدهم الحصار، وبعث المستعين إلى أهل ابن أذفونش يستقدمهم لمظاهرته، فبعث إليهم هشام وحاجبه واضح يكفّونهم عن ذلك، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتالة التي كان المنصور افتتحها، فسكن عن مظاهرتهم عزم أذفونش، ولم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة، وقتل هشام سرّاً، ولحق بيوتات قرطبة معرة في نسائهم وأبنائهم.

وظن المستعين أن قد استحكم أمره، وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال، فولوا المدن العظيمة، وتقلّدوا البلاد الواسعة، مثل باديس بن حبّوس في غرناطة، والبرزالي في قرمونة، واليفرني في رندة، وخزرون في شريش، وافترق شمل الجماعة بالأندلس، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة، مثل ابن عبّاد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس، وابن ذي النون بطليطلة، وابن أبي عامر ببلنسية، وابن هود بسرقسطة، ومجاهد العامري بدانية والجزائر.

وكان عليّ بن حمّود الحسني وأخوه قاسم من عقب إدريس ملك فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العدوة إلى الأندلس، فدعوا لأنفسهم، واعصوصب عليهم البربر، فملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة، وقتلوا المستعين، ومحوا ملك بني أمية، واتصل ذلك في خلفٍ منهم سبع سنين، ثم رجع الملك إلى بني أمية.

وكان المستعين المذكور أديباً بليغاً. وولي الأمر بعده علي بن حمّود الحسني، تلقّب بالناصر، وخرج عليه العبيد وبعض المغاربة، وبايعوا المرتضى أخا المهدي، ثم اغتيل المرتضى، واستقام الملك لعلي بن حمّود نحو عامين، إلى

أن قتلته صقالبته بالحمّام سنة ثمان وأربعمائة، فولي مكانه أخوه القاسم، وتلقّب بالمأمون، ونازعه الأمر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن أخيه، وكان على سبتة، فأجاز إلى الأندلس سنة عشر، واحتل بمالقة وكان أخوه إدريس بها منذ عهد أبيهما، فبعثه إلى سبتة، ثم زحف يحيى إلى قرطبة فملكها سنة ثنتي عشرة وأربعمائة، وتلقب المعتلي، وفرّ عمّه المأمون إلى إشبيلية وبايع له القاضي ابن عبّاد، واستجاش بعض البرابرة، ثم رجع إلى قرطبة سنة ثلاث عشرة وملكها، ثم لحق المعتلي بمكانه من مالقة، وتغلّب على الجزيرة الخضراء وتغلّب أخوه إدريس على طنجة من وراء البحر، وكان المأمون يعتدّها حصناً لنفسه، وفيها ذخائره، فلمّا بلغه الخبر اضطرب، وثار عليه أهل قرطبة، ونقضوا طاعته، وخرج فحاصرهم فدافعوه، ولحق بإشبيلية فمنعوه، وكان بها ابنه فأخرجوه إليه، وضبطوا بلدهم، واستبدّ ابن عباد بملكها، ولحق المأمون بشريش، ورجع عنه البربر إلى يحيى المعتلي ابن أخيه، فبايعوه سنة خمس عشرة، وزحف إلى عمّه المأمون فتغلّب عليه ولم يزل عنده أسيراً وعند أخيه إدريس بمالقة إلى أن هلك بمحبسه سنة سبع وعشرين، وقيل: إنّه خُنق كم سيأتي، واستقل المعتلي بالأمر، واعتقل ابني عمّه القاسم.

وكان المستكفي من الأمويين استولى على قرطبة في هذه المدّة عندما أخرج أهلها العلوية، ثم خلع أهل قرطبة المستكفي الأموي سنة ست عشرة، وصاروا إلى طاعة المعتلي، واستعمل عليهم ابن عطّاف من قبله، ثمّ نقضوا سنة سبع عشرة، وصرفوا عاملهم، وبايعوا للمعتدّ الأموي أخي المرتضى، وبقي المعتلي يردّد لحصارهم العساكر إلى أن اتفقت الكلمة على إسلام الحصون والمدائن له، فعلا سلطانه، واشتدّ أمره إلى أن هلك سنة تسع وعشرين، اغتاله أصحابه بدسيسة ابن عبّاد الثائر بإشبيلية، فاستدعى أصحابه أخاه إدريس ابن علي بن حمود من سبتة وملّكوه، ولقبوه المتأيّد، وبايعته رندة وأعمالها والمريّة والجزيرة الخضراء، وبعث عساكره لحرب أبي القاسم

إسماعيل ابن عبّاد والد المعتضد بن عباد، فجاءوه برأسه بعد حروب، وهلك ليومين بعد ذلك سنة إحدى وثلاثين، وبويع ابنه يحيى، ولم يتم له أمر، وبويع حسن المستنصر بن المعتلي، وفر يحيى إلى قمارش فهلك بها سنة أربع وثلاثين، ويقال: إنّه قتله نجا، وهلك حسن مسموماً بيد ابنة عمّه إدريس، ثأرت منه بأخيها، وكان إدريس بن يحيى المعتلي معتقلاً بمالقة فأخرج بعد خطوب وبويع بها، فأطاعته غرناطة وقرمونة، ولقّب العالي، وخلع العالي سنة ثمانٍ وثلاثين، وولي ابن عمّه محمّد بن إدريس بن علي، وتلقّب بالمهدي، وتوفّي سنة أربع وأربعين.

وبويع إدريس بن حيى بن إدريس، ولقّب الموفق، ولم يخطب له بالخلافة وزحف إليه العالي إدريس المخلوع الممدوح بالقصيدة السابقة، وكان بقمارش، فدخل عليه مالقة، وأطلق أيدي عبيده عليها لحقده عليهم، ففرّ كثير منهم، وتوفّي العالي سنة ست أو سبع وأربعين.

وبويع محمّد بن إدريس، ولقّب المستعلي، ثم سار إليه باديس بن حبّوس سنة تسع وأربعين وأربعمائة، فتغلّب على مالقة، وسار محمّد إلى المريّة مخلوعاً، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مليلة فأجاز إليهم وبايعوه سنة ست وخمسين، وتوفّي سنة ستين.

وكان محمد بن القاسم بن حمّود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة أربع عشرة فرّ من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها، وتلقّب بالمعتصم، إلى أن هلك سنة أربعين، ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق، إلى أن هلك سنة خمسين، وصارت الجزيرة للمعتضد بن عبّاد، ومالقة لابن حبّوس مزاحماً لابن عبّاد.

وانقرضت دولة الأشراف الحمّوديين من الأندلس، بعد أن كانوا يدّعون الخلافة.

* * *

خلافة المستظهر

وأمّا قرطبة: فإن أهلها لمّا قطعوا دعوة الحمّوديين بعد سبع سنين من ملكهم وزحف إليهم القسم بن حمّود في البربر، فهزمهم أهل قرطبة، ثم اجتمعوا واتفقوا على ردّ الأمر لبني أميّة، واختاروا لذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي، وبايعوه في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة، ولقّبوه المستظهر وقاموا بأمره.

* * *

بيعة المستكفي والمعتد

ثمّ ثار عليه لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، فاتّبعه الغوغاء، وفتك بالمستظهر، وتلقّب بالمستكفي، واستقلّ بأمر قرطبة، وهو والد الأديبة الشهيرة ولاّدة، ولعلّنا نلمّ ببعض أخبارها إن شاء الله تعالى فيما بعد، وكان أبوه عبد الرحمن، قتله المنصور بن أبي عامر لسعيه في الخلاف.

ثم بعد ستة عشر شهراً من بيعة المستكفي رجع الأمر إلى المعتلي يحيى بن عليّ ابن حمّود سنة ست عشرة، وخلع أهل قرطبة المستكفي، وولى عليهم المعتلي من قبله، وفرّ المستكفي إلى ناحية الثغر، ومات في مفرّه، ثم بدا لأهل قرطبة فخلعوا المعتلي بن حمّود سنة سبع عشرة، وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى، وكان بالثغر في لاردة عند ابن هود، وذلك سنة ثماني عشرة، وتلقّب المعتدّ بالله، وأقام متردّداً في الثغر ثلاثة أعوام، واشتدّت الفتن بين رؤساء الطوائف، واتّفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة، فاستقدمه ابن جهور والجماعة، ونزلها آخر سنة عشرين، وأقام بها يسيراً، ثم خلعه الجند سنة

ثنتين وعشرين، وفرّ إلى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين.

* * *

انقضاء الأموية وظهور ملوك الطوائف

وانقطعت الدولة الأمويّة من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطّتها، وتغلّب بعضٌ على بعض، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو أن يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى قطع إليهم البحر ملك العدوة وصاحب مرّاكش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللّمتوني، فخلعهم وأخلى منهم الأرض.

* * *

ملوك الطوائف

١ - بنو عباد وبنو جهور

فمن أشهرهم: بنو عبّاد ملوك إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد ابن عبّاد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق، وفي الذخيرة والقلائد من أخباره ما هو كافٍ شافٍ.

ومنهم: بنو جهور، كانوا بقرطبة في صورة الوزارة، حتى استولى عليهم المعتمد بن عبّاد، وأخذ قرطبة، وجعل عليها ولده، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب، وفرق أبناءه على قواعد الملك، وأنزلهم بها، واستفحل أمره بغرب الأندلس، وعلت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف، مثل ابن حبّوس بغرناطة، وابن الأفطس ببطليوس، وابن صمادح بالمريّة، وغيرهم، فكانوا يخطبون سلمه، ويغلون في مرضاته، وكلهم يدارون الطاغية ويتّقونه بالجزى، إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين، واستفحل ملكه، فتعلّقت آمال الأندلس بإعانته،

وضايقهم الطاغية في طلب الجزية، فقتل المعتمد اليهوديّ الذي جاء في طلب الجزية للطاغية، بسبب كلمة آسفه بها، ثم أجاز البحر صريخاً إلى يوسف بن تاشفين، فأجاز معه البحر، والتقوا مع الطاغية في الزلاّقة، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى، ونصر الله تعالى الإسلام نصراً لا كفاء له، حتى قال بعض المؤرخين: إنّه كان عدد النصارى ثلاثمائة ألف، ولم ينج منهم إلاّ القليل، وصبر فيها المعتمد صبر الكرام، وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدّم بذلك إلى ملوك الطوائف، فأجالوه بالامتثال، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم، وهو خلال ذلك يردّد عساكره للجهاد، ثمّ أجاز إليهم وخلع جميعهم، ونازلت عساكره جميع بلادهم، واستولى على قرطبة، وإشبيلية، وبطليوس، وغرناطة، وغيرها، وصار المعتمد بن عبّاد كبير ملوك الأندلس في قبضته أسيراً بعد حروب، ونقله إلى أغمات قرب مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة، واعتقله هنالك إلى أن مات سنة ثمان وثمانين، وسنلمّ بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه حين زار قبره.

ومن أعظم ملوك الطوائف غير من تقدّم: بنو رزين أصحاب السّهلة، وبنو الفهري أصحاب البونت، وتغلّب عليهما أخيراً يوسف بن تاشفين.

* * *

٢ - بنو ذي النون بطليطلة

ومن أعظم ملوك الطوائف: بنو ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي، وكانت لهم دولة كبيرة، وبلغوا في البذخ والتّرف إلى الغاية، ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له: الإعذار الذّنّوني وبه يضرب المثل عند أهل المغرب، وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق، والمأمون من بني ذي النون هو صاحب ذلك، وهو الذي عظم بين ملوك الطوائف سلطانه، وكان بينه وبين

الطاغية مواقف مشهورة، وغلب على قرطبة، وملكها من يد ابن عبّاد المعتمد، وقتل ابنه أبا عمرو، وغلب أيضاً على بلنسية وأخذها من يد بني ابن أبي عامر.

وفي أيّام حافد المأمون - وهو القادر بن ذي النون - كان الطاغية ابن أذفونش قد استفحل أمره، لمّا خلا الجوّ من مكان الدولة الخلافية، وخفّ ما كان على كاهله من إصر العرب، فاكتسح البسائط، وضايق ابن ذي النون، حتى أخذ من يده طليطلة، فخرج له عنها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما سبق، وشرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية، فقبل شرطه، وتسلّمها ابن الفونش، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

ومن أعظم ملوك الأندلس الموالي العامريون مثل خيران وزهير وأشباههما. وأخبار الجميع تطول.

* * *

بنو هود بسرقسطة

ومن ملوك الطوائف بالأندلس بنو هود ملوك سرقسطة وما إليها، ومن أشهرهم بالمقتدر بالله، وابنه يوسف المؤتمن، وكان المؤتمن قائماً على العلوم الرياضية، وله فيها تآليف، ومنها كتاب الاستكمال والمناظر؛ وولي بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طليطلة، وعلى يده كانت وقعة وشقة - زحف سنة تسع وثمانين في آلاف لا تحصى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وشقة، وكان محاصراً لها، فلقيه الطاغية وهزمه، وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف، وهلك هو شهيداً سنة ثلاث وخمسمائة، بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية إليها، وولي ابنه عبد الملك عماد الدولة، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثنتي عشرة، وتولى ابنه سيف الدولة، وبالغ في النكاية بالطاغية، ثمّ اتفق معه، وانتقل بحشمه إلى طليطلة، فكان فيها حمامه.

* * *

بنو الأفطس ببطليوس

ومن مشاهير ملوك الطوائف بنو الأفطس أصحاب بطليوس وما إليها، والمظفّر منهم هو صاحب التآليف المسمّى بالمظفّري في نحو الخمسين مجلّداً، والمتوكّل منهم قتل على يد جيش يوسف بن تاشفين.

* * *

اللمتونيون ثم الموحدون

فلمّا استولى لمتونة على بلاد الأندلس وأزالوا ملوك الطوائف منها، وبقيت عمّالهم تتردّد إليها وبنوهم حتى فشلت ريحهم، وهبّت ريح الموحدين، أعني عبد المؤمن بن عليّ وبنيه، فحاربوا لمتونة، واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة، ثمّ أجازوا البحر إلى الأندلس، وملكوا أكثر بلاد الأندلس، وملك بنو مردنيش شرق الأندلس، وملخص ذلك أن الأندلس كان ملكها مجموعاً

للمتونة بعد خلعهم ملوك الطوائف، فلمّا اشتغل لمتونة في العدوة بحرب الموحّدين اضطربت عليهم الأندلس، وعادت إلى الفرقة بعض الشيء، ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب منها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مردنيش وقائده ابن همشك بفحص غرناطة، وقد استعان ابن مردنيش بالنصارى على الموحّدين، فهزمهم عبد المؤمن، وقتلهم أبرح قتل، واستخلص غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مردنيش.

* * *

غزوة الأرك

وولي الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف، وأجاز إلى الأندلس، وكانت له مواقف في جهاد العدوّ، وولي بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت، وكانت له في النصارى بالأندلس نكاية كبيرة، ومن أعظمها غزوة الأرك التي تضاهي وقعة الزلاّقة أو تزيد، والأرك: موضع بنواحي بطليوس، وكانت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وغنم المسلمون ما عظم قدره، وكان عدّة من قتل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستّة وأربعين ألفاً، وعدّة الأسارى ثلاثين ألفاً، وعدّة الخيام مائة ألف وستّة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثماني ألفاً، والبغال مائة ألف، والحمير أربعمائة ألف، جاء بها الكفّر لحمل أثقالهم لأنّهم لا إبل لهم، وأمّا الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا الفنش ملك النصارى إلى طليطلة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة، حتى يأخذ بالثأر، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه إلى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيّق عليها، ولم يبق إلا فتحها، فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه يبكين بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن،

فرقّ لهن ومنّ عليهن بها، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ، وردّهنّ مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قرطبة، فأقام شهراً يقسم الغنائم، وجاءته رسل الفنش بطلب الصلح، فصالحه، وأمّن الناس مدّته.

* * *

الموحدون والأندلس

ولمّا استفحل أمر الموحّدين بالأندلس استعملوا القرابة على الأندلس وكانوا يسمّونهم السادة، واقتسموا ولاياتها بينهم، ولهم مواقف في جهاد العدوّ مذكورة، وكان صاحب الأمر بمراكش يأتي الأندلس للجهاد، وهزم يعقوب المنصور كما سبق قريباً بالأرك ابن أذفونش ملك الجلالقة الهزيمة الشنعاء.

* * *

العقاب والتياث أمر الموحدين

وأجز ابنه الناصر الوالي بعده البحر إلى الأندلس من المغرب سنة تسع وستمائة ومعه من الجنود ما لا يحصى، حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنّه اجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل، فمحص الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب، واستشهد منهم عدّة، وكانت سبب ضعف المغرب والأندلس، أمّا المغرب فبخلاء كثير من قراه وأقطاره، وأمّا الأندلس فبطلب العدوّ عليها، لأنّه لمّا التاث أمر الموحدين بعد الناصر ابن المنصور انتزى السادة بنواحي الأندلس كلٌّ في عمله، وضعف ملكهم بمراكش، فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض، وإسلام حصون المسلمين إليه في ذلك، فمشت رجالات الأندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الأموية، وأجمعوا على إخراجهم، فثاروا بهم لحين واحد وأخرجوهم، وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف ابن هود الجذامي الثائر بالأندلس وابن مردنيش وثوّار آخرون.

ابن هود ومنافسه ابن الأحمر

قال ابن خلدون: ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضاً وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وتلقّب محمد هذا بالشيخ، فجاذبه الحبل، وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه، انتهى.

وكان ابن هود يخطب للعباسي صاحب بغداد، ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروبٌ وخطوب إلى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكّل، فضايقه الفنش والبرشلوني فبعث بالطاعة لابن الأحمر، فبعث إليه ابن أشقيلولة، وتسلم مرسية منه، وخطب لابن الأحمر بها، ثم خرج منها راجعاً إلى ابن الأحمر، فأوقع به النصارى في طريقه، ثم رجع الواثق إلى مرسية ثالثة، فلم يزل إلى أن ملكها العدوّ من يده سنة ثمان وستين وستمائة، وعوّضه عنها حصناً يسمى يسر، وهو من عملها، فبقي فيه إلى أن هلك. وانقرضت دولة ابن هود، والله وارث الأرض ومن عليها.

* * *

دولة بني الأحمر

ولنذكر ملوك بني الأحمر إجمالاً لأن لسان الدين وزير أحدهم، ولأنهم آخر ملوك الأندلس، ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره.

قال ابن خلدون: أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة، ولهم فيها سلفٌ من أبناء الجند، ويعرفون ببني نصر، وينتسبون إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وكان كبيرهم لآخر دولة الموحّدين محمّد بن يوسف بن نصر، ويعرف بالشيخ، وأخوه إسماعيل وكانت له وجاهة في ناحيتهم.

ولمّا فشلت ريح الموحّدين، وانتزى الثوار بالأندلس، وأعطى السادة حصونها للطاغية، استقل بأمر الجماعة محمد بن يوسف بن هود الثائر بمرسية

بدعوة العباسية، وتغلب على شرق الأندلس أجمع، فتصدى الشيخ هذا للثورة وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة، ودعا لأبي زكرياء صاحب إفريقية، وأطاعته جيّان وشريش سنة ثلاثين بعدها، واستظهر إلى أمره بقرابته من بني نصر وأصهاره بني أشقيلولة، ثم بايع لبني هود سنة إحدى وثلاثين، عندما بلغه خطاب الخليفة من بغداد، ثمّ ثار بإشبيلية أبو مروان الباجي عند خروج ابن هود عنها ورجوعه إلى مرسية، فداخله محمد بن الأحمر في الصلح على أن يزوّجه ابنته، فأطاعه، ودخل إشبيلية سنة اثنتين وثلاثين، ثمّ فتك بابن الباجي فقتله، وتناول البطش به عليّ بن أشقيلولة، ثمّ راجع أهل إشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هود، وأخرج ابن الأحمر، ثمّ تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداخلة أهلها حين ثار ابن أبي خالد بدعوته فيها، ووصلته بيعتها وهو بجيّان، فقدم إليها عليّ بن أشقيلولة، ثم جاء على أثره، ونزلها، وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله، ثمّ تغلّب على مالقة، ثم تناول المريّة من يد ابن الرميمي وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاث وأربعين، ثمّ بايعه أهل لورقة سنة ثلاث وستين، وكان ابن الأحمر أول أمره وصل يده بالطاغية استظهاراً على أمره، فعضده وأعطاه ابن هود ثلاثين حصاناً في كفّ غربه بسبب ابن الأحمر، وليعينه على قرطبة، فتسلّمها، ثم تغلّب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، أعادها الله، ثمّ نازل إشبيلية سنة ست وأربعين وابن الأحمر معه، ثمّ دخلها صلحاً، وملك أعمالها، ثمّ ملك مرسية سنة خمس وستين، ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورةً كورةً وثغراً ثغراً إلى أن لجأ المسلمون إلى سيف البحر ما بين رندة من الغرب وإلبيرة من شرق الأندلس نحو عشر مراحل من الغرب إلى الشرق، وفي قدر مرحة أو دونها في العرض ما بين البحر والجوف، ثم سخط ابن الأحمر وطمع في الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه، وتلاحق بالأندلس الغزاة من بني مرين وغيرهم، وعقد ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم، فأجازوا في حدود الستين وستمائة، وتقبّل ابن الأحمر إجازتهم، ودفع بهم في نحر عدوّه، ورجعوا، ثم تناسلوا إليه بعد ذلك،

ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك الشيخ ابن الأحمر سنة إحدى وسبعين وستمائة، وولي بعده ابنه محمّد الفقيه، وأوصاه باستصراخ بني مرين، ملوك المغرب بعد الموحدين، إن طرقه أمر أن يعتضد بهم، فأجاز الفقيه إلى يعقوب بن عبد الحقّ سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين، فأجاب صريخه، وأرسل ابنه وعساكره معه، ثمّ أجاز على أثره وتسلّم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وجعلها ركاباً لجهاده، ونزل إليه ابن الأحمر عن طريف وما إليها من الحصون، وهزم هو وابن الأحمر زعيم النصرانية دنّنه وفرق جمعه، وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة، وبثّ سراياه وبعوثه في أرض النصرانية، ثم خاف ابن الأحمر على ملكه، وصالح الطاغية ثمّ عاد؛ انتهى كلام ابن خلدون ملخّصاً.

وثبتت قدم عقب ابن الأحمر بالأندلس، واستولوا على جميع ما بأيدي المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورندة التي كانت بيد بني مرين.

* * *

بين دون بطره وأبي الوليد ابن الأحمر

وبعد مدة ألّب ملوك النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غرناطة، وجاءها الطاغية دون بطره في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وكان من خبر هذه الوقعة أن الإفرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بطره إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم الذي يقال له: البابا، وسجد له، وتضرّع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وأكد عزمه، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها، وعزموا على الاستنجاد بالمريني أبي سعيد صاحب فاس، وأنفذوا إليه رسلاً، فلم ينجع ذلك الدواء، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو اللّجوء إلى الله تعالى، وأخلصوا النيّات، وأقبل الإفرنج في جموعٍ لا تحصى، فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزم أمم النصرانية، وقتل طاغيتهم دون بطره ومن معه، وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً.

وكان السلطان إذ ذاك بالأندلس الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور، فلمّا بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء، فانتدب السلطان ابن الحمر لردّهم، وجهز الأساطيل والرجال، فلمّا رأوا ذلك طلبوا إلى طليطلة، وعزموا على استئصال بلاد المسلمين وتأهّبوا لذلك غاية الأهبة، ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات في المراكب، ووصل العدو إلى غرناطة، وامتلأت الأرض بهم، فتقدم السلطان إلى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء المريني بالخروج إلى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم، فخرج إليهم يوم الخميس الموفي عشرين لربيع الأول.

ولمّا كانت ليلة الأحد أغارت سريّةٌ من العدو على ضيعة من المسلمين، فخرجت إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة، فقطعوهم عن الجيش، وفرّت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم، فتبعهم المسلمون إلى الصبح، فاستأصلوهم، وكان هذا أول النصر.

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو في خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين، فلمّا شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم في تلك الجيوش العظيمة، فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وأخذتهم السيوف، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيّام، وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال، وأخذ الأسرى، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب - فيما قيل - ثلاثة وأربعون قنطاراً، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً، ومن السّبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين إلى الديار المصرية، وكان من جملة الأسرى امرأة الطاغية وأولاده، فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فيما حكى بعض المؤرخين، فلم يقبل المسلمون ذلك، وزادت عدّة القتلى في هذا الغزوة على خمسين ألفاً، ويقال: إنّه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد، لعدم معرفتهم

بالطريق، وأمّا الذين هلكوا بالجبال والشّعاب فلا يحصون، وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم، واستمر البيع في الأسرى والأسباب والدواب ستة أشهر، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد.

ومن العجب أنّه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً، وقيل: عشرة أنفس، وقيل: كان عسكر الإسلام نحو ألف وخمسمائة فارس، والرّجّالة نحواً من أربعة آلاف راجل، وقيل دون ذلك.

وكانت الغنيمة تفوق الوصف، وسلخ الطاغية دون بطره وحشي جلده قطناً، وعلّق على باب غرناطة، وبقي معلّقاً سنوات؛ وطلبت النصارى الهدنة، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذي كان من أعمال سلطان فاس والمغرب، وهو جبل طارق، ولم يزل بأيديهم إلى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المريني صاحب فاس والمغرب، بعد أن أنفق عليه الأموال، وصرف إليه الجنود والحشود، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه، وضيقوا به، إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، واهتم ببنائه و تحصينه، وأنفق عليه أحمال مالٍ في بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومخازنه، ولما كاد يتم ذلك نازله العدوّ برّاً وبحراً، فصبر المسلمون، وخيّب الله سعي الكافرين، فأراد السلطان المذكور أن يحصّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدوّ في منازلته، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته، ورأى الناس ذلك من المحال، فأنفق الأموال، وأنصف العمال، فأحاط بمجموعه إحاطةً الهالة الهلال، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدوّ نيّفاً وعشرين سنة، حاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر، وزاد في تحصينه ابنه السلطان أبو عنان، ولمّا أجاز السلطان أبو الحسن المذكور إلى الأندلس، واجتمع عليه ابن الأحمر، وقاتلهم الطاغية، هزمهم في وقعة طريف، واستولى على الجزيرة الخضراء، حتى قيّض الله من بني الأحمر الغني بالله محمداً الذي كان لسان الدين بن الخطيب وزيره، فاسترجعها وجملة بلاد كجيّان وغيرها.

وكانت له في الجهاد مواقف مشهورة، وامتدّ ملكه واشتدّ حتى محا دولة سلاطين فاس ممّا وراء البحر، وملك جبل الفتح، ونصر الله الإسلام على يده، كما ستقف عليه في بعض مكاتبات لسان الدين - رحمه الله - في مواضع من هذا الكتاب، وسعد هذا الغنيّ بالله من العجائب. وبقي ملك الأندلس في عقبه إلى أن أخذ ما بقي من الأندلس العدوّ الكافر واستولى على حضرة الملك غرناطة أعادها الله للإسلام، كما نبين إن شاء الله، وخلت جزيرة الأندلس من أهل الإسلام، وأبدلت من النور بالظلام، حسبما اقتضته الأقدار النافذة والأحكام، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

* * *

الفتنة البربرية والنزاع بين الحموديين والأمويين

ومن الأسباب في سلب محاسن قرطبة عبث البربر بها في دخولهم مع سليمان المستعين الأموي حين استولى على قرطبة في دولته التي افتتحت بالقهر وسفك الدماء، وكان من أمراء البربر المعارضين لسليمان عليّ بن حمّود من بني علي بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين - وجدّه إدريس هرب من هارون الرشيد إلى البربر، فتبربر ولده، وبنى ابنه إدريس مدينة فاس، وكان المؤيّد هشام يشتغل بالملاحم، ووقف على أن دولة بني أميّة تنقرض بالأندلس على يد علوي أول اسمه عين، فلمّا دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحوا كثيراً من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم علي ابن حمّود، وبلغ هشاماً المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه فدسّ إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: إن خاطري يحدّثني أن هذا الرجل يقتلني، يعني سليمان، فإن فعل فخذ بثأري، وكان هذا الأمر هو الذي قوّى نفس ابن حمّود على طلب الإمامة، وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد، فكان المؤيد أحد من أخذ بثأره بعد موته.

وتولّى بعد ذلك علي بن حمّود، وبويع بقرطبة في قصرها في اليوم الذي

قتل فيه سليمان المستعين، وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة، وأذلّ رؤوس البربر، وبرقت للعدل في أيّامه بارقة خلّب لم تكد تقد حتى خبت، وجلس للمظالم، وقدمت له جماعة من البربر في إجرام فضرب رقابهم، وأهلهم وعشائرهم ينظرون، وخرج يوماً على باب عامر فالتقى فارساً من البربر وأمامه حمل عنب، فاستوقفه وقال له: من أين لك هذا؟ فقال: أخذته كما يأخذ الناس، فأمر بضرب عنقه، ووضع رأسه وسط الحمل، وطيف به في البلد، واستمر على هذا مع أهل قرطبة في أحسن عشرة نحو ثمانية أشهر، حتى بلغه قيام الأندلسيين بالمرتضى المرواني في شرق الأندلس، فتغير عمّا كان عليه، وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها، فلا يعود لأئمتهم بها سلطان آخر الدهر، وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله، وانتزع الإسلام من أهل قرطبة، وهدم المنازل، واستهان بالأكابر، ووضع المغارم، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال، فلمّا غرموه سرّحهم، فلمّا جيء إليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب، وتركهم ينزلون إلى منازلهم على أرجلهم، وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بعد وصارت دولته بوراثة ولده معدودة في دول الطوائف، فانجمعت عن عليّ النفوس، وتوالى عليه الدعاء، فقتله صبيان أغمار من صقالبة بني مروان في الحمّام، وكان قتله غرّة ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة، وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا في أماكن يعرفونها، وصح عند الناس موته، ففرحوا، وكانت مدّته كما مر نحو عامين، وحقّقها بعض فقال: أحد وعشرون شهراً وستّة أيّام.

وكان الناصر علي بن حمّود - على عجمته، وبعده من الفضائل - يصغي إلى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي، ومن شعرائه المختصّين به ابن الحنّاط القرطبيّ، وعبادة بن ماء السماء، وكان معروفاً بالتشيع، وكان أخوه القاسم بن حمّود أكبر منه بعشر سنين، وأمهما واحدة، وهي علوية، ولمّا قتل الناصر كان القاسم والياً على

إشبيلية، وكان يحيى ابن علي والياً على سبتة، فاختلفت أهواء البربر، فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه غبن أوّلاً، وقدّم عليه أخوه الأصغر، وكونه قريباً من قرطبة، وبينهم وبين يحيى البحر، فلمّا وصلت رسلهم إلى القاسم لم يظهر فرحاً بالإمامة، وخاف أن تكون حيلةً من أخيه عليه، فتقهقر إلى أن اتضح له الحق، فركب إلى قرطبة، وبويع فيها بعد ستة أيّام من قتل أخيه، وأحسن السيرة، وأحس من البربر الميل إلى يحيى ابن أخيه عليّ صاحب سبتة، فتهالك في اقتناء السودان، وابتاع منهم كثيراً، وقوّدهم على أعماله، فأذفت البرابر من ذلك، وانحرفوا عنه.

وفي سنة تسع وأربعمائة قام عليه بشرق الأندلس المرتضى عبد الرحمن من أعقاب الناصر، لأن أهل الأندلس صعب عليهم ملك بني حمّود العلويين بسبب البرابر، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بني مروان، واجتمع له أكثر ملوك الطوائف، وكان معه حين أقبل لقرطبة منذر التجيبيّ صاحب سرقسطة وخيران العامري الصدّقلبي صاحب المرية، وانضاف إليهم جمعٌ من الفرنج، وتأهّب القاسم والبرابرة للقائهم، فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نيّة منذر وخيران على المرتضى، وقالا: أرانا في الأوّل وجهاً ليس بالوجه الذي نراه حين اجتمع إليه الجم الغفير، وهذا ماكر غير صافي النيّة، فكتب خيران إلى ابن زيري الصدّنهاجي المتغلب على غرناطة - وهو داهية البربر - وضمن له أنّه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خذّل عن نصرته الموالي العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور، فأصغى ابن زيري إلى ذلك، وكتب المرتضى إلى ابن زيري يدعوه لطاعته، فقلب الكتاب، وكتب في ظهره{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾} [الكافرون: ١] السورة، فأرسل إليه كتاباً ثانياً يقول فيه: قد جئتك بجميع أبطال الأندلس وبالفرنج، فماذا تصنع؟ وختم الكتاب بهذا البيت:

إن كنت منّا أبشر بخير ::: أو لا فأيقن بكل شرّ

فأمر الكاتب أن يحوّل الكتاب ويكتب على ظهره{أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾} [التكاثر: ١] السورة، فازداد حنقه، وحمله الغيظ إلى أن ترك السير إلى حضرة الإمامة قرطبة، و عدل إلى محاربته، و هو يرى أنّه يصطمله في ساعة من نهار، ودامت الحرب أياماً، وأرسل ابن زيري إلى خيران يستنجزه وعده، فأجابه: إنّما توقّفت حتى أرى مقدار حربنا وصبرنا، ولو كنّا ببواطننا معه، ما ثبت جمعك لنا، ونحن ننهزم عنه ونخذله في غد.

ولمّا كان من الغد رأى أعلام خيران وأعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولّت عنه، فسقط في يد المرتضى، وثبت حتى كادوا يأخذونه، واستحرّ القتل، وصرع كثير من أصحابه، فلمّا خاف القبض عليه ولّى، فوضع خيران عيوناً فلحقوه بقرب وادي آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه، فهجموا عليه، فقتلوه وجاؤوا برأسه إلى المرية، وقد حل بها خيران ومنذر فتحدث الناس أنّهما اصطبحا عليه سروراً بهلاكه.

وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس للبرابرة، ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به إليهم، وضرب القاسم بن حمّود سرادق المرتضى على نهر قرطبة، وغشيه خلق من النظارة وقلوبهم تتقطّع حسرات، وأنشد عبادة بن ماء السماء قصيدته التي أوّلها:

لك الخير خيران مضى لسبيله ::: وأصبح أمر الله في ابن رسوله

وتمكّنت أمور القاسم، وولّى وعزل، وقال وفعل، إلى أن كشف وجهه في خلع طاعته ابن أخيه يحيى بن علي، وكتب من سبتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: إن عمي أخذ ميراثي من أبي، ثم إنّه قدّم في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان، وأنا أطلب ميراثي، وأولّيكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس، فأجابوه إلى ذلك فجمع ما عنده من المراكب وأعانه أخوه إدريس صاحب مالقة، فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالقة مع أخيه، وكتب له خيران صاحب المريّة مذكراً بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكّد المودّة فقال له

أخوه إدريس: إن خيران رجل خدّاع، فقال يحيى: ونحن منخدعون فيما لا يضرنا، ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة واثقاً بأن البرابر معه، ففرّ القسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصّه ليلة السبت ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ، وحلّ يحيى بقرطبة، فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مستهل جمادى الآخرة، وكان يحيى من النجباء، وأمّه فاطميّة، وإنّما كانت آفته العجب واصطناع السّفلة، واشتط أكابر البرابر عليه، وطلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السودان، فبذل لهم ذلك، فلم يقنعوا منه، وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت المال، وفر السودان إلى عمّه بإشبيلية، ومن البرابر ومن جند الأندلس من احتجب عنهم يحيى وتكبر عليهم، ولم يمل إليه ملوك الطوائف، وبقي منهم كثير على الخطبة لعمّه القاسم، إلى أن اختلّت الحال بحضرة قرطبة، وأيقن يحيى أنّه متى أقام بها قبض عليه، وكان قد ولّى على سبتة أخاه إدريس، وبلغه أن أهل مالقة خاطبوا خيران وكاتبوه، فطمع خيران فيها، وفرّ يحيى في خواصه تحت الليل إلى مالقة، ولمّا بلغ القاسم فراره ركب من إشبيلية إلى قرطبة، فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ، ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة، ووقع الاختلاف، وكان هوى السودان معه، وهوى كثير من البرابر مع يحيى، وهو أهل قرطبة مع قائم من بني أميّة يشيعون ذكره ولا يظهر، وكثر الإرجاف بذلك، ووقع الطلب على بني أميّة فتفرّقوا في البلاد، ودخلوا في أغمار الناس، وأخفوا زيّهم، ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة، وتكاثر البلديون، وأخرجوا القاسم وبرابرته فضرب خيمة بغربيها، وقاتلهم مدّة خمسين يوماً قتالاً شديداً، وبنى القرطبيون أبواب مدينتهم، وقاتلوا القاسم من الأسوار إلى أن طال عليهم الحصار، فهدموا باباً من الأبواب وخرجوا خرجة رجل واحد وصبروا فمنحهم الله تعالى الظفر، وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية، وفرّ البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة، وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤هـ.

وكان ابنه محمد بن القاسم والياً على إشبيلية، وثقته المدبر لأمره محمد بن زيري من أكابر البرابرة، وقاضيها محمد بن عباد، فعمل القاضي لنفسه، وهو جد المعتمد بن عباد، وأطمع ابن زيري في التملك، فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه، فقتل من البرابر والسودان خلق كثير، وابن عباد يضحك على الجميع، فيئس القاسم، وقنع أن يخرجوا إليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم، فأخرجوهم إليه، فسار بهم إلى شريش. وعندما استقرّ بها وصل إليه يحيى ابن أخيه من مالقة ومعه جمع عظيم وحاصره في المدينة عشرين يوماً كانت فيها حروب صعاب، وقتل من الفريقين خلق كثير، وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمّه وإسلام أهل شريش له، وفرّ سودانه، وحصل القاسم وابنه في يد يحيى، وكان قد أقسم أنّه إن حصل في يده ليقتلنّه، ولا يتركه حتى يلي الإمامة بقرطبة مرّة ثانية، فرأى التربّص في قتله حتى يرى رأيه فيه، فحدّث عنه بعض أصحابه أنّه حمله بقيد إلى مالقة، وحبسه عنده، وكان كلّما سكر وأراد قتله رغّبه ندماؤه في الإبقاء عليه لأنّه لا قدرة له على الخلاص، وكان كلّما نام رأى والده عليّاً في النوم ينهاه عن قتله، ويقول له: أخي أكبر منّي، وكان محسناً إلي في صغري ومسلّماً لي عند إمارتي، الله الله فيه، وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقاً بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه، لأنّه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقة، فنمي إليه أنّه قد تحدّث مع أهل الحصن في القيام والعصيان فقال: أو بقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة ٤٢٧ هـ، وبقي أهل قرطبة بعد فرار القاسم عنها نيّفاً عن شهرين يرون رأيهم فيمن يبايعونه بالإمامة.

ولمّا كان يوم الثلاثاء نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ هـ أحضر المستظهر وسليمان بن المرتضى وأموي آخر معه، فبايعا المستظهر، وقبّلا يده بعدما كان قد كتب عقد البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الأماثل، فبشر اسمه، وكتب اسم المستظهر وركب إلى القصر، وحمل معه ابني عمّه

المذكورين فحسبهما، وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب، كأبي عامر ابن شهيد المنهمك في بطالته، وأبي محمد ابن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقالته، وابن عمّه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف في حالته، فأحقد بذلك مشايخ الوزراء والأكابر، وبادر المستظهر باصطناع البرابر، وأكرم مثواهم، وأحسن مأواهم، واشتغل مع ابن شهيد وابني حزم بالمباحثة في الآداب، ونظم الشعر والتمسّك بتلك الأهداب، والناس في ذلك الوقت أجهل ما يكون، وكان جماعة من أهل الشرّ في السجون يتعين أن لا يخرج منهم إنسان، فأخرج منهم شخصاً يقال له: أبو عمران، وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم إخراجه، فأخرجه وخالفه في ذلك، ولم يقبل النصيحة، وفعل ما أداه إلى الفضيحة، فسعى القوم الذي خرجوا من الحبوس، على إفساد دولته وإبدال فرحه بالبؤس، لما اشتغل عنهم بالأدباء والشعراء حسبما اقتضاه رأيه المعكوس، فسعوا في خلعه مع البرابر، وقتل في ذي القعدة من السنة التي بويع فيها وصار كأمس الدابر، بعد سبعة وأربعين يوماً من يوم بويع بالخلافة، وإذا أراد الله أمراً فلا يقدر أحد أن يأتي خلافه، عمره ثلاث وعشرون سنة كأنّها سنة.

ثم آل الأمر بعد ذلك كلّه إلى استيلاء ملوك العدوة من الملثّمين والموحدين، على قرطبة، إلى أن تسلّمها النصارى، أعادها الله تعالى للإسلام، كما يذكر في الباب الثامن.

وقال صاحب " مناهج الفكر " في ذكر قرطبة، ما ملخصه: فأمّا ما اشتمل عليه غرب الجزيرة، من البلاد الخطيرة، فمنها قرطبة، وكانت مقر الملك، ودار الإمارة، وأمّا ما عداها من البلاد، منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك إلى أن خرجت عن أيديهم، وتنقلت في أيدي ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبد الرحمن، فبنى في تجاهها مدينة سمّاها الزهراء، يجري بينهما نهر عظيم، انتهى.

* * *

استطراد في وصف المباني العامرة

واعلم أن المباني دالة على عظيم قدر بانيها، كما ذكرناه في كلام الناصر الذي طابت له من الزهراء مجانيها، ولم يزل البلغاء يصفون المباني، بأحسن الألفاظ والمعاني، ورأينا أن نذكر هنا بعض ذلك، زيادة في توسيع المسالك، فمن ذلك قول ابن حمديس الصقلي يصف داراً بناها المعتمد على الله:

ويا حبّذا دار قضى الله أنّها ::: يجدّد فيها كلّ عزّ ولا يبلى
مقدّسة لو أن موسى كليمه ::: مشى قدماً في أرضها خلع النّعلا
وما هي إلا خطّة الملك الذي ::: يخطّ إليه كلّ ذي أملٍ رجلا
إذا فتحت أبوابه خلت أنّها ::: تقول بترحيب لداخلها أهلاً
وقد نقلت صنّاعها من صفاته ::: إليها أفانيناً فأحسنت النّقلا
فمن صدره رحباً ومن نوره سناً ::: ومن صيته فرعاً ومن حلمه أصلا
فأعلت به في رتبة الملك نادياً ::: وقلّ له فوق السّماكين أن يعلى
نسيت به إيوان كسرى لأنّني ::: أراه له مولىً من الحسن لا مثلا
كأنّ سليمان ابن داود لم تبح ::: مخافته للجنّ في صنعه مهلا
ترى الشمس فيه ليقةً تستمدّها ::: أكفٌّ أقامت من تصاويرها شكلا
لها حركاتٌ أودعت في سكونها ::: فما تبعت في نقلهن يدٌ رجلا
ولّما عشينا من توقّد نورها ::: تخذنا سناه في نواظرنا كحلا

ثم مدح المنصور بعد ذلك، وختم القصيدة بقوله:

يا مالك الأرض الذي أضحى له ::: ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصورٍ للملوك تقدّمت ::: واستوجبت بقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كلّ رياسةٍ ::: منها ودمّرت العدا تدميرا

قلت: لم أر لهذه القصيدة من نظير، في معناها اليانع النّضير، ولفظها العذب النّمير، الذي شمّر فيه قائلها عن ساعد الإجادة أيّ تشمير، غير أن فيها عندي عيباً واحداً، وهو ختمها بلفظ التدمير، وعلى كل حال فالحسن والإحسان،

يقادان في أرسان، لعبد الجبار بن حمديس المذكور ذي المقاصد الحسان، وخصوصاً في وصف المباني والبرك، فما أبقى لسواه في ذلك حسناً ولا ترك.

وقال أبو الصّلت أميّة بن عبد العزيز الأندلسي يصف قصراً بمصر يسمى منزل العز بناه حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعزّ العبيدي:

منزل العزّ كاسمه معناه ::: لا عدا العزّ من به سمّاه
منزلٌ ودّت المنازل في أع ::: لى ذراه لو صيّرت إيّاه
فأجل فيه لحظ عينيك تبصر ::: أيّ حسنٍ دون القصور حواه
سال في سقفه النّضار ولكن ::: جمدت في قراره الأمواه
وبأرجائه مجال طرادٍ ::: ليس تنفكّ من وغىً خيلاه
تبصر الفارس المدجّج فيه ::: ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للنز ::: ع بعيداً من قرنه مرماه
وصفوفاً من الوحوش وطير ال ::: جوّ كلٌّ مستحسنٌ مرآه
سكناتٌ تخالها حركاتٍ ::: واختلافٌ كأنّه إشباه
كمحيّا الحبيب حرفاً بحرفٍ ::: ما تعدّى صفاته إذ حكاه
ورده وجنتاه، نرجسه الفت ::: ان عيناه، آسه عارضاه
وكأنّ الكافور والمسك في الطيـ ::: ب وفي اللون صبحه ومساه
منظرٌ يبعث السرور ومرأى ::: يذكر المرء طيب عصر صباه

ويعجبني قول أبي الصّلت أميّة المذكور يصف حال زيادة النيل ونقصانه:

ولله مجرى النيل منها إذا الصّبا ::: أرتنا به من مرّها عسكراً مجرا
إذا زاد يحكي الورد لوناً وإن صفا ::: حكى ماءه لوناً ولم يعده نشرا

وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرمين:

بعيشك هل أبصرت أحسن منظراً ::: على طول ما عاينت من هرمي مصر
أنافا بأعنان السّماء، وأشرفا ::: على الجوّ إشراف السّماك أو النّسر
وقد وافيا نشزاً من الأرض عالياً ::: كأنهما ثديان قاما على صدر

وعلى ذكر الأنهار والبرك فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدّة فوّارات:

غضبت مجاريها فأظهر غيظها ::: ما في حشاها من خفيّ مضمر
وكأنّ نبع الماء من جنباها ::: والعين تنظر منه أحسن منظر
قضبٌ من البلّور أثمر فرعها ::: لّما انتهت باللؤلؤ المتحدّر

وقال ابن صارة الأندلسي يصف ماء بالرقة والصفاء:

والنّهر قد رقّت غلالة خصره ::: وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقرق الأمواج فيه كأنّها ::: عكن الخصور تهزها الأعجاز

* * *

البكاء على خراب العمران

وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج في هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصاً، وهو: ونلحق بذكر المنازل التي راق منظرها، وفاق مخبرها، وارتفع بناؤها، واتسع فناؤها، طرفاً من الكلام على ما عفاه الدهر من رسومها، ومحاه من محاسن صور كانت أرواحاً لجسومها. وصف أعرابي محلة قومٍ ارتحلوا عنها فقال نثراً: ارتحلت عنها ربّات الخدور، وأقامت بها أثافيّ القدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياح آثارهم، وذهبت بأبدانهم وأبقت أخبارهم، والعهد قريب، واللقاء بعيد.

وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن:

يا دار أمسى دارساً رسمها ::: وحشاً قفاراً ما بها آهل
قد جرّت الريح بها ذيلها ::: واستنّ في أطلالها الوابل

ومن كلام الفتح بن خاقان، في قلائد العقيان، يذكر آل عبّاد من فصل أكثر فيه التفجّع، وأطال به التوجّع: والغصون تختال في أدواحها، والأزاهر يحيي ميت الصبابة شذا أرواحها، وأطيار الرياض قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها، وانقراض أطرابها، والوهي بمشيدها لاعب، وعلى كل جدار منها غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلّصت ظلالها وأفياءها، ولطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شذاهم وأرجت، أيّام نزلوا خلالها،

وتفيّأوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجنّاتها، ونبّهوا الآمال من سناتها، وراعوا الليوث في آجامها، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأصبحت ولها بالتداعي تلفّع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلاّ نؤي وأحجاء، قد هوت قبابها، وهرم شبابها، وقد يلين الحديد، ويبلى على طيّه الجديد.

وقال أبو صخر القرطبي يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها:

ديار عليها من بشاشة أهلها ::: بقايا تسرّ النفس أنساً ومنظرا
ربوع كساها المزن من خلع الحيا ::: بروداً وحلاّها من النّور جوهرا
تسرّك طوراً ثمّ تشجيك تارةً ::: فترتاح تأنيساً وتشجى تذكّرا

ولأحمد بن فرج الإلبيري من الأبيات:

سألت بها فما ردّت جواباً ::: عليك، وكيف تخبرك الطّلول؟
ومن سفه سؤالك رسم دارٍ ::: مضى لعفائه زمنٌ طويل
فإن تك أصبحت قفراً خلاءً ::: لعينك في مغانيها همول
فقدماً قد نعمت قرير عينٍ ::: بها وبربعها الرشأ الكحيل

وقال أبو عبد الله بن الحنّاط الأندلسي الأعمى:

لو كنت تعلم ما بالقلب من نار ::: لم توقد النار بالهنديّ والغار
يا دار علوة قد هيّجت لي شجناً ::: وزدتني حرقاً، حيّيت من دار
كم بتّ فيك على اللذّات معتكفاً ::: والليل مدّرعٌ ثوباً من القار
كأنّه راهبٌ في المسح ملتحفٌ ::: شدّ المجدّ له وسطاً بزنّار
يدير فيه كؤوس الراح ذو حورٍ ::: يدير من طرفه ألحظ سحّار

ولا مزيد في التفجّع على الديار والتوجع للدمن والآثار، على قول البحتري من قصيدة يرثي بها المتوكّل:

محلّ على القاطول أخلق داثره ::: وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره
كأن الصّبا توفي نذوراً إذا انبرت ::: تراوحه أذيالها وتباكره
وربّ زمانٍ ناعمٍ ثمّ عهده ::: ترقّ حواشيه ويونق ناضره
تغيّر حسن الجعفريّ وأنسه ::: وقوّض بادي الجعفريّ وحاضره

تحمّل عنه ساكنوه فجاءة ::: فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى ::: وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سربه ::: وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهتّكت ::: على عجلٍ أستاره وستائره
وأوحشه حتى كأن لم يكن به ::: أنيسٌ ولم تحسن لعينٍ مناظره
كأن لم تبت في الخلافة طلقة ::: بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدّنيا إليه بهاءها ::: وبهجتها والعيش غضٌّ مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنّعت ::: بهيبتها أبوابه ومقاصره
وأين عميد الناس في كل نوبة ::: تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره

وهذا النوع من البكاء على الدمن، والتأسف على ما فعلت بها أيدي الزمن، كثير جدّاً، لا يعرف الباحث عنه له حدّاً، وذلك لشدة ولوع النفوس بذكر أحبابها، وحنينها إلى أماكنها التي هي مواطن أطرابها، ولهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة، وجعلناها نغبة يشفي المشوق بها غليله، وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم أنّه لا يجدي، ولا يدفع عادية الدهر الخؤون ولا يعدي، ونهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب، المجرّع لصاحبه الصاب والأوصاب.

قال أبو عمر بن عبد البر:

عفت المنازل غير أرسم دمنة ::: حيّيتها من دمنةٍ ورسوم
كم ذا الوقوف ولم تقف في منسكٍ ::: كم ذا الطواف ولم تطف بحريم
فكل الديار إلى الجنائب والصّبا ::: ودع القفار إلى الصدى والبوم

رجع إلى قرطبة - فنقول:

رسائل للسان الدين

وقد ألمّ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة وبعض أوصافها في كتاب له كتبه على لسان سلطانه إلى رسول الله ، ونص محلّ الحاجة منه هنا: ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومثوى الطارف والتّلاد، قرطبة،

وما قرطبة؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسيّ الذي بعصاه رعي الهمل، والمصر الذي له في خطّة المعمور الناقة والجمل، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل، فخيم الإسلام في عقوتها المستباحة، وأجاز نهرها المعيي على السباحة، وعمّ دوحها الأشب بواراً، وأدار المحلاّت بسورها سواراً، وأخذ بمخنّقها حصاراً، وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء واهتصاراً، وجدّل من أبطالها من لم يرض جهاراً، ورفعت الأعلام إعلاماً بعزّ الإسلام وإظهاراً، فلولا استهلال الغوادي، وأن أتى الوادي، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي، ولقضى تفثه العاكف البادي.

* * *

رجع إلى ما كنّا بسبيله من أخبار قرطبة الجليلة الوصف، وذكر جامعها البديع الإتقان والرصف

فنقول: قد شاع وذاع على ألسنة الجمّ الغفير من الناس في هذه البلاد المشرقيّة وغيرها أن جامع قرطبة ثلاثمائة ونحو ستين طاقاً، على عدد أيّام السنة، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق، إلى أن يتم الدور ثم تعود، وهذا شيء لم أقف عليه في كلام المؤرخين من أهل المغرب والأندلس، ولو كان كما شاع لذكروه وتعرّضوا له، لأنّه من أجب ما يسطر، مع أنّهم ذكروا ما هو دونه، فالله أعلم بحقيقة الحال في ذلك، وستأتي في الباب السابع رسالة الشّقندي الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الأندلس الطّم والرّم، وقد ذكرنا في الباب الأول جملة من محاسن قرطبة، فأغنى ذلك عن إعادتها هنا، على أن رسالة الشّقندي تكرر فيها بعض ما ذكرناه، لأنّا لم نرد أن نخل منها بحرف، فأتينا بها بلفظها، وإن تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه، والعذر واضح للمنصف المغضي، والله نسأل سلوك السبيل الذي يرضي، بمنّه وكرمه.

وقال صاحب نشق الأزهار: إن في جامع قرطبة تنّوراً من نحاس أصفر

يحمل ألف مصباح، وفيه أشياء غريبة، من الصنائع العجيبة، يعجز عن وصفها الواصفون، قيل: أحكم عمله في سبع سنين، وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر، مكتوب على الواحد اسم محمد، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام، الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع، انتهى.

قلت: لم أر أحداً من محققي المؤرخين للأندلس وثقاتهم ذكر هذا، على قلّة اطلاعي، وهو عندي بعيد، لأنّه لو كان لذكره الأئمة.

وقد حكى القاضي عياض في الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا ، ولم يذكر هذا، ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب: من دور قرطبة أربعة عشر ميلاً، وعرضها ميلان، وهي على النهر الكبير وعليه جسران، وبها الجامع الكبير الإسلامي، وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى، وبهذه المدينة معدن الفضّة ومعدن الشاذنج، وهو حجر من شأنه أن يقطع الدم؛ وكان يجلب منها البغال التي تباع كل واحدة منها بخمسمائة دينار من حسنها وعلوّها الزائد، انتهى.

* * *

حديث عن الزهراء

رجع إلى ما كنّا فيه: وكنت وقفت في كلام بعض العلماء على أن البيتين السابقين المنسوبين إلى أمير المؤمنين الناصر المرواني - رحمه الله تعالى - قالهما في الزهراء التي بناها، وسيأتي ذكرها قريباً.

وقال الشيخ سيّدي محيي الدين بن عربي في المسامرات: قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش، وبناؤها عجيب في بلاد الأندلس، وهي قريبة من قرطبة، ثم قال: وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سرّيّة، وتركت مالاً كثيراً،

فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد فشكر الله تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء؟ وكان يحبّها حبّاً شديداً -: اشتهيت لو بنيت لي مدينة تسميها باسمي، وتكون خاصّة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل، وشمال قرطبة، وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك، وأتقن بناءها، وأحكم الصنعة فيها، وجعلها مستنزهاً ومسكناً للزهراء وحاشية أرباب دولته، ونقش صورتها على الباب، فلمّا قعدت الزهراء في مجلسها نظرت إلى بياض المدينة وحسنها في حجر الجبل الأسود، فقالت: يا سيّدي، ألا ترى إلى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي؟ فأمر بزوال ذلك الجبل، فقال بعض جلسائه: أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفراً ولا قطعاً، ولا يزيله إلاّ من خلقه، فأمر بقطع شجره وغرسه تيناً ولوزاً، ولم يكن منظر أحسن منها، ولا سيّما في زمان الإزهار وتفتّح الأشجار، وهي بين الجبل والسهل، انتهى ببعض اختصار.

* * *

رجع إلى بناء الزهراء

قال بعض من أرّخ الأندلس: كان يتصرّف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستّة آلاف صخرة سوى الآجرّ والصخر غير المعدل، انتهى، وسيأتي في الزهراء مزيد كلام.

وقال ابن حيّان: ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥، وجعل طولها من شرق إلى غرب ألفين وسبعمائة ذراع، وتكسيرها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع، كذا نقله بعضهم، وللنظر فيه مجال، قال: وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزمه من

النفقة على قطعها ونقلها ومؤونة حملها، وجلب إليها الرخام الأبيض من المرية، والمجزّع من رية، والوردي والأخضر من إفريقية من إسفاقس وقرطاجنة، والحوض المنقوش المذهب من الشام، وقيل: من القسطنطينية، وفيه نقوش وتماثيل على صور الإنسان، وليس له قيمة، ولمّا جلبه أحمد الفيلسوف - وقيل غيره - أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً، بنى في قصرها المجلس المسمّى بقصر الخلافة، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه الصافي لونه المتلوّنة أجناسه، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية، وكانت قرامد هذه القصر من الذهب والفضّة، وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصّع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرخام الملون والبلّور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرّك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيّل لكل من في المجلس أن المحلّ قد طار بهم، ما دام الزئبق يتحرّك، وقيل: إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس، وقيل: كان ثابتاً على صفة هذا الصهريج، وهذا المجلس لم يتقدّم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام وإنّما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم، وكان بناء الزهراء في غاية الإتقان والحسن، وبها من المرمر والعمد كثير، وأجرى فيها المياه، وأحدق بها البساتين، انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصاً، وسيأتي ما يوافق جلّه، ويخالف قلّه، والله سبحانه يعلم الأمر كلّه، فإنّه ربّما ينظر المتأمّل هذا الكتاب فيجد في بعض الأخبار تخالفاً، فيحمل ذلك على الغلط، وليس كذلك، وإنّما السبب الحامل لذلك جلب كلام الناس بعباراتهم، والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا، وربّما يقع التكرار، وذلك من أجل

ما ذكر، والله أعلم.

* * *

قصور بني ذي النون

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذي شاده ملك طليطلة المأمون بن ذي النّون بها، وذلك أنّه أتقنه إلى الغاية، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قبّة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ويتّصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج في غلالة ممّا سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسّه من الماء شيء ولا يصله، وتوقد في الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب، وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة إذ سمع منشداً ينشد:

أتبني بناء الخالدين، وإنّما ::: بقاؤك فيها لو علمت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية ::: لمن كلّ يوم يقتضيه رحيل

فنغص عليه حاله، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أظن أن الأجل قد قرب، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفّي، ولم يجلس في تلك القبّة بعدها، وذلك سنة ٤٦٧ هـ، تجاوز الله تعالى عنه، هكذا حكاه بعض مؤرخي المغرب.

* * *

عود إلى عمران قرطبة

وقد أبعدنا عمّا كنّا بصدده من ذكر قرطبة أعادها الله للإسلام، فنقول: قال بعض من أرّخ الأندلس: انتهت مساجد قرطبة أيّام عبد الرحمن الداخل إلى أربعمائة وتسعين مسجداً، ثم زادت بعد ذلك كثيراً كما يأتي ذكره.

وقال بعضهم: كانت قرطبة قاعدة الأندلس، وأم المدائن، وقرارة الملك،

وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلاثمائة، وكانت عدّة الدور في القصر الكبير أربعمائة دار ونيّفاً وثلاثين، وكانت عدّة دور الرعايا والسّواد بها الواجب على أهلها المبيت في السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض.

ورأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لمتونة والموحّدين، قال: وكانت ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار وثلاثمائة دار، انتهى.

وعدد أرباضها ثمانية وعشرون، وقيل: واحد وعشرون، ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة، وثلاثون مسجداً، وعدد الحمّامات المبرزة للناس سبعمائة حمّام: وقيل ثلاثمائة حمّام.

وقال ابن حيان: إن عدّة المساجد عند تناهيها في مدة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجد، والحمامات تسعمائة حمام.

وفي بعض التواريخ القديمة: كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجداً - منها بشقندة ثمانية عشر مسجداً - وتسعمائة حمّام وأحد عشر حمّاماً، ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصاً، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها، هكذا نقله في المغرب، وهو أعلم بما يأتي ويذر، رحمه الله تعالى.

وقال بعض المؤرخين - بعد ذكره نحو ما تقدّم: ووسط الأرباض قبّة قرطبة التي تحيط بالسور دونها، وأمّا اليتيمة التي كانت في المجلس البديع فإنّها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية، انتهى.

ونحوه لابن الفرضي وغير واحد، لكن خالفهم صاحب " المسالك والممالك " فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجداً، وهو بعيد، وقال قبله: إن دور قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع، وتفسيرها باللسان

القوطي: القلوب المختلفة، وهو بالقوطيّة بالظاء المشالة، وقيل: إن معنى قرطبة: أجر فاسكنها، قال: وبقرطبة أقاليم كثيرة وكورٌ جليلة، وكانت جبايتها في أيّام الحكم ابن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين ديناراً، وسبق ما يخالف هذا، ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمائة مدي، ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمائة مدي وسبعة وأربعين مدياً.

وقال بعض العلماء: أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكان مائتي ألف دار وثلاثة ألف دار وسبعاً وسبعين داراً، وهذه دور الرعيّة، وأمّا دور الأكابر والوزراء والكتّاب والأجناد وخاصّة الملك فستّون ألف دار وثلاثمائة دار، سوى مصاري الكراء والحمّامات والخانات، وعدد الحوانيت: ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون، ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران، ومحيت آثار تلك القرى والبلدان، انتهى ملخّصاً. وسيأتي في رسالة الشّقندي ما هو أشمل من هذا.

* * *

مسجد قرطبة

وأمّا مسجد قرطبة فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه، ولكن نذكر من أوصافه وننشر من أحواله ما لا بدّ منه، فنقول:

قال بعض المؤرخين: ليس في بلاد الإسلام أعظم منه، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة، وكلّما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحداً، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله، انتهى.

وكان الذي ابتدأ بنيان هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل، ولم يكمل في زمانه، وكمله ابنه هشام، ثمّ توالى الخلفاء من بني أميّة على الزيادة فيه، حتى صار المثل مضروباً به، والذي ذكره غير واحد أنّه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من

الخلفاء.

وقال بعض المؤرخين: إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة، وبنى المسجد الجامع، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وبنى بقرطبة الرّصافة تشبيهاً برصافة جده هشام بدمشق.

وقال بعض: إنّه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار، واشترى موضعه إذ كان كنيسة بمائة ألف دينار، فالله تعالى أعلم.

وقال بعض في ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته: إنّه لما تمهّد ملكه شرع في تعظيم قرطبة، فجدد مغانيها، وشيّد مبانيها، وحصّنها بالسور، وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع، ووسع فناءه، وأصلح مساجد الكور، ثم ابتنى مدينة الرّصافة متنزهاً له، واتخذ بها قصراً حسناً، وجناناً واسعة، نقل إليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار، انتهى.

وكانت أخته أم الأصبغ ترسل إليه من الشام بالغرائب، مثل الرّمان العجيب الذي أرسلته إليه من دمشق الشام كما مرّ، وسيأتي كلام ابن سعيد بما هو أتم من هذا.

ولما ذكر ابن بشكوال زيادة المنصور بن أبي عامر في جامع قرطبة قال: ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامريّة أعلاج النصارى مصفّدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها، وهم كانوا يتصرّفون في البنيان عوضاً من رجّالة المسلمين، إذلالاً للشّرك وعزةً للإسلام، ولما عزم على زيادته هذه جلس لأرباب الدور التي نقلها أصحابها عنها بنفسه، فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له: إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم، فشطّط واطلب ما شئت، فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له، وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضاً منها، حتى أتي بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة،

فقالت: لا أقبل عوضاً إلاّ داراً بنخلة، فقال: تبتاع لها دار بنخلة، ولو ذهب فيها بيت المال، فاشتريت لها دار بنخلة، وبولغ في الثمن؛ وحكى ذلك ابن حيّان أيضاً.

وقيل: إن إنفاق الحكم في زيادة الجامع كان مائة ألف وواحداً وستين ألف دينار ونيّفاً، وكلّه من الأخماس.

وقال صاحب كتاب مجموع المفترق: وكان يقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسة وعشرين ذراعاً، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع، ثم زاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعاً، وزاد محمّد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً، فتم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعاً، وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطاً، عرض أوسطها ستة عشر ذراعاً، وعرض كل واحد من اللذين يليانه غرباً واللذين يليانه شرقاً أربعة عشر ذراعاً، وعرض كل واحد من الستة الباقية أحد عشر ذراعاً، وزاد ابن أبي عامر فيه ثمانيةً عرض كل واحد عشرة أذرع، وكان العمل في زيادة المنصور سنتين ونصفاً، وخدم فيه بنفسه، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع وثمانية وعشرون ذراعاً، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة ذراع وخمسة أذرع، وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع، فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً، وعدد أبوابه تسعة: ثلاثة في صحنه غرباً وشرقاً وجوفاً، وأربعة في بلاطاته: اثنان شرقيان واثنان غربيّان، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان، وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً رخاماً كلّها، وباب مقصورة الجامع ذهب، كذلك جدار المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب على الفسيفساء، وثريّت المقصورة فضّة محضة، وارتفاع الصومعة اليوم - وهي من بناء عبد الرحمن بن محمد - ثلاثة

وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبّة المفتّحة التي يستدير بها المؤذن وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضّة، ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف، فاثنتان من التفافيح ذهب إبريز، وواحدة فضّة، وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة، ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج، وهي إحدى غرائب الأرض.

وكان بالجامع المذكور في بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه الذي خطّه بيده، وعليه حلية ذهب مكلّلة بالدر والياقوت، وعليه أغشية الديباج، وهو على كرسيّ العود الرّطب بمسامير الذهب.

* * *

رجع إلى المنارة:

وارتفاع المنارة إلى مكان الأذان أربعة وخمسون ذراعاً، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانية عشر ذراعاً، انتهى بحروفه.

وفيه بعض مخالفة لما ذكره ابن الفرضي وبعضهم، إذ قال في ترجمة المنصور بن أبي عامر ما صورته: وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البر والقربة بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وذلك أنّه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب إليها قبائل البربر من العدوة وإفريقية، وتناهى حالها في الجلالة، ضاقت الأرباض وغيرها، وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس، فشرع المنصور في الزيادة بشقيه حيث تتمكّن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة، فبدأ ابن أبي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولاً من أول المسجد إلى آخره، وقصد ابن أبي عامر في هذه الزيادة المبالغة في الإتقان والوثاقة، دون الزخرفة، ولم يقصّر - مع هذا - عن سائر الزيادات جودة، ما عدا زيادة الحكم.

وأوّل ما عمله ابن أبي عام تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن، وصنع في صحنه الجبّ العظيم قدره، الواسع فناؤه، وهو - أعني ابن أبي عامر - هو الذي رتّب إحراق الشمع بالجامع زيادة للزيت، فتطابق بذلك النوران، وكان عدد سواري الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره بين كبيرة وصغيرة ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية، وقيل: أكثر، وعدد ثريّات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا، وعدد الكؤوس سبعة آلاف كاس وأربعمائة كأس وخمسة وعشرون كأساً، وقيل: عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس، وزنة مشاكي الرصاص للكؤوس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها، وزنة ما يحتاج إليه من الكتان للفتائل في كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار، وجميع ما يحتاج إليه الجامع من الزيت في السنة خمسمائة وربع أو نحوها، يصرف منه في رمضان خاصة نحو نصف العدد، وممّا كان يختصّ برمضان المعظّم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لإقامة الشمع المذكور، والكبيرة من الشمع التي تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً، يحترق بعضها بطول الشهر، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة في دولة ابن أبي عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصفين مائة وتسعة وخمسين شخصاً، ويرقد من البخور ليلة الختمة أربع أواقٍ من العنبر الأشهب وثماني أواقٍ من العود الرطب، انتهى.

وقال بعض المؤرخين: كان للجامع كل ليلة جمعة رطل عود، وربع رطل عنبر، يتبخر به، انتهى.

وقال ابن سعيد، نقلاً عن ابن بشكوال: طول جامع قرطبة الأعظم الذي هو بداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف: ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً، الصحن

المكشوف عنه ثمانون ذراعاً، وغير ذلك مقرمد، وعرضه من الغرب إلى الشرق: مائتان وخمسون ذراعاً، وعدد أبهائه عند اكتمالها بالشمالية التي زادها المنصور بن أبي عامر بعد هذا: تسعة عشر بهواً، وتسمى البلاطات، وعدد أبوابه الكبار والصغار: واحد وعشرون باباً: في الجانب الغربي تسعة أبواب، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن، وفي الجهة الشرقية تسعة أبواب، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب، وفي الجهة الشمالية ثلاثة أبواب، منها لدخول الرجال بابان كبيران وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهنّ، وليس لهذا الجامع في القبليّ سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة في قبلته متصل بالساباط المفضي إلى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة، وجميع هذه الأبواب ملبّسة بالنحاس الأصفر بأغرب صنعة، وعدد سواري هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه والملصقة بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألفٌ وأربعمائة سارية وتسع سوار، منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية.

وذكر المقصورة البديعة التي صنعها الحكم المستنصر في هذا الجامع فقال: إنّه خطر بها على خمسة بلاطات من الزيادة الحكمية، وأطلق حفافيها على الستة الباقية: ثلاثة من كلّ جهة، فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمسة وسبعين ذراعاً وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعاً وارتفاعها في السماء إلى حدّ شرفاتها ثمانية أذرع، وارتفاع كل شرفة ثلاثة أشبار، ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقيّ وغربيّ وشماليّ، ثم قال: وذرع المحراب في الطول من القبلة إلى الجوف ثمانية أذرع ونصف، وعرضه من الشرق إلى الغرب سبعة أذرع ونصف، وارتفاع قبوه في السماء ثلاثة عشر ذراعاً ونصف، والمنبر إلى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصندل ونبع وبقّمٍ وشوحط وما أشبه ذلك، ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار

وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وثلث درهم وقيل غير ذلك، وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله.

وذكر أن عدد ثريّات الجامع التي تسرج فها المصابيح بداخل البلاطات خاصّة - سوى ما منها على الأبواب - مائتان وأربع وعشرون ثريّا، جميعها من لاطون مختلفة الصنعة، منها أربع ثريّات كبار معلقة في البلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلّقة في القبّة الكبرى التي فيها المصاحف حيال المقصورة، فيها من السّرج - فيما زعموا - ألف وأربعة وخمسون، تستوقد هذه الثريات الضخام في العشر الأخير من شهر رمضان، تسقى كل ثريّا منها سبعة أرباع في الليلة، وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح في هذا المسجد في السنة أيام تمام وقوده في مدّة ابن أبي عامر مكملة بالزيادة المنسوبة ألف ربع، منها في شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربعاً، قال: وفي بعض التواريخ القديمة كان عدد القومة بالمسجد الجامع بقرطبة في زمن الخلفاء وفي زمن ابن أبي عامر ثلاثمائة، انتهى. وفيه مخالفة لبعض ما تقدّم.

وذكر بعضهم الزيت - ولكن قوله أولى بالاتباع، لنقله عن ابن بشكوال، ولمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره، والله سبحانه أعلم - فقال: ألف ربع وثلاثون ربعاً، منها في رمضان خمسمائة ربع، وفي الثريات التي من الفضة - وهي ثلاث - اثنان وسبعون رطلاً، لكل واحدة ثمانية عشر في ليلة وقدها. وقال في المنبر: إنّه مركب من ستة وثلاثين ألف وصل، قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضّة، وسمرت بمسامير الذهب والفضّة، وفي بعضها نفيس الأحجار، واتصل العمل فيه تسعة، ثم قال: ودور الثريا العظيمة خمسون شبراً، وتحتوي على ألف كأس وأربعة وثمانين، كلّها موشّاة بالذهب، إلى غير ذلك من الغرائب.

* * *

متعلقات الجامع

وذكر ابن بشكوال أن الحكم المستنصر هدم الميضأة القديمة التي كانت بفناء الجامع، يستسقى لها الماء من بئر السانية، وبنى موضعها أربع ميضآت في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي منها ثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء، أجرى في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة إلى أن صبت ماءها في أحواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربيّة والشمالية، أجراها هنالك إلى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير، وألقاه الرخّامون هنالك، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم في المدّة الطويلة حتى استوت في صورها البديعة لأعين الناس، فخفّف ذلك من ثقلها، وأمكن من إهباطها إلى أماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع، وأمد الله تعالى على ذلك بمعونته، فتهيّأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على فلكٍ موثقة بالحديد المثقّف محفوفة بوثاق الحبال قرن لجرّها سبعون دابة من أشد الدواب، وسهلت قدامها الطرق والمسالك، وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة في مدة اثني عشر يوماً، فنصبت في الأقباء المعقودة لها، قال: وابتنى المستنصر في غربي الجامع دار الصدقة، واتخذها معهداً لتفريق صدقاته المتوالية، وابتنى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربي، انتهى.

* * *

الزهراء

وأمّا الزهراء: فهي مدينة الملك التي اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله، وقد تقدّم ذكره، وهي من المدن الجليلة العظيمة القدر، قال ابن الفرضي وغيره: كان يعمل في جامعها حين شرع فيه من حذّاق الفعلة كلّ يوم

ألف نسمة منها ثلاثمائة بنّاء ومائتا نجّار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع، فاستتم بنيانه وإتقانه في مدّة من ثمانية وأربعين يوماً، وجاء في غاية الإتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصّنعة، وطوله من القبلة إلى الجوف - حاشا المقصورة - ثلاثون ذراعاً، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعاً، وطول صحنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاثة وأربعون ذراعاً، وعرضه من الشرق إلى الغرب واحد وأربعون ذراعاً، وجميعه مفروش بالرخام الخمري، وفي وسطه فوّارة يجري فيها الماء، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف - سوى المحراب - سبعة وتسعون ذراعاً، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً، وطول صومعته في الهواء أربعون ذراعاً، وعرضها عشرة أذرع في مثلها.

وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد، فصنع في نهاية من الحسن، ووضع في مكانه منهن وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة، وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

قال: وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، في المناهر المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صوّر الملوك في غابر الدهر، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجّه في تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبّه، فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمدّ النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر، لبعد مسافتها، واختلاف

مسالكها، وفخامة بنيانها، وسموّ أبراجها التي يترقى الماء منها ويتصوّب من أعاليها، وكانت مدّة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل إلى أن وصلت - أعني القناة - إلى هذه البركة أربعة عشر شهراً، وكان انطلاق الماء في هذه البركة الانطلاق الذي اتصل واستمر يوم الخميس غرّة جمادى الآخرة من السنة، وكانت للناصر في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامّة أهل مملكته، ووصل المهندسين والقوّام بالعمل بصلات حسنة جزيلة.

وأمّا مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم، وذلك نحو من أربعين سنة.

ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أوّل جماعة صلّيت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان، وكان الإمام القاضي أبا
عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة، وأوّل خطيب به القاضي المذكور.

ولمّا بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنّه لم يبن مثله في الإسلام البتّة، وما دخل إليه قطّ أحد من سائر البلاد النائية والنّحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر جهبذ، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلا وكلهم قطع أنّه لم ير له شبهاً، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله، حتى إنّه كان أعجب ما يؤمله القطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه، والأخبار عن هذا تتسع جدّاً، والأدلّة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلاّ السطح الممرّد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمّنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمّة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب موضون وعمدٍ كأنّما أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياضٍ وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدي الأوهام

إلى سبيل استقصاء التعبير عنها، فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلّة كيما يري الغافلين عنه من عباده مثالاً لما أعدّه لأهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلّط عليها الفناء، ولا تحتاج إلى الرّم، لا إله إلاّ هو المنفرد بالكرم.

وذكر المؤرخ أبو مروان ابن حيّان صاحب الشرطة أن مباني قصر الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة، ونيّف هو ثنتا عشرة على ثلاثمائة سارية، قال: منها ما جلب من مدينة رومة، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينيّة، وأن مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيّف على خمسة عشر ألف باب، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموّه، والله سبحانه أعلم فإنّها كانت من أهول ما بناه الإنس، وأجلّه خطراً، وأعظمه شأناً، انتهى.

قلت: فسّر بعضهم ذلك النيّف في كلامه بثلاث عشرة، والله أعلم.

وقال بعض من أرّخ الأندلس: كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتًى وسبعمائة وخمسين فتًى، ودخالتهم من اللحم في كل يوم - حاشا أنواع الطير والحوت - ثلاثة عشر ألف رطل، وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار، وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة، انتهى.

وقيل: إن عدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون، وجعل بعضٌ مكان الخمسين سبعة وثمانين.

وقال آخر: ستة آلاف صقلبي وسبعة وثمانون، والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم، وينقع لها من الحمص الأسود ستة أقفزة كل يوم، انتهى.

ثم قال الأول: وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل، تقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير

وضروب الحيتان، انتهى.

وقال ابن حيّان: ألفيت بخط ابن دحون الفقيه، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس: بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بنيان الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، سوى الصخر المصرّف في التبليط، فإنّه لم يدخل في هذا العدد، وكان يخدم في الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل، وقيل أكثر، منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله، ومن دواب الأكرياء الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر، يجب لها في الشهر ثلاثة آلاف مثقال، وكان يرد الزهراء من الجيار والجص في كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل، وكان فيها حمّامان: واحد للقصر، وثانٍ للعامة.

وذكر بعض أهل الخدمة في الزهراء أنّه قدر النفقة فيها في كل عام بثلاثمائة ألف دينار مدة خمسة وعشرين عاماً التي بقيت من دولة الناصر من حين ابتدأها، لأنّه توفّي سنة خمسين، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال.

قال: وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وإفريقية وتونس، وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين وحسن وعلي بن جعفر الإسكندراني، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير، انتهى.

وقال بعض ثقات المؤرخين: إنّه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية، قيل: وكان عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاثة عشرة سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس طرّكونة وغيرها، فالرخام المجزع من ريّة، والأبيض من غيرها، والوردي والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقس، وأمّا الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، وأما الحوض الصغير الأخضر المنقوش

بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام، وقيل: من القسطنطينية، مع ربيع الأسقف أيضاً، وقالوا: إنّه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحمل من مكان إلى مكان حتى وصل إلى البحر، ونصبه الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف المؤنس، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي ممّا عمل بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس، ويخرج الماء من أفواهها، وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره، وكان يخبز في أيامه في كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة، وقيل: أكثر، إلى غير ذلك ممّا يطول تتبعه.

قال: وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثاً: ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث مدخر، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف، وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار، وأمّا أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها الديوان.

وقد سبق هذا كلّه، وإنّما كرّرته لقول بعضهم إثر حكايته له، ما صورته: وقيل: إن مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مائة مدي من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة.

وقيل: إن مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مدياً وسبعة أقفزة من الدراهم المذكورة. واتصل بنيان الزهراء أيّام الناصر خمساً وعشرين سنة شطر خلافته، ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلّها، وكانت خمسة عشر عاماً وأشهراً، فسبحان الباقي بعد فناء الخلق، لا إله إلاّ هو، انتهى.

* * *

بين الناصر ومنذر بن سعيد في شأن المباني

وقال ابن أصبغ الهمداني والفتح في المطمح: كان الناصر كلفاً بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وانبساط أمرها، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالة على قوّة الملك وعزّة السلطان وعلوّ الهمّة، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره، الذائع خبره، المنتشر في الأرض أثره، واستفرغ وسعه في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه ثلاث جمع متواليات، فأراد القاضي منذر أن يغض منه بما يتناوله من الوعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير بالإنابة والرجوع، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى:{ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ} [الشعراء: ١٢٨] - إلى قوله تعالى:{أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ} [الشعراء: ١٣٦] ثم وصله بقوله:{مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ} [النساء: ٧٧]، وهي دار القرار، ومكان الجزاء، ومضى في ذم تشييد البنيان، والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه، بكلام جزل، وقول فصل.

قال الحاكي: فجرى فيه طلقاً، وانتزع فيه قوله تعالى:{ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ} [التوبة: ١٠٩] إلى آخر الآية، وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير من فجأته، والدعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية، والحض على اعتزالها، والرفض لها، والندب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللذّات، ونهي النفس عن اتّباع هواها، فأسهب في ذلك كلّه، وأضاف إليه من آي القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله، حتى أذكر من حضره من الناس وخشعوا ورقّوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا وأعلنوا التضرّع إلى الله تعالى في التوبة والابتهال في المغفرة، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنّه المقصود به، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه، إلاّ أنّه وجد على منذر لغلظ ما قرّعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر، وقال: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري،

فأسرف عليّ، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني، واستشاط غيظاً عليه فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرّف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء، وقال له الحكم: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟ فزجره وانتهره، وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه؟ لا أمّ لك؟ يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإنّي لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنّه أحرجني، فأقسمت، ولوددت أنّي أجد سبيلاً إلى كفّارة يميني بملكي، بل يصلّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظنّنا نعتاض منه أبداً.

وقيل: إن الحكم اعتذر عمّا قال منذر، وقال: يا أمير المؤمنين، إنّه رجل صالح، وما أراد إلاّ خيراً، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك، فأمر حينئذ الناصر بالقصور ففرشت، وفرش ذلك المجلس بأصناف فرش الديباج، وأمر بالأطعمة، وقد أحضر العلماء وغيرهم من الأمراء وغصّ بهم المجلس، فدخل منذر في آخرهم، فأومأ إليه الناصر أن يقعد بقربه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنّما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس، ولا يتخطّى الرقاب، فجلس في آخر الناس وعليه ثياب رثّة، ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاماً من كلام المنذر يأتي قريباً.

وقحط الناس آخر مدة الناصر، فأمر القاضي منذر المذكور بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فتأهّب لذلك، وصام بين يديه أياماً ثلاثة تنفلاً وإنابة ورهبة، واجتمع له الناس في مصلّى الرّبض بقرطبة بارزين إلى الله تعالى في جمع عظيم، وصعد الخليفة الناصر في أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس، ويشاركهم في الخروج إلى الله تعالى والضّراعة له، فأبطأ القاضي حتى

اجتمع الناس وغصت بهم ساحة المصلّى، ثم خرج نحوهم ماشياً متضرّعاً مخبتاً متخشّعاً، وقام ليخطب، فلمّا رأى بدار الناس إلى ارتقائه، واستكانتهم من خيفة الله، وإخباتهم له، وابتهالهم إليه - رقّت نفسه، وغلبته عيناه، فاستعبر وبكى حيناً، ثم افتتح خطبته بأن قال: يا أيّها الناس، سلام عليكم، ثم سكت ووقف شبه الحصر، ولم يك من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه ولا ما أراد بقوله، ثم اندفع تالياً قوله تعالى:{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، إلى قوله:{رَّحِيمٌ} [الأنعام: ٥٤] ثم قال:{ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا} [نوح: ١٠]، استغفروا ربكم ثمّ توبوا إليه، وتزلّفوا بالأعمال الصالحة لديه، قال الحاكي: فضج الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء، ومضى على تمام خطبته، ففزّع النفوس بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكيره، فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر، روّى الثرى، وطرد المحل وسكّن الأزل، والله لطيف بعباده. وكان لمنذر في خطب الاستسقاء استفتاح عجيب، ومنه أن قال يوماً - وقد سرح طرفه في ملإ الناس عندما شخصوا إليه بأبصارهم، فهتف بهم كالمنادي -: يا أيّها الناس، وكرر ها عليهم مشيراً بيده في نواحيهم:{أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ} [فاطر: ١٥]... إلى:{بِعَزِيزٍ} [فاطر: ١٧] فاشتد وجد الناس، وانطلقت أعينهم بالبكاء، ومضى في خطبته.

وقيل: إن الخليفة الناصر طلبه مرّة للاستسقاء، واشتدّ عزمه عليه، فتسابق الناس للمصلّى، فقال للرسول - وكان من خواص الناس: ليت شعري، ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟ فقال له: ما رأينا قطّ أخشع منه في يومنا هذا، إنّه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخسّ الثياب، مفترش التراب، وقد رمّد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه و هو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعذّب بي الرعيّة وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك شيء منّي، قال الحاكي: فتهلّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله، وقال: يا غلام احمل المطر معك فقد أذن الله تعالى بالسّقيا، إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء، وكان كما قال،

فلم ينصرف الناس إلا عن السّقيا.

وكان منذر شديد الصلابة في أحكامه، والمهابة في أقضيته، وقوّة الحكومة والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه.

وقال ابن الحسن النّباهي، وأصله في المطمح وغيره: ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر في إنكاره عليه الإسراف في البناء، أن الناصر كان اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصيّة التي كانت مائلة على الصّرح الممرّد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد مغشاة ذهباً وفضّة أنفق عليها مالاً جسيماً، وقرمد سقفها به، وجعل سقفها صفراء فاقعة، إلى بيضاء ناصعة، تستلب الأبصار بأشعّة نورها، وجلس فيها إثر تمامها يوماً لأهل مملكته، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخراً عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة: هل رأيتم أن سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، وإنّك لأوحد في شأنك كلّه، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، فأبهجه قولهم وسرّه، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو ناكس الرأس، فلمّا أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على إبداعه، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له: يا أمير المؤمنين ما ظننت الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكّنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضّلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله، وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلني منزلتهم؟ قال: نعم، أليس الله تعالى يقول:{وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ} [الزخرف: ٣٣] - الآية، فوجم الخليفة، وأطرق مليّاً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى، قال الحاكي: ثمّ أقبل على منذر وقال له: جازاك الله يا قاضي عنّا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجلّ جزائه،

وكثر في الناس أمثالك، فالذي قلت هو الحق، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بنقض سقف القبيبة، وأعاد قرمدها تراباً على صفة غيرها، انتهى ما حكاه ابن الحسن النّباهي.

ولنذكر هذه الحكاية وغيرها، وإن خالف السياق ما سبق، وهذا منقول من كلام الحجاري في المسهب في أخبار المغرب فإنّه أمّ فائدة، إذ قال رحمه الله: دخل منذر بن سعيد يوماً على الناصر باني الزهراء، وهو مكب على الاشتغال بالبنيان، فوعظه، فأنشده عبد الرحمن الناصر:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ::: من بعدهم فبألسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم ::: ملكٍ محاه حوادث الأزمان
إنّ البناء إذا تعظم شأنه ::: أضحى يدلّ على عظيم الشان

قال: فما أدري أهذا شعره أم تمثّل به؟ فإن كان شعره فقد بلغ فيه إلى غاية الإحسان، وإن كان تمثّل به فقد استحقّه بالتمثّل به في هذا المكان، وكان منذر يكثر تعنيته على البنيان، ودخل عليه مرّة وهو في قبّة قد جعل قرمدها من ذهب وفضّة، واحتفل فيها احتفالاً ظن أن أحداً من الملوك لم يصل إليه، فقام خطيباً والمجلس قد غصّ بأرباب الدولة، فتلا قوله تعالى:{وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾} [الزخرف: ٣٣] الآية، وأتبعها بما يليق بذلك، فوجم الملك، وأظهر الكآبة، ولم يسعه إلا الاحتمال لمنذر بن سعيد لعظم قدره في علمه ودينه.

وحضر معه يوماً في الزهراء، فقام الرئيس أبو عثمان بن إدريس فأنشد الناصر قصيدة منها:

سيشهد ما أبقيت أنّك لم تكن ::: مضيعاً وقد مكّنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتّقى ::: وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتزّ الناصر، وابتهج، وأطرق منذر بن سعيد ساعة، ثم قام منشداً:

يا باني الزهراء مستغرقاً ::: أوقاته فيها أما تمهل

لله مـــــا أحســـــنها رونقـــــاً ::: لــــو لم تكـــن زهرهـــا تـــذبل

فقال الناصر: إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء الله تعالى، فقال منذر: اللّهم اشهد أنّي قد بثثت ما عندي ولم آل نضحاً، انتهى.

ولقد صدق القاضي منذر رحمه الله تعالى فيما قال، فإنّها ذبلت بعد ذلك في الفتنة، وقلب ما كان فيها من منحة محنة، وذلك عندما ولي الحجابة عبد الرحمن ابن المنصور بن أبي عامر الملقب بشنجول، وتصرف في الدولة مثل ما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور، فأساء التدبير، ولم يميز بين القبيل والدبير، فدس إلى المؤيد هشام بن الحكم من خوّفه منه حتى ولاّه عهده كما بيّنّا نص العهد فيما سبق، فأطبق الخاصة والعامة على بغضه، وإضمار السوء له، وذلك سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، فعهد ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدي وخلع المؤيد وحبسه، وأسلمت الجيوش شنجول فأخذ وأسر وقتل.

قال ابن الرقيق: ومن أجب ما روي أنّه من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فتحت قرطبة، وهدمت الزهراء، وخلع خليفة وهو المؤيد، وولي خليفة وهو المهدي، وزالت دولة بني عامر العظيمة، وقتل وزيرهم محمد بن عسقلاجة، وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك كلّه على يد عشرة رجال فحّامين وجزارين وزبالين، وهم جند المهدي هذا، انتهى.

* * *

الزاهرة

وأمّا الزاهرة: فهي من مباني المنصور محمد بن أبي عامر.

قال ابن خلدون أثناء كلامه على المنصور ما صورته: وابتنى لنفسه مدينة

لنزله سماها الزاهرة، ونقل إليها جزءاً من الأموال والأسلحة، انتهى.

وقال غيره، وأظنّه صاحب المطمح: وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتقد جمره، وظهر استبداده، وكثر حسّاده وأنداده، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السلطان، وخشي أن يقع في أشطان، فتوثّق لنفسه، وكشف له ما ستر عنه في أمسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه، وسما إلى ما سمت إليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليه رياسته، ويتم به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فتيانه وغلمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الأعظم، نسّق فيها كل اقتدار معجز ونظم، وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرخة، وحشد الصنّاع والفعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها بهاءً يردّ الأعين كليلة، وتوسع في اختطاطها، وتولّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنجادها وأغوارها، فاتسعت هذه المدينة في المدة القريبة، وصار بناؤها من الأنباء الغريبة، وبني معظمها في عامين.

وفي سنة سبعين وثلاثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصته وعامته، فتبوّأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل في داخلها الأهراء، وأطلق بساحتها الأرحاء، ثم قطع ما حولها لوزرائه وكتّابه، وقوّاده وحجّابه، فابتنوا بها كبار الدور، وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلاّت المفيدة، والمنازه المشيدة، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس بالنزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنوّ من صاحب الدولة، وتناهى الغلوّ في البناء حوله، حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت في بحبوحتها الإمارة، وأفرد الخليفة من كل شيء إلا من الاسم الخلافي، وصير ذلك هو الرسم العافي، ورتب فها

جلوس وزرائه، ورؤوس أمرائه، وندب إليها كل ذي خطّة بخطّته، ونصب ببابها كرسيّ شرطته، وأجلس عليها والياً على رسم كرسي الخليفة، وفي صفة تلك المرتبة المنيفة، وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج، وحذّر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج، فاقتضيت إليها اللّبانات والأوطار، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار، وتم لمحمد بن أبي عامر ما أراد، وانتظم بلبّة أمانيه المراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيّره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسدّ باب قصره عليه، وجدّ في خبر ألاّ يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويبسط في النهي والأمر، وشرف منه على كل داخل، ويمنع ما يحذره من الدواخل، ورتب عليه الحرّاس والبوّابين، والسمّار والمنتابين، يلازمون حراسة من فيه ليلاً ونهاراً، ويراقبون حركاتهم سرّاً وجهاراً، وقد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملّك قبيل أو دبير، وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء، معجوز الغناء، خفيّ الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عام، ولا يخاف منه بأسٌ ولا يرجى منه إنعام، ولا يعهد فيه إلا الاسم السلطاني في السّكة والدعوة، وقد نسخه ولبّس أبهته وطمس بهجته، وأغنى الناس عنه، وأزال أطماعهم منه، وصيرهم لا يعرفونه، وأمرهم أنهم لا يذكرونه، اشتدّ ملك محمد بن أبي عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسّع مع الأيام في تشييد بنيتها حتى كملت أحسن كمال، وجاءته في نهاية الجمال، نقاوة بناء، وسعة فناء، واعتدال هواء رقّ أديمه، وصقالة جوّ اعتلّ نسيمه، ونضرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان، المنصور وابن شهيد.

ومن المطمح: أن المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأبعد فيها الإيغال، وغال فيه من عظماء الروم من غال، وحلّ من أرضهم ما لم يطرق، وراع منهم ما لم يرع قطّ ولم يفرق، وصدر صدراً سما به على كل حسناء

عقيلة، وجلا به كل صفحة للحسن صقيلة، ودخل قرطبة دخولاً لم يعهد، وشهد له فيها يوم مثله لم يشهد، وكان ابن شهيد متخلّفاً عن هذه الغزوة لنقرس عداه عائده، وحداه منتجعه ورائده، وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، وله على ابن أبي عامر أيادٍ محكمة الأواصر، وهو الذي نهض به أول انبعاثه، وشفى أمره زمن التياثه، وخاصم المصحفي عنه بلسان من الحماية ألدّ، وتوخّاه بإحسان قلّده من الرعاية ما قلّد، وأسمى رتبته، وحلّى بإعظام جيده ولبّته، وكان كثيراً ما يتحفه، ويصله ويلطفه، فلمّا صدر المنصور من غزوته هذه وقفل، نسي متاحفته وغفل، فكتب إليه ابن شهيد:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصّبايا ::: يا بنفسي أقيك كلّ الرّزايا
ورسول الإله أسهم في الفي ::: ء لمن لم يخبّ فيه المطايا
فاجعلنّي فديت أشكر معرو ::: فك وابعث بها عذاب الثّنايا

فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوارٍ، كأنهن نجومٌ سوارٍ، وكتب إليه:

قد بعثنا بها كشمس النّهار ::: في ثلاث من المها أبكار
فاتّئد واجتهد فإنك شيخ ::: سلخ الليل عن بياض النهار
صانك الله عن كلالك فيها ::: فمن العار كلّة المسمار

فكتب إليه ابن شهيد:

قد فضضنا ختام ذاك السّوار ::: واصطبغنا من النّجيع الجاري
ونعمنا في ظلّ أنعم ليلٍ ::: ولهونا بالبدر ثم الدراري
وقضى الشيخ ما قضى بحسامٍ ::: ذي مضاء عضب الظّبى بتّار
فاصطنعه فليس يجزيك كفراً ::: واتخذه سيفاً على الكفّار

وكان المنصور إذا أراد أمراً مهمّاً شاور أرباب الدولة الأكابر من خدام الدولة الأموية، فيشيرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة الأمويّة عليه، فيخالفهم إلى المنهج الذي ابتدعه، فيقضون في أنفسهم بالهلاك في الطريق الذي سلكه، والمهيع الذي اخترعه، فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التي اقتضاها

سعده، فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها.

وقيل له مرّة: إن فلاناً مشؤوم فلا تستخدمه، فقال: أفّ لسعد لا يغطي على شؤمه، فاستخدمه، ولم ينله من شؤمه الذي جرت به العادة شيء.

وحكي عنه أنّه كان في قصره بالزاهرة، فتأمل محاسنه، ونظر إلى مياهه المطّردة، وأنصت لأطياره المغردة، وملأ عينه من الذي حواه من حسن وجمال، والتفت في الزاهرة من اليمين إلى الشمال، فانحدرت دموعه، وتجهم وقال: ويهاً لك يا زاهرة، فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب؟ فقال له بعض خاصته: ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قطّ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به؟ فقال: والله لترون ما قلت، وكأنّي بمحاسن الزاهرة قد محيت، وبرسومها قد غيرت، وبمبانيها قد هدمت ونحّيت، وبخزائنها قد نهبت، وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت، قال الحاكي: فلم يكن إلاّ أن توفّي المنصور وتولى المظفّر ولم تطل مدته، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقّب بشنجول، فقام عليه المهدي والعامّة، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامّة، وانقرضت دولة آل عامر، ولم يبق منهم آمر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا ::: أنيسٌ ولم يسمر بمكّة سامر
بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا ::: صروف الليالي والجدود العواثر

وخربت الزاهرة، وذهبت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملوكيّة والمنابر، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر، والسلاح، وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعاً صفصفاً، وأديلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصّفا.

ويروى أن بعض أولياء ذلك الزّمان مر بها، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة، ومبانيها العالية الرائقة، فقال: يا دار فيك من كل دار، فجعل الله منك في كل دار، قال الحاكي: فلم تكن بعد ذلك دعوة الرجل الصالح إلا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها، وعمّ بالخراب سائرها، فلم تبق دار في الأندلس إلا ودخلها من

فيئها حصة كثيرة أو قليلة، وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذي همّته مع ربّه جليلة.

وقد حكي أن بعض ما ذهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضي ملكه لا إله إلا هو.

* * *

طرف من أخبار المنصور

وقد قدمنا شيئاً من أخبار المنصور، ولا بأس أن نلمّ هنا ببعضها وإن حصل منه نوع تكرار في نبذة منها لارتباط الكلام بعضه ببعض.

قال بعض المحققين من المؤرخين: حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولي الحجابة، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً، وعلى جواريه مثل ذلك، فلا يعرف منهن، ويأمر من ينحّي الناس من طريقه، حتى ينتهي المؤيد إلى موضع تنزهه، ثم يعود، غير أنّه أركبه بأبهة الخلافة في بعض الأيام لغرضٍ له، كما ألمعنا به فيما سبق، وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بني أمية من الأندلس، وأخذ مع ذلك في قتل من يخشى منه من بني أميّة خوفاً أن يثوروا به، وظهر أنّه يفعل ذلك شفقة على المؤيد، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، وربما سكن بعضهم البادية، وترك مجلس الأبهة وناديه، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة:

أبـني أميّـة أيـن أقمـار الـدّجى ::: مـنكم؟ وأيـن نجومهـا والكوكـب؟
غابـت أسـودٌ مـنكم عـن غابهـا ::: فلـذاك حـاز الملـك هـذا الثعلـب

مع أن للمنصور مفاخر بذّ بها الأوائل والأواخر، من المثابة على جهاد العدو، وتكرار الذهاب بنفسه في الرواح والغدوّ.

عود وانعطاف إلى أخبار المنصور بن أبي عامر رحمه الله تعالى، وجازاه

عن جهاده أفضل الجزاء بمنّه وكرمه وفضله وطوله، فنقول: وكان له في كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر الإسلاميّة، فمنها أن بعض الأجناد نسي رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم، فأقامت عدّة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر، وهذا بلا خفاء ممّا يفتخر به أهل التوحيد على التثليث، لأنّهم لما أشرب قلوبهم خوف شرذمة المنصور وحزبه، وعلم كلّ من ملوكهم أنّه لا طاقة له بحربه، لجأوا إلى الفرار والتحصن بالمعاقل والقلاع، ولم يحصل منهم غير الإشراف من بعدٍ والاطلاع.

ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنّه مرّ بين جبلين عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج، فلمّا جاوز ذلك المحل - وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يميناً وشمالاً - لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا من وراءهم، وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذي بين جبلين، وكان الوقت شتاء، فلمّا رأى ما فعلوه رجع واختار منزلاً من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر، وتقدم ببناء الدور والمنازل، وبجمع آلات الحرث ونحوها، وبث سراياه فسبت وغنمت، فاسترقّ الصغار، وضرب أعناق الكبار، وألقى جثثهم حتى سدّ بها المدخل الذي من جهته، وصارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلداً خراباً، فلمّا طال البلاء على العدو أرسلوا إليه في طلب الصلح، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم، فامتنع من ذلك، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه، فأجابهم: إن أصحابي أبوا أن يخرجوا، وقالوا: إنّا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة، فإذا غزونا عدنا، فمازال الإفرنج يسألونه إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي، وأن يمدّوه بالميرة حتى يصل إلى بلادهن وأن ينحّو جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم، ففعلوا ذلك كلّه، وانصرف.

ولعمري إن هذا لعزٌّ ما وراءه مطمح، ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله

ويسمح، خصوصاً إزالتهم جيف قتلاهم من الطريق، وغصصهم في شرب ذلك بالريق.

ومن مآثره التي هي في جبين عصره غرّة، ولعين دهره قرّة، أنّه لما ختن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي، ومن أولاد الضعفاء عدد لا ينحصر، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار، خمسمائة ألف دينار، و هذه مكرمة مخلّدة، ومنّة مقلّدة، فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء، ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء.

ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظنّ، أن أكثر جنده من سبيه على ما حققه بعض المؤرخين، وذلك غاية المنح من الله والمنّ.

ومن أخباره الدالة على إقبال أمره وخيبة عدوّه وإدباره، أنّه ما عاد قطّ من غزوة إلا استعدّ لأخرى، ولم تهزم له قطّ راية مع كثرة غزواته شاتية صائفة وكفاه ذلك فخراً.

ومنها أنّه لقيته - وقد عاد من بعض غزواته - امرأة نقمت عليه بلوغ مناه وشهواته، وقالت له: يا منصور، استمع ندائي، فأنت في طيب عيشك وأنا في بكائي، فسألها عن مصيبتها التي عمّتها وغمّتها، فذكرت له أن لها ابناً أسيراً في بلادٍ سمّتها، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده، ولا يخبو ضرام قلقها من وقده، وأنشد لسان حالها ذلك الملك العلي:

أيا ويح الشجيّ من الخليّ ::: فرحّب المنصور بها

وأظهر الرقة بسببها، وخرج من القابلة إلى تلك المدينة التي فيها ابنها وجاس أقطارها وتخلّلها، حتى دوّخها إذ أناخ عليها بكلكله وذلّلها، وأعراها من حماتها وبنود الإسلام المنصورة ظلّلها، وخلّص جميع من فيها من الأسرى، وجلبت عوامله إلى قلوب الكفرة كسرا، وانقلبت عيون الأعداء حسرى، وتلا لسان حال المرأة{فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾} [الشرح: ٥ - ٦].

فهكذا تكون الهمة السلطانية، والنخوة الإيمانية، فالله سبحانه يروّح تلك الأرواح في الجنان، ويرقي درجاتها ويعاملها بمحض الفضل والامتنان.

* * *

رجع إلى أخبار المنصور الكبير محمد بن أبي عامر - رحمه الله

وكنا قد ذكرنا أنّه قبض على الوزير الحاجب المصحفي مع أنّه كان أحد أتباعه.

قال صاحب كتاب " روضة الأزهار، وبهجة النفوس ونزهة الأبصار ": ولما مر أمر المنصور بن أبي عامر بسجن المصحفي بالمطبق في الزهراء ودّع أهله وودّعه وداع الفرقة، وقال لهم: لستم ترونني بعدها حيّاً، فقد أتى وقت إجابة الدعوة، وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة، وذلك أنّي أشركت في سجن رجل في عهد الناصر، وما أطلقته إلاّ برؤيا رأيتها بأن قيل لي: أطلق فلاناً فقد أجيبت فيك دعوته، فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته عليّ، فقال: دعوت على من شارك في أمري أن يميته الله في أضيق السجون، فقلت: إنّها قد أجيبت، فأنّي كنت ممن شارك في أمره، وندمت حين لا ينفع الندم، فيروى أنّه كتب للمنصور بن أبي عامر بهذه الأبيات:

هبني أسأت فأين العفو والكرم ::: إذ قادني نحوك الإذعان والنّدم
يا خير من مدّت الأيدي إليه أما ::: ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت في السّخط فاصفح صفح مقتدر ::: إنّ الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيري:

يا جاهلاً بعدما زلّت بك القدم ::: تبغي التكرّم لّما فاتك الكرم
ندمت إذا لم تعد منّي بطائلةٍ ::: وقلّما ينفع الإذعان والنّدم
نفسي إذا جمحت ليست براجعةٍ ::: ولو تشفّع فيك العرب والعجم

فبقي في المطبق حتى مات، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم، انتهى.

وقال بعض مؤرخي المغرب: إن الحاجب المصحفي حصل له في هذه

النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن أنّه يصدر من مثله، حتى إنّه كتب إلى المنصور ابن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلّماً لأولاده، فقال المنصور بدهائه وحذقه: إن هذا الرجل يريد أن يحط من قدري عند الناس، لأنّهم طالما رأوني بدهليزه خادماً ومسلّماً، فكيف يرونه الآن في دهليزي معلّماً؟ وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه في غزواته، حتى إنّه حكى بعضهم أنّه رأى الحاجب المصحفي في ليلة نهى المنصور فيها الناس عن إيقاد النيران تعمية على العدوّ الكافر، وهو ينفخ فحماً في كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه، أو كما قال، فسبحان مديل الدول، لا إله إلاّ هو، فإن المصحفي بلغ من الجلالة والعظمة والتحكم في الدولة المدة المديدة أمراً لا مزيد عليه، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ولقد ذكر بعض العلماء المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصّة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي. ولم يزل أعداء المنصور بن أبي عامر يتربّصون به الدوائر، فغلب سعده الذي هو المثل السائر، وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعاً إذ قال:

اقترب الوعد وحان الهلاك ::: وكلّ ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتبٍ ::: وأمّه حبلى وقاضٍ يناك

يعني بالخليفة هشاماً المؤيد لكونه كان صغيراً، وأمّه صبح البشكنسية كان الأعداء يتهمون بها المنصور، وذلك بهتان وزور، وأفظع منه رميهم القاضي بالفجور، والله عالم بسرائر الأمور، ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون إلاًّ ولا ذمّة، ويطلقون ألسنتهم في العلماء والأئمة، ومن كان حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلّب، جدير بأن لا يدرك ما يؤمّل ويتطلب، لأنّه يعترض على الله سبحانه في أحكامه، نعوذ بالله من شرّ أنفسنا ومن شرّ كل ذي شرّ، بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه.

* * *

المصحف العثماني بقرطبة

رجع: وكان كما تقدم بقرطبة المصحف العثماني، وهو متداول بين أهل الأندلس، قالوا ثم آل أمره إلى الموحدين، ثم إلى بني مرين، قال الخطيب ابن مروزق في كتابه " المسند الصحيح الحسن " ما ملخصه: وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر إلا ومعه المصحف الكريم العثماني، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم، ومقام كبير، وكيف لا؟

قال ابن بشكوال: أخرج هذا المصحف من قرطبة وغرّب منها وكان بجامعها الأعظم، ليلة السبت حادي عشر شوّال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبأمره، وهذا أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمان رضي الله تعالى عنه إلى الأمصار: مكّة، والبصرة، والكوفة، والشام. وما قيل إن فيه دم عثمان هو بعيدٌ، وإن يكن أحدها فلعلّه الشامي، قاله ابن عبد الملك.

قال أبو القاسم التجيبي السبتي: أما الشامي فهو باقٍ بمقصورة جامع بني أميّة بدمشق المحروسة، وعاينته هناك سنة ٦٥٧ هـ، كما عاينت المكي بقبة اليهودية، وهو قبة التراب، قلت: عاينتهما مع الذي بالمدينة سنة ٧٣٥ هـ وقرأت فيها، قال النخعي: لعلّه الكوفي أو البصري. وأقول: اختبرت الذي بالمدينة والذي نقل من الأندلس فألفيت خطّهما سواء، وما توهموا أنّه خطّه بيمينه فليس بصحيح، فلم يخطّ عثمان واحداً منها، وإنّما جمع عليها بعضاً من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدني، ونص ما على ظهره: هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول الله ، منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصي، وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي الله تعالى عنه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم على كتب المصحف، انتهى.

واعتنى به عبد المؤمن بن علي، ولم يزل الموحدون يحملونه في أسفارهم متبركين به، إلى أن حمله المعتضد، وهو السعيد علي بن المأمون أبي العلاء

إدريس ابن المنصور، حين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥، فقتل قريباً من تلمسان، وقدّم ابنه إبراهيم، ثم قتل، ووقع النهب في الخزائن، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر، ونهب المصحف في الخزانة إلى أن افتتحها إمامنا أبو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧هـ، فظفر به وحصل عنده إلى أن أصيب في وقعة طريف، وحصل في بلاد برتقال، وأعمل الحيلة في استخلاصه، ووصل إلى فاس سنة
٧٤٥ هـ على يد أحد تجار أزمّور، واستمر بقاؤه في الخزانة؛ انتهى باختصار.

واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء، كما ذكره ابن رشيد في رحلته، ولا بأس أن أذكر كلامه بجملته، والرسالة في شأن الصحف لما فيها من الفائدة، ونص محل الحاجة منه: أنشدني الخطيب أبو محمد بن برطله من لفظه وكتبته من خطه، قال: أنشدني الشيخ الفقيه القاضي أبو القاسم عبد الرحمن ابن كاتب الخلافة أبي عبد الله بن عياش لأبيه رحمهم الله تعالى ممّا نظمه، وقد أمر أمير المؤمنين المنصور بتحلية الصحف:

ونفّلته من كل ملك ذخيرة ::: كأنّهم كانوا برسم مكاسبه
فإن ورث الأملاك شرقاً ومغرباً ::: فكم قد أخلّوا جاهلين بواجبه
وكيف يفوت النصر جيشاً جعلته ::: أمام قناه في الوغى وقواضبه
وألبسته الياقوت والدرّ حليةً ::: وغيرك قد روّاه من دم صاحبه

* * *

استيلاء المعتمد على قرطبة

رجع: وممّا ينخرط في سلك أخبار الزهراء ما حكاه الفتح في ترجمة المعتمد بن عباد إذ قال: وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين بن سراج أنّه حضر مع الوزراء والكتّاب بالزهراء في يوم قد غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرف، ولم يطرقه بصرف، أرّخت به المسرات عهدها، وأبرزت له الأماني خدّها، وأرشفت فيه لماها، وأباحت للزائرين حماها، وما زالوا ينقلون من قصر إلى

قصر، ويبتذلون الغصون بجنًى وهصر، ويتوقّلون في تلك الغرفات، يتعاطون الكؤوس بين تلك الشّرفات، حتى استقروا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطاراً، وأوقروا بالاعتبار قطاراً، فحلّوا منها في درانك ربيع مفوّفة بالأزهار، مطرّزة بالجداول والأنهار، والغصون تختال في أدواحها، وتتثنى في أكفّ أرواحها، وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها، وانقراض أطرابها، والوهي بمشيدها لاعب، وعلى كل جدارٍ غرابٌ ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شذاهم وأرجت، أيام نزلوا خلالها وتفيأوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجنّاتها، ونبّهوا الآمال من سناتها، وراعوا الليوث في آجامها، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعي تلفّع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلا نؤيٌ وأحجار، قد وهت قبابها، وهرم شبابها، وقد يلين الحديد، ويبلى على طيّه الجديد، فبينما هم يتعاطونها صغاراً وكباراً، ويديرونها أنساً واعتباراً، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة مكتوب فيها:

حسد القصر فيكم الزهراء ::: ولعمري وعمركم ما أساء
قد طلعتم بها شموساً صباحاً ::: فاطلعوا عندنا بدوراً مساء

فساروا إلى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلساً قد حار فيه الوصف، واحتشد فيه اللهو والقصف، وتوقدت نجوم مدامه، وتأوّدت قدود خدّامه، وأربى على الخورنق والسّدير، وأبدى صفحة البدر من أزرار المدير، فأقاموا ليلتهم ما عراهم نوم، ولا عداهم عن طيب اللذات سوم، وكانت قرطبة منتهى أمله، وكان روم أمرها أشهى عمله، وما زال يخطبها بمداخلة أهليها، ومواصلة واليها، إذ لم يكن في منازلتها قائد، ولم يكن لها إلاّ حيل ومكائد، لاستمساكهم بدعوة خلفائها، وأنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها، وحين اتفق له تملّكها، وأطلعه فلكها، وحصل في قطب دائرتها، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها، قال:

من للملوك بشأو الأصيد البطل؟ ::: هيهات جاءتكم مهديّة الدّول
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت ::: من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلاً حتى عرضت لها ::: فأصبحت في سريّ الحلي والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرسٌ ::: كلّ الملوك بها في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم ::: هجوم ليثٍ بدرع البأس مشتمل

ولمّا انتظمت في سلكه، واتّسمت بملكه، أعطى ابنه الظافر زمامها، وولاه نقضها وإبرامها، فأفاض فيها نداه، وزاد على أمده ومداه، وجمّلها بكثرة حبائه، واستقل بأعبائها على فتائه، ولم يزل فيها آمراً وناهياً، غافلاً عن المكر ساهياً، حسن ظنٍّ بأهلها اعتقده، واغتراراً بهم ما رواه ولا انتقده، وهيهات كم من ملك كفّنوه في دمائه، ودفنوه بذمائه، كم من عرشٍ ثلّوه، وكم من عزيز ملك أذلوه، إلى أن ثار فيها ابن عكاشة ليلاً، وجرّ إليها حرباً وويلاً، فبرز الظافر منفرداً عن كماته، عارياً من حماته، وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه، فإنّه كان غلاماً كما بلله الشباب بأندائه، وألحفه الحسن بردائه، فدافعهم أكثر ليله، وقد منع منه تلاحق رجله وخيله، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعا، ولا استقل منها ولا سعى، فترك ملتحفاً بالظلما، تحت نجوم السما، معفّراً في وسط الحمى، تحرسه الكواكب، بعد المواكب، ويستره الحندس، بعد السندس، فمرّ بمصرعه سحراً أحد أئمّة الجامع المغلّسين، فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى، وهو أعرى من الحسام المنتضى، فخلع رداءه عن منكبيه ونضاه، وستره به ستراً أقنع المجد به وأرضاه، وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة، ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة، فكان المعتمد إذا تذكر صرعته، وسعّر الحزن لوعته، رفع بالعويل نداءه، وأنشد:

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ::: ولمّا كان من الغد حزّ رأسه

ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم، ويرشق نفس كل ناظر بألم، فلمّا رمقته الأبصار، وتحققته الحماة والأنصار، رموا أسلحتهم، وسوّوا للفرار أجنحتهم، فمنهم من اختار فراره وجلاه، ومنهم من أتت به إلى حينه

رجلاه، وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره، ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره، وعدل عن تأبينه، إلى البحث عن مفرقه وجبينه، فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة للوعته شافية، إلاّ إشارته إليه في تأبين أخويه، المأمون والراضي المقتولين في أول النائرة، والفتنة الثائرة، انتهى.

* * *

الباب الخامس

في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ومدح جماعة من أولئك الأعلام، ذوي العقول الراجحة والأحلام، لشامة وجنة الأرض دمشق الشام، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها، وأرباب بيانها، ذوي السؤدد والاحتشام، ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حلّها سنة ألف وسبع وثلاثين للهجرة، وشاهد برق فضلها المبين وشام

الباب الخامس:

في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ومدح جماعة من أولئك الأعلام، ذوي العقول الراجحة والأحلام، لشامة وجنة الأرض دمشق الشام، وما اقتضته المناسبة من كلام أعيانها، وأرباب بيانها، ذوي السؤدد والاحتشام، ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حلّها سنة ألف وسبع وثلاثين للهجرة، وشاهد برق فضلها المبين وشام

واعلم - جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتحال - أنّ حصر أهل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام، لطال الكتاب وكثر الكلام، ولكنّا نذكر منهم لمعاً على وجه التوسط من غير إطناب داع إلى الملال واختصار مؤدّ للملام، فنقول مستمدين من واهب العقول:

١ - منهم عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السّلمي: وقد عرف به القاضي عياض في المدارك وغير واحد، ورأيت في بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفاً، ومن أشهرها كتاب الواضحة في مذهب مالك، كتاب كبير مفيد، ولابن حبيب مذهب في كتب المالكية مسطور، وهو مشهور عند علماء المشرق، وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما.

ومن نظمه يخاطب سلطان الأندلس:

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا ::: واذكره لا زلت في التاريخ مذكورا
قال النّبيّ صلاة الله تشمله ::: قولاً وجدنا عليه الحقّ والنورا
فيمن يوسّع في إنفاق موسمه ::: أن لا يزال بذاك العام ميسورا

وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن إذ طال عهدي به، والله تعالى أعلم.

وقال الفتح في المطمح: الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب

السّلمي، أي شرف لأهل الأندلس ومفخر، وأي بحر بالعلوم يزخر، خلدت منه الأندلس فقيهاً عالماً، أعاد مجاهل جهلها معالماً، وأقام فيها للعلوم سوقاً نافقة، ونشر منها ألويةً خافقة، وجلا عن الألباب صدأ الكسل، وشحذها شحذ الصّوارم والأسل، وتصرف في فنون العلوم، وعرف كل معلوم، وسمع بالأندلس وتفقّه، حتى صار أعلم من بها وأفقه، ولقي أنجاب مالك، وسلك من مناظرتهم أوعر المسالك، حتى أجمع عليه الاتفاق، ووقع على تفضيله الإصفاق، ويقال: إنّه لقي مالكاً آخر عمره، وروى عنه عن سعيد بن المسيّب أن سليمان بن داود، صلى الله عليهما وسلّم، كان يركب إلى بيت المقدس فيتغدّى به، ثم يعود فيتعشّى بإصطخر، وله في الفقه كتاب الواضحة، ومن أحاديثه غرائب، قد تحلّت بها للزمان نحورٌ وترائب.

وقال محمد بن لبابة: فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وراويها يحيى بن يحيى. وكان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرف في فنون الآداب، وكان له شعر يتكلم به متبحراً، ويرى ينبوعه بذلك متفجراً، وتوفّي بالأندلس في رمضان سنة ٢٣٨ هـ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعدما جال في الأرض، وقطع طولها والعرض، وجال في أكنافها، وانتهى إلى أطرافها.

٢ - ومن الراحلين من الأندلس: الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي راوي الموطّأ عن مالك، رضي الله تعالى عنه، ويقال: إن أصله من برابر مصمودة. وحكي أنّه لما ارتحل إلى مالك لازمه، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل: حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلّهم، ولم يخرج يحيى، فقال له مالك: ما لك لم تخرج وليس الفيل في بلادك فقال: إنّما جئت من الأندلس لأنظر إليك، وأتعلّم من هديك وعلمك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل، فأعجب به مالك، وقال: هذا عاقل الأندلس، ولذلك قيل: إن يحيى هذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبد الملك بن حبيب عالمها، ويقال: إن

يحيى راويها ومحدّثها، وتوفّي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ هـ برجب، وقبره يستسقى به بقرطبة، وقيل: إن وفاته في السنة التي قبلها، والله تعالى أعلم.

وروايته الموطّأ مشهورة، حتى إن أهل المشرق الآن يسندون الموطّأ من روايته كثيراً، مع تعدّد رواة الموطّأ، والله أعلم.

وكان يحيى بن يحيى روى الموطّأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخميّ المعروف بشبطون، وسمع من يحيى بن مضر القيسي الأندلسي، ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطّأ غير أبواب في كتاب الاعتكاف، شكّ في سماعها، فأثبت روايته فيها عن زياد، وذلك ممّا يدلّ على ورعه.

وسمع بمصر من اللّيث بن سعد، وبمكة من سفيان بن عيينة، وتفقه بالمدنيين والمصريين كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم العتقي، وسمع منهما، وهما من أكابر أصحاب مالك، بعد انتفاعه بمالك وملازمته له. وانتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار، وتفقه به جماعة لا يحصون عدداً، وروى عنه خلق كثير، وأشهر رواة الموطّإ وأحسنهم روايةً يحيى المذكور، وكان - مع أمانته ودينه - معظّماً عند الأمراء، يكنّى عندهم، عفيفاً عن الولايات متنزهاً، جلّت رتبته عن القضاء، وكان أعلى من القضاة قدراً عند ولاة الأمر بالأندلس لزهده في القضاء وامتناعه.

قال الحافظ ابن حزم: مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولي إلاّ أصحابه والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلاّ بمشورته واختياره، ولا يشير إلاّ بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به، على أن يحيى لم يل

قضاء قطّ، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم، انتهى.

وذكرنا في غير هذا الموضع قولاً آخر في سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس، والله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر، انتهى.

٣ - ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن أبي عيسى قال في المطمح: من بني يحيى بن يحيى الليثي، وهذه ثنية علمٍ وعقل، وصحة ضبط ونقل، كان علم الأندلس، وعالمها النّدس، ولي القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق، وجمع فيها من الروايات والسماع كل مفترق، وجال في آفاق ذلك الأفق، لا يستقرّ في بلد، ولا يستوطن في جلد، ثم كرّ إلى الأندلس فسمت رتبته، وتحلّت بالأماني لبّته، وتصرف في ولايات أحمد فيها منابه، واتصلت بسببها بالخليفة أسبابه، وولاه القضاء بقرطبة فتولاه بسياسة محمودة، ورياسة في الدين مبرمة القوى مجهودة، والتزم فيها الصّرامة في تنفيذ الحقوق، والحزامة في إقامة الحدود، والكشف عن البيّنات في السر، والصّدع بالحق في الجهر، لم يستمله مخادع، ولم يكده مخاتل، ولم يهب ذا حرمة، ولا داهن ذا مرتبة، ولا أغضى لأحد من أسباب السلطان وأهله، حتى تحاموا جانبه، فلم يجسر أحد منهم عليه، وكان له نصيب وافر من الأدب، وحظ من البلاغة إذا نظم وإذا كتب.

٤ - ومنهم عتيق بن أحمد بن عبد الباقي الأندلسي، الدمشقي وفاة، يكنى أبا بكر: نزيل دمشق، كان مشهوراً بالصلاح، وانتفع به جماعة من الفقراء، وولد على ما قيل سنة ٥١٦هـ، وتوفّي سنة ٦١٦ هـ بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية، فيكون عمره على هذا مائة سنة، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله.

٥ - ومنهم أبة إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي الأبّذي، الملقب في البلاد المشرقية ببرهان الدين - وأبّذة، بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وفتحها وبعدها ذال معجمة، بلد بالأندلس - سمع المذكور بمكّة

وغيرها من البلاد، وبدمشق من الحافظ ابن طبرزذ، وأمّ الصخرة، وكان فاضلاً صالحاً شاعراً، توفّي سنة ٦٥٦هـ.

٦ - ومنهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي، قاضي الجماعة بقرطبة، وكان لا يخاف في الله لومة لائم، ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته في أيتام أخي نجدة، وحدّث بها جماعة من أهل العلم والرواية، وهي أن الخليفة الناصر احتاج إلى شراء دار بقرطبة لحظيّة من نسائه تكرم عليه، فوقع استحسانه على دار كانت لأولاد زكريا أخي نجدة، وكانت بقرب النشارين في الرّبض الشرقي منفصلة عن دوره، ويتصل بها حمّام له غلة واسعة، وكان أولاد زكريا أخي نجدة أيتاماً في حجر القاضي، فأرسل الخليفة من قوّمها له بعدد ما طابت نفسه، وأرسل ناساً أمرهم بمداخلة وصي الأيتام في بيعها عليهم، فذكر أنّه لا يجوز إلاّ بأمر القاضي، إذ لم يجز بيع الأصل إلاّ عن رأيه ومشورته، فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار، فقال لرسوله: البيع على الأيتام لا يصح إلاّ لوجوه: منها الحاجة، ومنها الوهي الشديد، ومنها الغبطة، فأمّا الحاجة: فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأمّا الوهي: فليس فيها، وأمّا الغبطة: فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع، وإلا فلا، فنقل جوابه إلى الخليفة، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعاً أن يتوخّى رغبته فيها، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام سورتها، فأمر وصيّ الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، ففعل ذلك وباع الأنقاض، فكانت لها قيمة أكثر ممّا قومت به للسلطان، فاتصل الخبر به، فعز عليه خرابها، وأمر بتوقيف الوصي على ما أحدثه فيها، فأحال الوصي على القاضي أنّه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي منذر، وقال له: أنت أمرت بنقض دار أخي نجدة فقال له: نعم، فقال: وما دعاك إلى ذلك قال: أخذت فيها بقول الله تعالى{ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾} [الكهف: ٧٩]، مقوّموك لم يقدروها إلاّ بكذا، وبذلك تعلق وهمك، فقد نضّ في

أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمّام فضلاً، ونظر الله تعالى للأيتام، فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك، وقال: نحن أولى من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنّا وعن أمانتك خيراً.

وذكر ابن أصبغ الهمداني عن منذر أنّه خطب يوماً، وأراد التواضع، فكان من فصول خطبته، أن قال: حتى متى أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين، وأبقى مقيماً مع الحائرين كلاّ إن هذا لهو البلاء المبين﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، اللهم فرّغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفّلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك، يا أرحم الراحمين.

وسمع منذر بالأندلس من عبيد الله بن يحيى بن يحيى ونظرائه، ثم رحل حاجّاً سنة ثمان وثلاثمائة فاجتمع بعدّة أعلام وظهرت فضائله بالمشرق، وممّن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابوري، سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمى بالإشراف وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبي العباس ابن ولاّد، وروى عن أبي جعفر ابن النحاس. وكان منذر متفنّناً في ضروب العلوم وغلب عليه التفقّه بمذهب أبي سليمان داود ابن علي الأصبهاني المعروف بالظاهري، فكان منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه ويحتج لمقالته ويأخذ به في نفسه وذويه، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه، وهو الذي عليه العمل بالأندلس، وحمل السلطان أهل مملكته عليه، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه، شديد العارضة حاضر الجواب عتيده، ثابت الحجّة ذا شارةٍ عجيبة ومنظر جميل وخلق حميد وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم، وكان - مع وقاره التام - فيه دعابة مستملحة، وله نوادر مستحسنة، وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ولبث قاضياً من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته، ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفّي، رحمه الله تعالى،

عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبر عنها في المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاماً كاملة، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية، ولا قسم بغير سويّة، ولا ميل بهوى، ولا إصغاء إلى عناية، رحمه الله تعالى ورضي عنه؛ ودفن بمقبرة قريش بالرّبض الغربي من قرطبة أعادها الله تعالى، جوفّي مسجد السيدة الكبرى، بقرب داره.

وله، رحمه الله تعالى، تواليف مفيدة: منها كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك في الفقه والكلام في الرد على أهل المذاهب، تغمده الله تعالى برضوانه.

٧ - وممّن رحل إلى المشرق من الأندلس فشهد له بالسبق، كل أهل المغرب والشرق، والإمام العلامة أبو القاسم الشاطبي، صاحب " حرز الأماني " و " العقيلة "، وغيرهما.

وهو أبو القاسم ابن فيرّه بن خلف بن أحمد الرّعيني الشاطبي المقرئ، الفقيه الحافظ الضرير أحد العلماء المشهورين والفضلاء المذكورين، خطب ببلده شاطبة مع صغر سنّه، ودخل الديار المصريّة سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وحضر عند الحافظ السّلفي وابن برّي وغيرهما، وولد بشاطبة آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وتوفّي بالقاهرة يوم الأحد الثامن والعشرين، وقيل: الثامن عشر، من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة، بعد العصر، ودفن من الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطّم.

وحكي أن الأمير عز الدين موسك الذي كان والد ابن الحاجب حاجباً له بعث إلى الشيخ الشاطبي يدعوه إلى الحضور عنده، فأمر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب إليه:

قل للأمير مقالةً ::: من ناصحٍ فطنٍ نبيه
إنّ الفقيه إذا أتى ::: أبوابكم لا خيرَ فيه

وكان، رحمه الله تعالى، قرأ بشاطبة القراءات، وأتقنها على النّفزي، ثم

انتقل إلى بلنسية فقرأ بها التيسير من حفظه على ابن هذيل، وسمع الحديث منه ومن ابن النعمة وابن سعادة وابن عبد الرحيم وغيرهم، وارتحل إلى المشرق فاستوطن القاهرة، واشتهر اسمه وبعد صيته، وقصده الطلبة من النواحي، وكان إماماً علاّمة ذكيّاً كثير الفنون منقطع القرين رأساً في القراءات، حافظاً للحديث بصيراً بالعربية واسع العلم، وقد سارت الركبان بقصيدته حرز الأماني و " عقيلة أتراب الفضائل " اللتين في القراءات والرسم، وحفظهما خلق لا يحصون، وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذّاق القراء، ولقد أوجز وسهّل الصعب.

وممّن روى عنه أبو الحسن ابن خيرة، ووصفه من قوّة الحفظ بأمر معجب، وممّن قرأ عليه بالروايات الإمام الشهير محمد بن عمر القرطبي. وتصدّر الشاطبي، رحمه الله تعالى، للإقراء بالمدرسة الفاضلية، وكان موصوفاً بالزهد والعبادة والانقطاع. وقبره بالقرافة يزار، وترجى استجابة الدعاء عنده، وقد زرته مراراً، ودعوت الله بما أرجو قبوله. وترك أولاداً: منهم أبو عبد الله محمد، عاش نحو ثمانين سنة.

وقال السبكي في حق الإمام الشاطبي: إنّه كان قويّ الحافظة، واسع المحفوظ، كثير الفنون فقيهاً مقرئاً محدّثاً نحويّاً زاهداً عابداً ناسكاً يتوقد ذكاء؛ قال السخاوي: أقطع أنّه كان مكاشفاً، وأنّه سأل الله كتمان حاله، ما كان أحد يعلم أي شيء هو، انتهى.

وترجمته واسعة، رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين.

٨ - ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام القاضي أبو بكر ابن العربي.

قال ابن سعيد: هو الإمام العالم القاضي الشهير فخر المغرب، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري، قاضي قضاة كورة إشبيلية، ذكره

الحجاري في المسهب، طبّق الآفاق بفوائده، وملأ الشام والعراق بأوابده، وهو إمام في الأصول والفروع وغير ذلك.

وسمع بالأندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزني وأبا عبد الله السّرقسطي، وببجاية أبا عبد الله الكلاعي، وبالمهديّة أبا الحسن ابن الحداد الخولاني، وسمع بالإسكندرية من الأنماطي، وبمصر من أبي الحسن الخلعي وغيره، وبدمشق غير واحد كأبي الفتح نصر المقدسي، وبمكّة أبا عبد الله الحسين الطبري وابن طلحة وابن بندار، وقرأ الأدب على التبريزي وعمل، رحمه الله تعالى، على مدينة إشبيلية سوراً بالحجارة والآجر بالنورة من ماله. وكان - كما في الصلة - مقدماً في المعارف كلها حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها، ويجمع إلى ذلك كلّه آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة ولين الكنف، وكثرة الاحتمال وكرم النفس، وحسن العهد وثبات الود.

وذكره ابن بشكوال في الصلة وقال فيه: الإمام الحافظ، ختام علماء الأندلس، رحل إلى المشرق مع أبيه مستهلّ ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ودخل الشام والعراق وبغداد، وسمع بها من كبار العلماء، ثم حج في سنة تسع وثمانين، وعاد إلى بغداد، ثم صدر منها.

وقال ابن عساكر: خرج من دمشق راجعاً إلى مقره سنة ٤٩١ هـ، ولما غرّب صنّف " عارضة الأحوذي " ولقي بمصر والإسكندرية جملة من العلماء، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، وقدم إشبيلية بعلم كثير، وكان موصوفاً بالفضل والكمال، وولي القضاء بإشبيلية، ثم صرف عنه، ومولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة، وتوفّي بمغيلة بمقربة من مدينة فاس، ودفن بفاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة؛ انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخّصاً.

وما وفى ابن سعيد حافظ الإسلام أبا بكر ابن العربي حقّه، فلنعززه بما

حضرنا من التعريف به، فنقول: إنّه لقي ببغداد الشاشي أبا بكر والإمام أبا حامد الطوسي الغزالي، ونقل عنه أنّه قال: كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلاّ الباجي، أو كلاماً هذا معناه، وكان من أهل التفنن في العلوم، متقدماً في المعارف كلّها، متكلّماً على أنواعها، حريصاً على نشرها، وقام بأمر القضاء أحمد قيام، مع الصرامة في الحق، والقوّة والشدة على الظالمين والرفق بالمساكين، وقد روي عنه أنّه أمر بثقب أشداق زامرْ، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثّه، وقرأ عليه الحافظ ابن بشكوال بإشبيلية.

وقال ابن الأبّار: إن الإمام الزاهد العابد أبا عبد الله ابن مجاهد الإشبيلي لازم القاضي ابن العربي نحواً من ثلاثة أشهر، ثم تخلّف عنه، فقيل له في ذلك، فقال: كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان، انتهى.

وذكره ابن الزبير في صلته، وقال: إنّه رحل مع أبيه أبي محمد عند انقراض الدولة العبّادية، وسنّه نحو سبعة عشر عاماً، إلى أن قال: وقيد الحديث، وضبط ما روى، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمة هذا الشأن، ومات أبوه - رحمه الله تعالى - بالإسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين فانصرف حينئذ إلى إشبيلية، فسكنها، وشوور فيها وسمع، ودرّس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة، وولي القضاء مدّة أوّلها في رجب من سنة ثمان وعشرين، فنفع الله تعالى به لصرامته ونفوذ أحكامه، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله، فأحسن الصبر على ذلك كله، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثّه، وكان فصيحاً حافظاً أديباً شاعراً كثير الملح مليح المجلس.

ثم قال: قال القاضي عياض - بعد أن وصفه بما ذكرته -: ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناس فيه الكلام، وطعنوا في حديثه، وتوفي منصرفه من مراكش من الوجهة التي توجّه فيها مع أهل بلده إلى

الحضرة بعد دخول الموحّدين مدينة إشبيلية، فحبسوا بمراكش نحو عام، ثم سرحوا، فأدركته منيته، وروى عنه خلق كثير، منهم القاضي عياض وأبو جعفر ابن الباذش وجماعة، انتهى ملخصاً.

ووقع في عبارة ابن الزبير تبعاً لجماعة أنّه دفن خارج باب الجيسة بفاس، والصواب خارج باب المحروق، كما أشبعت الكلام على ذلك، في أزهار الرياض، وقد زرته مراراً، وقبره هنالك مقصود للزيارة خارج القصبة، وقد صرح بذلك بعض المتقدمين الذين حضروا وفاته، وقال: إنّه دفن بتربة القائد مظفر خارج القصبة، وصلى عليه صاحبه أبو الحكم ابن حجاج، رحمه الله تعالى.

وقال رحمه الله تعالى: حذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثاً لضبط القرآن والعربية والحساب، فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الأحرف نحواً من عشرة بما يتبعها من إظهار، وإدغام ونحوه، وتمرنت في العربية والشعر واللّغة، ثم رحل بي أبي إلى المشرق، ثم ذكر تمام رحلته، رحمه الله تعالى.

٩ - ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر ابن حجّاج، الغافقي، الإشبيلي، ومن ونظمه بالمدينة المشرّفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام:

لم يبق لي سؤلٌ ولا مطلب ::: مذ صرت جاراً لحبيب الحبيب
لا أبتغي شيئاً سوى قربه ::: وها أنا منه قريبٌ قريب
من غاب عن حضرة محبوبه ::: فلست عن طيبة ممن يغيب
لا تسأل المغبوط عن حاله ::: جارٌ كريمٌ ومحلٌّ خصيب
العيش والموت هنا طيّبٌ ::: بطيبةٍ لي كلّ شيء يطيب

١٠ - منهم الشيخ الأديب الفاضل البارع جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الخطيب أبي الحسن محمد بن أبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن علي ابن ذي النون، الأنصاري، المالقي من أشياخ أبي حيّان، لقيه ببلبيس من ديار مصر، وولد ابن ذي النون سنة ٦١٧ بمالقة، ومن تواليفه: نفح المسك

الأذفر في مدح المنصور ابن المظفّر وأزهار الخميلة في الآثار الجميلة واستطلاع البشير ومحض اليقين وروض المتقين.

١١ - ومنهم زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخميّ المعروف بشبطون، يكنى أبا عبد الله، كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس، وكانوا قبله يتفقّهون على مذهب الأوزاعي، وأراده الأمير هشام على القضاء بقرطبة وعزم عليه، فهرب، فقال هشام: ليت الناس كلّهم كزياد حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا، وأرسل إلى زياد فأمّنه حتى رجع إلى داره.

ويحكى أنّه لما أراده للقضاء كلمه الوزراء في ذلك عن الأمير، وعرّفوه عزمه عليه، فقال لهم: أما إن أكرهتموني على القضاء فزوجتي فلانة طالق ثلاثاً، لئن أتاني مدّع في شيء ممّا في أيديكم لأخرجنّه عنكم ثم أجعلكم مدّعين فيه؛ فلمّا سمعوا منه ذلك علموا صدقه، فتكلّموا عند الأمير في معافاته.

وتوفّي: سنة أربع ومائتين، وقيل: سنة ١٩٣، وقيل: في التي بعدها، وقيل: سنة ١٩٩، والأول أولى بالقبول، والله تعالى أعلم.

ورحل في ذلك العصر جماعة من أنظار شبطون، كفرغوس بن العباس وعيسى ابن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممّن رحل إلى الحج أيّام هشام ابن عبد الرحمن والد الحكم، فلمّا رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالأندلس، وكان رائد الجماعة في ذلك شبطون.

وهو أول من أدخل موطّأ مالك إلى الأندلس مكملاً متقناً، فأخذه عنه يحيى بن يحيى كما مر، وهو إذ ذاك صدر في طلاب الفقه، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حيّاً، فرحل سريعاً، وأخذ يحيى عن زياد هذه الكتب العشرة المنسوبة إلى يحيى.

ولقي أيضاً عبد الله بن وهب صاحب مالك، وسمع منه الموطّأ، ولقي أيضاً

عبد الله بن نافع المدني صاحب مالك، وسمع منه ومن الليث بن سعد فقيه مصر، ومن سفيان بن عيينة بمكّة، وقدم يحيى الأندلس أيام الحكم، فانتشر به وبزياد وعيسى بن دينار علم مالك بالأندلس، رضي الله تعالى عن الجميع.

١٢ - ومنهم سوار بن طارق مولى عبد الرحمن بن معاوية، قرطبي، حج ودخل البصرة، ولقي الأصمعي ونظراءه، وانصرف إلى الأندلس وأدّب الحكم، ومن ولده محمد بن عبد الله بن سوار، حج أيضاً، ولقي أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما، وأدخل الأندلس علماً كثيراً، رحم الله تعالى الجميع.

١٣ - ومنهم بقيّ بن مخلد، الشهير الذكر، صاحب التآليف التي لم يؤلّف مثلها في الإسلام، ولقي مائتين وأربعة وثمانين شيخاً، وكانت له خاصة من الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله تعالى، وستأتي جملة ممّا يتعلّق ببقيّ بن مخلد في رسالة ابن حزم في الباب السابع؛ وبقيّ على وزن عليّ، رحمه الله تعالى ورضي عنه؛ وقد عرّف ببقيّ بن مخلد غير واحد من العلماء كصاحب " النبراس " وغيره.

١٤ - ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف أبو محمد، البيّاني - وبيّانة من أعمال قرطبة - وأصل سلفه من موالي الوليد بن عبد الملك، وسمع المذكور بقرطبة من بقيّ بن مخلد ومحمد بن وضاح ومطرّف بن قيس وأصبغ ابن خليل وابن مسرة وغير واحد، ورحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك ابن أيمن ومحمد بن زكريا بن عبد الأعلى سنة أربع وسبعين ومائتين، فسمع بمكة من محمد بن إسماعيل الصائغ وعلي بن عبد العزيز، ودخل العراق، فلقي من أهل الكوفة إبراهيم بن أبي العنبس قاضيها وإبراهيم بن عبد الله القصار، وسمع ببغداد من القاضي إسماعيل وأحمد بن زهير بن حرب وغيرهما كعبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل والحارث بن أبي أسامة وكتب عن ابن أبي خيثمة تاريخه، وسمع من ابن قتيبة كثيراً من كتبه، وسمع من المبرّد وثعلب وابن الجهم في آخرين، وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمري ومطلب بن شعيب

وغيرهما، وسمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتي الشاعر، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير، فمال الناس إليه في تاريخ أحمد ابن زهير وكتب ابن قتيبة، وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد الأعلى، وكان بصيراً بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والعربية والشعر، وكان يشاور في الأحكام، وصنّف على كتاب السنن لأبي داود كتاباً في الحديث، وسببه أنّه لمّا قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد ابن أيمن، فوجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما بيسير، فلمّا فاتهما عمل كل واحد منهما مصنفاً في السنن على أبواب كتاب أبي داود، وخرّجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما وهما مصنفان جليلان، ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه وسماه المجتنى - بالنون - وابتدأ اختصاره في المحرم سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وجعله باسم الحكم المستنصر، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثاً في سبعة أجزاء.

ومولده يوم الاثنين عاشر ذي الحجّة سنة سبع وأربعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

١٥ - ومنهم قاسم بن ثابت أبو محمد العوفي السّرقسطي، رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شعيب النسائي وأحمد بن عمرو البزار، وبمكّة من عبد الله بن علي بن الجارود ومحمد بن علي الجوهري، واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه، فأدخلا إلى الأندلس علماً كثيراً، يقال: إنّهما أوّل من أدخل كتاب العين إلى الأندلس، وألف قاسم في شرح الحديث كتاباً سمّاه الدلائل، بلغ في الغاية في الإتقان، ومات قبل إكماله، فأكمله أبوه ثابت بعده، وقد روي عن أبي علي البغدادي أنّه كان يقول: كتبت كتاب الدلائل، وما أعلم أنّه وضع بالأندلس مثله، وكان قاسم عالماً بالحديث واللغة، متقدماً في معرفة الحديث والنحو والشعر، وكان مع ذلك ورعاً ناسكاً، وأريد على القضاء بسرقسطة، فأبى ذلك، فأراد أبوه إكراهه عليه، فسأله أن يتركه ينظر في أمره ثلاثاً،

ويستخير الله تعالى، فمات في هذه الثلاثة الأيام، فيروون أنّه دعا لنفسه بالموت، وكان مجاب الدعوة، توفّي سنة ٣٠٢ بسرقسطة، رحمه الله تعالى.

١٦ - ومنهم علم الدين أبو محمد المرسيّ اللّورقي، وهو قاسم بن أحمد ابن موفق بن جعفر، العلامة المقرئ الأصولي النحوي، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبي جعفر الحصار وأبي عبد الله المرادي وأبي عبد الله ابن نوح الغافقي، وقدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غياث ابن فارس، بدمشق على التاج زيد الكندي، وسمع ببغداد من أبي محمد ابن الأخضر، وأخذ العربية عن أبي البقاء، ولقي الجزولي بالمغرب، وسأله عن مسألة مشكلة في مقدمته، فأجابه، وبرع في العربية وفي علم الكلام والفلسفة، وكان يقرئ ذلك ويحققه، وأقرأ بدمشق ودرس، وشرح المفصل في النحو في أربع مجلدات فأجاد وأفاد، وشرح الجزولية والشاطبية، وكان مليح الشكل، حسن البزة، موطّأ الأكناف، قرأ عليه جماعة، وتوفّي سابع رجب سنة ٦٦١هـ، وكان معمّراً مشتغلاً بأنواع العلوم، وسمّاه بعضهم أبا القاسم، والأوّل أصح.

١٧ - ومنهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار، أبو محمد، من أهل قرطبة، وجدّه مولى الوليد بن عبد الملك، رحل فسمع بمصر من محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم والمزني والبرقي والحارث بن مسكين ويونس بن عبد الأعلى وإبراهيم بن المنذر وغيرهم، ولزم ابن عبد الحكم للتفقّه، وتحقق به وبالمزني، وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد، ويميل إلى مذهب الشافعي، ولما قال له ابنه محمد بن القاسم: يا أبت أوصني، قال: أوصيك بكتاب الله، فلا تنس حظك منه، واقرأ منه كلّ يوم جزءاً، واجعل ذلك عليك واجباً، وإن أردت أن تأخذ من هذا الأمر بحظ، يعني الفقه، فعليك برأي الشافعي، فإنّي رأيته أقل خطأ. قال أبو الوليد ابن الفرضي: ولم يكن بالأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة. وقال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة: ما رأينا

أفقه من قاسم بن محمد ممن دخل الأندلس من أهل الرحلة. وقال أسلم بن عبد العزيز: سمعت عن ابن عبد الحكم أنّه قال: لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد، ولقد عاتبته في حين انصرافه إلى الأندلس، وقلت له: أقم عندنا فإنّك تقتعد ههنا رياسة ويحتاج الناس إليك، فقال: لا بدّ من الوطن. وقال سعيد بن عثمان: قال لي أحمد ابن صالح الكوفي: قدم علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد، فرأيت رجلاً فقيهاً.

وألّف رحمه الله تعالى كتاباً نبيلاً في الرد على ابن مزين وعبد الله بن خالد والعتبي يدل على علمه، وله كتاب في خبر الواحد. وكان يلي وثائق الأمير محمد طول أيامه. روى عنه ابن لبابة وابن أيمن والأعناقي وابنه محمد بن قاسم في آخرين. توفّي سنة ست - أو سبع، أو ثمان - وسبعين ومائتين، رحمه الله تعالى.

١٨ - ومنهم: أبو بكر الغساني، وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود، من أهل المرية، قدم إلى مصر ولقي بها أبا بكر الطرطوشي، ثم عاد إلى بلده، وشوور واستقضي بمرسية مدة طويلة، ثم صرف وسكن مراكش. قال ابن بشكوال: توفّي بمراكش في رجب سنة ٦٣٦، وقال أبو جعفر ابن الزبير: إن له كتاب تفسير القرآن، وبيته بيت علم ودين.

١٩ - ومنهم: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن حيّون، من أهل وادي الحجارة، قال ابن الفرضي: سمع من ابن وضاح والخشني ونظرائهما بالأندلس، ورحل إلى المشرق، فتردد هنالك نحواً من خمس عشرة سنة، وسمع بصنعاء ومكة وبغداد ولقي جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل: منهم عبد الله ابن أحمد، وسمع بمصر من الخفاف النيسابوري وإبراهيم بن موسى وغيرهما، وبالمصيصة والقيروان، وكان إماماً في الحديث، عالماً، حافظاً للعلل، بصيراً بالطرق، ولم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه، وهو ضابط متقن، حسن التوجيه للحديث، صدوق، ولم يذهب مذهب مالك. وممّن روى عنه

ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة وأحمد بن سعيد بن حزم، وقال خالد بن سعيد: لو كان الصدق إنساناً لكان ابن حيّون. وكان يزنّ بالتشييع لشيء كان يظهر منه في حق معاوية، رضي الله تعالى عنه، وكان شاعراً، وتوفّي بقرطبة سنة ٣٠٥، سامحه الله تعالى.

٢٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن غالب، المالقيّ، قال ابن نقطة: سمع بالإسكندرية من أبي الحسن ابن المقدسي، وكان فاضلاً، رأيت بخطّه إجازة بمصر لبعض المصريين في رجب سنة ٦٠٤، وسمع بمصر شيئاً من الخلعيّات، قال ابن فرتون الفاسي في ذيل تاريخ الأندلس: روى بمالقة، ورحل إلى المشرق وحج، ولقي أبا الحسن علي بن المفضل المقدسي، وأخذ عنه كتاب تحقيق الجواب عمّن أجيز له ما فاته من الكتاب من تآليفه، ورجع إلى الأندلس، ثم نهض إلى مراكش فتوفّي في أقصى بلاد السّوس في حدود سنة ٦٤٥، رحمه الله تعالى.

٢١ - ومنهم اليقّوري، وهو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم مصنف كتاب إكمال الإكمال للقاضي عياض على صحيح مسلم، وكتبٍ على كتاب الشهاب القرافي في الأصول، وسمع الحديث، وقدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة، ثم عاد بعد حجّه، ومات بمراكش سنة ٧٠٧، وقد زرت قبره بها مراراً، قال الحافظ المقريزي: واليقّوري نسبة إلى يقّورة - بياء آخر الحروف مفتوحة، وقاف مشددة، وراء مهملة - بلد بالأندلس، انتهى.

٢٢ - ومنهم أبو عبد الله الأنصاري، وهو محمد بن إبراهيم بن موسى ابن عبد السلام، ويعرف بابن شق الليل، من أهل طليطلة، سمع بمصر أبا الفرج الصوفي وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد ابن النحاس وأبا القاسم ابن ميسرة وأبا الحسن ابن بشر وغيرهم، وسمع بطليطلة من جماعة، وحدّث عن جماعة من المحدثين كثيرة.

قال ابن بشكوال: وكان فقيهاً عالماً، وإماماً متكلّماً، حافظاً للفقه، والحديث، قائماً بهما متقناً لهما، إلا أنّ المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعلله كان أغلب عليه، وكان مليح الخط، جيد الضبط، من أهل الرواية والدراية والمشاركة في العلوم، وكان أديباً شاعراً مجيداً لغويّاً ديّناً فاضلاً، كثير التصانيف والكلام على علم الحديث، حلو الكلام في تآليفه، وله عناية بأصول الديانات وإظهار الكرامات، توفّي بطلبيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥، رحمه الله تعالى.

٢٣ - ومنهم الشيخ الإمام الشهير الكبير الولي العارف بالله تعالى سيدي أبو عبد الله القرشي الهاشمي الأندلسي، شيخ السالكين، وإمام العارفين، وقدوة المحققين، قدم مصر بعدما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهاد، وكان يقول: صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة: الشيخ أبي الربيع، والشيخ أبي الحسن ابن طريف، والشيخ أبي زيد القرطبي، والشيخ أبي العباس الجوزي، وسلك على يده جماعة: منهم أبو العباس القسطلاني، فإنّه أخذ عنه كلامه وجمعه في جزء. وخرج سيدي أبو عبد الله القرشي من مصر إلى بيت المقدس فأقام به إلى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذي الحجّة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة، ودفن هنالك، وقبره ظاهر يقصد للزيارة زرته أول قدماتي على بيت المقدس سنة ١٠٢٨، ومن كلامه: من لم يدخل في الأمور بالأدب لم يدرك مطلوبه منها، وقوله: العاقل يأخذ ما صفا ويدع التكلف، فإنّه تعالى يقول:{وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ} [يونس: ١٠٧]. وقال: من لم يراع حقوق الإخوان بترك حقوقه حرم بركة الصحبة، وقال سمعت الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن طريف يقول: لما حضرت الشيخ أبا الحسن ابن غالب الوفاة قال لأصحابه: اجتمعوا وهللوا سبعين ألف مرّة، واجعلوا ثوابها لي، فإنّه بلغني أنها فداء كلّ مؤمن من النار، قال: فعملناها واجتمعنا عليها وجعلنا ثوابها له.

ثم حكى عن شيخه أبي زيد القرطبي ما حكاه السنوسي عنه في أواخر

شرح صغراه، وقد أنكر غير واحد من الحفاظ كابن حجر وغيره كون ما ذكر حديثاً، ولعل هؤلاء أخذوه من جهة الكشف ونحوه، والله تعالى أعلم.

وقال رحمه الله تعالى: دخلت على الشيخ أبي محمد عبد الله المغاور، فقال لي: أعلمك شيئاً تستعين به، إذا احتجت لشيء فقل: يا واحد يا أحد يا واجد يا جوّاد، انفحنا منك بنفحة خير، إنّك على كل شيء قدير، قال: فأنا أنفق منها منذ سمعتها. قال رحمه الله تعالى: ما من حال ذكر في رسالة القشيري إلاّ وقد شاهدته نفسي. وتزوج رحمه الله تعالى بنساء حدثن عنه بكرامات، ومنهنّ أم القطب القسطلاني، وحكت أنها خرجت عنه يوماً لحاجتها، ثم عادت فسمعت عنده في طبقته حسّ رجل، فتوقفت وافتقدت الباب فوجدته مغلقاً، فلمّا انقطع الكلام دخلت إليه، فإذا هو وحده كما تركته، فسألته عن ذلك، فقال: هو الخضر دخل علي وفي يده حية فقال: هذه جئتك بها من أرض نجد، وفيها شفاء مرضك، فقلت: لا أريد، اذهب أنت وحيتك لا حاجة لي بها. ودخل عليه بعض نسائه يوماً، فوجدته بصيراً نقي الجسم من الجذام، فلمّا نظرته قال لها: أتريدين أن أبقى لك هكذا فقال له: يا سيّدي كن كيف شئت، إنّما مقصودي خدمتك وبركتك. وقيل له، وقد تكاثرت منه رؤية الأشياء وإخباره بها، مع كونه ضريراً، عن ذلك، فقال: كلّي عين، بأي عضو أردت أن أنظر به نظرت. وقال: هممت أن أدعو برفع الغلاء، فقيل لي: لا تدع فما نسمع لأحد منكم في هذا الأمر دعاء، فسافرت إلى الشام، فلمّا وصلت إلى بلد الخليل، عليه السلام، تلقاني رسول الله الخليل حين ورودي عليه، فقلت له: يا رسول الله اجعل ضيافتي عندك أهل مصر، فدعا لهم ففرّج الله عنهم. ومناقبه رحمه الله تعالى وكراماته لا يفي بها هذا المختصر، وإنّما قصدنا بذكرها البركة وكفّارة ما وقع في هذا الكتاب من الإحماض، والله المرجو في العفو.

ومن فوائده ما نقله عن شيخه أبي الربيع المالقي أنّه قال له: ألا أعلمك كنزاً تنفق منه ولا ينفد قلت: بلى، قال قل: يا أللهُ، يا أحد، يا واحد، يا موجود،

يا جواد، يا باسط، يا كريم، يا وهّاب، يا ذا الطّول، يا غني، يا مغني، يا فتّاح، يا رزّاق، يا عليم، يا حيّ، يا قيّوم، يا رحمن، يا رحيم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حنّان، يا منّان، انفحني منك بنفحة خير تغنيني بها عمن سواك:{ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ } [الأنفال: ١٩]،{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)} [الفتح: ١]،{نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} [الصف: ١٣] اللهم يا غني يا حميد، يا مبدئ ويا معيد، يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعّالاً لما يريد، اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك، واحفظني بما حفظت به الذكر وانصرني بما نصرت به الرسل، إنّك على كل شيء قدير. فمن داوم على قراءته بعد كل صلاة خصوصاً صلاة الجمعة حفظه الله تعالى من كل مخوف، ونصره على أعدائه، وأغناه ورزقه من حيث لا يحتسب، ويسّر عليه معيشته، وقضى عنه دينه ولو كان عليه أمثال الجبال ديناً، بكرمه وإحسانه، انتهى. نقله عنه العلامة ابن داود البلوي الأندلسي، ومن خطه نقلت، رحم الله تعالى الجميع، ونقله اليافعي كما ذكر رحمه الله تعالى، إلاّ أنّه لم يقل فيه يا ودود، واتفقا فيما عدا ذلك، والله سبحانه أعلم.

وقال ابن خلكان في حقّه: محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء، كانت له كرامات ظاهرة، ورأيت أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة، ولقيت جماعة ممّن صحبه، وكل منهم قد نمى عليه من بركته، وذكروا عنه أنّه وعد جماعته الذي صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية، وأنها صحت كلّها. وكان من السادات الأكابر والطراز الأول، وهو مغربي صحب بالمغرب أعلام الزهاد وانتفع بهم، فلمّا وصل إلى مصر انتفع به من صحبه أو شاهده، ثم سافر إلى الشام قاصداً زيارة بيت المقدس، فأقام بها إلى أن مات، وصلّي عليه بالمسجد الأقصى، وهو ابن خمس وخمسين سنة، وقبره ظاهر للزيارة والتبرك به.

والجزيرة الخضراء في بلاد الأندلس: مدينة تقابل سبتة من بر العدوة.

ومن جملة وصاياه لأصحابه: سيروا إلى الله تعالى عرجاً ومكاسير فإن انتظار الصحة بطالة، انتهى ببعض اختصار.

٢٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن أبي الحسين القرطبي، سمع من قاسم بن أصبغ وغيره، وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبي الموت والبارودي وابن السكن في آخرين، وسمع بالرملة وبيت المقدس، وكان ضابطاً بصيراً بالنحو واللغة فصيحاً بليغاً طويل اللسان، ولي الشرطة ببلاد المغرب. توفّي سنة ٣٧٢ هـ.

٢٥ - ومنهم أبو بكر محمد بن علي بن خلف، التّجيبي الإشبيلي الحافظ الكاتب، روى عن ابن الجد وغيره، ومر بمصر حاجّاً فلقي بمكة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن المكناسي، ولقي بالإسكندرية السّلفي وابن عوف وغيرهما، وكان مدرّساً للفقه، فقيهاً جليلاً، متقدماً فيه عارفاً فاضلاً سنيّاً، توفي بعد امتحان من منصور بني عبد المؤمن سنة ٥٩٦، وذلك أنّه وشي به للمنصور أيّام عزم على ترك التقليد والعمل بالحديث.

٢٦ - ومنهم أبو بكر الأندلسي الجيّاني، محمد بن علي بن عبد الله بن محمد ابن ياسر، الأنصاري، الجيّاني، سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر، ولقي أئمتها، وتفقه ببخارى حتى تمهر في المذهب والخلاف والجدل، ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصّل منه كثيراً، ثم سكن بلخ مدة، وعاد إلى بغداد ودخلها سنة ٥٥٩، وتوجه إلى مكة فحج ورجع إلى الشام واستوطن حلب، إلى أن توفّي بها، ووقف كتبه، وكان متديّناً صدوقاً حافظاً عالماً بالحديث، وفيه فضل، ولد بجيّان سنة ٤٩٢، ومات بحلب سنة ٥٦٣.

٢٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي التّجيبي الدهان الغرناطي، كان حسن السّمت بارع الخط والخلق والخلق، رحل إلى الحج، وجال في البلاد في حدود سنة ست وستمائة فأخذ بمكة والشام ومصر والإسكندرية عن جماعة

كثيرة، وكان عدلاً فاضلاً على خير دين، وكان متحرّفاً بالتجارة بغرناطة، ثم خرج منها آخر عمره فمات بقوص بعدما حج سنة ٦٥٠، وصدر من مكّة سنة ٦٥٣ فمات قبل منتصف السنة، رحمه الله تعالى.

٢٨ - ومنهم أبو عمر محمد بن علي بن محمد بن أبي الربيع القرشي العثماني الأندلسي الإشبيلي النحوي، ولد سنة ٦١٧ بإشبيلية، وقدم مصر فسمع الكثير بها، وبدمشق وغيرها، وكان إماماً عالماً نحويّاً فاضلاً، كتب عنه أبو محمد الدمياطي والقطب عبد الكريم، ناهيك بهما.

٢٩ - ومنهم أبو بكر و أبو عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن علي ابن هذيل البلنسي، رحل وسمع من السّلفي، وحج، قال أبو الربيع ابن سالم: هو شيخ صدوق متيقّظ، سمع أباه وأبا الوليد ابن الدباغ وأبا الحسن طارق بن موسى ابن يعيش وجماعة، وأخذ بمكّة سنة ٥٣٩ عن أبي علي الحسن المقرئ، وقفل إلى الأندلس سنة ٥٤٦، فأخذ عنه بها، وسمع منه جماعة، قال ابن الأبار: كان غاية في الصلاح وأعمال البر والورع، توفّي ببعض قرى بلنسية سنة ٥٨٣، ومولده سنة سبع أو تسع عشرة وخمسمائة، وله حظ من علم التعبير واللغة، رحمه الله تعالى.

٣٠ - ومنهم أبو عبد الله، ويقال: أبو سلمة، محمد بن علي البيّاسي الغرناطي الأنصاري ناصر الدين، روى عن الحافظ أبي جعفر بن الزبير وغيره، وقدم إلى القاهرة واستوطنها بعد الحج، حتى مات بها سنة ٧٠٣، وكان عارفاً بعلم الحديث وكتب منه كثيراً، ومال إلى مذهب الظاهرية، وانتفع به جماعة من طلبة الحديث، وكان ثقة، رحمه الله تعالى.

٣١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى بن علي بن الشامي الأندلسي، الغرناطي، قدم مصر حاجّاً، وأقام بمكّة والمدينة، وكان إماماً فاضلاً عالماً متفنّناً في علوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقراءات ونظم ونثر، ومع معرفته بمذهب مالك ينقل كثيراً من مذهب الشافعي، وسمع الموطّأ بتونس من

أبي محمد ابن هرون القرطبي، ومولده بغرناطة سنة ٦٧١، وتوفّي سنة ٧١٥.

٣٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمار الكلاعي الميورقي، قدم مصر، وروى عن ابن الوليد بها، وكان عالماً.

٣٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخّار القرطبي الحافظ، روى عن أبي عيسى الليثي وابن عون الله وأبي جعفر التميمي

وأبي محمد الباجي، وقدم مصر، وحج، وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، وأفتى بها، وافتخر بذلك على أصحابه، وقال: لقد شوورت بمدينة الرسول دار مالك بن أنس ومكان شوراه، ولقي جماعة من العلماء وأخذ عنهم، وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم، عارفاً بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء، ذاكراً للروايات، يحفظ المدونة والنوادر لابن أبي زيد، ويوردها من صدره دون كتاب.

قال ابن حيّان مؤرخ الأندلس: توفّي الفقيه المشاور الحافظ المتبحّر الرواية الطويل الهجرة في طلب العلم الناسك المتقشف بمدينة بلنسية في ربيع الأول سنة ٤١٧ لعشر خلون من الشهر، وكان الحفل في جنازته عظيماً، وعاين الناس فيها آية من ظهور أشباه الخطاطيف بها تجللت الجمع رافّةً فوق النعش لم تفارق نعشه وإلى أن ووري، فتفرقت، ومكث مدة ببلنسية مطاعاً عظيم القدر عند السلطان والعامة.

وقال أبو عمرو الداني: إن وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وأربعمائة، ودفن يوم الأحد بمدينة بلنسية، وبلغ نحو ست وسبعين سنة، وهو آخر الفقهاء الحفّاظ الراسخين العالمين بالكتاب والسنّة بالأندلس، رحمه الله تعالى.

٣٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمروس القرطبي، سمع عليّ بن مفرج وغيره من شيوخ قرطبة، وقدم مصر فأخذ بها عن ابن المهندس وغيره، وحجّ

ودخل العراق، وسمع من أبي بكر الأبهري والدارقطني وجماعة، وعاد إلى الأندلس، وشهر بالعلم والمال، وولي الأحباس بقرطبة، حدّث عنه أبو عمر ابن عبد البر وغيره، ومات في جمادى الآخرة سنة أربعمائة، رحمه الله تعالى.

٣٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح، المعافري، أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح، المعافري، المعروف بالأعشى، القرطبي، رحل سنة ١٧٩ فسمع سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن وهب وجماعة، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار، وكان صالحاً عاقلاً سريّاً جواداً يذهب إلى مذهب أهل العراق، وتوفّي سنة ٢٢١، ذكره ابن يونس وغيره.

٣٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي، الإلبيري، الزاهد، قال الحميدي في حقّه: هو من أهل الحديث والحفظ والفهم والبحث عن الرجال، وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخي عبد الله بن وهب وغيرهما، وروى بالأندلس عن جماعة منهم بقيّ ابن مخلد وابن وضاح، وسمع بمكّة وغيرها من مائة شيخ، قال ابن الفرضي: كان شيخاً نبيلاً، ضابطاً لكتبه، ثقة في روايته، صدوقاً في حديثه، وكانت الرحلة إليه بإلبيرة، وبها مات في شوال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة، رحمه الله تعالى.

٣٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيّار، القرطبي أبو عبد الله من موالي بني أميّة، سمع من أبيه ومن بقيّ بن مخلد وغيره، ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائي، ومن أحمد بن حماد زغبة، وسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والإسكندرية والقيروان من مائة وستين رجلاً، قال أبو محمد الباجي: لم أدرك بقرطبة أكثر حديثاً منه، وكان عالماً بالفقه، متقدّماً في علم الوثائق رأساً فيها، وكان مشاوراً، سمع من الناس كثيراً، وكان ثقة صدوقاً، وغزا سنة ٣٢٧، ومات ثالث ذي الحجّة منها، ومولده سنة ٢٦٣، وقيل: توفّي سنة ٣٢٨.

٣٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم، القرشي الفهري، عرف بابن رمان، الغرناطي، قرأ على أبي جعفر ابن الزبير بها، وقدم إلى القاهرة سنة ٧٢٢، ومات بالمدينة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام سنة ٧٢٩.

٣٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن لبّ الشاطبي، حدث بالقاهرة، وتوفّي قريباً من سنة ٦٤٠، وهو أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن ابن الصباغ، ومن كلامه: اشتغالك بوقتٍ لم يأت تضييعٌ للوقت الذي أنت فيه، ولعمري لقد صدق.

٤٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي بن محمد بن إبراهيم ابن الحسين بن سراقة، محيي الدين، ويكنى أيضاً أبا القاسم وأبا بكر، الأنصاري الشاطبي، المالكي، ولد بشاطبة سنة ٥٩٢، وسمع من أبي القاسم ابن بقيّ، ورحل في طلب الحديث، فسمع ببغداد من الشيخ أبي حفص عمر السهروردي وأبي طالب القبّيطي وأبي حفص الدينوري وجماعة، وسمع بحلب من ابن شداد وغيره، وتولى مشيخة دار الحديث البهائية بحلب، ثم قدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصري سنة ٦٤٢، وبقي بها إلى أن توفّي بالقاهرة في شعبان سنة ٦٦٢، ودفن بسفح المقطم وكان الجمع كبيراً، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل، وأحد المشايخ الصوفية، له في ذلك إشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيدة بمعاني الشعر، وكان صالح الفكرة في حلّ التراجم، مع ما جبل عليه من كرم الأخلاق، واطّراح التكلف، ورقّة الطبع، ولين الجانب.

٤١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الفرّيشي - بكسر الفاء، وتشديد الراء المهملة، بعدها شين معجمة - نسبة إلى فرّيش إحدى مدائن قرطبة. ولد بغرناطة سنة ٥٥٧، وقرأ بالروايات على أبي القاسم ابن غالب، وسمع عليه وعلى أبي القاسم ابن بشكوال وغيره، وسمع بمكّة، وحدث بمصر،

وعاد إلى الأندلس فمات بقرطبة سنة ٦٣٣، وكان مشهوراً بالصلاح معروفاً بإجابة الدعاء، ورعاً ثقة زاهداً فاضلاً، رحمه الله تعالى.

٤٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن خيرون، وقيل: محمد بن عمر بن خيرون، أندلسي، سكن القيروان، ورحل إلى المشرق، وأخذ القراءات بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطي وغيره كعبيد بن رجاء وأبي الحسن إسماعيل بن يعقوب الأزرق المدني، ودخل العراق، وسمع به من أصحاب علي ابن المديني ويحيى بن معين، وعاد إلى القيروان، وسمع بها وبقرطبة، وقدم بقراءة نافع على أهل إفريقية، وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلاّ الخواص، حتى قدم بها فاجتمع إليه الناس، ورحل إليه أهل القيروان من الآفاق، وكان يأخذ أخذاً شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش، وتوفّي بشعبان سنة ٣٠٦، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً كريم الأخلاق إماماً في القراءات، مشهوراً بذلك، ثقة، مأموناً، وأحد أهل زمانه وأئمتهم في علم القرآن، رحمه الله تعالى.

٤٣ - ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بندار، القيسي، الأندلسي، المالقي، ولد بمالقة سنة ٦٢٥ وسمع الكثير، وقدم القاهرة حاجّاً فسمع بها وبدمشق وكتب بخطّه كثيراً، وكان سريع الكتابة سريع القراءة كثير الفوائد، ديّناً خيّراً فاضلاً، له مشاركة جيّدة في عدة علوم، توفّي شابّاً بالقاهرة سنة ٦٦٢، رحمه الله تعالى.

٤٤ - ومنهم أبو بكر محمد الزّهري، المعروف بابن محرز، البلنسي، ولد بها سنة ٥٢٩، وقدم مصر فسمع ابن الفضل وغيره، وروى عنه جماعة، وكان أحد رجال الكمال علماً وإدراكاً وفصاحة وحفظاً للفقه وتفنّناً في العلوم ومتانة في الأدب، حافظاً للغة والغريب، وله شعر رائق، ودين متين، وأخذ الناس عنه ببلده، وبمرسية، وإشبيلية، ومالقة، وغرناطة، في اجتيازه عليها، وبغيرها من البلاد، وعلا صيته، وَعُرِفَ بالدين والعلم والفضل، وكان أبو الخطاب يثني

على علمه ودينه، توفّي ببجاية سنة ٦٥٥عن سن عالية، رحمه الله تعالى.

٤٥ - وممن ارتحل من الأندلس إلى المشرق القاضي أبو الوليد الباجي صاحب التصانيف المشهورة. وقال ابن ماكولا في حقّه: إنّه فقيه متكلّم أديب شاعر، سمع بالعراق، ودرس الكلام وصنف إلى أن مات، وكان جليلاً رفيع القدر والخطر.

وقال غير واحد: إنّه ولد سنة ٤٠٣ هـ، وارتحل سنة ٤٢٦ هـ، وجاور ثلاثة أعوام ملازماً لأبي ذر الحافظ يخدمه، ورحل إلى بغداد ودمشق، ولقي في رحلته غير واحد، وتفقه بالقاضي أبي الطيب الطّبري وغيره.

قال القاضي عياض: وكثرت القالة في القاضي أبي الوليد لمداخلته الرؤساء، وولي قضاء أماكن تصغر عن قدره، وكان يبعث إلى تلك النواحي خلفاءه، وربما أتاها المرة ونحوها، وكان في أول أمره مقلاًّ حتى احتاج إلى القصد بشعره، واستأجر نفسه مدّة مقامه ببغداد، فيما سمعته مستفيضاً، لحراسة دربٍ. وقد جمع ابنه شعره.

قال: ولمّا قدم الأندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة، إلاّ أنّه كان خارجاً عن المذهب، ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه، فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته، وكلامه، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل، وحل بجزيرة ميورقة، فرأس فيها واتبعه أهلها، فلمّا قدم أبو الوليد كلّموه في ذلك، فدخل إليه، وناظره وشهر باطله، وله معه مجالس كثيرة.

وممّن ذكره أيضاً الحجاري في المسهب، وابن بشكوال في الصّلة، وأنّه حج أربع حجج، رحمه الله تعالى، وتوفّي في المرية لإحدى عشرة بقيت من رجب، وقيل: ليلة الخميس تاسع رجب، وقيل: تاسع عشر صفر، سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ومن تواليفه: المنتقى في شرح الموطّأ ذهب فيه مذهب الاجتهاد وإيراد

الحجج، وهو ممّا يدل على تبحره في الفنون، ولمّا قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً وجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشى بينهم في الصلح، وهم يجلّونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستردون نزعته، ولم يفد شيئاً فالله تعالى يجازيه عن نيته، ولمّا ناظر ابن حزم قال له الباجي: أنا أعظم منك همّة في طلب العلم، لأنّك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق، فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنّك إنّما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلاّ علوّ القدر العلمي في الدنيا والآخرة؛ فأفحمه.

قال عياض: قال لي أصحابه: كان يخرج إلينا للإقراء، وفي يده أثر المطرقة، إلى أن فشا علمه، ونوهت الدنيا به، وعظم جاهه، وأجزلت صلاته، حتى مات عن مال وافر، وكان يستعمله الأعيان في ترسّلهم، ويقبل جوائزهم، وولي القضاء بمواضع من الأندلس.

* * *

ترجمة ابن حزم

وابن حزم هو أبو محمد ابن حزم الظاهري، قال ابن حيّان وغيره: كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل، وله كتب كثيرة في المنطق والفلسفة لم يخل فيها من غلط، وكان شافعيّ المذهب، يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريّاً، فوضع الكتب في هذا المذهب، وثبت عليه إلى أن مات، وكان له تعلّق بالأدب، وشنّع عليه الفقهاء، وطعنوا فيه، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه، وتوفّي بالبادية عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة.

وقال صاعد في تاريخه: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم

الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسّير والأخبار، أخبرني ابنه الفضل أنّه اجتمع عنده بخط أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مجلد، نقله عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبي.

قال الذهبي: و هو العلامة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب ابن صالح، الأموي، مولاهم، الفارسي الأصل، الأندلسي القرطبي الظاهري، صاحب المصنفات، وأول سماعه سنة ٣٩٩، وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدّة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنّة والمذاهب والملل والنّحل والعربية والآداب والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة الحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب.

قال الغزالي رحمه الله تعالى: وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه، انتهى باختصار.

وعلى الجملة فهو نسيج وحده، لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد، والوقوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد، سامحه الله تعالى.

وذكر الذهبي أن عمره اثنتان وسبعون سنة، وهو لا ينافي قول غيره " إنّه كان عمره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر " لأنّه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقي في ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح آخر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان، سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، بطالع العقرب، وتوفّي ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦، وكان كثير المواظبة على التأليف، ومن جملة تآليفه كتاب الفصل بين أهل الأهواء والنّحل وكتاب الصادع والرادع على من كفّر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد وكتاب شرح حديث الموطإ والكلام على مسائله وكتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحها وكتاب " التلخيص والتخليص في المسائل النظريّة وفروعها التي لا نصّ عليها في الكتاب والحديث " وكتاب منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا

يعرف فيه اختلاف، وكتاب الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبها، والندب، والواجب منها، وكتاب كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس انتهى.

وقال ابن سعيد في حق ابن حزم، ما ملخّصه: الوزير العالم الحافظ أبو محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي، وشهرته تغني عن وصفه، وتوفّي منفيّاً بقرية من بلد لبلة، ووصله من ابن عمه أبي المغيرة رسالةٌ فيها ما أوجب أن جاوبه بهذه الرسالة، وهي: سمعت وأطعت، لقوله تعالى:♂**وأعرض عن الجاهلين**▬ وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام: ♂**صل من قطعك، واعف عمّن ظلمك**▬ ورضيت بقول الحكماء: “ كفاك انتصاراً ممّن تعرض لأذاك إعراضك عنه “.

وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن مزيد، القرطبي. قال ابنه أبو رافع الفضل: اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة، انتهى. أبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور بن أبي عامر، وتوفّي - كما قال ابن حيان - بذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة، وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية.

٤٦ - ومنهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف ابن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي صاحب سراج الملوك، ويعرف بابن أبي رندقة - بالراء المهملة المفتوحة، وسكون النون - وكفى بسراج الملوك دليلاً على فضله.

ذكره ابن بشكوال في الصلة، وتوفّي بالإسكندرية، في شعبان، وقيل: جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة، وزرت قبره بالإسكندرية، وممّن أخذ عنه الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي وغيره.

وكان رحمه الله تعالى زاهداً، متورعاً، متقلّلاً من الدنيا، قوّالاً للحق. وكان يقول: إذا عرض لك أمر دنيا وأخرى، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى. وله طريقة في الخلاف.

ودخل مرّة على الأفضل ابن أمير الجيوش فوعظه، وقال له: إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنّما صار إليك بموت من قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتّق الله فيما خوّلك من هذه الأمّة، فإن الله، عزّ وجل، سائلك عن النقير والقطمير والفتيل، واعلم أن الله، عزّ وجلّ، آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخّر له الإنس والجن والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخّر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عزّ من قائل:{هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾} [ص: ٣٩] فما عدّ ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله، عزّ وجلّ، فقال:{هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ} [النمل: ٤٠] فافتح الباب، وسهّل الحجاب، وانصر المظلوم.

وكان إلى جانب الأفضل رجل نصراني فأنشده:

يا ذا الذي طاعته قربة ::: وحقّه مفترضٌ واجب
إن الذي شرفت من أجله ::: يزعم هذا أنّه كاذب

وأشار إلى النصراني، فأقامه الأفضل من مكانه.

والطّرطوشي - بضم الطاءين - نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس، وقد تفتح الطاء الأولى.

وعبر عنه ابن الحاجب في مختصره الفقهي في باب العتق بالأستاذ.

وكان رحمه الله تعالى صحب القاضي أبا الوليد الباجي رحمه الله تعالى بسرقسطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه وأجازه، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه، وقرأ الأدب على أبي محمد ابن حزم بمدينة إشبيلية، ثم رحل

إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة، ودخل بغداد والبصرة فتفقّه عند أي بكر الشاشي وأبي محمد الجرجاني، وسمع بالبصرة من أبي علي التّستري، وسكن الشام مدّة، ودرس بها، وكان راضياً باليسير.

ومن تآليفه: " مختصر تفسير الثعالبي "، و " الكتاب الكبير في مسائل الخلاف "، وكتاب " في تحريم جبن الروم "، وكتاب " بدع الأمور ومحدثاتها "، وكتاب " شرح رسالة الشيخ ابن أبي زيد ".

وولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريباً، ولمّا توفّي صلى عليه ولده محمد، ودفن رحمه الله تعالى قبل الباب الأخضر بإسكندرية، وزرت قبره مراراً، رحمه الله تعالى، ورضي عنه، ونفعنا به.

وكان القاضي عياض ممن استجازه فأجازه ولم يلقه، وشهرته رضي الله تعالى عنه تغني عن الإطناب.

٤٧ - ومنهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشي، وفد إلى المشرق، وذكره العماد في الخريدة وله في الآمدي العلي بمصر، وكان يخضب بسواد الرّمان، يخضب بأقبح سواد خضب به.

٤٨ - ومنهم القاضي الشهيد أبو علي الصدفي، وهو حسين بن محمد بن فيرّه ابن حيّون، ويعرف بابن سكّرة، وهو من أهل سرقسطة، سكن مرسية، وروى بسرقسطة عن الباجي وأبي محمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل وغيرهما، وسمع ببلنسية من أبي العباس العذري، وسمع بالمريّة من أبي عبد الله محمد بن سعدون القروي وأبي عبد الله ابن المرابط وغيرهما، ورحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وحج من عامه، ولقي بمكّة أبا عبد الله الحسن بن علي الطبري وأبا بكر الطرطوشي وغيرهما، ثم سار إلى البصرة فلقي بها أبا يعلى المالكي وأبا العباس الجرجاني وأبا القاسم ابن شعبة وغيرهم، وخرج إلى بغداد فسمع بواسط من أبي المعالي محمد بن

عبد السلام الأصبهاني وغيره، ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، فأطال الإقامة بها خمس سنين كاملة، وسمع بها من أبي الفضل ابن خيرون مسند بغداد، ومن أبي الحسين المبارك ابن عبد الجبار الصيرفي، وطراد الزينبي، والحميدي، وغيرهم، وتفقّه عند أبي بكر الشاشي وغيره، ثم رحل منها سنة سبع وثمانين، فسمع بدمشق من أبي الفتح نصر المقدسي وأبي الفرج الأسفراييني وغيرهما، وسمع بمصر من القاضي أبي الحسن الخلعي وأبي العباس أحمد بن إبراهيم الرازي، وأجاز له الحبال مسند مصر في وقته ومكثرها، وسمع بالإسكندريّة من أبي القاسم الوراق وشعيب بن سعيد وغيرهما، ووصل إلى الأندلس في صفر من سنة تسعين وأربعمائة، وقصد مرسية، فاستوطنها، وقعد يحدّث الناس بجامعها، ورحل الناس من البلدان إليه، وكثر سماعهم عليه، وكان عالماً بالحديث وطرقه، عارفاً بعلله، وأسماء رجاله ونقلته، وكان حسن الخط جيّد الضبط، وكتب بخطّه علماً كثيراً، وقيّده، وكان حافظاً لمصنّفات الحديث، قائماً عليها، ذاكراً لمتونها وأسانيدها ورواتها، وكتب منها صحيح البخاري في سفر، وصحيح مسلم في سفر، وكان قائماً على الكتابين مع مصنّف أبي عيسى الترمذي، وكان فاضلاً ديّناً متواضعاً حلوماً وقوراً عالماً عاملاً، واستقضي بمرسية، ثم استعفى فأعفي، وأقبل على نشر العلم وبثّه.

وذكر غير واحد أنّه حدّث ببغداد بحديث واحد، والله أعلم؛ وهو من أبناء الستين.

٤٩ - ومنهم ابن أبي روح الجزيري.

٥٠ - ومنهم العالم أبو حفصٍ عمر بن حسن الهوزني، الحسيب العالم المحدّث، ذكره ابن بسام في الذخيرة والحجاري في " المسهب "، وسبب رحلته للمشرق أنّه لمّا تولى المعتضد بن عبّاد خاف منه، فاستأذنه في الحج سنة ٤٤٤هـ، ورحل إلى مصر، ثم إلى مكّة، وسمع في طريقه كتاب صحيح

البخاري، وعنه أخذه أهل الأندلس، ورجع، وسكن إشبيلية وخدم المعتضد، فقتله ومن خاف من شيء سلط عليه، وكان قتله يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ستين وأربعمائة.

وابنه أبو القاسم هو الذي كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل المعتضد والده كما مرّ؛ وبيت بني الهوزني بالأندلس بيت كبير مشهور ومنهم عدّة علماء وكبراء، رحم الله الجميع.

٥١ - ومنهم أبو عمرو عثمان بن الحسين، أخو الحافظ أبي الخطاب ابن دحية الآتي ذكره، كان أسنّ من أخيه أبي الخطاب، وكان حافظاً للغة العرب، قيّماً بها، وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين ورتب مكانه أخاه أبا عمرو المذكور، ولم يزل بها إلى أن توفّي سنة ٦٣٤ بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم كأخيه، وكان موت أبي عمرو بعد أبي الخطاب بسنة، رحمهما الله تعالى.

٥٢ - ومنهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم، من أهل وادي الحجارة، ويعرف باشكنهادة، وارتحل إلى المشرق لما نبت به حضرة قرطبة عند تقلب دولها، وتحول ملوكها وخولها، فجال في العراق، وقاسى ألم الفراق، واجتاز بحلب، وأقام بها مقام غريب لم يصف له حلب، واجتاز بدمشق، ثم إنّه ودع الشرق بلا سلام، وحلّ بحضرة دانية لدى ملكها مجاهد العامري في بحبوحة عزٍّ لا يخشى فيه الملام، واستقبل الأندلس بخاطر جديد، ونال بها بعد من بلوغ الآمال ما ليس له عليه مزيد.

٥٣ - ومنهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقي، وقال بعضهم: إنّه من الجزيرة الخضراء، له رحلة إلى الديار المصريّة، صنع فيها مقامة يقول فيها:

في جنبات الروض نهرٌ ودوحةٌ ::: يروقك منها سندسٌ ونضار
تقول وضوء البدر فيه مغرّبٌ ::: ذراع فتاةٍ دار فيه سوار

٥٤ - ومنهم الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان المالقيّ.

٥٥ - ومنهم الحافظ أبو الخطاب ابن دحية، وهو مجد الدين عمر بن الحسن ابن علي بن محمد [بن الجميّل] بن فرح بن خلف، الظاهري المذهب، الأندلسي، كان من كبار المحدثين، ومن الحفاظ الثّقات الأثبات المحصلين، استوطن بجاية في مدة أبي عبد الله ابن يومور، وروى بها، وأسمع، وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة، حتى صار حوشيّ اللغة عنده مستعملاً غالباً، ولا يحفظ الإنسان من اللغة حوشيّها إلاّ وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها، وكان قصده - والله تعالى أعلم - أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب وانفردوا بالطريق الآخر، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس، وكذا الشيخ أبو الخطاب ابن دحية له رسائل ومخاطبات كلّها مغلقات مقفلات، وكان - رحمه الله تعالى - إذا كتب اسمه فيما يجيزه أو غير ذلك يكتب ابن دحية ودحية معاً التشبّه به جبريل وجبرائيل، ويذكر ما ينيّف على ثلاثة عشرة لغة مذكورة في جبريل، ويقول عند فاطر السموات والأرض، وهذا فرع انفرد به عمّن عداه من أهل العلم.

قال صاحب عنوان الدراية: رأيت له تصنيفاً في رجال الحديث لا بأس به، وارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب، فرفعوا شأنه، وقربوا له مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وحضروا له مجلساً أقروا له بالتقدم، وعرفوا أنّه من أولي الضبط والإتقان والتفهم، وذكروا أحاديث بأسانيد حوّلوا متونها، فأعاد المتون المحوّلة، وعرّف عن تغييرها، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه من متونها الأصلية، ومثل هذه الحكاية اتفق لأبي عمر ابن عات في كتاب مسلم بمراكش ببيت الطلبة منها.

ولد أبو الخطاب ابن دحية في ذي القعدة سنة سبع - أو ثمان - وأربعين وخمسمائة وتوفّي في انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول سنة

ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم.

وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار، وقدره أجلّ ممّا ذكروه، وقد روى رحمه الله تعالى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم، وكل ذلك في طلب الحديث، وسمع بالأندلس من ابن بشكوال وابن زرقون في جمع كبير، وببغداد من أبي الفرج ابن الجوزي، وبأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني معجم الطبراني ومن غيره، وبنيسابور من أبي سعيد ابن الصفّار ومنصور بن الفراوي والمؤيد الطوسي، وحصل الكتب والأصول، وحدّث، وأفاد، وكان من أعيان العلماء، ومشاهير الفضلاء، متقناً لعلم الحديث وما يتعلّق به، عارفاً بالنحو واللّغة وأيّام العرب وأشعارها.

وصنّف كتباً كثيرة مفيدة جدّاً، منها كتاب التنوير في مولد السراج المنير صنفه عند قدومه إلى إربل سنة أربع وستمائة، وهو متوجه إلى خراسان لمّا رأى ملك إربل مظفر الدين كوكبري معتنياً بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول كل عام، مهتمّاً به غاية الاهتمام، وكمله وقرأه عليه بنفسه، وختمه بقصيدة طويلة، فأجازه بألف دينار، وصنف أيضاً العلم المشهور في فضائل الأيّام والشهور، والآيات البيّنات في ذكر ما في أعضاء رسول الله من المعجزات وكتاب شرح أسماء النبي وكتاب " النبراس في أخبار خلفاء بني العباس وكتاب الإعلام المبين في المفاضلة بين أهل صفّين ".

وولي قضاء بلد أصوله دانية مرتين، ثم صرف عن ذلك لسيرة نعيت عليه، فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٥، ثم حجّ وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور، وعاد إلى مصر، فاستأدبه العادل لولده الكامل، وأسكنه القاهرة، فنال بذلك دنيا عريضة، ثم زادت حظوته عند الكامل، وأقبل عليه إقبالاً عظيماً وكان يعظمه ويحترمه، ويعتقد في الخير، ويتبرك به، حتى كان يسوي له المداس حين يقوم، وهو بلنسي كما قاله ابن خلّكان وغيره، وبلنسية مشهورة بشرق الأندلس.

٥٦ - ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ، الحافظ، الأندلسي، رحل إلى المشرق، وكان حافظاً فهماً عارفاً بالرجال، حدث حديث مالك وشعبة وأشياء في الزهد، وسم بمصر أبا الحسن ابن الورد البغدادي ومسلم بن الفضل والحسن ابن رشيق وجماعة، وسم بدمشق عليّ بن أبي العقب وأب الميمون ابن راشد وبمكّة من بكير الحداد وأي الحسن الخزاعي والآجري، وبقرطبة من أحمد بن يحيى بن الشاهد ومحمد بن معاوية، وتوفّي سنة ٣٩٣.

٥٧ - ومنهم خلف بن سعيد بن عبد الله بن زرارة أبو القاسم ابن المرابط، الكلبي، من ذرية الأبرش الكلبي، ويعرف بالمبرقع، المحتسب، القرطبي، رحل إلى المشرق مرتين، أولاهما سنة ٣٣٢ هـ، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وسمع أبا سعيد ابن الأعرابي وابن الورد وأبا بكر الآجري، وروى عنه أبو إسحاق ابن شنظير وأبو جعفر الزهراوي، وقال ابن شنظير: إنّه توفّي في نحو الأربعمائة، رحمه الله تعالى، ورضي عنه.

٥٨ - ومنهم سابق فضلاء زمانه، أبو الصّلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصّلت الإشبيلي.

يقال: إن عمره ستون سنة، منها عشرون في بلده إشبيلية، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصّنهاجيين، وعشرون في مصر محبوساً في خزانة الكتب، وكان وجّهه صاحب المهدية إلى ملك مصر فسجن بها طول تلك المدة في خزانة الكتب، فخرج في فنون العلم إماماً، وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته، وكان يكنى بالأديب الحكيم، وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية؛ قال ابن سعيد: وإليه تنسب إلى الآن. وذكره العماد في الخريدة. وله كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي، وتوفّي سنة ٥٢٠، وقيل: سنة ٥٢٨، بالمهدية، وقيل: مستهل السنة بعدها، ودفن بها.

٥٩ - ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول

السّرقسطي، ذكره العماد الأصبهاني في " الخريدة " وذكره السمعاني في الذيل، وأنّه دخل بغداد في حدود سنة ست عشرة وخمسمائة.

٦٠ - ومنهم الفقيه المقرئ أبو عامر التياري، من رجال الذخيرة رحل إلى المشرق، وقرأ على أبي جعفر الديباجي كتابه في العروض وسائر كتبه، ولقي شيخ القيروان في العربية ابن القزاز وأديبها الحصري.

٦١ - ومنهم الأديب الطبيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي،

مطبوع في الشعر والتوشيح، قال ابن سعيد: اجتمعت به في القاهرة مراراً بمجلس الأمير جمال الدين أبي الفتح موسى بن يغمور بن جلدك وفي غيره، وتوفّي في مارستان القاهرة.

٦٢ - ومنهم الإمام المحدث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف ابن موسى، الأندلسي، المعروف بابن مسدي، وهو من الأئمة المشهورين بالمشرق والمغرب.

٦٣ - ومنهم الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن فتّوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، نسبة لجده حميد الأندلسي، ولد أبوه بقرطبة، وولد هو بالجزيرة بليدة بالأندلس، قبل العشرين وأربعمائة، وكان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥، فأول ما سمع من الفقيه أبي القاسم أصبغ. قال: وكنت أفصح من يقرأ عليه؛ وكان قد لقي ابن أبي زيد وقرأ عليه وتفقّه، وروى عنه رسالته ومختصر المدوّنة، ورحل سنة ٤٤٨، وقدم مصر وسم بها من الضّرّاب والقضاعي وغير واحد، وكان سمع بالأندلس من ابن عبد البر وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنّفاته وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته وصار على مذهبه إلاّ أنّه لم يكن يتظاهر به، وسمع بدمشق وغيرها، وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عن أكثر مصنّفاته، وسمع بمكّة من الزنجاني، وأقام بواسط مدّة بعد خروجه من بغداد، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيراً من الحديث والأدب وسائر

الفنون، وصنّف مصنّفات كثيرة، وعلق فوائد، وخرّج تخاريج للخطيب ولغيره، وروى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنفاته وابن ماكولا، وكان إماماً من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته، حتى قال بعض الأكابر ممّن لقي الأئمة: لم تر عيناي مثل أبي عبد الله الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه و غزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثّه في أهله، وكان ورعاً ثقة إماماً في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته، محقّقاً في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث، متبحّراً في علم الأدب والعربية، ومن تصانيفه: كتاب جذوة المقتبس في أخبار علماء الأندلس، وكتاب تاريخ الإسلام، وكتاب من ادعى الأمان من أهل الإيمان، وكتاب الذهب المسبوك في وعظ الملوك، وكتاب تسهيل السبيل إلى علم الترسيل، وكتاب مخاطبات الأصدقاء في المكاتبات واللقاء، وكتاب ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار، وكتاب النميمة، وكتاب الأماني الصادقة، وغير ذلك من المصنفات والأشعار الحسان في المواعظ والأمثال. وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحرّ ويدلس في إجانة ماء يتبرد به، ومن مشهور مصنفاته: كتاب الجمع بين الصحيحين.

وذكره الحجاري في المسهب وقال عنه: إنّه طرق ميورقة بعدما كانت عطلاً من هذا الشأن، وترك لها فخراً تباري به خواص البلدان، وهو من علماء أئمة الحديث، ولازم أبا محمد ابن حزم في الأندلس واستفاد منه، ورحل إلى بغداد، وبها ألف كتاب الجذوة، ومن شعره قوله رضي الله تعالى عنه:

ألفت النّوى حتى أنست بوحشها ::: وصرت بها لا في الصّبابة مولعا
فلم أحص كم رافقته من مرافق ::: ولم أحص كم خيّمت في الأرض موضعا
ومن بعد جوب الأرض شرقاً ومغرباً ::: فلا بدّ لي من أن أوافي مصرعا

وقال رحمه الله تعالى:

لقاء النّاس ليس يفيد شيئاً ::: سوى الهذيان من قيل وقال

فأقلـــــل مــــــن لقــــاء النـــاس إلاّ ::: لأخـــذ العلـــم أو إصـــلاح حـــال

وذكره ابن بشكوال في " الصّلة "، وتوفّي ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

قال ابن ماكولا: أخبرنا صديقنا أبو عبد الله الحميدي، وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ، لم أر مثله في عفّته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم، وكان أوصى مظفّراً ابن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشر الحافي، فخالف وصيته ودفنه في مقبرة باب أبرز، فلمّا كانت مدّة رآه مظفر في النوم كأنّه يعاتبه على مخالفته، فنقل في صفر سنة ٤٩١ إلى مقبرة باب حرب، ودفن عند قبر بشر، وكان كفنه جديداً وبدنه طريّاً تفوح منه رائحة الطيب، ووقف كتبه على أهل العلم، رحمه الله تعالى.

ومن مناقبه: أنّه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ: تعديت بعين إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت، انتهى.

٦٤ - ومنهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشي، وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن، القيسي، من أهل شريش. روى عن أبي الحسن ابن لبّال وأبي بكر ابن أزهر وأبي عبد الله ابن زرقون وأبي الحسين ابن جبير وغيرهم، وأقرأ العربية، وله تواليف أفاد بما حشر فيها: منها شرح الإيضاح للفارسي، والجمل للزجّاج، وله في العروض تواليف، وجمع مشاهير قصائد العرب، واختصر نوادر أبي علي القالي.

قال ابن الأبار: لقيته بدار شيخنا أبي الحسن ابن حريق من بلنسية، قبل توجهي إلى إشبيلية في سنة ست عشرة وستمائة، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات، فسمعت عليه بعضه، وأجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه، وأخذ عنه أصحابنا، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية، وتوفّي بشريش بلده سنة تسع عشرة وستمائة، رحمه الله تعالى. انتهى.

٦٥ - ومنهم أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد، الأزدي،

القرطبي، الملقّب بضياء الدين، أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك.

قال القاضي الشمس ابن خلّكان: إنّه رحل من الأندلس في عنفوان شبابه وقدم مصر فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني المعروف بالسّلفي وغيرهم، ودخل بغداد سنة ٥١٧، وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرئ المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط، وسمع عليه كتباً كثيرة منها كتاب سيبويه، وقرأ الحديث على أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان وأبي القاسم ابن الحصين وأبي العز وغيرهم، وكان ديّناً ورعاً عليه وقار وسكينة، وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً قليل الكلام كثير الخير مفيداً، أقام بدمشق مدّة، واستوطن الموصل، ورحل منها إلى أصبهان، ثم عاد إلى الموصل، وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر. وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب الذيل، وقال: إنّه اجتمع به بدمشق، وسمع عنه مشيخة أبي عبد الله الرازي، وانتخب عليه أجزاء، وسأله عن مولده، فقال: ولدت سنة ٤٨٦ في مدينة قرطبة، ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة ٤٨٧، والأول أصح، وكان شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف باب شداد قاضي حلب رحمه الله تعالى يفتخر بروايته وقراءته عليه، وقال: كنّا نقرأ عليه بالموصل، ونأخذ عنه، وكنّا نرى رجلاً يأتي إليه كل يوم فيسلّم عليه وهو قائم، ثم يمد يده إلى الشيخ بشيء ملفوف، فيأخذه الشيخ من يده، ولا نعلم ما هو، ويتركه ذلك الرجل ويذهب، ثم تقفّينا ذلك فعلمنا أنّها دجاجة مسموطة كانت ترسم للشيخ في كل يوم، يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها، وإذا دخل الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده.

وذكر في كتاب دلائل الأحكام أنّه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة،

آخرها سنة ٥٦٧.

وتوفّي القرطبي المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧، رحمه الله تعالى.

٦٦ - ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد، ابن الشيخ الأجلّ أبي الحسن ابن عبد ربه، وهو من حفداء صاحب كتاب العقد المشهور. حدث الشيخ الأجل أبو عبد الله محمد بن علي اليحصبي القرموني رفيقه قال: اصطحبت معه في المركب من المغرب إلى الإسكندرية، فلمّا قربنا منها هاج علينا البحر، وأشفينا على الغرق، فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الإسكندرية، فسررنا برؤيته، وطمعنا في السلامة، فقال لي: لا بد أن أعمل في المنار شيئاً، فقلت له: أعلى مثل هذه الحال التي نحن فيها فقال: نعم، فقلت: فاصنع، فأطرق ثم عمل بديهاً:

لله درّ منار إسكندريّة كم ::: يسمو إليه على بعدٍ من الحدق
من شامخ الأنف في عرنينه شممٌ ::: كأنّه باهتٌ في دارة الأفق
يكسّر الموج منه جانبي رجلٍ ::: مشمّر الذيل لا يخشى من الغرق
لا يبرح الدهر من وردٍ على سفنٍ ::: ما بين مصطبحٍ منها ومغتبق
للمنشآت الجواري عند رؤيته ::: كموقع النوم من أجفان ذي أرق

٦٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن الصفار، القرطبي. قال في القدح المعلى: بيتهم مشهور بقرطبة، لم يزل يتوارث في العلم والجاه وعلو المرتبة، ونشأ أبو عبد الله هذا حافظاً للآداب، إماماً في علم الحساب، مع أنّه كان أعمى مقعداً مشوّه الخلقة، ولكنّه إذا نطق علم كلّ منصف حقّه، ومن عجائبه: أنّه سافر على تلك الحالة، حتى غدت بغداد له هالة. اجتمعت به بحضرة تونس فرأيت بحراً زاخراً، وروضاً ناضراً، إلا أنّه حاطب ليلٍ، وساحب ذيل، لا يبالي ما أورده، ولا يلتفت إلى ما أنشده، جامعاً بين السمين والغث، حافظاً للمتين والرث، وكان يقرئ الأدب بمراكش وفاس وتونس وغيرها.

٦٨ - ومنهم أبو الوليد ابن الجنّان محمد بن المشرف أبي عمرو ابن الكاتب

أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء ابن الجنّان الكناني الشاطبي. قال ابن سعيد: توارثوا بشاطبة، مراتب تحسدها النجوم الثاقبة، وأبو الوليد أشعرهم، وقد تجدّد به في أقطار المشرق مفخرهم، وهو معروف هناك بفخر الدين، ومتصدر في أئمة النحويين، ومرتب في شعراء الملك الناصر صاحب الشام، ومقطّعاته الغرامية قلائد أهل الغرام، صحبته بمصر ودمشق وحلب، وجريت معه طلق الجموح في ميادين الأدب، وأنشدني بدمشق:

أنـــا مـــن ســـكر هـــواهم ثمـــل ::: لا أبـــالي هجـــروا أم وصـــلوا
فبشـــعري وحـــديثي فـــيهم ::: زمـــزم الحـــادي وســـار المثـــل
إنّ عشـــاق الحمـــى تعـــرفني ::: والحمـــى يعـــرفني والطّلـــل
رحلـــوا عـــن ربـــع عـــيني فلـــذا ::: أدمعـــي عـــن مقلـــتي ترتحـــل
مـــا لهـــا قـــد فارقـــت أوطانهـــا ::: وهـــي ليســـت لحمـــاهم تصـــل
لا تظنّـــوا أنّـــني أســـلوا فمـــا ::: مـــذهبي عـــن حـــبّكم ينتقـــل

وقال غيره: ولد المذكور بشاطبة منتصف شوال سنة ٦١٥، ومات بدمشق ودفن بسفح قاسيون، وكان عالماً فاضلاً، دمث الأخلاق كريم الشمائل، كثير الاحتمال واسع الصدر، صحب الشيخ كمال الدين ابن العديم وولده قاضي القضاة مجد الدين، فاجتذبوه إليهم، وصار حنفيّ المذهب، ودرس بالمدرسة الإقبالية الحنفيّة بدمشق، وله مشاركة في علوم كثيرة، وله يد في النظم.

٦٩ - ومنهم أبو محمد القرطبي، قال ابن سعيد: لقيته بالقاهرة، وكأنّه لا خبر عنده من الآخرة، وقد طال عمره في أكل الأعراض، وفساد الأغراض، وممّا بقي في أذني من شعره قوله:

رحـــم الله مـــن لقيـــت قـــديما ::: فلقـــد كـــان بي رؤوفـــاً رحيمـــا
أتمـــنى لقـــاء حـــرٍّ وقـــد أع ::: وز بخـــتي كمـــا عـــدمت الكريمـــا

وتوفّي بالقاهرة سنة ٦٤٣، انتهى.

٧٠ - ومنهم علي بن أحمد القادسي، الكناني، قال ابن سعيد: لقيته ببيت

المقدس على زي الفقراء، وحصّلت منه هذه الأبيات، وندمت بعد ذلك على ما فات، وهي:

ذاك العـــذار المطـــلّ ::: دمـــي عليـــه يطـــلّ
كأنّمـــا الخـــدّ مـــاءٌ ::: وقـــد جـــرى فيـــه ظـــلّ
عقـــود صـــبري عليـــه ::: مـــذ حـــلّ قلـــبي تحـــلّ
جـــرت دمـــوعي عليـــه ::: فقلـــت آسٌ وطـــلّ

٧١ - ومنهم أبو عبد الله ابن العطار، القرطبي، قال ابن سعيد: هو حلو المنازع، ظريف المقاطع والمطالع، مطبوع النوادر، موصوف بالأديب الشاعر، مازجته بالإسكندرية، وبهذه الحضرة العلية، وما زال يدين بالانفراد، والتجول في البلاد، حتى قضى مناه، وألقى بهذه المدينة عصاه، لا يخطر الهمّ له ببال، ولا يبيت إلاّ على وعد من وصال، وله حين سمع ما ارتجلته في السكين بالإسكندرية حين داعبني باختلاسها القاضي زين القضاة ابن الرّيغي، وقال: ما لي إليه سبيل، حتى يحضر مصري نبيل:

أيا سـارقاً ملكـاً مصـوناً ولم يجـب ::: علـى يـده قطـعٌ وفيـه نصـاب
سـتندبه الأقـلام عنـد عثارهـا ::: ويبكيـه إن يعـد الصـواب كتـاب

فقال:

أحاجيك مـا شـيء إذا مـا سـرقته ::: وفيه نصـابٌ لـيس يلزمـك القطـع
على أن فيـه القطـع والحـدّ ثابـتٌ ::: ولا حدّ فيه، هكـذا حكـم الشـرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه " القدح المعلى " فيما أظن.

٧٢ - ومنهم أبو الوليد وأبو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر، الأزدي، القرطبي، المعروف بابن الفرضي، الحافظ المشهور، كان فقيهاً عالماً عارفاً بعلم الحديث ورجاله، بارعاً في الأدب وغيره، وله من التصانيف تاريخ علماء الأندلس، وقفت عليه بالمغرب، وهو بديع في بابه وهو الذي ذيّل عليه ابن بشكوال بكتاب الصلة، وله كتاب حسن في المؤتلف، والمحتلف وفي مشتبه

النسبة، وكتاب في أخبار شعراء الأندلس، وغير ذلك، ورحل من الأندلس إلى المشرق سنة ٣٨٢، فحجّ وسمع من العلماء وأخذ منهم وكتب من أماليهم، وروى عن شيوخ عدّة من أهل المشرق.

وله شعر كثير. ومولده في ذي القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١، وتولى القضاء بمدينة بلنسية في دولة محمد المهدي المرواني، وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣، وبقي في داره ثلاثة أيّام، ودفن متغيراً من غير غسل ولا كفن ولا صلاة، رحمه الله تعالى.

وروي عنه أنّه قال: تعلقت بأستار الكعبة، وسألت الله تعالى الشهادة، ثم انحرفت وفكرت في هول القتل، فندمت وهممت أن أرجع فأستقبل الله سبحانه وتعالى فاستحييت. وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف: لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلاّ جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك كأنّه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك، قال: ثم قضى على أثر ذلك. وهذا الحديث أخرج مسلم في صحيحه.

٧٣ - ومنهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، البكري، الشريشي، المالكي ولد بشريش سنة ٦٠١، ورحل إلى العراق، فسمع به المشايخ كالقطيعيّ وابن روزبة وابن الكثير وغيرهم، واشتغل وساد أهل زمانه، واشتهر بين أقرانه، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية، ثم انتقل إلى القدس الشريف، فأقام به شيخ الحرم، ثم جاء إلى دمشق المحروسة بالله، وتولى مشيخة الحديث بتربة أم صالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية، وعرض عليه القضاء فلم يقبل، وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب، بالرباط الناصري، ودفن بسفح قاسيون، رحمه الله تعالى، وذلك سنة خمس وثمانين وستمائة.

وليس هو بشارح المقامات، بل هو غيره، وقد اشتركا في البلد، فبسبب ذلك

ربّما يقع في الأذهان الوهم في أمرهما، وشارح المقامات أحمد وهذا محمد.

٧٤ - ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن الغلّس، القيسي، الأندلسي، البلنسي: كان من أهل العلم باللغة والعربية، مشاراً إليه فيهما، رحل من الأندلس، وسكن بمصر واستوطنها، وقرأ الأدب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب كتاب " الفصوص "، وعلى أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن خرّزاذ بن النّجيرمي. ودخل بغداد، واستفاد وأفاد، وله شعر حسن. وتوفّي يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى سنة ٤٢٧، وقيل: سنة ٤٢٩، بمصر، وكان استوطنها، وصلّى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن إبراهيم الحوفي صاحب التفسير في مصلى الصّدفي، ودفن عند أبي إسحاق، رحمه الله تعالى.

٧٥ - ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الأديب المعروف بالمغربي، وهو من أهل المرية، وانتقل إلى المشرق، وكان كامل الفضيلة، وجمع بين الأدب والحكمة، وله ديوان شعر جيّد، والخلاعة والمجون غالبة عليه، وذكر العماد في الخريدة أنّه كان طبيب المارستان المستصحب في معسكر السلطان السلجوقي حيث خيّم، وكان السديد يحيى ابن سعيد المعروف بابن المرخّم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي فاصداً وطبيباً في هذا المارستان. وأثنى العماد على أبي الحكم المذكور، وذكر فضله وما كان عليه، وأن له كتاباً سمّاه نهج الوضاعة، لأولي الخلاعة، ثم إن أبا الحكم انتقل إلى الشام، وسكن دمشق، وله فيها أخبار ومجاريات ظريفة تدل على خفّة روحه.

٧٦ - ومنهم من الراحلين من الأندلس إلى المشرق، من هو الأحق بالتقديم والسبق، الشهير عند أهل الغرب والشرق، الحافظ المقرئ الإمام الرباني، أبو عمرو الدّاني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر، الأموي، مولاهم، القرطبي، صاحب التصانيف التي منها المقنع والتيسير، وعرف بالدّاني لسكناه دانية، وولد سنة ٣٧١، وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل إلى المشرق سنة

٣٩٧، فمكث بالقيروان أربعة أشهر، ودخل مصر في شوّالها، فمكث بها سنة، وحج، ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩، وقرأ بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسي وغيره بقرطبة، وعلى أبي الحسن ابن غلبون وخلف بن خاقان المصري وأبي الفتح فارس بن أحمد، وسمع من أبي مسلم الكاتب، وهو أكبر شيخ له، ومن عبد الرحمن بن عثمان القشيري، حاتم بن عبد الله البزار، وغير واحد من أهل مصر وسواها، وسمع من الإمام أبي الحسن القابسي، وخلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس، وتلا عليه خلقٌ منهم مفرج الأقفالي وأبو داود ابن نجاح صاحب التنزيل في الرسم، وهو من أشهر تلامذته، وحدّث عنه خلقٌ كثير، منهم خلف بن إبراهيم الطّليطلي.

قال أبو محمد عبيد الله الحجري: ذكر بعض الشيوخ أنّه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الدّاني ولا بعد عصره أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه. وكان يقول: ما رأيت شيئاً قط إلاّ كتبته، ولا كتبته إلاّ حفظته، ولا حفظته فنسيته.

قال ابن بشكوال: كان أبو عمرو أحد الأئمّة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه، وجمع في ذلك كلّه تواليف حساناً، وله معرفة بالحديث وطرقه وإعرابه وأسماء رجاله، وكان حسن الخط والضبط، من أهل الحفظ والذكاء واليقين، وكان ديّناً فاضلاً ورعاً سنّياً.

وقال بعضهم، وأظنّه المغامي: كان أبو عمرو مجاب الدعوة، مالكي المذهب.

وقال بعض أهل مكة: إن أبا عمرو الدّاني مقرئ متقدّم، وإليه المنتهى في علم القراءات وإتقان القرآن، والقراء خاضعون لتصانيفه، واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك، وله مائة وعشرون مصنّفاً، وروى عنه بالإجازة رجلان: أحمد بن محمد بن عبد الله الخولاني، وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة، وكانت وفاته رحمه الله تعالى بدانية في نصف شوّال سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

٧٧ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد بن أبي حبيب، الأندلسي، من بيت علم ووزارة، صرف عمره في طلب العلم، وكان غزير العلم في الفقه والحديث والأدب وولي القضاء بالأندلس مدّة، ثم دخل الإسكندريّة ومصر، وجاور بمكّة المشرّفة، ثم قدم العراق وأقام ببغداد مدّة، ثم وافى خراسان فأقام بنيسابور وبلخ، وكانت ولادته ببلاد الأندلس، وتوفّي بهراة في شعبان سنة ٥٤٨، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٧٨ - ومنهم أبو العباس أحمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الأندلسي المقرئ، رحل وأخذ القراءات عن أبي الفضل جعفر الهمداني، وسمع من أبي القاسم ابن عيسى، وسكن الفيوم، واختصر التيسير وصنّف شرحاً للشاطبية، وتوفّي سنة ٦٤٠، رحمه الله تعالى.

٧٩ - ومنهم العلاّمة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المريني، اللورقي، المقرئ، النحوي، ولد سنة ٥٧٥، وقرأ القراءات وأحكم العربية وبرع فيها، واجتمع بالجزولي، وسأله عن مسألة في مقدمته، وقرأ علم الكلام والأصولين والفلسفة، وكان خبيراً بهذه العلوم، مقصوداً بإقرائها، وولي مشيخة قراءة العادلية، ودرس بالعزيزيّة نيابة، وصنّف شرحاً للشاطبيّة، وشرحاً للمفصّل في عدّة مجلدات، وشرح الجزوليّة، وغير ذلك، وكان مليح الشكل، حسن البزّة، وتوفّي سنة ٦٦١، رحمه الله تعالى، ورضي عنه.

٨٠ - ومنهم أبو عبد الله ابن أبي الربيع القيسي، الأندلسي، الغرناطي، قدم مصر سنة ٥١٥ أو بعدها، فسمع على السّلفي، وبقراءته على جماعة من شيوخ مصر، وكان لديه فقهٌ وأدب، ثم سافر إلى باب الأبواب، وكان حيّاً سنة ٥٥٦.

٨١ - ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى، القرشي، العبدري، من أهل ميورقة من بلاد الأندلس، سكن بغداد، وسمع بها من أبي الفضل ابن خيرون وطرّاد الزينبي وأبي عبد الله الحميدي وجماعة، ولم يزل يسمع إلى حين وفاته، وكتب بخطّه كثيراً من الكتب والأجزاء، وجم وخرّج،

وكان صحيح العقل، معتمد الضبط، مرجوعاً إليه في الإتقان، وكفاه فخراً وشرفاً أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السّلفي وأبو الفضل محمد ابن ناصر، وكان فهّامة علاّمة ذا معرفة بالحديث، متعفّفاً مع فقره، وكان يذهب إلى أن المناولة والعرض كالسماع.

٨٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعدون، الباجي، سمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وابن رشيق، وبمكّة من الآجرّي، وكان صالحاً فاضلاً زاهداً ورعاً، حدّث، ومات ببطليوس وفجأة سنة ٣٩٢، ومولده سنة ٣٢٢.

٨٣ - ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون، التميمي الجزيري، المتعبد، كانت آدابه كثيرة، وحجّ غير مرّة، ورابط ببلاد المغرب، وكان حسن الصوت بالقرآن، سمع بمصر من جماعة وبمكّة، وصحب الفقراء وطاف بالشام، وغزا غزوات وتعرّض للجهاد وحرّض عليه، وساح بجبل المقطم، وذكر أنّه صلّى بمصر الضحى اثنتي عشرة ركعة، ثم نام فرأى النبي ، فقال: يا رسول الله، إن مالكاً والليث اختلفا في الضحى، فمالكٌ يقول: اثنتا عشرة ركعة، والليث يقول: ثمانٍ، فضرب عليه الصلاة والسلام بين وركي ابن سعدون وقال: رأي مالك هو الصواب، ثلاث مرّات، قال: وكان في وركي وجع، فمن تلك الليلة زال عنّي. توفّي سنة ٣٤٤.

٨٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعد الأعرج، الطّليطلي الخطيب، وقال فيه ابن سعيد: سمع بمصر ابن الورد وابن السكن، وحدّث، مولده سنة ٣٠٩، وتوفّي في ربيع الآخر سنة ٣٨٤.

٨٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن إسحاق بن يوسف، الأموي، القرطبي، وأصله من لبلة، ولكن سكن قرطبة، وقدم مصر، وحجّ، وسمع في طريقه من الشيخ أبي محمد ابن أبي زيد صاحب الرسالة، وأخذ عن القابسي وعن جماعة من علماء مصر والحجاز، ومولده سنة ٣٥٢، ورحلته سنة ٤١٨.

٨٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حسان بن الحكم بن هشام، القرطبي، سمع من أبيه ويحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب، ورحل، فسمع من أشهب بن عبد العزيز وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم، وعاد إلى الأندلس وبها توفّي سنة ٢٦٠، رحمه الله تعالى.

٨٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري، الشاطبي، نزيل الإسكندريّة ويعرف بابن أبي الربيع، أحد أولياء الله تعالى، شيخ الصالحين صاحب الكرامات المشهورة، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلّي عن الناس والتمسّك بطريقة السّلف، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره، وقرأ بدمشق على الواسطي، وسمع عليه الحديث، ورحل فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله ، بين قبره ومنبره سنة ٦١٧، وسمع بدمشق على أبي القاسم ابن صصرى وأبي المعالي ابن خضر وأبي الوفاء ابن عبد الحق وغيرهم، وانقطع لعبادة الله تعالى في رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبي العباس الراسي، وتلمذ للشاطبي تلميذ الراسي، وصنّف كتباً حسنة: منها كتاب المسلك القريب في ترتيب الغريب، وكتاب اللمعة الجامعة في العلوم النافعة في تفسير القرآن العزيز، وكتاب شرف المراتب والمنازل في معرفة العالي في القراءات والنازل، وكتاب المباحث السنية في شرح الحصريّة، وكتاب الحرقة في لباس الخرقة، وكتاب المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد، وكتاب النبذة الجلية في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية، وكتاب زهر العريش في تحريم الحشيش، وكتاب الزهر المضي في مناقب الشاطبي، وكتاب الأربعين المضية في الأحاديث النبوية. ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥، ووفاته بالإسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢، ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته، رحمهما الله تعالى، ونفع بهما.

٨٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن شريح الرّعيني الإشبيلي، قدم مصر

وسمع بها من ابن نفيس وأبي علي الحسن البغدادي وأبي جعفر النحوي وأبي القاسم ابن الطيب البغدادي الكاتب، وبمكّة من أبي ذر الهروي.

قال ابن بشكوال: كان من جملة المقرئين وخيارهم، ثقة في روايته، وكانت رحلته إلى المشرق سنة ٤٣٣، وولد سنة ٣٩٢، وتوفّي سنة ٤٧٦، وعمره أربع وثمانون سنة إلاّ خمسة وخمسين يوماً، وروى بإشبيلية عن جماعة، رحمه الله تعالى.

٨٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح الأنصاري، المالقي. قال السلفي: هو شاب من أهل الأدب له خاطر سمح كان يحضر عندي بالإسكندرية، كثير السماع للحديث، وذكر أنّه قرأ الأدب على أبي الحسين ابن الطّراوة النحوي بالأندلس، وعلى نظرائه.

٩٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني، المعافري الأندلسي المالكي رحل إلى المشرق فسمع بالشام خيثمة بن سليمان، وبمكّة أبا سعيد ابن الأعرابي، وببغداد إسماعيل بن محمد الصفّار، وسمع بالمغرب بكر ابن حماد التّاهرتي ومحمد بن وضاح وقاسم بن أصبغ، وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزني. روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال: اجتمعنا به بهمذان، مات ببخارى سنة ٣٨٣، وقيل: سنة ثمان، وقيل: سنة تسع وسبعين. وقال فيه أبو سعيد الإدريسي: إنّه كان من أفاضل الناس، ومن ثقاتهم. وقال غنجار: إنّه كان فقيهاً حافظاً، جمع تاريخاً لأهل الأندلس. وقال السمعاني فيه: كان فقيهاً حافظاً، رحل في طلب العلم إلى المشرق والمغرب، رحمه الله تعالى.

٩١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الخزرجي الدّاني النحوي، أخو أبي العابس ابن عيسى، سمع بدانية من أبي داود المقرئ وغيره، وقدم دمشق سنة ٥٥٤ حين خرج حاجّاً، واقرأ بدمشق النحو مدّة، ثم خرج إلى بغداد، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦١٩، وولد سنة ٥١٢، وقدم مصر سنة ٥٧٢، وله من المصنّفات كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر

الأدب في علم مجازات العرب و من كلامه: ليست هيبة الشيخ لشيبه ولا لسنّه ولا لشخصه، ولكن لكمال عقله، والعقل هو المهاب، ولو رأيت شخصاً جمع جميع الخصال وعدم العقل لما هبته، وقال: من جهل شيئاً عابه، ومن قصّر عن شيء هابه.

٩٢ - ومنهم القاضي الشهير محمد بن بشير، وهو محمد بن سعيد بن بشير ابن شراحيل، المعافري، وقيل في آبائه غير ذلك كما يأتي، ولمّا أشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير إلى خطّة القضاء بقرطبة وجّه إليه بباجة، فأقبل ولا يعلم ما دعي إليه، ونزل على صديق له من العبّاد، فتحدث في شأن استدعائه، وقدّم أنّه يصرّف في الكتابة، فقال له العابد: ما أراه بعث فيك إلاّ للقضاء، فإن القاضي بقرطبة مات و هي الآن دون قاضٍ، فقال ابن بشير: فأنا أستشيرك في ذلك إن وقع، فقال: أسألك عن أشياء ثلاثة، وأعزم عليك أن تصدقني فيها، ثم أشير بعد ذلك عليك، فقال: ما هي فقال: كيف حبّك للأكل الطيب واللباس اللين وركوب الفاره فقال: والله لا أبالي ما رددت به جوعي وسترت به عورتي وحملت به رحلي، فقال: هذه واحدة، فكيف حبّك للتمتّع بالوجوه الحسان والتبطن للكواعب الغيد وما شاكل ذلك من الشهوات فقال: هذه حال والله ما استشرفت قط إليها، ولا خطرت ببالي، ولا اكترثت لفقدها، فقال: وهذه ثانية، فكيف حبّك لمدح الناس لك وثنائهم عليك وكيف حبّك للولاية وكراهيتك للعزل فقال: والله ما أبالي في الحق من مدحني وذمّني، وما أسرّ للولاية ولا أستوحش للعزل، فقال: و هذه الثالثة، اقبل الولاية فلا بأس عليك، فقدم قرطبة، فولاّه الأمير الحكم القضاء والصلاة.

قال ابن وضاح: أخبرني من كان يرى محمد بن بشير القاضي داخلاً على باب المسجد الجامع يوم الجمعة، وعليه رداء معصفر، وفي رجله نعل صرّارة، وله جمّة مفرقة، ثم يقوم فيخطب ويصلّي و هو في هذا الزي، وبه كان يجلس للقضاء بين الناس، فإن رام أحد من دينه شيئاً وجده أبعد من الثريا.

وأتاه رجل لا يعرفه، فلمّا رأى ما هو فيه من زي الحداثة من الجمة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء في يديه، توقّف وقال: دلوني على القاضي، فقيل له: ها هو، وأشير إليه، فقال: إنّي رجل غريب، وأراكم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلونني على زامرٍ، فصحّحوا له أنّه القاضي، فتقدم إليه واعتذر، فأدناه وتحدث معه، فوجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنّه، فكان يحدث بقصّته معه.

وعوتب في إرسال لمّته ولبسه الخز والمعصفر، فقال: حدّثني مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر - وكان سيّد القرّاء - كانت له لمّةٌ، وأن هشام بن عروة فقيه هذا البلد - يعني المدينة - كان يلبس المعصفر، وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخزّ.

ولقد سئل يحيى بن يحيى عن لباس العمائم فقال: هي لباس الناس في المشرق، وعليه كان أمرهم في القديم، فقيل له: لو لبستها لاتّبعك الناس في لباسها، فقال: قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه، وكان ابن بشير أهلاً أن يقتدى به، فلعلّي لو لبست العمامة لتركني الناس ولم يتبعوني كما تركوا ابن بشير.

وكان أول ما نظر فيه محمد بن بشير - حين ولي القضاء - التسجيل على الخليفة الحكم في أرحي القنطرة إذ قيم عليه فيها وثبت عنده حق المدّعي، وأعذر إلى الحكم فلم يكن عنده مدفع، فسجّل فيها، وأشهد على نفسه، فما مضت مديدة حتى ابتاعها الحكم ابتياعاً صحيحاً، فسرّ بذلك، وقال: رحم الله محمد بن بشير، فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره منّا، كان في أيدينا شيء مشتبه فصححه لنا، وصار حلالاً طيب الملك في أعقابنا، وحكم على ابن فطيس الوزير، ولم يعرّفه بالشهود، فرفع الوزير ذلك إلى الحكم، وتظلم من ابن بشير، فأومأ الحكم إليه أن الوزير ذكر حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرّفه بهم، ولا أعذرت إليه فيهم، وإن أهل العلم يقولون: إن ذلك له، فكتب إليه ابن بشير: ليس

ابن فطيس ممّن يعرّف بمن شهد عليه، لأنّه إن لم يجد سبيلاً إلى تجريحهم لم يتحرج عن طلب أذا هم في أنفسهم وأموالهم، فيدعون الشهادة هم ومن ائتسى بهم، وتضيع أموال الناس.

وأكثر موسى بن سماعة أحد خواصّ الأمير الحكم في ابن بشير الشكاية، وأنّه يجور عليه، فقال له الحكم: أنا أمتحن قولك الساعة، فاخرج إليه فوراً، واستأذن عليه، فإن أذن لك عزلته، وصدّقت قولك فيه، وإن لم يأذن لك دون خصمك ازددت بصيرة فيه، فليس هو عندي بجائر على حال، وإنّما مقصده الحق في كل ما يتصرّف فيه، فخرج يؤم دار ابن بشير، وقد أمر الحكم من يثق به من الفتيان الصّقالبة أن يقفوا أثره ويعلموا ما يكون منه، فلم يكن إلاّ ريثما بلغ، ثمّ انصرف فحكى للحكم أنّه لمّا خرج الآذن إلى موسى وعلم القاضي بمكانه عاد إليه فقال له: إن كانت لك حاجة فاقصد فيها إذا جلس القاضي مجلس القضاء، فتبسّم الحكم، وقال: قد أعلمته أن ابن بشير صاحب حقّ لا هوادة فيه عنده لأحد.

وولي القضاء مرتين، فلمّا عزل المرّة الأولى انصرف إلى بلده، وكان بعض إخوانه يعاتبه في صلابته، ويقول له: أخشى عليك العزل، فيقول له: ليته قدّر، إن الشقراء - يعني بغلته - تقطع الطريق بي حاثة نحو باجة. فما مضى إلا يسير حتى عتب عليه الأمير في قصّة اشتدّ فيها على بعض خاصّته، فكانت سبباً لعزله، وانصرف كما تمنى، فلم يمكث إلى يسيراً حتى أتى فيه رقّاص من قبل الأمير الحكم، - والرّقاص عند المغاربة: هو الساعي عند المشارقة - فعاد إلى قرطبة، وجبره على القعود للقضاء الأمير الحكم، فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته وبصدقة ما يملك في سبيل الله تعالى، إن حكم بين اثنين، فلم يعذره، وأخرجه من ماله، وعوّضه من طيب ما عنده، وهب له جارية من جواريه، فعاد إلى القضاء ثانية.

وممّا يحكى عنه في العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل

وكّل عند ابن بشير وكيلاً يخاصم عنه لشيء اضطر إليه، وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا، ولم يكن فيها من الأحياء إلاّ الأمير الحكم وشاهد آخر مبرز، فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد، وضربت على وكيله الآجال في شاهد ثانٍ، وجدّ به الخصام، فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحكم وأراه. شهادته في الوثيقة، وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه، وعرّفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفاً من بطلان حقّه، وكان الحكم يعظم سعيد الخير عمّه، ويلتزم مبرته، فقال له: يا عمّ، إنّا لسنا من أهل الشهادات، وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله، ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقف مخزاة كنّا نفديه بملكنا، فصر في خصامك حيث صيرك الحق إليه، وعلينا خلف ما انتقصك، فأبى عليه، وقال: سبحان الله، وما عسى أني قول قاضيك في شهادتك وأنت ولّيته، وهو حسنة من حسناتك، وقد لزمتك في الديانة أن تشهد لي بما علمته، ولا تكتمني ما أخذ الله عليك؛ فقال: بلى، إن ذلك لمن حقّك كما تقول، ولكنّك تدخل علينا به داخلة، فإن أعفيتنا منه فهو أحبّ إلينا، وإن اضطررتنا لم يمكنّا عقوقك، فعزم عليه عزم من لم يشكّ أن قد ظفر بحاجته، وضايقته الآجال، فألح عليه، فأرسل الحكم عند ذلك إلى فقيهين من فقهاء زمانه، وخط شهادته بيده في قرطاس، وختم بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين وقال لهما: هذه شهادتي بخطّي تحت ختمي، فأدّياها إلى القاضي، فأتياه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسّماع من الشهود، فأدّياها إليه، فقال لهما: قد سمعت منكما فقوما راشدين في حفظ الله تعالى، وجاء وكيل سعيد الخير، وتقدّم إليه مدلاً واثقاً، وقال له: أيّها القاضي، قد شهد عندك الأمير أصلحه الله تعالى فماذا تقول فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادة لا تعمل عندي فجئني بشاهد عدل، فدهش الوكيل ومضى إلى سعيد الخير فأعلمه، فركب من فوره إلى الحكم، وقال: ذهب سلطاننا، وأزيل بهاؤنا، يجترئ هذا القاضي على ردّ شهادتك، والله سبحانه قد استخلفك على عباده، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم وإليك هذا ما لا يجب أن تحمل عليه، وجعل يغريه بالقاضي ويحرّضه على

الإيقاع به، فقال له الحكم: وهو شككت أنا في هذا يا عمّ القاضي رجلٌ صالح والله، لا تأخذه في الله لومة لائم، فعل ما يجب عليه ويلزمه، وسدّ دونه باباً كان يصعب عليه الدخول منه، فأحسن الله تعالى جزاءه؛ فغضب سعيد الخير، وقال: هذا حسبي منك، فقال له: نعم، قد قضيت الذي كان لك علي، ولست والله أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله.

ولمّا عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه: يا عاجز، أما تعلم أنّه لا بد من الإعذار في الشهادات، فمن كان يجترئ على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقّه.

وتوفّي القاضي محمد بن بشير سنة ١٩٨ قبل الشافعيّ بست سنين كما يأتي قريباً، ومحاسنه - رحمه الله تعالى - كثيرة، وقد استوفى ترجمته بقدر الإمكان القاضي عياض في المدارك، فليراجعها من أرادها، فإن عهدي بها في المغرب.

٩٣ - ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقي، من أهل قرطبة، كان فقيهاً زاهداً، وحج وحضر افتتاح إقريطش، واستوطنها، قاله الرازي.

٩٤ - ومنهم محمد بن يحيى بن يحيى الليثي، خرج حاجّاً، ولقي سحنون بن سعيد بإفريقية، ولقي بمصر رجالاً من أصحاب مالك فسمع منهم، وعرف بالفقه والزهد، وجاور بمكّة، وتوفي هنالك.

٩٥ - ومنهم محمد بن مروان بن خطاب، المعروف بابن أبي جمرة، رحل حاجّا هو وابناه خطاب وعميرة في سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وسمعوا ثلاثتهم من سحنون بن سعيد المدوّنة بالقيروان، وأدركوا أصبغ بن الفرج، وأخذوا عنه.

٩٦ - ومنهم محمد بن أبي علاقة البواب، من أهل قرطبة، كانت له رحلة إلى المشرق، ولقي فيها جماعة من أهل العلم، وأخذ عن أبي إسحاق الأخفش، وأبي عبد الله نفطويه، وغيرهم، وسمع من الأخفش الكامل للمبرّد، وقال الحكم

المستنصر: لم يصح كتاب " الكامل " عندنا من رواية إلاّ من قبل ابن أبي علاقة، وكان ابن جابر الإشبيلي قد رواه قبل بمصر بمدة، وما علمت أحداً رواه غيرهما، وكان ابن الأحمر القرشي يذكر أنّه رواه، وكان صدوقاً، ولكن كتابه ضاع، ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين.

٩٧ - ومنهم محمد بن حزم بن بكر التّنوخي، من أهل طليطلة، وسكن قرطبة، يعرف بابن الديني، سمع من أحمد بن خالد وغيره، وصحب محمد بن مسرة الجبلي قديماً، واختص بمرافقته في طريق الحج، ولازمه بعد انصرافه، وكان من أهل الورع والانقباض، وحكى عن ابن مسرّة أنّه كان في سكناه المدينة يتتبع آثار النبيّ ، قال: ودلّه بعض أهل المدينة على دار ماريّة أم إبراهيم سرّيّة النبيّ ، فقصد إليها فإذا دويرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد قد شق في وسطها بحائط، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى إلى ذلك الفرش على خارج لطيف، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبيّ في الصيف، قال: فرأيت أبا عبد الله بعدما صلّى في البيتين والسقيفة وفي كل ناحية من نواحي تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره، فكشفته بعد انصرافي وهو ساكن في الجبل عن ذلك، فقال: هذا البيت الذي تراني فيه بنيته على تلك الحالة في العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان، انتهى.

٩٨ - ومنهم محمد بن يحيى بن مالك بن يحيى ين عائذ، ولد أبي زكريا الراوية، من أهل طرطوشة، يكنى أبا بكر، تأدّب بقرطبة، وسمع بها من قاسم ابن أصبغ ومحمد بن معاوية القرشي، وأحمد بن سعيد، ومنذر بن سعيد، وأبي علي القالي وغيرهم، وكان حافظاً للنحو واللّغة والشعر، يفوت من جاراه على حداثة سنّه، شاعراً مجيداً مرسلاً بليغاً، ورحل مع أبيه إلى المشرق سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكناني هنالك، وجمع كتباً عظيمة، وأقام بها إلى أن توفّي بأصبهان معتبطاً مع الستين وثلاثمائة، ومولده بطرطوشة صدر ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة،

ذكره ابن حيّان، رحمه الله تعالى.

٩٩ - ومنهم محمد بن عبدون الجبلي العددي من أهل قرطبة، أدّب بالحساب والهندسة، ورحل في سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، فدخل مصر والبصرة، وعني بعلم الطب فمهر فيه، ودبّر في مارستان الفسطاط، ثم رجع إلى الأندلس في سنة ستين وثلاثمائة، فاتصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله، وله في التكسير تأليف حسن، رحمه الله تعالى.

١٠٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأزدي، الفراء القرطبي، صحب أبا بكر ابن يحيى بن مجاهد، واختص به، ولطف محلّه منه، وقرأ عليه القرآن، ورحل صحبته لأداء فريضة الحجّ، وكان رجلاً صالحاً كثير التلاوة للقرآن والخشوع، إذا قرأ بكى ورتّل وبيّن في مهل، ويقول: أبو بكر علّمني هذه القراءة، وحكي أنّه سرد الصوم اثنتي عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد مفطراً كلّ ليلة وقت الإفطار، ثم تمادى على ذلك بعد موته مفطراً عقب العشاء الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب إليها، تزيّداً من الخير، واجتهاداً في العمل.

١٠١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح المعافري، الأندلسي، رحل إلى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان وأبا سعيد ابن الأعرابي، وإسماعيل ابن محمد الصفار، وبكر بن حمّاد التاهرتي، وغيرهم، روى عنهم أبو عبد الله الحكم وقال: اجتمعنا بهمذان سنة إحدى وأربعين، يعني وثلاثمائة، فتوجّه منها إلى أصبهان، وكان قد سمع في بلاده وبمصر من أصحاب يونس، وبالحجاز وبالشام وبالجزيرة من أصحاب علي بن حرب، وببغداد، وورد نيسابور في ذي الحجّة سنة إحدى وأربعين فسمع الكثير، ثم خرج إلى مرو ومنها إلى بخارى فتوفّي بها في رجب من سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وروى عنه أيضاً أبو القاسم ابن حبيبي النيسابوري وغيرهما.

١٠٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، السّرقسطي، روى عن الباجي وابن عبد البر، ورحل حاجّاً فقدم دمشق وحدّث بها عن شيوخه

الأندلسيين، وعن أبي حفص عمر بن أبي القاسم ابن أبي زيد القفصيّ، وذكره ابن عساكر، وقال: سمع عنه أبو محمد الأكفاني، وحكى عنه تدليساً ضعّفه به، وتوفّي سنة ٤٧٧.

١٠٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن بقاء، الأنصاري، من بلاد الثغر الشرقي، أخذ القراءات عن أبي داود سليمان بن نجاح، ورحل حاجّاً، فقدم دمشق، وأقرأ بها القرآن بالسبع، وأخذ عنه جماعة من أهلها، وكان شيخاً فاضلاً حافظاً للحكايات، قليل التكلّف في اللباس، ذكره ابن عساكر وقال: رأيته وسمعته ينشد قصيدة يوم خرج الناس للمصلّى للاستسقاء على المنبر، وأولها:

أستغفر الله من ذنبي وإن كبرا ::: وأستقلّ له شكري وإن كثرا

ولد: في الثاني والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وتوفّي: يوم الأربعاء عند صلاة العصر، ودفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثاني من ذي الحجّة سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، ودفن في مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبي الدّرداء، رضي الله تعالى عنه، قال: وشهدت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه؛ وذكره السلفي.

١٠٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى، الأنصاري، الخزرجي، من أهل دانية، سمع كتاب " التقصي " لابن عبد البر، ولقي أبا الحسن الحصري ثم خرج حاجّاً فقدم دمشق سنة أربع وخمسمائة، وأقام بها مدة يقرئ العربية، وكان شديد الوسوسة من الوضوء.

١٠٥ - ومنهم محمد بن أبي سعيد الفرج بن عبد الله، البزاز، من أهل سرقسطة، لقي بدانية الحصري، وسمع منه بعض منظومه، ورحل حاجّاً فأدّى الفريضة، ودخل العراق فسمع من جماعة وأجازوا له: منهم ابن خيرون، والحميدي، وأبو زكريا التبريزي، والمبارك بن عبد الجبار، وثابت بن بندار، وهبة الله بن الأكفاني، وغيرهم، ونزل الإسكندريّة، وحدّث بها وأخذ الناس عنه، وتوفّي هنالك.

١٠٦ - ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين، الشهير بالميورقي لأن أصله منها، وسكن غرناطة، وروى عن أبي علي الصّدفي، ورحل حاجّاً فسمع بمكّة من أبي الفتح عبد الله بن محمد البيضاوي، وأبي نصر عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي، في شوّال وذي القعدة من سنة ٥١٧، وبالإسكندريّة من أبي عبد الله الرازي وأبي الحسن ابن مشرّف وأبي بكر الطّرطوشي وغيرهم، وعاد إلى الأندلس بعد مدة طويلة فحدّث في غير ما بلد لتجوّله، وكان فقيهاً ظاهريّاً، عارفاً بالحديث وأسماء الرجال، متقناً لما رواه، يغلب عليه الزهد والصلاح، روى عنه أبو عبد الله النميري الحافظ ويقول فيه: الأزدي تدليساً، لأن الأنصار من الأزد، وأبو بكر ابن رزق وأبو عبد الله ابن عبد الرحيم وابنه عبد المنعم وسواهم، وصار أخيراً إلى بجاية هارباً من صاحب المغرب حينئذ بعد أن حمل إليه هو وأبو العباس ابن العريف وأبو الحكم ابن برّجان، وحدّث هنالك، وسمع منه في سنة ٥٣٧، رحمه الله تعالى.

١٠٧ - ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطّفيل العبدي الإشبيلي ويعرف بابن عظيمة، أخذ القراءات عن أبي عبد الله السّرقسطي وروى عن أبي عبد الله الخولاني وأبي عبد الله ابن فرج وأبي علي الغساني وأبي داود المقرئ وأبي جعفر ابن عبد الحق وأبي الوليد ابن طريف، ورحل حاجّاً فروى بمكّة عن رزين بن معاوية، ثم بالإسكندريّة عن ابن الحضرمي أبي عبد الله محمد بن منصور وأبي الحسن ابن مشرّف الأنماطي، وبالمهدية عن المازريّ، وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الأحدب للقاء أبي معشر الطبري، فبلغهما نعيه بمصر، فلمّا قفلا من حجّهما قعد منصور يقول: قرأت على أبي معشر، واقتصر أبو الحسن في تصدره للإقراء على التحديث عمّن لقي، فعرف مكانه من الصدق والعدالة، وولي الصلاة ببلده، وتقدّم في صناعته، واشتهر بها، وتلاه أهل بيته فيها، فأخذ عنهم الناس، وله أرجوزة في القراءات السبع، وأخرى في مخارج الحروف، وشرح قصيدة الشقراطسي، وله أيضاً كتاب "

الفريدة الحمصية في شرح القصيدة الحصريّة "، وإليه وإلى بنيه بعده كانت الرياسة في هذا الشأن، ومن جلّة الرواة عنه أبو بكر بن خير، قرأ عليه " الشهاب " للقضاعي، وأجاز له جميع رواياته وتواليفه في رجب سنة ٥٣٦، وتوفّي في حدود الأربعين وخمسمائة، وروى عنه أبو الضحاك الفزاري.

١٠٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عيسى بن هشام بن جراح الخزرجي، من أهل جيّان، ويعرف بالبغدادي لطول سكناه إيّاها، روى عن أبي علي الغسّاني، وأبي محمد ابن عتاب، ورحل حاجّاً فلقي أبا الحسن الطبري المعروف بالكيّا، وأبا طالب الزينبي، وأبا بكر الشاشي، وغيرهم. وكان فقيهاً مشاوراً، حدث عنه أبو عبد الله النميري، وأبو محمد ابن عبيد الله، وأبو عبد الله ابن حميد، وأبو القاسم عبد الرحيم بن الملجوم، وغير واحد، وتوفّي بفاس سنة ٥٤٦.

١٠٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر، الأنصاري الجيّاني، ونزل حلب، يكنى أبا بكر، رحل إلى المشرق، وأدّى الفريضة وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة، وسكن قنطرة سنان منها، وكان يعلّم القرآن، ويتردّد إلى أبي عبد الله نصر الله بن محمد يسمع الحديث منه، ثم رحل صحبة أبي القاسم ابن عساكر صاحب تاريخ الشام إلى بغداد سنة عشرين، وكان زميله، فسمع بها معه من هبة الله بن الحصين وغيره، ثم خرج إلى خراسان فسمع بها من حمزة الحسيني وأبي عبد الله الفراوي وأبي القاسم الشحّامي وغيرهم، وسمع ببلخ جماعة منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني وأبو النجم مصباح ابن محمد المسكي وغيرهما، وبلغ الموصل فأقام بهامدة يسمع منه ويؤخذ عنه، ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها، وسلّمت إليه خزانة الكتب النورية، وأجريت عليه جراية، وكان فيه عسر في الرواية والإعارة معاً، ووقف كتبه على أصحاب الحديث، وله عوالٍ مخرّجة من حديثه ساوى بها بعض شيوخه البخاريّ ومسلماً وأبا

داود والترمذي والنسائي، روى عنه أبو حفص الميانشي وأبو المنصور مظفر بن سوار اللخمي وأبو محمد عبد الله بن علي بن سويدة وابن أبي السنان وغيرهم.

١١٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة، مرسيّ سكن شاطبة، ودار سلفه بلنسية، سمع أبا علي الصّدفي واختص به، وأكثر عنه، وإليه صارت دواوينه وأصوله العتاق وأمّهات كتبه الصحاح، لصهر كان بينهما، وسمع أيضاً أبا محمد ابن أبي جعفر، ولازم حضور مجلسه للتفقّه به، وحمل ما كان يرويه، ورحل إلى غرب الأندلس فسمع أبا محمد ابن عتاب وأبا بحر الأسدي وأبا الوليد ابن رشد، وأبا عبد الله الخولاني، وأبا عبد الله ابن الحاج، وأبا بكر العربي وغيرهم، وكتب إليه أبو عبد الله الخولاني وأبو الوليد ابن طريف وأبو الحسن ابن عفيف وأبو القاسم وابن صواب وأبو محمد ابن السيّد وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين وخمسمائة، فلقي بالإسكندريّة أبا الحجّاج ابن نادر الميورقي، وصحبه وسمع منه، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام، وأدّى فريضة الحج في سنة إحدى وعشرين، ولقي بمكّة أبا الحسن رزين بن معاوية العبدري إمام المالكيّة بها، وأبا محمد ابن صدقة المعروف بابن غزال من أصحاب كريمة المروزيّة فسمع منهم وأخذ عنهما، وروى عن أبي الحسن علي بن سند بن عياش الغساني ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصانيفه، ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندريّة، ولقي أبا طاهر ابن عوف وأبا عبد الله ابن مسلم القرشي وأبا طاهر السّلفي وأبا زكريا الزناتي وغيرهم، فأخذ عنهم، وكان قد كتب إليه منها أبو بكر الطّرطوشي وأبو الحسن ابن مشرّف الأنماطي، ولقي في صدره بالمهديّة أبا عبد الله المازري فسمع منه بعض كتاب المعلم، وأجاز له باقيه، وعاد إلى مرسية في سنة ست وعشرين.

وقد حصّل في رحلته علوماً جمة ورواية فسيحة، وكان عارفاً بالسنن

والآثار، مشاركاً في علم القرآن وتفسيره، حافظاً للفروع، بصيراً باللّغة والغريب، ذا حظ من علم الكلام، مائلاً إلى التصوّف، مؤثراً له، أديباً بليغاً خطيباً فصيحاً، ينشئ الخطب مع الهدي والسّمت والوقار والحلم، جميل الشارة، محافظاً على التلاوة، بادي الخشوع، راتباً على الصوم، وولي خطّة الشورى بمرسية مضافة إلى الخطبة بجامعها، وأخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه، ثم ولي القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمين، ونقل إلى قضاء شاطبة فاتخذها وطناً، وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية، ويقيم الخطب أيّام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقباً عليها، وقد حدّث بالمريّة وهناك أبو الحسن ابن موهب وأبو محمد الرّشاطي وغيرهما، وسمع منه أبو الحسن ابن هذيل جامع الترمذي، وألّف كتابه شجرة الوهم المترقية إلى ذروة الفهم ولم يسبق إلى مثله، وليس له غيره، وجمع فهرسة حافلة.

ووصفه غير واحد بالتّفنّن في العلوم والمعارف، والرسوخ في الفقه وأصوله، والمشاركة في علم الحديث والأدب.

وقال ابن عياد في حقّه: إنّه كان صليباً في الأحكام، مقتفياً للعدل، حسن الخَلق والخُلق، جميل المعاملة، لين الجانب، فكه المجالسة، ثبتاً، حسن الخط، من أهل الإتقان والضبط. وحكي أنّه كانت عنده أصول حسان بخطّ عمّه، مع الصحيحين بخطّ الصّدفي في سفرين، قال: ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحتها وإتقانها وجودتها ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر ما رزقه.

وذكره أبو سفيان أيضاً وأبو عمر ابن عاتٍ، ورفعوا جميعاً بذكره.

وتوفّي بشاطبة مصروفاً عن قضائها آخر ذي الحجّة سنة خمس وستين وخمسمائة ودفن أول يوم من سنة ست وستين وخمسمائة، بالروضة المنسوبة إلى أبي عمر ابن عبد البر، ومولده في رمضان سنة ٤٩٦.

١١١ - ومنهم محمد بن إبراهيم بن وضاح، اللخمي، من أهل غرناطة، ونزل جزيرة شقر، يكنى أبا القاسم، وأخذ القراءة عن أبي الحسن ابن هذيل وسمع منه كثيراً ورحل حاجّاً فأدّى الفريضة، وأخذ القراءات بمكّة عن أبي علي ابن العرجاء في سنة ست وأربعين وخمسمائة وسنة سبع بعدها، وحجّ ثلاث حجّات، ودخل بغداد، وأقام في رحلته نحواً من تسعة أعوام، وقفل إلى الأندلس، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، وأقرأ بها القرآن نحواً من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجراً، ولا قبل هديّة، وولي الصلاة والخطبة بجامعها، وكان رجلاً صالحاً، زاهداً يشار إليه بإجابة الدعوة، معروفاً بالورع والانقباض، وتوفّي في صفر سنة ٥٨٧.

١١٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن، التّجيبي، نزيل تلمسان، من أهل لقنت عمل مرسية، وسكن أبوه أريولة، رحل إلى المشرق فأدّى الفريضة، وأطال الإقامة هنالك، واستوسع في الرواية، وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين، من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السّلفي، صحبه واختص به وأكثر عنه، وحكى أنّه لمّا ودّعه في قفوله إلى المغرب سأله عمّا كتب عنه، فأخبره أنّه كتب كثيراً من الأسفار ومئين من الأجزاء، فسرّ بذلك، وقال له: تكون محدّث المغرب إن شاء الله تعالى، قد حصّلت خيراً كثيراً، قال: ودعا لي بطول العمر حتى يؤخذ عني ما أخذت عنه، وقد جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفاً مفيداً أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار، وقفل من رحلته، وله أربعون حديثاً من المواعظ، وأخرى في الفقر وفضله، وثالثة في الحب في الله تعالى، رابعة في فضل الصلاة على النبيّ ، ومسلسلاته في جزء، وكتاب فضائل الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان وكتاب فضل عشر ذي الحجّة وكتاب مناقب السبطين وكتاب الفوائد الكبرى مجلد، والفوائد الصغرى جزء، وكتاب الترغيب في الجهاد خمسون باباً في مجلّد، وكتاب المواعظ والرقائق أربعون مجلساً، سفران، وكتاب مشيخة السّلفي

وغير ذلك. ومولده بلقنت الصغرى في نحو الأربعين وخمسمائة، وتوفّي سنة عشر وستمائة، رحمه الله تعالى.

١١٣ - ومنهم الشيخ الأكبر، ذو المحاسن التي تبهر، سيّدي محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الحاتمي، من ولد

عبد الله بن حاتم أخي عديّ بن حاتم، الصوفي الفقيه المشهور الظاهري، ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠، قرأ القرآن على أبي بكر ابن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي، وحدّثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح ابن محمد بن شريح الرّعيني عن أبيه، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشّرّاط القرطبي، وحدّثه به عن ابن المؤلف، وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للدّاني عن أبيه عن المؤلف، وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم.

وكان انتقاله من مرسية لإشبيلية سنة ٥٦٨، فأقام بها إلى سنة ٥٩٨، ثم ارتحل إلى المشرق، وأجازه جماعة منهم الحافظ السّلفي وابن عساكر وأبو الفرج ابن الجوزي، ودخل مصر، وأقام بالحجاز مدّة، ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم، ومات بدمشق سنة ٦٣٨، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن بسفح قاسيون، ومن تآليفه مجموع ضمّنه منامات رأى فيها النبيّ وما سمع منه ومنامات قد حدّث بها عمّن رآه .

قال ابن النجار: وكان قد صحب الصوفية، وأرباب القلوب، وسلك طريق الفقر، وحجّ وجاور، وكتب في علم القوم، وفي أخبار مشايخ المغرب وزهّادها، وله أشعار حسنة وكلام مليح؛ اجتمعت به في دمشق في رحلتي سنة ٦٠١، فأقام بها اثني عشر يوماً، ثم دخلها ثانياً حاجّاً مع الركب سنة ٦٠٨.

وقال القطب اليونيني في ذيل مرآة الزمان: عن سيدي الشيخ محيي الدين -

رضي الله تعالى عنه ونفعنا به - أنّه كان يقول: إنّي أعرف اسم الله الأعظم، وأعرف الكيمياء، انتهى.

وقال ابن شودكين عنه: إنّه كان يقول: ينبغي للعبد أن يستعمل همّته في الحضور في مناماته، بحيث يكون حاكماً على خياله يصرفه بعقله نوماً، كما كان يحكم عليه يقظة؛ فإذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خلقاً له وجد ثمرة ذلك في البرزخ وانتفع به جدّاً، فليهتم العبد بتحصيل هذا القدر، فإنّه عظيم الفائدة بإذن الله تعالى.

وقال: إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأن ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عزمه بذلك.

وقال: ينبغي للسالك أنّه متى حضر له أنّه يعقد على أمرٍ ويعاهد الله تعالى عليه، أن يترك ذلك الأمر يجيء وقته، فإن يسّر الله تعالى فعله فعله، وإن لم ييسّر الله فعله، يكون مخلصاً من نكث العهد، ولا يكون متصفاً بنقض الميثاق.

١١٤ - ومنهم الصوفي الشهير أبو الحسن علي الشّشتري، وهو علي ابن عبد الله النميري، عروس الفقهاء، وأمير المتجردين، وبركة لابسي الخرقة، وهو من قرية شِشتر من عمل وادي آش، وزقاق الشّشتري معلوم بها، وكان مجوّداً للقرآن، قائماً عليه، عارفاً بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال الآفاق، ولقي المشايخ، وحجّ حجّات، وآثر التجرّد والعبادات.

وذكره القاضي أبو العباس الغبريني في عنوان الدراية فقال: الفقيه الصوفي، ومن الطلبة المحصّلين، والفقراء المنقطعين، له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية، وتقدّم في النظم والنثر على طريقة التحقيق، وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية في الانطباع.

صنف كتباً: منها كتاب العروة الوثقى في بيان السنن، وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته، وله كتاب المقاليد الوجوديّة في

أسرار الصوفية والرسالة القدسيّة في توحيد العامّة والخاصّة والمراتب الإيمانيّة والإسلاميّة والإحسانيّة والرسالة العلميّة وغير ذلك.

١١٥ - ومنهم سيدي أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الأندلسي - وحرالة: قرية من أعمال مرسية - غير أنّه ولد بمراكش، وأخذ بالأندلس عن أبي الحسن ابن خروف وغير واحد، ورحل إلى المشرق فأخذ عن أبي عبد الله القرطبي إمام الحرم وغيره، ولقي جلّةً من المشايخ شرقاً وغرباً.

وهو إمام ورع صالح زاهد، كان بقية السلف، وقدوة الخلف، وقد زهد في الدّنيا وتخلّى عنها، وأقام في تفسير الفاتحة نحواً من ستّة أشهر يلقي في التعليل قوانين تتنزّل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، حتى منّ الله تعالى ببركات ومواهب لا تحصى، وعلى أحكام تلك القوانين وضع كتابه مفتاح اللّبّ المقفل على فهم القرآن المنزل وهو ممّن جمع العلم والعمل، وصنّف في كثير من الفنون كالأصلين والمنطق والطبيعيّات والإلهيّات، وكان يقرئ النجاة لابن سينا فينقضه عروة عروة، وكان من أعلم الناس بمذهب مالك، ولمّا ظنّ فقهاء عصره أنّه لا يحسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات أقرأ التهذيب وأبدى فيه الغرائب، وبيّن مخالفته للمدوّنة في بعض المواضع، ووقع بينه وبين الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام شيء، وطلب عزّ الدين أن يقف على تفسيره، فلمّا وقف عليه قال: أين قول مجاهد أين قول فلان وفلان وكثر القول في هذا المعنى، ثم قال: يخرج من بلادنا إلى وطنه - يعني الشام - فلمّا بلغ كلامه الشيخ قال: هو يخرج وأقيم أنا، فكان كذلك. وله عدّة مؤلّفات في الفنون؛ وقال، رحمه الله تعالى: أقمت ملازماً لمجاهدة النفس سبعة أعوام، حتى استوى عندي من يعطيني ديناراً ومن يزدريني. وأصبح - رحمه الله تعالى - ذات يوم ولا شيء لأهله يقيمون به أودهم، وكانت أم ولده جارية تسمّى كريمة، وكانت سيّئة الخلق، فاشتدّت عليه في الطلب، وقالت له: إن الأصاغر لا شيء لهم، فقال: الآن يأتي من قبل الوكيل ما نتقوّت به، فبينما هم كذلك وإذا بالحمّال يضرب

الباب ومعه قمح، فقال لها: يا كريمة، ما أعجلك، هذا الوكيل بعث بالقمح، فقالت: ومن يصنعه فأمر فتصدّق به، ثم قال لها: يأتيك ما هو أحسن منه، فانتظرت يسيراً، وبدا لها فتكلّمت بما لا يليق، فبينما هم كذلك، وإذا بحمّال سميذ، فقال لها: هذا السميذ أيسر وأسهل من القمح، فلم يقنعها ذلك، فأمر أيضاً بصدقته، فلمّا تصدّق به زادت في المقال، وإذا برجل على رأسه طعام، فقال لها: يا كريمة، قد كفيت المؤونة، هذا الوكيل قد علم بحالك.

وتوفّي، رحمه الله تعالى، بحماة من بلاد الشام سنة سبع وثلاثين وستمائة؛ انتهى ملخّصاً من عنوان الدراية للغبريني.

١١٦ - ومنهم ولي الله العارف به الشيخ الشهير الكرامات، الكبير المقامات سيدي أبو العباس المرسي، نفعنا الله تعالى به. وهو من أكابر الأولياء، صحب سيدي الشيخ الفرد القطب الغوث الجامع سيدي أبا الحسن الشاذلي، وكان قدم من الأندلس من مرسية، وقبره بالإسكندرية مشهور، وقد زرته مراراً كثيرة. توفّي بالإسكندريّة سنة ٦٨٦هـ.

١١٧ - ومنهم أبو إسحاق الساحلي، المعروف بالطّويجن - بضم الطاء المهملة، وفتح الواو، وسكون الياء التحتيّة، وكسر الجيم، وقيل بفتحها - العالم المشهور، والصالح المشكور، والشاعر المذكور، من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، وكان أبوه أمين العطّارين بغرناطة، وكان مع أمانته من أهل العلم فقيهاً متفنّناً، وله الباع المديد في الفرائض.

وأبو إسحاق هذا كان في صغره موثّقاً بسماط شهود غرناطة، وارتحل عن الأندلس إلى المشرق، فحجّ، ثم سار إلى بلاد السودان فاستوطنها، ونال جاهاً مكيناً من سلطانها، وبها توفّي، رحمه الله تعالى، انتهى ملخّصاً من كلام الأمير ابن الأحمر في كتابه نثير الجمان، فيمن نظمني وإيّاه الزمان.

وقال أبو المكارم منديل بن آخرّوم: حدّثني من يوثق بقوله أن أبا إسحاق

الطّويجن كانت وفاته يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأخيرة سنة ٧٤٧ بتنبكتو

موضع بالصحراء من عمالة مالي، رحمه الله تعالى، ثمّ ضبط الطويجن بكسر الجيم، قال: وبذلك ضبطه بخطّ يده، رحمه الله تعالى، قال: ومن نسبه للساحلي فإنّه نسبه لجدّه للأم، انتهى.

١١٨ - ومنهم الشيخ الأديب الفاضل المعمّر ضياء الدين أبو الحسن علي ابن محمد بن يوسف بن عفيف، الخزرجي، الساعدي، من أهل غرناطة، ويشهر بالخزرجي، ومولده ببيغة، رحل عن الأندلس قديماً واستقرّ أخيراً بالإسكندريّة، وبها لقيه الحافظ ابن رشيد غير مرّة، وقد أطال في رحلته في ترجمته، إلى أن قال: وذكره صاحبنا أبو حيان، وهو أحد من أخذ عنه ولقيه، فقال: تلا القرآن بالأندلس على أبي الوليد هشام بن واقف المقرئ، وسمع بها من أبي زيد الفازازي العشرينيّات، وسمع بمكّة من شهاب الدين السّهروردي صاحب

" عوارف المعارف " وتلا بالإسكندريّة على أبي القاسم ابن عيسى، ولا يعرف له نظم في أحد من العالم إلاّ في مدح رسول الله .

١١٩ - ومنهم الفقيه الجليل، العارف النبيل، الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر، الشهير بابن سبعين، العكي، المرسي، الأندلسي، ويلقّب من الألقاب المشرقيّة بقطب الدين. قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك: درس العربية والآداب بالأندلس، ثم انتقل إلى سبتة، وانتحل التصوّف، وعكف برهة على مطالعة كتبه، والتكلّم على معانيها، فمالت إليه العامة، ثم رحل إلى المشرق، وحج حججاً، وشاع ذكره، وعظم صيته، وكثر أشياعه، وصنف أوضاعاً كثيرة تلقوها منه، ونقلوها عنه، ويرمى بأمورٍ، الله تعالى أعلم بها وبحقيقتها وكان حسن الأخلاق، صبوراً على الأذى، آية في الإيثار، انتهى.

١٢٠ - أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، الشهير بابن غصن الإشبيلي، من ولد

شداد بن أوس الأنصاري، الجزيري، نسبته إلى الجزيرة الخضراء، الإمام، المقرئ، الزاهد، عرض على الأستاذ ابن أبي الربيع الموطّأ من حفظه، وأخذ عنه النحو، وكان من أولياء الله تعالى الصالحين، وعباده الناصحين، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، قوّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، عارفاً بمتون الحديث وأحكامه، فقيهاً متقناً لمذاهب الأئمة الأربعة والصحابة والتابعين، لا يقبل من أحد شيئاً، مخلصاً لله تعالى، يتكلم على المنبر على عادة أهلا لعلم من تعليم المسائل الدينية، وأقرأ القرآن بمكة مدّة بالقراءات وبالمدينة وبيت المقدس، وممّن قرأ عليه خليل إمام المالكية بالحرم، والشهاب الطبري إمام الحنفية بالحرم، وله مصنفات في القراءات: منها " مختصر الكافي " وكتاب " في معجزات النبي " ، ومولده سنة ٦٣١ تخميناً، وتوفي ببيت المقدس آخر سنة ٧٢٣، رحمه الله تعالى.

١٢١ - ومنهم الشيخ الفقيه، الأستاذ النحوي التاريخي اللغوي أبو جعفر أحمد ابن يوسف الفهري اللّبلي يكنى أبا العباس وأبا جعفر، قرأ بالأندلس على مشايخ من أفضلهم الأستاذ أبو علي عمر الشّلوبين، ثم ارتحل إلى العدوة وسكن بجاية، وأقرأ بها مدّة، وارتحل إلى المشرق فحج، ثم رجع إلى حضرة تونس واتخذها وطناً، واشتغل بها بالإقراء إلى أن مات. كان يتبسط لإقراء سائر كتب العربية، وله علم جليل باللغة، وله تواليف كثيرة: منها على الجمل وشرح الفصيح لثعلب، ولم يشذ فيه شيء من فصيح كلام العرب.

قال الغبريني، رحمه الله تعالى: ورأيت له تأليفاً في الأذكار، وله عقيدة في علم الكلام، ورأيت له مجموعاً سمّاه الإعلام بحدود قواعد الكلام تكلم فيه على الكلم الثلاث، الاسم والفعل والحرف، وله تواليف أخر، وكان من أساتيذ إفريقية في وقته، وممّن أخذ عنه، واستفيد منه، انتهى.

وذكر الشيخ أبو الطيب ابن علوان التونسي عن والده أحمد التونسي الشهير بالمصري أن للمذكور تأليفاً سمّاه التجنيس، وله شرح أبيات الجمل، سمّاه وشي

الحلل رفعه للملك المستنصر الحفصي بتونس، فدفعه المستنصر للأستاذ أبي الحسن حازم، وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وجده، فحكى أبو عبد الله القطان المسفّر - وكان يخدم حازماً - قال: كنت يوماً بدار أبي الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب، فسمعت نقر الباب، فخرجت فإذا بالفقيه أبي جعفر، فرجعت وأخبرت أبا الحسن، فقال مبادراً حتى أدخله وبالغ في بره وإكرامه، فرأى الكتاب بين يده، فقال له: يا أبا الحسن، قال الشاعر:

شطر وعين الرضى ::: عن كلّ عيب كليلة

فقال له: يا فقيه أبا جعفر، أنت سيدي وأخي، ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه إلا قول الحق، والعلم لا يحتمل المداهنة، فقال له: فأخبرني بما عثرت عليه، قال له: نعم، فأظهر له المواضع، فسلّمها أبو جعفر وبشرها وأصلحها بخطه.

وأصل هذا اللّبلي من لبلة بالأندلس، اجتمع في رحلته للمشرق بالقاضي ابن دقيق العيد، وكان نحويّاً، فلما دخل عليه اللّبلي قال له القاضي: خير مقدمٍ، ثم سأله بعد حين: بم انتصبت خير مقدم فقال له اللبلي: على المصدر وهو من المصادر التي لا تظهر أفعالها، وقد ذكره سيبويه إلى آخره، فإنه كان يحفظ أكثره، فأكرمه القاضي وعظمه.

١٢٢ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح القرطبي، قال الحافظ المقريزي: وفرح بسكون الراء، وقال الحافظ عبد الكريم فيحقه: إنه كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة، فيما بين توجه وعبادة وتصنيف، جمع في تفسير القرآن كتاباً خمسة عشر مجلداً، وشرح أسماء الله الحسنى في مجلدين، وله كتاب التذكرة في أمور الآخرة في مجلدين، وشرح التقصي، وله تآليف غير ذلك مفيدة، وكان مطّرح التكلف، يمشي بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية، سمع من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي صاحب المفهم في شرح مسلم بعض هذا الشرح، وحدث عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي

بن حفص اليحصبي، وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري وغيرهما، وتوفي بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١، ودفن بها، رحمه الله تعالى.

١٢٣ - ومنهم أبو القاسم ابن حاضر، الجزيري، الخزرجي، محمد بن أحمد، من جزيرة شقر، قدم مصر، وسكن قوص بعدما كان من عدول بلنسية، وكان فصيحاً، عالماً بصناعة التوريق، وله نظم لم يحضرني الآن شيء منه، ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة، رحمه الله تعالى.

١٢٤ - ومنهم أبو القاسم التّجيبي، محمد بن أحمد التّجيبي، من أهل بلّش، قرأ على ابن مفرّج وابن أبي الأحوص، ورحل فاستوطن القاهرة وكان شيخاً فاضلاً خيّراً، له أدب وشعر، ولد ببلّش سنة ٦٢٣، وتوفي بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥ وممّن روى عنه نحويّ الزمان أثير الدين أبو حيّان وغيره، رحم الله تعالى الجميع.

١٢٥ - ومنهم أبو بكر الخزرجي، محمد بن أحمد بن حسن، وقيل: محمد بن عيسى المالقي المالكي، قال الشريف أبو القاسم: إنه كان أحد الزهاد الورعين، وعباد الله المتقين، مشتغلاً بنفسه، متخلياً عمّا في أيدي الناس، يأكل من كسب يده، ولا يقبل لأحد شيئاً، مع وجد وعمل وفضل وأدب، ولم يكن في زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له.

وقال الحافظ عبد الكريم: إنه دخل إشبيلية، واشتغل بالعربية على الشّلوبين وقرأ القراءات السبع، ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك، وكان والده نجاراً وكان لا يأكل إلاّ من كسب يده، يخيط الثياب، فازدحم الناس عليه تبركاً به، فترك ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه وتصدق بما فضل عنه، وكان شديد الزهد، كثير العبادة، لا يسلم يده إلى أحد ليقبّلها، وجاءه شخص قد زيد عليه في أجرة مسكنه ليشفع إلى صاحب الدار أن لا يقبل الزائد، فمضى إلى صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر، فعلم بذلك الساكن بعد مدة، فقال له: يا سيدي ما

سألت إلاّ شفاعة، وأنت تزن عني، فقال له: رجل له دار يأخذ أجرتها يجيء إليه الخزرجي يقطع عليه حقه والله ما يدفع هذا إلاّ أنا، فلم يزل يدفع الزائد إلى أن انتقل الساكن إلى غيره، ومات ليلة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥١، عن خمس وأربعين سنة، ودفن بالقرافة، رحمه الله تعالى، ونفعنا به.

١٢٦ - ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمي، مولاهم، لأن ولاءه لبني العباس من أهل قرطبة، ولد في شهر رمضان سنة ٣٢٢ بقرطبة، وسمع بها من وهب بن مسرة، وخالد بن سعيد وغيره، ورحل فحج وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق وأبا علي ابن السكن نظراءهم في سنة ٣٤٩، وعاد إلى بلده، وبها مات في شهر رمضان سنة ست وأربعمائة.

١٢٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان بن أحمد بن إبراهيم الزهري الأندلسي الإشبيلي، ولد بمالقة، وطاف الأندلس، وطلب العلم، وحصّل طرفاً صالحاً من علم الأدب، ودخل مصر قبل التسعين وخمسمائة فسمع الحديث بها، ودخل الشام وبلاد الجزيرة، وقدم بغداد سنة ٥٩٠، وعمره ثلاثون سنة، وأقام بها مدة، وسمع من شيوخها كأبي الفرج ابن كليب ونحوه، وقرأ ونسخ بخطه، وسافر إلى أصبهان وبلاد الجبل، وكان فاضلاً حسن المعرفة بالأدب، يقول الشعر، وينشئ المقامات، وصنف كتاب البيان والتبيين في أنساب المحدثين ستة أجزاء، وكتاب البيان فيما أبهم من الأسماء في القرآن مجلد، وكتاب " أقسام البلاغة وأحكام الصناعة " في مجلدين، وكتاب شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي في خمسة عشر مجلداً، وكتاب شرح المقامات مجلد، وكتاب " شرح اليميني " في مجلد، قال المنذري: توفي شهيداً قتله التتار في رجب؛ وقال ابن النجار: في سابع عشر رجب سنة ٦١٧، رحمه الله تعالى.

١٢٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم، القرطبي، المقرئ المعروف بالورشي، نسبة إلى قراءة ورش لاشتهاره بها،

وهو أحد القراء المعروفين. قال الحاكم: هو من الصالحين المذكورين بالتقدم في علم القرآن، سمع بمصر والشام والحجاز والعراقين والجبل وأصبهان، وورد نيسابور، ودخل خراسان فسمع علي بن المرزبان بأصبهان، وبالأهواز عبد الواحد ابن خلف الجنديسابوري، وبفارس أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي، وقال ابن النجار: قدم بغداد، وحدّث بها، توفي بسجستان في ربيع الأول سنة ٣٩٣.

١٢٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الباجي، اللخمي، قال ابن بشكوال: مولده في صفر سنة ٣٥٦، وسمع عن جده، ورحل إلى المشرق.

وقال ابن غلبون في مشيخته: إنه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل، قائماً بها، واقفاً عليها، قاعداً للشروط، محسناً لها، عارفاً، وبيتهم بيت علم، ونشأ فيهم هو وأبوه وجده، وكان جميعهم في الفضل والتقدم على درجاتهم في السن، وعلى منازلهم في السبق، وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة، وشاركه في السماع والرواية عن جده، وسمع بمصر على أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن حميد بن رزيق المخزومي.

وقال ابن بشكوال: كان من أجلّ الفقهاء عندنا دراية ورواية، بصيراً بالعقود، ومتقدماً على أهل الوثائق، عارفاً بعللها، وألّف فيها كتاباً حسناً، وكتاباً في السجلات إلى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخرين، مع ما كان عليه من الطريقة المثلى، وتوفية العلم حقه من الوفاء والتصون، توفي في المحرم سنة ٤٣٣ لعشرين بقين منه.

١٣٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز، العتبي، الأندلسي، القرطبي، الفقيه المالكي المشهور، صاحب العتبيّة، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما، ورحل إلى المشرق فسمع من سحنون وأصبغ بن الفرج وغيرهما، وكان حافظاً للمسائل، جامعاً لها، عالماً بالنوازل، وهو الذي جمع المستخرجة من الأسمعة المسموعة غالباً من مالك

ابن أنس، وتعرف بالعتبية، وأكثر فيها من الروايات المطوحة والمسائل الغريبة الشاذة، وكان يؤتى بالمسألة الغريبة الشاذة فإذا سمعها قال: أدخلوها في المستخرجة، ولذا روي عن ابن وضاح أنه كان يقول: المستخرجة فيها خطأ كثير، كذا قال، ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من أعلام الملكية كابن رشد وغيره. قال ابن يونس: توفي بالأندلس سنة ٢٥٥. والعتبي: نسبة إلى عتبة بن أبي سفيان ابن حرب، وقيل: إلى جد للمذكور يسمى عتبة، وقيل: إلى ولاء عتبة بن أبي يعيش.

١٣١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافري، المقرئ، الفرضي، الأديب، ولد بالأندلس سنة ٥٩١، ونشأ ببلنسية، وأقام بالإسكندرية، وقرأ القرآن على أصحاب ابن هذيل، ونظم قصيدة في القراءات على وزن الشاطبية، لكن أكثر أبياتاً، وصرح فيها بأسماء القراء، ولم يرمز كما فعل الشاطبي، وكانت له يد في الفرائض والعروض، مع معرفة القراءات والأدب.

١٣٢ - ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل، أبو عبد الله الأموي، الأندلسي، الطّليطلي، المعروف بالنقاش، نزل مصر، وقعد للإقراء بجامع عمرو ابن العاص، وأخذ عنه جماعة، وتوفي بمصر سنة ٥٢٩.

١٣٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، القبري القرطبي، المؤدب، رحل من الأندلس سنة ٣٤٢، فسمع بمصر من أبي محمد ابن الورد وأبي قتيبة مسلم بن الفضل البغدادي وغيره، وكان صالحاً خيّراً مؤدباً، سمع الناس منه كثيراً، وتوفي سنة ٣٦٢.

والقبري - بفتح القاف، وسكون الباء الموحدة، ثم راء مهملة - نسبة إلى قبرة بلدٍ بالأندلس بقرب قرطبة بنحو ثلاثين ميلاً.

١٣٤ - ومنهم جمال الدين أبو بكر الوائلي، محمد بن أحمد بن محمد ابن

عبد الله بن سجمان، الشريشي، المالكي، ولد بشريش سنة ٦٠١، ورحل فسمع بالإسكندرية من ابن عماد الحراني، وبدمشق من مكرم بن أبي الصقر، وبحلب من أبي البقاء يعيش بن علي النحوي، وسمع بإربل وبغداد، وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدة يفيد الناس فتخرّج به جماعة، وولي مشيخة المدرسة بالقدس، ومشيخة الرباط الناصري بالجبل، وأقام بدمشق يفتي ويدرّس، وكان من العلماء الزهاد كثير العبادة والورع والزهد، أحد الأئمة المبرزين المتبحرين في العربية والفقه على مذهب الإمام مالك، والتفسير، والأصول، وصنّف كتاباً في الاشتقاق، وشرح ألفية ابن معطي، وأخذ عنه الناس، وطلب للقضاء بدمشق فامتنع منه زهاداً وورعاً، وبقي المنصب لأجله شاغراً إلى أن مات برجب سنة ٦٨٥، ودفن بقاسيون.

١٣٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرّج القرطبي، المعروف والده بالقنتوري، وكان جد أبيه مفرج صاحب الركاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل، وكان أبوه أحمد بن يحيى رجلاً صالحاً، وولد هو سنة ٣١٥، وكان سكناه بقرطبة بقرب عين قنت أورية، وسمع بقرطبة من قاسم ابن أصبغ كثيراً، ومن ابن أبي دليم والخشني، ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكة من ابن الأعرابي، ولزمه حتى مات، وسمع بها من جماعة غيره، وسمع بجدة، وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، ودخل صنعاء وزبيد وعدن سمع بها من جماعة، وسمع بمصر من البرقي صاحب أحمد البزار، وسمع من السيرافي وجماعة كثيرة، وسمع بغزّة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا والرملة وصور وقيسارية والقلزم والفرما والإسكندرية، فبلغت عدة شيوخه إلى مائتين وثلاثين شيخاً، وروى عنه أبو عمر الطلمنكي وجماعة، وكتب تاريخ مصر عن مؤلفه أبي سعيد ابن يونس، وروى عنه ابن يونس وهو من أقرانه، وعاد إلى الأندلس من رحلته سنة ٣٤٥، واتصل بالحكم المستنصر، وصارت له عنده مكانة، وألّف له عدة كتب، واستقضاه على إستجة ثم على

المريّة، ومات برجب سنة ٣٤٨.

١٣٦ - ومنهم أبو عبد الله القيسي الوضاحي، محمد بن أحمد بن موسى، رحل من المغرب، وسمع من السّلفي وغيره جملة صالحة، ثم عاد إلى الأندلس بعد الحج، وسكن المرية مدة وبها مات سنة ٥٣٩، وقيل: في التي بعدها، وكان من أظرف الناس، وأحسنهم أدباً، فقيهاً، فاضلاً، ثقة، ذا فرائد جمة، عفيفاً، معتنياً بالعلم.

١٣٧ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل، العبدري، البلنسي، ولد سنة ٥١٩، وسمع من أبيه وجماعة، ورحل حاجّاً فسمع من السّلفي وابن عوف والحضرمي والتنوخي والعثماني وغيرهم، ورجع بعد الحج إلى الأندلس فحدّث، وكان غاية في الصلاح والورع وأعمال البر، وله حظ من علم العبارة، ومشاركة في اللغة، وكتب بخطه على ضعفه كثيراً، رحمه الله تعالى.

١٣٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نوح الإشبيلي، ومولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة بإشبيلية، وجال في بلاد المغرب والمشرق، وقرأ على الشيوخ الفضلاء، وحصّل كثيراً في علم القرآن والأدب، وله نظم ونثر، وكان كثير التلاوة للقرآن، جيد الأداء له، وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩، رحمه الله تعالى.

١٣٩ - ومنهم محمد بن أسباط، المخزومي القرطبي، روى عن يحيى ابن يحيى، وقدم مصر فسمع من الحارث بن مسكين، وكان حافظاً للفقه، عالماً، توفي سنة ٢٧٩.

١٤٠ - ومنهم أبو بكر محمد بن إسحاق، الشهير بابن السليم، قاضي الجماعة بقرطبة مولده سنة ٣٠٦، روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته، ورحل سنة ٣٣٢، فسمع بمكة من ابن الأعرابي، وبمصر من الزبيريّ وابن النحاس وغيرهما، وعاد إلى الأندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم، وحدث، فسمع

منه الناس، وكان حافظاً للفقه، بصيراً بالاختلاف، حسن الخط والبلاغة متواضعاً، وتوفي بجمادى الأولى سنة ٣٦٧.

وسليم بفتح السين مكبراً.

١٤١ - ومنهم موسى بن بهيج المغربي الأندلسي الواعظ الفقيه العالم، من أهل المرية، نزل مصر، يكنى أبا عمران، كان من أهل العلم والأدب، وله في الزهد وغيره أشعار حملت عنه، وحدث المرشاني عنه بمخمّسة في الحج وأعماله كلها، ولقيه بمصر وقرأها عليه.

١٤٢ - ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة، مولى سعيد بن نصر، من أهل مرسية، سمع صهره أبا علي ابن سكرة الصّدفي، وكانت بنته عند أبي علي، ولازمه وأكثر عنه، وروى عن أبي محمد ابن مفوّز الشاطبي وأبي الحسن ابن شفيع، قرأ عليهما الموطأ، ورحل، وحج، وسمع السنن من الطرطوشي، وعني بالرواية، وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه، وسمعهما على صهره أبي علي، وكانا أصلين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما، حكى الفقيه أبو محمد عاشر ابن محمد أنهما سمعا على أبي علي نحو ستين مرة، وكتب أيضاً الغريبين للهروي، وغير ذلك، وكان أحد الأفاضل الصّلحاء، والأجواد السّمحاء، يؤم الناس في صلاة الفريضة، وتولى القيام بمؤن صهره أبي علي وبما يحتاج إليه من دقيق الأشياء وجليلها، وإليه أوصى عند توجّهه إلى غزوة كتندة التي فقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكانت له مشاركة في علم اللغة والأدب، وقد حدث عنه ابن أخيه القاضي أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة بكتاب أدب الكتّاب لابن قتيبة، وبالفصيح لثعلب.

١٤٣ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن طاهر، الأزدي، من أهل وادي آش، له رحلة إلى المشرق أدى فيها الفريضة، وسمع بدمشق من أي طاهر الخشوعي مقامات الحريري وابن عساكر وغيرهما، ثم قفل إلى بلده، انتهى ملخصاً من ابن الأبار.

١٤٤ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد الله ابن مالك، صاحب التسهيل والألفية، وهو: جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله ابن مالك الإمام العلامة الأوحد الطائي الجياني المالكي حين كان بالمغرب، الشافعي حين انتقل إلى المشرق، النحوي، نزيل دمشق.

ولد سنة ستمائة أبو في التي بعدها، وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن صبّاح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم، وأخذ العربية عن غير واحد، فممن أخذ عنه بجيّان أبو المظفر، وقيل: أبو الحسن، ثابت بن خيار، عرف بابن الطيلسان، وأبي رزين ابن ثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعي من أهل لبلة، وأخذ القراءات عن أبي العباس أحمد بن نوّار، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبد الله ابن مالك المرشاني، وجالس يعيش وتلميذه ابن عمرون وغيره بحلب، وتصدّر بها لإقراء العربية، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدمين، وكان إماماً في القراءات، وعالماً بها، وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها.

١٤٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القيسي، التّدميري ويعرف بالشهيد كان عظيم القدر جدّاً بالأندلس، بعيد الأثر في الخير والإصلاح والعلم والنسك والانقطاع إلى الله تعالى، وكان من وجوه أهل كورة تدمير ذوي البيوت الرفيعة، وبرع بخصاله المحمودة، فكان في نفسه فقيهاً، عالماً، زاهداً، خيّراً، ناسكاً، متبتلاً، نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدّعة، طلب العلم في حدثان سنّه، ورحل إلى قرطبة فروى الحديث وتفقّه وناظر، وأخذ بحظٍّ وافر من علم المسألة والجواب، وكان أكثر علمه وعمله الورع، والتشدد فيه، والتحفظ بدينه ومكسبه، ورسخ في علم السنّة، ثم ارتحل إلى المشرق، فمر بمصر حاجّاً، فأقام بالحرمين ثماينة أعوام يتعيش فيها من عمل يده بالنسخ، ثم سار إلى العراق، فلقي أبا بكر الأبهري وأخذ عنه، وأكثر من لقاء الصالحين

وأهل العلم، ولبس الصوف، وقنع، وتورع جدّاً، وأعرض عن الشهوات، وكان إذا سئم من النسخ الذي جعل قوته منه آجر نفسه في الخدمة رياضةً لها، فأصبح عابداً متقشفاً منيباً مخبتاً عالماً عاملاً منقطع القرين، قد جرت منه دعوات مجابة، وحفظت له كرامات ظاهرة، ثم عاد إلى بلده تدمير سنة ست أو سبع وسبعين وثلاثمائة، وبها أبوه أبو الحسام طاهر حيّاً، فنزل خارج مدينة مرسية تورّعاً عن سكناها وعن الصلاة في جامعها، فاتخذ له بيتاً سقفه من حطب السّدر يأوي إليه، واعتمر جنينة بيده يقتات منها، وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبي عامر، ثم تحول من قريته بعد عامين إلى الثغر، وواصل الرّباط، ونزل مدينة طلبيرة، وكان يدخل منها في السرايا في بلد العدو فيغزو ويتقوت من سهمانه، ويعوّل على فرس له ارتبطه لذلك، وكان له بأس وشدة وشجاعة وثقافة، يحدّث عنه فيها بحكايات عجيبة، إلى أن استشهد مقبلاً غير مدبر، سنة ٣٧٩، أو في التي قبلها، عن اثنتين وأربعين سنة، وأبوه حي، رحم الله تعالى الجميع.

١٤٦ - ومنهم أبو عبد الله القيجاطي محمد بن عبد الجليل بن عبد الله بن جهور، مولده سنة ٥٩٠ بقيجاطة، وكتب عنه الحافظ المنذري.

١٤٧ - ومنهم أبو عبد الله - ويقال: أبو حامد - محمد بن عبد الرحيم، المازنيّ، القيسي، الغرناطي، ولد سنة ٤٧٣، ودخل الإسكندرية سنة ٥٠٨، وسمع بها من أبي عبد الله الرازي، وبمصر من أبي صادق مرشد بن يحيى المديني وأبي الحسن الفراء الموصلي وأبي عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوي وغيرهم، وحدث بدمشق، وسمع أيضاً بها وببغداد، وقدمها سنة ٥٥٦، ودخل خراسان، وأقام بها مدة، ثم رجع إلى الشام، وأقام بحلب سنين، وسكن دمشق، وكان يذكر أنه رأى عجائب في بلاد شتى، ونسبه بعض الناس بسبب ذلك إلى ما لا يليق، وصنّف في ذلك كتاباً سماه تحفة الألباب وكان حافظاً عالماً أديباً، وتكلم فيه الحافظ ابن عساكر، وزنّه بالكذب، وقال ابن النجار: ما علمته

إلاَّ أميناً. توفي بدمشق في صفر سنة ٥٦٥.

١٤٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام، القرطبي، من ذرية أبي ثعلبة الخشني صاحب رسول الله، ، رحل قبل الأربعين ومائتين، فحج، وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبي موسى الزّمن ونصر ابن علي الجهضمي، ولقي أبا حاتم السجستاني والعباس بن العرج الرياشي، وسمع ببغداد من أبي عبيد القاسم ابن سلام، وبمكة من محمد بن يحيى العدني، وبمصر من سلمة بن شبيب صاحب عبدالرزّاق والبرقي وغيرهما، وأدخل الأندلس علماً كثيراً من الحديث واللغة والشعر، وكان فصيحاً جزل المنطق، صارماً، أنوفاً، منقبضاً عن السلطان، أراده على القضاء فأبى، وقال: إباية إشفاق لا إباية عصيان، فأعفاه، وكان ثقة مأموناً، وتوفي في رمضان سنة ٢٨٦ عن ثمان وستين سنة، رحمه الله تعالى.

١٤٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج، القرطبي، سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه، وأخذ عن محمد الخشني وقاسم بن أصبغ وإبراهيم بن قاسم بن هلال، ورحل سنة ٢٧٤، فسمع بمصر من المطلب بن شعيب والمقدام بن داود الرّعيني، وأدرك بالعراق إسماعيل القاضي وعبد الله ابن أحمد بن حنبل. وتوفي في ذي القعدة سنة ٣٣٠، بقرطبة، رحمه الله تعالى.

١٥٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمي، الرصافي، القرطبي، الحداد، سمع بقرطبة من عبد الله بن يونس وقاسم بن أصبغ، وحج سنة ٣٣٩ سنة ردّ القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه، وسمع بمكة من ابن الأعرابي، وبمصر من ابن الورد وأبي علي ابن السكن وعبد الكريم النسائي وغيرهم وسمع بأطرابلس والقيروان من جماعة، وكان رجلاً صالحاً، عدلاً، حدث وكتب عنه الناس، وعلت سنه، وتوفي بشوال سنة ٣٩٤، وولد فيما أظن سنة ٣٠٢، وكانت وفاته بقرطبة، وقد اضطرب في أشياء قرئت عليه، وممّن أخذ عنه الحافظ أبو عمران ابن عبد البر، رحم الله تعالى الجميع.

١٥١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك، الخزرجي، السعدي، القرطبي أبو عبد الله

روى عن أبي الحسن علي بن هشام، وروى عنه أبو القاسم ابن بشكوال، وقدم مصر وحدث بها، وممّن سمع منه بها ابن وردان وأبو الرضى القيسراني في آخرين، واستوطن مصر، وتوفي سنة ٥٨٨.

١٥٢ - ومنهم أبو بكر ابن السرّاج، النحوي - بتشديد الراء - وهو محمد بن عبد الملك بن محمد ين السدّرّاج الشّنتمري، أحد أئمة العربية المبرزين فيها، ويكفيه فخراً أنه أستاذ أبي محمد عبد الله بن بري المصري اللغوي النحوي، وحدث عن أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد النفطي، وقرأ العربية بالأندلس على ابن أبي العافية وابن الأخضر، وقدم مصر سنة ٥١٥، وأقام بها وأقرأ الناس العربية، ثم انتقل إلى اليمن، وروى عنه أبو حفص عمر بن إسماعيل وأبو الحسن علي والد الرشيد العطار، وله تواليف منها " تنبيه الألباب في فضل الإعراب " وكتاب في العروض، وكتاب مختصر العمدة لابن رشيق وتنبيه أغلاطه. قال السلفي: كان من أهل الفضل الوافر، والصلاح الظاهر، وكانت له حلقة في جامع مصر لإقراء النحو، وكثيراً ما كان يحضر عندي - رحمه الله تعالى - مدة مقامي بالفسطاط، توفي بمصر سنة ٥٤٩، وقيل: سنة خمس وأربعين، وقيل: خمسين وخمسمائة، برمضان، والأول أثبت.

١٥٣ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن سعيد العنسي، ويكنى أيضاً أبا القاسم، الغرناطي، سمع من الجلّة بمصر والإسكندرية ودمشق وبغداد: منهم الحراني أبو عبد الله وأبو محمد عبد الصمد ابن داود بدمشق، وكتب الحديث وعني بالرواية أتم عناية، وفقد بأصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين وستمائة.

١٥٤ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الدفاع، بالدال المهملة، وقيل: بالراء، قرطبي سمع عبد الملك بن حبيب، ورحل فسمع بمصر من

الحارث ابن مسكين وغيره، وكان زاهداً فاضلاً، وتوفي سنة ٢٨١، رحمه الله تعالى.

١٥٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عابد، المعافري القرطبي، ولد بقرطبة سنة ٣٥٨، ودخل مصر فسمع من أبي بكر ابن المهندس وأبي بكر البصري، وروى عن أبي عبد الله ابن مفرج وأبي محمد الأصيلي وجماعة، ولقي الشيخ أبا محمد ابن أبي زيد في رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته في الفقه وغيرها، وحج من عامه، ثم عاد من مصر إلى المغرب سنة ٣٨٢، وكان معتنياً بالأخبار والآثار، ثقة فيما رواه، وعني به، خيّراً، فاضلاً، ديّناً، متواضعاً، متصاوناً، مقبلاً على ما يعنيه، صاحب حظ من الفقه، وبصر بالمسائل، ودعي إلى الشورى بقرطبة فأبى، ومات سنة ٤٣٩. وعابد جده بالباء الوحدة، رحم الله تعالى الجميع.

١٥٦ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجد الأنصاري البلنسي، أخذ القراءات عن جماعة من أهل بلده، وخرج حاجّاً سنة ٥٧١، فجاور بمكة، وسمع بها وبالإسكندرية من السّلفي، وعاد إلى بلده سنة ٥٩٦، وحدث وكان من أهل الصلاح والفضل والورع، كثير البر، ومفاداة الأسرى، ويحترف بالتجارة، ومولده بعد سنة ٥٣٠، ومات سنة ٥٩٨ بمرسية، رحمه الله تعالى.

١٥٧ - ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله ابن محمد بن خيرة القرطبي، المالكي، الحافظ، ولد سنة ٤٧٩، وأخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد ابن رشد، والحديث عن ابن عتاب، وروى الموطأ عن أبي بحر سفيان بن العاص بن سفيان، وأخذ الأدب عن أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الأموي، وعن مالك ابن عبد الله العتبي، وخرج من قرطبة في الفتنة بعد أن درّس بها وانتفع الناس به في فروع الفقه وأصوله، وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، ثم

سافر إلى المصر بعدما روى عنه السّلفي، وأقام بها مدة، ثم قال: والله ما مصر والإسكندرية بمتباعدتين، ثم سافر إلى الصعيد، وحدث في قوص بالموطأ، ثم قال: والله يصلون إلى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد، فمضى إلى مكة، وأقام بها، ثم قال: وتصل إلى هذه البلاد ولا تحج ما أنا إلاّ هربت منه إليه ثم دخل اليمن، فلما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن، فتوجه إلى الهند، فأدركته وفاه بها سنة ٥٥١، وقيل: بل مات بزبيد من مدن اليمن، وكان من جلّة العلماء متقناً متفنناً في المعارف كلها جامعاً لها، كثير الرواية، واسع المعرفة، حافل الأدب، من كبار فقهاء المالكية يتصرف في علوم شتى حافظاً للآداب، عارفاً بشعراء الأندلس، وكان علمه أوفر من منطقه، ولم يرزق فصاحة ولا حسن إيراد والله أعلم.

١٥٨ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل، السلمي، المرسي، قال ابن النجار: ولد بمرسية سنة ٥٧٠، وقال غيره: في التي قبلها، وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧، ودخل مصر، وسار إلى الحجاز، ودخل مع قافلة الحجاج إلى بغداد، وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصلين بالنّظامية، ثم سافر إلى خراسان، وسمع بنيسابور وهراة ومرو، وعاد إلى بلاد بغداد، وحدث بكتاب السنن الكبير للبيهقي عن منصور ابن عبد المنعم الفراوي، وبكتاب غريب الحديث للخطابي، وقدم إلى مصر فحدث بالكثير عن جماعة منهم أم المؤيد زينب وأبو الحسن المؤيد الطوسي، وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الزّعقة والعريش من منازل الرمل في ربيع الأول سنة ٦٥٥، ودفن بتل الزعقة، وكان من الأئمة الفضلاء في جميع فنون العلم من علوم القرآن والحديث والفقه والخلاف والأصلين والنحو واللغة، وله فهم ثاقب، وتدقيق في المعاني، مع النظم والنثر المليح، وكان زاهداً، متورعاً، حسن الطريقة، متديّناً، كثير العبادة، فقيهاً، مجرداً، متعففاً، نزه النفس، قليل المخالطة لأوقاته، طيب الأخلاق، متودداً، كريم النفس، قال ابن النجار: ما

رأيت في فنه مثله، وكان شافعي المذهب، وله كتاب تفسير القرآن سماه ري الظمآن كبير جدّاً، وكتاب " الضوابط الكلية " في النحو، وتعليق على الموطأ، وكان مكثراً شيوخاً وسماعاً، وحدث بالكثير بمصر والشام والعراق والحجاز، وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها بحيث إنه لا يستصحب كتباً في سفره اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه، وكان كريماً، قال أبو حيان: أخبرني الشرف الجزائري بتونس أنه كان على رحلة، وكان ضعيفاً، فقال له: خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط، فرفعت ذلك، فوجدت تحته نحواً من أربعين ديناراً ذهباً، فأخذتها.

١٥٩ - ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله البنتي، الأندلسي، الأنصاري، قدم مصر، وأقام بالقرافة مدة، وكان شيخاً صالحاً زاهداً فاضلاً، وتوجه إلى الشام فهلك، قال الرشيد العطار: كان من فضلاء الأندلسيين ونبهائهم، ساح في الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة، وكان يتكلم بألسنة شتى.

١٦٠ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله، الخولاني، الباجي، ثم الإشبيلي، المعروف بابن القوق سمع بقرطبة من جماعة، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٦، فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز وغيره، وبمصر من محمد بن عبد الحكم ومن أخيه سعد، وكان فقيهاً في الرأي، حافظاً له، عاقداً للشروط، قال ابن الفرضي: كان رجلاً صالحاً ورعاً ثقة، وكان خالد بن سعيد قد رحل إليه وسمع منه، وكان يقول إذا حدّث عنه: كان من معادن الصدق، توفي سنة ٣٠٨.

١٦١ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللوشي، الطبيب، اشتغل بالطب، وبرع فيه، وأقام بمصر مدّة، وبها مات في عشر الستين وستمائة.

١٦٢ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبدون، العذري، القرطبي، رحل سنة ٣٣٧، فدخل مصر والبصرة، وعني بعلم الطب، ودبر مارستان مصر، ثم رجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠، واتصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد، وله في

التكسير كتاب حسن.

١٦٣ - ومن الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد بن مروان بن زهر، الإيادي، الأندلسي، صاحب البيت الشهير بالأندلس، رحل المذكور إلى المشرق، وتطبب به زماناً، وتولى رئاسة الطب ببغداد، ثم بمصر، ثم القيروان، ثمّ استوطن مدينة دانية، وطار ذكره فيها إلى أقطار الأندلس والمغرب، واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى بزّ أهل زمانه، ومات في مدينة دانية، رحمه الله تعالى.

ووالده محمد بن مروان كان عالماً بالرأي، حافظاً للأدب، فقيهاً حاذقاً بالفتوى متقدّماً فيها، متقناً للعلوم، فاضلاً، جامعاً للدراية والرواية، وتوفّي بطلبيرة سنة ٤٢٢، وهو ابن ست وثمانين سنة، حدث عنه جماعة من علماء الأندلس، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل، رحمه الله تعالى.

وأمّ أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دحية فيه: إنّه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه، وتوفّي ممتحناً من نغلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة، انتهى.

وكانت بينه وبين الفتح صاحب القلائد عداوة، ولذلك كتب في شأنه إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ما صورته: أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجلّ سامعاً للنّداء، دافعاً للتطاول والاعتداء، لم ينظم الله تعالى بلبّتك الملك عقداً، وجعل لك حلاًّ للأمور وعقداً، وأوطأ لك عقباً، وأصار من الناس لعونك منتظراً ومرتقباً، إلا أن تكون للبرية حائطاً، وللعدل فيهم باسطاً، حتى لا يكون فيهم من يضام، ولا ينال أحدهم اهتضام، ولتقصر يد كل معتدٍ في الظلام، وهذا ابن زهر الذي أجررته رسنا، وأوضحت له إلى الاستطالة سننا، لم يتعد من الإضرار إلا حيث انتهيته، ولا تمادى على غيّه إلاّ حين لم تنهه أو نهيته، ولمّا علم أنّك لا تنكر عليه نكراً، ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله مكراً، جرى في ميدان الأذيّة ملء عنانه، وسرى إلى ما شاء بعدوانه، ولم يراقب الذي

خلقه، وأمدّ في الحظوة عندك طلقه، وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى، لأنّه مكّنك لئلاّ يتمكّن الجور، ولتسكن بك الفلاة والغور، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق، وأخفق به كلّ فريق، وقد علمت أن خالقك الباطش الغيور، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تخفى عليه نجواك، ولا يستتر عنه تقلّبك ومثواك، وستقف بين يدي عدل حاكم، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم، قد علم كل قضيّة قضاها، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، فبم تحتجّ معي لديه، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه أترى ابن زهر ينجيك في ذلك المقام، أوي حميك من الانتقام وقد أوضحت لك المحجّة، لتقوم عليك الحجّة، والله سبحانه النصير، وهو بكل خلق بصير لا ربّ غيره، والسلام، انتهى.

١٦٤ - ومنهم أبو الحجاج الساحلي، يوسف بن إبراهيم بن محمد بن قاسم ابن علي، الفهري، الغرناطي، قال في الإحاطة: صدر من صدور حملة القرآن على وتيرة الفضلاء وسنن الصالحين، حج ولقي الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير وطبقته، ومولد أبي الحجاج المذكور سنة ٦٦٢، وتوفّي سنة ٧٠٢، رحمه الله تعالى، انتهى باختصار.

١٦٥ - وممن ارتحل من الأندلس إلى المشرق يحيى بن الحكم البكري الجياني الملقب بالغزال لجماله، وهو في المائة الثالثة، من بني بكر بن وائل.

قال ابن حيان في " المقتبس ": كان الغزال حكيم الأندلس، وشاعرها، وعرّافها، عمّر أربعاً وتسعين سنة، ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالأندلس: أولهم عبد الرحمن بن معاوية، وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم.

١٦٦ - ومنهم الشهير بالمغارب والمشارق، المحلّي بجواهره صدور المهارق، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي، متمم كتاب المغرب في أخبار المغرب قال فيه: وأنا أعتذر في إيراد ترجمتي هنا بما اعتذر به ابن الإمام في كتاب سمط الجمان وبما اعتذر به الحجاري في كتاب المسهب وابن

القطّاع في الدرة الخطيرة وغيرهم من العلماء.

* * *

ذكر المستنصر الحفصي

وكان السلطان المستنصر المذكور في بعض متصيداته، فكتب لأبي عبد الله الرئيس المذكور يأمره بإحضار الأجناد لأخذ أرزاقهم بقوله:

ليحضر كلّ ليثٍ ذي منال ::: زكا فرعاً لإسداء النّوال
غداً يوم الخميس فما شغلنا ::: بأسد الوحش عن أسد الرجال

وحكي أن السلطان المذكور عرض مرة أجناده، وقيل: بل سلّم عليه الموحدون يوم عيد بتونس، وفيهم شاب مليح وسيم اسم جده النعمان، فسأله السلطان عن اسمه، وأعجبه حسنه، فخجل واحمر وجهه، وازداد حسناً، فقال السلطان هذا المصراع:

كلّمته فكلمت صفحة خدّه

وسأل من الحاضرين الإجازة فلم يأتوا بشيء، فقال السلطان مجيزاً شطره:

فتفتّحت فيها شقائق جدّه

وهذا من البدائع مع ما فيه من التورية والتجنيس.

وممّا نسبه له أبو حيان بسنده إليه:

ما لي عليك سوى الدّموع معين ::: إن كنت تغدر في الهوى وتخون
من منجدي غير الدموع وإنّها ::: لمغيثةٌ مهما استغاث حزين
الله يعلم أن ما حمّلتني ::: صعبٌ ولكن في رضاك يهون

وكان للسلطان المذكور سعد يضرب به المثل، حتى إنّه كتب له صاحب مكّة البيعة من إنشاء ابن سبعين المتصوف، كما ذكر ذلك ابن خلدون في تاريخه الكبير، وسرد نصّها، وهي من الغرائب.

ومن سعده أن الفرنسيس الذي كان أسر بمصر وجعل في دار ابن لقمان

والطواشي صبيح يحرسه لما سرّح جاء من أمم النصرانية لبلاد المسلمين بما لم يجتمع قط مثله، حتى قيل: إنّهم كانوا ألف ألف، فكتب إليه أهل مصر من نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التي منها:

قل للفرنسيس إذا جئته ::: مقالةً من ذي لسانٍ فصيح

إلى أن قال:

دار ابن لقمان على حالها ::: ومصر مصرٌ والطواشي صبيح

والقصيدة مشهورة فلذلك لم أسردها، فصرف الفرنسيس جيوشه إلى تونس، فكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر:

أفرنسيس، تونسٌ أخت مصر ::: فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبرٌ ::: وطواشيك منكرٌ ونكير

فقضى الله سبحانه وتعالى أنّه مات في حركته لتونس، وغنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قط، ويقال: إنّه دس إليه سيفاً مسموماً من سلّه أثر فيه سمّه، وقلده رسولاً إليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره، وقال للرسول: إن الفرنسيس رجل كثير الطمع، ولولا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره، وإنّه سيرى السيف، ويكثر النظر إليه، فإذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقبّله، وقل له: هذا هدية مني إليك، لأن من آدابنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعاود النظر إليه بالقصد فلا بد أن يكون له، ويحرم علينا أن نمسكه، لأن ما أحبه المولى على العبيد حرام، وتكراره النظر إليه دليل على حبّه له، ففرح النصراني بذلك، وأسرع الرسول العود إلى سلطانه، فسلّ النصرانيّ السيف، فتمكّن فيه السم بالنظر، فمات في الحين، وفرّج الله تعالى عن المسلمين.

رجع إلى أخبار أبي الحسن علي بن سعيد:

قال ابن العديم في تاريخ حلب: أنشدني شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي بالقاهرة في أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي

يشير إلى كتاب أبي الحسن الذي جمعه من محاسن المغرب وسمّاه " المغرب ":

سعد الغرب وازدهى الشرق عجباً ::: وابتهاجاً بمغرب ابن سعيد
طلعت شمسه من الغرب تجلى ::: فأقامت قيامة التّقييد
لم يدع للمؤرخين مقالاً ::: لا ولا للرّواة بيت نشيد
إن تلاه على الحمام تغنّت ::: ما على ذا في حسنه من مزيد

وأنشدني أبو العباس التيفاشي لنفسه فيه:

يا طيّب الأصل والفرع الزكيّ كما ::: يبدو جنى ثمرٍ من أطيب الشّجر
ومن خلائقه مثل النّسيم إذا ::: يهفو على الزّهر حول النهر في السّحر
ومن محيّاه والله الشّهيد إذا ::: يبدو إلى بصري أبهى من القمر
أثقلت ظهري ببرٍّ لا أقوم به ::: لو كنت أتلوه قرآناً مع السّور
أهديت لي الغرب مجموعاً بعالمه ::: في قاب قوسين بين السمع والبصر
كأنني الآن قد شاهدت أجمعه ::: بكلّ من فيه من بدوٍ ومن حضر
نعم ولاقيت أهل الفضل كلّهم ::: في مدّتي هذه والأعصر الأخر
إن كنت لم أرهم في الصدر من عمري ::: فقد رددت عليّ الصدر من عمري
وكنت لي واحداً فيهم جميعهم ::: ما يعجز الله جمع الخلق في بشر
جزيت أفضل ما يجزى به بشرٌ ::: مفيد عمرٍ جديد الفضل مبتكر

ومن نظم أبي الحسن ابن سعيد قوله:

وعشيّةٍ بلغت بنا أيدي النّوى ::: منها محاسن جامعاتٍ للنّخب
فحدائق ما بينهنّ جداولٌ ::: وبلابلٌ فوق الغصون لها طرب
والنّخل أمثال العرائس لبسها ::: خزٌّ وحليتها قلائد من ذهب

١٦٧ - ومن الوافدين من الأندلس إلى المشرق الأديب الحسيب عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك بن سعيد، وكان صعب الخلق، شديد الأنفة، جرى بينه وبين أقاربه ما أوجب خروجه إلى أقصى المشرق، وفي ذلك يقول، وكتب به إليهم:

من لصبّ يرعى النجوم صبابه ::: ضيّع السير في الهموم شبابه

زدت بعـــداً فـــزدت فيـــه اقترابـــاً ::: بـــودادي كـــذاك حكـــم القرابـــه
منـــــزلي الآن سمرقنـــــد وبالقلـــــــ ::: ــة ربـــعٌ وطئـــت طفـــلاً ترابـــه
شـــدّ مـــا أبعـــد الفـــراق انتزاحـــي ::: هكذا الليـــث لـــيس يـــدري اغترابـــه
لا ولا أرتجـــــي الإيـــــاب لأمـــــرٍ ::: إن يكـــن يرتجـــي غريـــبٌ إيابـــه

وكتب لهم من بخارى:

إذا هبّـــت ريـــاح الغـــرب طـــارت ::: إليهـــا مهجـــتي نحـــو التّلاقـــي
وأحســـب مـــن تركـــت بـــه يلاقـــي ::: إذا هبّـــت صـــباها مـــا ألاقـــي
فيـــا ليـــت التفـــرق كـــان عـــدلاً ::: فحمّـــل مـــا يطيـــق مـــن اشـــتياقي
وليـــت العمـــر لم يـــبرح وصـــالاً ::: ولم يخـــتم علينـــا بـــالفراق

إذا كان الشوق فوق كل صفة، فكيف تعبّر عن الشفة، لكن العنوان دلالة على بعض ما في الصحيفة، والحاجب قد ينوب في بعض الأمور مناب الخليفة، وما ظنكم بمشوق طريح، في يد الأشواق طليح، يقطع مسافات الآفاق يتقلّب تقلّب الأفياء، ويتلّون الحرباء، حتى كأنّه يخبّر مساحات الأرض، ذات الطول والعرض، ويجوب أهوية الأقاليم السبع، خارجاً بما أدخله فيه اللّجاج عن الشرع، فكان خليفة الإسكندر، لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكري قائمة مقام الجيش والعسكر؛ جزت إلى برّ العدوة من الغرب الأقصى، فطمحت نفسي إلى مشاهدة الغرب الأوسط فلاقيت فيما بينهما من المسافة من المشاق ما لا يحصر، ثم تشوقت إلى إفريقية درب بلاد الشرق، فاستشعرت من هنالك ما بينها وبين بلادي من الفرق، واختطفت من عيني تلك الطلاوة، وانتزعت من قلبي تلك الحلاوة:

فللّـــه عـــينٌ لم تـــر العـــين مثلـــها ::: ولا تلتقـــي إلاّ بجنّـــات رضـــوان

ثم نازعتني النفس التواقة إلى الديار المصرية، فكابدت في البحر ما لا يفي بوصفه إلا المشافهة إلى أن أبصرت منار الإسكندرية، فيا لك من استئناف عمر جديد، بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول والتنكيد، ثمّ صعدت إلى القاهرة قاعدة الديار المصرية، لمعاينة الهرمين وما فيهما من المعالم الأزلية، وعاينت

القاهرة المعزّية، وما فيها من الهمم الملوكية، غير أنّي أذكرت مبانيها الواهية، على ما حوت من أولي الهمم العالية، وكونها حاضرة العسكر الجرّار، وكرسيّ الملك العظيم المقدار، وقلت: أصداف فيها جواهر، وشوك محدق بأزاهر، ثم ركبت النيل وعاينت تماسيحه، وجزت بحر جدة وذقت تباريحه، وقضيت الحج والزيارة، وملت إلى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أمّارة، فهنالك بعت الزيارة بالأوزار، وآلت تلك التجارة إلى ما حكمت به الأقدار، إذ هي كما قال أحد من عاينها:

أمّا دمشق فجنّات معجّلة ::: للطالبين بها الولدان والحور

فللّه ما تضمن داخلها من الحور والولدان، وما زيّن به خارجها من الأنهار والجنان، وبالجملة فإنّها حمى تتقاصر عن إدراكها أعناق الفصاحة، وتقصر عن مناولتها في ميدان الأوصاف كل راحة، ولم أزل أسمع عن حلب، أنّها دار الكرم والأدب، فأدرت أن يحظى بصري بما حظي به سمعي، ورحلت إليها وأقمت جابراً بالمذاكرة والمطايبة صدعي، ثم رحلت إلى الموصل فألفيت مدينة عليها رونق الأندلس، وفيها لطافة وفي مباينها طلاوة ترتاح لها الأنفس، ثم دخلت إلى مقر الخلافة بغداد، فعاينت من العظم والضخامة ما لا يفي به الكتب ولو ان البحر مداد، ثم تغلغلت في بلاد العجم بلداً بلداً، غير مقتنع بغاية ولا قاصد أمداً، إلى أن حللت ببخارى قبة الإسلام، ومجمع الأنام، فألقيت بها عصا التسيار، وعكفت على طلب العلم واصلاً في اجتهاده سواد الليل وبياض النّهار، انتهى.

وكتب إليهم أيضاً من هذه الرسالة: كتبت وقد حصلتني السعادة، وحظ الأمل والإرادة، بحضرة بخارى قبة الإسلام.

وأجابه أهله من الغرب بكلام من جمله: وإن كنت قد تحصنت بقبة الإسلام، فقد تعجلت لنا ولك الفقد قبل وقت الحمام. وأتبعوا ذلك بما دعاه لأن خاطبهم بشعر منه:

عتبتم على حثّي المطيّ وقلتم ::: تعجّلت فقداً قبل وقت حمام
إذا لم يكن حالي مهمّاً لديكم ::: سواء عليكم رحلتي ومقامي

وقتل المذكور ببخارى، حين دخلها التتر، وهو عمّ علي بن سعيد الشهير.

وكان لعبد الرحمن المذكور أخٌ يسمى يحيى قد عنى الجنديّة، فلمّا بلغه أن أبا القاسم عبد الرحمن قتل ببخارى قال: لا إله إلاّ الله، كان أبداً يسفّه رأيي في الجنديّة، ويقول: لو اتبعت طريق النجاة كما صنعت أنا لكان خيراً لك، فها هو ربّ قلمٍ قد قتل شرّ قتلة بحيث لا ينتصر وسلب سلاحه، وأنا ما زلت أغازي في عبّاد الصليب وأخلص، فما يقدر أحد يحسن لنفسه عاقبة، انتهى.

١٧٠ - ومنهم حميد الزاهد، وهو الأديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد ابن أبي محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله، الأنصاري، القرطبي، نزيل مالقة. قال الرضي الشاطبي المذكور قريباً: أنشدني حميدٌ بالقاهرة لأبيه أبي محمد وقد تأخّر شيبه مع علوّ سنّه:

وهل نافعي أن أخطأ الشّيب مفرقي ::: وقد شاب أترابي وشاب لداتي
إذا كان خطّ الشيب يوجد عينه ::: بتربي فمعناه يقوم بذاتي

واللّدات: من ولد معه في زمان واحد، انتهى.

وتوفّي حميد الزاهد هذا بمصر، قبيل الظهر من يوم الثلاثاء، وصلّي عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور، ودفن بسفح المقطّم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبي بكر محمد الخزرجي الذي يدق الرصاص، حذاء رجليه، في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وستمائة، ومولده سنة ست وستمائة، انتهى.

١٧١ - ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي من أهل بلنسية وأصله من جيّان، وسكن المريّة ثم مالقة، يكنى أبا يحيى، كتب لبعض الأمراء بشرقي الأندلس، وله تأليف سمّاه المعرب في أخبار محاسن أهل المغرب، جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب بالديار

المصرية بعد أن رحل إليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة، وبها توفّي يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

١٧٢ - ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن علي بن محمد التجيبي، يكنى أبا عبد الله، من أهل إشبيلية، تجول في بلاد الأندلس طالباً للعلم، ثمّ حج، ولقي الحافظ السّلفي وغيره، واستوطن تلمسان، وبها توفّي في جمادى الأولى سنة عشر وستمائة، وله تواليف كثيرة.

١٧٣ - ومنهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك، اللّخمي، الباجي، من أهل إشبيلية، ولي القضاء بها وأصله من باجة إفريقية، دخل المشرق لأداء الفريضة فحج، وتوفّي بمصر بعدما دخل الشام، في اليوم الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وستمائة، ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة، وكانت رحلته من المغرب أول يوم من المحرم عام أربعة وثلاثين وستمائة.

١٧٤ - ومنهم وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمري من أهل سرقسطة، يكنى أبا العباس، له كتاب سمّاه " الوجازة في صحة القول بالإجازة " وله رحلة لقي فيها ألف شيخ ومحدث وفقيه، توفّي بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، يروي عنه أبو ذر الهروي وعبد الغني الحافظ، وكفاه فخراً بهذين الإمامين العظيمين، رحم الله تعالى الجميع.

١٧٥ - ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد الرّعيني الرّندي، يكنى أبا محمد، استوطن مالقة، ورحل إلى المشرق، وحج، ولقي جماعة من العلماء، وقفل إلى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة، وولي الإمامة بالمسجد الجامع بمالقة، وبها توفّي في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، ولقب في المشرق برشيد الدين، وولد في ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الأندلس يقال لها: " يلمالتين كورة بشتغير "، ذكر ذلك ابن المستوفي في تاريخ إربل.

١٧٦ - ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد، الينيني، من أهل الأندلس، استوطن المشرق ومدح الملك الكامل.

١٧٧ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيى الضبي، رحل حاجّاً فلقي ببجاية عبد الحق الإشبيلي، وبالإسكندرية أبا الطاهر ابن عوف، ولقي غير واحد في رحلته كالفرنوي وابن بري وأبي الثناء الحراني وأبي الحسين الحديثي - وللحديثي أحاديث ساوى بها البخاري ومسلماً - ولقي جماعة ممّن شارك السّلفي في شيوخه.

١٧٨ - ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، الكناني صاحب الرحلة، وهو من ولد ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، أندلسي، شاطبي، بلنسي، مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية، وقيل في مولده غير ذلك، وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبي عبد الله الأصيلي وأبي الحسن ابن أبي العيشي، وأخذ عنه القراءات، وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدم في صناعة القريض والكتابة.

١٧٩ - ورافق ابن جبير في هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي، وأصله من أندة من بلنسية، رحل معه فأدّيا الفريضة، وسمعا بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي، وأجاز لهما أبو محمد ابن أبي عصرون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما، ودخلا بغداد وتجولا مدّة، ثمّ قفلا جميعاً إلى المغرب، فسمع منهما به بعض ما كان عندهما.

وكان أبو جعفر هذا متحقّقاً بعلم الطب، وله فيه تقييد مفيد، مع المشاركة الكاملة في فنون العلم. وكتب عن السيد أبي سعيد ابن عبد المؤمن، وجدّه لأمّه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية. وتوفّي أبو جعفر هذا بمرّاكش سنة ثمان، أو تسع وتسعين وخمسمائة، ولم يبلغ الخمسين في سنه، رحمه الله تعالى.

١٨٠ - ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الأديب أبو عامر ابن

عيشون. قال الفتح: رجل حلّ المشيّدات والبلاقع، وحكى النسرين الطائر والواقع، واستدرّ خلفي البؤس والنعيم، وقعد مقعد البائس والزعيم، فآونة في سماط، وأخرى بين ردانك وأنماط، ويوماً في ناووس، وأخرى في مجلس مأنوس، رحل إلى المشرق فلم يحمد رحلته، ولم يعلق بأمل نحلته، فارتد على عقبه، وردّ من حبالة الفوت إلى منتظره ومرتقبه، ومع هذا فله تحقّق بالأدب، وتدفّق طبع إذا مدح أو نسب، وقد أثبتّ له ما تعلم حقيقة نفاذه، وترى سرعة وخده في طريق الإحسان وإغذاذه.

ثم قال: وأخبرني أنّه دخل مصر وهو سارٍ في ظلم البوس، عارٍ من كل لبوس، قد خلا من النقد كيسه، وتخلى عنه إلا تعذيره وتنكيسه، فنزل بأحد شوارعها لا يفترش إلاّ نكده، ولا يتوسّد إلا عضده، وبات بليلة ابن عبدل، تهب عليه صرصر لا ينفح منها عنبر ولا مندل، فلمّا كان من السحر دخل عليه ابن طوفان فأشفق لحاله، وفرط إمحاله، وأعلمه أن الأفضل ابن أمير الجيوش استدعاه، ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيها له لأخصب مرعاه، فصنع له في حينه:

قل للملوك وإن كانت لهم ::: همٌ تأوي إليها الأماني غير متّئد
إذا وصلت بشاهنشاه لي سبباً ::: فلن أبالي بمن منهم نفضت يدي
من واجه الشمس لم يعدل بها قمراً ::: يعشو إلى ضوئه لو كان ذا رمد

فلمّا كان من الغد وافاه فدفع إليه خمسين مثقالاً مصرية وكسوة وأعلمه أنّه غنّاه، وجوّد الإظهار للفظه، ومعناه، وكرره، حتى أثبته في سمعه وقرره، فسأله عن قائله فأعلمه بقلته، وكلّمه في رفع خلّته، فأمر له بذلك.

وله أيضاً رحمه الله تعالى:

قصدت على أنّ الزيارة سنّةٌ ::: يؤكّدها فرضٌ من الودّ واجب
فألفيت باباً سهّل الله إذنه ::: ولكن عليه من عبوسك حاجب
مرضت ومرّضت الكلام تثاقلاً ::: إليّ إلى أن خلت أنّك عاتب
فلا تتكلّف للعبوس مشقّةً ::: سأرضيك بالهجران إذ أنت غاضب
فلا الأرض تدميرٌ ولا أنت أهلها ::: ولا الرزق إن أعرضت عنّي جانب

وله يستعتبني:

كتبت ولو وفّيت برّك حقّه ::: لما اقتصرت كفّي على رقم قرطاس
ونابت عن الخطّ الخطا وتبادرت ::: فطوراً على عيني وطوراً على راسي
سل الكأس عني هل أديرت فلم أصغ ::: مديحك ألحاناً يسوغ بها كاسي
وهل نافح الآس النّدامى فلم أذع ::: ثنائي أذكى من منافحة الآس

١٨١ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطّبني، و هو عبد الملك بن زيادة الله. قال في الذخيرة: كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام، وحملة ألوية الأقلام، من أهل بيت اشتهروا بالشعر، اشتهار المنازل بالبدر، أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة، وانتشار شمل الطاعة، وأناخوا في ظلّها، ولحقوا بسروات أهلها، وأبو مضر أبوه زيادة الله بن علي التميمي الطّبني هو أوّل من بنى بيت شرفهم، ورفع في الأندلس صوته بنباهة سلفهم.

قال ابن حيان: وكان أبو مضر نديم محمد بن أبي عامر أمتع الناس حديثاً ومشاهدةً، وأنصعهم ظرفاً، وأحذقهم بأبواب الشحذ والملاطفة، وآخذهم بقلوب الملوك والجلّة، وأنظمهم لشمل إفادة ونجعة، انتهى المقصود منه.

ثمّ قال في الذخيرة: فأمّا ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية، ورحل إلى المشرق، وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز، وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة، انتهى.

وقد ذكر قصّة قتله المستبشعة واتهم باغتياله ابنه.

وحكى أبو عامر ابن شهيد عن نفسه قال: عاتبت بعض الإخوان عتاباً شديداً عن أمر أوجع فيه قلبي، وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت:

وإنّي على ما هاج صدري وغاظني ::: ليأمني من كان عندي له سرّ

فكان هذا البيت أشد عليه من عض الحديد، ولم يزل يقلق به حتى بكى إلي من بالدموع، وهذا الباب ممتدّ الأطناب، ويكفي ما مر ويمرّ منه في أضعاف

هذا الكتاب، انتهى كلام ابن بسام في الذخيرة بلفظه.

١٨٢ - ومنهم حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل إلى الأندلس ابن عبد الملك ابن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، من أهل قربة، ويعرف بدحّون، رحل إلى المشرق أيام عبد الرحمن بن الحكم، وحج، ولقي أهل الحديث فكتب عنهم، وقفل بعلم كثير، وكانت له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس فيها، وهو يلبس الوشي الشامي، إلى أن أوصى غليه الأمير عبد الرحمن بترك ذلك، فتركه، وتوفّي بعد المائتين.

١٨٣ - ومنهم بهلول بن فتح من أهل أقليش، له رحلة حجّ فيها، وكان رجلاً صالحاً خيّراً، حكى عن نفسه أنّه رأى في منامه بعد قدومه من الحج كأنّه بمكّة وقائل يقول: انطلق بنا نصلّ مع النبيّ، ، قال: فكنت أقول لرجل من جيراني بأقليش: يا فلان انطلق بنا نصلّ مع النبيّ، ، فيقول لي: لست أجد إلى ذلك سبيلاً، فكنت أتوجّه وأصلي مع الناس والنبيّ، ، إمامنا، فلمّا سلّم من الصلاة رجع إليّ وقال لي: من أني أنت قلت له: من الأندلس، فكان يقول من أي موضع فكنت أقول: من مدينة أقليش، فيقول لي: أتعرف أبا إسحاق البوّاني فكنت أقول: هو جاري، وكيف لا أعرفه فيقول لي: أقرئه منّي السلام.

١٨٤ - ومنهم أبو الحسن ثابت بن أحمد بن عبد الولي، الشاطبي. روى عن أبي زيد عبد الرحمن بن يعيش المهري، ورحل حاجّاً، فسمع منه بالإسكندريّة أبو الحسن ابن المفضل المقدسي، وحدث عنه بالحديث المسلسل في الأخذ باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبي محمد عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد ابن خلف الأنصاري عن أبي الحسن طاهر بن مفوّز، وعليه مداره بالأندلس، عن نصر السمرقندي بإسناده، وفيه بعد، قال الحافظ ابن الأبّار: وقد رويته مسلسلاً من طرق بعضها عن ابن المفضل، وأذبأني به ابن أبي جمرة عن أبي بحر الأسدي، عن نصر السمرقندي، فصار ابن المفضل بمنزلة من سمعه ممّن سمعه مني، والحمد لله تعالى، انتهى.

١٨٥ - ومنهم أبو أحمد جعفر بن لبّ بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس ابن ميمون، اليحصبي، سكن شاطبة، وأصله من أنشيان عملها، يكنى أبا الفضل أيضاً، حج وسمع أبا طاهر ابن عوف والحافظ السّلفي وأبا عبد الله ابن الحضرمي وأبا الثناء الحراني وبدر بن عبد الله الحبشي وأبا الحسن ابن المفضل وغيرهم، وكان من أهل العناية بالرواية مع الصلاح والعدالة، حسن الخط، جيد الضبط، سماه التّجيبي في معجم مشيخته وهو في عداد أصحابه لاشتراكهما في السماع بإسكندرية وتركه هنالك، ثم قدم عليه تلمسان من شاطبة في أضحى سنة ست وثمانين وخمسمائة، وحكى ممّا أفاده عن ابن المفضل أن أبا عبد الله الكيزاني - وكان شاعراً مجيداً - وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع ابن سالم وقال: إنّه توفّي بعد التسعين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

١٨٦ - ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه، الخزاعي، العابد، من أهل قسطنطانية عمل دانية، أخذ القراءات عن ابن هذيل، وسمع منه ومن ابن النعمة ببلنسية، رحل حاجّاً فأدى الفريضة، ودخل الإسكندرية مرافقاً لمن سمع من السّلفي، ولم يسمع منه شيئاً، قال ابن الأبار: فيما علمت وقفل إلى بلده مائلاً إلى الزهد والإعراض عن الدنيا، وكان شيخ المتصوفة في وقته، وعلا ذكره، وبعد صيته في العبادة، إلاّ أنّه كانت فيه غفلة، قال ابن الأبار: ورأيته إذ قدم بلنسية لإحياء ليلة النصف من شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة، وتوفّي عن سن عالية تقارب المائة، منتصف ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة، وشهد جنازته تشر كثير من جهات شتى، وانتاب الناس قبره دهراً طويلاً يتبرّكون بزيارته إلى حين إجلاء الروم من كان يشاركهم من المسلمين ببلاد شرق الأندلس التي تغلّبوا عليها، وذلك في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة.

١٨٧ - ومنهم أبو جعفر النحوي، أندلسي نزل مصر، وكان من رؤساء أهل العلم بالنحو، وممّن له حال جليلة، ذكره الطّبني فيما حكاه ابن الأبار.

١٨٨ - ومنهم أبو الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله، الخزرجي القرطبي، وكناه بعضهم أبا الفضل، سمع ببلده من أبي محمد ابن عتاب وغيره، ورحل حاجّاً فأدى الفريضة، وكان أديباً ناظماً، كتب عنه أبو محمد العثماني بالإسكندرية بعض شعره.

١٨٩ - ومنهم أبو الحسن جهور بن خلف بن أبي عمر ابن قاسم بن ثابت المعافري. رحل حاجّاً إلى المشرق فأدى الفريضة، وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السّلفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وسمع أيضاً من غيره، وطال مكثه هنالك، وهو - فيما رجحه بعضهم - من أهل غرب الأندلس.

١٩٠ - ومنهم أبو علي الحسن بن حفص بن الحسن، البهراني الأندلسي، رحل وتجوّل ببلاد المشرق، فسمع أبا محمد عبد الله بن حمّويه وأبا حامد أحمد ابن محمد بن رجاء بسرخس، وأبا محمد ابن أبي شريح بهراة، وأبا عبد الله الحسين بن عبد الله المفلحي بالأهواز، وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادي وأبا حامد أحمد بن الخليل وأبا حاتم حامد بن العباس وأبا محمد الحسن بن رشيق بمصر، وقدم دمشق فروى عنه من أهلها تمام بن محمد، وبنيسابور أحمد بن منصور بن خلف المغربي وغيره.

ذكره ابن عساكر وقال: أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن علي بن فطيمة وأبو القاسم زاهر بن طاهر قالا: أنا أبو بكر أحمد بن منصور، أنا أبو علي الحسن ابن جعفر القضاعي، وأنا الحسن بن رشيق بمصر، أنا المفضل بن محمد الجندي، أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لا يحمل العلم عن أهل البدع كلهم، ولا يحمل العلم عمّن لم يعرف بالطلب ومجالسة أهل العلم، ولا يحمل عمّن يكذب في حديث الناس، وإن كان في حديث رسول الله، ، صادقاً؛ لأن الحديث والعلم إذا سمع من العالم فقد جعل حجّة بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى، وإنّما قال فيه القضاعي لأن بهراء من قضاعة.

١٩١ - ومنهم أبو علي الحسن بن خلف بن يحيى بن إبراهيم بن محمد، الأموي. من أهل دانية، ويعرف بابن برنجال، سمع من أبي بكر ابن صاحب الأحباس وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما، وله رحلة حج فيها وسمع من أبي إسحاق إبراهيم بن صالح القروي، وببيت المقدس من أبي الفتح نصر بن إبراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة، وبعسقلان من أبي عبد الله محمد ابن الحسن ابن سعيد التّجيبي، وأخذ عنه كتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه، وكان فقيهاً على مذهب مالك، وولي الأحكام ببلده، وحدّث، وأخذ عنه، وسمع الناس منه بالإسكندريّة سنة تسع وستين، هم بدانية سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، وتوفّي في نحو الخمسمائة، رحمه الله تعالى.

١٩٢ - ومنهم أبو علي الحسن بن إبراهيم بن محمد بن تقي، الجذامي، المالقي، روى بقرطبة عن أبي محمد ابن عتّاب، وعن أبي سكّرة الصّدفي بمرسية سنة ثمان وخمسمائة، وصحب أبا مروان ابن مسرّة، وكان من أهل الرواية والتقييد، وكانت له رحلة سمع فيها من أبي طاهر السّلفي مجالسه التي أملاها بسلماس برجب سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما ألفي بخط السلفي، وفي رحلته لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزيل مكّة، وحدّث عنه أبو طالب أحمد ابن مسلم المعروف بالتّنوخي من أهل الإسكندرية بكتاب الاستيعاب لابن عبد البر، وأجاز له إجازة عامّة في السنة السابقة، وقال ابن عساكر في تاريخه، وذكر أبا ذر الهروي: سمعت أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ الأندلسي بنيسابور يقول: سمعت أبا علي الحسن بن علي الأنصاري البطليوسي، قال ابن عساكر: وقد لقيته، ولم أسمعها منه، قال: سمعت أبا علي الحسن بن إبراهيم بن تقي الجذامي المالقي يقول: سمعت بعض الشيوخ يقول: قيل لأبي ذر الهروي: أنت من هراة، فمن أين تمذهبت لمالك والأشعري فقال: إنّي قدمت بغداد أطلب الحديث، فلزمت الدارقطني، فلمّا كان في بعض الأيام

كنت معه، فاجتاز به القاضي أبو بكر ابن الطيب، فأظهر الدارقطني من إكرامه ما تعجبت منه، فلمّا فارقه قلت: أيّها الشيخ الإمام من هذا الذي أظهرت من إكرامه ما رأيت فقال: أو ما تعرفه قلت: لا، فقال: هذا سيف السنّة أبو بكر الأشعري، فلزمت القاضي منذ ذلك، واقتديت به في مذهبه، انتهى.

١٩٣ - ومنهم أبو علي الحسن بن علي بن الحسن بن عمر، الأنصاري، البطليوسي، رحل إلى المشرق، فأدى الفريضة، وتجوّل هناك، ولقي أبا الحسن ابن المفرّج الصقلي وأبا عبد الله الفراوي، فسمع منهما الصحيحين بعلوّ، وسمع من أبا الفتح ناصر بن أبي علي الطوسي سنن أبي داود، وحدّث بالموطإ عن أبي بكر الطّرطوشي، وله أيضاً رواية عن زاهر بن طاهر الشّحامي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وأبي محمد الحريري سمع منه مقامات الخمسين ببستانه من بغداد، ونزل بمكّة، وجاور بها، وحدّث فيها وفي غيرها، وأسنّ، وكان ثقة مسنداً يروي عنه أبو عبد الله ابن أبي الصيف اليمني وأبو جعفر ابن شراحيل الأندلسي وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم الإربلي، وسمع منه في صفر سنة ست وستين وخمسمائة، وقد لقيه أبو القاسم ابن عساكر الحافظ وروى عنه.

١٩٤ - ومنهم أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الأنصاري: من أهل لرية عمل بلنسية، ويعرف بابن الرّهبيل، سمع من أبي الحسن ابن النعمة كثيراً، واختص به، وعنه أخذ القراءات، وسمع من ابن هذيل أيضاً، ثم رحل حاجّاً، فلقي بالإسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السّلفي وأبا عبد الله ابن الحضرمي، وسمع منهما، وجاور بمكّة، وأخذ بها عن أبي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري، وكان يرويه عن أبي مكتوم عيسى بن أبي ذر الهروي عن أبيه، وسمع أيضاً من أبي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي، وأجاز له أبو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمي وأبو محمد عبد الحق ابن عبد الرحمن الإشبيلي ببجاية عند صدوره في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وقفل إلى بلده فلزم الانقطاع والانقباض عن الناس والإقبال على ما يعنيه، وكان قد

خطب به قبل رحلته، وحكى التّجيبي أن طلبة الإسكندرية تزاحموا عليه لسماع التيسير لأبي عمرو المقرئ منه بروايته عن ابن هذيل سماعاً في سنة ثلاث وخمسين، وصارت له بذلك عندهم وجاهة، وبعد قفوله أصابه خدر منعه من التصرف، وكان الصلاح غالباً عليه، وتوفّي غدوة الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وكانت جنازته مشهودة، رحمه الله تعالى.

١٩٥ - ومنهم الحسين بن أحمد بن الحسين بن حي، التّجيبي، القرطبي، أخذ علم العدد والهندسة عن أبي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن برغوث، وكان كلفاً بصناعة التعديل، وله زيج مختصر ذكره القاضي صاعد ونسبه، وحكى أنّه خرج من الأندلس في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة بعد أن نالته بها وبالبحر محنٌ شداد، ولحق بمصر، ثم رحل عنها إلى اليمن، واتصل بأميرها، فحظي عنده، وبعثه رسولاً إلى القائم بأمر الله الخليفة ببغداد، ونال هناك دنيا عريضة، وتوفّي باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ست وخمسين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

١٩٦ - ومنهم أبو يوسف حماد بن الوليد، الكلاعي أخذ بقرطبة عن أبي المطرف القنازعي وغيره، ورحل إلى المشرق، وحدث بالإسكندريّة فسمع منه بها يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن شبل شرح الاعتقاد من تأليفه، ورسالة قمع الحرص وقصر الأمل والحث على العمل، وذلك في سنة سبع وأربعين وأربعمائة، ولقيه هنالك أبو مروان الطّبني، فسمع منه بعض فوائده.

١٩٧ - ومنهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد الله بن جبير، من أهل طرطوشة، يعرف بالجبيري، وهو والد أبي عبيد الله القاسم بن خلف الجبيري الفقيه، وكانت له رحلة إلى المشرق، ومعه رحل ابنه وهو صغير، وكان من أهل العلم والنزاهة، وعليه نزل القاضي منذر بن سعيد بطرطوشة في ولايته قضاء الثغور الشرقية، قال أبو عبيد: نزل القاضي منذر بن سعيد على أبي،

فمر على يديه كتاب فيه أرجوزة ابن عبد ربّه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم، ولم يذكر عليّاً فيهم، ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد، فلمّا رأى ذلك منذر غضب وسبّ ابن عبد ربّه، وكتب في حاشية الكتاب:

أوما عليٌّ لا برحت ملعّناً ::: يا ابن الخبيثة عندكم بإمام
ربّ الكساء وخير آل محمدٍ ::: داني الولاء مقدّم الإسلام

قال أبو عبيد: والأبيات بخطّه في حاشية كتاب أبي إلى الساعة، وكانت ولاية منذر للثغور مع الإشراف على العمال بها والنظر في المختلفين من بلاد الإفرنج إليها سنة ثلاثين وثلاثمائة.

١٩٨ - ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف، الغرناطي، له رحلة روى فيها بالإسكندرية عن مهدي بن يوسف الوراق، وحدث عنه أبو العباس ابن عيسى الداني بالتلقين للقاضي عبد الوهاب.

١٩٩ - ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن فحلون، القنطري، من قنطرة السيف، وسكن بطليوس ويعرف بابن الروية، رحل حاجّاً فأدى الفريضة، ولقي بمكّة رزين بن معاوية الأندلسي فحمل عنه كتابه في تجريد الصحاح سنة خمس وخمسمائة، وفيها حج وقفل إلى بلده بعد ذلك؛ وكان فقيهاً مشاوراً، حدّث عنه ابن خير في كتابه إليه من بطليوس في نحو الثلاثين وخمسمائة.

٢٠٠ - ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الأندلسي، رحل حاجّاً إلى المشرق، وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلاثمائة وأبا بكر مسرّة ابن مسلم الصدفي، حدث، وأخذ عنه.

٢٠١ - ومنهم طاهر الأندلسي، من أهل مالقة، يكنى أبا الحسين، رحل إلى قرطبة، وخرج منها لما دخلها البرابر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة، فلم يزل بمكّة إلى حدود الخمسين وأربعمائة، وكان من أصحاب أبي عمر الطّلمنكي

وملازميه لقراءة القرآن، وطلب العلم مع أبي محمد الشّنتجالي وأبي أيوب الزاهد إمام مسجد الكوّابين بقرطبة، وجاور بمكّة طويلاً، وأقرأ على مقربة من باب الصفا، وكان الشيبيون يكرمونه ويفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام، ذكره الطّبني، قال ابن الأبار: وأحسبه المذكور في برنامج الخولاني، والذي قرأ لهم أكثر المدونة على أبي عمر أحمد ابن محمد الزيات، انتهى.

٢٠٢ - ومنهم أبو الطاهر الأندلسي، من أهل لبلة، نزل مصر، وكانت له حلقة بجامع عمرو بن العاص، وكان - رحمه الله تعالى - نحويًّا، له شعر وترسيل وتعلق بالملوك للتأديب بالنحو، ثم ترك ذلك.

٢٠٣ - أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش، المنصفي، المخزومي، والمنصفي نسبة إلى قرية بغربي بلنسية، ويكنى أيضاً أبا الحسن، رحل قبل العشرين وخمسمائة، فأدى الفريضة، وجاور بمكّة، وسمع بها من أبي عبد الله الحسين بن علي الطبري، ومن الشريف أبي محمّد عبد الباقي الزهري المعروف بشقران أخذ عنه كتاب الإحياء للغزالي عن مؤلفه، وسمع بالإسكندرية من أبي بكر الطرطوشي وأبي الحسن ابن مشرف وأبي عبد الله الرازي وأبي طاهر السّلفي وغيرهم ثم قفل إلى بلده فحدث، وأخذ الناس عنه، وسمعوا منه، وكان شيخاً صالحاً عالي الرواية ثقة، قال ابن عياد: لم ألق أفضل منه، وكان مجاب الدعوة، وحدث عنه بالسماع والإجازة جلّةٌ منهم أبو الحسن ابن هذيل وأبي محمد القلني وأبو مروان ابن الصّيقل وأبو العباس الإقلبشي وأبو بكر ابن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبد الحق الإشبيلي وأبو بكر ابن جزيّ وغيرهم، ثم رحل ثانية إلى المشرق مع صهره أبي العباس الإقلبشي وأبي الوليد ابن خيرة الحافظ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وقد نيّف على السبعين، فأقام بمكّة مجاوراً إلى أن توفي بها عن سن عالية - رحمه الله تعالى - سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

٢٠٤ - ومنهم محمد بن إبراهيم بن مزينٍ الأودي من أهل أكشولبة غربي

الأندلس، يكنى أبا مضر، ولاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة، وذلك في المحرّم سنة سبعين ومائة، وأقام شهراً، ثم استعفى فأعفاه، ورحل حاجّاً فأدى الفريضة، وسمع في رحلته إمامنا مالك بن أنس وانصرف ومات عن سن عالية سنة ثلاث وثمانين ومائة، وذكره ابن شعبان في الرواة عن مالك وحكى أنّه روى عنه: من قطع لسانه استوني به عاماً، وأن مالكاً قال له: قد بلغني أن بالأندلس من نبت لسانه فإن لم ينبت أقيد، انتهى.

٢٠٥ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد حيّاز، الشاطبي، الأوسي، قدم مصر، وكان قد أخذ عن ابن برطله وابن البراء وغيرهما، وعمل فهرست شيوخه على حروف المعجم، وحج وعاد إلى بلده، ومات يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثماني عشرة وسبعمائة، رحمه الله تعالى وغفر له.

٢٠٦ - ومنهم القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز ابن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة ابن صخر ابن سماعة اللّخمي الأندلسي الإشبيلي. قال أبو شامة: هو من بيت كبير بالأندلس يعرف ببني الباجي مشهور كثير العلماء والفضلاء، وأصلهم من باجة القيروان، وليس منهم القاضي أبو الوليد الباجي الفقيه، فإنّه من بيت آخر من باجة الأندلس، وقدم أبو مروان حاجّاً من بلاده في البحر إلى عكّا من ساحل دمشق، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة، ونزل عندنا بالمدرسة العادليّة، وجدّه الأعلى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن علي قدم إلى الديار المصرية وحجّ منها ومعه ولده محمد أخو عبد الملك ويعرف بصاحب الوثائق، وسمعا بها من جماعة من العلماء، وذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في " جذوة المقتبس "، وكنّاه أبا عمر، وذكر أنّه سكن إشبيلية وأثنى عليه كثيراً، وقال: مات في حدود الأربعمائة، وروى عنه ابن عبد البر وغيره.

وأبوه عبد الله بن محمد بن علي يعرف بالرواية، ذكره الحميدي أيضاً.

وذكر ابن بشكوال في " الصلة " عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم وأثنى عليه، وقال: توفي سنة اثنتين وثلاثين، وخمسمائة.

وكان هذا الشيخ أبو مروان حسن الأخلاق فاضلاً متواضعاً محسناً، وسمعته يقول، وقد سئل إعارة شيء، فبادر إليه، ثم قال: عند في قوله تعالى:{ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧ } [الماعون: ٧] هو كل شيء.

واستفدنا من هذا الشيخ فائدة جليلة، وهي معاينة قدر مدّ النبي، ، وهو عندهم متوارثٌ، وقد أخبر عن ذلك أبو محمد ابن حزم في كتابه المحلى وعايرت بذلك المدّ المدّ الذي لنا بدمشق حينئذ، وهو الكيل الكبير، فوجدت مدّنا يسع صاعين إلا يسيراً، ووجده ممسوحاً يسع صاعاً ونصفاً وشيئاً فيكون مدان ممسوحان ثلاثة آصعٍ زائدة، وقرأت في كتاب المحلى لابن حزم، قال أبو محمد: وخرط لي مدًّ على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي، وهو عند أكثرهم لا يفارق داره، أخرجه إليّ ثقتي الذي كفته ذلك علي بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله ابن علي المذكور، وذكر أنّه مدّ أبيه، وأن جده أخذه وخرطه على مد أحمد بن خالد، وأخبره أحمد بن خالد أنّه خرطه على مد يحيى بن يحيى، على مد مالك، قال أبو محمد: ثم كلته بالقمح الطيب، ثم وزنته فوجدته رطلاً ونصف رطلٍ بالفلفلي لا يزيد حبّة، وكلته بالشعير إلا أنّه لم يكن بالطيب فوجدته رطلاً واحداً ونصف أوقية، وسألت عن الرطل الفلفلي، فقيل لي: هو ست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم، وفي تقدير ابن حزم نظر.

وتوفّي هذا الشيخ بالقاهرة سنة خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحج، رحمه الله تعالى. انتهى كلام أبي شامة، وبعضه بالمعنى.

٢٠٧ - ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد، الواعظ، الإشبيلي، ثم المصري، فاضل شرح الصدور بلفظه، ومتكلّم أحيا القلوب بوعظه، أحواله مشهورة، ومجالسه بالذكر معمورة، وله معرفة بالأدب، وخبرة بالشعر والخطب، وكلام وجهه حسن، ونظم يمتاز به على كثير من أرباب اللّسن، قاله ابن حبيب

الحلبي، قال: وهو القائل:

من أنت محبوبه من ذا يعيّره ::: ومن صفوت له من ذا يكّدره
هيهات عنك ملاح الكون تشغلني ::: والكلّ أعراض حسن أنت جوهره

وتوفّي سنة أربع وثمانين وستمائة، هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب، ثم بعد كتبها حصل لي شك: هو هو ممّن ارتحل بنفسه من الأندلس أو ولد بمصر وإنّما ارتحل إليها بعض سلفه والله تعالى أعلم.

٢٠٨ - وكذا ذكر آخر بقوله في سنة سبع وثمانين وستمائة: وفيها توفّي الإمام زكي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن علي الإشبيلي المالكي، محدث، عالم، زاهد فيما ليس بدائم، كثير الخير، جزيل المير، كان حسن المناهج، قاضياً للحوائج، محسناً إلى الصامت والمعرب، مقصداً لمن يرد من الحجاز والمغرب، سمع بمصر ودمشق وحلب، وأفتى ودرّس، مفيداً لذوي الطلب، ولم يبرح يعين بأياديه ويغيث، وهو أول من باشر بظاهرية دمشق مشيخى الحديث، وكانت وفاته بدمشق عن نيّف وسبعين سنة، انتهى.

٢٠٩ - ومنهم الأحق بالسبق والتقدم، بقيّ بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن، القرطبي، الأندلسي، الحافظ، أحد الأعلام، وصاحب التفسير والمسند. أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن عيسى الأعشى، وارتحل إلى المشرق، ولقي الكبار، وسمع بالحجاز مصعباً الزهري وإبراهيم ابن المنذر وطبقتهما، وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عبّاد وطائفة، وبدمشق إبراهيم الغساني وصفوان ابن صالح وهشام بن عمار وجماعة، وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته، بالكوفة يحيى ابن عبد الحميد الحماني ومحمد ابن عبد الله بن نمير وأبا بكر ابن أبي شيبة وطائفة، وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد، وعني بالأثر عناية عظيمة لا مزيد عليها، وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثلاثون رجلاً، وكان إماماً، زاهداً، صوّاماً، صادقاً، كثير التهجد، مجاب الدعوة، قليل المثل، مجتهداً، لا يقلد، بل يفتي بالأثر.

ولد في رمضان سنة إحدى ومائتين، وتوفّي في جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين.

قال ابن حزم: أقطع أنّه لم يؤلّف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد ابن جرير ولا غيره، وكان محمد بن عبد الرحمن الأموي صاحب الأندلس محبّاً للعلوم عارفاً بها. فلمّا دخل بقيّ بن مخلد الأندلس بمصنف ابن أبي شيبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف واستبشعوه، وقام جماعة من العامة عليه، ومنعوه من قراءته، فاستحضره الأمير محمد وإياهم، وتصفح الكتاب جزءاً جزءاً حتى أتى على آخره، ثم قال لخازن كتبه: هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا، وقال لبقيّ: انشر علمك، وارو ما عندك، نهاهم أن يتعرضوا له.

قال ابن حزم: مسند بقيّ روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيّف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنّف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث، وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممّن ذكرهم أربى فيه على مصنّف أبي بكر ابن أبي شيبة وعلى مصنّف عبد الرزّاق وعلى مصنف سعيد بن منصور.

ثم ذكر تفسيره فقال: فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيراً لا يقلّد أحداً، وكان جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنسائي.

وذكر القشيري أن امرأة جاءته فقالت له: إن ابني قد أسرته الفرنج، وإنّي لا أنام الليل من شوقي إليه، ولي دويرة أريد أن أبيعها لأفتكّه بها، فإن رأيت أن تشير إلى من يأخذها ويسعى في فكاكه، فليس لي ليل ولا نهار، ولا صبر ولا قرار، فقال: نعم، انصرفي حتى ننظر في ذلك إن شاء الله تعالى، وأطرق الشيخ وحرك شفتيه يدعو الله، عزّ وجلّ، لولدها بالخلاص، فذهبت، فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها فقالت: اسمع خبره يرحمك الله تعالى فقال: كيف كان

أمرك فقال: إنّي كنت فيمن يخدم الملك، ونحن في القيود، فبينا أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رجلي، فأقبل عليّ الموكل بي فشتمني، وقال: فككت القيد من رجليك، فقلت: لا والله ولكن سقط ولم أشعر، فجاءوا بالحدّاد فأعاده، وسمّر مسماره وأيّده، ثم قمت، فسقط أيضاً، فسألوا رهبانهم، فقالوا: ألك والدة فقلت: نعم، فقالوا: إنّه قد استجيب دعاؤها له، فأطلقوه، فأطلقوني، وخفروني إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام، فسأله بقيٌّ عن الساعة التي سقط القيد من رجليه فيها، فإذا هي الساعة التي دعا له فيها، رحمه الله تعالى.

٢١٠ - من الراحلين من الأندلس إلى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدي، المعروف بالمغامي. من أهل قرطبة، وأصله من طليطلة، وهو من ذرية أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان، وروى عن عبد الملك بن حبيب مصنفاته، وارتحل إلى مصر، وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي، وعاد إلى الأندلس، وكان فقيهاً، نبيلاً، فصيحاً بصيراً بالعربية، ثم بعد عوده من مصر أقام بقرطبة أعواماً، ثم عاد إلى مصر، وأقام بها، وسمع الناس منه، وعظم أمره بالبلاد الشرقية، ثم إنّه عاد إلى الغرب فتوفّي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين، وبين بمصر الواضحة لابن حبيب، وصنف شيئاً في الرد على الشافعية في عشرة أجزاء، وألف كتاب فضائل مالك رضي الله تعالى عنه.

والذي يرتضى أن من قلد إماماً من المجتهدين لا ينبغي له أن يغضّ من قدر غيره، وإن كان ولا بد من الانتصار مذهبه وتقوية حجّته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة، رضي الله تعالى عنهم، فإنّهم على هدى من ربهم، وقد ضلّ بعض الناس فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملّة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد حكى أبو عبد الله الوادي آشي - حسبما رأيته بخطه - أن القاضي عبد الوهاب ابن نصر البغدادي المالكي ألّف كتاباً لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة

جزء، وسمّاه النصرة لمذهب إمام دار الهجرة، فوقع الكتاب بخطّه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر، فغرّقه في النيل، فقضى الله تعالى أن السلطان فرج بن برقوق سافر إلى الشام ومعه القضاة الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد، فلم يستطع شيئاً، و هزم إلى مصر، وتفرّقت العساكر، وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم ذلك القاضي، فبقي في أسر تيمورلنك إلى أن ارتحل عن الشام، فأخذه معه أسيراً إلى أن وصل إلى الفرات، فغرق فيه، أعني القاضي، فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور، والجزاء من جنس العمل، والله تعالى أعلم.

٢١١ - ومن الراحلين من الأندلس الإمام الحافظ أبو بكر ابن عطية، رحمه الله تعالى، قال الفتح: شيخ العلم، وحامل لوائه، وحافظ حديث النبي وكوكب سمائه، شرح الله تعالى لحفظه صدره، وطاول به عمره، مع كونه في كل علم وافر النصيب، مياسراً بالمعلّى والرقيب، رحل إلى المشرق لأداء الفرض، لابس بردٍ من العمر الغض، فروى وقيّد، ولقي العلماء وأسند، وأبقى تلك المآثر وخلّد، نشأ في بيئةٍ كريمة، وأرومة من الشف غير مرومة، لم يزل فيها على وجه الزمان أعلام علم، وأرباب مجد ضخم، قد قيدت مآثرهم الكتب، وأطلعتهم التواريخ كالشّهب، وما برح الفقيه أبو بكر يتسنم كواهل المعارف وغواربها، ويقيد شوارد المعاني وغرائبها، لاستضلاعه بالأدب الذي أحكم أصوله وفروعه، وعمر برهةً من شبيبته ربوعه، وبرز فيه تبريز لجواد المستولي على الأمد، وجلّى عن نفسه به كما جلّى الصقال عن النصل الفرد، وشاهد ذلك ما أثبته من نظمه الذي يروق جملة وتفصيلاً، ويقوم على قوّة العارضة دليلاً، فمن ذلك قوله يحذر من خلطاء الزّمان، وينبه على التحفظ من الإنسان:

كن بذئبٍ صائدٍ مستأنساً ::: وإذا أبصرت إنساناً ففرّ
إنّما الإنسان بحرٌ ما له ساحلٌ ::: فاحذره إياك الغرر
واجعل الناس كشخصٍ واحدٍ ::: ثم كن من ذلك الشخص حذر

وله في الزهد:

أيّهــا المطــرود مــن بــاب الرضــى ::: كــم يــراك الله تلــهو معرضــا
كم إلى كــم أنــت في جهــل الصّــبا ::: قــد مضــى عمــر الصّــبا وانقرضــا
قــم إذا الليــل دجــت ظلمتــه ::: واســتلذّ الجفــن أن يغتمضــا
فضــع الخــدّ علــى الأرض ونــح ::: واقرع السّنّ علــى مــا قــد مضــى

وله في هذا المعنى:

قلــبي يــا قلــبي المعنّــى كــم ::: أنــا أدعــى فــلا أجيــب
كــم أتمــادى علــى ضــلالٍ ::: لا أرعــوي لا ولا أنيــب
ويــلاه مــن ســوء مــا دهــاني ::: ينــوب غــيري ولا أتــوب
وا أســفي كيــف بــرء دائــي ::: دائــي كمــا شــاءه الطّبيــب
لــو كنــت أدنــو لكنــت أشــكو ::: مــا أنــا مــن بابــه قريــب
أبعــدني منــه ســوء فعلــي ::: وهكــذا يبعــد المريــب
مــا لي قــدرٌ وأيّ قــدرٍ ::: لمــن أخلّــت بــه الــذنوب

وله في هذا المعنى أيضاً:

لا تجعلــن رمضــان شــهر فكاهــةٍ ::: تلــهيك فيــه مــن القبــيح فنونــه
واعلــم بأنّــك لا تنــال قبولــه ::: حــتى تكــون تصــومه وتصــونه

وله في مثل ذلك:

إذا لم يكن في الســمع منّــي تصــاونٌ ::: وفي بصري غضٌّ وفي مقــولي صــمت
فحظي إذاً من صومي الجــوع والظّمــا ::: وإن قلت إنّي صمت يوماً فما صــمت

وله في المعنى الأول:

جفوت أناساً كنــت آلــف وصــلهم ::: وما في الجفا عند الضرورة مــن بــاس
بلوت فلم أحمــد، وأصــبحت آيســاً ::: ولا شيء أشفى للنفــوس مــن اليــاس
فــلا تعــذلوني في انقباضــي فــإنّني ::: رأيت جميع الشّــرّ في خلطــة النــاس

وله يعاتب بعض إخوانه:

وكنــت أظــنّ أنّ جبــال رضــوى ::: تــزول وأنّ ودّك لا يــزول

ولكــــنّ الأمـــور لهـــا اضـــطرابٌ ::: وأحـــوال ابـــن آدم تســـتحيل
فـــإن يـــك بيننـــا وصـــل جميـــلٌ ::: وإلاّ فلـــيكن هجـــرٌ طويـــل

٢١٢ - ومنهم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح - بالحاء المهملة - ابن أحمد بن محمد، الإمام، الحافظ، الزاهد، بقية السلف، اللّخمي، الإشبيليّ، الشافعي، أسره الإفرنج سنة ست وأربعين وستمائة، وخلص، وقدم مصر سنة بضع وخمسين، وقيل: إنّه تمذهب للشافعي، وتفقّه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام قليلاً، وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري الحموي، والمعين أحمد بن زين الدين وإسماعيل بن عزوز والنجيب بن الصيقل وابن علاّق، وبدمشق من ابن عبد الدائم وخلق، وعني بالحديث، وأتقن ألفاظه، وعرف رواته وحفّاظه، وفهم معانيه، و انتقى لبابه ومبانيه.

٢١٣ - ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر، أبو الأصبغ، الأموي، الأندلسي، سمع بمكّة وبدمشق ومصر وغيرها، وحدّث عن سليمان بن أحمد بن يحيى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ♂: **إن لكل بني أب عصبةً ينتمون إليها، إلا ولد فاطمة فأنا وليّهما وأنا عصبتهم، وهم عترتي، خلقوا من طينتي، ويل للمكذّبين بفضلهم، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**. وحدث عن أبي العباس أحمد بن محمد البرذعي بسنده إلى عبد الله بن المبارك قال: كنت عند مالك بن أنس وهو يحدثنا، فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرّة، ومالك يتغير لونه ونتصبر، ولا يقطع حديث رسول الله ، فلمّا فرغ من المجلس وتفرّق الناس عنه قلت له: يا أبا عبد الله، قد رأيت منك عجباً، قال: نعم، أنا صبرت إجلالاً لحديث رسول الله . ولد أبو الأصبغ المذكور بقرطبة وتوفّي ببخارى سنة ٣٦٥.

٢١٤ - ومنهم القاضي أبو البقاء خالد، البلوي، الأندلسي، رحمه الله تعالى، وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، البلوي، ووصفه الشاطبي بأنّه الشيخ الفقيه القاضي الأعدل، انتهى.

وهو صاحب الرحلة المسماة: " تاج المفرق في تحلية أهل المشرق "، وهذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد، وفيه من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرائد، وقد قال رحمه الله تعالى فيها في ترجمة الولي نجم الدين الحجازي، رضي الله تعالى عنه، ما نصّه: وذكر لي رضي الله تعالى عنه قال: ممّا وصّى به الجد الأكبر أبو الحجاج يوسف المذكور - يعني سيدي أبا الحجّاج يوسف بن عبد الرحيم الأقصري القطب الغوث رضي الله تعالى عنه، وأعاد علينا من بركاته - خواصّه وأصدقاءه، قال: إذا أدركتكم الضرورة والفاقة فقولوا: حسبي الله، ربي الله يعلم أنّني في ضيق، قال: وذكر لي أيضاً رضي الله تعالى عنه قال: رأى هذا الجد يوسف المذكور النبيّ في النوم، بعد أن سأل الله تعالى ذلك، وقد كان أصابته فاقة، فشكا إلى النبيّ ، فقال له رسول الله : " قل يا برّ يا رحيم، يا برّ يا رحيم، الطف بي في قضائك، ولا تولّ أمري أحداً سواك، حتى ألقاك "، فلمّا قالها أذهب الله تعالى عنه فاقته. قال: وكان رحمه الله تعالى يوصي بها أصحابه وأحبابه، انتهى.

٢١٥ - ومنهم برهان الدين أبو إسحاق ابن الحاج إبراهيم، النميري، الغرناطي، وهو أيضاً مذكور في ترجمة ابن الخطيب بما يغني عن تكرير ذكره هنا، وقال رحمه الله تعالى في رحلته: أخبرني شيخنا - يعني الشيخ الإمام الصالح أبا عبد الله محمد المعروف بخليل التوزري إمام المالكية بالحرم الشريف رضي الله تعالى عنه - قال: اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كفّاً لشرّتي عن الناس، خصوصاً أذى الغيبة، نحو خمسين ليلة، أردت أن أدعو لطائفة من أصحابي بمطالب مختلفة، كلٌّ بحسب ظنّي فيه يومئذ، فأدركتني حيرة في التمييز والتخصيص، فألهمت أن قلت بديهة:

شهدنا بتقصير ألبابنا ::: فحسن اختيارك أولى بنا

وأنـــــت البصـــــير بأعـــــدائنا ::: وأنـــــت البصـــــير بأحبابنـــــا

قال: ثم أردفتها بدعاء، وهو: اللّهم يا من لا يعلم خيره إلاّ هو، أنت أعلم بأعدائنا وأودّائنا، فافعل بكل منهم ما يناسب حسن اختيارك لنا، حسبما علمته منّا، وكفى بك قديراً، وكفى بك بصيراً، وكفى بك لطيفاً، وكفى بك خبيراً، وكفى بك نصيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً كثيراً.

٢١٦ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق إمام النحاة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، النّفزي، الأثري، الغرناطي. قال ابن مرزوق الخطيب في حقّه: هو شيخ النحاة بالديار المصرية، وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية، انتهت إليه رئاسه التبريز في علم العربية واللّغة والحديث، سمعت عليه وقرأت، وأنشدني الكثير، وإذا أنشدني شيئاً ولم أقيّده استعاده منّي فلم أحفظه، فأنشدني وكنت أظنّه لنفسه ارتجالاً إلى أن أخبرني أحد أصحابنا عنه أنّه أخبره أنهما لأبي الحسن التّجاني أنشدهما له ببيته بالمدرسة الصالحيّة رحمه الله تعالى:

إنّ الـــــذي يـــــروي ولكنّـــــه ::: يحفـــظ مـــا يـــروي ولا يكتـــب
كصـــــخرةٍ تنبـــــع أمواجهـــــا ::: تســـقي الأراضـــي وهـــي لا تشـــرب

٢١٧ - منهم الشيخ النحوي الناظم الناثر أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، وله - رحمه الله تعالى - عدة تآليف، وولد سنة ٦٠٨، وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس، وممّن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهري، وذكره في رحلته وأثنى عليه، كما أثنى عليه العبدري في رحلته، فقال: حازم، وما أدراك ما حازم، وقد عرّفت به في أزهار الرياض ممّا يغني عن الإعادة، وكان هو والحافظ أبو عبد الله ابن الأبار فرسي رهان، غير أن ابن الأبار كان أكثر منه رواية.

٢١٨ - وهو الإمام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية أبو عبد الله

محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن عبد الله بن أبي بكر، القضاعي، الأندلسي، البلنسي، كتب ببلنسية عن السيد أبي عبد الله ابن السيد أبي حفص ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي، ثم عن ابنه السيد أبي زيد، ثم كتب عن الأمير ابن مردنيش، ولما نازل الطاغية بلنسية بعثه الأمير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص وفي ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدو، فأنشد السلطان قصيدته السينية التي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ::: إنّ السبيل إلى منجاتها درسا

وقد ذكرناها في غير هذا الموضع، ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع بأهله إلى تونس غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشّحه لكتب علامته في صدور مكاتباته، فكتبها مدة، ثم أراد السلطان صرفها لأبي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها، فكتبها مدة بالخط المشرقي، وكان آثر عند السلطان من المغربي، فسخط ابن الأبار أنفةً من إيثار غيره عليه، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى موضع العلامة منه لكاتبها، فجاهر بالرد، ووضعا استبداداً وأنفة، وعوتب على ذلك، فاستشاط غضباً، ورمى بالقلم، وأنشد متمثلاً:

اطلب العزّ في لظىً وذر الذ ::: لّ ولو كان في جنان الخلود

فنمي ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليفٍ رفعه إليه عد فيه من عوتب من الكتّاب، وأعتبه، وسماه إعتاب الكتّاب، واستشفع فيه بابنه المستنصر، فغفر السلطان له، وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة، ولما توفي السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر إلى حضور مجلسه، ثم حصلت له أمور معه كان آخرها أنه تقبض عليه، وبعث إلى داره، فرفعت إليه كتبه أجمع، وألفى أثناءها، فيما زعموا، رقعةً بأبيات أولها:

طغى بتونس خلفٌ ::: سمّوه ظلماً خليفه

فاستنشاط السلطان لها، وأمر بامتحانه، ثمّ بقتله، فقتل قعصاً بالرماح وسط محرّم سنة ٦٥٨، ثمّ أحرق شلوه، سيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه، وكان مولده ببلنسية سنة ٥٩٥.

٢١٩ - ومنهم الحافظ أبو المكارم جمال الدين بن مسدّي، وهو أبو بكر محمد، ويقال: أبو المكارم، ابن أبي أحمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى ابن مسدّي، المهلبي، الأزدي، الأندلسي.

شيخ السنّة، وحامل راياتها، وفريد الفنون، ومحكم آياتها، عرف الأحاديث وميز بين شهرتها وغرابتها، وكان المتلقي لراية السنّة بيمين عرابتها، طلع بمغربه شمساً قبل بزوغه بأفق المشرق، وملأ جزيرته الخضراء من بحر علومه المتدفق، وأفعمها بنوره المشرق، وطاف البلاد الإسلامية الغربية والمشرقية، فعقدت على كماله الخناصر، وجعله أرباب الدراية لمقلة الدين الباصر، ولقي أعيان الشيوخ في القطرين، وأخذ عنهم ما تقرّ به العين، ويدفع به عن القلب الرّين، مع فصاحة لسان، وطلاقة بيان وبنان، وخلال حسان، وبلاغة سحبته على سحبان، وظهر أزهار بان، وفوّضت إليه خطابة الحرم الشريف بمكة فكان كما يقال:

هذا السّوار لمثل هذا المعصم فكم وشى بها من مطارف للبلاغة وكم عنّم، حتى يظن الرائي عود منبره من وعظه مائساً، ولئن مال من سجع الحمام رطباً فقد مال من سجع هذا الإمام يابساً، وترجم على من لقي من الأعيان بسحر البيان، وفصّل أحوالهم بأحسن تبيان، وعدّتهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقاد لها الفضائل في أرسان، وأرى تحقيق قول القائل: جمع الله تعالى العالم في إنسان، وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر، وله مسند غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدمين والمتأخرين، وهو أشهر من نار على علم، وكان يكتب بالقلمين المغربي والمشرقي، وكلاهما في غاية الجودة، ومثل هذا يعدّ نادراً، توفي شهيداً مطعوماً من أناس كانوا يحسدونه، فختم الله تعالى له

بالشهادة، وبوّئ بها دار السعادة، وتوفي سنة ٦٦٣ بمكة، ومولده سنة ٥٩٨، رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا بأمثاله.

٢٢٠ - ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقي القبتوري - بفتح القاف، وسكون الباء الوحدة، وفتح التاء ثالثة الحروف، وسكون الواو، وبعدها راء - الإشبيلي المولد والمنشأ، ولد في شوال سنة ٦١٥، وقرأ على الأستاذ الدباج كتاب سيبويه والسبع، وله باع مديد في الترسّل مع التقوى والخير، وله إجازة من الرضي بن برهان والنجيب بن الصيقل، وكتب لأمير سبتة، وحدث بتونس عن الغرافي، وجاور زماناً، وتوفي بالمدينة سنة ٧٠٤، وحج مرتين.

٢٢١ - ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبي الخليل، الأموي الإشبيلي، النباتي، المعروف بابن الرومية كان عارفاً بالعشب والنبات، صنف كتاباً حسناً كثير الفائدة في الحشائش، ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم، ورحل إلى البلاد، ودخل حلب، وسمع الحديث بالأندلس وغيرها.

وأجاز البحر بعد سنة ٥٨٠ للقاء ابن عبيد الله بسبتة فلم يتهيأ له ذلك، وحج - رحمه الله تعالى - في رحلته الأولى، ولقي كثيراً، وروى عن عدد من رجال ونساء ضمنهم التذكرة له، وله مختصر كتاب الكامل لأحمد ان عدي في رجال الحديث، وله كتاب المعلم بما زاده البخاري على كتاب مسلم، ويعرف بالذباتي لمعرفته بالنبات، ومولده في نحو سنة ٥٦١، وتوفي رحمه الله تعالى بإشبيلية منسلخ ربيع النبوي سنة ٦٣٧، وقد رثاه أناس من تلامذته، وألف بعضهم في التعريف به، سمع من ابن زرقون وابن الجد وابن عفير وغير واحد كأبي ذر الحبشي، وسمع ببغداد من جماعة، وحدث بمصر الأحاديث من حفظه، ويقال له: الحزمي - بفتح الحاء - نسبة إلى مذهب ابن حزم لأنه كان ظاهري المذهب، وكان زاهداً صالحاً، وحكى بعضهم عنه أنه كان جالساً في دكانه بإشبيلية يبيع الحشائش وينسخ، فاجتاز به الأمير أبو عبد الله ابن هودٍ سلطان

الأندلس، فسلم عليه، فرد عليه السلام، واشتغل بنسخه، ولم يرفع إليه رأسه، فبقي واقفاً منتظراً أني رفع إليه رأسه، ساعة طويلة، فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى، وله كتابان حسنان في علم الحديث: أحدهما يقال له: الحافل في تكملة الكامل لابن عدي، وهو كتاب كبير؛ قال ابن الأبار: سمعت شيخنا أبا الخطاب ابن واجب يثني عليه ويستحسنه؛ والثاني اختصر فيه الكامل لأبي أحمد ابن عدي كما سبق في مجلدين، وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعة من أصحاب الحافظ أبي الوقت السجزي وأبي الفتح ابن البطي وأبي عبد الله الغراوي وغيرهم من الأئمة، وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالأندلس من روايته بالمشرق، وكان متعصباً لابن حزم بعد أن تفقه في المذهب المالكي على ابن زرقون أبي الحسين، وطالت صحبته له، وكان بصيراً بالحديث ورجاله، كثير العناية به، واختصر كتاب الدارقطني في غريب حديث مالك، وغيره أضبط منه، وفاق أهل زمانه في معرفة النبات، وقعد في دكان ليبيعه، قال ابن الأبار: وهنالك رأيته ولقيته غير مرة، ولم آخذ عنه، ولم أستجزه، وسمع منه جلّ أصحابنا، ومولده في شهر المحرم سنة ٥٦٧، وتوفي بإشبيلية ليلة الاثنين مستهلّ ربيع الآخر سنة ٦٣٧.

٢٢٢ - ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام، الغافقي، الإشبيلي، الشهير المسيلي، رحل حاجّاً، وقفل إلى بلده، وحدث عنه أبو بكر ابن خير بوفاة القاضي ابن أبي حبيب، وروى عن أبي محمد ابن أبي السعادات المروروذي الخراساني.

٢٢٣ - ومنهم العباس - ويقال: أبو جعفر - أحمد بن معدّ بن عيسى ابن وكيل التّجيبي، الزاهد ويعرف بابن الإقليشي، صاحب كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم، ، عارض به شهاب القضاعي، وأصل أبيه من اقليش، وضبطها بعضهم بضم الهمزة، وسكن دانية وبها ولد ونشأ، سمع أباه أبا بكر وأبا العباس ابن عيسى، وتلمذ له، ورحل إلى بلنسية فأخذ العربية والآداب، عن

أبي محمد البطليوسي، وسمع الحديث من صهره أبي الحسن طارق بن يعيش والحافظ أبي بكر ابن العربي وأبوي الوليد: ابن خيرة وابن الدباغ، ولقي بالمريّة أبا القاسم ابن ورد وأبا محمد عبد الحق بن عطية ووليّ الله سيدي أبا العباس ابن العريف، ورحل إلى المشرق سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وجاور بمكة سنين، وسمع بها من أبي الفتح الكروخي جامع الترمذي برباط أم خليفة العباسي سنة سبع وأربعين وخمسمائة، ثم كر راجعاً إلى المغرب فقبض في طريقه، وحدّث بالأندلس والمشرق، وكان عالماً، عاملاً، متصوفاً، شاعراً مجوّداً، مع التقدم في الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا وأهلها، والإقبال على العلم والعبادة، وله تصانيف: منها كتاب الغرر من كلام سيد البشر وكتاب ضياء الأولياء وهو أسفار عدة، وحمل الناس عنه معشّراته في الزهد، وكتبها الناس، وكان يضع يده على وجهه إذا قرأ القارئ فيبكي حتى يعجب الناس من بكائه، وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن يمينه وشماله، وقد وصف غير واحد إمامته وعلمه وورعه وزهده، وروى عنه أبو الحسين ابن كوثر وابن بيبش وغيرهما.

٢٢٤ - ومنهم أبو العباس أحمد بن عمر، المعافري، المرسي، وأصله من طلبيرة، ويعرف بابن إفرند، روى عن أبي الحسين الصفدي وغيره كالقاضي الحافظ أبي بكر ابن العربي وأبي محمد الرشاطي وأبي إسحاق ابن حبيش وغيرهم، وله رحلة حج فيها، ولقي أبا الفتح ابن الرندانقاني - بلدٍ بين سرخس ومرو - من أصحاب أبي حامد الغزالي.

٢٢٥ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى، الضبي، من أهل لورقة، رحل حاجّاً، وكان منقبضاً زاهداً صواماً قواماً، وأقرأ القرآن، وسمع الحديث، وممّن حدث عنه الحافظان أبو سليمان وأبو محمد ابن حوط الله، ولقيه أبو سليمان بلورقة سنة ٥٧٥، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٥٧٧، وقد قارب المائة.

٢٢٦ - ومنهم أبو عمر ابن عات، وهو أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي، من أهل شاطبة، سمع أباه وأبا الحسن ابن هذيل وأبا عبد الله ابن سعادة وابن حبيش وغير واحد وطائفة كثيرة، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة، وسمع أبا الطاهر السّلفي وأبا الطاهر ابن عوف وغيرهما ممّن يطول ذكره، وأجاز له أبو الفرج ابن الجوزي وغيره ممّن أخذ عنه وسمع منه، وقد ضمن ذكر أشياخه وجملة صالحة من مروياته عنهم برنامجيه اللذين سمى أحدهما بالنزهة في التعريف بشيوخ الوجهة وهو كتاب حافل جامع، والآخر بريحانة التنفس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس. قال ابن عبد الملك المراكشي في الصلة: حدثنا عنه شيخنا أبو محمد بن علي بن القطان، وكان من أكابر المحدثين، وجلة الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة، يسرد الأسانيد والمتون ظاهراً فلا يخل بحفظ شيء منها، متوسط الطبقة في حفظ فروع الفقه ومعرفة المسائل، إذ لم يعن بذلك عنايته بغيره، فكان أهل شاطبة يفاخرون بأبوي عمر ابن عبد البر وابن عات، وكان على سنن السلف الصالح في الانقباض، ونزارة الكلام، ومتانة الدين، وأكل الحشف، ولزوم التقشف، والتقلل من الدنيا، والزهد فيها، والمثابرة على كثير من أفعال البر كالأذان والإمامة وبذل المعروف والتوسع بالصدقات على الضعفاء والمساكين.

وحكي أنه حضر في جماعة من طلبة العلم لسماع السّير على بعض شيوخهم، فغاب الكتاب أو القارئ بكتابه، فقال أبو عمر: أنا أقرأ لكم، فقرأ لهم من حفظه، وقال أبو عمر عامر بن نذير: لازمته مدة ستة أشهر، فلم أر أحفظ منه، وحضرت إسماع الموطإ وصحيح البخاري منه، فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر أوراق عرضاً بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح، لا يتوقف في شيء من ذلك، انتهى.

وقال بعض المؤرخين: إنه كان آخر الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً لا يخل بحفظ شيء منها، موصوفاً بالدراية والرواية، غالباً

عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يلبس الخشن، ويأكل الحشف، وربما أذن في المساجد، وله تآليف دالة على سعة حفظه، مع حظ من النظم والنثر، وشهد وقيعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها، وكانت السبب الأقوى في تحيّف الروم بلادها حتى استولت عليها، ففقد حينئذٍ ولم يوجد حيّاً ولا ميتاً، وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة، ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، قاله ابن الأبار، وهو ممّن أجاز له المذكور فيما رواه أو ألفه، رحمه الله تعالى.

٢٢٧ - ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن حنون، البهراني، من ساكني إشبيلية، وأصله من لبلة، روى عن أبيه وابن الجد وابن زرقون وابن جهور وغيرهم من أعلام الأندلس، ثمّ رحل إلى المشرق، فسمع ببغداد من أبي حفص عمر بن طبرزد، وبخراسان من المؤيد الطوسي، وبهراة من أبي روح عبد المعز، وبمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني، ومن جماعة غير هؤلاء، وسمع أيضاً بدمشق من أبي الفضل الحرستاني وسواه، وبها توفي قبل العشرين وستمائة، فيما نقل ابن الأبار عن ابن نقطة، وقال غيره: إنه مات سنة خمس وعشرين وستمائة.

٢٢٨ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد، المخزومي، من أهل قرطبة، ويعرف أبوه بكوزان، روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده، ورحل حاجّاً فلقي بالإسكندرية أبا الحسن ابن المقدسي وسمع منه.

٢٢٩ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن عياش، الكناني، المرسي، سمع من ابن بشوال موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى والقعنبي وابن بكير بقراءة أبي محمد ابن حوط الله، ورحل إلى المشرق سنة تسع وسبعين وخمسمائة، فحج سنة ثمانين وبعدها، وأقام بالحجاز والشام مدة، ولقي أبا الطاهر الخشوعي بدمشق فسمع منه مقامات الحريري وأخذها الناس عنه، وسمع من أبي القاسم ابن عساكر السنن للبيهقي، ومن أبي حفص الميانشي

جامع الترمذي، وقفل إلى الأندلس في سنة سبع وتسعين، وحدث بيسير، وكان يحسن عبارة الرؤيا، وكفّ بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها، وتوفي على إثر ذلك، ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

٢٣٠ - ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن حصن بن أحمد بن حزم الغافقي، ويقال فيه: إبراهيم بن حصن بن عبد الله بن حصن، أندلسي، سكن دمشق، وولي الحسبة بها ويكنى أبا إسحاق، سمع ببغداد من أبي بكر ابن مالك القطيعي وطبقته، وبدمشق من عبد الوهاب الكلابي ويوسف بن القاسم الميانجي، وبمصر من أبي طاهر الذّهلي وأبي أحمد الغطريفي، وله أيضاً سماع بالرملة وأطرابلس والدينور وغيرها من البلدان، وحدث بيسير؛ روى عنه أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الله الجبّان من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكناني، وكان مالكياً، وقيل: إنه يذهب إلى الاعتزال، وكان صارماً في الحسبة، ووليها سنة خمس وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم العبيدي، وتوفي بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وأربعمائة، قيل: ثاني عيد الأضحى، وقيل غير ذلك، ذكره ابن عساكر، رحمه الله تعالى.

قلت: ما سمعت بمالكي معتزلي غير هذا، ولعله كان مالكيّاً بالمغرب، فلمّا دخل في خدمة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبته لمذهب الاعتزال، فالله تعالى أعلم.

٢٣١ - ومنهم أبو أمية إبراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد، الغافقي، من أهل المرية، ونزل مرسية، سمع ببلده من ابن شفيع، وأخذ عنه القراءات، ومن الحافظ ابن سكرة وابن زغيبة وعبد القادر بن الحناط، وبقرطبة من ابن عتاب وابن طريف وأبي بحر الأسدي وابن مغيث وغيرهم، ورحل حاجّاً، فسمع بمكة من أبي عليّ ابن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها في شعبان سنة ست وعشرين، وسمع أيضاً من أبي الفتح سلطان بن إبراهيم المقدسي، وقفل إلى بلده، وانتقل بعد الحادثة عليه إلى مرسية، وولي القضاء والخطبة هنالك،

وحدّث، وأخذ عنه، وكان فقيهاً مشاوراً، وقيل: إن ابن حبيش سمع منه الأحاديث النسطورية، وأسمع صحيح البخاري آخر ذي الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وكان يحدّث به عن سلطان بن إبراهيم عن كريمة المروزية، وحكى رحمه الله تعالى عن أبي ذرٍّ الهروي أنه قال عند موته: عليكم بكريمة فإنها تحمل كتاب البخاري من طريق أبي الهيثم، رحم الله تعالى الجميع.

٢٣٢ - ٢٣٣ - ومنهم أبو القاسم ابن فورتش، وهو إسماعيل بن يحيى ابن عبد الرحمن، السّرقسطي، وأخوه القاضي محمد بن يحيى، وكانا جميعاً زاهدين، لهما رحلة سمعا فيها من أبي ذر الهروي بمكة، وعادا إلى بلدهما، وولي محمد منهما القضاء، وقد لقيهما القاضي الحافظ أبو علي ابن سكرة ولم يسمع منهما، ويرويان عن أبي عمر الطلمنكي وأبي الحزم ابن أبي درهم، وتوفي أبو القاسم في نحو الخمسمائة.

٢٣٤ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن عمر، القرشي، العلوي، الإشبيلي، رحل حاجّاً، ودخل العراق والموصل، وقيد الكثير ورواه، وسمع من أبي حفص اليانشي بمكة سنة ٥٧٠، وحدث بالموطإ عن أبي الحسن علي بن هابيل الأنصاري عن أبي الوليد الباجي، وحدث أيضاً عن غيره بما دل على أنه كان يخلط ولا يضبط، وكذلك قال أبو الصبر: كان له في الموطإ إسناد عالٍ جدّاً فتصفحته فوجدته ينقص منه رجل واحد، فاستربت في الرواية عنه بعد تحسين الظن به، ولم يتنبه أبو الصبر لأن ابن هابيل وغيره من شيوخه مجهولون، وأبو الصبر ممّن روى عن المذكور، وهو أبو الصبر السبتي، والله تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل.

٢٣٥ - ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد ابن عبد الله بن إبراهيم بن خليل، النفزي، الحميري، التاكرنّيّ.

قال في تاريخ إربل: كان شابّاً متأدباً فاضلاً، قدم مصر، وله شعر حسن،

ولد سنة ٥٩٠ بتاكرنّا من بلاد الأندلس، وهي من نظر قرطبة، وتوفي بأرزن من ديار بكر سنة ٦٢٩، عائداً من آمد، رحمه الله تعالى.

* * *

٢٣٦ - علي بن أحمد الحميري

من المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الإمام النحوي اللغوي نور الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن حمدون، الحميري، الأندلسي، المالقي.

* * *

٢٣٧ - عبد البر بن فرسان الغسّاني

عبد البر بن فرسان بن إبراهيم بن عبد الرحمن، الغسّاني، الوادي آشي، أبو محمد، وله أخبار كثيرة في الحماسة وعلوّ الهمة. وكان - رحمه الله تعالى - من جلّة الأدباء، وفحول الشعراء، وبرعة الكتّاب، كتب عن ابن غانية الأمير أبي زكريا يحيى بن إسحاق بن محمد بن علي السوفي الميرقي الثائر على منصور بني عبد المؤمن، ثم على من بعده من ذريته إلى أيام الرشيد منهم، وكان منقطعاً إليه، وممّن صحبه في حركاته، وكان آيةً في بعد الهمة، والذهاب بنفسه، والغناء في مواقف الحرب، والجنسية علة الضم، إذ ابن غانية كان غاية في ذلك أيضاً، ووجّه الميرقي المذكور عشية يوم من أيام حروبه إلى المأزق، وقد طال العراك، وكاد الناس ينفصلون عن الحرب إلى أن يباكروها من الغد، فلمّا بلغ الصدر اشتدّ على الناس وذمر أرباب الحفيظة، وأنهى إليهم العزم من أميره في الحملة، فانهزم عدوّهم شرّ هزيمة، ولم يعد أبو محمد إلاّ في آخر الليل بالأسلاب والغنيمة، فقال له الأمير: وما حملك على ما صنعت فقال: الذي عملت هو شأني، وإذا أردت من يصرف الناس عن الحرب ويذهب ريحه فانظر غيري.

وتشاجر له ولد صغير مع تربٍ له من أولاد أميره أبي زكريا فنال منه ولد

الأمير، وقال: وما قدر أبيك فلمّا بلغ ذلك أباه خرج مغضباً لحينه، ولقي ولد الأمير الخاطب لوالده فقال: حفظك الله تعالى، لست أشكّ في أني خديم أبيك، ولكني أحب أن أعرفك بنفسي ومقداري ومقدار أبيك، اعلم أن أباك وجّهني رسولاً إلى دار الخلافة ببغداد بكتاب عن نفسه، فلمّا بلغت بغداد أنزلت في دار اكتريت لي بسبعة دراهم في الشهر، وأجري عليّ سبعة دراهم في اليوم، وطولع بكتابي، وقيل: من الميرقي الذي وجّهه فقال بعض الحاضرين: هو رضا مغربي ثائر على أستاذه، فأقمت شهراً، ثم استدعيت، فلمّا دخلت دار الخلافة وتكلمت مع من بها من الفضلاء وأرباب المعارف والآداب اعتذروا إلي، وقالوا للخليفة: هذا رجل جهل مقداره، فأعدت إلى محل اكتري لي بسبعين درهماً، وأجري عليّ مثلها في اليوم، ثم استدعيت فودعت الخليفة، واقتضيت ما تيسر من حوائجه وصدر لي شيء له حظ من صلته، وانصرفت إلى أبيك، فالمعاملة الأولى كانت على قدر أبيك عند من يعرف الأقدار، والثانية كانت على قدري؛ وترجمته رحمه الله متسعة.

٢٣٨ - ومنهم عبد المنعم بن عمر الغساني، الوادي آشي، المؤلف، الرحالة، المتجول ببلاد المشرق سائحاً، صاحب المؤلفات الكثيرة التي منها جامع أنماط السائل في العروض والخطب والرسائل. توفي سنة ٦٠٣، رحمه الله تعالى.

٢٣٩ - ومنهم أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد، القرطبي، الخزرجي، كان إماماً في التفسير والفقه والحساب والفرائض والنحو واللغة والعروض والطب، وله تآليف حسان، وشعر رائق، وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٠١.

٢٤٠ - ومنهم أبو العباس القرطبي، صاحب المفهم في شرح مسلم، وهو أحمد بن عمر بن إبراهيم بن عمر الأنصاري، المالكي، الفقيه، المحدث، المدرس، الشاهد بالإسكندرية.

ولد بقرطبة سنة ٥٧٨، وسمع الكثير هنالك، ثمّ انتقل إلى المشرق، واشتهر

وطار صيته، وأخذ الناس عنه، وانتفعوا بكتبه، وقدم مصر، وحدث بها، واختصر الصحيحين، وكان بارعاً في الفقه والعربية، وعارفاً بالحديث، وممّن أخذ عنه القرطبي صاحب التذكرة، ومن تصانيفه رحمه الله تعالى: المفهم في شرح مسلم وهو من أجلّ الكتب، ويكفيه شرفاً اعتماد الإمام النووي، رحمه الله تعالى، عليه في كثير من المواضع، وفيه أشياء حسنة مفيدة، ومنها اختصاره للصحيحين كما مر، وله غير ذلك وتوفي رحمه الله تعالى بالإسكندرية رابع ذي القعدة سنة ٦٥٦، وكان يعرف في بلاده باب المزين، وله كتاب كشف القناع عن الوجد والسماع أجاد فيه وأحسن، وكان يشتغل أولاً بالمعقول، وله اقتدار على توجيه المعاني بالاحتمال.

قال الشيخ شرف الدين الدمياطي: أخذت عنه، وأجاز لي مصنفاته، رحمه الله تعالى، وحدث بالإسكندرية وغيرها، وصنف غير ما ذكرناه، وكان إماماً عالماً جامعاً لمعرفة الحديث والفقه والعربية وغيرها.

٢٤١ - ومنهم العارف الكبير، الولي الصالح الشهير، أبو أحمد جعفر ابن عبد الله بن محمد بن سيد بونه، الخزاعي، الأندلسي، أحد الأعلام المنقطعين القربين أولي الهداية، كان - رضي الله تعالى عنه ونفعنا به - كثير الأتباع، بعيد الصيت، فذّاً شهيراً.

قال الحافظ ابن الزبير: هو أحد الأعلام المشاهير فضلاً وصلاحاً، قرأ ببلنسية وتفقه، وحفظ نصف المدوّنة، وأقرأها، وكان يؤثر التفسير والحديث في رحلته من الأندلس جلّةً أكبرهم الولي الكبير سيدي أبو مدين شعيب، أفاض الله تعالى علينا من أنواره، وانتفع به، ورجع عنه بعجائب، فشهر بالعبادة، وتبرك الناس به، فظهرت عليه بركته، توفي رحمه الله تعالى في شوال سنة ٦٢٤، وعاش نيّفاً وثمانين سنة.

٢٤٢ - ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن يعقوب، الخزرجي، الأنصاري، الشاطبي، الفقيه، القاضي، الصّدر، التفنن، المحصل، المجيد، له علم محكم،

وعقد صحيح مبرم، رحل إلى المشرق وحج، وكانت رحلته بعد تحصيله فزاد فضلاً إلى فضل، ونبلاً إلى نبل، وكان متثبتاً في فقهه، لا يستحضر من النقل الكثير، ولكنه يستحضر ما يحتاج إليه، وكان له علم بالعربية وأصول الفقه، ومشاركة في أصول الدين، له شرح على الجزولية، وكان أبوه قاضياً، وبيتهم بيت قضاء وعلم وسؤدد متوارث ومجد مكسوب ومنسوب؛ ثم ولي قضاء بجاية، فكان في قضائه على سنن الفضلاء وطريق الأولياء العقلاء بالحق مع الصدق، معارضاً للولاة، وكان يرى أن لا يقدم الشهود إلاّ عند الحاجة، وأما إن حصل من تحصل به الكفاية فلا يقدم غيره، ويرى أن الكثرة مفسدة، وقد طلب منه الملك أن يقدم رجلاً من أهل بجاية، فقال له مشافهة: إن شئتم قدمتموه وأخرتموني؛ وكان إذا جرى الأمر في مجرى الشهادة وما قاله القاضي ابن العربي أبو بكر وغيره من أنها قبول قول الغير على الغير بغير دليل يرى أن هذا من الأمر العظيم الذي لا يليق أن يمكن منه إلاّ الآحاد الذين تبين فضلهم في الوجود؛ وكان يرى أن جنايات الشاهد إنما هي صحيفة من يقدمه من باب قوله عليه الصلاة والسلام " من سن سنة حسنة، ومن سن سنة سيئة " وقد سئل: من أولياء الله فقال: " شهود القاضي، لأنهم لا يأتون كبيرة، ولا يواظبون على صغيرة "، وإن كانت الشهادة على هذه الصفة فلا شيء أجلّ منها، وإن كانت خطة لا صفة فلا شيء أخس منها، ولما كانت واقعة بني مرين بطنجة عرض عليه أهلها أن يتقدم وأن يبايعوه، فقال: والله لا أفسد ديني. ولما توفي عجز القاضي الذي تولى بعده عن سلوك منحاه، واقتفاء سننه الذي اقتفاه، قال هذا كله بمعناه وبعضه بحروفه الغبرينيّ في عنوان الدراية في علماء بجاية.

٢٤٣ - ومنهم محمد بن يحيى الأندلسي، اللّبسي - بلام فموحدة فسين - قاضي القضاة، أخذ عن الحافظ ابن حجر، ونوّه به عند الأشرف، حتى ولاه قضاء المالكية بحماة، وسار سيرة السلف الصالح، ثم حنق على نائبها في بعض الأمور، وسافر إلى حلب مظهراً إرادة السماع على حافظها البرهان.

ووصفه ابن حجر في بعض مجاميعه بقوله: الشيخ الإمام العالم العلاّمة في الفنون، قاضي الجماعة. وقال إنه إنسان حسن إمام في علوم منها الفقه والنحو وأصول الدين، يستحضر علوماً كأنها بين عينيه، ووصفه أيضاً بعلامة دهره، وخلاصة عصره، وعين زمانه، وإنسان أوانه، جامع العلوم، وفريد كل منثور ومنظوم، قاضي القضاة، لا زالت رايات الإسلام به منصورة، وأعلام الإيمان به منشورة، ووجوه الحكام الشرعية بحسن نظره محبورة، ولد سنة ٨٠٦، وتوفي ببرسّا من بلاد الروم أواخر شعبان سنة ٨٨٤، قاله السخاوي في الضوء اللامع.

٢٤٤ - ومنهم الوزير الشهير أبو عبد الله ابن الحكيم، الرندي، ذو الوزارتين، رحل إلى مصر والحجاز والشام، وأخذ الحديث عن جماعة، وقد ترجمناه في باب مشيخة لسان الدين عند تعرضنا لذكر ابنه الشيخ أبي بكر ابن الحكيم، ولا بأس أن نزيد هنا ما ليس هنالك، فنقول: إن من مشايخه برندة الشيخ الأستاذ النحوي أبا الحسن علي بن يوسف العبدري السفاح، أخذ عنه العربية، وقرأ عليه القرآن بالروايات السبع، وأخذ عن الخطيب بها أبي القاسم ابن الأيسر، وأخذ - رحمه الله تعالى - عن جملة من أعلام الأندلس، وأخذ في رحلته عن الجلّ الذين يضيق عن أمثالهم الحصر، فمن شيوخه الحافظ أبو اليمن ابن عساكر، لقيه بالحرم الشريف، وانتفع به، وأكثر من الرواية عنه، والشيخ أبو العز عبد العزيز ابن عبد المنعم الحراني المعروف بابن هبة الله، والشيخ الشرف أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمر بن معطي ابن الإمام الجزائري - جزائر المغرب نزيل بغداد والشيخ الصفاء خليل بن أبي بكر الحنبلي، لقيه بالقاهرة، والشيخ رضي الدين أبو بكر القسمطيني، والشيخ شرف الدين الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي إمام الديار المصرية في الحديث وحافظها ومؤرخها، ونال ابن الحكيم - رحمه الله تعالى - من الرياسة والتحكّم في الدولة ما صار كالمثل السائر، وخدمته العلماء الأكابر، كابن خميس وغيره،

وأفاض عليهم سجال خيره، ثم ردت الأيام منه ما وهبت، وانقضت أيامه كأن لم تكن وذهبت، وقتل يوم خلع سلطانه، ومثّل به سنة ٧٠٨، رحمه الله تعالى، وانتهب من أمواله وكتبه وتحفه ما لا يعلم قدره إلاّ الله تعالى، أثابه الله تعالى بهذه الشهادة بجاه نبينا محمد وشرف وكرم ومجد وعظم.

٢٤٥ - ومن المرتحلين من الأندلس إلى المشرق الحافظ نجيب الدين أبو محمد عبد العزيز ابن الأمير القائد أبي علي الحسن بن عبد العزيز بن هلال، اللخمي، الأندلسي، ولد سنة ٥٧٧ تقريباً، ورحل فسمع بمكّة من زاهر بن رستم، ببغداد من أبي بكر أحمد بن سكينة وابن طبرزد وطائفة، وبواسط من أبي الفتح ابن المنداني، وبأصبهان من عين الشمس الثقفية وجماعة، وبخراسان من المؤيّد الطوسي وأبي روح وأصحاب الفراوي وهذه الطبقة، وخطّه مليح مغربي في غاية الدقة. وكان كثير الأسفار، ديّناً متصوفاً كبير القدر، قال الضياء في حقّه: رفيقنا وصديقنا، توفي بالبصرة عاشر رمضان سنة ٦١٧، ودفن إلى جانب قبر سهل التّستري رضي الله تعالى عنه، وما رأينا من أهل المغرب مثله، قال ابن نقطة: كان ثقة فاضلاً، صاحب حديث وسنّة كريم الأخلاق، وقال مفضل القرشي: كان كثير المروءة غزير الإنسانية، وقال ابن الحاجب: كان كيّس الأخلاق، محبوب الصورة، لين الكلام، كريم النفس، حلو الشمائل، محسناً إلى أهل العلم بماله وجاهه، وقيل: إنّه أوصى بكتبه للشرف المرسي، رحمه الله تعالى.

٢٤٦ - ومنهم محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد، أبو بكر ابن العربي الإشبيلي، حفيد القاضي الحافظ الكبير أبي بكر ابن العربي، قرأ لنافع على قاسم ابن محمد الزقاق صاحب شريح، وحج فسمع من السّلفي وغيره، ثم رحل بعد نيّف وعشرين سنة إلى الشام والعراق، وأخذ عن عبد الوهاب بن سكينة وطبقته، ورجع فأخذوا عنه بقرطبة وإشبيلية، ثم سافر سنة ٦١٢، وتصوّف وتعبّد، وتوفّي بالإسكندرية سنة ٦١٧، قاله الذهبي في تاريخه الكبير.

٢٤٧ - ومن المرتحلين من الأندلس يحيى بن عبد العزيز، المعروف بابن الخرّاز، أبو زكريا، القرطبي، سمع من العتبي وعبد الله بن خالد ونظرائهما من رجال الأندلس، ورحل فسمع بمصر من المزني والربيع بن سليمان المؤذن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى محمد بن عبد الله ابن ميمون وعبد الغني بن أبي عقيل وغيرهم، وسمع بمكّة من علي بن عبد العزيز، وكانت رحلته ورحلة سعيد بن عثمان الأعناقي وسعيد بن حميد وابن أبي تمام واحدة، وسمع الناس من يحيى المذكور مختصر المزني ورسالة الشافعي وغير ذلك من علم محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وكان يميل في فقهه إلى مذهب الشافعي، وكان مشاوراً مع عبيد الله بن يحيى وأضرابه، وحدث عنه من أهل الأندلس محمد بن قاسم وابن بشر وابن عبادة وغير واحد، ولم يسمع منه ابنه محمد لصغره، وتوفّي سنة ٢٩٥، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٢٤٨ - ومنهم الشيخ الإمام العالم العامل الكامل الزاهد الورع، العلامة جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، البكري، الشريشي المالكي، كان من أكابر الصالحين والمتورعين، ومولده سنة ٦٠١ بشريش، وتوفّي برباط الملك الناصر بسفح قاسيون سنة ٦٨٥ في ٢٤ رجب، ودفن قبالة الرباط. وله المصنفات المفيدة، تولّى مشيخة الصخرة بحرم القدس الشريف، وقدم دمشق، وتولى مشيخة الرباط الناصري، فلمّا توفّي قاضي القضاة جمال الدين المالكي ولوه مشيخة المالكية بدمشق، وعرضوا عليه القضاء فلم يقبل، وبقي في المشيخة إلى أن توفّي، رحمه الله تعالى ونفعنا به وبأمثاله، آمين.

٢٤٩ - ومن الراحلين من الأندلس الفقيه الصالح أبو بكر ابن محمد بن علي ابن ياسر، الجيّاني، المحدث الشهير.

ذكره ابن السمعاني وغيره، سافر الكثير، وورد العراق، وطاف في بلاد خراسان، وسكن بلخ، وأكثر من الحديث، وحصّل الأصول، ونسخ بخطّه ما لا

يدخل تحت حصر، قال ابن السمعاني: وله أنس ومعرفة بالحديث، لقيته بسمرقند، وكان قد قدمها سنة ٥٤٩ مع جماعة من أهل الحجاز لدين له عليهم، وسمعت منه جزءاً خرّجه من حديث يزيد بن هرون ممّا وقع له عالياً، وجزءاً صغيراً من حديث أبي بكر ابن أبي الدنيا، وأحاديث أبي بكر الشافعي في أحد عشر جزءاً المعروف بالغيلانديات بروايته عن ابن الحصين عن ابن غيلان، وكان مولده بجيّان سنة ٤٩٣ أو في التي بعدها، الشك منه، ثم لقيته بنسف في أواخر سنة خمسين ولم أسمع منه شيئاً، ثم قدم علينا في بخارى في أوائل سنة إحدى وخمسين وسمعت من لفظه جميع كتاب الزهد لهنّاد بن السّري الكوفي بروايته عن أبي القاسم سهل بن إبراهيم المسجدي عن الحاكم أبي عبد الرحمن محمد بن أحمد الشاذياخي عن الحاكم أبي الفضل محمد بن الحسين الحدّادي عن حماد بن أحمد السلمي عن مصنّفه، وأخبرنا الجيّاني بسمرقند، أنبأنا أبو القاسم هبة الله بن محمد ابن الحصين الكاتب ببغداد، أنبأنا أبو طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غيلان البزار، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي، أخبرنا محمد بن مسلمة، أنبأنا يزيد بن هرون أنبأنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي قال: **إذا دخل أهل الجنّة الجنة وأهل النار النار ناداهم منادٍ: يا أهل الجنّة، إن لكم عند الله موعداً لم تروه**، قالوا: وما هو ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنّة وينجينا من النار قال: **فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب من النظر إليه** ثم تلا هذه الآية {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦].

٢٥٠ - ومنهم أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن سعيد بن حزم، الأندلسي، المري، ذكره الحميدي في تاريخه وأثنى عليه، وقال: كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمّة العالية في طلب العلم، وكتب بالأندلس فأكثر، ورحل إلى المشرق فاحتفل في العلم والرواية والجمع.

وذكره الحافظ الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، وقال: هو

من بيت جلالة وعم ورياسة، وأخرج عنه في غير موضع من مصنّفاته، وقدم بغداد ودمشق وحدّث فيهما، ثم عاد إلى المغرب فتوفّي ببلده المريّة ٤٥٤، وحدّث عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري، ويعرف بابن الإفليلي، الأندلسي النحوي وغيره، وكان صدوقاً ثقة، رحمه الله تعالى.

٢٥١ - ومنهم أبو زكريا يحيى بن قاسم القرطبي، الفقيه المالكي أحد الأئمة الزهاد، كان يصوم حتى يخضرّ، توفّي سنة ٢٧٢، وقيل: سنة ٢٧٨، ورحل إلى المشرق، وسمع من عبد الله بن نافع صاحب مالك بن أنس، ومن سحنون بن سعيد، وغيرهما، وكان يفضّله ويصفه بالفضل والعلم، وهو صاحب الشجرة، قال عباس بن أصبغ: كانت في داره شجرة تسجد لسجوده إذا سجد، قاله ابن الفرضي، رحمه الله تعالى، ورضي عنه، ونفعنا به.

٢٥٢ - ومنهم أبو بكر يحيى بن مجاهد بن عوانة، الفزاري، الإلبيري، الزاهد، سكن قرطبة، قال ابن الفرضي: كان منقطع القرين في العبادة، بعيد الاسم في الزهد، حجّ، وعني بعلم القرآن والقراءات والتفسير، وسمع بمصر من الأسيوطي وابن الورد وابن شعبان وغيرهم، وكان له حظ من الفقه والرواية إلا أن العبادة غلبت عليه، وكان العمل أملك به، ولا أعلمه حدّث، توفّي رحمه الله تعالى سنة ست وستين وثلاثمائة، ودفن في مقبرة الرّبض، وصلى عليه القاضي محمد بن إسحاق بن السليم، ثم صلى عليه حيّان مرّة ثانية، رحمه الله تعالى وأفاض علينا من أنوار عنايته آمين.

٢٥٣ - ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن إبراهيم، الصدفي، الإشبيلي، الأديب البارع، له نظم حسن، وموشّحات رائقة، قرأ على الأستاذ الشلوبين وغيره، ومدح الملوك، ورحل من الأندلس فقدم ديار مصر، ومدح بها بعض من كان يوصف بالكرم، فوصله بنزر يسير، فكرّ راجعاً إلى المغرب، فتوفّي ببرقة، رحمه الله تعالى، وكان من النجباء في النحو وغيره.

٢٥٤ - ومنهم أبو يحيى زكريا بن خطاب، الكلبي، التّطيلي، رحل سنة

٢٩٣، فسمع بمكّة كتاب النسب للزبير بن بكار من الجرجاني الذي حدث له عن علي بن عبد العزيز بن الجمحي عن الزبير، وروى موطأ مالك ابن أنس رواية أبي مصعب أحمد بن عبد الملك الزهري عن إبراهيم بن سعيد الحذّاء، وسمع بها من إبراهيم ابن عيسى الشيباني والقزاز في آخرين، وقدم الأندلس فكان الناس يرحلون إليه إلى تطيلة للسماع منه، واستقدمه المستنصر الحكم وهو وليّ عهد فسمع منه أكثر مروياته، وسمع منه جماعة من أهل قرطبة، وكان ثقة مأموناً، ولي قضاء بلده تطيلة إحدى مدائن الأندلس بعد عمر بن يوسف ابن الإمام.

٢٥٥ - ومنهم سعد الخير بن محمد بن سعد، أبو الحسن، الأنصاري، البلنسي، المحدّث، رحل إلى أن دخل الصين، ولذا كان يكتب البلنسي الصيني، وركب البحار، وقاسى المشاق، وتفقه ببغداد على أبي حامد الغزالي، وسمع بها أبا عبد الله النّعّال وطراداً وغيرهما، وبأصبهان أبا سعد المطرز، وسكنها وتزوّج بها وولدت له فاطمة بها، ثم سكن بغداد، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعاني وأبو موسى المديني وأبو اليمن الكندي وأبو الفرج ابن الجوزي وابنته فاطمة بنت سعد الخير في آخرين، وتأدب على أبي زكريا التبريزي، وتوفّي في المحرم سنة ٥٤١، رحمه الله تعالى، ببغداد، وصلى عليه الغزنوي، والشيخ الواعظ بجامع القصر، وكان وصيّه، وحضر جنازته قاضي القضاة الزينبي والأعيان، ودفن إلى جانب عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنهم أجمعين بوصية منه.

٢٥٦ - ومنهم أبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلفون، الإستجي، سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وابن أبي دليم وغيرهما، ورحل فسمع بمكّة من ابن الأعرابي، وببغداد من أبي علي الصفار وجماعة، وبها مات.

٢٥٧ - ومنهم أبو عثمان سعيد الأعناقي، ويقال: العناقي، القرطبي، كان ورعاً زاهداً عالماً بالحديث بصيراً بعلله، سمع من محمد بن وضاح وصحبه

ومن يحيى بن إبراهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الخشني وغيرهم، ورحل فلقي جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق كتب عنه مسند أسد بن موسى وغير ذلك من كتبه، ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم والحارث بن مسكين في آخرين، وحدث عنه أحمد بن خالد وابن أيمن ومحمد ابن قاسم وابن أبي زيد في عدد كثير، ومولده سنة ٢٣٣، وتوفّي سنة ٣٠٥ بصفر.

والأعناقي: نسبة إلى موضع يقال له: أعناق وعناق.

٢٥٨ - ومنهم أبو المطرف عبد الرحمن بن خلف، التجيبي، الإقليشي، روى عن أبي عثمان سعيد بن سالم المجريطي وأبي ميمونة دراس بن إسماعيل فقيه فاس، ورحل حاجّاً سنة ٣٤٩، فسمع بمكّة من أبي بكر الآجري وأبي حفص الجمحي، وبمصر من أبي إسحاق ابن شعبان، وروى عنه كتاب الزاهي جميعه وقد قرئ عليه جميعه، وحمل عنه، ومولده سنة ٣٠٣، رحمه الله تعالى.

٢٥٩ - ومنهم أبو الأصبع عبد العزيز بن علي، المعروف بابن الطحان، الإشبيلي المقرئ، ولد بإشبيلية سنة ٤٩٨، ورحل فدخل مصر والشام وحلبا، توفّي بحلب بعد سنة ٥٥٩، وله كتاب نظام الأداء في الوقف والابتداء، ومقدمة في مخارج الحروف، ومقدمة في أصول القراءات، وكتاب الدعاء، وكان من القراء المجوّدين الموصوفين بالإتقان ومعرفة وجوه القراءات، وسمع الحديث على شريح ابن محمد بن أحمد بن شريح الرعيني خطيب إشبيلية وأبي بكر يحيى بن سعادة القرطبي.

وأخذ القراءات ببلده عن أبي العباس ابن عيشون وشريح بن محمد، وروى عنهما وعن أبي عبد الله ابن عبد الرزّاق الكلبي، وروى مصنّف النسائي عن أبي مروان ابن مسرّة، وتصدّى للإقراء، ثم انتقل إلى فاس، وحج ودخل العراق، وقرأ بواسط القراءات وأقرأها أيضاً، ودخل الشام واشتهر ذكره، وجلّ قدره، وروى عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي الحافظ، وعلي بن يونس، قال

بعضهم: سمعت غير واحد يقول: ليس بالغرب أعلم بالقراءات من ابن الطحان، قرأ عليه الأثير أبو الحسن محمد بن أبي العلاء وأبو طالب ابن عبد السميع وغيرهما، رحم الله تعالى الجميع.

٢٦٠ - ومنهم أبو الأصبغ عبد العزيز بن خلف، المعافري، قدم مصر سنة ٥٠٢، وولد سنة ٤٤٨، وحدث بالموطإ عن سليمان بن أبي القاسم، أنبأنا أبو عمر ابن عبد البر، أنبأنا سعيد بن نصر، عن قاسم بن أصبغ عن محمد ابن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة، رضي الله تعالى عنه.

٢٦١ - ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة، السعدي، الشاطبي، قدم مصر ودمشق طالب علم، وسمع أبا الحسن ابن أبي الحديد وأبا منصور العكبري وغيرهما، وصنف غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلاّم على حروف المعجم، وسمعه عليه أبو محمد الأكفاني، وتوفّي بأرض حوران من أعمال دمشق في رمضان سنة ٤٦٥، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٢٦٢ - ومنهم الحكيم الطبيب أبو الفضل محمد عبد المنعم، الغساني، الجلياني، وهو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن أحمد بن خضر بن مالك بن حسان، ولد بقرية جليانة من أعمال غرناطة سابع المحرم سنة ٥٣١، وقدم إلى القاهرة، وسار إلى دمشق فسكنها مدّة، ثم سافر إلى بغداد فدخلها سنة ٦٠١، ونزل بالمدرسة النظامية، وكتب الناس عنه كثيراً من نظمه، وكان أديباً فاضلاً، له شعر مليح المعاني أكثره في الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات، وكان طبيباً حاذقاً، وله رياضات ومعرفة بعلم الباطن، وله كلام مليح على طريق القوم، وكان مليح السّمت، حسن الأخلاق، لطيفاً، حاضر الجواب، ومات بدمشق سنة ٦٠٢، وكان يقال له: حكيم الزمان، وأراد القاضي الفاضل أن يغضّ منه فقال له بحضرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب: كم بين جليانة وغرناطة فقال: مثل ما بين بيسان وبيت المقدس.

وسماه بعضهم عبد المنعم، وذكره العماد في الخريدة وقال: هو صاحب البديع البعيد، والتوشيح والترشيح، والترصيع والتصريع، والتجنيس والتطبيق، والتوفيق والتلفيق، والتقريب والتقرير، والتعريف والتعريب، وهو مقيم بدمشق، وقد أتى العسكر المنصور الناصري سنة ٥٨٦ بظاهر ثغر عكا، وكتب إلى السلطان صلاح الدين وقد جرح فرسه:

أيا ملكاً أفنى العداة حسامه ::: ومنتجعاً أقنى العفاة ابتسامه
لقاؤك يوماً في الزمان سعادةٌ ::: فكيف بثاوٍ في حماك حمامه
وعبدك شاكٍ دينه وهو شاكرٌ ::: نداك الذي يغني الغمام غمامه
ولي فرسٌ أصماه سهمٌ ::: فردّه أثافيّ ربعٍ بالثلاث قيامه
تعمر فيه بالجراحة ساحة ::: وعطّل منه سرجه ولجامه
أتينا لما عوّدتنا من مكارمٍ يلوذ ::: بها الراجي فيشفى غرامه
فرحماك غوثٌ لا يغيب نصيره ::: ونعماك غيثٌ لا يغبّ انسجامه

وله رحمه الله تعالى غير هذا، وترجمته واسعة.

٢٦٣ - ومنهم الأستاذ أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن عبد القدوس القرطبي، مؤلف المفتاح في القراءات، ومقرئ أهل قرطبة، رحل وقرأ القراءات على أبي علي الأهوازي، وبحرّان على أبي القاسم الزّيدي، وبمصر على أبي العباس ابن نفيس، وبمكّة على أبي العباس الكازريني، وسمع بدمشق من أبي الحسن ابن السمسار، وكان عجباً في تحرير القراءات ومعرفة فنونها، وكانت الرحلة إليه في وقته، ولد سنة ٤٠٣، ومات في ذي القعدة سنة ٤٦١، قرأ عليه أبو القاسم خلف ابن النحاس وجماعة، رحمه الله تعالى.

٢٦٤ - ومنهم عبيد الله، وقيل عبد الله، بغير تصغير، ابن المظفر بن عبد الله ابن محمد، أبو الحكم، الباهلي، الأندلسي، ولد بالمرية سنة ٤٨٦، وحج سنة ٥١٦ وحج أيضاً سنة ٥١٨، ودخل دمشق وقرأ بصعيد مصر وبالإسكندرية، ثم مضى إلى العراق، وأقام ببغداد يعلم الصبيان وخدم السلطان محمود بن ملك شاه سنة ٥٢١، وأنشأ له معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، فكان

طبيبه، ثم عاد إلى دمشق ومات بها سنة ٥٤٩، ودفن بباب الفراديس، وكان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة، وله ديوان شعر سمّاه نهج الوضاعة لأولي الخلاعة ذكر فيه جملة شعراء كانوا بمدينة دمشق كطالب الصوري ونصر الهيتي وغيرهما كعرقلة، وفيه نزهات أدبية، ومفاكهات غريبة، ممزوج جدّها بسخفها، وهزلها بظرفها، ورثى فيه أنواعاً من الدواب وأنواعاً من الأثاث وخلقاً من المغنين والأطراف، وشرح هذه الديوان ابنه الحكيم الفاضل أبو المجد محمد بن أبي الحكم الملقب بأفضل الدولة، وكان كثير الهزل والمداعبة، دائم اللهو والمطايبة.

٢٦٥ - ومنهم أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن صافي، الغرناطي، القيساني، وقيسانة من عمل غرناطة، الفقيه المالكي، ولد سنة ٥٦٤، وقدم القاهرة وناب في الحسبة، وله شعر حسن، توفي بالقاهرة سنة ٦٣٤، رحمه الله تعالى.

٢٦٦ - ومنهم طالوت بن عبد الجبار، المعافري، الأندلسي، دخل مصر، وحج ولقي إمامنا مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه، وعاد إلى قرطبة، وكان ممّن خرج على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن من أهل ربض شقندة يريد خلعه وإقامة أخيه المنذر، وزحفوا إلى قصره بقرطبة، فحاربهم، وقتلهم، وفرّ من بقي منهم، فاستتر الفقيه طالوت عاماً عند يهودي، ثم ترامى على صديقه أبي البسّام الكاتب ليأخذ له أماناً من الحكم، فوشى به إلى الحكم، وأحضره إليه فعنفه ووبّخه، فقال له: كيف يحل لي أن أخرج إليك وقد سمعت مالك بن أنس يقول: سلطانٌ جائرٌ مدةً خير من فتنة ساعة فقال: ألله تعالى لقد سمعت هذا من مالك فقال طالوت، اللّهم إنّي قد سمعته، فقال: انصرف إلى منزلك وأنت آمن، ثم سأله: أين استتر فقال: عند يهودي مدة عام، ثم إنّي قصدت هذا الوزير فغدر بي، وغضب الحكم على أبي البسّام وعزله عن وزارته، وكتب عهداً أن لا يخدمه أبداً، فرؤي أبو البسّام بعد ذلك في فاقة وذل، فقيل: استجيبت فيه دعوة

الفقيه طالوت، رحمه الله تعالى.

٢٦٧ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد، ضياء الدين ونظامه، ابن خروف الأديب، القيسي، القرطبي، والقيذافي، الشاعر، قدم إلى مصر، ثم سار إلى حلب ومات بها متردياً في جب حنطة سنة ٦٠٢، وقيل: في التي بعدها، وقيل: سنة خمس وستمائة، وله شرح كتاب سيبويه، وحمله إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار، وله شرح جمل الزجاجي، وكتبٌ في الفرائض وردٌّ على أبي زيد السهيلي، وغير ذلك، ومدح الأفضل ابن السلطان صلاح الدين ومدح الظاهر ابن الناصر أيضاً.

٢٦٨ - ومنهم مالك بن مالك، من أهل جيان، رحل حاجّاً فأدى الفريضة، وسكن حلب، ولقي عبد الكريم بن عمران، وأنشد له قوله:

يا ربّ خذ بيدي مما دفعت له ::: فلست منه على وردٍ ولا صدر
الأمر ما أنت رائيه وعالمه ::: وقد عتبت ولا عتبٌ على القدر
من يكشف السوء إلاّ أنت بارئنا ::: ومن يزيل بصفوٍ حالة الكدر

٢٦٩ - ومنهم أبو علي ابن خميس، وهو منصور بن خميس بن محمد بن إبراهيم اللخمي من أهل المرية. سمع من أبي عبد الله البوني وابن صالح، وأخذ عنهما القراءات، وروى أيضاً عن الحافظ القاضي أبي بكر ابن العربي، وأبوي القاسم ابن رضا وابن ورد وأبي محمد الرشاطي وأبي الحجّاج القضاعي وأبي محمد عبد الحق ابن عطية وأبي عمرو الخضر بن عبد الرحمن وأبي القاسم عبد الرحمن بن محمد الخزرجي وغيرهم، ورحل حاجّاً فنزل الإسكندرية، وسمع منه أبو عبد الله ابن عطية الداني سنة ٥٩٦، وحدث عنه بالإجازة أبو العباس العزفي وغيره.

٢٧٠ - ومنهم منصور بن لبّ بن عيسى، الأنصاري، من أهل المريّة، يكنى أبا علي، أخذ القراءات ببلده عن ابن خميس المذكور قبله، ورحل بعده، فنزل الإسكندريّة، وأجازه أبو الطاهر السّلفي في صغره، وقد أخذ عنه فيما ذكر

بعضهم، ومولده سنة ٥٧١، رحمه الله تعالى.

٢٧١ - ومنهم مفرج بن حماد بن الحسين بن مفرج، المعافري، من أهل قرطبة، وهو جد ابن مفرج صاحب كتاب الاحتفال بعلم الرجال، صحب المذكور محمد بن وضاح في رحلته الثانية، وشاركه في كثير من رجاله، وصدر عن المشرق معه، فاجتهد في العبادة، وانتبذ عن الناس، ثم كرّ راجعاً إلى مكّة عند موت ابن وضاح، فنزلها واستوطنها إلى أن مات، فقبره هنالك.

وقال في حقّه أبو عمر عفيف: إنّه كان من الصالحين، رحل فحجّ وجاور بمكّة نحو عشرين سنة إلى أن مات بها، رحمه الله تعالى.

٢٧٢ - ومنهم محب بن الحسين، من أهل الثغر الشرقي، كانت له رحلة حج فيها، وسمع بالقيروان من أبي عبد الله ابن سفيان الكتاب الهادي في القراءات من تأليفه، وكان رجلاً صالحاً، حدث عنه أبو عبد الله محمد بن عبدالملك التجيبي من شيوخ أبي مروان ابن الصيقل.

٢٧٣ - ومنهم مساعد بن أحمد بن مساعد، الأصبحي، من أهل أوريولة، يكنى أبا عبد الرحمن، ويعرف بابن زعوقة، روى عن ابن أبي تليد وابن جحدر، والحافظين أبي علي الصدفي وأبي بكر ابن العربي، وكتب إليه أبو بكر ابن غالب ابن عطية، ورحل حاجّاً في سنة أربع وتسعين وأربعمائة، فأدى الفريضة سنة خمس بعدها، ولقي بمكّة أبا عبد الله الطبري، فسمع منه صحيح مسلم، مشتركاً في السماع مع أبي محمد ابن أبي جعفر الفقيه، ولقي أبا محمد ابن العرجاء وأبي بكر ابن الوليد الطرطوشي وأصحاب الإمام أبي حامد الغزالي وأبا عبد الله المازري وجماعة سواهم ساوى بلقائهم مشيخته، وانصرف إلى بلده فسمع منه الناس، وأخذوا عنه لعلو روايته، وكان من أهل المعرفة والصلاح والورع، وممن حدث عنه من الجلّة أبو القاسم ابن بشكوال، وأبو الحجاج الثغري الغرناطي، وأبو محمد عبد المنعم بن الفرس وغيرهم، وأغفله ابن بشكوال فلم يذكره في الصلة مع كونه روى عنه، وقال تلميذه أبو

الحجاج الثغري الغرناطي: أخبرني أبو سليمان ابن حوط الله وغيره عنه، قال: أخبرني الحاج أبو عبد الرحمن ابن مساعد رضي الله تعالى عنه: أنّه لقي بالمشرق امرأة تعرف بصباح عند باب الصفا، وكان يقرأ عليها بعض التفاسير، فجاء بيت شعر شاهد، فسألت: هل له صاحب فسألوا الشيخ أبا محمد ابن العرجاء، فقال الشيخ: لا أذكر له صاحباً، فأنشدت:

طلعت شمس من أحبّك ليلاً ::: واستضاءت فما لها من مغيب
إنّ شمس النّهار تغرب بالليـ ::: ـل وشمس القلوب دون غروب

ولد في صفر سنة ٤٦٨، وتوفّي بأوريولة سنة ٥٤٥، قاله ابن سفيان.

٢٧٤ - ومنهم أبو حبيب نصر بن القاسم. قال ابن الأبار: أظنّه من أهل غرناطة، وله رحلة حج فيها، وسمع من أبي الطاهر السّلفي، وحدث عنه عن ابن فتح بمسند الجوهري، انتهى.

٢٧٥ - ومنهم النعمان بن النعمان، المعافري، من أهل ميورقة منسوب إلى جده، رحل حاجّاً فأدى الفريضة وجاور بمكّة ثم قفل إلى بلده، واعتزل الناس، وكان يشار إليه بإجابة الدعوة، وتوفّي سنة ٦١٦رحمه الله تعالى ونفعنا به.

٢٧٦ - ومنهم نعم الخلف بن عبد الله بن أبي ثور، الحضرمي، من أهل طرطوشة أو ناحيتها، رحل إلى المشرق، وأدى الفريضة، ولقي بمكة أبا عبد الله الأصبهاني، فسمع منه سنة ٤٢٢، حدث عنه ابنه القاسم بن نعم الخلف بيسير.

٢٧٧ - ومنهم نابت بن المفرج بن يوسف، الخثعمي، أصله من بلنسية، وسكن مصر يكنى أبا الزهر، قال السّلفي: قدم مصر بعد خروجي منها، وتفقّه على مذهب الشافعي، وتأدب، وقال الشعر الفائق، وكتب إليّ بشيء من شعره، ومات في رجب سنة ٥٤٥ بمصر.

٢٧٨ - ومنهم ضمام بن عبد الله الأندلسي، رحل إلى المشرق، ودخل

بغداد، وهو ممّن يروي عن عبد السلام بن مسلمة الأندلسي. وممّن روى عن ضمام أبو الفرج أحمد بن القاسم الخشاب البغدادي من شيوخ الدارقطني، قال ابن الأبار: هكذا وقع في نسخة عتيقة من تأليف الدارقطني في الرواة عن مالك في باب مسلمة منه ضمام - بالضاد المعجمة - وهكذا ثبت في رواية أبي زكريا ابن مالك بن عائذ عن الدارقطني، وقال فيه غيره: همّام بن عبد الله - بالهاء وتشديد الميم - وفي حرف الهاء أثبته أبو الوليد ابن الفرضي من تاريخه، والأول عندي أصح، والله تعالى أعلم، انتهى.

٢٧٩ - ومنهم ضرغام بن عروة بن حجاج، بن أبي فريعة، واسمه زيد، مولى عبد الرحمن بن معاوية والداخل معه إلى الأندلس، من أهل لبلة، له رحلة إلى المشرق، وكان فقيهاً، ذكره الرازي.

٢٨٠ - ومنهم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر، المعافري، من أهل قرطبة، وأصله من الجزيرة الخضراء، وهو والد المنصور ابن أبي عامر ويكنى أبا حفص، سمع الحديث، وكتبه عن محمد بن عمر ابن لبابة وأحمد بن خالد ومحمد بن فطيس وغيرهم، ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة، وكان من أهل الخير والدين والصلاح والزهد والقعود عن السلطان، وأثنى عليه الراوية أبو محمد الباجي وقال: كان لي خير صديق أنتفع به وينتفع بي، وأقابل معه كتبه وكتبي، ومات منصرفه ومن حجّه، ودفن بمدينة طرابلس المغرب، وقيل: بموضع يقال له: رقّادة، وكان رجلاً عالماً صالحاً، وقال بعضهم: إنّه توفي في آخر خلافة عبد الرحمن الناصر.

٢٨١ - ومنهم أبو محمد بن عبد الله بن حمود، الزبيدي، الإشبيلي، ابن عم أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي اللغوي، كان من مشاهير أصحاب أبي علي البغدادي، ورحل إلى المشرق فلم يعد إلى الأندلس، ولازم السيرافي في بغداد إلى أن توفّي، فلازمه بعده صاحبه أبا علي الفارسي ببغداد والعراق، وحيثما جال، واتبعه إلى فارس، وحكى أبو الفتوح الجرجاني أن أبا علي البغدادي غلّس

لصلاة الصبح في المسجد، فقام إليه أبو محمد الزبيدي من مذود كان لدابته خارج الدار قد بات فيه أو أدلج إليه ليكون أول وارد عليه، فارتاع منه، وقال: ويحك من تكون قال: أنا عبد الله الأندلسي، فقال له: إلى كم تتبعني والله إن على وجه الأرض أنحى منك. وكان من كبار النحاة وأهل المعرفة التامة والشعر، وجمع شرحاً لكتاب سيبويه، ويقال: إنّه توفّى ببغداد سنة ٣٧٢.

٢٨٢ - ومنهم عبد الله بن رشيق، القرطبي، رحل من الأندلس، فأوطن القيروان، واختص بأبي عمران الفاسي، وتفقّه به، وكان أديباً شاعراً عفيفاً خيّراً، وفي شيخه أبي عمران أكثر شعره، ورحل حاجّاً فأدى الفريضة، وتوفّي في انصرافه بمصر سنة ٤١٩، وأنشد له ابن رشيق في الأنموذج قوله رحمه الله تعالى:

خير أعمالك الرضى ::: بالمقادير والقضا
بينما المرء ناضرٌ ::: قيل قد مات وانقضى

٢٨٣ - ومنهم أبو بكر اليابري، ويكنى أيضاً أبا محمد، وهو عبد الله ابن طلحة بن محمد بن عبد الله، أصله من يابرة، ونزل هو إشبيلية، وروى عن أبي الوليد الباجي وعن جماعة بغرب الأندلس منهم أبو بكر ابن أيوب وأبو الحزم ابن عليم وأبو عبد الله ابن مزاحم البطليوسيّون وغيرهم، وكان ذا معرفة بالنحو والأصول والفقه وحفظ التفسير والقيام عليه، وحلّق به مدّة بإشبيلية وغيرها، وهو كان الغالب عليه مع القصص فيسرد منه جملاً على العامة، وكان متكلماً، وله ردّ على أبي محمد ابن حزم، وكان أحد الأئمّة بجامع العدبّس، ورحل إلى المشرق، فروى عن أبي بكر محمد بن زيدون بن علي كتابه المؤلف في الحديث المعروف بالزيدوني، وألف كتاباً في شرح صدر رسالة ابن أبي زيد، وبيّن ما فيها من العقائد، وله مجموعة في الأصول والفقه منها كتاب سمّاه المدخل إلى كتاب آخر سمّاه سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام ألّفه للأمير علي بن تميم بن المعز الصنهاجي صاحب المهدية، وذكر في فصل الحج منه أنّه

رحل إلى المهدية سنة ٥١٤، واستوطن مصر مدة، ثم رحل إلى مكّة، وبها توفّي رحمه الله تعالى؛ وروى عنه أبو المظفر الشيباني وأبو محمد العثماني وأبو الحجاج يوسف بن محمد القيرواني وأبو عمرو عثمان ابن فرج العبدري وأبو محمد ابن صدقة المنكبي وأبو عبد الله ابن يعيش البلنسي وغيرهم، وكان سماع أبي الحجّاج منه موطأ مالك سنة ٥١٦، رحم الله تعالى الجميع.

٢٨٤ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق، اليحصبي، الأندلسي، رحل حاجّاً فسمع منه بالإسكندرية أبو الطاهر السّلفي كتاب طبقات الأمم لأبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي، وحدّث به عنه عن ابن برّال عن صاعد.

٢٨٥ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد، الصريحي، المرسي، ويعرف بابن مطحنة، روى عن أبي بكر ابن الفرضي النحوي، وتأدب به، ورحل إلى المشرق، ولقي أبا محمد العثماني وغيره، وحج، وقعد لتعليم الآداب، وممن أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد السلام وأبو عبد الله المكناسي وغيرهما.

٢٨٦ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى، الشّلبي، سمع من الصدفي وغيره، وكان من أهل الحفظ للحديث ورجاله والعلم بالأصول والفروع ومسائل الخلاف وعلم العربيّة والهيئة مع الخير والدين والزهد، وامتحن بالأمراء في قضاء بلده بعد أن تقلده نحو تسعة أعوام لإقامته الحق وإظهاره العدل حتى أدى ذلك إلى اعتقاله بقصر إشبيلية، ثم سرّح فرحل حاجّاً إلى المشرق، ودخل المهدية فلقي بها المازري، وأقام في صحبته نحو ثلاث سنين، ثم انتقل إلى مصر، وحج سنة ٥٢٧، وأقام بمكّة مجاوراً، وحج ثانية سنة ٥٢٨، ولقي بمكّة أبا بكر عتيق بن عبد الرحمن الأوريولي في هذه السنة، فحمل عنه، ودخل العراق وخراسان، وأقام بها أعواماً، وطار ذكره في هذه البلاد، وعظم شأنه في العلم والدين، وكان من بيت شرف وجاه في بلده عريض مع سعة الحال والمال، وتوفّي بهراة سنة ٥٥١، وقيل: إن وفاته سنة ٥٤٨، وولد سنة ٤٨٤

بشلب، رحمه الله تعالى.

٢٨٧ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن موسى، الأزدي، المرسي، ويعرف بابن برطله، سمع من صهره القاضي الشهيد أبي علي الصدفي، ورحل حاجّاً سنة ٥١٠، فأدى الفريضة، وسمع من الطرطوشي والأنماطي والسّلفي وغيرهم، وانصرف إلى مرسية بلده، وكان حسن السّمت خاشعاً مخبتاً خيّراً متواضعاً نبيهاً نزهاً سالم الباطن، وحكى عن شيخه أبي عبد الله الرازي عن أبيه أنّه أخبره أن قاضي البرلس، وكان رجلاً صالحاً، خرج ذات ليلة إلى الذّيل فتوضأ وأسبغ وضوءه، ثم قام فقرن قدميه وصلى ما شاء الله تعالى أن يصلي، فسمع قائلاً يقول:

لولا أناسٌ لهم سردٌ يصومونا ::: وآخرون لهم وردٌ يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحراً ::: لأنّكم قوم سوء لا تبالونا

قال: فتجوّزت في صلاتي، وأدرت طرفي فما رأيت شخصاً ولا سمعت حسّاً، فعلمت أن ذلك زاجر من الله تعالى.

٢٨٨ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن خلف بن سعادة، الداني، الأصبحي، لازم ابن سعد الخير، واحتذى أول أمره مثال خطّه فقاربه، وسمع منه، ثم رحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من أبي الطاهر ابن عوف والسّلفي وغير واحد، قال التجيبي: كان معنا بالإسكندرية بالعادلية منها، وبقراءته سمعنا صحيح البخاري على السلفي سنة ٥٧٣.

٢٨٩ - ومنهم أبو محمد عبد الله بن يوسف، القضاعي، المري، سمع من أبي جعفر ابن غزلون صاحب الباجي وغير واحد، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية من السّلفي والرازي، وتجول هنالك، وأخذ عنه أبو الحسن ابن المفضل المقدسي وغير واحد.

٢٩٠ - ومنهم شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن مهاجر، الوادي آشي، الحنفي، سكن طرابلس الشام، ثم انتقل إلى حلب، وأقام بها، وصار من العدول

المبرزين في العدالة بحلب، ويعرف النحو والعروض، ويشتغل فيهما، وله انتماء إلى قاضي القضاة الناصر ابن العديم، قال الصفدي: رأيته بحلب أيام مقامي بها سنة ٧٢٣ فرأيته حسن التودّد.

٢٩١ - ومنهم أبو جعفر أحمد بن صابر، القيسي، قال أبو حيان: كان المذكور رفيقاً للأستاذ أبي جعفر ابن الزبير شيخنا، وكان كاتباً مترسلاً شاعراً، حسن الخط، على مذهب أهل الظاهر، وكان كاتب أبي سعيد فرج ابن السلطان الغالب بالله بن الأحمر ملك الأندلس، وسبب خروجه من الأندلس أنّه كان يرفع يديه في الصلاة على ما صح في الحديث، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله، فتوعده بقطع يديه، فضجر من ذلك وقال: إن إقليماً تمات فيه سنّة رسول الله حتى يتوعّد بقطع اليد من يقيمها لجدير أن يرحل منه، فخرج وقدم ديار مصر، وسمع بها الحديث، وكان فاضلاً نبيلاً.

٢٩٢ - ومنهم الأستاذ أبو القاسم ابن الإمام القاضي أبي الوليد الباجي، سكن سرقسطة وغيرها، وروى عن أبيه معظم علمه، وخلفه بعد وفاته في حلقته وغلب عليه علم الأصول والنظر، وله تآليف تدل على حذقه: منها العقيدة في المذاهب السديدة ورسالة الاستعداد للخلاص من المعاد، وكان غاية في الورع، توفّي بجدة بعد منصرفه من الحج سنة ٤٩٣، رحمه الله تعالى.

٢٩٣ - ومنهم الإمام الفاضل الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الساحلي الغرناطي. قال العز بن جماعة: قدم علينا من المغرب سنة ٧٢٤، ثمّ رجع إلى المغرب في هذه السنة، وبلغنا أنّه توفّي بمراكش سنة نيّف وأربعين وسبعمائة.

٢٩٤ - ومن الراحلين من الأندلس الوليد بن هشام، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل فيما حكى بعض المؤرخين، خرج من الأندلس على طريقة الفقر والتجرّد، ووصل برقة بركوة لا يملك سواها فعرف بأبي ركوة، وأظهر الزهد والعبادة، واشتغل بتعليم الصبيان وتلقينهم القرآن، وتغيير المنكر، حتى خدع البربر بقوله وفعله، وزعم أن مسلمة بن عبد الملك بشّر بخلافته بما كان

عنده من علم الحدثان، وكان يقال عن مسلمة: إنّه أخذ علم الحدثان عن خالد بن يزيد بن معاوية، واتفق أن قرة انحرفوا عن الحاكم فمالوا إليه، وحصروا معه مدينة برقة حتى فتحوها، وخطبوا له فيها بالخلافة، وكان قيامه في رجب سنة ٣٩٧، فهزم عسكر باديس الصّنهاجي صاحب إفريقية وعسكر الحاكم بمصر، وأحيا أمره، وخاطبه بطانة الحاكم لكثرة خوفهم من سفك الحاكم الدماء، ورغبوه في الوصول إلى أوسيم، وهو مكان بالجيزة قبالة القاهرة، فلمّا وصل إليها قام بمحاربته الفضل ابن صالح القيام المشهور إلى أن هزم أبا ركوة، ثم جاء به إلى القاهرة، فأمر الحاكم أن يطاف به على جمل، ثم قتل صبراً في ١٣ رجب سنة ٣٩٩.

٢٩٥ - ومنهم أبو زكريا الطليطلي، يحيى بن سليمان، قدم إلى الإسكندرية، ثم رحل إلى الشام واستوطن حلب، وله ديوان شعر أكثر فيه من المديح والهجاء، قال بعض من طالعه: ما رأيته مدح أحداً إلا وهجاه، وله مصنفات في الأدب.

٢٩٦ - ومنهم أبو بكر يحيى بن عبد الله بن محمد، القرطبي، المعروف بالمغيلي، سمع من محمد بن عبد الملك بن أيمن وقاسم بن أصبغ وغيرهما، ورحل فسمع من أبي سعيد ابن الأعرابي، وكان بصيراً بالعربية والشعر، ومؤلفاً جيد النظر حسن الاستنباط، حدّث، وتوفّي فجأة في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٢، قاله ابن الفرضي.

٢٩٧ - ومنهم الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن يحيى ابن سلمة، الأنصاري، الغرناطي، قدم المشرق وتوفّي بمصر سنة ٧٠٣ عن نحو خمسين سنة، بالبيمارستان المنصوري.

٢٩٨ - ومنهم الفاضل الأديب أبو عبد الله محمد بن علي بن يحيى بن علي، الغرناطي، قال ابن جماعة في الكتاب المسمى قريباً أنشدني المذكور لنفسه، على قبر سيّدنا حمزة رضي الله تعالى عنه:

يـــا ســـيّد الشّـــهداء بعـــد محمـــدٍ ::: ورضـــيع ذي المجـــد المرفّـــع أحمـــد
يا ابن الأعــزّة مــن خلاصــة هاشــمٍ ::: ســـرج المعـــالي والكـــرام المجـــدّ
يـــا أيّهـــا البطـــل الشّـــجاع المحتمـــي ::: ديـــن الإلـــه بيأســـه المستأســـد
يا نبعـــة الشـــرف الأصـــيل المعتلـــي ::: يـــا ذروة الحســـب الأثيـــل الأتلـــد
يا نجـــدة الملـــهوف في قحـــم الـــوغى ::: عنـــد التـــهاب جحيمهـــا المتوقّـــد
يا غيـــث ذي الأمـــل البعيـــد مرامـــه ::: يـــا غـــوث موتـــور الزمـــان الأنكـــد
يا من لعظـــم مصـــابه خـــصّ الأســـى ::: قلب الرســـول وعـــمّ كـــلّ موحـــد
يـــا حمـــزة الخـــير المؤمّـــل نفعـــه ::: يـــوم الهيـــاج وعنـــد فقـــد المنجـــد
وافـــاك يـــا أســـد الإلـــه وســـيفه ::: وفـــدٌ ألمّـــوا مـــن حمـــاك بمعهـــد
جئنـــاك يـــا عـــمّ الرّســـول وصـــنوه ::: قصـــد الزيـــارة فاحتفـــل بالقصّـــد
واســـأل إلهـــك في اغتفـــار ذنوبنـــا ::: شـــيم المـــزور قيامـــه بـــالعوّد
لـــذنا بجانبـــك الكـــريم توسّـــلاً ::: وكـــذا العبيـــد ملاذهـــم بالسّـــيّد
فاشـــفع لضـــيفك فـــالكريم مشـــفّعٌ ::: عنـــد الكـــريم ومـــن يشـــفّع يقصـــد
يـــا ابـــن الكـــرام المكـــرمين نزيلـــهم ::: أهـــل المكـــارم والعـــلا والســـؤدد
نـــزل الضـــيوف جنـــاب ســـاحتك ::: التي منها يؤمّل كـــلّ عطـــفٍ مســـعد
فاجعـــل أبـــا يعلـــى قرانـــا عطفـــةٌ ::: وارغـــب لربّـــك في هـــدانا واقصـــد
فعســـى يمـــنّ علـــى الجميـــع بتوبـــةٍ ::: يهـــدى بهـــا نهـــج الطريـــق الأرشـــد
فقـــد اعتمـــدنا منـــك خـــير وســـيلةٍ ::: نرجو بهـــا حســـن التجـــاوز في غـــد
لم لا تـــؤمّ وأنـــت عـــمّ محمـــدٍ ::: ولدينـــه قـــد صـــلت صـــولة أيّـــد
وصـــحبته ونصـــرته وعضـــدته ::: وذببـــت عنـــه باللســـان وباليـــد
وبـــذلت نفســـك في رضـــاه بجنّـــة ::: فقبلـــت في ذات الإلـــه الأوحـــد
فجـــزاك عنّـــا الله خـــير جزائـــه ::: وسقى ثـــراك حيـــا الغمـــام المرعـــد
وعلـــى رســـول الله منـــه ســـلامه ::: وعليـــك متّصـــل الرضـــى المتجـــدّد

ولد ببعض أعمال غرناطة قبل التسعين وستمائة، وتوفّي بالمدينة الشريفة طابة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧١٥، ودفن بالبقيع، رحمه الله تعالى، انتهى.

٢٩٩ - ومنهم الشيخ نور الدين أبو الحسن المايرقي، من أقارب بعض

ملوك المغرب، وكان من الفضلاء العلماء الأدباء، وله مشاركة جيدة في العلوم ونظم حسن، وكانت وفاة أبي الحسن المذكور في ربيع الأول سنة ٦٥٥، ودفن بقاسيون رحمه الله تعالى، والأبيات التي أولها القضب راقصة... إلخ نسبها له اليونيني وغير واحد، والصواب أنها ليست له، وإنّما هي لنور الدين ابن سعيد صاحب المغرب، وقد تقدم ذكره، ولعل السهو سرى من تشارك الاسم واللقب والقطر، ومثل هذا كثيراً ما يقع، والله تعالى أعلم.

٣٠٠ - ومن الراحلين من أهل الأندلس إلى المشرق ابن عتبة الإشبيلي، وكان فارق إشبيلية حين تولاها ابن هود، واضطرمت بفتنته الأندلس ناراً.

٣٠١ - ومن المرتحلين أبو عبد الله ابن جابر محمد بن جابر الضرير، من أهل المرية، ويعرف بشمس الدين بن جابر الضرير، وله ترجمة في الإحاطة ذكرناها مع زيادة عليها عند تعرضنا لأولاد لسان الدين ابن الخطيب، رحمه الله تعالى، ورحل إلى المشرق ودخل مصر والشام واستوطن حلب، وهو صاحب البديعية المعروفة ببديعية العميان، وله أمداح نبوية كثيرة وتواليف: منها شرح ألفية ابن مالك وغير ذلك، وله ديوان شعر وأمداح نبوية في غاية الإجادة، ومن نظمه رحمه الله تعالى مورّياً بأسماء الكتب:

عرائس مدحي كم أتين لغيره ::: فلمّا رأته قلن هذا من الأكفا
نوادر آدابي ذخيرة ماجدٍ شمائل ::: كم فيهن من نكت تلفى
مطالعها هنّ المشارق للعلا قلائد ::: قد راقت جواهرها رصفا
رسالة مدحي فيك واضحةٌ ::: ولي مسالك تهذيبٍ لتنبيه من أغفى
فيا منتهى سؤلي ومحصول غايتي ::: لأنت امرؤٌ من حاصل المجد مستصفى

وقد اشتملت هذه الأبيات الخمسة على التورية بعشرين كتاباً، وهي: العرائس للثعالبي، والنوادر للقالي وغيره والمطالع لابن قرقول وغيره والمشارق للقاضي عياض وغيره، والذخيرة لابن بسام وغيره، والشمائل للترمذي، والنكت لعبد الحق الصقلي وغيره، والقلائد لابن خاقان وغيره،

ورصف المباني في حروف المعاني للأستاذ ابن عبد النور، وهو كتاب لم يصنف في فنّه مثله، والرسالة لابن أبي زيد وغيره، والواضحة لابن حبيب، والمسالك للبكري وغيره، والجواهر لابن شاس وغيره، والتهذيب في اختصار المدونة وغيره، والتنبيه لأبي إسحاق وغيره، ومنتهى السؤل لابن الحاجب، والمحصول للإمام الرازي، والغاية للنووي وغيره، والحاصل مختصر المحصول، والمستصفى للغزالي، توفّي رحمه الله تعالى في إلبيرة في جمادى الآخرة سنة ٧٨٠.

٣٠٢ - ومنهم الأديب أبو جعفر الألبيري، رفيق ابن جابر السابق الذكر، وهو البصير وابن جابر الأعمى.

٣٠٣ - ومن الراحلين الوليّ الصالح أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم ابن بشر، القيسي. وهو ابن أخت ابن صاحب الصلاة البجانسي، نسبة إلى بجانس قرية من قرى وادي آش، وكان - رحمه الله تعالى - في أواسط المائة السابعة، وقد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي الفشتالي في تأليفه الذي سمّاه تحفة المغرب ببلاد المغرب، وقال فيه: رضوا نفوسهم لتنقاد للمولى سرّاً وعلناً، وزهدوا في الدنيا فلم يقولوا معنا ولا لنا، وانتدبوا لقول الله تعالى:{ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩].

وقال صاحب التأليف المذكور: سألت الشيخ أبا مروان يوماً في مسيري معه من وادي آش إلى بلده بجانس سنة تسع وأربعين وستمائة، فقلت له: أنت يا سيدي لم تكن قرأت ولا لازمت المشايخ قبل سفرك للمشرق، ولا سافرت مع عالم تقتدي ببركته في هذا الطريق، فقال لي: أقام الله تعالى لي من باطني شيخاً، قلت له: كيف قال: كنت إذا عرض لي أمر نظرت في خاطري فيخطر لي خاطران في ذلك، أحدهما محمود والآخر مذموم، فكنت أجتنب المذموم وأرتكب المحمود، فإذا وصلت إلى أقرب بلد سألت عمّن فيه من المشايخ والعلماء، فأسأله عن ذلك، فكان يذكر لي المحمود محموداً والمذموم مذموماً،

فأحمد الله تعالى أن وفقني، ومع تتابع ذلك واتصاله دون مخالفة لم أعتمد على ما يقع بخاطري من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسأل عنه من حضر من العلماء، انتهى.

ومن كلام صاحب التأليف المذكور قوله في حق الصوفية، نفعنا الله تعالى بهم: حموا طريق الحق فحاماهم، ونوّر بصائرهم فأصمهم عن الباطل وأعماهم، وأهانوا في رضاه نفوسهم، ورفضوا نعماهم، فأعلى قدرهم عنده وعند الناس وأسماهم، انتهى.

وما أحسن قوله في التأليف المذكور: يا هذا، من حافظ حوفظ عليه، ومن طلب الخير بصدق وصل إليه، ومن أخلص العبودية لربه قام الأحرار خدمة بين يديه، انتهى.

٣٠٤ - ومنهم الطبيب الماهر الشهير ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن البيطار، المالقي، نزيل القاهرة، وهو الذي عناه ابن سعيد في كتابه المغرب بقوله: وقد جمع أبو محمد المالقي الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن حشر فيه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها، وضبطه على حروف المعجم، وهو النهاية في مقصده.

وقد ذكرت كلام ابن سعيد هذا بجملته في غير هذا الموضع، فليراجع.

وكان ابن البيطار أوحد زمانه في معرفة النبات، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم والمغرب، واجتمع بجماعة كثيرة من الذي يعانون هذا الفن، وعاين منابته وتحققها، وعاد بعد أسفاره، وخدم الكامل بن العادل، وكان يعتمد عليه في الأدوية والحشائش، وجعله في الديار المصرية رئيساً على سائر العشّابي وأصحاب البسطات، ومن بعده خدم ولده الصالح، وكان حظيّاً عنده، إلى أن توفي بشعبان سنة ٦٤٦ التي توفّي بها ابن الحاجب، وله من المصنفات

كتاب الجامع في الأدوية المفردة وكتاب المغني أيضاً في الأدوية، وكتاب الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخل والأوهام، وكتاب الأفعال العجيبة والخواص الغريبة، وشرح كتاب ديسقوريدوس، قال الذهبي: انتهت إليه معرفة تحقيق النبات وصفاته، وأماكنه ومنافعه، وتوفّي بدمشق، انتهى.

٣٠٥ - ومنهم الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي، القرشي، البسطي، الشهير بالقلصادي - بفتحات - كما قال السخاوي، الصالح الرحلة، المؤلف، المفرضي، آخر من له التآليف الكثيرة من أئمة الأندلس، وأكثر تصانيفه في الحساب والفرائض، كشرحيه العجيبين على تلخيص ابن البناء والحوفي، وكفاه فخراً أن الإمام السنوسي صاحب العقائد أخذ عنه جملة من الفرائض والحساب، وأجازه جميع مروياته، وأصله من بسطة، ثم انتقل إلى غرناطة، لاستوطنها، وأخذ بها عن جماعة كابن فتوح والسرقسطي وغيرهما، ثم ارتحل إلى المشرق ومر بتلمسان فأخذ بها عن الإمام عالم الدنيا ابن مرزوق والقاضي أبي الفضل قاسم العقباني وأبي العباس ابن زاغ وغيرهم، ثم ارتحل فلقي بتونس تلامذة ابن عرفة كابن عقاب والقلشاني وحلولو وغيرهم، ثم حج ولقي أعلاماً، وعاد فاستوطن غرناطة إلى أن حل بوطنه ما حل، فتحيل في خلاصه من الشرك وارتحل، ومر بتلمسان فنزل بها على الكفيف ابن مرزوق ابن شيخه، ثم وجدت به الرحلة إلى أن وافته منيته بباجة إفريقية منتصف ذي الحجّة سنة ٨٩١، وكان كثير المواظبة على الدرس والكتابة والتأليف، ومن تآليفه أشرف المسالك إلى مذهب مالك وشرح مختصر خليل، وشرح الرسالة، وشرح التلقين، وهداية الأنام في شرح مختصر قواعد الإسلام وهو شرح مفيد، وشرح رجز القرطبي، وتنبيه الإنسان إلى علم الميزان، والمدخل الضروري، وشرح إيساغوجي في المنطق، وله شرح الأنوار السنية لابن جزي، وشرح رجز الشراز في الفرائض الذي أوله:

بحمد خير الوارثين أبتدي ::: وبالسّراج النبويّ أهتدي

وشرح حكم ابن عطاء الله، ورجز أبي عمرو بن منظور في أسماء النبي ، وشرح البردة، ورجز ابن بري، ورجز شيخه أبي إسحاق بن فتوح في النجوم الذي أوله:

سبحان رافع السماء سقفًا ::: ناصبها دلالةً لا تخفى

وشرح رجز أبي مقرعة، وله النصيحة في السياسة العامة والخاصة، وهداية النظّار في تحفة الأحكام والأسرار، وكشف الجلباب عن علم الحساب، وكشف الأسرار عن علم الغبار، والتبصرة، وقانون الحساب في قدر التلخيص، وشرحه، وشرحان على التلخيص كبير وصغير، وشرح ابن الياسمين في الجبر والمقابلة، ومختصره، وكليات الفرائض، وشرحها، وشرحان للتلمسانية كبير وصغير، وشرح فرائض صالح بن شريف وابن الشاط وفرائض مختصر خليل والتلقين وابن الحاجب، وله كتاب الغنية في الفرائض، وغنية النحاة وشرحاها الكبير والصغير، وتقريب المواريث، ومنتهى العقول البواحث، وشرح مختصر العقباني، ولم يتم، ومدح اللطالبين، ومختصر مفيد في النحو، وشرح رجز ابن مالك، والآجرومية، وجمل الزجاجي، وملحة الحريري، والخزرجية، ومختصر في العروض، وغير ذلك وأخذ عن الحافظ ابن حجر والزين طاهر النويري وأبي القاسم النويري والعلامة الجلال المحلّي والتقي الشمني وأبي الفتح المراغي وغيرهم، وحسبما ذكر ذلك في رحلته الشهيرة، وهي حاوية لشيوخه بالمغرب والمشرق وجملة من أحوالهم، رحم الله تعالى الجميع.

٣٠٦ - ومنهم أبو عبد الله الراعي، وهو شمس الدين محمد بن إسماعيل الأندلسي الغرناطي، ولد بها سنة ٧٨٢ تقريباً، ونشأ بها، وأخذ الفقه والأصول والعربية عن جماعة، منهم أبو جعفر أحمد بن إدريس بن سعيد الأندلسي، وسمع على أبي بكر عبد الله بن محمد بن محمد المعافري ابن الدب، ويعرف بابن أبي عامر، والخطيب أبي عبد الله محمد بن علي بن الحفار، ومحمد بن عبد الملك بن علي القيسي المنتوري صاحب الفهرسة الكبيرة الشهيرة، وممّا

أخذ عنه الآجرومية بأخذه لها عن الخطيب أبي جعفر أحمد بن محمد بن سالم الجذامي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي عن مؤلفها أبي عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي عرف بابن آجروم، وجميع خلاصة الباحثين في حصر حال الوارثين للقاضي أبي بكر عبد الله بن يحيى بن زكريا الأنصاري بأخذه لها عن مؤلفها، وأجاز له أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجذامي، والقاضي أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني، والعلامة أبو الفضل محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن الإمام، وعالم الدنيا أبو عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني، وغيرهم من المغاربة، ومن أشياخه من أهل المشرق الكمال ابن خير السكندري، والزين أبو بكر المراغي، والزين محمد الطبري، وأبو إسحاق إبراهيم بن العفيف النابلسي، في آخرين، ودخل القاهرة سنة ٨٢٥ فحج واستوطنها، وسمع بها من الشهاب المتبولي وابن الجزري والحافظ ابن حجر وطائفة، وأمّ بالمؤيدية وقتاً، وتصدى للاشتغال، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى، لا سيّما في العربية، بل هي كانت فنه الذي اشتهر به وبجودة الإرشاد لها، وشرح كلاً من الآجروميّة والألفيّة والقواعد وغيرها ممّا حمله عنه الفضلاء، وله نظم وسط، وكان حاد اللسان والخلق، شديد النذفرة من الشيخ يحيى العجيسي، أضر بآخرة، ومات بسكنه بالصالحيّة يوم الثلاثاء ٢٧ ذي الحجّة سنة ٨٥٣.

٣٠٧ - ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق بعد أخذ جميع بلاد الأندلس - أعادها الله تعالى - قاضي الجماعة بغرناطة أبو عبد الله محمد بن علي ابن محمد بن الأزرق، قال السخاوي: إنّه لازم الأستاذ إبراهيم بن أحمد ابن فتوح مفتي غرناطة في النحو والأصلين والمنطق، بحيث كان جلّ انتفاعه به، وحضر مجالس أبي عبد الله محمد السّرقسطي العالم الزاهد مفتيها أيضاً في الفقه، ومجالس الخطيب أبي الفرج عبد الله بن أحمد البقني، والشهاب قاضي الجماعة بغرناطة أبي العباس أحمد ابن أبي يحيى بن شرف التلمساني، انتهى.

وله رحمه الله تعالى تآليف: منها " بدائع السلك في طبائع الملك " كتاب حسن مفيد في موضوعه، لخص في كلام ابن خلدون في مقدمة تاريخه وغيره مع زوائد كثيرة، ومنها روضة الأعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام مجلد ضخم فيه فوائد وحكايات لم يؤلف في فنّه مثله، وقفت عليه بتلمسان وحفظت منه ما أنشده لبعض أهل عصره ممّا يكتب في سيف:

إن عمّت الأفق من نقع الوغى سحبٌ ::: فشم بها بارقاً من لمع إيماضي
وإن نوّت حركات النصر أرض عدًى ::: فليس للفتح إلا فعلي الماضي

ومن إنشائه في التأليف المذكور ما صورته: قلت: ولقد كان شيخنا العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن فتوح قدّس الله تعالى روحه يفسح لصاحب البحث مجالاً رحباً، ويوسع المراجع له قبولاً ورحباً، بل يطالب بذلك ويقتضيه، ويختار طريق التعليم به ويرتضيه، توفيقاً على ما خلص له تحقيقه، ووضح له معيار الاختيار تدقيقه، وإلاً فقد كان ما يلقيه غاية ما يتحصل، ويتهمد به مختار ما يحفظ ويتأصّل، انتهى.

وهو يدل على ملكته في الإنشاء، ويحقّق ما يحصله، إلا أن ذلك إذا طال حتى وقع الملل والضجر أو كاد فينبغي الإمساك عن البحث، لئلاّ يفضي الحال إلى ما ينهى عنه.

قال: ومخالفة التلميذ الشيخ في بعض المسائل إذا كان لها وجه وعليها دليل قائم يقبله غير الشيخ من العلماء ليس من سوء أدب التلميذ مع الشيخ، ولكن مع ملازمة التوقير الدائم، والإجلال الملائم، فقد خالف ابن عباس عمر وعليّاً وزيد ابن ثابت رضي الله تعالى عنهم، وكان قد أخذ عنهم، وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة، وإنّما أخذوا العلم عنهم، وخالف مالك كثيراً من أشياخه، وخالف الشافعي وأشهب مالكاً في كثير من المسائل، كل من أخذ العلم يخالفه بعض تلامذته في عدة مسائل، ولم يزل ذلك دأب التلاميذ مع الأساتيذ إلى زماننا هذا، وقال: وشاهدنا ذلك في أشياخنا مع أشياخهم رحمهم الله تعالى، قال:

ولا ينبغي للشيخ أن يتبرّم من هذه المخالفة إذا كانت على الوجه الذي وصفناه، والله تعالى أعلم، انتهى.

* * *

الباب السادس

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المشرق، والأكابر الذين حلوا بحلولهم فيها الجيد منها والمفرق، والمفتخرين برؤية قطرها المونق، على المشئم والمعرق.



الباب السادس:

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق

المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المشرق، والأكابر الذين حلوا بحلولهم فيها الجيد منها والمفرق، والمفتخرين برؤية قطرها المونق، على المشئم والمعرق.

اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم، فضلاً عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطناً، وصيرها سكناً، إلى أن وافته منيته ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمنيته.

١ ـ فمن الداخلين إلى الأندلس المنيذر الذي يقال إنه صحابي رأى رسول الله .

قال ابن الأبار في التكملة: المنيذر الإفريقي، له صحبة، وسكن إفريقية، ودخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب، قاله أبو محمد الرشاطي، ولم يذكره أحد غيره، روى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي، انتهى.

وأنكر غير واحد دخول أحد من الصحابة الأندلس.

وذكر بعض الحفاظ المنيذر المذكور، وقال: إنه المنيذر اليماني، وذكر الحجاري أنه من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وأنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير غازياً، وقال ابن بشكوال: يقال فيه المنيذر لكونه من أحداث الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقد حكى ذلك الرازي، وذكره ابن عبد البر في كتاب " الاستيعاب في الصحابة " وسماه بالمنيذر الإفريقي، وقال ابن بشكوال: إن ابن عبد البر روى عنه حديثاً سمعه من رسول الله ، وذكره أبو علي ابن السكن في كتاب الصحابة وقال: روي عنه حديث واحد، وأرجو أن يكون صحيحاً، وذكره ابن قانع في معجم الصحابة له.

وذكره البخاري في تاريخه الكبير إذ قال: أبو المنيذر صاحب رسول الله ،

وكان قد حدث بإفريقية عن رسول الله ، قال: **من قال رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيًّا، فأنا الزعيم لآخذن بيده فأدخله الجنة** كذا ذكره البخاري بالكنية، وهذا الحديث هو الذي رووه عنه لا يعرف له غيره، وذكره أبو جعفر أحمد ابن رشدين في كتاب " مسند الصحابة " له، فقال، المنيذر اليماني إما من مذحج أو غيرها، وذكر الحديث سواء، وقد أشرنا فيما سبق إلى المنيذر هذا.

٢ - ومن التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نصير، وقد سبق من الكلام عليه ما فيه كفاية.

٣ - ومن التابعين الداخلين الأندلس حنش الصنعاني. وفي كتاب ابن بشكوال قال ابن وضاح: حنش لقب له، واسمه حسين بن عبد الله، وكنيته أبو علي، ويقال: أبو رشدين، قال ابن بشكوال: وهو من صنعاء الشام.

وذكره أبو سعيد ابن يونس في تاريخ أهل مصر وإفريقية والأندلس، فقال: إنه كان مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وغزا المغرب مع رفيقه رويفع بن ثابت، وغزا الأندلس مع موسى بن نصير، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان، فأتى به عبد الملك في وثاق فعفا عنه، وكان أول من ولي عشور إفريقية في الإسلام، وتوفي بإفريقية سنة مائة.

وذكر ابن يونس عن حنش أنه كان إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصباح، وقرب المصحف وإناء فيه ماء فإذا وجد النعاس استنشق الماء، وإذا تعايا في آية نظر في المصحف، وإذا جاء سائل يستطعم لم يزل يصيح بأهله: أطعموا السائل، حتى يطعم.

قال ابن حبيب: دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعاني، وهو الذي أشرف على قرطبة من الفج المسمى بفج المائدة، وأذن، وذلك في غير وقت الأذان، فقال له أحد أصحابه في ذلك، فقال: إن هذه الدعوة لا تنقطع من

هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة، هكذا ذكره غير واحد، وقد كشف الغيب خلاف ذلك، فلعل الرواية موضوعة أو مؤولة، والله تعالى أعلم.

وذكره ابن عساكر في تاريخه، وطول ترجمته، وقال: إن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام، وليست صنعاء اليمن، وقد قيل: إنه لم يرو عن حنش الشاميون، وإنما روى عنه المصريون، وحدث حنش عن عبد الله بن عباس أنه قال له: إن استطعت أن تلقى الله تعالى وسيفك حليته حديد فافعل.

وكان عبد الملك بن مروان حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بإفريقية سنة خمسين، فحفظ له ذلك، فعفا عنه حين أتي به في وثاق حين ثار مع ابن الزبير. وسئل أبو زرعة عن حنش فقال: ثقة ولم يذكر ابن عساكر أن حنشاً لقب له، وأن اسمه حسين، بل اقتصر على اسمه حنش، ولعله الصواب، لاما قاله ابن وضاح، والله تعالى أعلم.

وفي تاريخ ابن الفرضي أبي الوليد أن حنشاً كان بسرقسطة، وأنه الذي أسس جامعها، وبها مات، وقبره بها معروف عند باب اليهود بغربي المدينة، وفي تاريخ ابن بشكوال أنه أخذ أيضاً قبلة جامع إلبيرة، وعدل وزن قبلة قرطبة الذي هو فخر الأندلس.

٤ - ومن الداخلين من التابعين للأندلس أبو عبد الله علي بن رباح اللخمي. ذكر ابن يونس في تاريخ مصر أنه ولد سنة خمس عشرة عام اليرموك، وكان أعور ذهبت عينه يوم ذات السواري في البحر مع عبد الله بن سعد سنة أربع وثلاثين، وكان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان، وكانت له من عبد العزيز بن مروان منزلة، وهو الذي زفّ أم البنين بنت عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك، ثم عنت عليه عبد العزيز فأغزاه إفريقية، فلم يزل بإفريقية إلى أن توفي بها، ويقال: كانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة. قال ابن بشكوال: أهل مصر يقولون: علي بن رباح، بفتح العين، وأما أهل العراق فعلي، بضم العين، وقد سبق هذا الكلام عن ابن معين في الباب الثاني. وقال: وقال ابنه

موسى بن علي: من قال لي موسى بن علي بالتصغير لم أجعله في حل.

٥ - ومن التابعين الداخلين أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي. قال ابن بشكوال: إنه يروي عن أبي أيوب الأنصاري وعبد الله ابن عمرو رضي الله تعالى عنهم وغيرهم، وروى عنه جماعة. وذكر البخاري في تاريخه الكبير أنه يعد في المصريين، وذكر ابن يونس في تاريخ المغرب أنه توفي بإفريقية سنة مائة، وكان رجلاً صالحاً فاضلاً، رحمه الله تعالى، ويذكر أهل قرطبة أنه توفي بقرطبة، وأنه دفن بقبليها، وقبره مشهور يتبرك به، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر في ذلك.

٦ - ومن الداخلين من التابعين حبان بن أبي جبلة. ذكر ابن بشكوال أنه مولى قريش، ويكنى أبا النضر، وذكره أبو العرب محمد بن تميم في تاريخ إفريقية، وقال: حدثني فرات بن محمد أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقية منهم حبان بن أبي جبلة، روى عن عمرو ابن العاص وعبد الله بن عباس وابن عمر، رضي الله تعالى عنهم. ويقال: توفي بإفريقية سنة اثنتين وعشرين ومائة، وقيل: سنة خمس وعشرين ومائة، وذكر ابن الفرضي أنه غزى مع موسى ابن نصير حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له: قرقشونة فتوفي به. قال: وقال لنا أبو محمد الثغري: بين قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين ميلاً، وفيها الكنيسة المعظمة عندهم المسماة شنت مرية، ذكر أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحزم الإنسان بذراعيه واحدة منها مع طول مفرط، هكذا نقله ابن سعيد عمن ذكر، والله تعالى أعلم.

٧ - ومن الداخلين من التابعين فيما ذكر: المغيرة ابن أبي بردة نشيط ابن كنانة العذري. روى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ويروي عنه مالك في موطئه، وذكره البخاري في تاريخه الكبير، وفي كتاب الحافظ ابن بشكوال أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير فكان موسى بن نصير يخرجه على

العساكر.

٨ - ومن التابعين حيوة بن رجاء التميمي، ذكر ابن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه، وأنه من جملة التابعين، رضي الله تعالى عنهم، قاله ابن بشكوال في مجموعة المترجم بـ " التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ". قال ابن الأبار: وقد سمعته من أبي الخطاب ابن واجب، وسمعه هو منه، انتهى.

٩ - ومنهم عياض بن عقبة الفهري، من خيار التابعين، ذكره ابن حبيب في الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس، ولم يغلوا.

١٠ - ومنهم عبد الله بن شماسة الفهري، ذكر ابن بشكوال أنه مصري، وأن البخاري ذكره في تاريخه.

١١ - ومنهم عبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، جده عبد الرحمن أحد العشرة رضي الله تعالى عنهم، وهو ممن ذكره ابن بشكوال في الأربعة من التابعين الذين لم يغلوا.

١٢ - ومنهم منصور بن حزامة، فيما يذكر، قال ابن بشكوال: قرأت في كتاب روايات الشيخ أبي عبد الله بن عابد الراوية رحمه الله تعالى قال: وممن دخل الأندلس من المعمرين ما وجدت بخط المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر رضي الله تعالى عنه في بعض كتبه المختزنة أنه قال: طرأ علينا رجل أسود من ناحية السودان في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، فذكر أنه منصور بن حزامة مولى رسول الله ، وكان يزعم أنه أدرك أيام عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وأنه كان مراهقاً، وكان مع عائشة رضي الله تعالى عنها يوم الجمل، وأنه شهد صفين، وأن حزامة أعتقه رسول الله ، وخرج عن الأندلس في سنة ثلاثين وثلاثمائة إلى المغرب، انتهى.

قلت: هذا كله لا أصل له، ويرحم الله تعالى حافظ الإسلام ابن حجر حيث

كتب على هذا الكلام ما صورته: هذا هذيان لا أصل له، ولا يغتر به، وكذلك ترجمة أشج الغرب اتفق الحفاظ على كذبه، انتهى.

قلت: وما هو إلا من نمط عكراش، والله تعالى يحفظنا من سماع الأباطيل بمنه. ومن هذه الأكاذيب ما يذكرون عن أبي الحسن علي بن عثمان بن خطاب، وأنه يعرف بأبي الدنيا، وأنه كان معمراً مشهوراً بصحبة علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وأنه رأى جماعة من كبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ووصفهم بصفاتهم، وأنه رأى عائشة رضي الله عنها فيما زعم، وقدم قرطبة على المستنصر الحكم بن الناصر وهو ولي عهد، وسأله أبو بكر بن القوطية عن مغازي علي وكتبها عنه، وقد ذكره ابن بشكوال وغيره في كتبهم وتواريخهم، فقد ذكر الثقات العارفون بالفن أنه كذاب دجال مائن جاهل، فإياك والاغترار بمثل ذلك مما يوجد في كتب كثير من المؤرخين بالمشرق والأندلس، ولا يلتفت إلى قول تميم بن محمد التميمي: إنه كان إذا لقيه ابن ثلاثمائة سنة وخمس سنين، قال تميم: واتصلت بنا وفاته ببلده في نحو سنة عشرين وثلاثمائة، وبالجملة فلا أصل له، وإنما ذكرناه للتنبيه عليه.

وقد عرفت بما ذكرناه التابعين الداخلين الأندلس، على أن التحقيق أنهم لم يبلغوا ذلك العدد، وإنما هم نحو خمسة أو أربعة كما ألمعنا به في غير هذا الموضع، والله تعالى أعلم.

١٣ - ومن الداخلين إلى الأندلس مغيث فاتح قرطبة، وقد تقدم بعض الكلام عليه، وذكر ابن حيان والحجاري أنه رومي، زاد الحجاري: وليس برومي على الحقيقة، وتصحيح نسبه أنه مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني، سبي من الروم بالمشرق وهو صغير، فأدبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد، وأنجب في الولادة، وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا في قرطبة، وسادوا وعظم بيتهم، وتفرعت دوحتهم، وكان منهم عبد الرحمن بن مغيث حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس وغيره.

ونشأ مغيث بدمشق، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها، وجاز على ما في طريقها من البلاد إلى الشام، وقدمه طارق لفتح قرطبة ففتحها ووقع بينه وبين طارق ثم وقع بينه وبين موسى بن نصير سيد طارق، فرحل معهما إلى دمشق ثم عاد إلى الأندلس ظافراً عليهما، وأنشأ بقرطبة البيت المذكور، وفي " المسهب " أنه فتح قرطبة في شوال سنة اثنين وتسعين، ثم فتح الكنيسة التي تحصن بها ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر في محرم سنة ثلاث وتسعين، ولم يذكر له مولداً ولا وفاة.

وذكر الحجاري أنه تأدب بدمشق مع بني عبد الملك فأفصح بالعربية، وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كتبه، وتدرب على الركوب، وأخذ نفسه بالإقدام في مضايق الحروب، حتى تخرج في ذلك تخرجاً أهله في التقدم على الجيش الذي فتح قرطبة، وكان مشهوراً بحسن الرأي والكيد، وقد قدمنا كيفية فتحه قرطبة وأسره ملكها الذي لم يؤسر من ملوك الأندلس غيره، لأن منهم من عقد على نفسه أماناً، ومنهم من فر إلى جليقية.

وذكر الحجاري أنه لما حصل بيده ملك قرطبة وحريمه رأى فيهن جارية كأنها بينهن بدر بين نجوم، وهي تكثر التعرض له بجمالها، فوكل بها من عرض عليها العذاب إن لم تقر بما عزمت عليه في شأن مغيث، وأنه قد فطن من كثرة تعرضها له بحسنها لما أضمرته من المكر في شأنه، فأقرت أنها أكثرت التعرض لتقع بقلبه، إذ حسنها فتان، وقد أعدت له خرقةً مسمومةً لتمسح بها ذكره عند وقاعها، فحمد الله تعالى على ما ألهمه إليه من مكرها، وقال: لو كانت نفس هذه الجارية في صدر أبيها ما أخذت قرطبة من ليلة.

وذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أصغى إلى طارق في شأن سيده موسى بن نصير فعذبه واستصفى أمواله أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق، وكان مغيث قد تغير عليه، فاستشار سليمان مغيثاً في تولية طارق، وقال له: كيف أمره بالأندلس فقال: لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم

يروا أنهم كفروا، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان، وبدا له في ولايته، فلقيه بعد ذلك طارق، فقال له: ليتك وصفت أهل الأندلس بعصياني، ولم تضمر في الطاعة ما أضمرت، فقال مغيث: ليتك تركت لي العلج فتركت لك الأندلس، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه ملك قرطبة الذي حصل في يده، فلم يمكنه منه، فأغرى به سيده موسى بن نصير، وقال له: يرجع إلى دمشق وفي يده عظيم من عظماء الأندلس، وليس في أيدينا مثله، فأي فضل يكون لنا عليه فطلبه منه، فامتنع من تسليمه، قال ابن حيان: فهجم موسى على العلج وانتزعه من مغيث، فقيل له: إن سرت به معك حياً ادعاه مغيث والعلج لا ينكر، ولكن اضرب عنقه، ففعل، فاضطغنها عليه مغيث، وبالغ في أذيته عند سليمان.

وذكر الحجاري في " المسهب " أن لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه، فمن ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقاً ويكفي منه هنا قوله:

أعنتكم ولكن ما وفيتم ::: فسوف أعيث في غربٍ وشرق

وعنوان طبقته في النثر أن موسى بن نصير قال له وقد عارضه بكلام في محفل من الناس: كفّ لسانك، فقال: لساني كالمفصل، ما أكفه إلا حيث يقتل. وأضافه ابن حيان والحجاري إلى ولاء الوليد بن عبد الملك، وهو الذي وجهه إلى الأندلس غازياً ففتح قرطبة، ثم عاد إلى المشرق، فأعاده الوليد رسولاً عنه إلى موسى بن نصير يستحثه على القدوم عليه، فوفد معه، فوجدوا الوليد قد مات، فخدم بعده سليمان بن عبد الملك.

١٤ - ١٥ - ومن الداخلين أيوب بن حبيب اللخمي. وذكر ابن حيان أنه ابن أخت موسى بن نصير، وأن أهل إشبيلية قدموه على سلطان الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى، واتفقوا في أيامه على تحويل السلطان من إشبيلية إلى قرطبة، فدخل إليها بهم، وكان قيامه بأمرهم ستة أشهر، وقيل: إن الذي نقل السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة الحر بن عبد الرحمن الثقفي.

قال الرازي: قدم الحر والياً على الأندلس في ذي الحجة سنة سبع وتسعين

ومعه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية، فمنهم أول طوالع الأندلس المعدودين، وقال ابن بشكوال: كانت مدة الحر سنتين وثمانية أشهر، وكانت ولايته بعد قيام أيوب بن حبيب اللخمي.

١٦ - ٢٦ - ومن الداخلين السمح بن مالك الخولاني، ولي الأندلس بعد الحر بن عبد الرحمن السابق، قال ابن حيان: ولاه عمر بن عبد العزيز، وأوصاه أن يخمس من أرض الأندلس ما كان عنوة، ويكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها، قال: وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبعدهم عن أهل كلمتهم، قال: وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلى أن يستنقذهم الله تعالى برحمته.

وذكر ابن حيان أن قدوم السمح كان في رمضان سنة مائة، وأنه الذي بنى قنطرة قرطبة بعدما استأذن عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى، وكانت دار سلطانه قرطبة.

قال ابن بشكوال: استشهد بأرض الفرنجة يوم التروية سنة اثنتين ومائة.

قال ابن حيان: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، وذكر أن قتل في الوقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين، فلم ينج من المسلمين أحد، قال ابن حيان: فيقال: إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن.

وقدم أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي. وذكر ابن بشكوال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس، وأنه يروي عن عبد الله بن عمر، رضي الله تعالى عنهما، قال: وكانت ولايته للأندلس في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي صاحب إفريقية، واستشهد في قتال العدو بالأندلس سنة خمس عشرة، انتهى.

وفيه مخالفة لما سبق أنه ولي بعد السمح، وأن السمح قتل سنة١٠٢، وهذا

يقول تولى سنة ١١٠، فأين ذا من ذاك والله تعالى أعلم.

ووصفه الحميدي بحسن السيرة والعدل في قسمة الغنائم، وذكر الحجاري أنه ولي الأندلس مرتين، وربما يجاب بهذا عن الإشكال الذي قدمناه قريباً، ويضعفه أن ابن حيان قال: دخل الأندلس حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب في صفر سنة ثلاث عشرة ومائة، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد، وأصيب عسكره في شهر رمضان سنة ١١٤، في موضع يعرف ببلاط الشهداء.

قال ابن بشكوال: وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط، وقد تقدم مثل هذا في غزوة السمح، فكانت ولايته سنة وثمانية أشهر، وفي رواية سنتين وثمانية أشهر، وقيل غير ذلك، وكان سرير سلطانه حضرة قرطبة.

وولي الأندلس بعده عنبسة بن سحيم الكلبي، وذكر ابن حيان أنه قدم على الأندلس والياً من قبل يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج حين كان صاحب إفريقية، وكان قدومه الأندلس في صفر سنة١٠٣، فتأخر بقدومه عبد الرحمن المتقدم الذكر، قال ابن بشكوال: فاستقامت به الأندلس، وضبط أمرها، وغزا بنفسه إلى أرض الإفرنجة وتوفي في شعبان سنة ١٠٧، فكانت ولايته أربعة أعوام وأربعة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر.

وذكر ابن حيان أنه في أيامه قام بجليقية علجٌ خبيثٌ يدعى بلاي، فعاب على العلوج طول الفرار، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثار، ودافع عن أرضه، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك، وقيل: إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا الصخرة التي لاذ بها هذا العلج ومات أصحابه جوعاً إلى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة، وما لهم عيش إلا من عسل النحل في جباح معهم في خروق الصخرة، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروهم، وقالوا:

ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم فبلغ أمرهم بعد ذلك في القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به.

وملك بعده أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السمة.

قال ابن سعيد: فآل احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقب من كان فيها المدن العظيمة، حتى إن حضرة قرطبة في يدهم الآن، جبرها الله تعالى، وهي كانت سرير السلطنة لعنبسة.

قال ابن حيان والحجاري: إنه لما استشهد عنبسة قدم أهل الأندلس عليهم عذرة بن عبد الله الفهري، ولم يعده ابن بشكوال في سلاطين الأندلس، بل قال: ثم تتابعت ولاة الأندلس مرسلين من قبل صاحب إفريقية: أولهم يحيى بن سلمة، وذكر الحجاري أن عذرة كان من صلحائهم وفرسانهم، وصار لعقبه نباهة، وولده هشام بن عذرة هو الذي استولى على طليطلة قصبة الأندلس، وفي عقبه بوادي آش من مملكة غرناطة نباهة وأدب، قال ابن سعيد: وهم إلى الآن ذوو بيت مؤصل، ومجد مؤثل، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة. وولي بعده يحيى بن سلمة الكلبي، قال ابن بشكوال: أنفذه إلى الأندلس بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية إذ استدعى منه أهلها والياً بعد مقتل أميرهم عنبسة، فقدمها في شوال سنة سبع ومائة، وأقام عليها سنة وستة أشهر لم يغز فيها بنفسه غزوةً - ونحوه لابن حيان - وكان سريره قرطبة. وتولى بعده عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، وذكر ابن بشكوال: أنه قدم عليها والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب إفريقية في شعبان سنة عشر ومائة، ثم عزل سريعاً بعد خمسة أشهر، وكان سرير سلطانه بقرطبة. وولي بعده حذيفة بن الأحوص القيسي، قال ابن بشكوال: وأتى إليها والياً من قبل عبيدة المذكور، على اختلاف فيه وفي ابن أبي نسعة أيهما تولى قبل صاحبه، وكان قدوم حذيفة في ربيع الأول سنة عشر ومائة، وعزل عنها سريعاً أيضاً، وقيل: إن ولايته استتمت سنة، وكان بقرطبة. وولي بعده الأندلس الهيثم ابن عدي الكلابي، قال ابن بشكوال: ولاه

عبيدة المذكور فوافى الأندلس في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة، وقيل: إنه ولي سنتين وأياماً، وقد قيل: أربعة أشهر، وكان بقرطبة. وولي بعده محمد بن عبد الله الأشجعي، قال ابن بشكوال: قدمه الناس عليهم، وكان فاضلاً فصلى بهم شهرين. قال: ثم قدم عليهم والياً عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي الذي تقدمت ترجمته، وذكرت ولايته الأولى للأندلس، وليها من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية إلى أن استشهد كما تقدم. وولي الأندلس بعده عبد الملك بن قطن الفهري، وذكر الحجاري أن من نسله بني القاسم أصحاب البونت وبني الجد أعيان إشبيلية، قال ابن بشكوال: قدم الأندلس في شهر رمضان سنة أربعة عشرة ومائة فكانت مدة ولايته عامين وقيل أربع سنين، ثم عزل عنها ذميماً في شهر رمضان سنة ست عشرة ومائة، قال: وكان ظلوماً في سيرته، جائراً في حكومته، وغزا أرض البشكنس فأوقع بهم. وذكر ابن بشكوال أنه لما عزل وولي عقبة بن الحجاج وثب ابن قطن عليه فخلعه، لا أدري أقتله أم أخرجه، وملك الأندلس بقية إحدى وعشرين ومائة إلى أن رحل بلج بن بشر بأهل الشام إلى الأندلس، فغلبه عليها، وقتل عبد الملك بن قطن، وصلب في ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة بعد ولاية بلج بعشرة أشهر، وصلب بصحراء ربض قرطبة بعدوة النهر حيال رأس القنطرة، وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً، وأقام شلوه على جذعه إلى أن سرقه مواليه في الليل وغيبوه، فكان المكان بعد ذلك يعرف بمصلب ابن قطن. فلما ولي ابن عمه يوسف بن عبد الرحمن الفهري استأذنه ابنه أمية بن عبد الملك، وبنى فيه مسجداً نسب إليه، فقيل: مسجد أمية، وانقطع عنه اسم المصلب، وكان سن عبد الملك عند مقتله نحو التسعين. وذكر ابن بشكوال أن عقبة بن الحجاج السلولي ولاه عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية الأندلس ودخلها سنة سبع وعشرة ومائة، وقيل: في السنة التي قبلها، فأقام بها سنين محمود السيرة، مثابراً على الجهاد، مفتتحاً البلاد، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة وصار رباطهم على نهر رودنة، فأقام عقبة بالأندلس سنة إحدى وعشرين ومائة، وكان قد اتخذ بأقصى ثغر الأندلس

الأعلى مدينة يقال لها: أربونة كان ينزلها للجهاد، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويبين له عيوب دينه، فأسلم على يده ألفا رجل، وكانت ولايته خمس سنين وشهرين، قال الرازي: فثار أهل الأندلس بعقبة، فخلعوه في صفر سنة ثلاث وعشرين في خلافة هشام ابن عبد الملك، وولوا على أنفسهم عبد الملك بن قطن، وهي ولايته الثانية، فكانت ولاية عقبة الأندلس ستة أعوام وأربعة أشهر، وتوفي في صفر سنة ١٢٣، وسريره قرطبة.

٢٧ - ٣١ - ومن الداخلين إلى الأندلس بلج بن بشر بن عياض القشيري. قال ابن حيان: لما انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس وخلعهم لطاعته وعيثهم في الأرض شق عليه فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن إفريقية، وولى عليها كلثوم بن عياض القشيري، ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم، كان فيه مع ما انضاف إليه من جيوش البلاد التي صار عليها سبعون ألفاً ومع ذلك فإنه لما تلاقى مع ميسرة البربري المدعي للخلافة هزمه ميسرة وجرح كلثوم ولاذ بسبتة، وكان بلج ابن أخيه معه، فقامت قيامه هشام لما سمع بما جرى عليه، فوجه لهم حنظلة بن صفوان فأوقع بالبربر ففتح الله تعالى على يديه. ولما اشتد حصار بلج وعمه كلثوم ومن معهما من فلّ أهل الشام بسبتة وانقطعت عنهم الأقوات وبلغوا من الجهد الغاية استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس، فتثاقل عنهم صاحب الأندلس عبد الملك بن قطن لخوفه على سلطانه منهم، فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهم، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمي بمركبين مشحونين ميرةً أمسكا من أرماقهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك ابن قطن ضربه سبعمائة سوط، ثم اتهمه بعد ذلك بتضريب الجند عليه، فسمل عينيه، ثم ضرب عنقه، وصلبه وصلب عن يساره كلباً، واتفق في هذا الوقت أن برابر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابر العدوة على العرب انتفضوا على عرب الأندلس، واقتدوا بما فعله إخوانهم، ونصبوا عليهم إماماً، فكثر إيقاعهم بجيوش ابن قطن، واستفحل

أمرهم، فخاف ابن قطن أن يلقى منهم ما لقي العرب ببر العدوة من إخوانهم، وبلغه أنهم قد عزموا على قصده، فلم ير أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج الموتورين، فكتب لبلج وقد مات عمه كلثوم في ذلك الوقت، فأسرعوا إلى إجابته، وكانت أمنيتهم، فأحسن إليهم، وأسبغ النعم عليهم، وشرط عليهم أن يأخذ منهم رهائن، فإذا فرغوا له من البربر جهزهم إلى إفريقية، وخرجوا له عن أندلسه، فرضوا بذلك، وعاهدوه عليه، فقدم عليهم وعلى جنده ابنيه قطناً وامية، والبربر في جموع لا يحصيها غير رازقها، فاقتتلوا قتالاً صعب فيه المقام، إلى أن كانت الدائرة على البربر، فقتلتهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلهم بالثغور، وخفوا عن العيون، فكر الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، فاشتدت شوكتهم، وثابت همتهم، وبطروا، ونسوا العهود، وطالبهم ابن قطن بالخروج عن الأندلس إلى إفريقية، فتعالوا عليه، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم في سبتة، وقتله الرجل الذي أغاثهم بالميرة، فخلعوه، وقدموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر، وتبعه جند ابن قطن، وحملوا عليه في قتل ابن قطن، فأبى فثارت اليمانية وقالوا: قد حميت لمضرك، والله لا نطيعك، فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قطن فأخرج إليهم وهو شيخ كبير كفرخ نعامةٍ قد حضر وقعة الحرّة مع أهل اليمامة، فجعلوا يسبونه، ويقولون له: أفلتّ من سيوفنا يوم الحرّة، ثم طالبتنا بتلك الترة فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود وحبستنا بسبتة محبس الضنك حتى أمتّنا جوعاً، فقتلوه وصلبوه كما تقدم، وكان أمية وقطن ابناه عندما خلع قد هربا، وحشدا لطلب الثأر، واجتمع عليهما العرب الأقدمون والبربر، وصار معهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن عقبة بن نافع الفهري كبير الجند، وكان في أصحاب بلج، فلما صنع بابن عمه عبد الملك ما صنع فارقه، فانحاز فيمن يطلب ثأره، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب أربونة، وكان فارس الأندلس في وقته، فأقبلوا نحو بلج في مائة ألف أو يزيدون، وبلج قد استعد لهم في مقدار اثني عشر ألفاً سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين، فاقتتلوا،

وصبر أهل الشام صبراً لم يصبر مثله أحدٌ قط، وقال عبد الرحمن بن علقمة اللخمي: أروني بلجاً، فوالله لأقتلنه أو لأموتنّ دونه، فأشاروا إليه نحوه، فحمل بأهل الثغر حملةً انفرج لها الشاميون، والراية في يده، فضربه عبد الرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك في أيامٍ قلائل، ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمةً قبيحة، واتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون، فكان عسكراً منصوراً مقتولاً أميره، وكان هلاك بلج في شوال سنة أربع وعشرين ومائة، وكانت مدته أحد عشر شهراً، وسريره قرطبة، والعرب الشاميون الداخلون معه إلى الأندلس يعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين، والذين كانوا في الأندلس قبل دخوله يشهرون بالبلديين.

ولما هلك بلج قدم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملي، وقد كان عندهم عهد الخليفة هشام بذلك، فسار فيهم بأحسن سيرة، ثم إن أهل الأندلس الأقدمين من العرب و البربر سموا بعد الوقعة لطلب الثأر، فآل أمره معهم إلى أن حصروه بمدينة ماردة، وهم لا يشكّون في الظفر، إلى أن حضر عيدٌ تشاغلوا به، فأبصر ثعلبة منهم غرةً وانتشاراً وأشراً بكثرة العدد والاستيلاء، فخرج عليهم في صبيحة عيدهم وهم ذاهلون، فهزمهم هزيمة قبيحة، وأفشى فيهم القتل، وأسر منهم ألف رجل، وسبى ذريتهم وعيالهم، وأقبل إلى قرطبة من سبيهم بعشرة آلاف أو يزيدون، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة. وأصبح الناس منتظرين لقتل الأسارى، فإذا بهم قد طلع عليهم لواءٌ فيه موكب، فنظروا فإذا أبو الخطار قد أقبل والياً على الأندلس، وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي. وذكر ابن حيان أنه قدم والياً من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقية، والخليفة حينئذٍ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، وذلك في رجب سنة خمس وعشرين ومائة، بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة، قال: وكان مع فروسيته شاعراً محسناً، وكان في أول ولايته قد أظهر العدل فدانت له

الأندلس، إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المضرية، فهاج الفتنة العمياء، وكان سبب هذه الفتنة أن أبا الخطار قد بلغ به التعصب لليمانية أن اختصم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج حجةً من ابن عم أبي الخطار، فمال أبو الخطار مع ابن عمه، فأقبل الكناني إلى الصميل ابن حاتم الكلابي أحد سادات مضر، فشكا له حيف أبي الخطار، وكان أبياً للضيم حامياً للعشيرة، فدخل على أبي الخطار وأمض عتابه، فنجهه أبو الخطار وأغلظ له، فرد الصميل عليه، فأمر به أبو الخطار، فأقيم ودعّ قفاه حتى مالت عمامته، فلما خرج قال له بعض من على الباب: أبا جوشن، ما بال عمامتك مائلة فقال: إن كان لي قوم فسيقيمونها. وأقبل إلى داره، فاجتمع إليه قومه حين بلغهم ذلك ممتعضين، فباتوا عنده، فلما أظلم الليل قال: ما رأيكم فيما حدث علي فإنه منوط بكم فقالوا: أخبرنا بما تريد، فإن رأينا تبع رأيك، فقال: والله أريد إخراج هذا الأعرابي من هذا السلطان على ما خيلت، وأنا خارج لذلك عن قرطبة، فإنه ما يمكنني ما أريد إلا بالخروج، فإلى أين ترون أقصد فقالوا: اذهب حيث شئت، ولا تأت أبا عطاء القيسي، فإنه لا يواليك على أمر ينفعك، وكان أبو عطاء هذا سيداً مطاعاً يسكن بإستجة، وكان مشاحناً للصميل مسامياً له في القدر، فسكت عند ذكره أبو بكر ابن الطفيل العبدي، وكان من أشرافهم، إلا أنه كان حديث السن، فقال له الصميل: ألا تتكلم فقال: أتكلم بواحدة ما عندي غيرها، قال: وما هي قال: إن عدوت إتيان أبي عطاء وشتت أمرك به لم يتم أمرنا وهلكنا، وإن أنت قصدته لم ينظر في شيء مما سلف بينكما، وحركته الحمية لك، فأجابك إلى ما تريد، فقال له الصميل: أصبت الرأي، وخرج من ليلته، وقام أبو عطاء في نصرته على ما قدره العبدي، وعمد إلى ثوابة بن يزيد الجذامي أحد أشراف اليمن وساداتهم، وكان ساكناً بمورور وقد استفسد إليه أبو الخطار، فأجابهما في القيام والتقدم على المضرية، فاجتمعوا في شذونة، وآل الأمر إلى أن هزموا أبا الخطار على وادي لكة، وحصل أسيراً في أيديهم، فأرادوا قتله، ثم أرجأوه، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة، وذلك في رجب سنة ١٢٧ بعد ولاية أبي الخطار

بسنتين.

ولما سجن أبو الخطار في قرطبة امتعض له عبد الرحمن بن حسان الكلبي، فأقبل إلى قرطبة ليلاً في ثلاثين فارساً مهعم طائفة من الرجالة، فهجموا على الحبس وأخرجوه منه، ومضوا به إلى غرب الأندلس، فعاد في طلب سلطانه، ودبَّ في يمانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة، فخرج إليه ثوابة ومعه الصميل، فقام رجل من المضرية ليلاً فصاح بأعلى صوته: يا معشر اليمن، ما لكم تتعرضون إلى الحرب وتردون المنايا عن أبي الخطار أليس قد قدرنا عليه لو أردنا قتله لفعلنا، لكننا مننا وعفونا وجعلنا الأمير منكم، أفلا تفكرون في أمركم، فلو أن الأمير من غيركم عذرتم، ولا والله لا نقول هذا رهبةً منكم ولا خوفاً لحربكم، ولكن تحرجاً من الدماء ورغبةً في عافية العامة، فتسامع الناس به، وقالوا: صدق، فتداعوا للرحيل ليلاً، فما أصبحوا إلا على أميال.

قال الرازي: ركب أبو الخطار البحر من ناحية تونس في المحرم سنة ١٢٥، وفي كتاب أبي الوليد ابن الفرضي: كان أبو الخطار أعرابياً عصبياً، أفرط في التعصب لليمانيين، وتحامل على مضر، وأسخط قيساً، فثار به زعيمهم الصميل، فخلعه، ونصب مكانه ثوابة، وهاج بين الفريقين الحروب المشهورة، وخلع أبو الخطار بعد أربع سنين وتسعة أشهر، وذلك سنة ١٢٨، وآل أمره إلى أن قتله الصميل.

وولي الأندلس ثوابة بن سلامة الجذامي، قال ابن بشكوال: لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان، فكتب إليه بعهد الأندلس، وذلك سلخ رجب سنة ١٢٧، فضبط البلد، وقام بأمره كله الصميل واجتمع عليه أهل الأندلس، وأقام والياً سنةً أو نحوها، ثم هلك، وفي كتاب ابن الفرضي أنه ولي سنتين.

ثم ولي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة ابن نافع

الفهري، وجده عقبة بن نافع صاحب إفريقية وباني القيروان المجاب الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة، ولهذا البيت في السلطنة بإفريقية والأندلس نباهة. وذكر الرازي أن مولده بالقيروان، ودخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبي عبيدة الفهري عند افتتاحهم، ثم عاد إلى إفريقية، وهرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مغاضباً له، فهوي الأندلس، واستوطنها فساد بها، قال الرازي: كان يوسف يوم ولي الأندلس ابن سبع وخمسين سنة، وأقامه أهل الأندلس بعد أميرهم ثوابة، وقد مكثوا بغير والٍ أربعة أشهر، فاجتمعوا عليه بإشارة الصميل من أجل أنه قرشي رضي به الحيان، فرفعوا الحرب، ومالوا إلى الطاعة، فدانت له الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر، وقال ابن حيان: قدمه أهل الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٢٩، واستبد بالأندلس دون ولاية أحد له غير من بالأندلس، وحكى ابن حيان أنه أنشد قول حرقة بنت النعمان بن المنذر يوم خلعه بالأمان من سلطانه ودخوله عسكر عبد الرحمن الداخل المرواني:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ::: إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصَّف

قال ابن حيان: لما سمع أبو الخطار بتقديمه حرك يمانيته، فأجابوا دعوته، فأدى ذلك إلى وقعة شقندة بين اليمانية والمضرية فيقال: إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب حربٌ أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجالاً، طال صبر بعضهم على بعض، إلى أن فني السلاح، وتجاذبوا بالشعور، وتلاطموا بالأيدي وكل بعضهم عن بعض، وثابت للصميل غرة في اليمانية في بعض الأيام، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة، فخرجوا في نحو أربعمائة رجل من أنجادهم بما حضرهم من السكاكين والعصي ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلا قليلاً، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة، وما فيهم من يبسط يداً لقتال، ولا ينهض لدفاع، فانهزمت اليمانية ووضعت المضرية السيف فيهم، فأبادوا منهم خلقاً، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحى، فقبض عليه وجيء به إلى الصميل،

فضرب عنقه، وقد ذكرنا خبر انخلاع يوسف عن سلطانه في ترجمة عبد الرحمن الداخل، وهو آخر سلاطين الأندلس الذين ولوها من غير موارثة، حتى جاءت الدولة المروانية.

وذكر ابن حيان أن القائم بدولة يوسف والمستولي عليها الصميل ابن حاتم ابن شمر ابن ذي الجوشن الكلابي، وجده شمر هو قاتل الحسين، رضي الله تعالى عنه، وكان شمر قد فر من المختار بولده من الكوفة إلى الشام، فلما خرج كلثوم ابن عياض للمغرب كان الصميل فيمن خرج معه، ودخل الأندلس في طالعة بلج، وكان شجاعاً جواداً جسوراً على قلب الدول، فبلغ ما بلغ، وآل أمره إلى أن قتله عبد الرحمن الداخل المرواني في سجن قرطبة مخنوقاً. وذكر ابن حيان أنه كان ممن ثار على يوسف الفهري عبد الرحمن بن علقمة اللخمي فارس الأندلس، ووالي ثغر أربونة، وكان ذا بأسٍ شديدٍ ووجاهةٍ عظيمة، فبينما هو في تدبير غزو يوسف إذ اغتاله أصحابه وأقبلوا برأسه إليه. ثم ثار عليه بعد ذلك بمدينة باجة عروة بن الوليد في أهل الذمة وغيرهم، فملك إشبيلية، وكثر جمعه إلى أن خرج له يوسف فقتله، وثار عليه بالجزيرة الخضراء عامر العبدري، فخرج له، وأنزله على أمان في سكنى قرطبة، ثم ضرب عنقه بعد ذلك.

وقيل: إن أول من خرج على يوسف عمرو بن يزيد الأزرق في إشبيلية فظفر به فقتله، وثار عليه في كورة سرقسطة الحباب الزهري إلى أن ظفر به يوسف فقتله، ثم جاءته الداهية العظمى بدخول عبد الرحمن بن معاوية المرواني إلى الأندلس وسعيه في إفساد سلطانه، فتم له ما أراده، والله تعالى أعلم.

٣٢ - ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان، المعروف بالداخل. وذلك أنه لما أصاب دولتهم ما أصاب، واستولى بنو العباس على ما كان بأيديهم، واستقر

قدمهم في الخلافة، فرّ عبد الرحمن إلى الأندلس فنال بها ملكاً أورثه عقبه حقبةً من الدهر.

قال ابن حيان في " المقتبس ": إنه لما وقع الاختلال في دولة بني أمية والطلب عليهم، فرّ عبد الرحمن، ولم يزل في فراره منتقلاً بأهله وولده إلى أن حلّ بقرية على الفرات ذات شجرٍ وغياضٍ، يريد المغرب، لما حصل في خاطره من بشرى مسلمة، فمما حكي عنه أنه قال: إني لجالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمدٍ كان بي، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدّامي، وهو يومئذٍ ابن أربع سنينٍ أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه إلى ما كان بي ويأبى إلا التعلق، وهو دهشٌ يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة، وأخٍ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي: النجاء يا أخي، فهذه رايات المسودة، فضربت بيدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعةً حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري، فدلّ علي عبد سوء له العامل، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا فاشتددنا في الهرب، فسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تقتل يا أخي، إليَّ إليَّ، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغتر بأمانهم، وخشي الغرق، فاستعجل الإنقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك،

فتركوني، ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافةً، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر وأنا ساعٍ على قدمي، فلجأت إلى غيضةٍ أشبة، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية.

قال ابن حيان: وسار حتى أتى إفريقية وقد ألحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ مولاه بدراً، ومولاه سالماً، ومعهما دنانير للنفقة، وقطعة من جوهر، فنزل بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فل بني أمية، وكان عند واليها عبد الرحمن ابن حبيب الفهري يهودي حدثاني صحب مسلمة ابن عبد الملك، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشي المرواني الذي هو من أبناء ملوك القوم، واسمه عبد الرحمن، وهو ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويورثها عقبه، فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودي: ويحك، هذا هو، وأنا قاتله، فقال له اليهودي: إنك إن قتلته فما هو به، وإن غلبت عن تركه إنه لهو. وثقل فلُّ بني أمية على ابن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافةً، وتجنى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به فقتلهما، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل ابن أبان بن عبد العزيز ابن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبد الرحمن فاستخفى، انتهى.

وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفياً خمس سنين، وآل أمره في سفره إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط، وتقلب في قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قومٍ من زنانة، وأخذ في تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالي بني أمية وشيعتهم بها، وكانت الموالي المروانية المدونة بالأندلس في ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة، ولهم جمرة، وكانت رياستهم إلى شخصين: أبي عثمان عبيد الله

بن عثمان، وعبد الله بن خالد، وهما من موالي عثمان، رضي الله تعالى عنه، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبي عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيقٌ بوارثته، ويسأله القيام بشأنه وملاقاة من يثق به من الموالي الأموية وغيرهم، ويتلطف في إدخاله إلى الأندلس ليبليي عذراً في الظهور عليها، ويعده بإعلاء الدرجة، ولطف المنزلة، ويأمره أن يستعين في ذلك بمن يأمنه، ويرجو قيامه معه، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحيين من التراث، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه، وبانت له فيه طماعية، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبها الصميل بن حاتم وجه دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور: لو كنا ذاكرنا الصميل خبر بدرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده في موافقتنا، وكانا على ثقةٍ في أنه لا يظهر على سرهما أحداً لمروءته وأنفته، فقال له: إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شرف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا، قال أبو عثمان: فنمسح إذاً على أمره، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها، لا يريد غير ذلك، فاتفقا على هذا. فلما ودعا الصميل خلوا به في ذلك، وقد ظهر لهما منه حقدٌ على صاحبه يوسف في إبطائه عن إمداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة، فقال لهما: أنا معكما فيما تحبان، فاكتبا إليه أن يعبر، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله في جواره وأن يحسن له، ويزوجه بابنته، فإن فعل وإلا ضربنا صلعته بأسيفنا، وصرفنا الأمر عنه إليه، فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه، وأقام بطليطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر، وانصرفا إلى وطنهما بإلبيرة، وقد كانا لقيا من كان معهما في العسكر من وجوه الناس وثقاتهم، فطارحاهم أمر ابن معاوية، ثم دسّا في الكور إلى ثقاتهما بمثل ذلك،

فدب أمره فيهم دبيب النار في الجمر، وكانت سنة خلف بالأندلس بعد خروج من المجاعة التي دامت بالناس.

وفي رواية أن الصميل لان لهما في أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبر ذلك لما انصرفا، فتراجع فيه، فردهما، وقال: إني روّيت في الأمر الذي أدرته معكما فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قومٍ لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا رجلٌ نتحكم عليه، ونميل على جوانبه، ولا يسعنا بدل منه، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لي فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلاّ أغركما من نفسي، فإني أعلمكما أن أول سيف يسلّ عليه سيفي، فبارك الله لكما في رأيكما، فقالا له: ما لنا رأي إلا رأيك، ولا مذهب لنا عنك. ثم انصرفا عنه على أن يعينهما في أمره إن طلب غير السلطان، وانصرفا عنه إلى إلبيرة عازمين على التصميم في أمره، ويئسا من مضر وربيعة، ورجعا إلى اليمانية، وأخذا في تهييج أحقاد أهل اليمن على مضر، فوجداهم قوماً قد وغرت صدورهم عليهم، يتمنون شيئاً يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم، واغتنما بعد يوسف صاحب الأندلس في الثغر، وغيبة الصميل، فابتاعا مركباً ووجها فيه أحد عشر رجلاً منهم مع بدر الرسول، وفيهم تمام بن علقمة وغيره، وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه إلى مواليه، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه في طلب الأمر، فبثوا من ذلك في الجهات ما دبّ به أمرهم، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشطّ مغيلة من بلاد البربر، وهو يصلي، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله، فبشره بدر بتمكن الأمر، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيره، فقال له عبد الرحمن: ما اسمك قال: تمام، قال: وما كنيتك قال: أبو غالب، فقال: الله أكبر! الآن تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن. وبادر عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، فلما هم بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه، ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صِلاتٌ

على أقدارهم، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف، فقطع يد البربري، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم، حتى حلوا بساحل إلبيرة في جهة المنكب، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد، فنقلاه إلى قرية طرش منزل أبي عثمان، فجاءه يوسف بن بخت، وانثالت عليه الأموية، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي من أهل مالقة، فكان بعد ذلك قاضيه في العساكر، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من إشبيلية فاستوزره، وانثال عليه الناس انثيالاً، فقوي أمره مع الساعات فضلاً عن الأيام، وأمده الله تعالى بقوة عالية، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر. وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة، وعلى عامر العبدري الثائر معه، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من طليطلة وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأي الصميل إذ جاءه قبل أن يدخل رواقة رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق، واجتماع الموالي المروانية إليه، وتشوف الناس لأمره، فانتشر الخبر في العسكر لوقته، وشمت الناس بيوسف لقتله القرشين عامراً وابنه، وختره بعدهما، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل، وتنادوا بشعارهم، وقوضوا عن عسكره، واتفق أن جادت السماء بوابلٍ لا عهد بمثله لما شاء الله تعالى من التضييق على يوسف، فأصبح وليس في عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه، فأقبل إلى طليطلة وقال للصميل: ما الرأي؟ فقال: بادره الساعة قبل أن يغلظ في أمره، فإني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا، فقال له يوسف: أتقول ذلك ومع من نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا وقد أنفضنا من المال، وأنضينا الظهر، ونهكتنا المجاعة في سفرتنا هذه، ولكن نسير إلى قرطبة، فنستأنف الاستعداد له، بعد أن ننظر في أمره ويتبين لنا خبره، فلعله دون ما

كتب إلينا. فقال الصميل: الرأي ما أشرت به عليك، وليس غيره، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه، ومضوا إلى قرطبة.

وسار عبد الرحمن الداخل إلى إشبيلية، وتلقاه رئيس عربها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي، واجتمع الرأي على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة، فلما نزلوا بطشانة قالوا: كيف نسير بأمير لا لواء له ولا علم نهتدي إليه فجاؤوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه، فكرهوا أن يميلوا القناة لتعقد تطيراً فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين، فصعد رجل فرع إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة، كما سيأتي، وحكي أن فرقداً العالم صاحب الحدثان مر بذلك الموضع، فنظر إلى الزيتونتين، فقال: سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لا يثور عليه لواء إلا كسره، فكان ذلك اللواء يسعد به هو وولده من بعده، ولما أقبل إلى قرطبة خرج له يوسف، وكانت المجاعة توالت قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الأندلس ضعفاً، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من إشبيلية إلا الفول الأخضر الذي يجدونه في طريقهم، وكان الزمان زمان ربيع، فسمي ذلك العام عام الخلف، وكان نهر قرطبة حائلاً، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بئر إشبيلية والنهر بينهما، فلما رأى يوسف تصميم عبد الرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر محاذياً له، فتسايرا والنهر حاجز بينهما، إلى أن حل يوسف بصحراء المصارة غربي قرطبة، وعبد الرحمن في مقابلته، وتراسلا في الصلح، وقد أمر يوسف بذبح الجزر، وتقدم بعمل الأطعمة، وابن معاوية آخذ في خلاف ذلك قد أعد للحرب عدتها، واستكمل أهبتها، وسهر الليل كله على نظام أمره، كما سنذكره، ثم انهزم أهل قرطبة، وظفر عبد الرحمن الداخل، ونصر نصراً لا كفاء له، وانهزم الصميل، وفر إلى شوذر من كورة جيان، وفر يوسف إلى جهة ماردة. وذكر أن أبا الصباح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف: يا معشر يمن، هل لكم إلى فتحين في يوم قد فرغنا من يوسف وصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا، نقدم

عليه رجلاً منا، ونحل عنه هذه المضرية، فلم يجبه أحد لذلك، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسرها في نفسه إلى أن اغتاله بعد عام، فقتله. ولما انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بقرطبة ثلاثة أيام، حتى أخرج عيال يوسف من القصر، وعف وأحسن السيرة، ولما حصل دار الإمارة، وحل محل يوسف، لم يستقر به قرار من إفلات يوسف والصميل، فخرج في إثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان، واستكتب كاتب يوسف أمية بن زياد، واستنام إليه إذ كان من موالي بني أمية، ونهض في طلب يوسف فوقع يوسف على خبره فخالفه إلى قرطبة ودخل القصر، وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستنزله بالأمان، ولم يزل عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصميل في صفر سنة ١٣٩، وشارطه على أن يخلي بينه وبين أمواله حيثما كانت، وأن يسكن بلاط الحر - منزلة بشرقي قرطبة - على أن يختلف كل يوم إلى ابن معاوية ويريه وجهه، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود محمد بن يوسف، زيادةً على ابنه عبد الرحمن الذي أسره ابن معاوية يوم الوقعة، ورجع العسكران وقد اختلطا إلى قرطبة.

وذكر ابن حيان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث سنة ١٤١، فهرب من قرطبة، وسعى بالفساد في الأرض، وقد كانت الحال اضطربت به في قرطبة ودس له قوم قاموا عليه في أملاكه، زعموا أنه غصبهم إياها، فدفع معهم إلى الحكام فأعنتوه. وحمل عنه في التألم بذلك كلامٌ رفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه، فاشتد توحشه، فخرج إلى جهة ماردة، واجتمع إليه عشرون ألفاً من أهل الشتات، فغلظ أمره، وحدثته نفسه بلقاء ابن معاوية، فخرج نحوه من ماردة، وخرج ابن معاوية من قرطبة، فبينما ابن معاوية في حصن المدوّر مستعد، إذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر مروان صاحب إشبيلية، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد

بلاء عظيم منهزماً، واستحر القتل في أصحابه فهلك منهم خلق كثير، وسار يوسف لناحية طليطلة، فلقيه في قرية من قراها عبد الله بن عمرو الأنصاري، فلما عرفه قال لمن معه: هذا الفهري يفر، قد ضاقت عليه الأرض، وقتله الراحة له، والراحة منه، فقتله واحتز رأسه وقدم به إلى عبد الرحمن، فلما قرب وأوذن عبد الرحمن به أمره أن يتوقف به دون جسر قرطبة، وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده، وضم إلى رأسه، رأسه، ووضعنا على قناتين مشهرين إلى باب القصر.

وكان عبد الرحمن لما فر يوسف قد سجن وزيره الصميل لأنه قال له: أين توجه فقال: لا أعلم فقال: ما كان ليخرج حتى يعلمك، ومع ذلك فإن ولدك معه، وأكد عليه في أن يحضره، فقال: لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه، فاصنع ما شئت، فحينئذٍ أمر به للحبس وسجن معه ولدي يوسف أبا الأسود محمداً المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن، فتهيأ لهما الهرب من نقب، فأما أبو الأسود فنجا سالماً، واضطرب في الأرض يبغي الفساد إلى أن هلك حتف أنفه، وأما عبد الرحمن فأثقله اللحم فانبهر، فرد إلى الحبس، حتى قتل كما تقدم، وأنف الصميل من الهرب فأقام بمكانه، فلما قتل يوسف أدخل ابن معاوية على الصميل من خنقه، فأصبح ميتاً، فدخل على مشيخة المضرية في السجن، فوجدوه ميتاً وبين يديه كأسٌ ونقل، كأنه بغت على شرابه، فقالوا: والله إنا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها ولكن سقيتها.

ومما ظهر من بطش الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصرامته فتكه بإحدى دعائم دولته رئيس اليمانية أبي الصباح يحيى، وكان قد ولاه إشبيلية وفي نفسه منه ما أوجب فتكه به. ومن ذلك النوع حكايته مع العلاء بن مغيث اليحصبي إذ ثار بباجة، وكان قد وصل من إفريقية على أن يظهر الرايات السود بالأندلس، فدخل في ناس قليلين، فأرسى بناحية باجة، ودعا أهلها ومن حولهم فاستجاب له خلق كثير، إلى أن لقيه عبد الرحمن بجهة إشبيلية فهزمه، وجيء به وبأعلام

أصحابه، فقطع يديه ورجليه، ثم ضرب عنقه وأعناقهم، وأمر فقرطت الصكاك في آذانهم بأسمائهم، وأودعت جوالقاً محصناً، ومعها اللواء الأسود، وأنفذ بالجوالق تاجراً من ثقاته، وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم، ففعل، ووافق أبا جعفر المنصور قد حج، فوضعه على باب سرادقه، فلما كشفه ونظر إليه سقط في يده، واستدعى عبد الرحمن وقال: عرضنا هذا البائس - يعني العلاء - للحتف، ما في هذا الشيطان مطمع، فالحمد لله الذي صير هذا البحر بيننا وبينه.

ولما أوقع عبد الرحمن باليمانة الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح اليحصبي وأكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، وعلم أنهم علي دغل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي الناس بكل ناحية، واعتضد أيضاً بالبرابر، ووجه عنهم إلى بر العدوة فأحسن لمن وفد عليه إحساناً رغب من خلفه في المتابعة، قال ابن حيان: واستكثر منهم ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل، صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب، فاستقامت مملكته وتوطدت.

وقال ابن حيان: كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيهن شجاعاً مقداماً، بعيد الغور شديد الحدة قليل الطمأنينة بليغاً مفهوماً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتم به ويؤثره، وكان قد أعطي هيبة من وليه وعدوه، وكان يحضر الجنائز، ويصلي عليها، ويصلي بالناس إذا كان حاضراً الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشي بينهم، إلى أن حضر في يوم جنازة فتصدى له في منصرفه عنها رجل متظلم عامي وقاح ذو عارضة فقال له: أصلح الله الأمير، إن قاضيك ظلمني وأنا أستجيرك من الظلم، فقال له: تنصف إن صدقت، فمد الرجل يده إلى عنانه وقال: أيها الأمير أسالك بالله لما

برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافي فإنه معك، فوجم الأمير والتفت إلى من حوله من حشمه، فرآهم قليلاً، ودعا بالقاضي وأمر بإنصافه، فلما عاد إلى قصره كلمه بعض رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى، فقال له: إن هذا الخروج الكثير - أبقى الله تعالى الأمير - لا يجمل بالسلطان العزيز، وإن عيون العامة تخلق تجلته، ولا تؤمن بوادرهم عليه، فليس الناس كما عهدوا، فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل، ووكل بذلك ولده هشاماً.

ولما استقر ملكه استحضر الوفود إلى قرطبة، فانثالوا عليه، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلامٍ سرّهم وطيّب نفوسهم، مع أنه كساهم وأطعمهم ووصلهم، فانصرفوا عنه محبورين مغتبطين، يتدارسون كلامه، ويتهافتون بشكره، ويتهانون بنعمة الله تعالى عليهم فيه. وفي بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجلٌ من جند قنسرين يستجديه فقال له: يا ابن الخلائف الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فررت وبك عذت من زمنٍ ظلومٍ ودهرٍ غشومٍ، قلّل المال وكثر العيال وشعث الحال فصير إلى نداك المآل، وأنت ولي الحمد والمجد والمرجو للرفد، فقال له عبد الرحمن مسرعاً: قد سمعنا مقالتك وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقامك، فلا تعودن ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف في الطلبة، وإذا ألم بك خطب أو حزبك أمر فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما نستر عليك خلتك، ونكف شمات العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز وجهه بإخلاص الدعاء وصدق النية، وأمر له بجائزة حسنة، وخرج الناس يتعجبون منه من حسن منطقه وبراعة أدبه، وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه.

قال ابن حيان: ووقع إلى سليمان بن يقظان الأعرابي على كتاب منه سلك به سبيل الخداع: أما بعد فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة

الطريق، لتمدن يداً إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لأزوين بنانها عن رصف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد.

وفي " المسهب " أن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمكان العالي، الذي يرتد عنه أكثر بني مروان حسيراً. وقد جرى بينه وبين مولاه بدر ما لا يجب إهماله، وذلك أنه لما سعى بدر في تكميل دولته من ابتدائها إلى استقرارها صحبه عجب وامتنان كادا يردان به حياض المنية، فأول ما بدأ به أن قال: بعنا أنفسنا وخاطرنا بها في شأن من هانت عليه لما بلغ أقصى أمله. وقال وقد أمره بالخروج إلى غزاة: إنما تعبنا أولاً لنستريح آخراً، وما أرانا إلا في أشدّ مما كنا، وأطال أمثال هذه الأقوال، وأكثر الاستراحة في جانبه، فهجره وأعرض عنه، فزاد كلامه، وكتب له رقعة منها: أما كان جزائي في قطع البحر وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر، الذي أهانني في عيون أكفائي وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويحفدني على الطمع والرجاء، وأظن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما بلغوا بي أكثر من هذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه، فوقّع عليها: " وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ودناءة أدبك ولئيم معتقدك، والعجب أنك متى أردت أن تبني لنفسك عندنا متاتاً أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمن به، مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح إدلالك، فلعل ذلك يقمع منك ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى؛ فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شرّك مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا ". فلما ورد هذا الجواب على بدر سقط في يده وسلم للقضاء، وعلم أنه لا ينفع فيه قول، ووجه عبد الرحمن من استأصل ماله وألزمه داره، وهتك حرمته وقص جناح جاهه، وصيره أهون من قعيس

على عمته، ومع هذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه، تارة يستلينه وتارة يذكره، وتارة ينفث مصدوراً بخط قلمه ما يلقيه عليه بلسانه، غير مفكر فيما يؤول إليه، إلى أن كتب له: قد طال هجري، وتضاعف همي وفكري، وأشد ما عليّ كوني سليباً من مالي، فعسى أن تأمر لي بإطلاق مالي وأتحد به في معزل لا أشتغل بسلطان ولا أدخل في شيء من أموره ما عشت، فوقّع له: إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته، ولا سبيل إلى ردّ مالك، فإن تركك بمعزل في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلي من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فايأس من ذلك فإن اليأس مريح. فسكت لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة من يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس، فكتب إليه في ذلك رقعةً منها: " وقد أتى هذا العيد الذي خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى في خراب دولتك، ممن عفوت عنه، فتبنك النعمة في ذراك، واقتعد ذروة العز، وأنا على ضدٍّ من هذا سليباً من النعمة، مطرحاً في حضيض الهوان، أيأس مما يكون، وأقرع السن على ما كان ". فلما وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه عن قرطبة إلى أقصى الثغر، وكتب له على ظهر رقعته: " لتعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلا ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان، وما تقوّلوه عليك، وما لك عدو أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك ". ولما فتح الداخل سرقسطة، وحصل في يده ثائرها الحسين الأنصاري، وشدخت رؤوس وجوهها بالعمد، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله، أقبل خواصه يهنئونه، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند، فهنأه بصوت عال، فقال: والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوقي فأوجب علي ذلك أن أنعم فيه على من هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال، من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا

متهيب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة، فقال: ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه الله تعالى، فتهلل وجه الأمير، وقال: ليس هذا باعتذار جاهل، ثم قال: نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها، ورفع مرتبته، وزاد في عطائه.

ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال: لا تستأصلوا شأفة أعداءٍ ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشد عداوةً منهم، يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين.

ولما اشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهري، ورأى شدة مقاساة أصحابه، قال: هذا اليوم هو أُس ما يبنى عليه، إما ذل الدهر وإما عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون.

ولما خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر، فقال: إني محتاج لما يزيد في عقلي، لا لما ينقصه، فعرفوا بذلك قدره؛ ثم أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردها على صاحبها.

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنه قال: لولا أنا ما توصل لهذا الملك، ولكان منه أبعد من العيوق، وأن آخر قال: سعده أعانه، لا عقله وتدبيره، فحركه ذلك إلى أن قال:

لا يلف ممتنٌّ علينا قائلٌ ::: لولاي ما ملك الأنام الداخل
سعدي وحزمي والمهنّد والقنا ::: ومقادرٌ بلغت وحالٌ حائل
إنّ الملوك مع الزمان كواكبٌ ::: نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفل
والحزم كلّ الحزم أن لا يغفلوا ::: أيروم تدبير البريّة غافل

ويقـــــول قـــــومٌ ســـــعده لا عقلـــــه ::: خـــير الســـعادة مـــا حماهـــا العاقـــل
أبـــني أميّـــة قـــد جبرنـــا صـــدعكم ::: بـــالغرب رغمـــاً والســـعود قبائـــل
مـــا دام مـــن نســـلي إمـــامٌ قـــائمٌ ::: فالملـــك فـــيكم ثابـــتٌ متواصـــل

وحكى ابن حيان أن جماعةً من القادمين عليه من قبل الشام حدثوه يوماً في بعض مجالسهم عنده ما كان من العمر بن يزيد بن عبد الملك أيام محنتهم، وكلامه لعبد الله بن علي بن عباس الساطي بهم، وقد حضروا رواقه وفيه وجوه المسودة من دعاة القوم وشيعتهم راداً على عبد الله فيما أراقه من دماء بني أمية، وثلبهم والبراءة منهم، فلم تردعه هيبته وعصف ريحه واحتفال جمعه عن معارضته والرد عليه بتفضيله لأهل بيته والذبّ عنهم، وأنه جاء في ذلك بكلام غاظ عبد الله وأغصه بريقه، وعاجل الغمر بالحتف، فمضى وخلف في الناس ما خلف من تلك المعارضة في ذلك المقام، وكثر القوم في تعظيم ذلك، فكأن الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك الذي كان من الغمر في جنب ما كان منه في الذهاب بنفسه عن الإذعان لعدوهم، والأنف من طاعتهم، والسعي في اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه، وقام عن مجلسه، فصاغ هذه الأبيات بديهةً:

شـــتّان مـــن قـــام ذا امتعـــاض ::: فشـــال مـــا قـــلّ واضـــمحلاّ
ومـــن غـــدا مصـــلتاً لعـــزم ::: مجـــرِّداً للعـــداة نصـــلا
فجـــاب قفـــراً وشـــقّ بحـــراً ::: ولم يكـــن في الأنـــام كـــلاّ
فشـــاد ملكـــاً وشـــاد عـــزّاً ::: ومنـــبراً للخطـــاب فصـــلا
وجنّـــد الجنـــد حـــين أودى ::: ومصّـــر المصـــر حـــين أجلـــى
ثمّ دعـــا أهلـــه جميعـــاً ::: حيـــث انتـــأوا أن هلـــمّ أهـــلا

وله غير ذلك من الشعر، وسيأتي بعضه مما يقارب هذه الطبقة.

ولم يكن للداخل من ينطلق عليه سمة وزير، لكنه عين أشياخاً للمشاورة والمؤازرة، أولهم أبو عثمان المتقدم الذكر، وعبد الله بن خالد السابق الذكر، وأبو عبدة صاحب إشبيلية، وشهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان ابن الحكم، وكان من سبي البرابر، وقيل: إنه رومي، وبنو شهيد الفضلاء من

نسله، وعبد السلام بن بسيل الرومي مولى عبد الله بن معاوية، ولولده نباهةٌ عظيمة في الوزارة وغيرها، وثعلبة بن عبيد بن النظام الجذامي صاحب سرقسطة لعبد الرحمن، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته وأول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة، ولعقبه في الدولة نباهة.

وذكر الحجاري أن الداخل كان يقول: أعظم ما أنعم الله تعالى به علي بعد تمكني من هذا الأمر القدرة على إيواء من يصل إلي من أقاربي، والتوسع في الإحسان إليهم، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحني الله تعالى من هذا السلطان الذي لا منة لأحد علي فيه لأحدٍ غيره.

وذكر ابن حزم أنه كان فيمن وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، فسعى في طلب الأمر لنفسه، فقتله سنة ١٦٧، وقتل معه من أصحابه هذيل بن الصميل بن حاتم، ونفى أخاه الوليد بن معاوية والد المغيرة المذكور إلى العدوة بماله وولده وأهله.

وقد ثار على عبد الرحمن الداخل من أعيان الغرب وغيرهم جماعة كثيرون ظفّره الله تعالى بهم، وقد سبق ذكر بعضهم، ومنهم الدعي الفاطمي البربري بشنت مرية فأعيا الداخل أمره، وطال شره سنين متوالية، إلى أن فتك به بعض أصحابه فقتله.

ومنهم حيوة بن ملابس الحضرمي رئيس إشبيلية، وعبد الغفار بن حميد اليحصبي رئيس لبلة، وعمرو بن طالوت رئيس باجة، اجتمعوا وتوجهوا نحو قرطبة يطلبون دم رئيس اليمانية أبي الصباح، فقتلوا في هزيمة عظيمة، وقيل: نجوا بالفرار، فأمنهم الداخل.

وفي سنة ١٥٧ ثار بسرقسطة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الخزرجي، وشايعه سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي رأس الفتن، وآل أمرهما إلى أن فتك الحسين بسليمان، وقتل الداخل الحسين كما مرّ.

وفي سنة ١٦٣ ثار الرماحس بن عبد العزيز الكناني بالجزيرة الخضراء، فتوجه له عبد الرحمن الداخل، ففرّ في البحر إلى المشرق.

قال ابن حيان: كان مولد عبد الرحمن الداخل سنة ١١٣، وقيل: في التي قبلها، بالعلياء من تدمر، وقيل: دير حنّا من دمشق، وبها توفي أبوه معاوية في حياة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وكان قد رشحه للخلافة - وبقبر معاوية المذكور استجار الكميت الشاعر حين أهدر هشام دمه -. وتوفي الداخل لستٍ بقين من ربيع الآخر سنة ١٧١، وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة أشهر، وقيل: اثنتان وستون سنة ودفن بالقصر من قرطبة، وصلى عليه ابنه عبد الله.

وكان منصوراً مؤيداً مظفراً على أعدائه، وقد سردنا من ذلك جملة، حتى قال بعضهم: إن الراية التي عقدت له بالأندلس حين دخلها لم تهزم قط، وإن الوهن ما ظهر في ملك بني أمية إلا بعد ذهاب تلك الراية، قال أكثر هذا مؤرخ الأندلس الثبت الثقة أبو مروان ابن حيان، رحمه الله تعالى.

ولا بأس أن نورد زيادة على ما سلف وإن تكرر بعض ذلك، فنقول: قال بعض المؤرخين من أهل المغرب بعد كلام ابن حيان الذي قدمنا ذكره، ما نصه: كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجح العقل، راسخ الحلم، واسع العلم، كثير الحزم، نافذ العزم، لم ترفع له قط راية على عدو إلا هزمه، ولا بلد إلا فتحه، شجاعاً، مقداماً، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمر إلى غيره، كثير الكرم، عظيم السياسة، يلبس البياض ويعتم به، ويعود المرضى ويشهد الجنائز، ويصلي بالناس في الجمع والأعياد، ويخطب بنفسه، جند الأجناد وعقد الرايات واتخذ الحجاب والكتاب، وبلغت جنوده مائة ألف فارس.

وملخص دخوله الأندلس: أنه لما اشتد الطلب على فل بني أمية بالمشرق من وارثي ملكهم بني العباس خرج مستتراً إلى مصر، فاشتد الطلب على مثله،

فاحتال حتى وصل برقة، ثم لم يزل متوغلاً في سيره إلى أن بلغ المغرب الأقصى، ونزل بنفزة، وهم أخواله، فأقام عندهم أياماً ثم ارتحل إلى مغيلة بالساحل، فأرسل مولاه بدراً بكتابه إلى مواليهم بالأندلس عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وتمام بن علقمة وغيرهم، فأجابوه واشتروا مركباً وجهزوه بما يحتاج إليه، وكان الذي اشتراه عبيد الله بن عثمان، وأركب فيه بدراً، وأعطاه خمسمائة دينار برسم النفقة، وركب معه تمام بن علقمة، وبينما هو يتوضأ لصلاة المغرب على الساحل إذ نظر إلى المركب في لجة البحر مقبلاً حتى أرسى أمامه، فخرج إليه بدر سابحاً، فبشره بما تم له بالأندلس، وبما اجتمع عليه الأمويون والموالي، ثم خرج إليه تمام ومن معه في المركب فقال له: ما اسمك وما كنيتك؟ فقال: اسمي تمام، وكنيتي أبو غالب، فقال: تم أمرنا وغلبنا عدوّنا إن شاء الله، ثم ركبوا المركب معه فنزل بالمنكب، وذلك غرّة ربيع الأول سنة ١٣٨.

فلما اتصل خبر جوازه بالأموية أتاه عبيد الله بن عثمان وجماعة فتلقوه بالإعظام والإكرام، وكان وقت العصر، فصلى بهم العصر، وركبوا معه إلى قرية طرّش من كور إلبيرة فنزل بها، وأتاه بها جماعة من وجوه الموالي وبعض العرب، فبايعوه وكان من أمره ما يذكر، وقيل: إنه أقام بإلبيرة حتى كمل من معه ستمائة فارس من موالي بني أمية ووجوه العرب، فخرج من إلبيرة إلى كورة رية فدخلت في جماعته ثم بايعته أهلها وأجنادها، ثم ارتحل إلى شذونة ثم إلى مورور، ثم سار إلى إشبيلية.

وقال بعضهم: لما أراد عبد الرحمن قصد قرطبة عند دخوله الأندلس من المشرق نزل بطشانة، فأشاروا عليه أن يعقد له لواء، فجاءوا بعمامة وقناة، فكرهوا أن يميلوا القناة تطيراً، فأقاموها بين شجرتين من الزيتون متجاورتين، وصعد رجل على فرع إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة، وتبرك هو وولده بهذا اللواء، فكان بعد أن بلي لا تحل منه العقدة التي عقدت أولاً، بل تعقد فوقها

الألوية الجدد، وهي مستكنة تحتها، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وقيل: إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، فاجتمع الوزراء على تجديد اللواء، فلما رأوا تحت اللواء أسمالاً خلقة ملفوفة معقدة جهلوها فاسترذلوها، وأمروا بحلها ونبذها، وجددوا غيرها، وكان جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائباً، فحضر في اليوم الثاني وطولع بالقصة، فأنكرها أشد إنكار وساءه ما فعلوه، وقال: إن جهلتم شأن تلك الأخلاق فكان ينبغي أن تتوقفوا عن نبذها حتى تسألوا المشايخ وتتفكروا في أمرها، وخبرهم خبرها، فتطلبوا تلك الأخلاق فلم توجد، ويقال كما قال ابن حيان: إنه لم يزل يعرف الوهن في ملك بني أمية بالأندلس من ذلك اليوم، وقد كان الذي عقده أولاً عبد الله بن خالد من موالي بني أمية، وكان والده خالد عقد لواء مروان بن الحكم جد عبد الرحمن الأعلى لما اجتمع عليه بنو أمية وبنو كلب بعد انقراض دولة بني حرب على قتال الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهطٍ، فانتصر على الضحاك وقتله، ولما عرف الأمير بقصة اللواء حزن أشد حزن، وانفتقت عليه إثر ذلك الفتوق العظام، وكانوا يرون أنها جرت بسبب اللواء لأنه لم ينهزم قط جيش كان تحته، على ما اقتضته حكمة الله التي لا تتوصل إليها الأفكار، وتولى حمل هذا اللواء لعبد الرحمن الداخل أبو سليمان داود الأنصاري، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد بن عبد الرحمن. ولما تلاقى عبد الرحمن الداخل مع أمير الأندلس يوسف الفهري بالقرب من قرطبة وتراسلا، فخادعه يومين آخرهما يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائة، أظهر عبد الرحمن قبول الصلح، فبات الناس على ذلك ليلة العيد، وكان قد أسر خلاف ما أظهر، واستعد للحرب، ولما أصبح يوم الأضحى لم ينشب أن غشيت الخيل، ووكل عبد الرحمن بخالد بن زيد الكاتب رسول يوسف جماعة، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه، وإلا فلا، فكان خالد يقول: ما كان شيء في ذلك الوقت أحب إلي من غلبة عبد الرحمن الداخل عدو صاحبي، وركب عبد الرحمن

جواداً، فقالت اليمانية الذين أعانوه: هذا فتىً حديث السن تحته جواد وما نأمن أول ردعةٍ يردعها أن يطير منهزماً على جواده ويدعنا، فأتى عبد الرحمن أحد مواليه فأخبره بمقالتهم، فدعا أبا الصباح، وكان له بغل أشهب يسميه الكوكب، فقال له: إن فرسي هذا قلق تحتي، لا يمكنني من الرمي، فقدم إلي بغلك المحمود أركبه، فقدمه، فلما ركب اطمأن أصحابه، وقال عبد الرحمن لأصحابه: أي يوم هذا قالوا: الخميس يوم عرفة، فقال: فالأضحى غداً يوم الجمعة، والمتزاحفان أموي وفهري، والجندان قيس ويمن، قد تقابل الأشكال جدًّا، وأرجو أنه أخو يوم مرج راهط، فأبشروا وجدوا، فذكرهم يوم مرج راهط الذي كانت فيه الوقعة بين جده مروان ابن الحكم وبين الضحاك بن قيس الفهري، وكانت يوم جمعة ويوم أضحى، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك، فقتل الضحاك، وقتل معه سبعون ألفاً من قبائل قيس وأحلافهم، وقيل: إنه لم يحضر مرج راهط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر: عبد الرحمن بن مسعدة الفزاري، وابن هبيرة المحاربي، وصالح الغنوي، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمن الداخل يوم المصارة غربي قرطبة من قيس غير ثلاثة: جابر بن العلاء بن شهاب، والحصين بن الدجن، العقيليان، وهلال بن الطفيل العبدي، وكان الظفر لعبد الرحمن، وانهزم يوسف، وصبر الصميل بن حاتم بعده معذراً وعشيرته يحفونه، فلما خاف انهزامهم عنه تحول على بغله الأشهب معارضةً لعبد الرحمن الداخل، فمر به أبو عطاء فقال له: يا أبو جوشن، احتسب نفسك، فإن للأشباه أشباهاً: أموي بأموي، وفهري بفهري، وكلبي بكلبي، ويوم أضحى بيوم أضحى، ويمني بقيسي، والله إني لأحسب هذا اليوم بمثل مرج رهط سواء، فقال له الصميل: كبرت وكبر علمك، الآن تنجلي الغماء، وسحرك منتفخ، فانثنى أبو عطاء لوجهه منقلباً، وانهزم الصميل، وملك عبد الرحمن قرطبة.

ويوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، باني القيروان، وأمير معاوية على إفريقية والمغرب، وهو

مشهور. وأما الصميل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن، وقيل: الصميل بن حاتم بن عمرو ابن جندع بن شمر بن ذي الجوشن، كان جده شمر من أشراف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين، رضي الله تعالى عنه، ودخل الصميل الأندلس حين دخل كلثوم بن عياض المغرب غازياً، وساد بها، وكان شاعراً كثير السكر أميًّا لا يكتب، ومع ذلك فانتهت إليه في زمانه رياسة العرب بالأندلس، وكان أميرها يوسف الفهري كالمغلوب معه، وكانت ولاية الفهري الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر، وعنه كما مرّ انتقل سلطانها إلى بني أمية، واستفحل ملكهم بها إلى بعد الأربعمائة، ثم انتثر سلكهم، وباد ملكهم، كما وقع لغيرهم من الدول في القرون السالفة، سنة الله التي قد خلت في عباده.

وكانت مدة الأمراء قبل عبد الرحمن الداخل من يوم فتحت الأندلس إلى هزيمة يوسف الفهري والصميل ستاً وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام، لأن الفتح كان حسبما تقدم لخمسٍ خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين، وهزيمة يوسف يوم الأضحى لعشرٍ خلون من ذي الحجة سنة ثمانٍ وثلاثين ومائة، والله غالب على أمره.

وحكي أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوماً على جده هشام، وعنده أخوه مسلمة بن عبد الملك، وكان عبد الرحمن إذ ذاك صبياً، فأمر هشام أن ينحّى عنه، فقال له مسلمة: دعه يا أمير المؤمنين، وضمه إليه ثم قال: يا أمير المؤمنين هذا صاحب بني أمية، ووزرهم عند زوال ملكهم، فاستوص به خيراً، قال: فلم أزل أعرف مزيةً من جدي من ذلك الوقت.

وكان الداخل يقاس بأبي جعفر المنصور في عزمه وشدته وضبط المملكة، ووافقه في أن أم كل منهما بربرية، وأن كلاً منهما قتل ابن أخيه، إذ قتل المنصور ابن السفاح، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية.

وأشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بني العباس، وكاتب

جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس في طائفة، ويذهب بعامة من أطاعه، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسين الأنصاري الذي انتزى عليه بسرقسطة، فبطل ذلك العزم.

٣٣ - ومن الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبي، دخل الأندلس، وكان شيخاً مسنًّا يروي عن أمه عن عائشة رضي الله تعالى عنها، إلا أنه كان مندراً صاحب دعابة، وكان مختصاً بعبد الرحمن بن معاوية، وله منه مكانةٌ لطيفةٌ يدل بها عليه، ولما توفي حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد ابن عبد الملك بن مروان، وكانت له من عبد الرحمن خاصةٌ لم تكن لأحد من أهل بيته، جعل عبد الرحمن يبكي ويجتهد في الدعاء والاستغفار لحبيب، وكان إلى جنبه أبو الأشعث هذا قائماً، وكانت له دالة عليه ودعابة يحتملها منه، فأقبل عند استعباره كالمخاطب للمتوفى علانيةً يقول: يا أبا سليمان، لقد نزلت بحفرة قلما يغني عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بعرةً، فأعرض عنه عبد الرحمن، وقد كاد التبسم يغلبه؛ هكذا ذكره ابن حيان رحمه الله تعالى في " المقتبس "، ونقله عن الحافظ ابن الأبار.

٣٤ - ومن الداخلين إلى الأندلس جزي بن عبد العزيز، أخو عمر بن عبد العزيز، رضي الله تعالى عنه؛ دخل الأندلس، ومات في مدة الداخل، وكان من أولياء الله تعالى مقتفياً سبيل أخيه عمر بن عبد العزيز، رحمهما الله تعالى.

٣٥ - ومنهم بكر بن سوادة بن ثمامة، الجذامي ويكنى أبا ثمامة، وجده صحابي، وكان بكر هذا فقيهاً كبيراً من التابعين، روى عن جماعة من الصحابة كعبد الله بن عمرو بن العاص وقيس بن سعد بن عبادة وسهل بن سعد الساعدي وسفيان بن وهب الخولاني وحبان بن سمح الصدائي، - وقيد اسمه الدار القطني رحمه الله تعالى حبان، بكسر الحاء المهملة، وبباء معجمة بواحدة، ونقله الأمير كذلك، وهو ممن وفد على رسول الله ، وشهد فتح مصر، قال ابن يونس: ويقال فيه حبان بالكسر، وحبان بالفتح أصح، انتهى، وضبطه بعضهم بالياء المثناة

تحت.

رجع - وممن روى عنه بكر من الصحابة أبو ثور الفهمي، وأبو عميرة المزني، وروى عن جماعة من التابعين أيضاً كسعيد بن المسيب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن وعروة بن الزبير وجماعة سواهم يكثر عددهم ويطول سردهم، منهم ربيعة بن قيس الجملي وأبو عبد الرحمن الحبلي وزياد بن نعيم الحضرمي وسفيان بن هانئ الجيشاني وسعيد بن شمر السبائي وعبد الله بن المستورد بن شداد الفهري وعبد الرحمن بن أوس المزني وزيادة بن ثعلبة البلوي وشيبان بن أمية القتابي وعامر بن ذريح الحميري وعمير بن الفيض اللخمي وأبو حمزة الخولاني وعياض بن فروخ المعافري ومسلم بن مخشي المدبجي و هانئ بن معاوية الصدفي وغيرهم ممن اشتمل على ذكرهم التاريخان لابن عبد الحكم وابن يونس.

وممن روى عن بكر المذكور عبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحارث وجعفر ابن ربيعة وأبو زرعة ابن عبد الحكم الإفريقي وغيرهم.

قال ابن يونس: توفي بإفريقية في خلافة هشام بن عبد الملك، وقيل: بل غرق في مجاز الأندلس، سنة ثمان وعشرين ومائة، قال: وجده ثمامة من أصحاب رسول الله ، وله بمصر حديث رواه عمرو بن الحارث.

٣٦ - ومنهم رزيق بن حكيم، أحد المعدودين في الداخلين إلى الأندلس، ذكره أبو الحسن ابن النعمة عن أبي المطرف عبد الرحمن بن يوسف الرفاء القرطبي، وحكى أنه كتب ذلك من خطه، وسماه مع جماعة منهم حبان بن أبي جبلة وعلي ابن أبي رباح وأبو عبد الرحمن الحبلي وحنش بن عبد الله الصنعاني ومعاوية ابن صالح وزيد ابن الحباب العكلي، وانتهى عددهم برزيق هذا سبعة، ولم يذكره ابن الفرضي ولا غيره، قاله الحافظ أبو عبد الله القضاعي.

٣٧ - ومنهم زيد بن قاصد السكسكي. قال ابن الأبار: وهو تابعي، دخل الأندلس وحضر فتحها، وأصله من مصر، يروي عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله تعالى عنه، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، ذكره يعقوب بن سفيان، وأورد له حديثاً؛ من كتاب الحميدي، انتهى.

٣٨ - ومنهم زرعة بن روح الشامي؛ دخل الأندلس، وحدث عنه ابنه مسلمة ابن زرعة بحكاية عن القاضي مهاجر بن نوفل.

٣٩ - ومنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري، قال ابن الأبار: تابعي، دخل الأندلس، يروي عن أبي هريرة، قرأته بخط ابن حبيش، وقال أبو سعيد ابن يونس مؤرخ مصر: إنه يروي عنه الحارث بن يزيد ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، وكان غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نصير، ويروي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وقال الحميدي: إنه كان من أهل الدين والفضل معروفاً بالفقه، ولي بحر إفريقية سنة ثلاث وتسعين، وغزا المغرب والأندلس مع موسى ابن نصير، فيما حكاه ابن يونس صاحب تاريخ مصر، وكان على بحر تونس سنة ثنتين ومائة على ما حكاه عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم. ولما قتل يزيد بن أبي مسلم والي إفريقية اجتمع رأي أهلها عليه، فولوه أمرهم، وذلك في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان، إلى أن ولي بشر بن صفوان الكلبي إفريقية، وكان على مصر فخرج إليها واستخلف أخاه حنظلة، انتهى.

٤٠ - ومنهم عبد الملك بن عمرو بن مروان بن الحكم، الأموي، فر من الشام خوفاً من المسودة، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فأكرمه ونوه به، وولاه إشبيلية لأنه كان قعدد بني أمية، ثم إنه لما وجد الداخل يدعو لأبي جعفر المنصور أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة، وذكره بسوء صنيع بني العباس ببني أمية، فتوقف عبد الرحمن في ذلك، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له، وذلك أنه قال له

حين امتنع من ذلك: إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسي، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر، ولما زحف أهل غرب الأندلس نحو قرطبة لحرب الأمير عبد الرحمن أنهض إليهم عبد الملك هذا، فنهض في معظم الجيش، وقدم ابنه أمية أمامه في أكثر العساكر، فخالطهم أمية، فوجد فيهم قوة، فخاف الفضيحة معهم، فانحاز منهزماً إلى أبيه، فلما جاءه سقط في يده، وقال له: ما حملك على أن استخففت بي وجرأت الناس علي والعدو إن كنت قد فررت من الموت فقد جئت إليه، فأمر بضرب عنقه، وجمع أهل بيته وخاصته وقال لهم: طردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع، ونحسد على لقمة تبقي الرمق، اكسروا جفون السيوف، فالموت أولى أو الظفر، ففعلوا وحملوا، وتقدمهم، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية، ولم تقم بعدها لليمانية قائمة، وقتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً، وجرح عبد الملك، فأتاه عبد الرحمن وجرحه يجري دماً وسيفه يقطر دماً، وقد لصقت يده بقائم سيفه، فقبل بين عينيه، وجزاه خيراً، وقال له: يا بن عمّ، قد أنكحت ابني وولي عهدي هشاماً ابنتك فلانة، وأعطيتها كذا وكذا، وأعطيتك كذا ولأولادك كذا، وأقطعتك وإياهم كذا، ووليتكم الوزارة.

٤١ - ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. ونزل حين دخوله بلبلة، وتعرف منازلهم فيها بمنازل الهاشمي، وذكره أمير المؤمنين الحكم المستنصر في كتابه " أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب ".

٤٢ - ومن الداخلين إلى الأندلس عبد الله بن المغيرة، الكناني، حليف بني عبد الدار، سماه أبو محمد الأصيلي الفقيه في الداخلين الأندلس من التابعين، حكى ذلك عنه أبو القاسم ابن بشكوال في مجموعه المسمى بـ " التنبيه والتعيين "، قال ابن الأبار: وما أراه يتابع عليه؛ وذكره أبو سعيد ابن يونس من أهل

إفريقية، انتهى، وذكر أنه يروي عن سفيان بن وهب الخولاني.

٤٣ - ومنهم عبد الله المعمر الذي طرأ على الأندلس في آخر الزمان، وكان يزعم أنه لقي بعض التابعين. قال ابن الأبار روى عنه أبو محمد أسد الجهني، ذكر ذلك القبشي، وفيه عندي نظر، انتهى.

٤٤ - ومنهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب، المهري، روى عن أبي ذر، وقيل عن أبي نضرة عن أبي ذر، وعائشة وعمرو بن العاص

وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وأبي نضرة الغفاري وعقبة بن عامر الجهني وعوف ابن مالك الأشجعي، ومعاوية ابن حديج ومسلمة بن مخلد وأبي رهم، ذكره ابن يونس في تاريخ مصر، وسماه ابن بشكوال في الداخلين الأندلس من التابعين، وروى ذلك عن الحميدي، قاله ابن الأبار؛ وقال ابن يونس: وآخر من حدث عنه بمصر حرملة بن عمران.

٤٥ - ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد الله بن سعد ابن عمار ابن ياسر، رضي الله تعالى عنه، وقد ذكره ابن حيان في مقتبسه، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري كتب له أن يدافع عبد الرحمن المرواني الداخل للأندلس، وكان المذكور إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق، وإنما ركن إليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمار وبين بني أمية من الثأر بسبب قتل عمار بصفين، وكان عمار رضي الله تعالى عنه من شيعة علي، كرم الله وجهه.

٤٦ - ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد ابن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث، التميمي، البخاري، الحافظ، نزيل مصر.

سمع ببخارى بلده من إبراهيم بن محمد بن يزداد وأخيه أحمد، وكانا يرويان معاً عن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وعن أبي الفضل السليماني

ببيكند، وأبي عبد الله محمد بن أحمد المعروف بغنجار، وأبي يعلي حمزة بن عبد العزيز المهلبي وأقرانه باليمن، وأبي القاسم تمام بن محمد الرازي بدمشق، وابن أبي كامل بأطرابلس الشام، وأبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ بمصر، وله رواية عن أبي نصر الكلاباذي وأبي عبد الله الحاكم وأبي بكر بن فورك المتكلم وأبي العباس ابن الحاج الإشبيلي وأبي القاسم علي بن أحمد الخزاعي صاحب الهيثم ابن كليب وأبي الفضل العباس بن محمد الحداد التنيسي وأبي الفتح محمد بن إبراهيم الجحدري وأبي بكر محمد بن داود العسقلاني وهلال الحفار وصدقة بن محمد ابن مروان الدمشقي، ولقي بإفريقية العابد ولي الله سيدي محرز بن خلف التميمي مولاهم وصحبه، وقال: لقد هبته يوم لقيته هيبة لم أجدها لأحد في نفسي من الناس، ودخل الأندلس وبلاد المغرب، وكتب بها عن شيوخها، ولم يزل يكتب إلى أن مات حتى كتب عمن دونه، وله " رسالة الرحلة وأسبابها وقول لا إله إلا الله وثوابها "، فسمع منه أبو عبد الله الرازي وذكره في مشيخته، قال الحافظ ابن الأبار: ومنها نقلت اسمه وتعرفت دخوله الأندلس، وحدث عنه هو وجماعة منهم أبو مروان الطبني - وقال: هو من الرحالين في الآفاق، أخبرني أنه يحدث عن مئين من أهل الحديث - وأبو عبد الله الحميدي وأبو بكر جماهر بن عبد الرحمن الطليطلي وأبو عبد الله ابن منصور الحضرمي وأبو سعيد الرهاوي وأبو محمد جعفر بن محمد السراج وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي وأبو الحسن ابن مشرف الأنماطي وأبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي وأبو محمد شعيب بن سبعون الطرطوشي وأبو بكر بن نعمة العابد وأبو الحسن علي بن الحسين الموصلي الغراف وأبو عثمان سعد ابن عبد الله الحيدري من شيوخ السلفي، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمي، وأبو إسحاق الكلاعي من شيوخ أبي بحر الأسدي، وأبو محمد ابن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك في حياته. وسماه أبو الوليد ابن الدباغ في الطبقة العاشرة من طبقات أئمة المحدثين من تأليفه، مع أبي عمر ابن عبد البر وأبي محمد ابن حزم وأبي بكر ابن ثابت الخطيب،

وذكره أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه، وقال: سمع بما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان، ثم سكن مصر وقدم دمشق قديماً وحدث بها، وسمى جماعة كثيرة من الرواة عنه، وحكى أنه قال: لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضي وأجيء بها، قال: وسئل عن مولده، فقال: في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة، قال: وتوفي بالحوراء سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، رحمه الله تعالى ورضي عنه، انتهى.

٤٧ - وممن دخل الأندلس من المشرق عبد الجبار بن أبي سلمة الفقيه عبد الله ابن عبد الرحمن بن عوف، القرشي، الزهري، دخل الأندلس مع موسى بن نصير، وكان على ميسرة معسكره، ونزل باجة ثم بطليوس، ومن نسله الزهريون الأشراف الذين كانوا بإشبيلية انتقلوا إلى سكناها قديماً، هكذا في خبر القاضي أبي الحسين الزهري منهم عن أبي بكر ابن خير وغيره، قال ابن بشكوال في مجموعه المسمى بـ " التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين ": عبد الجبار بن أبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف من التابعين، وقع ذكره في كتاب شيخنا أبي الحسن ابن مغيث، انتهى. قال ابن الأبار: ولم يزد على هذا، انتهى.

٤٨ - ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب، من أهل مصر، وسكن بغداد، ويعرف بالطندتائي، قرية بمصر نسب إليها، روى عن أبي محمد الشارمساحي، وتفقه به، وقدم الأندلس رسولاً بزعمه من عند الخليفة العباسي، فسكن مرسية ودرس بها، وخرج منها سنة اثنتين وأربعين وستمائة بعد أن تملكها النصارى صلحاً، وأسر بناحية صقلية، قال ابن الأبار: ثم بلغني أنه تخلص ولحق ببلده، رحمه الله تعالى.

٤٩ - ومنهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب، يكنى أبا القاسم. قال ابن الأبار: لا أعرف موضعه من بلاد المشرق، وكان أديباً قوي العارضة، مطبوع

الشعر، مديد النفس.

٥٠ - ومنهم عبد اللطيف بن أبي الطاهر أحمد بن محمد بن هبة الله، أبو محمد الهاشمي، الصدفي، من أهل بغداد، يعرف بالنرسي، دخل الأندلس، وكان يزعم أنه روى عن أبي الوقت السجزي وأبي الفرج الجوزي وغيرهما، وله تأليف سماه
" الدليل في الطريق من أقاويل أهل التحقيق " ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد الطراز وضعفه بعدما سمع منه، أخذ عنه وسمع منه هو وأبو القاسم عبد الرحمن ابن القاسم المغيلي وغيرهما، وقال: ورد علينا غرناطة قريباً من سنة ثلاث عشرة وستمائة، وتوفي، عفا الله تعالى عنه، بإشبيلية قريباً من هذا التاريخ، وقال فيه أبو القاسم بن فرقد: عبد اللطيف بن عبد الله الهاشمي البغدادي النرسي، منسوب إلى قرية من قرى بغداد، سمع صحيح البخاري من أبي الوقت السجزي، وروى عن غيره، وله تآليف، قال ابن الأبار: في التصوف، منها تأليف في إباحة السماع، قرأت عليه أكثره، وقرأت عليه عوالي النقيب بمدينة إشبيلية بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر وستمائة.

٥١ - ومنهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد، الخراساني، الباخرزي، الماليني، يكنى أبا بكر، سمع من أبي الخير أحمد بن إسماعيل الطالقاني القزويني وأبي يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدي الزنجاني، وقدم الأندلس، وحدث بصحيفتي الأشج وجعفر بن نسطور الرومي، وسمع منه بغرناطة ومرسية وغيرهما من بلاد الأندلس، وحدث عنه أبو القاسم الملاحي، وسمع منه بمالقة أبو جعفر بن عبد الجبار وأبو علي بن هاشم في صفر سنة ٦٠٠، ومولده في ربيع الأول سنة ٥٦٠، انتهى من تكملة ابن الأبار.

٥٢ - ومن الوافدين على الأندلس من أهل المشرق علي بن بندار بن إسماعيل بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، البرمكي، من أهل بغداد، قدم الأندلس تاجراً سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد أخذ عن أبي الحسن عبد

الله ابن أحمد بن محمد بن المغلس الفقيه الداودي، وتلمذ له، وسمع منه " الموضح "
و " المنجح " من تآليفه في الفقه، وما تم له من أحكام القرآن، هكذا نقله الحافظ بن حزم عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله المعتني بهذا الشأن، رحمه الله تعالى.

٥٣ - ومنهم أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد، أبو العلاء، النيسابوري.

لقيه الحافظ أبو علي الصدفي ببغداد وأخذ عنه إذ قدمها حاجاً، وهو يحدث عن أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد البصروي، قال أبو علي: وأراه دخل الأندلس، ويغلب على ظني أني لقيته بسرقسطة، ذكر ذلك القاضي عياض في " المعجم " من تأليفه، والله تعالى أعلم.

٥٤ - ومنهم سهل بن علي بن عثمان، التاجر، النيسابوري، يكنى أبا نصر، سمع جماعة من الخراسانيين وغيرهم؛ منهم أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي وأبو الفتح السمرقندي، وأدرك الإمام أبا المعالي الجويني، وحضر مجلسه ودرسه، ولقيه بعده أصحابه القشيري والطوسي وغيرهما، وكان شافعي المذهب، ذكره عياض وقال: حدثني بحكايات وفوائد، وأنشدني لأبي طاهر السلفي، وأجازني جميع رواياته وحدثني أن وفاة أبي المعالي كانت بنيسابور سنة خمس أو أربع وسبعين وأربعمائة.

٥٥ - ومنهم أبو المكارم هبة الله بن الحسين، المصري، كان من أهل العلم، عارفاً بالأصول، حافظاً للحديث، متيقظاً، حسن الصورة والشارة، دخل الأندلس، وولي قضاء إشبيلية منها آخر شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة. قال ابن الأبار: وبه صرف أبو القاسم الخولاني، وأقام بها سنة، وحضر غزوة شنترين، وكان قدوم أبي المكارم هذا الأندلس خوفاً من صلاح الدين يوسف بن أيوب في قوم من شيعة العبيدي ملك مصر، ووفد أيضاً معه أبو الوفاء المصري، ثم استصحبه أمير المؤمنين يعقوب المنصور معه في غزوة قفصة

الثانية، وولاه حينئذ قضاء تونس، وكان قد ولي قضاء فاس، وولي أيضاً أبو الوفاء صاحبه القضاء، وتوفي وهو يتولى قضاء تونس سنة ست وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى.

٥٦ - ومنهم يحيى بن عبد الرحمن ابن عبد المنعم بن عبد الله، القيسي، الدمشقي، أصله من دمشق، وبها ولد، ويعرف بالأصبهاني قي مجلس أبي طاهر السلفي لدخوله إياها وإقامته بها أزيد من خمسة أعوام لقراءة الخلافيات، ويكنى أبا زكريا، وسمع بالمشرق أبا بكر ابن ماشاذه السكري وأبا الرشيد ابن خالد البيع وأبا الطاهر السلفي وغيرهم، وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقي ببجاية أبا محمد عبد الحق الإشبيلي، وأجازه وحضه على الوعظ والتذكير، فامتثل ذلك، ودخل الأندلس، وتجول ببلادها، واستوطن غرناطة منها، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي، عارفاً بالأصول والتصوف، زاهداً، ورعاً، كثير المعروف والصدقة، يعظ الناس، ويسمع الحديث، ولم يكن بالضابط فيما قاله الحافظ ابن الأبار، قال: وله كتاب " الروضة الأنيقة " من تأليفه، حدث عنه جماعة من الجلة، منهم أبو جعفر ابن عميرة الضبي، وابنا حوط الله أبو محمد وأبو سليمان، وأبو القاسم الملاحي، وأبو العباس ابن الجيار، وأبو الربيع بن سالم.

ومولده في شوال سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، وتوفي بغرناطة بعد أن سكنها يوم الاثنين سادس شوال سنة ثمان وستمائة، قال ابن الأبار: وفي هذا اليوم بعينه كانت وفاة شيخنا أبي عبد الله ابن نوح ببلنسية، رحمهما الله تعالى.

٥٧ - ومن الوافدين من المشرق إلى الأندلس إسماعيل بن عبد الرحمن بن علي، القرشي، من ذرية عبد بن زمعة أخي سودة أم المؤمنين، رضي الله تعالى عنها، رحل من مصر إلى الأندلس في زمن السلطان الحاكم المستنصر بالله أعوام الستين وثلاثمائة حين ملك بنو عبيد مصر وأظهروا فيها معتقدهم الخبيث، فحل يومئذ من الحكم المستنصر محل الرحب والسعة، ولما ثارت

الدولة العامرية أوى إلى إشبيلية، وأوطنها داراً، واتخذها قراراً، وبها لقيه أبو عمر ابن عبد البر علامة الأندلس فدرس عليه، واقتبس مما لديه، وقد ذكره في تاريخ شيوخه، ولم يزل عقبه بها إلى أن نجم منهم أبو الحسين سالم ابن محمد بن سالم، وهو من رجال
" الذخيرة " وله نثر، كما تفتح الزهر، وتدفق البحر، ونظم كما اتسق الدر، وسفرت عن محاسنها الأوجه الغر.

٥٨ - ومنهم أبو علي القالي، صاحب الأمالي والنوادر، وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن، فأمر ابنه الحكم - وكان يتصرف عن أمر أبيه كالوزير - عاملهم ابن رماحس أن يجيء مع أبي علي إلى قرطبة، ويتلقاه في وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمةً لأبي علي، ففعل، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار، إلى أن تحاوروا يوماً وهم سائرون أدب عبد الملك بن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل.

وبعض المؤرخين يزعم أن وفادة أبي علي القالي إنما كانت في خلافة الحكم المستنصر بالأندلس، لا في خلافة أبيه الناصر، والصواب أن وفادته في أيام الناصر، لما ذكره غير واحد من حصره وعيه عن الخطبة يوم احتفال الناصر لرسول الإفرنج كما ألمعنا به في غير هذا الموضع.

وقال ابن خلكان: إنه استوطن قرطبة إلى أن توفي بها في شهر ربيع الآخر، وقيل: جمادى الأولى سنة ٣٥٦، ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور، ودفن ظاهر قرطبة، ومولده بمنازجرد من ديار بكر سنة ٢٨٨، وقيل: سنة ٢٨٠، وإنما قيل له " القالي " لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قاليقلا، وهي من أعمال ديار بكر. وهو من محاسن الدنيا، رحمه الله تعالى.

وكان الزبيدي إماماً في الأدب، ولكنه عرف فضل القالي، فمال إليه، واختص به، واستفاد منه، وأقر له.

٥٩ - ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى البغدادي، اللغوي.

وأصله من الموصل، قال ابن بسام: ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر عزم المنصور على أن يعفي به آثار أبي علي البغدادي الوافد على بني أمية، فما وجد عنده ما يرتضيه، وأعرض عنه أهل العلم، وقدحوا في علمه وعقله ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئاً لقلة الثقة به، وكان ألف كتاباً سماه كتاب

" الفصوص " فدحضوه ورفضوه ونبذوه في النهر، رجع إلى أخبار صاعد اللغوي البغدادي:

حكي أنه دخل على المنصور يوم عيد، وعليه ثياب جدد وخف جديد، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين في الصحن، فزلق فسقط في الماء، فضحك المنصور، وأمر بإخراجه، وقد كاد البرد أن يأتي عليه، فخلع عليه، وأدنى مجلسه، وقال له: هل حضرك شيء فقال:

شيئان كانا في الزّمان عجيبة ::: ضرط ابن وهب ثمّ وقعة صاعد

فاستبرد ما أتى به فقال أبو مروان الكاتب الجزيري: هلا قلت:

سروري بغرّتك المشرقه ::: وديمة راحتك المغدقه
**ثناني نشوان حتى غرقت في لجة البركة المطبقه ::: **
لئن ظلّ عبدك فيها الغريق ::: فجودك من قبلها أغرقه

فقال له المنصور: لله درك يا أبا مروان، قسناك بأهل بغداد ففضلتهم، فبمن نقيسك بعد؟ انتهى. وقال في الذخيرة في ترجمة صاعد: وفد على المنصور نجماً من المشرق غرب، ولساناً عن العرب، وأراد المنصور أن يعفي به آثار أبي علي القالي فألفى سيفه كهاماً، وسحابه جهاماً، من رجل يتكلم بملء فيه، ولا يوثق بكل ما يذره، ولا ما يأتيه، انتهى باختصار.

وأصل صاعد من ديار الموصل، وقال ارتجالاً وقد عبث المنصور

بترنجان:

لم أدر قبــل ترنجــانٍ عبثــت بــه ::: أن الزمــــرد أغصــــانٌ وأوراق
مــن طيبــه الأتــرجّ نكهتــه ::: يا قوم حــتى مــن الأشــجار سـرّاق
كأنّمــا الحاجــب المنصــور علّمــه ::: فعل الجميــل فطابــت منــه أخــلاق

وقدمه الحجازي بقوله:

كــأن إبريقنــا والــرّاح في فمــه ::: طــيرٌ تنــاول ياقوتــاً بمنقــار وقبلــه
وقهــوة مــن فــم الإبريــق صــافية ::: كــدمع مفجوعــة بــالإلف معبــار

وقال في بدائع البدائه: دخل صاعد اللغوي على بعض أصحابه في مجلس شراب، فملأ الساقي قدحاً من إبريق، فبقيت على فم الإبريق نقطة من الراح قد تكونت ولم تقطر، فاقترح عليه الحاضرون وصف ذلك فقال:

وقهــوة مــن فــم الإبريــق ســاكبة ::: البيــــــــــــــــتين

ثم قال بعدهما: وإنما اهتدم صاعد قول الشريف أبي البركات علي بن الحسين العلوي:

كــأنّ ريــح الــروض لّمــا أتــت ::: فتــــت علينــــا مســــك عطّــــار
كأنّمــــا إبريقنــــا طــــائر ::: يحمــــل ياقوتــــاً بمنقــــار

انتهى.

٦٠ - ومن الوافدين على الأندلس من المشرق الشيخ تاج الدين بن حمويه السرخسي، ولد سنة ٥٧٢، وقد ذكر في رحلته عجائب شاهدها بالمغرب ومشايخ لقيهم، فمنهم الحافظ أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري، قال: سمعت عليه سنة سبع وتسعين وخمسمائة الحديث وشيئاً من تصانيف المغاربة، وروى لنا عن الحافظ أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن إبراهيم بن قرقول، وولي ابن حوط الله المذكور قضاء غرناطة، وأدرك ابن بشكوال وابن حبيش وابن حميد المرسي النحوي وأبا يزيد السهلي صاحب الروض وغيرهم. والسرخسي المذكور قال في حقه بعض الأئمة: إنه الشيخ

الإمام شيخ الشيوخ، تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه، له رحلة مغربية، انتهى.

وهو من بيت كبير، وقال البدري في تاريخه في حقه ما صورته: تاج الدين، شيخ الشيوخ بدمشق، أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين، له كتاب في ثماني مجلدات ذكر فيه أصول الأشياء، وله " السياسة الملوكية " صنفها للملك الكامل محمد، وغير ذلك، وسمع الحديث، وحفظ القرآن، وكان قد بلغ الثمانين، وقيل: لم يبلغها، وقد سافر إلى بلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين، واتصل بمراكش، عند ملكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فأقام هناك إلى سنة ستمائة، وقدم مصر، وولي مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين ابن حمويه، انتهى.

وقال غيره: إنه كان فاضلاً متواضعاً نزهاً حسن الاعتقاد، قال أبو المظفر: كان يحضر مجالسي، وأنشدني يوماً:

لم ألق مستكبراً إلا تحوّل لي ::: عند اللقاء له الكبر الذي فيه
ولا حلا لي من الدنّيا ولذّها ::: إلاّ مقابلتي للتيه بالتيه

وقال السرخسي المذكور في رحلته: إني وإن كنت خراساني الطينة، لكني شامي المدينة، وإن كانت العمومة من المشرق، فإن الخؤولة من المغرب، فحدث باعث يدعو إلى الحركات والأسفار، ومشاهدة الغرائب في النواحي والأقطار، وذلك في حال ريعان الشباب الذي تعضده عزائم النفوس بنشاطها، والجوارح بخفة حركاتها وانبساطها، فخرجت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة إلى زيارة البيت المقدس وتجديد العهد ببركاته، واغتنام الأجر في حلول بقاعه ومزاراته، ثم سرت منه إلى الديار المصرية، وهي آهلة بكل ما تتجمل به البلاد وتزدهي، وينتهي وصف الواصف لشؤونها ولا تنتهي، ثم دخلت الغرب من الإسكندرية في البحر ودخلت مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، فاتصلت بخدمته،

والذي علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ متون الأحاديث ويتقدها، و يتكلم في الفقه كلاماً بليغاً، و كان فقهاء الوقت يرجعون إليه في الفتاوى، وله فتاوى مجموعة حسبما أدى إليه اجتهاده، وكان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر، وقد شرحت أحوال سيرته، وما جرى في أيام دولته، في كتاب التاريخ المسمى " عطف الذيل ". وقد صنف كتاباً يجمع فيه متون أحاديثٍ صحاح تتعلق بالعبادات سماه " الترغيب ". وتهدده ملك الإفرنج الفنش في كتابه فمزقه، وقال لرسوله:{ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧} [النمل: ٣٧] إن شاء الله تعالى، ثم قال للكاتب: اكتب على هذه القطعة، يعني من كتابه الذي مزقه: الجواب ما ترى لا ما تسمع:

فلا كتب إلا المشرفّية والقنا ::: ولا رسلٌ إلا الخميس العرمرم

وبلغني أن قوماً أتوه بفيلٍ من بلاد السودان هدية، فأمر لهم بصلة، ولم يقبله منهم، وقال: نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل.

وقال لي يوماً: كيف ترى هذه البلاد وأين هي من بلادك الشامية فقلت: يا سيدنا، بلادكم حسنة أنيقة مجملة مكملة، وفيها عيب واحد، فقال: ما هو فقلت: أنها تنسي الأوطان، فتبسم وظهر لي إعجابه بالجواب، وأمر لي من غد بزيادة رتبة وإحسان.

وحدثني بعض عمالهم أنه فرق على الجند والأمراء والفقراء في عيد سنة أربع وتسعين ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز.

ودرج إلى رحمة الله تعالى سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وكان قد استخلف ولده محمداً وقرر الأمر له، انتهى.

قلت: بهذا وأمثاله تعلم فساد ما زعمه غير واحد أن يعقوب المنصور هذا تخلى عن الملك، وفر زاهداً فيه إلى المشرق، وأنه دفن بالبقاع، لأن هذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب، وسبب هذه المقالة تولع العامة به، فكذبوا في موته، وقالوا: إنه ترك الملك، وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع مما ليس له أصل.

ويرحم الله تعالى الإمام العلامة القاضي الشريف الغرناطي شارح الخزرجية، إذ قال في شرح مقصورة حازم عند ذكره وقعة الأرك ما معناه: إن بعض الناس يزعمون أن المنصور ترك الملك وذهب إلى المشرق، وهذا كلام لا يصح، ولا أصل له. انتهى. وقال في " المغرب ": كان أبوه يوسف قد استوزره في حياته، وتخرج بين يديه، وتمرس، وهزم الفرنج الهزيمة العظيمة، وتولع بالعلم حتى نفى التقليد وحرق كتب المذاهب، وقتل على السكر، انتهى.

٦١ - ومن الوافدين على الأندلس ظفر البغدادي، سكن قرطبة، وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمرو الصقلي ويوسف البلوطي وطبقتهما، واستخدمه الحكم المستنصر بالله في الوراقة، لما علم من شدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها، وقد أشار ابن حيان في كتاب " المقتبس " إلى ظفر هذا، رحمه الله تعالى.

٦٢ - ومنهم الرازي، وهو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط، الكناني، الرازي، والد أبي بكر أحمد بن محمد صاحب التاريخ، غلب عليه اسم بلده، وكان يفد من المشرق على ملوك بني مروان تاجراً، وكان مع ذلك متقناً في العلوم، وهلك منصرفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بإلبيرة، في شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣، ذكره ابن حيان في " المقتبس ".

٦٣ - ومنهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز ابن الحارث بن أسد بن ليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي، الدرامي، البغدادي، سمع من أبي طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص وغيره، وخرج من بغداد رسولاً عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي رضي الله تعالى عنه إلى صاحب إفريقية المعز بن باديس، واجتمع مع أبي العلاء المعري بالمعرة، وأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب، فقبل عينيه، وقال له: لله أنت من ناظم، وخرج من إفريقية من أجل فتنة العرب، وخيم عند المأمون ابن ذي النون بطليطلة، وله فيه أمداح كثيرة.

٦٤ - ومن الوافدين على الأندلس أشهب بن العضد الخراساني. قال ابن سعيد: أنشدنا لما وفد على ابن هود في إشبيلية قصيدة ابن النبيه:

طـــــاب الصّـــــبوح لنـــــا ::: فهـــــاك وهـــــات وادعاهـــــا

وفيها:

في روضـــة غنّـــا تخـــال طيورهـــا ::: وغصـــونها همـــزاً علـــى ألفـــات

ولم أجد هذا البيت في قصيدة ابن النبيه، انتهى.

٦٥ - ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادي الفكيك، وهو مذكور في الذخيرة، وكان حلو الجواب، مليح التندر، يضحك من حضرن ولا يضحك هو إذا ندر، وكان قصيراً دميماً، قال: ورأيته يوماً وقد لبس طاقاً أحمر على بياض، وفي رأسه طرطور أخضر، عمم عليه عمة لازوردية، وهو بين يدي المعتمد بن عباد ينشد شعراً قال فيه:

وأنـــت ســـليمان في ملكـــه ::: وبـــين يـــديك أنـــا الهدهـــد

وأنشد له في المعتمد:

أبـــا القاســـم الملـــك المعظّـــم قـــدره ::: ســـواك مـــن الأمـــلاك لـــيس يعظّـــم
لقد أصـــبحت حمـــصٌ بعـــدلك جنـــةً ::: وقد أبعـــدت عـــن ســـاكنيها جهـــنم
ولي بجيـــاك الربيـــع عامـــاً وأشـــهراً ::: أزخـــرف أعـــلام الثنـــاء وأرقـــم
وأنفقـــت مـــا أعطيـــتني ثقـــةً بمـــا ::: أؤمّـــل فالـــدينار عنـــدي درهـــم
وقلـــبي إلى بغـــداد يصـــبو وإنّـــني ::: لنشـــر صـــباها دائمـــاً أتنسّـــم

وقال:

وذرّى علـــى ربـــع العقيـــق دموعـــه ::: عقيقـــاً ففيهـــا تـــوأمٌ وفريـــد
شهدت ومـــا تغـــني شـــهادة عاشـــقٍ ::: بـــأن قتيـــل الغانيـــات شـــهيد

ومنها:

إذا قـــابلوه قبّلـــوا تـــرب أرضـــه ::: وهـــم لعـــلاه ركّـــعٌ وســـجود
وقد هـــزّ منـــه الله للملـــك صـــارماً ::: تقـــام بحـــدّي شـــفرتيه حـــدود

وقال:

لأيّة حالٍ حـــال عـــن ســـنة الكـــرى ::: ولم أصغي ومـــاً في هـــواه إلى العـــذل

٦٦ - ومنهم إبراهيم بن سليمان الشامي، دخل الأندلس من المشرق في أخريات أيام الحكم شادياً للشعر، وهو من موالي بني أمية، ولم ينفق على الحكم، وتحرك في أيام ولده الأمير عبد الرحمن فنفق عليه، ووصله، ثم في أيام الأمير محمد ابن عبد الرحمن، وكان أدرك بالمشرق كبار المحدثين كأبي نواس وأبي العتاهية.

٦٧ - ومنهم أبو بكر بن الأزرق، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حامد بن موسى بن العباس بن محمد بن يزيد، وهو الحصني، ابن محمد ابن مسلمة ابن عبد الملك بن مروان، من أهل مصر، خرج من مصر سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وصار إلى القيروان، وامتحن بها مع الشيعة، وأقام محبوساً بالمهدية، ثم أطلق ووصل الأندلس سنة تسع وأربعين، فأحسن إليه المستنصر بالله الحكم، وكان أديباً حكيماً، سمع من خاله أبي بكر أحمد بن مسعود الزهري، وولد سنة تسع عشرة وثلاثمائة بمصر، وتوفي بقرطبة في ذي القعدة سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، رحمه الله تعلى.

٦٨ - ومن الواردين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن علي ابن نافع، الملقب بزرياب، مولى أمير المؤمنين المهدي العباسي، قال في " المقتبس ": زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه، مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله، شبه بطائر أسود غرد عندهم، وكان شاعراً مطبوعاً، وكان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضاً، وكان من خبره في الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد، فتلقف من أغانيه استراقاً، وهدي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق، وإسحاق لا يشعر بما فتح عليه، إلى أن جرى بالرشيد مع إسحاق خبره المشهور في الاقتراح عليه بمغنٍ غريب مجيد للصنعة، لم يشتهر

مكانه إليه، فذكر له تلميذه هذا، وقال: إنه مولىً لكم، وسمعت له نزعات حسنة، ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس، إذا أنا وقفته على ما استغرب منها وهو من اختراعي واستنباط فكري، أحدث أن يكون له شأن، وقال الرشيد: هذا طلبتي، فأحضرنيه لعل حاجتي عنده، فأحضره، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء، فقال: نعم أحسن منه ما يحسنه الناس، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه، مما لا يحسن إلا عندك ولا يدخر إلا لك، فإن أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك، فأمر بإختصار عود أستاذه إسحاق، فلما أدني إليه وقف عن تناوله، وقال: لي عود نحته بيدي وأرهفته بإحكامي، ولا أرتضي غيره، وهو بالباب، فليإذن لي أمير المؤمنين في استدعائه، فأمر بإدخاله إليه، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذي دفعه قال له: ما منعك أن تستعمل عود أستاذك فقال: إن كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده، وإن كان يرغب في غنائي فلا بد لي من عودي، فقال له: ما أراهما إلا واحداً، فقال: صدقت يا مولاي، ولا يؤدي النظر غير ذلك، ولكن عودي وإن كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث أو نحوه، وأوتاري من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثه ورخاوة، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء، فجس، ثم اندفع فغناه:

يا أيّها الملك الميمون طائره ::: هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة، وطار الرشيد طرباً، وقال لإسحاق: والله لولا أني أعلم من صدقك لي على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامي بشأنه، فخذه إليك واعتن بشأنه، حتى أفرغ له، فإن لي فيه نظراً، فسقط في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ما غلب

صبره، فخلا بزرياب وقال: يا علي، إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها، والدنيا فتانة، والشركة في الصناعة عداوة، لا حيلة في حسمها وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلو طبقتك، وقصدت منفعتك فإذا أنا قد أتيت نفسي من مأمنها بإدنائك، وعن قليل تسقط منزلتي، وترتقي أنت فوقي، وهذا ما لا أصاحبك عليه ولو أنك ولدي، ولولا رعيي لذمة تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك، يكون في ذلك ما كان، فتخير في ثنتين لا بد لك منهما: إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد ذلك الأيمان الموثقة، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره، وإما أن تقيم على كرهي ورغمي مستهدفاً إلي، فخذ الآن حذرك مني فلست والله أبقي عليك، ولا أدع اغتيالك باذلاً في ذلك بدني ومالي، فاقض قضاءك. فخرج زرياب لوقته، وعلم قدرته على ما قال، واختار الفرار قدامه، فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً، وراش جناحه، فرحل عنه، ومضى يبغي مغرب الشمس، واستراح قلب إسحاق منه.

وتذكر الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه، فأمر إسحاق بحضوره، فقال: ومن لي به يا أمير المؤمنين ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه، فما يرى في الدنيا من يعد له، وما هو إلا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته، فقدر التقصير به والتهوين بصناعته، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عني، وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمير المؤمنين، فإنه كان به لمم يغشاه ويفرط خطبه، فيفزع من رآه، فسكن الرشيد إلى قول إسحاق، وقال: على ما كان به فقد فتنا منه سرور كثير.

ومضى زرياب إلى المغرب فنسي بالمشرق خبره، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرته بالصقع الذي قطنه ونزعت إليه نفسه وسمت به همته، فأم أمير الأندلس الحكم المباين لمواليه، وخاطبه وذكر له نزاعه إليه واختباره إياه ويعلمه بمكانه من الصناعة التي ينتحلها وسأله الإذن في الوصول إليه، فسر

الحكم بكتابه وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه وإجمال الموعد ما تمناه، فسار زرياب نحوه بعياله وولده، وركب بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم، فهم بالرجوع إلى العدوة، فكان معه منصور اليهودي المغني رسول الحكم إليه، فثناه عن ذلك ورغبه في قصد القائم مقام الحكم، وهو عبد الرحمن ولده، وكتب إليه بخبر زرياب، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه والسرور بقدومه عليه، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال ذكور وإناث وآلات حسنة، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانةً للحرم، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه، وخلع عليه، وبعد ثلاثة أيام استدعاه، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه - وكانوا أربعة: عبد الرحمن، وجعفر، وعبيد الله، ويحيى - عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكل عيد ألف دينار، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار، وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدي ثلثاها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار. فلما قضى له سؤله وأنجز موعوده وعلم أن قد أرضاه وملك نفسه استدعاه، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه، فما هو إلا أن سمعه فاستهوله واطرح كل غناء سواه، وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين، وكان لما خلا به أكرمه غاية الإكرام وأدنى منزلته وبسط أمله، وذاكره في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء، فحرك منه بحراً زخر عليه مده، فأعجب الأمير به وراقه ما أورده، وحضر وقت الطعام فسرفه بالأكل معه هو وأكابر ولده، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكاً بما ذكرناه آنفاً، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه فتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده.

وذكر أن زرياباً ادعى أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، كان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فتأخذان عودهما، ويأخذ هو عوده، فيطارحهما ليلته ويكتب الشعر ثم يعود عجلاً إلى مضجعه، وكذلك يحكى عن إبراهيم الموصلي في لحنه البديع المعروف بالماخوري أن الجن طارحته إياه، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

وزاد زرياب بالأندلس في أوتار عوده وتراً خامساً اختراعاً منه، إذ لم يزل العود ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التي قوبلت بها الطبائع الأربع، فزاد عليها وتراً خامساً أحمر متوسطاً، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة، وذلك أن الزير صبغ أصفر اللون، وجعل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد، صبغ الوتر الثاني بعده أحمر، وهو من العود مكان الدم من الجسد، وهو في الغلظ ضعف الزير، ولذلك سمي مثنى، وصبغ الوتر الرابع أسود، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد، وسمي البم، وهو أعلى أوتار العود، وهو ضعف المثلث الذي عطل من الصبغ وترك أبيض اللون، وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد، وجعل ضعف المثنى في الغلظ، ولذلك سمي المثلث، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضي طبائعها بالعتدال، فالبم حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب، قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه، إلا أنه عطل من النفس، والنفس مقرونة بالدم، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموي هذا الوتر الخامس الأحمر الذي اخترعه بالأندلس، ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى، فكمل في عوده قوى الطبائع الأربع، وقام الخامس المزيد مقام النفس في الجسد.

وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النسر، معتاضاً به من مرهف الخشب، فأبرع في ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه.

وكان زرياب عالماً بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها وتصنيف بلادها وسكانها، مع ما سنح له من فك كتاب الموسيقى، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وهذا العدد من الألحان غاية ما ذكره بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلفها.

وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب، ولطف المعاشرة، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه، واستحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به: فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جمته مفروقاً وسط الجبين عاماً للصدغين والحاجبين، فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم، وتقصيرها دون جباههم، وتسويتها مع حواجبهم، وتدويرها إلى آذانهم، ولإسبالها إلى أصداغهم - حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجواري - هوت إليه أفئدتهم، واستحسنوه. ومما سنه استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مغابنهم، ولا شيء يقوم مقامه، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبلة ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وضر، فدلهم على تصعيدها بالملح، وتبييض لونها، فلما جربوه أحمدوه جداً. وهو أول من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله. ومما اخترعوه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب.

ومما أخذه عنه الناس بالأندلس تفضيلة آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة، وإيثاره فرش أنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان،

واختياره سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحة، ولبسه كل صنف من الثياب في زمانه الذي يليق به، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وخلعهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يونية الشمسي من شهورهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي، ثياب العامة، وكذا رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة، وذلك عند قرس البرد في الغدوات، إلى أن يقوى البرد فينتقلوا إلى أثخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء.

واستمر بالأندلس أن كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر كان، ويأتي إثره بالبسيط، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعاً لمراسم زرياب. وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جدًّا إذا كان قوي الصوت، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة، فإن ذلك مما يقوي الصوت، ولا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم، فإن كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته: يا حجام، أو يصيح: آه، ويمد بها صوته، فإن سمع صوته بهما

صافياً ندياً قوياً مؤدياً لا يعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه، وإن وجده خلاف ذلك أبعده.

وكان له من ذكور الولد ثمانية: عبد الرحمن وعبيد الله ويحيى وجعفر ومحمد وقاسم وأحمد وحسن. ومن الإناث ثنتان: علية وحمدونة. وكلهم غنى ومارس الصناعة، واختلفت بهم الطبقة، فكان أعلاهم عبد الله ويتلوه عبد الرحمن، لكنه ابتلي من فرط التيه وشدة الزهو وكثرة العجب بغنائه والذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه، وقلما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدثه، ولا يزال يجترئ على الملوك، ويستخف بالعظماء، ولقد حمله سخفه على أن يحضر يوماً مجلس بغض الأكابر الأعاظم في أنس قد طاب به سروره، وكان صاحب قنص تغلب عليه لذته، فاستدعى بازياً كان كلفاً به كثير التذكر له، فجعل يمسح أعطافه ويعدل قوادمه ويرتاح لنشاطه، فسأله عبد الرحمن أن يهبه له، فاستحيا من رده وأعطاه إياه مع ضنه به، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله، وأسر إليه فيه بسر لم يطلع عليه، فمضى لشأنه، ولم يلبث أن جاءه بطيفورية مغطاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فضة، فغذا به لون مصوص قد اتخذ من البازي بعد ذبحه على ما حده لأهله، وذهب إلى الإنتقال عليه في شرابه، وقال لصاحب المجلس: شاركني في نقلي هذا فإنه شريف المركب بديع الصنعة، فلما رآه الرجل أذكر صفته وعاب لحمه، وسأله عنه، فقال: هو البازي الذي كنت تعظم قدره، ولا تصبر عنه، قد صيرته إلى ما ترى، فغضب صاحب المنزل حتى ربا في أثوابه وفارقه حلمه وقال له: قد كان والله أيها الكلب السفيه على ما قدرته وما اقتديت فيه إلا بكبار الناس المؤثرين لمثله، وما أسعفتك به إلا معظماً من قدرك ما صغرت من قدري، وأظهرت من هوان السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهي عنها، ولا أدع والله الآن تأديبك إذ أهملك أبوك معلم الناس المروءة، ودعا له بالسوط وأمر بنزع قلنسوته وساط هامته مائة سوط، فاستحسن جميع الناس فعله وأبوا الشماتة به.

وكان محمد منهم مؤنثاً، وكان قاسمهم أحذاقهم غناء مع تجويده، وتزوج الوزير هشام بن عبد العزيز حمدونة.

وذكر الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون وزرقون، دخلا في أيام الحكم بن هشام، فنفقا عليه، وكانا محسنين، لكن غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه.

وكان لزرياب جارية اسمها متعة، أدّبها وعلّمها أحسن أغانيه حتى شبت، وكانت رائعة الجمال، وتصرفت بين يدي الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنيه مرة وتسقيه أخرى، فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة، فأبى إلا التستر، فغنته بهذه الأبيات، وهي لها في ظن بعض الحفاظ:

يا من يغطّي هواه ::: من ذا يغطّي النهارا
قد كنت أملك قلبي ::: حتى علقت فطارا
يا ويلتا أتراه ::: لي كان، أو مستعارا
يا بأبي قرشيٌّ ::: خلعت فيه العذارا

فلما انكشف لزرياب أمرها أهداها إليه فحظيت عنده.

وكانت حمدونة بنت زرياب متقدمة في أهل بيتها، محسنة لصناعتها، متقدمة على أختها علية، وهي زوجة الوزير هاشم بن عبد العزيز كما مر، وطال عمر علية بعد أختها حمدونة، ولم يبق من أهل بيتها غيرها، فافتقر الناس إليها، وحملوا عنها.

وكانت مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل أخذت عن زرياب الغناء، وكانت غاية في الإحسان والنبل وطيب الصوت، وفيها يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وكتب به إلى مولاها:

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ::: ما كنت أحسب هذا الضنّ من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة ::: أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

من أبيات، فخرج حافياً لما وقف على ذلك، وأدخله إلى مجلسه، وتمتع من

سماعها، رحم الله تعالى الجميع.

٦٩ - ومن الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا، من غز الموصل، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحدين، ورفع له أمداحاً جليلة، وقدمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس.

٧٠ - ومن الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني، من أهل بغداد، وسكن القيروان، ويعرف بالرياضي، وكان له سماع ببغداد، من جلة المحدثين والفقهاء والنحويين، لقي الجاحظ والمبرد وثعلباً وابن قتيبة، ولقي من الشعراء أبا تمام والبحتري ودعبلاً وابن الجهم، ومن الكتاب سعيد ابن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبي طاهر وغيرهم، وهو الذي أدخل إفريقية رسائل المحدثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم، وكان عالماً أديباً، ومرسلاً بليغاً، ضارباً في كل علم وأدبن سمع وكتب بيده أكثر كتبه، مع براعة خطه وحسن وراقته.

وحكي أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كله بقلم واحد، ما زال يبريه حتى قصر، فأدخله في قلم آخر، وكتب به حتى فني بتمام الكتاب.

وله تآليف: منها " لقيط المرجان " وهو أكبر من " عيون الأخبار "، وكتاب " سراج الهدى " في القرآن ومشكلة إعرابه ومعانيه، و " المرصعة " و " المدبجة ".

وجال في البلاد شرقاً وغرباً من خراسان إلى الأندلس، وقد ذكر ذلك في أشعار له.

وكان أديب الأخلاق، نزيه النفس، كتب لأمير إفريقية إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، ثم لإبنه أبي العباس عبد الله، وكان أيام زيادة الله ابن عبد الله آخر ملوك الأغالبة على بيت الحكمة، وتوفي بالقيروان سنة ثمان وتسعين ومائتين في أول ولاية عبيد الله الشيعي، وهو ابن خمس وسبعين سنة. وممن ألم بذكره

المؤرخ الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق.

وقال عريب بن سعد في حقه: إنه كان أديباً شاعراً مرسلاً حسن التأليف، وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن، وذكر له معه قصة ذكرها ابن الأبار في كتابه " إفادة الوفادة " وحكى أن له مسنداً في الحديث، وكتاباً في القرآن سماه " سراج الهدى " والرسالة الوحيدة، والمؤنسة، وقطب الأدب، وغير ذلك من الأوضاع. قال: وكتب لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم، ثم كتب لعبيد الله حتى مات، ومن الرواة عنه أبوة سعيد عثمان بن سعيد الصيقل مولى زيادة الله بن الأغلب، وأسند إليه الحافظ ابن الأبار رواية شعر أبي تمام بأن قال: قرأت شعر حبيب علي أبي الربيع بن سالم، وقرأت جملة منه على غيره، وناولني جميعه وحدثني به عن أبي عبد الله بن زرقون عن الخولاني عن أبي القاسم حاتم بن محمد عن أبي غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوي عن أبيه أبي تمام عن أبي سعيد المذكور، يعني ابن الصيقل، عن أبي اليسر عن حبيب، وهو إسناد غريب، انتهى.

٧١ - ومنهم إبراهيم بن خلف بن منصور، الغساني، الدمشقي، أبو إسحاق المعروف بالسنهوري - وسنهور: من بلاد مصر - روى عن أبي القاسم ابن عساكر وأبي اليمن الكندي وأبي المعالي الفراوي وأبي الطاهر الخشوعي وغيرهم.

قال أبو العباس النباتي: قدم علينا - يعني إشبيلية - سنة ثلاث وستمائة، وسمى جماعة من شيوخه، وحكى أنه كان يروي موطأ أبي مصعب وصحيح مسلم بعلو.

وقال أبو سليمان ابن حوط الله: أجازني وابني محمداً جميع ما رواه عن شيوخه الذين منهم أبو الفخر فناخسرو بن فيروز الشيرازي، وذكر أن روايته بنزول، لأنه لم يرحل إلا بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن.

وقال أبو الحسن ابن القطان، وسماه في شيوخه: قدم علينا تونس سنة اثنتين وستمائة، واستجزته لابني حسن فأجازه وإياي، قال: وانصرف من تونس إلى المغرب، ثم الأندلس، وقدم علينا بعد ذلك مراكش مفلتاً من الأسر، فظهر في حديثه عن نفسه تجازف واضطراب وكذب زهد فيه، وإثر ذلك انصرف إلى المشرق راجعاً، وقد كان إذا أجاز ابني كتب ببخطه جملة من أسانيده وسمى كتباً منها الموطأ والصحيحان وغير ذلك، قال: وقد تبرأت من عهدة جميعه لما أثبتوا من حاله، وحدثني أبو القاسم بن أبي كرامة صاحبنا بتونس أن السنهوري هذا لما انصرف إلى مصر امتحن بملكها الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب لأجل معاداته أبا الخطاب ابن الجميل، فضرب بالسياط، وطيف به على جمل مبالغة في إهانته، انتهى.

٧٢ - ومنهم عبد الله بن محمد بن آدم، القارئ، الخراساني، رحل من خراسان إلى الأندلس، يكنى أبا محمد، ذكره أبو عمرو المقرئ، وقال: سمعته يقرأ مرات كثيرة، فكان من أحسن الناس صوتاً، ولم تكن له معرفة بالقراءة ولا دراية بالأداء، انتهى.

٧٣ - ومنهم عبد الرحمن بن داود بن علي، الواعظ، من أهل مصر، يعرف بالزبزاري، يكنى أبا البركات وأبا القاسم، ويلقب زكي الدين، قدم على الأندلس وتجول في بلادها واعظاً ومذكراً، وسمع منه الناس بقرطبة وإشبيلية ومرسية وبلنسيا سنة ٦٠٨.

قال ابن الأبار: وسمعت وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بلنسيا، وادعى الرواية عن أبي الوقت السجزي والسلفي وأبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي وأبي محمد بن المبارك بن الطباخ وأبي الفضل محمد بن يوسف الغزنوي وشهدة الكاتبة بنت الإبري، زعم أنه قرأ عليها صحيح البخاري، وجماعة بالمشرق والأندلس لم يلقهم ولم يسمع منهم، وربما حدث بواسطة عن بعضهم وأكثرهم مجهولون، وقفت على ذلك في فهرست روايته، فزهد أكثر

السامعين منه، واطرحوا الرواية عنه، ومنهم أبو العباس الذباتي وأبو عبد الله بن أبي البقاء وجمع أربعين حديثاً مسلسلة سماها باللآلئ المفصلة، حدث فيها عن ابن بشكوال وابن غالب الشراط وغيرهما من الأندلسيين الذين لم يلقهم ولا أجازوا له، أخذها عنه ابن الطيلسان وغيره، وكان - مع هذا - فقيهاً على مذهب الشافعي، رضي الله تعالى عنه، فصيحاً مشاركاً في فنون من العلم، سمح الله تعالى له، انتهى.

ولا بأس أن نذكر جملة من النساء القادمات من المشرق على الأندلس، ثم نعود أيضاً إلى ذكر أعلام الرجال، فنقول:

٧٤ - من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدنية، أم ولد حبيب ابن الوليد المرواني، المعروف بدحون. وكانت جارية سوداء من رقيق المدينة، حالكة اللون، غير أنها تروي عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة

٧٥ - ومنهن فضل المدنية، وكانت حاذقة بالغناء، كاملة الخصال وأصلها لإحدى بنات هارون الرشيد، ونشأت وتعلمت ببغداد، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فازدادت ثم طبقتها في الغناء، واشتريت هناك للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس مع صاحبتها علم المدنية، وصواحب غيرها إليهن تنسب دار المدنيات بالقصر، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونصاعة ظرفهن ورقة أدبهن، وتضاف إليهن جارية يقال لها: قلم، وهي ثالثة فضل وعلم في الحظوة عند الأمير المذكور، وكانت أندلسية الأصل رومية من سبي البشكنس، وحملت صبية إلى المشرق، فوقعت بمدينة النبي ، وتعلمت هنالك الغناء فحذقته، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط، راوية للشعر حافظة للأخبار، عالمة بضروب الآداب.

٧٦ - ومن النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قمر جارية بن حجاج اللخمي، صاحب إشبيلية، وكانت من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الألحان، وجلبت إليه من بغداد، وجمعت أدباً وظرفاً، ورواية وحفظاً، مع فهم

بارع، وجمال رائع، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها.

٧٧ - ومنهن الجارية العجفاء، قال الأرقمي: قال لي أبو السائب - وكان من أهل الفضل والنسك - هل لك في أحسن الناس غناء فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بني زهرة، فأذن لنا فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً في مثلها، وطوله في السماء ستة عشر ذراعاً، وفي البيت نمرقتان قد ذهب عنهما اللحم وبقي السدى، وقد حشيتا بالليف، وكرسيان قد تفككا من قدمهما، ثم أطلعت علينا عجفاء كلفاء، عليها قرقل هروي أصفر غسيل، وكأن وركيها في خيط من رسحها، فقلت لأبي السائب: بأبي أنت! ما هذه فقال: اسكت، فتناولت عوداً فغنت:

بيد الذي شغف الفؤاد بكم ::: تفريج ما ألقى من الهمّ
فاستيقني أن قد كلفت بكم ::: ثم افعلي ما شئت عن علم
قد كان صرم في الممات لنا ::: فعجلت قبل الموت بالصرم

قال: فتحسنت في عيني، وبدا ما أذهب الكلف عنها، وزحف أبو السائب وزحفت معه.

٧٨ - ومن القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن، الموصلي. قال أبو حيان: قدم علينا رسولاً من ملك مصر إلى ملك الأندلس، فسمعت منه بالمرية، انتهى.

٧٩ - ومنهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم بن مالك، المعروف بالأشتر، ابن الحارث، النخعي، يكنى أبا جعفر، دخل الأندلس في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، وأصله من الكوفة، وكان يروي أحاديث عظيمة العدد، ذكر ذلك الرازي، وحكى أن الأمير محمداً روى عنه منها، وأنزله برية.

٨٠ - ومنهم أحمد بن أبي عبد الرحمن، واسمه يزيد بن أحمد بن أبي عبد الرحمن القرشي، الزهري، من ولد عبد الرحمن بن عوف، من أهل مصر، وفد

على الناصر بقرطبة، وكان دخوله إليها في محرم سنة ٣٤٣، فأكرم الناصر مثواه، وكان فقيه أهل مصر، ذكره ابن حيان.

٨١ - ومنهم أبو الطاهر إسماعيل ابن الإسكندراني، لقي ببلده أبا طاهر السلفي، وسمع منه، ودرس عليه كتاب " الاصطلاح " للسمعاني، وقدم الأندلس، ودخل مرسية تاجراً، وكان فقيهاً على مذهب الشافعي، وأنشد عن السلفي قوله:

أنا من أهل الحديث وهم خير فئة ::: عشت تسعين وأرجو أن أعيش لمائة

فعاش كما تمنى رحمه الله تعالى.

٨٢ - ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن إسماعيل بن بشر، الأنطاكي، الإمام، أبو الحسن، التميمي، نزيل الأندلس ومقرئها ومسندها، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن إبراهيم بن عبد الرزاق ومحمد بن الأخرم وأحمد بن يعقوب التائب وأحمد بن محمد بن خشيش ومحمد بن جعفر بن بيان، وصنف قراءة ورش، قرأ عليه جماعة: منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ وإبراهيم بن مبشر المقرئ وطائفة آخرون من قراء الأندلس، وسمع منه عبد الله بن أحمد بن معاذ الداراني.

قال أبو الوليد بن الفرضي: أدخل الأنطاكي الأندلس علماً جماً، وكان بصيراً بالعربية والحساب وله حظ من الفقه، قرأ الناس عليه، وسمعت أنا منه، وكان رأساً في القراءات، لا يتقدمه أحد في معرفتها في وقته، وكان مولده بأنطاكية سنة ٢٩٩، ومات بقرطبة في ربيع الأول سنة ٣٧٧، رحمه الله تعالى.

٨٣ - ومنهم عمر بن مودود بن عمر، الفارسي، البخاري، يكنى أبا البركات، ولد بسلماس، ونشأ بها، وكتب الحديث هنالك، وتعلم العربية والفقه، وهو من أبناء الملوك، وانتقل إلى المغرب، فدخل الأندلس، ونزل مالقة في حدود ثلاثين وستمائة، ودخل إشبيلية، وكانت له رواية بالمشرق.

٨٤ - ومنهم الشريف الأجل الرحالة الشيخ نجم الدين بن مهذب الدين، وكنت لا أتحقق من أي البلاد هو من المشرق، ثم إني علمت أنه من بغداد إذا وقفت على كتابين كتبهما في شأن العناية به الأديب العلامة أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي: أحدهما لأبي العلاء حسان، والثاني للكاتب أبي الحسن العنسي، وهو الذي يفهم منه أنه من بغداد.

٨٥ - ومنهم تقي الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن الغرس، الحنفي، المصري. قال الوادي آشي فيه: إنه من أعيان مصر، قال: وسألته هل يقع بين أهل مصر تنازع في تفضيل بعض المذاهب على بعض فأجابني بأن هذا لا يقع عندهم بين أهل الرسوخ في العلم، وذوي المعرفة والفهم، وإنما يصدر هذا بين الناشئين، قال: وللحنيفة الظهور عليهم حين يقولون لهم: لنا عليكم اليد الطولى في الخبز، لكونه بمصر يطبخ في الفرن بأرواث الدواب، وكذلك تسخين الحمام، فإن المالكية وغيرهم بمصر يقلدون الحنفية في ذلك، قال: وسألته حفظه الله تعالى: هل للوباء بمصر وقت معلوم فقال لي: جرت العادة عندهم بقدر الله تعالى وسره في خليقته أن كل سنة أولها ثاء مثلثة يكون فيها الوباء، والله تعالى أعلم، وأن هذا متعارف عندهم، هكذا قال لي. وعيب ما يقع من بعض النقاد بتونس وما يصدر عنهم بكثرة من إلقائهم الأسئلة العويصة في أصول الدين وغيرها على من يرد عليهم قصداً في تعجيزه وتعنيته، ثم قال: إن من المنقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن من حفظت عنه تسع وتسعون خصلة تقتضي الكفر وواحدة تقتضي الإيمان أن الواحدة المقتضية للإيمان تغلب وتبقى حرمتها عليها، انتهى.

وقد ذكرنا في الباب الأول من هذا القسم حكاية البصري المغني القادم من المشرق إلى البصرة على عبد الوهاب الحاجب بإفريقية في دولة بني المعز بن باديس، وسردنا دخوله عليه في مجلس أنسه، وما اتفق في ذلك له معه، وأنه وصف له بلاد الأندلس وحسنها وطيبها، فارتحل المغني إليها، ومات بها،

حسبما لخصناه من كلام الكاتب ابن الرقيق الأديب المؤرخ في كتابه " قطب السرور " ولولا أنه لم يسم المغني المذكور لجعلنا له ترجمة في هذا الباب، إذ هو به أليق، والأمر في ذلك سهل، والله تعالى الموفق للصواب.

٨٦ - ومنهم الولي الصالح العارف بالله سيدي يوسف الدمشقي، رضي الله تعالى عنه، وهو كما قال ابن داوود من كبار الأولياء، شاذلي الطريقة، قدم من المشرق إلى الأندلس، وكان يأتي مدينة وادي آش الكرة بعد الكرة لزيارة معارف له بها، وكان من الذين أخفاهم الله، لا يعرف به إلا من تعرف له، أعاد الله تعالى علينا من بركاته.

* * *

الباب السابع

في نبذة مما منَّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عز أوهان وحوزهم في ميدان البراعة، من قصب البراعة، خصل الرهان، وجملة من أجوبتهم، الدالة على لوذعيتهم، وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان

الباب السابع:

في نبذة مما منَّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عز أو هان وحوزهم في ميدان البراعة، من قصب البراعة، خصل الرهان، وجملة من أجوبتهم، الدالة على لوذعيتهم، وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان

١ - عن فرحة الأنفس

نقول في فضائل الأندلس: اعلم أن فضل أهل الأندلس ظاهر، كما أن حسن بلادهم باهر، ولذلك ذكر ابن غالب في " فرحة الأنفس " لما أثنى على الأندلس وأهلها أن بطليموس جعل لهم - من أجل ولاية الزهرة لبلادهم - حسن الهمة في الملبس والمطعم، والنظافة والطهارة، والحب للهو والغناء، وتوليد اللحوم، ومن أجل ولاية عطارد حسن التدبير، والحرص على طلب العلم، وحب الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف. وذكر ابن غالب أيضاً ما خصوا به من تدبير المشتري والمريخ. وانتقد عليه بعضهم بأن أقاليم الأندلس الرابع والخامس والسادس فساحلها الشمالي، والسابع في جزائر المجوس، وللإقليم الرابع الشمس، وللخامس الزهرة، وللسادس عطارد، وللسابع القمر، والمشتري للإقليم الثاني، والمريخ للثالث، ولا مدخل لهما في الأندلس، انتهى.

ثم قال صاحب الفرحة: وأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب

الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب "كتاب الفلاحة" الذي شهدت له التجربة بفضله، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع أحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب.

وعدَّ رحمه الله تعالى من فضائلهم اختراعهم للخطوط المخصوصة بهم، قال: وكان خطهم أولاً مشرقياً، انتهى. قال ابن سعيد: أما أصول الخط المشرقي وما تجد له في القلب واللحظ من القبول فمسلم له، لكن خط الأندلس الذي رأيته في مصاحف ابن غطوس الذي كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسنٌ فائق، ورونق آخذ بالعقل، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد، انتهى.

ونحو صدر كلام ابن غالب السابق مذكورٌ في رسالة لابن حزم، وقال فيها: إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهماتها، انتهى.

وعد ابن غالب من فضائلهم اختراعهم للموشحات التي قد استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها، وأما نظمهم ونثرهم فلا يخفى على من وقف عليهما علو طبقاتهم.

ثم قال ابن غالب: ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا

عنهم ذلك، وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة، ولا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعاً لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم، قال: ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل، انتهى.

* * *

٢ - عن ابن سعيد

وقال ابن سعيد، لما ذكر جملة من محاسن الأندلسيين: يعلم الله تعالى أني ما أقصد إلا إنصاف المنصفين الذين لا يميل بهم التعصب، ولا يجمح بهم الهوى، ولكن الحق أحق أن يتبع، فلعل مطلعاً يقف على ما ذكره ابن غالب فيقول: تعصب هذا الرجل لأهل بلده، ثم يغمس التابع له والراضي بنقل قوله في هذه الصبغة ويحمله على ذلك بعده عن الأرضين:

ولو أبصروا ليلى أقرّوا بحسنها ::: وقالوا بأنّي في الثناء مقصّر

ويكفي في الإنصاف أن أقول: إن حضرة مراكش هي بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بر العدوة، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم، وذلك مشهور معلوم إلى الآن. ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان إفريقية الآن أبي زكريا يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثيله التي يبنى عليها، وإن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشأن، فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين، وله من خاطره تنبيهات وزيادة ظهر حسن موقعها، ووجوه صنائع دولته لا تكاد

تجدهم إلا من الأندلس، فصح قول ابن غالب، انتهى.

* * *

٣ - عن الحميدي

قال الحميدي: أنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق وهي:

وماذا عليهم لو أجابوا فسلّموا ::: وقد علموا أنّي المشوق المتيّم
سروا ونجوم الليل زهرٌ طوالعٌ ::: على أنّهم بالليل للناس أنجم
وأخفوا على تلك المطايا مسيرهم ::: فنمّ عليها في الظلام التبسّم

فأفرط بعض الحاضرين في استحسانها، وقال: هذا ما لا يقدر أندلسي على مثله، وبالحضرة أبو بكر يحيى بن هذيل، فقال بديهاً:

عرفت بعرف الريح أين تيمّموا ::: وأين استقلّ الظاعنون وخيّموا
خليليّ ردّاني إلى جانب الحمى ::: فلست إلى غير الحمى أتيمّم
أبيت سمير الفرقدين كأنّما ::: وسادي قتادٌ أو ضجيعي أرقم
وأحور وسنان الجفون كأنّه ::: قضيبٌ من الريحان لدنٌ منعّم
نظرت إلى أجفانه وإلى الهوى ::: فأيقنت أنّي لست منهنّ أسلم
كما أنّ إبراهيم أوّل نظرةٍ ::: رأى في الدراري أنّه سوف يسقم

انتهى.

* * *

٤ - عن ابن بسام

ومن كلام ابن بسام صاحب " الذخيرة " في جزيرة الأندلس: أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرق كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر. وذكر أن أبا علي البغدادي صاحب الأمالي الوافد على الأندلس في زمان بني مروان قال: لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمر به من أهل الأمصار

فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم، بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة. قال أبو علي: فقلت إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج إلى ترجمان، في هذه الأوطان؛ قال ابن بسام: فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل الأفق الأندلسي في ذكائهم، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة، ويقول لهم: إن علمي علم رواية، وليس بعلم دراية، فخذوا عني ما نقلت، فلم آل لكم أن صححت، هذا مع إقرار الجميع له يومئذٍ بسعة العلم وكثرة الروايات، والأخذ عن الثقات، انتهى.

* * *

٥ - عن الحجاري

ومن كلام الحجاري في " المسهب ": الأندلس عراق المغرب عزة أنساب، ورقة آداب، واشتغالاً بفنون العلوم، وافتناناً في المنثور والمنظوم، لم تضق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة، فما مر فيها بمصر إلا وفيه نجوم وبدور وشموس، وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن، وابن خفاجة سابقهم في هذا المضمار الحائز فيه قصب الرهان. وأما إذا هب نسيم، ودار كأس في كف ظبي رخيم، ورجع بم وزير، وصفق الماء خرير، أو رقت العشية، وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية، أو تبسم عن شعاعٍ ثغر نهر، أو ترقرق بطلٍ جفن زهر، أو خفق بارق، أو وصل طيف طارق، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من يهواه كالماء والراح، إلى أن ودع حين أقبل رائد الصباح، أو أزهرت دوحة السماء بزهر كواكبها، أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها، فأولئك هم السابقون السابقون، الذين لا يجارون ولا يلحقون، وليسوا بالمقصرين في الوصف إذا تقعقعت السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين قضبان الرماح،

وبنت الحرب من العجاج سماء، وأطلعت شبه النجوم أسنةً وأجرت شبه الشفق دماء، وبالجملة فإنهم في جميع الأوصاف والتخيلات أئمة، ومن وقف على أشعارهم في هذا الشأن فضلهم فيه على أصناف الأمة وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية، وبقاعهم النضرة وهممهم الأبية، ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات، والتركيبات وأنواع المضحكات، ما تملأ الدواوين كثرته، وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركب، ولا استغرب أحدٌ ما أورده ولا تعجب، إلا أن مؤلفي هذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف في هذا الشأن فكان يمر بياعاً، فقمت محتسباً للاظرف فتداركته جامعاً فيه ما أمسى شعاعاً، انتهى.

* * *

٦ - رسالة ابن الحزم في فضل الأندلس

قلت: وقد رأيت أن أذكر رسالة أبي محمد ابن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل علماء الأندلس، لاشتمالها على ما نحن بصدده. وذلك أنه كتب أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي القيرواني، إلى أبي المغيرة عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم، ما صورته:

كتبت يا سيدي، وأجل عددي، كتب الله تعالى لك السعادة، وأدام لك العز والسيادة، سائلاً مسترشداً، وباحثاً مستخبراً، وذلك أني فكرت في بلادكم إذ كانت قرارة كل فضل، ومنهل كل خير، ومقصد كل طرفة، ومورد كل تحفة، وغاية آمال الراغبين، ونهاية أماني الطالبين، إن بارت تجارة فإليها تجلب، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق، مع كثرة علمائها، ووفور أدبائها، وجلالة ملوكها، ومحبتهم في العلم وأهله، يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب: يقدمون من قدمته شجاعته، وعظمت في الحروب نكايته، فشجع الجبان، وأقدم الهيبان، ونبه الخامل، وعلم الجاهل،

ونطق العيي، وشعر البكي، واستنثر البغاث، وتثعبن الحفاث، فتنافس الناس فى العلوم، وكثر الحذاق في جميع الفنون، ثم هم مع ذلك على غاية التقصير ونهاية التفريط، من أجل علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم، وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم، وأخبار الملوك والأمراء، والكتاب والوزراء، والقضاة والعلماء، فأبقوا لهم ذكراً في الغابرين يتجدد على مر الليالي والأيام، ولسان صدقٍ في الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام، وعلمائكم مع استظهارهم على العلوم كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح، وراتبٌ على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صنف، أن يعنف، وإن ألف أن يخالف، ولا يآلف، أو تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، لم يتعب أحد منهم نفساً في جميع فضائل أهل بلده، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه، ولا بلَّ قلماً بمناقب كتابه ووزرائه، ولا سوَّد قرطاساً بمحاسن قضاته وعلمائه، على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساغاً ولم تضق عليه المسالك، ولم تخرج به المذاهب، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد، ولكن هم أحدهم أن يطلب شأو من تقدمه من العلماء ليحوز قصبات السبق، ويفوز بقدح ابن مقبل، ويأخذ بكظم دغفل، ويصير شجاً في حلق أبي العميشل، فإذا أدرك بغيته، واخترمته منيته، ودفن مع أدبه وعلمه، فمات ذكره، وانقطع خبره، ومن قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس فألفوا دواوين بقي لهم بها ذكر مجدد طول الأبد.

فإن قلت: إنه كان مثل ذلك من علمائنا، وألفوا كتباً لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق لأنه ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب، أو رحلة قارب، لو نفث من بلدكم مصدور، لأسمع من ببلدنا في القبور، فضلاً عمن في الدور والقصور، وتلقوا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذي سماه بالعقد، على أنه يلحقه في بعض اللوم، لا سيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه، أكثر الحز وأخطأ المفصل، وأطال

الهز بسيف غير مقصل، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم، وإغفال ما يهمهم. فأرشد أخاك أرشدك الله واهده هداك الله إن كانت عندك في ذلك الجلية وبيدك فصل القضية، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب الوزير الحافظ أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم عند وقوفه على هذه الرسالة، ما نصه:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى أصحابه الأكرمين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته الفاضلين الطيبين.

أما بعد يا أخي يا أبا بكر، سلامٌ عليك سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ وكثرت الأيام والليالي ثم لقيك في حال سفر ونقلة، ووادك في خلال جولة ورحلة، من مجاورتك أرباً، ولا بلغ في محاورتك مطلباً، وإني لما احتللت بك، وجالت يدي في مكنون كتبك، ومضمون دواوينك، لمحت عيني في تضاعيفها درجاً، فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من مصاقبينا في الدار أهل إفريقية، ثم ممن ضمته حاضرة قيروانهم، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه، ولا ذكره بنسبه، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس - وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف - فإن هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم ملوكهم، ومحاسن فقهائهم، ومناقب قضاتهم، ومفاخر كتابهم، وفضائل علمائهم، ثم تعدى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم، ويبقي علمهم، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه، وحقق ظنه في ذلك، واستدل على صحته عند نفسه بأن شيئاً من هذه التآليف لو كان منا موجوداً لكان إليهم منقولاً، وعندهم ظاهراً، لقرب المزار، وكثرة السفار، وترددهم إليهم، وتكررهم علينا. ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب، والمشهد الآهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعاني وجليل المعالي، قرارة المجد

ومحل السؤدد، ومحط رحال الخائفين، وملقى عصا التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه، الرفيع حديثه ومكتسبه، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته، ولا ينال حضره هويناه، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه، ولا يدنو من المعالي دنوه، ولا يعلو في حميد الحلال علوه، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور، فحسبي بدينك العلمين دليلاً على سعيه المشكور، وفضله المشهور، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت أطال الله بقاءه، وأدام اعتلائه، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه، فرأيته أعزه الله تعالى حريصاً على أن يجاوب هذا المخاطب، وراغباً في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي أو بعد عنه فخفي، فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات، رحمنا الله تعالى وإياه، فلم يكن لقصده بالجواب معنى، وقد صارت المقابر له مغنى، فلسنا بمسمعين من في القبور، فصرفت عنان الخطاب إليك، إذ من قبلك صرت إلى الكتاب المجاوب عنه، ومن لدنك وصلت إلى الرسالة المعارضة، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تآليف أهل بلدنا مثل ما غاب عن الباحث الأول، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وإن كنت في إخباري إياك بما أرسمه في كتابي هذا كمهد إلى البركان نار الحباحب، وباني صوىً في مهيع القصد اللاحب، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه، فإنما المراد من أهل تلك الناحية من نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي، وما توفيقي إلا بالله سبحانه.

فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتباً جمة: منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها، وأمهات مدنها وأجنادها الستة، وخواص كل بلد منها، وما فيه مما ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح، وأنا أقول: لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله بشر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي رويناه من طريق

أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته به عن النبي أنه أخبرها بذلك، لكفى شرفاً بذلك يسر عاجله، ويغبط آجله. فإن قال قائل: فلعله صلوات الله تعالى عليه إنما عنى بذلك الحديث أهل صقلية وإقريطش، وما الدليل على ما ادعيته من أنه عنى الأندلس حتماً ومثل هذا التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح، وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل التجريح، فالجواب - وبالله التوفيق - أنه قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وأمر بالبيان لما أوحي إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج هذا البحر غزاة واحدة بعد واحدة، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها وخبره الحق بأنها من الأولين، وهذا من أعلام نبوته ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه، وصح البرهان على رسالته بذلك، وكانت من الغزاة إلى قبرس، وخرت عن بغلتها هناك، فتوفيت، رحمها الله تعالى، وهي أول غزاة ركب فيها المسلمون البحر، فثبت يقيناً أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشر بهم النبي ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ولا سبيل أن يظن به وقد أوتي ما أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى إلا والتالية لها ثانية، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد، وهذا يقتضي طبيعة صناعة المنطق، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية، ولا الثانية ثانية إلا لأولى، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة، وهو إنما ذكر طائفتين، وبشر بفئتين، وسمى إحداهما الأولين، فاقتضى ذلك بالقضاء الصدق آخرين، والآخر من الأول والثاني الذي أخبر أنه خير القرون بعد قرنه، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله لأنه خير من كل قرن بعده، ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري، وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الأغلبة سنة ٢١٢، أيام قاد إليها السفن غازياً أسد بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى، وبها

مات، وأما إقريطش فإنها فتحت بعد الثلاث والمائتين، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ، من أهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس، وكان من فل الربضيين، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠، وكان أكثر المفتتحين لها أهل الأندلس.

وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة مسقط رؤوسنا، ومعق تمائمنا، مع سر من رأى في إقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور، وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها، فلها من ذلك على كل حال حظ يفوق حظ أكثر البلاد، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة، وذلك من أدلة التمكن في العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا، وقد صدق ذلك الخبر، وأبانته التجربة، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء واسع العطن متنائي الأقطار فسيح المجال، والذي نعاه علينا الكاتب المذكور لو كان كما ذكره لكنا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر وجلائل البلاد ومتسعات الأعمال، فهذه القيروان بلد المخاطب لنا، ما أذكر أني رأيت في أخبارها تأليفاً غير " المعرب عن أخبار المغرب " وحاشا تواليف محمد بن يوسف الوراق، فإنه ألف للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك إفريقية وممالكها ديواناً ضخماً وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً جمة، وكذلك ألف أيضاً في أخبار تيهرت وو هران و تنس وسجلماسة ونكور والبصرة وغيرها تواليف حساناً، ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع، آباؤه من وادي الحجارة، ومدفنه بقرطبة، وهجرته إليها وإن كانت نشأته بالقيروان.

ولا بد من إقامة الدليل على ما أشرت إليه هاهنا إذ مرادنا أن نأتي منه

بالمطلب، فيما يستأنف إن شاء الله تعالى، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين، دون محاشاة أحد، بل قد تيقنا إجماعهم على ذلك، متفقون على أن ينسبوا الجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل تركٍ لسكناها إلى أن مات، فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة رضي الله تعالى عنهم، وإنما سكن علي الكوفة خمسة أعوام وأشهراً، وقد بقي ٥٨ عاماً وأشهراً بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى. وكذلك أيضاً أكثر أعمار من ذكرنا، وإن ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثر مقامهم بالحجاز وتهامة الطائف، وجمهرة أعمارهم خلت هنالك، وإن ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة ابن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم، وكذلك في المصريين عمرو ابن العاص وخارجة بن حذافة العدوي، وفي المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله ابن الزبير، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به، وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا الذين إجماعهم فرض إتباعه، وخلافه محرم اقترافه، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلاحظنا فيهن والمكان الذي اختاره أسعد به، فكما لا ندع إسماعيل بن القاسم فكذلك لا ننازع في محمد بن هانئ سوانا، والعدل أولى ما حرص عليه، والنصف أفضل ما دعي إليه، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه، وعلى ما ذكرنا من الأنصاف تراضى الكل.

وهذه بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة، والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف، والتدقيق في تصريف العلوم ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدة الأفكار ونفاد الخواطر، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا، وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر، وأما سائر التواريخ التي ألفها أهلها فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد، ولا أعلم

في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبد القاهر كريزي النسب في صفاتها وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها، ولا أعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة، وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرنان وسجستان والري والسند وأرمينية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم في شيء منها تأليفاً قصد به أخبار ملوك تلك النواحي، وعلمائها وشعرائها وأطبائها، ولقد تاقت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد، وما علمناه علم، على أنهم العلي الرؤساء، والأكابر العظماء، ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تآليفهم، وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان، وكتاب الموصلي وغيره في أخبار مصر، وكما بلغنا سائر تواليفهم في أنحاء العلوم، وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى، كذلك بلغنا رد القاضي أحمد بن طالب التميمي على أبي حنيفة وتشيعه على الشافعي، وكتب ابن عبدوس ومحمد ابن سحنون وغير ذلك من خوامل تآليفهم دون مشهورها.

وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر " أزهد الناس في عالمٍ أهله "، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: " لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده " وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي من قريش - وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً وأشدهم تثبتاً، مع ما خصوا به من سكناهم أفضل البقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه - حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها على جميع الناس، والله يؤتي فضله من يشاء، ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته،

بأضعافما في سائر البلاد، إن أجاد قالوا: سارق مغير ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غث بارد وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا ومتى تعلم وفي أي زمان قرأ ولأمه الهبل! وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها فهنالك حمي الوطيس على البائس، وصار غرضاً للأقوال وهدفاً للمطالب ونصباً للتسبب إليه ونهباً للألسنة وعرضة للتطرق إلى عرضه، وربما نحل ما لم نقل وطوق ما لم يتقلد وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده قلبه، وبالحرى وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتالف وينجو من المخالف، فإن تعرض لتأليف غمز ولمز وتعرض وهمز واشتط عليه، وعظم يسير خطبه واستشنع هين سقطه وذهبت محاسنه وسترت فضائله وهتف ونودي بما أغفل، فتنكس لذلك همته وتكل نفسه وتبرد حميته، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعراً أو يعمل رسالة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذا النصب إلا الناهض الفائت والمطفف المستولي على الأمد.

وعلى ذلك فقد جمع ما ظنه الظان غير مجموع، وألفت عندنا تآليف في غاية الحسن، لنا خطر السبق في بعضها: فمنها كتاب " الهداية " لعيسى بن دينار، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق، ومن الكتب المالكية التي ألفت بالأندلس كتاب القطني مالك بن علي، وهو رجل قرشي من بني فهر لقي أصحاب مالك وأصحاب أصحابه، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات، ومنها كتاب أبي إسحاق يحيى بن إبراهيم بن مزين في تفسير الموطأ والكتب المستقصية لمعاني الموطأ وتوصيل مقطوعاته من تآليف ابن مزين أيضاً، وكتابه في رجال الموطأ وما لمالك عن كل واحد منهم من

الآثار في موطإه.

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره.

ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبه على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنف ومسند، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء، وسائرهم أعلام مشاهير. ومنها مصنفه في فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم الذي أربى فيه على مصنف أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها وانتظم علماً عظيماً لم يقع في شيء من هذه، فصارت تآليف هذا الإمام العلي قواعد للإسلام، لا نظير لها، وكان متخيراً لا يقلد أحداً، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه.

ومنها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجاري، وكان شافعي المذهب بصيراً بالكلام على اختياره، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد، وكان داودي المذهب قوياً على الانتصار له، وكلاهما في أحكام القرآن غاية، ولمنذر مصنفات منها كتاب " الإبانة عن حقائق أصول الديانة ".

ومنها في الحديث مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح، ومصنف محمد بن عبد الملك بن أيمن، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات، ولقاسم بن أصبغ هذا تآليف حسان جدًّا، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل وكلامه، ومنها كتاب " المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى " وهو خير منه وأنقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدةً، ومنها كتاب في فضائل قريش وكنانة،

وكتابه في الناسخ والمنسوخ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ. ومنها كتاب " التمهيد " لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر، وهو الآن بعد في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه، ومنها كتاب " الاستذكار " وهو اختصار التمهيد المذكور، ولصاحبنا أبي عمر بن عبد البر المذكور كتبٌ لا مثيل لها: منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتاباً اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوبه وقربه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال في معناه، ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا في ذلك، ومنها كتاب " الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو ابن العلاء، والحجة لكل واحد منهما "، ومنها كتاب " بهجة المجالس وأنس المجالس، مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات "، ومنها كتاب " جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته ".

ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال، ولم يبلغ عبد الغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين لا أعلم مثله في فنه البتة، ومنها تاريخ أحمد بن سعيد، ما وضع في الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي، ولم أره، وأحمد بن سعيد هو المتقدم إلى التأليف القائم في ذلك، ومنها كتب محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القاضي، وهي كثيرة منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري.

ومما يتعلق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي، فما شأه أبو عبيد إلا بتقدم العصر فقط.

ومنها في الفقه " الواضحة " والمالكيون لا تمانع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها، ومنها " المستخرجة من الأسمعة " وهي المعروفة بـ " العتبية "، ولها عند أهل إفريقية القدر العالي والطيران الحثيث، والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام الإشبيلي المعروف بابن المكوي، والقرشي أبو مروان المعيطي في جمع أقاويل مالك كلها على نحو الكتاب " الباهر " الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن أحمد بن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلها، ومنها كتاب " المنتخب " الذي ألفه القاضي محمد بن يحيى بن عمرو بن لبابة، وما رأيت لمالك قط كتاباً أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوهها، وتآليف قاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق وكلها حسن في معناه، وكان شافعي المذهب نظاراً جارياً في ميدان البغدادين.

ومنها في اللغة الكتاب " البارع " الذي ألفه إسماعيل بن القاسم يحتوي على لغة العرب، وكتابه في " المقصور والممدود والمهموز " لم يؤلف مثله في بابه، وكتاب " الأفعال " لمحمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العبديين فلم يوضع في فنه مثله، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني في اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل، وهو أظن في الحياة بعد. وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها، وهي أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضي، حدثني أن أبا الجيش مجاهداً صاحب الجزائر ودانية وجه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية وأبو غالب ساكن بها ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور " مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد " فرد الدنانير وأبى من ذلك، ولم يفتح في هذا باباً البتة، وقال: والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب، فأعجب لهمة هذا

الرئيس وعلوها، وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها.

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد في اللغة المعروف بكتاب " العالم " نحو مائة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك وختم بالذرة، وكتاب " النوادر " لأبي علي إسماعيل بن القاسم، وهو مبارٍ لكتاب " الكامل " لأبي العباس المبرد، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً، وكتاب " الفصوص " لصاعد بن الحسن الربعي، وهو جارٍ في مضمار الكتابين المذكورين.

ومن الأنحاء تفسير الجرفي لكتاب الكسائي، حسن في معناه، وكتاب ابن سيده في ذلك المنبوز بـ " العالم والمتعلم " وشرح له لكتاب الأخفش.

ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في " أخبار شعراء الأندلس " كتاب حسن، وكتاب " الحدائق " لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبي محمد بن داوود رحمه الله تعالى، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد، فبلغ الغاية، وأتى الكتاب فرداً في معناه، منها كتاب " التشبيهات من أشعار أهل الأندلس " جمعه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي الحسن الكاتب وهو حي بعد، ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الإفليلي لشعر المتنبي، وهو حسن جداً.

ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم، وذلك كثير جداً، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعياد بها، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها، وتواريخ متفرقة رأيت منها: أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه، وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف، وفي

أخبار بني قسي والتجيبيين وبني الطويل بالثغر، فقد رأيت من ذلك كتباً مصنفة في غاية الحسن، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار طبرية وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها تأليف إسحاق ابن سلمة بن إسحاق القيني، وكتاب محمد بن الحارث الخشني في " أخبار القضاة بقرطبة وسائر الأندلس "، وكتاب " في أخبار الفقهاء " بها، وكتاب لأحمد بن محمد ابن موسى في " أنساب مشاهير أهل الأندلس " في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها، وكتاب قاسم بن أصبغ في " الأنساب " في غاية الحسن والإيجاز، وكتابه في " فضائل بني أمية "، وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس، ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى، رأيت منها " أخبار شعراء إلبيرة " في نحو عشرة أجزاء، ومنها كتاب " الطوالع " في أنساب أهل الأندلس، ومنها كتاب " التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس " تأليف أبي مروان ابن حيان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى، وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتهال، وكتاب " المآثر العامرية " لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامر وأخباره، وكتاب الأقشتين محمد بن عاصم النحوي في " طبقات الكتاب بالأندلس "، وكتاب سكن بن سعيد في ذلك، وكتاب أحمد بن فرج في " المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم "، وكتاب " أخبار أطباء الأندلس " لسليمان ابن جلجل.

وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهي كتب رفيعة حسان، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى، وهو المعروف بابن الكتاني، وهي كتب رفيعة حسان، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي، وقد أدركناه وشاهدناه، ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن، وكتب ابن الهيثم في الخواص

والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها.

وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة.

وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ، ولا تحققنا به، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلا أني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول: إنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح، وهما من أهل بلدنا، وكذلك كتاب المساحة المجهولة لأحمد بن نصر فما تقدم إلى مثله في معناه.

وإنما ذكرنا التآليف المستحقة للذكر، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها، وهي إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو شيء ناقص يتمه، أو شيء مستغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، أو شيء متفرق يجمعه، أو شيء مختلط يرتبه، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه. وأما التواليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها.

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب، فهي على كل حال غير عرية عنه، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال، نظار على أصوله، ولهم فيه تواليف: منهم خليل بن إسحاق، ويحيى بن السمينة، والحاجب موسى بن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك. ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى، وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأنا أسقطنا فيه المشاغب كلها، وأضربنا عن التطويل

جملة، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس و بديهة العقل لها بالصحة. ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة، منها ما قد تم، ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه، لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنسميها، والمراد بها ربنا جل وجهه، و هو ولي العون فيها، والمولى بالمجازاة عليها، و ما كان لله تعالى فسيبدو، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبلدنا هذا - على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء - فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها.

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق، لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جارٍ على مذهب الأوائل، لا على طريقة المحدثين، وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري و سليمان بن الأشعث وأحمد بن شعيب النسائي، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القفال ومحمد بن عقيل الفريابي، و هو شريكهما في صحبة المزني أبي إبراهيم والتلمذة له، وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد بن نجار بهما إلا أبا الحسن ابن المفلس والخلال والديباجي ورويم بن أحمد. وقد شاركهم عبد الله في أبي سليمان وصحبته، وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة وعمه محمد بن عيسى وفضل بن سلمة لم نناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس، وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي وأبي عبد الله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد.

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب، وأحمد بن عبد الملك بن مروان، وأغلب بن شعيب، ومحمد بن شخيص، وأحمد بن فرج، وعبد الملك بن سعيد المرادي، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه، وحصان ممسوح الغرة.

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا، وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتهال، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان عمرو وسهل ومحمد بن عبد الله بن مسرة في طريقه التي سلك فيها، وإن كنا لا نرضى مذهبه، في جماعة يكثر تعدادهم.

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان، ولم نتزيد فيما رغب فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه، والحمد لله الموفق لعلمه، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم، وشرف وكرم.

انتهت الرسالة.

وكتب الحافظ بن حجر على هامش قوله فيها " وإنما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهراً " ما نصه: صوابه أربعة أعوام، انتهى.

* * *

٧ - تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم

وقال ابن سعيد، بعد ذكره هذه الرسالة ما صورته: رأيت أن أذيل ما ذكره الوزير الحافظ أبو محمد ابن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني والله تعالى ولي الإعانة.

أما القرآن فمن أجل ما صنف في تفسيره كتاب " الهداية إلى بلوغ النهاية " في نحو عشرة أسفار، صنفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكي بن أبي طالب

القرطبي، وله كتاب " تفسير إعراب القرآن "، وعد ابن غالب في كتاب " فرحة الأنفس " تآليف مكي المذكور، فبلغ بها ٧٧ تأليفاً، وكانت وفاته سنة ٤٣٧، ولأبي محمد بن عطية الغرناطي في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب و الشرق، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة.

وأما القراءات فلمكي المذكور فيها كتاب " التبصرة "؛ وكتاب " التيسير " لأبي عمرو الداني مشهورٌ في أيدي الناس.

وأما الحديث فكان بعصرنا في المائة السابعة الإمام أبو الحسن علي بن القطان القرطبي الساكن بحضرة مراكش، وله في تفسير غرائبه وفي رجاله مصنفات، وإليه كانت النهاية والإشارة في عصرنا، وسمعت أنه كان اشتغل بجمع أمهات كتب الحديث المشهورة، وحذف المكرر، وكتاب رزين بن عمار الأندلسي في جمع ما يتضمنه كتاب مسلم والبخاري والموطأ والسنن والنسائي والترمذي كتاب جليل مشهور في أيدي الناس بالمشرق والمغرب، وكتاب " الأحكام " لأبي محمد عبد الحق الإشبيلي مشهور متداول القراءة، وهي أحكام كبرى، وأحكام صغرى، قيل: ووسطى، وكتاب " الجمع بين الصحيحين " للحميدي مشهور.

وأما الفقه فالكتاب المعتمد عليه الآن الذي ينطلق عليه اسم الكتاب عند المالكية حتى بالإسكندرية فكتاب " التهذيب " للبراذعي السرقسطي، وكتاب " النهاية " لأبي الوليد ابن رشد كتاب جليل معظم معتمد عليه عند المالكية، وكذلك كتاب " المنتقى " للباجي.

وأما أصول الدين وأصول الفقه فللإمام أبي بكر ابن العربي الإشبيلي من ذلك ما منه كتاب " العواصم والقواصم " المشهور بأيدي الناس، وله تآليف في غير هذا، ولأبي الوليد ابن رشد في أصول الفقه ما منه " مختصر المستصفى ".

وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف " بالمتين " في نحو ستين مجلدة وإنما ذكر ابن حزم كتاب " المقتبس " و هو في عشر مجلدات، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ويمعن فيها مما شاهده، ومنه ينقل صاحب الذخيرة، وقد ذيل عليه أبو الحجاج البياسي أحد معاصرينا، و هو الآن بإفريقية في حضرتها تونس عند سلطانها تحت إحسانه الغمر، وكتاب المظفر ابن الأفطس لمك بطليوس المعروف بـ " المظفري " نحو كتاب " المتين " في الكبر، وفيه تاريخ على السنين، وفنون آداب كثيرة، وتاريخ ابن صاحب الصلاة في الدولة اللمتونية، وذكر ابن غالب أن ابن الصيرفي الغرناطي له كتاب في " أخبار دولة لمتونة "، وأن أبا الحسن السالمي له كتاب " في أخبار الفتنة الثانية بالأندلس " بدأ من سنة ٥٣٩، ورتبه على السنين وبلغ به سنة ٥٤٧، وأبو القاسم خلف بن بشكوال له كتاب في " تاريخ أصحاب الأندلس " من فتحها إلى زمانه، وأضاف إلى ذلك من أخبار قرطبة وغيرها ما جاء في خاطره، وله كتاب " الصلة " في تاريخ العلماء، وللحميدي قبله " جذوة المقتبس " وقد ذيل كتاب الصلة في عصرنا هذا أبو عبد الله ابن الأبار البلنسي كاتب سلطان إفريقية. وذكر ابن غالب أن الفقيه أبا جعفر ابن عبد الحق الخزرجي القرطبي له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليقة إلى أن انتهى في أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن، قال: وفارقته سنة ٥٦٥. وأبو محمد ابن حزم صاحب الرسالة المتقدمة الذكر له كتب جمة في التواريخ، مثل كتاب " نقط العروس في تواريخ الخلفاء " وقد صنف أبو الوليد ابن زيدون كتاب " التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس " على منزع كتاب " التعيين في خلفاء المشرق " للمسعودي. وللقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلي كتاب " التعريف بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم " وكتاب " جامع أخبار الأمم ". وأبو عمر بن عبد البر له كتاب " القصد والأمم في معرفة أخبار العرب والعجم ". وعريب بن سعد القرطبي له كتاب " اختصار تاريخ الطبري " قد

سعد باغتباط الناس به، وأضاف إليه تاريخ إفريقية والأندلس، ولأحمد بن سعيد بن محمد بن عبد الله ابن أبي الفياض كتاب " العبر "، وكتاب أبي بكر الحسن بن محمد الزبيدي في " أخبار النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس "، وكتاب القاضي أبي الوليد بن الفرضي في " أخبار العلماء والشعراء " وما يتعلق بذلك وليحيى بن حكم الغزال تاريخ ألفه كله منظوماً، كما صنع أيضاً بعده أبو طالب المتنبي من جزيرة شقر في التاريخ الذي أورد منه صاحب الذخيرة ما أورد، وكتاب " الذخيرة " لابن بسام في جزيرة الأندلس ليس هذا مكان الإطناب في تفصيلها وهي كالذيل على حدائق ابن فرج، وفي عصرها صنف الفتح كتاب " القلائد " وهو مملوء بلاغة، والمحاكمة بين الكتابين ذكرت بمكان آخر، ولصاحب القلائد كتاب " المطمح " وهو ثلاث نسخ: كبرى، ووسطى، وصغرى، يذكر فيها من الذين ذكرهم في القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم، وكتاب " سمط الجمان وسقط المرجان " لأبي عمرو ابن الإمام بعد الكتابين المذكورين، ذكر من أخلا بتوفيته حقه من الفضلاء، واستدرك من أدركه بعصره في بقية المائة السادسة، وذيل عليه - وإن كان ذيلاً قصيراً - أبو بحر صفوان بن إدريس المرسي بكتاب " زاد المسافر " ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة، وكتاب أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري المسمى بـ " المسهب في فضائل المغرب " صنفه بعد " الذخيرة " و " القلائد " من أول ما عمرت الأندلس إلى عصره، وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى ذكر البلاد وخواصها مما يختص بعلم الجغرافية، وخلطه بالتاريخ وتفنن الأدب على ما هو مذكور في غير هذا المكان، ولم يصنف في الأندلس مثل كتابه، ولذلك فضله المصنف له عبد الملك بن سعيد، وذيل عليه، ثم ذيل على ذلك ابناه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى كاتب هذه النسخة ومكمل كتاب " فلك الأدب المحيط بحلى لسان العرب " المحتوي على كتابي " المشرق في حلى المشرق " و " المغرب في حلى المغرب "، فيكفي الأندلس في هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستة أشخاص في ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥، وقد

احتوى على جميع ما يذاكر به ويحاضر بحلاه من فنون الأدب المختارة على جهد الطاقة في شرق وغرب على النوع الذي هو مذكور في غير هذا الموضع، ومن أغفلت التنبيه على عصرهن وغير ذلك من المصنفين المتقدمي الذكر، فيطلب الملتمس منه في مكانه المنسوب إليه كابن بسام في شنترين، والفتح في إشبيلية، وابن الإمام في إستجة، والحجاري في وادي الحجارة.

وأما ما جاء منثوراً من فنون الأدب فكتاب " سراج الدب " لأبي عبد الله ابن أبي الخصال الشقوري رئيس كتاب الأندلس، صنفه على منزع كتاب " النوادر " لأبي علي، و " زهر الآداب " للحصري؛ وكتاب " واجب الأدب " لوالدي موسى بن محمد بن سعيد، واسمه يغني عن المراد به؛ وكتاب " اللآلئ " لأبي عبيد البكري على كتاب " الأمالي " لأبي علي البغدادي مفيد في الأدب، وكذلك كتاب " الاقتضاب في شرح أدب الكتاب " لأبي محمد ابن السيد البطليوسي، وأما شرح " سقط الزند " له فهو الغاية، ويكفي ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه، وشروح أبي الحجاج الأعلم بشعر المتنبي والحماسة وغير ذلك مشهورة.

وأما النحو فلأهل الأندلس من الشروح على " الجمل " ما يطول ذكره، فمنها شرح ابن خروف، ومنها شرح الرندي، ومنها شرح شيخنا أبي الحسن ابن عصفور الإشبيلي، وإليه انتهت علوم النحو، وعليه الإحالة الآن من المشرق والمغرب، وقد أتيت له من إفريقية بكتاب " المقرب " في النحو فتلقي باليمين من كل جهة، وطار بجناح الاغتباط، ولشيخنا أبي علي الشلوبين كتاب " التوطئة " على الجزولية وهو مشهور، ولابن السيد وابن الطراوة والسهيلي من التقييدات في النحو ما هو مشهور عند أصحاب هذا الشأن المعتمد عليه، ولأبي الحسن ابن خروف شرح مشهور على كتاب سيبويه.

وأما علم الجغرافيا فيكفي في ذلك كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري الأونبي وكتاب " معجم مستعجم من البقاع والأماكن "، وفي كتاب "

المسهب " للحجاري في هذا الشأن وتذييلنا عليه في هذا الكتاب الجامع زبد الأولين والآخرين في ذلك.

وأما الموسيقى فكتاب أبي بكر ابن باجة الغرناطي في ذلك فيه كفاية وهو في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد، وليحيى الخذوج المرسي كتاب " الأغاني الأندلسية " على منزع الأغاني لأبي الفرج، وهو ممن أدرك المائة السابعة.

وأما الطب فالمشهور بأيدي الناس الآن في المغرب، وقد سار أيضاً في المشرق لنبله، كتاب " التيسير " لعبد الملك بن أبي العلاء بن زهر وله كتاب " الأغذية " أيضاً مشهور مغتبط به في المغرب والمشرق، ولأبي العباس ابن الرومية الإشبيلي من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب في الأدوية المفردة، وقد جمع أبو محمد المالقي الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن حشر عليه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي الصقلي وغيرها وضبطه على حروف المعجم، وهو النهاية في مقصده.

وأما الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد ابن رشد القرطبي، وله فيها تصانيف جحدها لما رأى انحراف منصور بن عبد المؤمن عن هذا العلم، وسجنه بسببها، وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية، وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره، فلذلك تخفى تصانيفه.

وأما التنجيم فلابن زيد الأسقف القرطبي فيه تصانيف، وكان مختصًّا بالمستنصر ابن الناصر المرواني، وله ألف كتاب " تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان " وفيه من ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه، وكان مطرف الإشبيلي في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن، إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه للزندقة بسبب اعتكافه على هذا الشأن

فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف.

* * *

٨ - رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس

ثم قال ابن سعيد: أخبرني والدي قال: كنت يوماً في مجلس صاحب سبتة أبي يحيى ابن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن، فجرى بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى ابن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين، فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يذكر بر العدوة، ولا سارت عنه فضيلة، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم، فقال الأمير أبو يحيى: أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم بربر فقال: حاشا لله! فقال الأمير: والله ما أردت غير هذا، فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم: أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدوة فقال الأمير: الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بره، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً، وأرجو إذا أخليتما له فكركما يصدر عنكما ما يحسن تخليده، ففعلا ذلك: فكانت رسالة الشقندي: الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس أن يتكلم ملء فيه، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يثنيه، إذ لا يقال للنهار: يا مظلم، ولا لوجه النعيم: يا قبيح.

وقد وجدت مكان القول ذا سعةٍ... فإن وجدت لساناً قائلاً فقل أحمده على أن جعلني ممن أنشأته، وحباني بأن كنت ممن أظهرته، فامتد في الفخر باعي، وأعانني على الفضائل كرم طباعي، وأصلي على سيدنا محمد نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه الأكرمين، وأسلم تسليماً.

أما بعد؛ فإنه حرك مني ساكناً، وملأ مني فارغاً، فخرجت عن سجيتي في الإغضاء، مكرهاً إلى الحمية والإباء، منازعٌ في فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع، ويأتي بما لا تقبله النواظر والأسماع، إذ من رأى ومن سمع لا يجوز

عنده ذلك، ولا يضله من تاه في تلك المسالك، رام أن يفضل بر العدوة على بر الأندلس فرام أن يفضل على اليمين اليسار، ويقول: الليل أضوأ من النهار، فيا عجبا! كيف قابل العوالي بالزجاج، وصادم الصفاة بالزجاج، فيا من نفخ في غير ضرم، ورام صيد البزاة بالرخم، كيف تتكثر بما جعله الله قليلاً، وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلاً وكيف تبدي أمام الفتاة العجوز سل العيون إلى وجه من تميل واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغي لشتّان ما بين اليزيدين في النّدى... يزيد سليم والأغرّ ابن حاتم اقن حياءك أيها المغرد بالنحيب، المتزين بالخلق المتحبب إلى الغواني بالمشيب الخضيب، أين عزب عقلك وكيف نكص على عقبه فهمك ولبك أبلغت العصبية من قلبك، أن تطمس على نوري بصرك ولبك أما قولك " الملوك منا " فقد كان الملوك منا أيضاً، وما نحن إلا كما قال الشاعر:

فيــــومٌ علينـــا ويــــومٌ لنــــا ::: ويــــومٌ نســـاء ويــــومٌ نســـرّ

إن كان الآن كرسي جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن، أدامها الله تعالى، فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول مشرقوهم:

وإنّـــي مـــن قـــوم كـــرام أعـــزّة ::: لأقـــدامهم صـــيغت رؤوس المنـــابر
خلائف في الإســـلام في الشـــرك قـــادة ::: بهـــم وإلـــيهم فخـــر كـــلّ مفـــاخر

ويقول مغربوهم:

ألســـنا بـــني مـــروان كيـــف تبـــدلت ::: بنـــا الحـــال أو دارت علينـــا الـــدوائر
إذا ولـــد المولـــود منّـــا تهلّلـــت ::: لـــه الأرض واهتـــزّت إليـــه المنـــابر

وقد نشأ في مدتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق، وصار أثبت في صحائف الأيام، من الأطواق في أعناق الحمام:

وسار مسير الشـــمس في كـــلّ بلـــدةٍ ::: وهبّ هبوب الـــريح في الـــبرّ والبحـــر

ولم تزل ملوكهم في الاتساق كما قيل:

إنّ الخلافـــة فـــيكم لم تـــزل نســـقاً ::: كالعقـــد منظومـــة فيـــه فرائـــده

إلـى أن حكـم الله بنثـر سـلكهم، وذهـاب ملكهـم، فـذهبوا وذهبـت أخبـارهم، ودرسوا ودرست آثارهم:

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهـم ::: بعد الممـات جمـال الكتـب والسّـير

فكم مكرمة أنالوها، وكم عثرة أقالوها:

وإنّمـا المـرء حـديثٌ بعـده ::: فكـن حـديثاً حسـناً لمـن وعـى

وكان من حسنات ملكهم المنصور ابن أبي عامر، وما أدراك! الذي بلغ في بلاد النصارى غازياً إلى البحر الأخضر، ولم يترك أسيراً في بلادهم من المسلمين، ولم يبرح في جيش الهرقل وعزمة الإسكندر، ولما قضى نحبه كتب على قبره:

آثـاره تنبيـك عـن أوصـافه ::: حتّـى كأنّـك بالعيـان تـراه
تـالله لا يـأتي الزّمـان بمثلـه ::: أبـداً ولا يحمـي الثغـور سـواه

وقد قيل فيه من الأمداح، وألف له من الكتب، ما سمعت وعلمت، حتى قصد من بغداد، وعم خيره وشره أقاصي البلاد، ولما ثار بعد انتثار هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا في البلاد، كان في تفرقهم اجتماعٌ على النعم لفضلاء العباد، إذ نفقوا سوق العلوم، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم، فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول: العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني، وليس منهم إلا من بذل وسعه في المكارم، ونبهت الأمداح من مآثره ما ليس طول الدهر بنائم، وقد سمعت ما كان من الفتيان العامرية مجاهد ومنذر وخيران، وسمعت عن الملوك العربية: بنو عباد وبنو صمادح وبنو الأفطس وبنو ذي النون وبنو هود، كل منهم قد خلد فيه من الأمداح، ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح، ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف أن لا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار وأن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سطوته

وإفراط هيبته كلفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شرطه في قسمه، ومن أعظم ما يحكى من المكارم التي لم نسمع لها أختاً أن أبا غالب اللغوي ألف كتاباً، فبذل له مجاهد العامري ملك دانية ألف دينار ومركوباً وكسًى على أن يجعل الكتاب باسمه، فلم يقبل ذلك أبو غالب، وقال: كتاب ألفته لينتفع به الناس، وأخلد فيه همتي، أجعل في صدره اسم غيري، وأصرف الفخر له، لا أفعل ذلك، فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن أنفته وهمته، وأضعف له العطاء، وقال: هو في حلٍ من أن يذكرني فيه، لا نصده عن غرضه. وإن كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا في ملاءة الحضر، فإني أخص منهم بني عباد، كما قال الله تعالى:{فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ﴿٦٨﴾} [الرحمن: ٦٨] فإن الأيام لم تزل بهم كأعياد، وكان لهم من الحنو على الأدب، ما لم يقم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر، مشاركين في فنون العلم، وآثارهم مذكورة، وأخبارهم مشهورة، وقد خلدوا من المكارم التامة، ما هو متردد في ألسن الخاصة والعامة، وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية، أبسقوت الحاجب أم بصالح البر غواطي أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً، ولا رفعوا لملكه قدرا وبعدما ذكروه بوساطة المعتمد بن عباد فإن المعتمد قال له، وقد أنشدوه أيعلم أمير المسلمين ما قالوه قال: لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها:

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ::: شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ::: سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارئ:

يطلب منا جواري سوداً وبيضاً، قال: لا يا مولانا، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن الليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن

أيام الحزن ليالٍ سود، فقال: والله جيد، اكتب له في جوابه: إن دموعنا تجري عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده، فليت العباس بن الأحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق:

ولا تنكرن مهما رأيت مقدماً ::: على حمرٍ بغلاً فثمّ تناسب

فاسكتوا فلولا هذه الدولة، لما كان لكم على الناس صولة:

وإن الورد يقطف من قتاد ::: وإنّ النار تقبس من رماد

وإنك إن تعرضت للمفاضلة بالعلماء فأخبرني: هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يعمل بأقواله إلى الآن، ومثل أبي الوليد الباجي، ومثل أبي بكر ابن العربي، ومثل أبي الوليد ابن رشد الأكبر، ومثل أبي الوليد ابن رشد الأصغر، وهو ابن ابن الأكبر، نجوم الإسلام، ومصابيح شريعة محمد عليه السلام، وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد ابن حزم الذي زهد في الوزارة والمال ومال إلى رتبة العلم، ورآها فوق كل رتبة، وقال وقد أحرقت كتبه:

دعوني من إحراق رقّ وكاغدٍ ::: وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ::: تضمنه القرطاس، إذ هو في صدري

ومثل أبي عمر ابن عبد البر صاحب " الاستذكار " و " التمهيد " ومثل أبي بكر ابن الجد حافظ الأندلس في هذه الدولة، وهل لكم في حفاظ اللغة كابن سيده صاحب كتاب " المحكم " وكتاب " السماء والعالم " الذي إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته، وهل لكم في النحو مثل أبي محمد ابن السيد وتصانيفه ومثل ابن الطراوة، ومثل أبي علي الشلوبين الذي بين أظهرنا الآن، وقد سار في المغارب والمشارق ذكره، وهل لكم في علوم اللحون والفلسفة كابن باجة، وهل لكم في علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة، فإنه كان في ذلك آية وهل لكم في الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة " حي بن يقظان " المقدم في علم الفلسفة، ومثل بني زهر أبي العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبي بكر ثلاثة على نسق وهل لكم في علم التاريخ كابن

حيان صاحب " المتين " و " المقتبس " وهل عندكم في رؤساء علم الأدب مثل أبي عمر بن عبد ربه صاحب " العقد " و هل لكم في الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد في حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب " الذخيرة " وهب أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيسة في البيت الفارغ و هل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عبيد الله الذي إن مدح رفع، وإن ذم وضع، وقد ظهر له من ذلك في كتاب " القلائد " ما هو أعدل شاهد، ومثل ابن أبي الخصال في ترسيله، ومثل أبي الحسن سهل بن مالك الذي بين أظهرنا الآن في خطبه، و هل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد ابن عباد في قوله:

وليل بسدّ النهر أنساً قطعته ::: بذات سوارٍ مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بانٍ منعم ::: فيا حسن ما انشقّ الكمام عن الزهر

وقوله في أبيه:

سميدعٌ يهب الآلاف مبتدئًا ::: وبعد ذلك يلفى وهو يعتذر
له يدٌ كلّ جبّار يقبّلها ::: لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ومثل ابنه الراضي في قوله:

مرّوا بنا أصلاً من غير ميعاد ::: فأوقدوا نار قلبي أيّ إيقاد
لا غرو إن زاد في وجدي مرورهم ::: فرؤية الماء تذكي غلّة الصادي

وهل لكم ملك ألف في فنون الآداب كتاباً في نحو مائة مجلدة مثل المظفر ابن الأفطس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب و هل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل، وأحب إلى الأسماع من لقاء حبيب وصل التي منها:

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم ::: لمّا رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كماتهم ::: لمّا رأيت الحسن يلبس أحمرا

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يقل مع طولها في النسيب أرق منها، وهي التي يقول فيها:

كأنّنا لم نبت والوصل ثالثنا ::: والسّعد قد غضّ من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظّلماء يكتمنا ::: حتّى يكاد لسان الصبح يفشينا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد وإصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي:

إذا ظفرت منك المطيّ بنظرة ::: أثاب بها معيي المطيّ ورازمه

فارتجل:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنّما ::: تجيد العطايا واللّها تفتح اللّها
تنبأ عجباً بالقريض ولو درى ::: بأنّك تروي شعره لتؤلّها

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي " هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام " الذي إن مدح الملوك قال مثل قوله:

ألم تعلمي أنّ الثّواء هو الثّوى ::: وأنّ بيوت العاجزين قبور
وأنّ خطيرات المهالك ضمّنٌ ::: براكبها أنّ الجزاء خطير
تخوّفني طول السّفار وإنّه ::: بتقبيل كفّ العامريّ جدير
مجير الهدى والدين من كلّ ملحدٍ ::: وليس عليه للضّلال مجير
تلاقت عليه من تميم ويعربٍ ::: شموسٌ تلاقت في العلا وبدور
هم يستقلّون الحياة لراغبٍ ::: ويستصغرون الخطب وهو كبير
ولّما توافوا للسّلام ورفّعتً ::: عن الشمس في أفق الشروق ستور
وقد قام من زرق الأسنّة دونها ::: صفوفٌ ومن بيض السيوف سطور
رأوا ساعة الرحمن كيف اعتزازها ::: وآيات صنع الله كيف تنير
وكيف استوى بالبرّ والبحر مجلسٌ ::: وقام بعبء الراسيات سرير
فجاؤوا عجالاً والقلوب خوافقٌ ::: وولّوا بطاء والنواظر صور
يقولون والإجلال يخرس ألسناً ::: وحازت عيون ملأها وصدور
لقد حاط أعلام الهدى بك حائطٌ ::: وقدّر فيك المكرمات قدير

وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات، من غرائب الآيات، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلى به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر.

وإن ذكر الغرب عن الأوطان، ومكابدة نوائب الزمان، قال:

قالت وقد مزج الفراق مدامعاً ::: بمدامع وترائباً بترائب
أتفّرقٌ حتى بمنزل غربة ::: كم نحن للأيّام نهبة ناهب
ولئن جنيت عليها ترحة راحلٍ ::: فأنا الزعيم لها بفرحة آيب
هل أبصرت عيناك بدراً طالعاً ::: في الأفق إلاّ من هلالٍ غارب

وإن شبه قال:

كمعاقلٍ من سوسنٍ قد شيّدت ::: أيدي الربيع بناءها فوق القضب
شرفاتها من فضّة وحماتها ::: حول الأمير لهم سيوف من ذهب

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة فاستنبط ما يسحر به السحر، ويطيب به الزهر، وهو أبو عمر بن فرج في قوله:

وطائعة الوصال عففت عنها ::: وما الشّيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرةً فباتت ::: دياجي اللّيل سافرة القناع
وما من لحظةٍ إلاّ وفيها ::: إلى فتن القلوب لها دواعي
فملّكت النّهى جمحات شوقي ::: لأجري في العفاف على طباعي
وبتّ بها مبيت السّقب يظما ::: فيمنعه الكعام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثلي ::: سوى نظر وشمٍّ من متاع
ولست من السوائم مهملات ::: فأتّخذ الرياض من المراعي

وهل بلغ أحد من مشبهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللمائي:

عارضٌ أقبل في جنح الدّجى ::: يتهادى كتهادي ذي الوجى
بدّدت ريح الصّبا لؤلؤه ::: فانبرى يوقد عنها سرجا

ومثل قول أبي حفص بن برد:

وكأنّ الليل حين لوى ::: ذاهباً والصبح قد لاحا
كلّةٌ سوداء أحرقها ::: عامدٌ أسرج مصباحا

وهل منكم من وصف ما تحدثه الخمرة من الحمرة على الوجنة بمثل قول الشريف الطليق:

أصـــبحت شمســـاً وفـــوه مغربـــا ::: ويـــد الســـاقي المحيّـــي مشـــرقا
وإذا مـــا غربـــت في فمـــه ::: تركـــت في الخـــدّ منـــه شـــفقا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ويفخر كل إنسان.

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس:

سمـــوت إليهـــا بعـــدما نـــام أهلـــها ::: سموّ حباب المـاء حـالاً علـى حـال

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار، واستلبه بلطفٍ استلاب ثغر الشمس لرضاب طل الأسحار، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالأرواح، ويغني في الارتياح عن شراب الراح وهو ابن شهيد في قوله:

ولّمـــا تمـــلأّ مـــن ســـكره ::: ونـــام ونامـــت عيـــون الحـــرس
دنـــوت إليـــه علـــى رقبـــةٍ ::: دنـــوّ رفيـــقٍ درى مـــا الـــتمس
أدبّ إليـــه دبيـــب الكـــرى ::: وأسمـــوا إليـــه سمـــوّ الـــنفس
أقبـــل منـــه بيـــاض الطّلـــى ::: وأرشـــف منـــه ســـواد اللّعـــس
فبـــتّ بـــه لـــيلتي ناعمـــاً ::: إلى أن تبســـم ثغـــر الغلـــس

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه فعارض الصهيل بالنهاق، وقابل العذب بالزعاق، فقال وليته سكت:

ونفضتّ عنّي العين أقبلت مشـية الـــ ::: حبـــاب وركـــني خيفـــة القـــوم
أزور وأنا أقسم لو زار جملٌ محبوبـة لـه ::: لكان ألطف في الزيارة من هـذا الأزور

الركن المنفض للعيون، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله:

قالـــت لقـــد أعييتنـــا حجّـــة ::: فـــأت إذا مـــا هجـــع الســـاهر
واســـقط علينـــا كســـقوط النـــدى ::: ليلـــــة لا نـــــاهٍ ولا زاجـــــر

ولله در محمد ابن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصراً المتقدمين قدراً، حيث نقل السعي إلى محبوبته فقال وليته لم يزل يقول مثل هذا، فبمثله ينبغي أن يتكلم، ومثله يليق أن يدون:

وواعـــدها والشـــمس تجـــنح للنّـــوى ::: بزورها شمساً وبـدر الـدّجى يسـري
فجاءت كما يمشي سنا الصبح في الدّجى ::: وطوراً كما مرّ النسـيم علـى النّهـر

فعطّرت الآفاق حولي فأشعرت ::: بمقدمها والعرف يشعر بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها ::: كما يتقصّى قارئٌ أحرف السطر
فبتّ بها والليل قد نام والهوى ::: تنبّه بين الغصن والحقف والبدر
أعانقها طوراً وألثم تارةً ::: إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضّت عقوداً للتعانق بيننا ::: فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر

وهل منكم من قيد بالإحسان فأطلق لسانه الشكر، فقال وهو ابن اللبانة:

بنفسي وأهلي جيرةٌ ما استعنتهم ::: على الدّهر إلا وانثنيت معانا
أراشوا جناحي ثمّ بلّوه بالنّدى ::: فلم أستطع من أرضهم طيرانا

ومن يقول لقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده منه من الإحسان، فقابل ذلك بقطع مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وضاح:

هل كنت إلاّ طائراً بثنائكم ::: في دوح مجدكم أقوم وأقعد
إن تسلبوني ريشكم وتقلّصوا ::: عنّي ظلالكم فكيف أغرّد

وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجّوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاح، وتشبيه الزهر بالنجوم، وتشبيه الخدود بالشقائق، فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع يصير خلقه في الأسماع جديداً، وكليله في الأفكار حديداً، فأغرب أحسن إغراب، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب، وهو ابن الزقاق:

وأغيدٍ طاف بالكؤوس ضحى ::: وحثّها والصّباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه ::: وآسه العنبريّ قد نفحا
قلنا: وأين الأقاح قال لنا ::: أودعته ثغر من سقى القدحا
فظلّ ساقي المدام يجحد ما ::: قال فلما تبسّم افتضحا

وقال:

أديراها على الروض المندّى ::: وحكم الصبح في الظّلماء ماضي
وكأس الرّاح تنظر عن حبابٍ ::: ينوب لنا عن الحدق المراض
وما غلبت نجوم الأفق لكنْ ::: نقلن من السماء إلى الرّياض

وقال:

وريــاضٍ مــن الشــقائق أضــحت ::: يتــهادى بهــا نســيم الريـــاح
زرتهــا والغمـــام يجلــد منـــها ::: زهــرات تــروق لــون الـــراح
قلــت مــا ذنبــها فقــال مجيبــاً ::: ســرقت حمــرة الخــدود المــلاح

فـانظر كيـف زاحـم بهـذا الاختيـال المختـرعين وكيـف سـابق بهـذا اللفـظ المبتدعين و هل منكم من برع في أو صاف الر ياض والمياه و ما يتعلق بذلك فانتهى إلى راية السباق، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق، و هو أبو إسحاق ابن خفاجة القائل:

وعشـــيّ أنـــسٍ أضـــجعتنا نشـــوةٌ ::: فيهـــا يمهّـــد مضـــجعي ويـــدمّث
خلعـــت علـــيّ بهـــا الأراكـــة ظلّهـــا ::: والغصـــن يصـــغي والحمـــام يحـــدّث
والشـــمس تجـــنح للغـــروب مريضـــةً ::: والرّعـــد يرقـــي والغمامـــة تنفـــث

والقائل:

لله نهـــرٌ ســـال في بطحـــاء ::: أشـــهى وروداً مـــن لمـــى الحســـناء
متعطّـــفٌ مثـــل السّـــوار كأنّـــه ::: والزهـــر يكنفـــه مجـــرّ سمـــاء
قـــد رقّ حـــتى ظـــنّ قرصـــاً مفرغـــاً ::: مـــن فضـــةٍ في بـــردة خضـــراء
وغدت تحـــفّ بـــه الغصـــون كأنّهـــا ::: هـــدبٌ تحـــف بمقلـــةٍ زرقـــاء
ولطالمـــا أعطيـــت فيـــه مدامـــةً ::: صـــفراء تخضـــب أيـــدي النـــدماء
والريح تعبث بالغصـــون وقـــد جـــرى ::: ذهـــب الأصـــيل علـــى لجـــين المـــاء

والقائل:

حـــثّ المدامـــة والنّســـيم عليـــل ::: والظـــلّ خفـــاق الـــرواق ظليـــل
والـــرّوض مهتـــزّ المعـــاطف نعمـــةً ::: نشـــوان تعطفـــه الصّـــبا فيميـــل
ريّـــان فضّضـــه النـــدى ثمّ انجلـــى ::: عنـــه فـــذهّب صـــفحتيه أصـــيل

والقائل:

أذن الغمـــام بديمـــةٍ وعقـــار ::: فـــامزج لجينـــاً منـــهما بنضـــار
واربع علـــى حكـــم الربيـــع بـــأجرعٍ ::: هـــزج النـــدامى مفصـــح الأطيـــار
متقسّـــم الألحـــاظ بـــين محاســـنٍ ::: مـــن ردف رابيـــةٍ وخصـــر قـــرار
نثرت بحجر الروض فيـــه يـــد الصّـــباً ::: درر النـــدى ودراهـــم الأنـــوار

وهفــت بتغريــدٍ هنالــك أيكــةٌ ::: خفّاقــةٌ بمهــبّ ريــح عــرار
هــزّت لــه أعطافــه ولربّمــا ::: خلعــت عليــه مــلاءة النــوّار

والقائل:

ســقياً لهــا مــن بطــاح خــزٍّ ::: ودوح نهــرٍ بهــا مطــلّ
إذ لا تــرى غــير وجــه شمــسٍ ::: أطــلّ فيــه عــذار ظــلّ القائــل
نهــرٌ كمــا ســال اللّمــى سلســالٌ ::: وصــباً بليــلٌ ذيلــها مكســال
وهــبّ نفحــة ليلــةٍ مطلولــةٍ ::: في جانبيهــا للنّســيم مجــال
غازلتــها والأقحوانــة مبســمٌ ::: والآس صــدغٌ والبنفســج خــال

والقائل:

وساقٍ كحيل اللّحظ في شأو حسنه ::: جماحٌ وبالصبر الجميل حران
ترىً للصبا ناراً بخدّيه لم يثر ::: لها من سوادي عارضيه دخان
سقاها وقد لاح الهلال عشيةً ::: كما اعوجّ في درع الكميّ سنان
عقاراً نماها الكرم فهي كريمةٌ ::: ولم تزن بابن المزن فهي حصان
وقد جال من جون الغمامة أدهمٌ ::: له البرق سوطٌ والشّمال عنان
وضمّخ ردع الشمس نحر حديقةٍ ::: عليه من الطّلّ السقيط جمان
ونمّت بأسرار الرّياض خميلةٌ ::: لها النّور ثغرٌ والنسيم لسان

والقائل في وصف فرس ولم يخرج عن طريقته:

وأشــقرٍ تضــرم منــه الــوغى ::: بشــعلةٍ مــن شــعل البــاس
مــن جلّنــارٍ ناضــرٍ لونــه ::: وأذنــه مــن ورق الآس
يطلــع للغــرّة في شــقرةٍ ::: حبابــةً تضــحك في كــاس

وهل منكم من يقول منادماً لنديمه وقد باكر روضاً بمحبوب وكأس، فألفاه قد غطى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك، وهو أبو الحسن بن بسام:

ألا بــادر فمــا ثــانٍ ســوى مــا ::: عهــدت الكــأس والبــدر التمــام
ولا تكســل برؤيتــه ضــباباً ::: تغــصّ بــه الحديقــة والمــدام
فــإن الــرّوض ملــثمٌ إلى أن ::: توافيــه فيــنحطّ اللثــام

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي:

قالوا وقـد أكثـروا في حبّـه عـذلي ::: لـو لم تهـم بمـذال القـدر مبتـذل
فقلت لو كـان أمـري في الصـبابة لي ::: لاخترت ذاك، ولكن لـيس ذالـك لي
علّقتـه حـبيّ الثّغـر عـاطره ::: حلو اللمى سـاحر الأجفـان والمقـل
غزيّـلٌ لم تـزل في الغـزل جائلـةً ::: بنانـه جـولان الفكـر في الغـزل
جـذلان تلعـب بـالحواك أنملـه ::: على السّـدى لعـب الأيّـام بالأمـل
ضـمّاً بكفّيـه أو فحصـاً بأخمصـه ::: تخـبّط الظـبي في أشـراك محتبـل

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل:

وعشـيٍّ رائـقٍ منظـره ::: قد قطعنـاه علـى صـرف الشّـمول
وكـأنّ الشّـمسَ في أثنائـه ::: ألصـقت بـالأرض خـدّاً للنـزول
والصّـبا ترفـع أذيـال الـرّبى ::: ومحيّـا الجـوّ كالنـهر الصـقيل
حبّـذا منـزلنا مغتبقـاً ::: حيـث لا يطرقنـا غـير الهـديل
طـائرٌ شـادٍ وغصـنٌ منـثنٍ ::: والـدجى تشـرب صـهباء الأصـيل

وهل منكم من يقول في موشح فيما يجره هذا المعنى:

ورداء الأصـيل ::: تطويـه كـفّ الظـلام

وهو أبو قاسم ابن الفرس.

وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول ابن خروف:

ومنـزع الحركـات يلعـب بـالنّهى ::: لـبس المحاسـن عنـد خلـع لباسـه
متـأوّداً كالغصـن وسـط رياضـه ::: متلاعبـاً كـالظبي عنـد كناسـه
بالعقـل يلعـب مقـبلاً أو مـدبراً ::: كالدهر يلعـب كيـف شـاء بناسـه
ويضـمّ للقـدمين منـه رأسـه ::: كالسـيف ضـمّ ذبابـه لرئاسـه

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار:

ألـوّامي علـى كلفـي بـيحيى ::: مـتى مـن حبّـه أرجـو سـراحا
وبـين الخـدّ والشـفتين خـالٌ ::: كزنجـيّ أتـى روضـاً صـباحا
تحيّـر في جنـاه فلـيس يـدري ::: أيجـني الـورد أم يجـني الأقاحـا

وهل منكم من اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخد ورشف رضاب الثغر لم يهتد إليه أحد غيره، وهو أبو الحسن سلام بن سلام المالقي في قوله:

لّما ظفرت بليلةٍ من وصله ::: والصبّ غير الوصل لا يشفيه
أنضجت وردة خدّه بتنفسي ::: وطفقت أرشف ماءها من فيه

وهل منكم من هجا من غير النطق بإقذاع فبلغ ما لم يبلغه المقذع، وهو المخزومي في قوله:

يودّ عيسى نزول عيسى ::: عساه من دائه يريح
وموضع الداء منه عضوٌ ::: لا يرتضي مسّه المسيح

ولمّا أقذع أتى أيضاً بأبدع، فقال:

يا فارس الخيل ولا فارسٌ ::: إلا على متن الجواد الخصى
زدت على موسى وآياته ::: تفجّر الماء وتخفي العصا

وهل منكم من مدح بمعنى فبلغ به النهاية من المدح، ثم نقله إلى الهجاء فبلغ به النهاية من الذم، وهو اليكي في قوله مادحاً:

قومٌ لهم شرف العلا في حمير ::: وإذا انتموا لمتونةً فهم هم
لّما حووا أحراز كلّ فضيلةٍ ::: غلب الحياء عليهم فتلثّموا

وفي قوله هاجياً:

إن المرابط باخلٌ بنواله ::: لكنّه بعياله يتكرم
الوجه من مخلّقٌ بقبيح ما ::: يأتيه فهم من أجله يتلثم

وهل منكم من هجا أشتر العين بمثل قول أبي العباس بن حنون الإشبيلي:

يا طلعةً أبدت قبائح جمّةً ::: فالكلّ منها إن نظرت قبيح
أبعينك الشتراء عينٌ ثرّةٌ ::: منها ترقرق دمعها المسفوح
شترت فقلنا زورق في لجّة ::: مالت بإحدى دفّتيه الريح
وكأنّما إنسانها ملاّحها ::: قد خاف منغرقٍ فظلّ يصيح

وهل منكم من حضر مع عدوٍ له جاحدٍ لما فعله معه من الخير، وأمامهما

زجاجة سوداء فيها خمر، فقال له الحسود المذكور: إن كنت شاعراً فقل في هذه، فقال ارتجالاً، وهو ابن مجبر:

سأشكو إلى الندمان أمر زجاجةٍ ::: تردّت بثوب حالك اللون أسحم
نصبّ بها شمس المدامة بيننا ::: فتغرب في جًنحٍ من الليل مظلم
وتجحد أنوار الحميّا بلونها ::: كقلب حسودٍ جاحدٍ يد منعم

وهل منكم من قال لفاضل جمع بينه وبين فاضل، وهو أبو جعفر الذهبي:

أيّها الفاضل الذي قد هداني ::: نحو من قد حمدته باختبار
شكر الله ما أتيت وجازا ::: ك ولا زلت نجم هدى لساري
أيّ برقٍ أفاد أيّ غمامٍ ::: وصباح أدى لضوء نهار
وإذا ما غدا النسيم دليلي ::: لم يحلني إلا على الأزهار

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره وسواد شعره، وهو التطيلي:

أما اشتفت منّي الأيام في وطني ::: حتى تضايق فيما عنّ من وطري
ولا قضت من سواد العين حاجتها ::: حتى تكرّ على ما طلّ في الشّعر

وهل منكم الذي طار في مشارق الأرض ومغاربها قوله، وهو أبو القاسم محمد بن هانئ الإلبيري:

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر ::: وأمدكم فلق الصّباح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً ::: بالنصر من ورق الحديد الأخضر

وقد سمعت فائتيه في النجوم، ولولا طولها لأنشدتها هنا، فأنها أحسن ما قيل في معناها.

وهل منكم من قال في الزهد مثل قول أبي الوهب العباسي القرطبي:

أنا في حالتي التي قد تراني ::: إن تأملت أحسن الماس حالاً
منزلي حيث شئت من مستقرّ الـ ::: أرض أسقى من المياه زلالا
ليس لي كسوةٌ أخاف عليها ::: من مغيرٍ ولا ترى لي مالا
أجعل الساعد اليمين وسادي ::: ثم أثنى إذا انقلبت الشمالا
ليس لي والدٌ ولا لي مولو ::: دٌ ولا حزت مذ عقلت عيالا

قد تلذّذت حقبةً بأمورٍ ::: فتأمّلتها فكانت خيالا

وإن تعرضت إلى ذكر البلاد، وتفسير محاسنها، وما خصها الله تعالى به مما حرمها غيرها، فاسمع ما يميت الحسود كمداً:

أما إشبيلية فمن محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المباني، وتزيين الخارج والداخل، وتمكن التمصر، حتى إن العامة تقول: لو طلب لبن الطير في إشبيلية وجد، ونهرها الأعظم الذي يصعد المد فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر، وفيه يقول ابن سفر:

شقّ النسيم عليه جيب قميصه ::: فانساب من شطّيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ::: هزءاً فضمّ من الحياء إزاره

وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطرزتين بالمنازه والبساتين والكروم والأنشام متصل ذلك اتصالاً لا يوجد على غيره.

* * *

شعراء اليهود

١ - وقال نسيم الإسرائيلي:

يا ليتني كنت طيراً ::: أطير حتى أراكا
بمن تبدّلت غيري ::: أو لم تحل عن هواكا

هو شاعر ووشاح أهل إشبيلية، وذكره الحجاري في المسهب.

٢ - وقال إبراهيم بن سهل الإسرائيلي في أصفر ارتجالاً:

كان محيّاك له بهجة ::: حتى إذا جاءك ماحي الجمال
أصبحت كالشمعة لما خبا ::: منها الضياء اسودّ فيها الذّبال

وهو شاعر إشبيلية ووشاحها، وقرأ على أبي علي الشلوبين وابن الدباج وغيرهما، وقال العزّ في حقه، وكان أظهر الإسلام، ما صورته: كان يتظاهر بالإسلام، ولا يخلو مع ذلك من قدح واتهام، انتهى. وسئل بعض المغاربة عن

السبب في رقة نظم ابن سهل، فقال: لأنه اجتمع فيه ذلان: ذل العشق، وذل اليهودية. ولما غرق قال فيه بعض الأكابر: عاد الدر إلى وطنه. ومن نظم ابن سهل المذكور قوله:

وألمى بقلبي منه جمرٌ مؤجّجٌ ::: تراه على خدّيه يندى ويبرد
يسائلني من أي دين مداعباً ::: وشمل اعتقادي في هواه مبدّد
فؤادي حنيفي، ولكنّ مقلتي ::: مجوسية من خدّه النار تعبد ومنه

ومنه قوله:

هذا أبو بكر يقود بوجهه ::: جيش الفتور مطرّز الرايات
أهدى ربيع عذاره لقلوبنا ::: حرّ المصيف فشبّها لفحات
خدٌّ جرى ماء النعيم بجمره ::: فاسودّ مجرى الماء في الجمرات

وذكر الحافظ أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري في رحلته الكبيرة القدر والجرم المسماة بـ " ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة " خلافاً في إسلام ابن سهل باطناً، وكتب على هامش هذا الكلام الخطيب العلامة سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق ما نصه: صحح لنا من أدركناه من أشياخنا أنه مات على دين الإسلام، انتهى.

ورأيت في بعض كتب الأدب بالمغرب أنه اجتمع جماعة مع ابن سهل في مجلس أنس، فسألوه لما أخذت منه الراح عن إسلامه: هل هو في الظاهر والباطن أم لا فأجابهم بقوله: للناس ما ظهر، ولله ما استتر، انتهى.

واستدل بعضهم على صحة إسلامه بقوله:

تسلّيت عن موسى بحبّ محمدٍ ::: هديت ولولا الله ما كنت أهتدي
وما عن قلًى قد كان ذاك، وإنّما ::: شريعة موسى عطّلت بمحمد

وله ديوان كبير مشهور بالمغرب، حاز به قصب السبق في النظم والتوشيح.

وما أحسن قوله من قصيدة:

تأمّل لظى شوقي وموسى يشبّها ::: تجد خير نار عندها خير موقد

وأنشد بعضهم له قوله:

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلي ::: فأسقيتني بالبعد فاتحة الرعد
فبالله برّد ما بقلبي من الجوى ::: بفاتحة الأعراف من ريقك الشهد

وقال الراعي رحمه الله تعالى: سمعت شيخنا أبا الحسن علي بن سمعة الأندلسي رحمه الله تعالى يقول: شيئان لا يصحان: إسلام إبراهيم بن سهل، وتوبة الزمخشري من الاعتزال، ثم قال الراعي: قلت: وهما في مروياتي، أما إسلام إبراهيم بن سهل فيغلب على ظني صحته لعلمي بروايته، وأما الثاني - وهو توبة الزمخشري - فقد ذكر بعضهم أنه رأى رسماً بالبلاد المشرقية محكوماً فيه يتضمن توبة الزمخشري من الاعتزال فقوي جانب الرواية، انتهى باختصار.

وقال الراعي أيضاً ما نصه: وقد نكت الأديب البارع إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الأندلسي على الشيخ أبي القاسم في تغزله حيث قال:

أموسى أيا بعضي وكلّي حقيقة ::: وليس مجازاً قولي الكلّ والبعضا
خفضت مكاني إذ جزمت وسائلي ::: فكيف جمعت الجزم عندي والخفضا

وفي هذا دليل على أن يهود الأندلس كانوا يشتغلون بعلم العربية، فإن إبراهيم قال هذين البيتين قبل إسلامه، والله تعالى أعلم. وقد روينا أنه مات مسلماً غريقاً في البحر، فإنه كان حقاً فالله تعالى رزقه الإسلام في آخر عمره والشهادة، انتهى.

ومن نظم ابن سهل في التوجيه باصطلاح النحاة قوله:

رفعت عوامله وأحسب رتبتي ::: بنيت على خفض فلن تتغيرا

ومنه:

تنأى وتدنو والتفاتك واحدٌ ::: كالفعل يعمل ظاهراً ومقدّرا

وقوله:

إذا كـــان نصـــر الله وقفـــاً علـــيكم ::: فإنّ العـــدا التنـــوين يحذفـــه الوقـــف

وقوله:

ليـــتني نلـــت منـــه وصـــلاً وأجلـــي ::: ذلك الوصـــل عـــن صـــباح المنـــون
وقرأنـــا بـــاب المضـــاف عناقـــاً ::: وحـــذفنا الرقيـــب كـــالتنوين

وقوله:

بنيـــت بنـــاء الحـــرف خـــامر طبعـــه ::: فصـــار لتـــأثير العوامـــل مانعـــا

وقوله:

لك الثنـــاء فـــإن يـــذكر ســـواك بـــه ::: يومـــاً فكـــالرابع المعهـــود في البـــدل

يعني الغلط، وقوله:

إذا اليأس ناجى النفس منـــك بلـــن ولا ::: أجابـــت ظنـــوني ربّمـــا وعســـاني

وقوله:

وقلـــت عســـاه إن أقمـــت يـــرقّ لي ::: وقد نسخت لا عنده ما اقتضت عســـى

وقوله:

ينفـــــي لي الحـــــال ولكنّـــــه ::: يـــــدخل لا في كـــــل مســـــتقبل

وقوله:

خفضت مقـــامي إذ جزمـــت وســـائلي ::: فكيف جمعت الجزم عنـــدي والخفضـــا

وقوله في غلام شاعر:

كيف خـــلاص القلـــب مـــن شـــاعرٍ ::: رقـــت معانيـــه عـــن النّقـــد
يصـــغر نثـــر الـــدرّ عـــن نثـــرهً ::: ونظمـــه جـــلّ عـــن العقـــد

وشعره الطائل في حسنه... طال على النابغة الجعدي وحدث أبو حيان عن قاضي القضاة أبي بكر محمد بن أبي نصر الفتح بن علي الأنصاري الإشبيلي بغرناطة أن إبراهيم بن سهل الشاعر الإشبيلي كان يهودياً ثم أسلم، ومدح رسول الله بقصيدة طويلة بارعة، قال أبو حيان: وقفت عليها، وهي من أبدع ما نظم في معناها، وكان سن ابن سهل حين غرق نحو الأربعين سنة، وذلك

سنة تسع وأربعين وستمائة، وقيل: إنه جاوز الأربعين، وكان يقرأ مع المسلمين ويخالطهم، وما أحسن قوله:

مضى الوصل إلاّ منية تبعث الأسى ::: أداري بها همّي إذا الليل عسعسا
أتاني حديث الوصل زوراً على النوى ::: أعد ذلك الزور اللّذيذ المؤنسا
ويا أيّها الشوق الذي جاء زائراً ::: أصبت الأماني خذ قلوباً وأنفسا
كساني موسى من سقام جفونه ::: رداء وسقّاني من الحبّ أكؤسا

ومن أشهر موشحاته قوله:

ليل الهوى يقظان ::: والحبّ ترب السّهر
والصبر لي خوّان ::: والنوم عن عيني بري

وقد عارضه غير واحد فما شقوا له غباراً.

٣ - وأما إبراهيم بن الفخار اليهودي فكان قد تمكن عند الأذفونش ملك طليطلة النصراني، وصيره سفيراً بينه وبين ملوك المغرب، وكان غارفاً بالمنطق والشعر، قال ابن سعيد: أنشدني لنفسه يخاطب أديباً مسلماً كان يعرفه قبل أن تعلو رتبته ويسفر بين الملوك، ولم يزده على ما كان يعامله به من الإذلال، فضاق ذرع ابن الفخار وكتب إليه:

أيا جاعلاً أمرين شبهين ما له ::: من العقل إحساسٌ به يتفقّد
جعلت الغنى والفقر والذلّ والعلا ::: سواءً فما تنفكّ تشقى وتجهد
وهل يستوي في الأرض نجد وتلعة ::: فتطلب تسهيلاً وسيرك مصعد
وما كنت ذا ميز لمن كنت طالباً ::: بما كنت في حال الفراغ تعوّد
وقد حال ما بيني وبينك شاغلٌ ::: فلا تطلبنّي بالذي كنت تعهد
فإن كنت تأبى غير إقدام جاهلٍ ::: فإنك لا تنفكّ تلحى وتطرد
ألا فائت في أبوابه كلّ مسلكٍ ::: ولا تك محلاً حيثما قمت تقعد

قال ابن سعيد: وأنشدني لنفسه:

ولّما دجا ليل العذار بخدّه ::: تيقنت أنّ الليل أخفى وأستر
وأصبح عذّالي يقولون صاحبٌ ::: فأخلو به جهراً ولا أتستّر

وقال يمدح الأذفنش لعنهما الله تعالى:

حضـــرة الأذفـــنش لا برحـــت ::: غضـــــة أيامهـــــا عـــــرس
فـــاخلع الـــنعلين تكرمـــةً ::: في ثراهـــا إنّهـــا قـــدس

قال: وأدخلوني إلى بستان الخليفة المستنصر، فوجدته في غاية الحسن كأنه الجنة، ورأيت على بابه بواباً في غاية القبح، فلما سألني الوزير عن حال فرجتي قلت: رأيت الجنة إلا أني سمعت أن الجنة يكون على بابها رضوان، وهذه على بابها مالك، فضحك وأخبر الخليفة بما جرى، فقال له: قل له إنا قصدنا ذلك، فلو كان رضوان عليها بواباً لخشينا أن يرده عنها، ويقول له: ليس هذا موضعك، ولما كان هناك مالك أدخله فيها، وهو لا يدري ما وراءه، ويخيل أنها جهنم، قال: فلما أعلمني الوزير بذلك قلت له:{ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ} [الأنعام: ١٢٤].

٤ - وكان في زمان إلياس بن المدور اليهودي الطبيب الرندي طبيب آخر كان يجري بينهما من المحاسدة ما يجري بين مشتركين في صنعة، فأصلح الناس بينهما مراراً، وظهر لإلياس من ذلك الرجل الطبيب ما ينفر الناس منه فكتب إليه:

لا تخـــدعنّ فمـــا تكـــون مـــودّة ::: مـــا بـــين مشـــتركين أمـــراً واحـــدا
انظـــر إلى القمـــرين حـــين تشـــاركا ::: بســـناهما كـــان التلاقـــي واحـــدا

يعني أنهما معاً لما اشتركا في الضياء وجب التحاسد بينهما والتفرقة: هذا يطلع ليلاً وهذه تطلع نهاراً، واعتراضهما يوجب الكسوف.

٥ - وكتب أيوب بن سليمان المرواني إلى بسام بن شمعون اليهودي الوشقي في يوم مطير: لما كنت - وصل الله تعالى إخاءك وحفظك - مطمح نفسي، ومنزع اختياري من أبناء جنسي، على جوانبك أميل، وأرتع في رياض خلقك الجميل، هزتني خواطر الطرب والارتياح، في هذا اليوم المطير، الداعي بكاؤه إلى ابتسام الأقداح، واستنطاق البم والزير، فلم أر معيناً على ذلك، ومبلغاً

إلى ما هنالك، إلا حسن نظرك، وتجشمك من المكارم ما جرت به عادتك، و هذا يوم حرم الطرف فيه الحركة، وجعل في تركها الخير والبركة، فهل توصل مكرمتك أخاك إلى التخلي معك في زاوية، متكئاً على دن مستنداً إلى خابية، ونحن خلال ذلك نتجاذب أهداب الحديث الذي لم يبق من اللذات إلا هو، ونجيل الألحاظ فيما تعودت عندك من المحاسن والأسماع في أصناف الملاهي، وأنت على ذلك قدير، وكرمك بتكلفه جدير:

ولا يعين المرء يوماً على ::: راحته إلاّ كريم الطباع
وها أنا والسمع مني إلى الـ ::: باب وذو الشوق حليف استماع
فإن أتى داعٍ بنيل المنى ::: ودّع أشجاني ونعم الوداع

وهذا المرواني من ذرية عبد العزيز أخي عبد الملك بن مروان، و هو من أهل المائة السادسة.

٦ - وكانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها: قسمونة بنت إسماعيل اليهودي، وكان أبوها شاعراً، واعتنى بتأديبها، وربما صنع من الموشحة قسماً فأتمتها هي بقسم آخر، وقال لها أبوها يوماً: أجيزي:

لي صاحبٌ مهجةٍ قد قابلت ::: نعمى بظلمٍ واستحلّت جرمها

ففكرت غير كثير وقالت:

كالشمس منها البدر يقبس نوره ::: أبداً ويكسف بعد ذلك جرمها

فقام كالمختبل، و ضمها إليه، وجعل يقبل رأسها، ويقول: أنت والعشر كلمات أشعر مني.

ونظرت في المرآة فرأت جمالها وقد بلغت أوان التزويج ولم تتزوج، فقالت:

أرى روضةً قد حان منها قطافها ::: ولست أرى جانٍ يمدّ لها يدا
فوا أسفا يمضي الشّباب مضيّعاً ::: ويبقى الّذي ما إن أسمّيه مفردا

فسمعها أبوها، فنظر في تزويجها.

وقالت في ظبية عندها:

يا ظبيةً ترعى بروضٍ دائماً ::: إنّي حكيتك في التوحّش والحور
أمسى كلانا مفرداً عن صاحبٍ ::: فلنصطبر أبداً على حكم القدر

وقد رأيت أن أكفر ما تقدم ذكره من الهزل الذي أتينا به على سبيل الإحماض بما لا بد منه من الحكم والمواعظ وما يناسبها، فنقول:

١ - قال أبو العباس ابن خليل:

فهموا إشارات الحبيب فهاموا ::: وأقام أمرهم الرشاد فقاموا
وتوسموا بمدامع منهلة ::: تحت الدياجي والأنام نيام
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعاً ::: جمعت لها الألباب والأفهام
يا صاح لو أبصرت ليلهم ::: وقد صفت القلوب وصفت الأقدام
لرأيت نور هداية قد حفهم ::: فسرى السرور وأشرق الإظلام
فهم العبيد الخادمون مليكهم ::: نعم العبيد وأفلح الخدام
سلموا من الآفات لما استسلموا ::: فعليهم حتى الممات سلام

٢ - وقال العالم الكبير الشهير صاحب التآليف أبو محمد عبد الحق الإشبيلي رحمه الله تعالى:

قالوا صف الموت يا هذا وشدته ::: فقلت وامتد مني عندها الصوت
يكفيكم منه أن الناس إن وصفوا ::: أمراً يروعهم قالوا هو الموت

- وقال الخطيب الأستاذ أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي نزيل بجاية:

جعلت كتاب ربي لي بضاعه ::: فكيف أخاف فقراً أو إضاعه
وأعددت القناعة رأس مال ::: وهل شيء أعز من القناعه

٤ - وقال القاضي الكبير الأستاذ الشهير أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسي نزيل إفريقية:

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة ::: وأنت على سوء من الفعل عاكف
وإياك أن تمضي من الدهر ساعة ::: ولا لحظة إلا وقلبك واجف

وبادر بأعمال تسرك أن ترى ::: إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
ولا تيأسن من رحمة الله ::: إنه لرب العباد بالعباد لطائف

وقال رحمه الله تعالى:

أما آن للنفس أن تخشعا ::: أما آن للقلب أن يقلعا
أليس الثمانون قد أقبلت ::: فلم تبق في لذة مطمعا
تقضى الزمان ولا مطمع ::: لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى الزمان فواحسرتي ::: لما فات منه وما ضيعا
ويا ويلتاه لذي شيبة يطيع ::: هوى النفس فيما دعا
وبعداً وسحقاً له إذ غدا ::: يسمع وعظاً ولن يسمعا

٥ - وقال الأستاذ الزاهد أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي رحمه الله تعالى:

كل امرئ فيما يدين يدان ::: سبحان من لم يخل منه مكان
يا عامر الدنيا ليسكنها ::: وما هي بالتي يبقى بها سكان
تفنى وتبقى الأرض بعدك ::: مثلما يبقى المناخ وترحل الركبان
أأسر في الدنيا بكل زيادة ::: وزيادتي فيها هي النقصان

وقال أيضاً رحمه الله تعالى:

وذي غنى أوهمته همته ::: أن الغنى عنه غير منفصل
يجر أذيال عجبه بطراً ::: واختال للكبرياء في الحلل
بزته أيدي الخطوب بزته ::: فاعتاض بعد الجديد بالسمل
فلا تثق بالغنى فآفته الـ ::: فقر وصرف الزمان ذو دول
كفى بنيل الكفاف عنه غنى ::: فكن به فيه غير محتفل

وقال رحمه الله تعالى:

لا شيء أخسر صفقة من عالم ::: لعبت به الدنيا مع الجهال
فغدا يفرق دينه أيدي سبا ::: ويديله حرصاً لجمع المال
لا خير في كسب الحرام وقلما ::: يرجى الخلاص لكاسب الحلال
فخذ الكفاف ولا تكن ذا فضلة ::: فالفضل تسأل عنه أي سؤال

وقال رحمه الله تعالى:

الشيب نبه ذا النهى فتنبها ::: ونهى الجهول فما استفاق ولا انتهى
فإلى متى أهو وأخدع بالمنى ::: والشيخ أقبح ما يكون إذا لها
ما حسنه إلا التقى لا أن يرى ::: صباً بألحاظ الجآذر والمها
أنى يقاتل وهو مفلول الشبا ::: كأبي الجواد إذا استقل تأوها
محق الزمان هلاله فكأنما ::: أبقى له منه على قدر السها
فغدا حسيراً يشتهي أن يشتهى ::: ولكم جرى طلق الجموح كما اشتهى
إن أن أواه وأجهش بالبكا ::: لذنوبه ضحك الجهول وقهقها
ليست تنبهه العظات ومثله ::: في سنه قد آن أن يتنبها
فقد اللدات وزال غيًّا بعدهم ::: هلا تيقظ بعدهم وتنبها
يا ويحه ما باله لا ينتهي عن غيه ::: والعمر منه قد انتهى

٦ - وقال الأستاذ ولي الله سيدي أبو العباس بن العريف:

من لم يشافه عالماً بأصوله ::: فيقينه في المشكلات ظنون
من أنكر الأشياء دون تيقن وتثبت ::: فمعاند مفتون
الكتب تذكرة لمن هو عالم ::: وصوابها بمحالها معجون
والفكر غواص عليها مخرج ::: والحق فيها لؤلؤ مكنون

٧ - وقال أبو القاسم ابن الأبرش:

أيأسوني لما تعاظم ذنبي ::: أتراهم هم الغفور الرحيم
فذروني وما تعاظم منه ::: إنما يغفر العظيم العظيم

٨ - وقال أبو العباس ابن صقر الغرناطي أو المري، وأصله من سرقسطة:

أرض العدو بظاهر متصنع ::: إن كنت مضطراً إلى استرضائه
كم من فتى ألقى بوجه باسم ::: وجوانحي تنقد من بغضائه

٩ - وقال الكاتب الشهير الشهيد أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلنسي رحمه الله تعالى من أبيات:

يا شقيق النفس أوصيك وإن ::: شق في الإخلاص ما تنتهجه
لا تبت في كمد من كبد رب ::: ضيق عاد رحباً مخرجه
وبلطف الله أصبح واثقاً ::: كل كرب فعليه فرجه

ولابن الأبار المذكور ترجمة طويلة استوفيت منها ما أمكنني في أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض.

قال الغبريني في " عنوان الدراية ": لو لم يكن له من الشعر إلا قصيدته السينية التي رفعها للأمير أبي زكريا رحمه الله تعالى يستنجده ويستصرخه لنصرة الأندلس لكان فيها كفاية، وإن كان قد نقدها ناقد، وطعن عليه فيها طاعن، ولكن كما قال أبو العلاء المعري:

تكلم بالقول المضلل حاسد ::: وكل كلام الحاسدين هراء

ولو لم يكن له من التآليف إلا كتابه المسمى بـ " معادن اللجين في مراثي الحسين " لكفاه في ارتفاع درجته، وعلو منصبه وسمو رتبته.

ثم قال: توفي بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفي عشرين لمحرم سنة٦٥٨ ومولده لآخر شهر ربيع سنة٥٩٥ ببلنسية، رحمه الله تعالى وسامحه، انتهى.

وقال ابن علوان: إنه يتصل سنده به من طرق، منها من طريق الرواية أبي عبد الله محمد بن جابر القيسي الوادي آشي عن الشيخ المقرئ المحدث المتبحر أبي عبد الله محمد بن حيان الأوسي الأندلسي نزيل تونس عنه، ومن طريق والدي صاحب عنوان الدراية عن الخطيب أبي عبد الله ابن صالح عنه، انتهى.

قلت: وسندي إليه عن العم عن التنسي عن أبيه عن ابن مرزوق عن جده الخطيب عن ابن جابر الوادي آشي به كما مر.

١٠ - وقال ابن عبد ربه:

بادر إلى التوبة الخلصاء مجتهداً ::: والموت ويحك لم يمدد إليك يدا

وارقب من الله وعداً ليس يخلفه ::: لا بد لله من إنجاز ما وعدا

١١ - وقال الصدر أبو العلاء بن قاسم القيسي:

يا واقف الباب في رزق يؤمله ::: لا تقطنن فإن الله فاتحه

إن قــدر الله رزقــاً أنــت طالبــه ::: لا تيأســن فــإن الله مانحــه

١٢ - وقال الأعمى التطيلي:

تنافس الناس في الـدنيا وقـد علمـوا ::: أن سـوف تقتلـهم لـذاتها بـددا

قل للمحـدث عـن لقمـان أو لبـد ::: لم يتـرك الـدهر لقمانـاً ولا لبـدا

وللـذي همـه البنيـان يرفعـه ::: إن الردى لم يغـادر في الثـرى أحـدا

مـا لابـن آدم لا تفـنى مطامعـه ::: يرجو غداً وعسى أن لا يعـيش غـدا

وقال أبو العباس التطيلي:

والنـاس كالنـاس إلا أن تجـربهم ::: وللبصـيرة حكـم لـيس للبصـر

كالأيـك مشـتبهات في منابتـها ::: وإنمـا يقـع التفضـيل في الثمـر

١٣ - وقال القاضي أبو العباس ابن الغماز البلنسي:

مـن كـان يعلـم لا محالـة أنـه ::: لا بـد أن يـؤدي وإن طـال المـدى

هـلا اسـتعد لمشـهد يجـزي بـه ::: من قد أعد من اهتدى ومـن اعتـدى

وقال أيضاً:

هو المـوت فاحـذر أن يجيئـك بغتـة ::: وأنت على سوء مـن الفعـل عـاكف

وإياك أن تمضـي مـن الـدهر سـاعة ::: ولا لحظـة إلا وقلبـك واجـف

فبـادر بأعمـال تسـرك أن تـرى ::: إذا نشرت يوم الحسـاب الصـحائف

ولا تيأسـن مـن رحمـة الله ::: إنـه لـرب العبـاد بالعبـاد لطـائف

١٤ - ولما استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودي الشهير بابن نغدلة، وأعضل داؤه المسلمين، قال زاهد إلبيرة وغرناطة أبو إسحاق الإلبيري قصيدته النونية المشهورة التي منها في إغراء صنهاجة باليهود:

ألا قـل لصـنهاجة أجمعـين ::: بـدور الزمـان وأسـد العـرين

مقالـة ذي مقـة مشـفق ::: صـحيح النصـيحة دنيـا وديـن

لقـد زل سـيدكم زلـة ::: أقـر بهـا أعـين الشـامتين

تخـير كاتبـه كـافراً ::: ولـو شـاء كـان مـن المـؤمنين

فعـز اليهـود بـه وانتمـوا ::: وسـادوا وتـاهوا علـى المسـلمين

وهي قصيدة طويلة، فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور - وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو الكاتب - فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ الذي نور الحق على كلامه باد.

١٥ - وقال أبو الطاهر الجياني المشهور بابن أبي ركب - بفتح الراء وسكون الكاف -:

يقول الناس في مثلي ::: تذكر غائباً تره
فما لي لا أرى وطني ::: ولا أنسى تذكره

وكان أبو الطاهر هذا في جملة من الطلبة، فمر بهم رجل معه محبرة آبنوس تأنق في حليتها واحتفل في عملها، فأراهم إياها، وقال: أريد أن أقصد بها بعض الأكابر، وأريد أن تتموا احتفالي بأن تصنعوا لي بينكم أبيات شعر أقدمها معها، فأطرق الجماعة، وقال أبو طاهر:

وافتك من عدد العلا زنجية ::: في حلة من حلية تتبختر
صفراء سوداء الحلي كأنها ::: ليل تطرزه نجوم تزهر

فلم يغب الرجل عنهم إلا يسيراً، وإذا به قد عاد إليهم، وفي يده قلم نحاس مذهب، فقال لهم: وهذا مما أعددته للدفع مع هذه المحبرة، فتفضلوا بإكمال الصنيعة عندي بذكره، فبدر أبو الطاهر وقال:

حملت بأصفر من نجار حليها ::: تخفيه أحياناً وحيناً يظهر
خرسان إلا حين يرضع ثديها ::: فتراه ينطق ما يشاء ويذكر

قال ابن الأبار في تحفة القادم: وحضر يوماً في جماعة من أصحابه وفيهم أبو عبد الله ابن زرقون في عقب شعبان في مكان، فلما تملأوا من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون: أجز يا أبا عبد الله، وأنشد:

حمدت لشعبان المبارك شبعة ::: تسهل عندي الجوع في رمضان
كما حمد الصب المتيم زورة ::: تحمل فيها الهجر طول زمان

فقال:

دعوهـــا بشـــعبانية ولـــو أنهـــم ::: دعوهـــا بشـــبعانية لكفـــاني

١٦ - وقال أبو عبد الله بن خميس الجزائري:

تحفـــظ مـــن لســـانك، لـــيس شـــيء ::: أحـــق بطـــول ســـجن مـــن لســـان
وكـــــن للصـــــمت ملتزمـــــاً ::: إذا مـــا أردت ســـلامة في ذا الزمـــان

وقال أيضاً:

كن حلس بيتك مهمـــا فتنـــة ظهـــرت ::: تخلص بدينك وافعـــل دائمـــاً حســـنا
وإن ظلمت فـــلا تحقـــد علـــى أحـــد ::: إن الضـــغائن فـــاعلم تنشـــئ الفتنـــا

وقال:

بـــدا لي أن خـــير النـــاس عيشـــاً ::: مـــن آمنـــه الإلـــه مـــن الأنـــام
فلـــيس لخـــائف عـــيش لذيـــذ ::: ولـــو ملـــك مـــع الشـــام

وله:

جانـــب جميـــع النـــاس تســـلم منـــهم ::: إن الســـلامة في مجانبـــة الـــورى
وإذا رأيـــت مـــن امـــرئ يومـــاً ::: أذى لا تجـــزه أبـــداً بمـــا منـــه تـــرى

وله:

مـــن أدب ابنـــاً لـــه صـــغيراً ::: قـــرت بـــه عينـــه كـــبيرا
وأرغـــم الأنـــف مـــن عـــدو ::: يحســـد نعمـــاءه كـــثيرا

١٧ - وقال أبو محمد بن هارون القرطبي:

بيـــد الإلـــه مفـــاتح الـــرزق الـــذي ::: أبوابـــه مفتوحـــة لم تغلـــق
عجبـــاً لـــذي فقـــر يكلـــف مثلـــه ::: في الوقـــت شـــيئاً عنـــده لم يخلـــق

وقال أيضاً:

لعمرك مـــا الإنســـان يـــرزق نفســـه ::: ولكنمـــا الـــرب الكـــريم يســـخره
وما بيـــد المخلـــوق في الـــرزق حيلـــة ::: تقدمـــه عـــن وقتـــه أو تـــؤخره

١٨ - وقال الأديب الأستاذ أبو محمد ابن صارة رحمه الله تعالى:

يا من يصيح إلى داعي السفاة وقد نادى ::: بـــه الناعيـــان الشـــيب والكـــبر

إن كنت لا تسمع الذكرى ففيما ثوى ::: في رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ::: لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الـ ::: أعلى ولا النيران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كره ::: فراقهما الثاويان البدو والحضر

وقال رحمه الله تعالى في ابنة ماتت له:

ألا يا موت كنت بنا رءوفاً ::: فجددت الحياة لنا بزوره
حماد لفعلك المشكور ::: لما كفيت مؤونة وسترت عوره
فأنكحنا الضريح بلا صداق ::: وجهزنا الفتاة بغير شوره

١٩ - وأنشد أبو عبد الله بن الحاج البكري الغرناطي:

يا غادياً في غفلة ورائحاً ::: إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفاً ::: يستنطق الله به الجوارحا
يا عجباً منك وكنت مبصراً ::: كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرا في غد ::: صحيفة قد ملئت فضائحا
أم كيف ترضى أن تكون خاسراً ::: يوم يفوز من يكون رابحا

وممن روى عنه هذه الأبيات الكاتب الرئيس أبو الحسن ابن الجياب، وتوفي ابن الحاج المذكور سنة ٧١٥ رحمه الله تعالى.

٢٠ - وقال حافظ الأندلس ومحدثها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي رحمه الله تعالى:

إلهي مضت للعمر سبعون حجة ::: ولي حركات بعدها وسكون
فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى ::: يكون الذي لا بد أن سيكون

والصواب أنهما لغيره كما ذكرته في غير هذا الموضع، وبالجملة فهما من كلام الأندلسيين، وإن لم يحقق ناظمهما بالتعيين.

٢١ - وقال أبو بكر يحيى التطيلي رحمه الله تعالى:

إليك بسطت الكف في فحمة الدجى ::: نداء غريق في الذنوب عريق
رجاك ضميري كيف تخلص جملتي ::: وكم من فريق شافع لفريق

٢٢ - وحكي أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة في ورقة بيضاء، إن قرئت في ضوء السراج كانت فضية، وإن قرئت في الشمس كانت ذهبية، وإن قرئت في الظل كانت حبراً أسود، وفيها هذه الأبيات:

لئن صدني البحر عن موطني ::: وعيني بأشواقها زاهره
فقد زخرف الله لي مكة ::: بأنوار كعبته الزاهره
وزخرف لي بالنبي يثربا ::: وبالملك الكامل القاهره

فقال الملك الكامل قل:

وطيب لي بالنبي طيبة ::: وبالملك الكامل القاهره

وأظن أن المغربي أندلسي لقوله: لئن صدني البحر عن موطني، فلذلك أدخلته في أخبار الأندلسيين ولست على تحقيق ويقين، والله أعلم.

٢٣ - وأنشد ابن الوليد المعروف بابن الخليع قال: أنشدنا أبو عمر ابن عبد البر النمري الحافظ:

تذكرت من يبكي علي مداوماً ::: فلم ألف إلا العلم بالدين والخبر
علوم كتاب الله والسنن التي أتت ::: عن رسول الله مع صحة الأثر
وعلم الألى من ناقديه وفهم ما له ::: اختلفوا في العلم بالرأي والنظر

وأنشد له أيضاً:

مقالة ذي نصح وذات فوائد إذا ::: من ذوي الألباب كان استماعها
عليكم بآثار النبي فإنه ::: من أفضل أعمال الرشاد اتباعها

٢٤ - وقال أبو الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب الأزدي اليابري، وسكن أبوه قرطبة:

عصيت هوى نفسي صغيراً وعندما ::: رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى، عكس القضية ليتني ::: خلقت كبيراً وانتقلت إلى الصغر

وقيل: إن ابنه أبا الحسن علي بن عبد الملك قال بيتاً مفرداً في معنى ذلك، وهو:

هنيئـــاً لـــه إذ لم يكـــن كابنـــه الـــذي ::: أطاع الهـــوى في حالتيـــه ومـــا اعتـــبر

وقيل: إن هذا البيت رابع أربعة أبيات.

٢٥ - وقال أبو إسحاق بن خفاجة لما اجتمع به أبو العرب وسأله عن حاله وقد بلغ في عمره إحدى وثمانين سنة، فأنشده لنفسه:

أي عـــــيش أو غـــــذاء أو ســـــنه ::: لابـــن إحـــدى وثمـــانين ســـنه
قلـــص الشـــيب بـــه ظـــل امـــرئ ::: طالمـــا جـــر صـــباه رســـنه
تـــارة تســـطو بـــه ســـيئة ::: تســـخن العـــين وأخـــرى حســـنه

٢٦ - وقال أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القيسي المالقي:

المـــوت حصـــاد بـــلا منجـــل ::: يســـطو علـــى القـــاطن والمنجلـــي
لا يقبـــل العـــذر علـــى حالـــة ::: ما كان مـــن مشـــكل أو مـــن جلـــي

٢٧ - وقال الشيخ عبد الحق الإشبيلي الأزدي صاحب كتاب العاقبة والإحكام وغيرهما:

إن في المـــوت والمعـــاد لشـــغلاً ::: وإدكـــاراً لـــذي النـــهى وبلاغـــا
فـــاغتنم خطـــتين قبـــل المنايـــا ::: صـــحة الجســـم يـــا أخـــي والفراغـــا

٢٨ - وقال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسان الغساني من أهل جليانة من عمل وادي آش:

ألا إنمـــا الـــدنيا بحـــار تلاطمـــت ::: فما أكثـــر الغرقـــى علـــى الجنبـــات
وأكثـــر مـــن صـــاحبت يغـــرق إلفـــه ::: وقـــل فـــتى ينجـــى مـــن الغمـــرات

وكان المذكور من أهل العلم والأدب، رحل وحج وتجول في البلاد، ونزل القاهرة المعزية، وكان أحد السياحين في الأرض، وله تآليف منها جامع أنماط الوسائل في القريض والخطب والرسائل وأكثره من نظمه ونثره، رحمه الله تعالى.

٢٩ - وقال عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القضاعي الطرطوشي:

وما النـــاس ألا كالصـــحائف غـــيرت ::: وألســـنهم إلا كمثـــل التـــراجم

إذا اشتجر الخصـــمان في فطنـــة الفـــتى ::: فمقولـــــه في ذاك أعـــــدل حـــاكم

٣٠ - وقال أبو الحكم عبد المحسن البلنسي:

من كـــان للــدهر خــدناً في تصــرفه ::: أبدت له صــفحة الــدهر الأعاجيبــا
من كان خلــواً مــن الآداب ســربله ::: مــر الليــالي علــى الأيــام تأديبــا

٣١ - وقال أبو حاتم عمر بن محمد بن فرج من أهل ميرتلة، مدينة بغرب الأندلس، يمدح شهاب الأندلس، يمدح شهاب القضاعي:

شهب السماء ضــياؤها مســتور عنــا ::: إذا أفلـــــت تـــــوارى النـــــور
فــــانزع هــــديت إلى شــــهاب ::: نــــوره متــــألق آمالـــــه تبصـــير
تشفي جواهره القلــوب مــن العمــى ::: ولطالمــا انشــرحت بهــن صــدور
فـــإذا أتـــى فيـــه حـــديث محمــد ::: خـــذ في الصـــلاة عليـــه يـــا مغـــرور
وتـــرحمن علـــى القضـــاعي الـــذي ::: وضـــع الشـــهاب فســـعيه مشـــكور

٣٢ - وقال الأستاذ أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي:

ثلاثـــــة يجهـــــل مقـــــدارها ::: الأمـــــن والصـــــحة والقـــــوت
فـــلا تثـــق بالمـــال مـــن غيرهـــا ::: لــــو أنـــــه در ويــــاقوت

وتذكرت بهذا قول الآخر:

إذا القـــــوت تـــــأتى لـــــك ::: والصـــــــــحة والأمـــــــــن
وأصـــبحت أخـــا حـــزن ::: فـــــلا فارقـــــك الحـــــزن

وكل ذلك أصله الحديث النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فإنه قال:♂**من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، معه قوت يومه، فكأنما سيقت لــه الدنيا بحذافيرها▬**.

وأخبرنا شيخنا القصار أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي مفتي مدينة فاس وخطيبها سنة عشر وألف، قال: حدثنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي نزيل فاس الشهير بخروف قال حدثنا الإمام سيدي فرج الشريف الطحطاوي، قال: سمعت النبي في النوم يقول:♂**من أصبح آمناً في سربه...▬** الحديث.

٣٣- وقال الأستاذ العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد بن العريف الأندلسي دفين مراكش، وقد زرت قبره سنة ١٠١٠:

إذا نزلت بساحتك الرزايا ::: فلا تجزع لها جزع الصبي
فإن لكل نازلة عزاء بما ::: قد كان من فقد النبي

وقال رحمه الله تعالى:

شدوا الرحال وقد نالوا المنى بمنى ::: وكلهم بأليم الشوق قد باحا
راحت ركائبهم تندى روائحها طيباً ::: بما طاب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفى لهم راح ::: إذا سكروا من أجله فاحا
يا راحلين إلى المختار من مضر ::: زرتم جسوماً وزرنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على شوق وعن قدر ::: ومن أقام على عذر كمن راحا

٣٤ - وقال أبو محمد المحاربي:

داء الزمان وأهله ::: داء يعز له العلاج
أطلعت في ظلمائه رأياً ::: كما سطع السراج
لمعاشر أعيا ثقافي ::: من قناهم اعوجاج
كالدر ما لم تختبر ::: فإذا اختبرت فهم زجاج

٣٥ - وقال أبو عبد الله غربيب الثقفي القرطبي:

يهددني بمخلوق ضعيف يهاب ::: من المنية ما أهاب
له أجل ولي أجل وكل سيبلغ ::: حيث يبلغه الكتاب
وما يدري لعل الموت منه ::: قريب أينا قبل المصاب

وله:

أيها الآمل ما ليس له ::: طالما غر جهولاً أمله
رب من بات يمني نفسه خانه ::: دون مناه أجله
وفتى بكر في حاجاته عاجلاً ::: أعقب ريثاً عجله
قل لمن مثل في أشعاره ::: يذهب المرء ويبقى مثله
نافس المحسن في إحسانه ::: فسيكفيك مسيئاً عمله

قال ابن الأبار: وهذا البيت الأخير في برنامج الطبني.

٣٦ - وقال أبو الحسين سليمان بن الطراوة النحوي المالقي:

وقائلـــــة أتصـــــبو للغــــواني ::: وقــد أضــحى بمفرقــك النــهار
فقلــت لهــا حثــت علــى التصــابي ::: أحــق الخيــل بــالركض المعــار

٣٧ - وقال الحافظ أبو الربيع بن سالم:

إذا برمــت نفســي بحــال أحلتــها ::: على أمــل نــاء فقــرت بــه الــنفس
وأنــزل أرجــاء الرجــاء ركــائبي ::: إذا رام إلمامــاً بســاحتي اليــأس
وإن أوحشــتني مــن أمــاني نبــوة ::: فلي في الرضى بــالله والقــدر الأنــس

٣٨ - وقال أبو الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلي الإشبيلي مما أنشده لنفسه في كتابه الذي سماه الذخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق:

إذا تم عقــل المــرء تمــت فضــائله ::: وقامت على الإحســان منــه دلائلــه
فلا تنكــر الأبصــار مــا هــو فاعلــه ::: ولا تنكــر الأسمــاع مــا هــو قائلــه

وكان أبو المذكور من وزراء المعتمد بن عباد، رحم الله تعالى الجميع.

٣٩ - وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي:

اتــرك الهــم إذا مــا طرقــك ::: وكــل الأمــر إلى مــن خلقــك
وإذا أمــل قــوم أحــداً ::: فــإلى ربــك فامــدد عنقــك

٤٠ - وقال القاضي أبو الوليد هشام بن محمد القيسي الشلبي المعروف بابن الطلاء: فاوضت القاضي أبا عبد الله ابن شبرين ما يحذر من فتنة النظر إلى الوجوه الحسان، فقلت:

لا تنظــرن إلى ذي رونــق أبــداً ::: واحذر عقوبــة مــا يــأتي بــه النظــر
فكم صــريع رأينــاه صــريع هــوى ::: أو نظــرة قادهــا يومــاً لــه القــدر

فأجابني في المعنى الذي انتحيته:

إذا نظــرت فــلا تولــع بتقليــب ::: فربمــا نظــرة عــادت بتعــذيب

ورب هنا للتكثير.

٤١ - وقال الأستاذ ابن حطوط الله:

أتــدري أنــك الخطــاء حقّــا ::: وأنــك بالــذي تــأتي رهــين
وتغتــاب الألى فعلــوا وقــالوا ::: وذاك الظــن والإفــك المــبين

قال في " الإحاطة ": أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حطوط الله الأنصاري الحارثي، كان فقيهاً جليلاً أصوليًّا كاتباً أديباً شاعراً متفنناً في العلوم ورعاً ديناً حافظاً ثبتاً فاضلاً، درس كتاب سيبويه ومستصفى أبي حامد الغزالي، وكان، رحمه الله تعالى، مشهوراً بالعقل والفضل، معظماً عند الملوك، معلوم القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية، مقدماً في ذلك بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة وسلا وميورقة، فتظاهر بالعدل، وعرف بما أبطن من الدين والفضل، وكان من العلماء العاملين، مجانباً لأهل البدع والأهواء، بارع الخط، حسن التقييد، وسمع الحديث، فحصل له سماع لم يشاركه فيه أحد من أهل الغرب، وسمع على الجهابذة كابن بشكوال وغيره، وقرأ أكثر من ستين تأليفاً بين كبار وصغار، منها الصحيحان، وأكثر عن ابن حبيش وابن الفخار والسهيلي وغيرهم، ومولده في محرم سنة ٥٤١، ومات بغرناطة سحر يوم الخميس ثاني ربيع الأول سنة٦١٢، ونقل منها في تابوته الذي ألحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة إلى مالقة فدفن بها، رحمه الله تعالى، انتهى، وبعضه بالمعنى مختصراً.

وللمذكور ترجمة واسعة جداً، وألمعت بما ذكرت على وجه التبرك بذكره، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٤٢ - وقال أبو المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي:

يجفى الفقــير ويغشــى النــاس قاطبــة ::: بــاب الغــني، كــذا حكــم المقــادير
وإنمــا النــاس أمثــال الفــراش فهــم ::: يــرون حيــث مصــابيح الــدنانير

وقال تلميذه ابن الأبار: أنشدني بعض أصحابنا عنه هذين البيتين، ولم أسمعهما منه، انتهى.

قلت: وبهذا تعرف وهم من نسب البيتين إلى عبد المهيمن الحضرمي، فإن هذا كان قبل أن يخلق والد عبد المهيمن الحضرمي، وقد أنشدهما الجلاب الفهري في روح الشعر وروح الشحر.

٤٣ - وقال أبو محمد القاسم بن الفتح الحجاري المعروف بابن افريولة:

ركابي بأرجاء الرجاء مناخة ::: ورائدها علمي بأنك لي رب
وأنك علام بما أنا قائل كما ::: أنت علام بما أضمر القلب
لئن آدها ذنب تولت بعبئه ::: لقد قرعت باباً به يغفر الذنب

وقال أيضاً:

عجباً لحبر قد تيقن أنه سيرى ::: اقتراف يديه في ميزانه
ثم امتطى ظهر المعاصي جهرة ::: لم يثنه التأنيب عن عصيانه
أنى عصى ولكل جزء نعمة ::: من نفسه وزمانه ومكانه

٤٤ - وقال الشاعر الكبير الشهير أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبر الفهري:

إن الشدائد قد تغشى الكريم لأن ::: تبين فضل سجاياه وتوضحه
كمبرد القين إذ يعلو الحديد به ::: وليس يأكله إلا ليصلحه

وقال:

لا تغبط المجدب في عمله ::: وإن رأيت الخصب في حاله
إن الذي ضيع من نفسه ::: فوق الذي ثمر من ماله

٤٥ - وقال أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري المنصفي البلنسي:

قال لي النفس أتاك الردى ::: وأنت في بحر الخطايا مقيم
هلا اتخذت الزاد قلت أقصري ::: هل يحمل الزاد لدار الكريم

وكان المنصفي المذكور صالحاً، وله رحلة حج فيها، ومال إلى علم

التصوف، رحمه الله تعالى، وله فيه أشعار حملت عنه.

٤٦ - وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن الصائغ القرشي الأموي الأندلسي مخمساً أبيات عز الدين بن جماعة قاضي القضاة رحمه الله تعالى:

هم الأبي على مقدار منصبه ::: وبسط راحته في طي منصبه
ما أنت والدهر تشكو من تقلبه ::: يا مبتلى بقضاء قد بليت به
عليك بالصبر واحذر يا أخي جزعك ::: صبراً فللصبر في حرب العدا عدد
ذر العدو يمته الغيظ والحسد ::: ولا يكن لك إلا الله معتمد
واعلم بأن جميع الخلق لو قصدوا ::: أذاك لم يقدروا والله قد رفعك
أعلاك في رتب غر معظمة ::: بالعرف معروفة بالعلم معلمة
ومن يناويك في همماء مظلمة ::: فاصرف هواك وجانب كل مظلمة
واصحب فديتك من بالنصح قد نفعك ::: قد اجتلبت من الأيام تبصرة
وقد كفاك الهدى والذكر تذكرة ::: فاشكر وقدم مع الإخلاص معذرة
واسأل إلهك في الإسحار مغفرة منه ::: وكن معه حتى يكون معك

وتوفي المذكور بالقاهرة في الطاعون العام سنة ٧٤٩.

٤٧ - وقال أبو عبد الله الحميدي:

الناس نبت وأرباب القلوب لهم ::: روض وأهل الحديث الماء والزهر
من كان قول رسول الله حاكمه ::: فلا شهود له إلا الألى ذكروا

وقال أيضاً:

من لم يكن للعلم عند فنائه ::: أرج فإن بقاءه كفنائه
بالعلم يحيا المرء طول حياته ::: فإذا انقضى أحياه حسن ثنائه

وقال أيضاً:

دين الفقيه حديث يستضيء به ::: عند الحجاج وإلا كان في الظلم
إن تأوه ذو مذهب في قفر مشكلة ::: لاح الحديث له في الوقت كالعلم

ولما تعرض بعض من لا يبالي بما ارتكب إلى أصحاب الحديث بقوله:

أرى الخير في الدنيا يقل كثيره ::: وينقص نقصاً والحديث يزيد
فلو كان خيراً كان كالخير كله ::: ولكن شيطان الحديث مريد
ولابن معين في الرجال مقالة ::: سيسأل عنها والمليك شهيد
فإن يكُ حقاً قوله فهي غيبة ::: وإن يك زوراً فالقصاص شديد

أجابه الإمام أبو عبد الله الحميدي بقصيدة طويلة، منها:

وإني إلى إبطال قولك قاصد ::: ولي من شهادات النصوص جنود
إذا لم يكن خيراً كلام نبينا ::: لديك فإن الخير منك بعيد
وأقبح شيء أن جعلت لما أتى ::: عن الله شيطاناً وذاك شديد
وما زلت في ذكر الزيادة معجباً بها ::: تبدئ التلبيس ثم تعيد
كلام رسول الله وحي ومن يرم ::: زيادة شيء فهو فيه عنيد

ومنها في ابن معين:

وما هو إلا واحد من جماعة ::: وكلهم فيما حكوه شهود
فإن صد عن حكم الشهادة جاهل ::: فإن كتاب الله فيه عتيد
ولولا رواة الدين ضاع وأصبحت ::: معالمه في الآخرين تبيد
هم حفظوا الآثار من كل شبهة ::: وغيرهم عما اقتنوه رقود
وهم هاجروا في جمعها وتبادروا ::: إلى كل أفق والمرام كؤود
وقاموا بتعديل الرواة وجرحهم ::: فدام صحيح النقل وهو جديد
بتبليغهم صحت معالم ديننا ::: حدود تحروا حفظها وعهود
وصح لأهل النقل منها احتجاجهم ::: فلم يبق إلا عاند وحقود
وحسبهم أن الصحابة بلغوا ::: وعنهم رووا لا يستطاع جحود
فمن حاد عن هذا اليقين فمارق ::: مريد لإظهار الشكوك مريد
ولكن إذا جاء الهدى ودليله ::: فليس لموجود الضلال وجود
وإن رام أعداء الديانة كيدها ::: فكيدهم بالمخزيات مكيد

٤٨ - وقال أبو بكر محمد بن محرز الزهري البلنسي، والتزم الراء في كل كلمة:

اشكر لربك وانتظر ::: في إثر عسر الأمر يسرا

واصـــبر لربـــك وادخـــر ::: في ســـتر ضـــر الفقـــر أجـــرا
فالـــدهر يعثـــر بـــالورى ::: والصـــبر بـــالأحرار أحـــرى
والـــوفر أظهـــر معشـــرا ::: والفقـــر بالأخيـــار يغـــرى

وقال أيضاً:

اقنـــع بمـــا أوتيتـــه تنـــل الغـــنى ::: وإذا دهتـــك ملمـــة فتصـــبر
واعلـــم بـــأن الـــرزق مقســـوم ::: فلـــو رمنـــا زيـــادة ذرة لم نقـــدر
والله أرحم بالعباد فـــلا تســـل بشـــراً ::: تعـــش عـــيش الكـــرام وتـــؤجر
وإذا ســـخطت لضـــر حالـــك مـــرة ::: ورأيت نفسك قـــد عـــدت فاستبصـــر
وانظر إلى مـــن كـــان دونـــك تـــدكر ::: لعظـــيم نعمتـــه عليـــك فتشـــكر

٤٩ - وقال الحافظ أبو محمد بن حزم: أنشدني والدي أحمد بن سعيد بن حزم:

إذا شئت أن تحيـــا غنيًّـــا فـــلا تكـــن ::: علـــى حالـــة إلا رضـــيت بـــدونها

٥٠ - وقال القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلنسي نزيل تونس:

وقـــالوا أمـــا تخشـــى ذنوبـــاً أتيتـــها ::: ولم تـــك ذا جهـــل فتعـــذر بالجهـــل
فقلت لهم هـــبني كمـــا قـــد ذكـــرتم ::: تجاوزت في قـــولي وأســـرفت في فعلـــي
أما في رضى مـــولى المـــوالي وصـــفحه ::: رجـــاء ومســـلاة لمقتـــرف مثلـــي

وأنشد رحمه الله تعالى لنفسه في اليوم الذي مات فيه، وهو آخر ما سمع منه ليلة عاشوراء سنة ٦٩٣:

أدعوك يـــا رب مضـــطرًّا علـــى ثقـــة ::: بما وعـــدت كمـــا المضـــطر يـــدعوكا
دارك بعفـــوك عبـــداً لم يـــزل أبـــداً ::: في كل حال مـــن الأحـــوال يرجوكـــا
طالـــت حيـــاتي ولمـــا أتخـــذ عمـــلاً ::: إلا محبـــة أقـــوام أحبوكـــا

٥١ - وقال ابن الزقاق، ويقال: إنها مكتوبة على قبره:

أإخواننا والمـــوت قـــد حـــال دوننـــا ::: وللمـــوت حكـــم نافـــذ في الخلائـــق
ســـبقتكم للمـــوت والعمـــر طيـــة ::: وأعلـــم أن الكـــل لا بـــد لاحقـــي
بعيشـــكم أو باضـــطجاعي في الثـــرى ::: ألم نك في صـــفو مـــن العـــيش رائـــق

فمـــن مـــر بي فلـــيمض لي مترحمـــاً ::: ولا يـــك منســـياً وفـــاء الأصـــادق

٥٢ - وقال الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح الكتاني الشاطبي، ومولده سنة٦١٤:

أرى العمـــر يفـــنى والرجـــاء طويـــل ::: ولـــيس إلى قـــرب الحبيـــب ســـبيل
حبـــاه إلـــه الخلـــق أحســـن ســـيرة ::: فما الصـــبر عـــن ذاك الجمـــال جميـــل
مـــتى يشـــتفي قلـــبي بلـــثم ترابـــه ::: ويســـمح دهـــر بـــالمزار بخيـــل
دللـــت عليـــه في أوائـــل أســـطري ::: فـــذاك نـــبي مصـــطفى ورســـول

٥٣ - وقال أيمن بن محمد الغرناطي نزيل طيبة على ساكنها الصلاة والسلام:

أرى حجرات قـــد أحاطـــت عراصـــها ::: ببحـــر محـــيط حصـــره غـــير ممكـــن
بحـــار المعـــالي والمعـــاني وإن طمـــت ::: لدى لجـــة تفـــنى وعـــن هولـــه تـــني
محمـــد المحمـــود في كـــل مـــوطن ::: أبو القاسم المختار مـــن خـــير معـــدن
نـــبي إذا أبصـــرت غـــرة وجهـــه ::: تيقنـــت أن العـــز عـــز المهـــيمن
لـــك الله مـــن بـــدر إذا الشـــمس ::: قابلت محياه قالـــت إن ذا طـــالع ســـني

وله:

كل القلوب مطيعـــة لـــك في الهـــوى ::: جانـــب فـــديتك مـــن تشـــاء ووال
الحســـن وال، والقلـــوب رعيـــة ::: وعلـــى الرعيـــة أن تطيـــع الـــوالي

وقال أيضاً:

ألا أيهـــا البـــاكي علـــى مـــا يفوتـــه ::: من الحظ في الدنيا جهلت ومـــا تـــدري
على فوت حـــظ مـــن جـــوار محمـــد ::: حقيق بـــأن تبكـــي إلى آخـــر العمـــر
ستدري إذا قمنـــا وقـــد رفـــع اللـــوا ::: وأحمـــدها دينـــاً إلى موقـــف الحشـــر
من الفـــائز المغبـــوط في يـــوم عرضـــه ::: أجار النبي المصـــطفى أم أخـــو الـــوفر

وله:

فـــررت مـــن الـــدنيا إلى ســـاكن ::: الحمـــى فـــرار محـــب لائـــذ بحبيـــب
لجـــأت إلى هـــذا الجنـــاب، وإنمـــا ::: لجـــأت إلى ســـامي العمـــاد رحيـــب

وناديت مولاي الـذي عنـده الغـنى ::: نـداء عليـل في الزمـان غريـب
أمـولاي إني قـد أتيتـك لائـذاً ::: وأنـت طبـيبي يـا أجـل طبيـب
فقال لك البشرى ظفرت مـن الرضـى ::: بـأوفر حـظ مجـزل ونصـيب
تناومـت في أطـلال ليـل شـبيبتي ::: فـأدركني بـالفجر صـبح مشـيبي

٥٤ - وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي:

لـو لم تكـن نـار ولا جنـة ::: للمـرء إلا أنـه يقـبر
لكـان فيـه واعـظ زاجـر ::: نـاه لمـن يسـمع أو يبصـر

ولقد صدق رحمه الله تعالى ورضي عنه.

٥٥ - ولبعض فقهاء طلبيرة:

رأيـت الانقبـاض أجـل شـيء ::: وأدعـى في الأمـور إلى السـلامه
فهـذا الخلـق سـالمهم ودعهـم ::: فرؤيتـهم تـؤول إلى الندامـه
ولا تغـنى بشـيء غـير شـيء ::: يقـود إلى خلاصـك يـوم القيامـه

٥٦ - وأمر الكاتب أبو بكر بن مغاور بكتب هذه الأبيات على قبره، و هي له:

أيهـا الواقـف اعتبـاراً بقـبري ::: اسـتمع فيـه قـول عظمـي الـرميم
أودعـوني بطـن الضـريح وخـافوا ::: مـن ذنـوب كلومهـا بـأديمي
قلـت لا تجزعـوا علـي فـإني ::: حسـن الظـن بـالرؤوف الـرحيم
ودعـوني بمـا اكتسـبت رهينـاً ::: غلـق الـرهن عنـد مـولى كـريم

٥٧ - وقال الخطيب بن صفوان:

رأيتـك يـدنيني إليـك تباعـدي ::: فأبعدت نفسـي لابتغـائي في القـرب
هربـت لـه منـه إليـه فلـم يكـن ::: بي البعد في قـربي فصـح بـه قـربي
فيا رب هل نعمى على العبد بالرضـى ::: ينال بها فـوزاً مـن القـرب بـالقرب

وقال الوادي آشي:

وهذا النظم معناه جليل، وتكرار القرب وإن قبح عند تاعروضي فهو المحب جميل، وهم القوم يسلم لهم في الأفعال والأقوال، وترتجى بركتهم في

كل الأحوال، انتهى.

٥٨ - وقال بعض قدماء الأندلس:

سئمت الحياة على حبها ::: وحق لذي السقم أن سأما
فلا عيش إلا لذي صحة ::: تكون له للتقى سلما

وذيله آخر منهم بقوله:

ولا داء إلا لمن لم يزل ::: يقارب في دينه مأثما
فلست تعالج جرح الهوى ::: هديت بمثل التقى مرهما

٥٩ - وقال أبو جعفر أحمد السياسي القيسي المري:

إذا ما جنى يوماً عليك جناية ::: ظلوم يدق السمر بأساً ويقصف
فلا تنتقم يوماً عليه بما جنى ::: وكل أمره للدهر فالدهر منصف

وقال أيضاً:

ليس حلم الضعيف حلماً، ولكن ::: حلم من لو يشاء صال اقتدارا
من تغاضى عن السفيه بحلم ::: أصبح الناس دونه أنصارا
من يزوج كريمة الهمة العل ::: يا علواً فقد أجاد الخيارا
ستريه عند الولاد بنيها ::: علم والحلم والأناة كبارا

٦٠ - وقال الخطيب الصالح أبو إسحاق ابن أبي العاصي:

اعمل بعلمك تؤت علماً ::: إنما جدوى علوم المرء نهج الأقوم
وإذا الفتى قد نال علماً ::: ثم لم يعمل به فكأنه لم يعلم

وقال موطئاً على البيت الأخير:

أمولاي أنت العفو الكريم ::: لبذل النوال وللمعذره
علي ذنوب وتصحيفها ::: ومن عندك الجود والمغفره

٦١ - وقال الخطيب المتصوف الشهير أبو جعفر أحمد بن الزيات من بلش مالقة:

يقال خصال أهل العلم ألف ::: ومن جمع الخصال الألف سادا

ويجمعها الصلاح فمن تعدى ::: مذاهبه فقد جمع الفسادا

وقال أيضاً:

إن شئت فوزاً بمطلوب الكرام غداً ::: فاسلك من العمل المرضي منهاجا
واغلب هوى النفس لا يغررك خادعه ::: فكل شيء يحط القدر منهاجا

٦٢ - وقال الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة البكري الشنتريني رحمه الله تعالى:

بنوا الدنيا بجهل عظموها ::: فجلت عندهم وهي الحقيره
يهارش بعضهم بعضاً عليها ::: مهارشة الكلاب على العقيره

وقال:

أي عذر يكون لا أي عذر ::: لابن سبعين مولع بالصبابه
وهو ماء لم تبق منه الليالي ::: في إناء الحياة إلا صبابه

وقال أيضاً:

ولقد طلبت رضى البرية جاهداً ::: فإذا رضاهم غاية لا تدرك
وأرى القناعة للفتى كنز له ::: والبر أفضل ما به يتمسك

٦٣ - وقال أبو محمد ابن صاحب الصلاة الداني، ويعرف بعبدون:

وعجل شيبي أن ذا الفضل مبتلى ::: بدهر غدا ذو النقص فيه مؤملا
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى ::: بها الحر يشقى واللئيم مولا
متى ينعم المعتر عيناً إذا اعتفى ::: جواداً مقلاً أو غنيًّا مبخلا

٦٤ - وقال أبو الحكم عبيد الله الأموي مولاهم الأندلسي:

إذا كان إصلاحي لجسمي واجباً ::: فإصلاح نفسي لا محالة أوجب
وإن كان ما يفنى إلى النفس معجباً ::: فإن الذي يبقى إلى العقل أعجب

٦٥ - وقال الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه الله تعالى:

لله أكياس جفو أوطانهم ::: فالأرض أجمعها لهم أوكطان

جالــت عقــولهم مجــال تفكــر ::: وجلالــة فبــدا لهــا الكتمــان
ركبت بحــار الفهــم في فلــك النــهى ::: وجــرى بهــا الإخــلاص والإيمــان
فرســت بهــم لمــا انتــهوا بجفــونهم ::: مرســى لهــم فيــه غــنى وأمــان

٦٦ - وقال أبو جعفر ابن خاتمة رحمه الله تعالى:

يا من يغيث الورى من بعــدما قنطــوا ::: ارحم عباداً أكف الفقــر قــد بســطوا
عــودهم بســط أرزاق بــلا ســبب ::: سوى جميــل رجــاء نحــوه انبســطوا
وعــدت بالفضــل في ورد وفي صــدر ::: بالجود إن أقسطوا والحلــم إن قســطوا
عوارف ارتبطــت شــم الأنــوف لهــا ::: وكل صــعب بقيــد الجــود يــرتبط
يا مــن تعــرف بــالمعروف فاعترفــت ::: بجــم إنعامــه الأطــراف والوســط
وعالمــاً بخفيــات الأمــور فــلا ::: وهــم يجــوز عليــه لا ولا غلــط
عبــد فقــير ببــاب الجــود منكســر ::: من شــأنه أن يــوافى حــين ينضــغط
مهمــا أتــى يمــد الكــف أخجلــه ::: قبــائح وخطايــا أمرهــا فــرط
يا واسعاً ضاق خطو الخلق عــن نعــم ::: منه إذا خطبــوا في شــكرها خبطــوا
وناشــراً بيــد الإجمــال رحمتــه ::: فلــيس يلحــق منــه مســرفاً قــنط
ارحم عباداً بضنك العيش قــد قنعــوا ::: فأينما ســقطوا بــين الــورى لقطــوا
إذا توزعــت الــدنيا فمــا لهــم ::: غير الدجنــة لحــف والثــرى بســط
لكنــهم مــن ذرا عليــاك في نمــط ::: سام رفيــع الــذرى مــا فوقــه نمــط
ومــن يكــن بالــذي يهــواه مجتمعــاً ::: فمــا يبــالي أقــام الحــي أم شــحطوا
نحن العبيد وأنت الملــك لــيس ســوى ::: وكل شــيء يرجــى بعــد ذا شــطط

وقال رحمه الله تعالى:

مــلاك الأمــر تقــوى الله ::: فاجعل تقــاه عــدة لصــلاح أمــرك
وبــادر نحــو طاعتــه بعــزم ::: فمــا تــدري مــتى يمضــي بعمــرك

وقال أيضاً:

إذا كنــت تعلــم أن الأمــور ::: بحكــم الإلــه كمــا قــد قضــى
ففــيم التفكــر والحكــم مــاض ::: ولا رد للحكــم مهمــا مضــى
فخــل الوجــود كمــا شــاءه ::: مــدبره وابــغ منــه الرضــى

وقال:

إذا ما الدهر نابك منه خطب ::: وشد عليك من حنق عقاله
فكل لله أمرك لا تفكر ::: ففكرك فيه خبط في حباله

وقال:

عدوك داره ما استطعت حتى ::: يعود لديك كالخل الشفيق
فما في الأرض أردى من عدو ::: وما في الأرض أجدى من صديق

وقال:

إن أعرضت دنياك عنك بوجهها ::: وغدت ومنها في رضاك نزاع
فاحذر بنيها واحتفظ من شرهم ::: إن البنين لأمهم أتباع

وقال:

يا مجيب المضطر عند الدعاء ::: منك دائي وفي يديك دوائي
جذبتني الدنيا إليها بضبعي ::: ودعتني لمحنتي وشقائي
يا إلهي وأنت تعلم حالي ::: لا تذرني شماتة الأعداء

٦٧ - وقال الحافظ الكبير الشهير أبو عبد الله الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين رحمه الله تعالى:

كتاب الله عز وجل قولي ::: وما صحت به الآثار ديني
وما اتفق الجميع عليه بدءاً ::: تكن منها على عين اليقين

وقال:

طريق الزهد أفضل ما طريق ::: وتقوى الله بادية الحقوق
فثق بالله يكفك، واستعنه ::: يعنك، وذر بنيات الطريق

٦٨ - وقال أبو بكر مالك بن جبير رحمه الله تعالى:

رحلت وإنني من غير زاد ::: وما قدمت شيئاً للمعاد
ولكني وثقت بجود ربي ::: وهل يشقى المقل مع الجواد

وتوفي المذكور بأريولة - أعادها الله تعالى إلى الإسلام - سنة ٥٦١.

٦٩ - وقال ابن جبير اليحصبي وهو الكاتب أبو عبد الله محمد:

كلمـــا رمـــت أن أقـــدم خـــيراً ::: لمعـــادي ورمـــت أني أتـــوب
صـــرفتني بواعـــث الـــنفس قســـراً ::: فتقاعســـت والـــذنوب ذنـــوب
رب قلـــب قلـــبي لعزمـــة خـــير ::: لمتـــاب ففـــي يـــديك القلـــوب

ولتعلم أن كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له، ويرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب حيث قال في صدر الإحاطة: وهذا الغرض الذي وضعنا له هذا التأليف يطلبنا فيه ما قصدنا به من المباهاة والافتخار بالإكثار، واستيعاب النظام والنثار، ويحملنا فيه خوف السآمة على الاختصار والاقتصار، وكفى بهذا جلاء في الأعذار، والله تعالى مقيل العثار، وساتر العيب المثار، بفضله، انتهى.

٧٠ - ولنختم هذا الباب بقول أبي زكريا يحيى بن سعد بن مسعود القلني:

عفـــوك اللـــهم عنـــا ::: خـــير شـــيء نتمنـــا
رب إنـــا قـــد جهلنـــا ::: في الـــذي قـــد كـــان منـــا
وخطينـــا وخلطنـــا ::: ولهونـــا ومجنـــا
إن نكـــن رب أســـأنا ::: مـــا أســـأنا بـــك ظنـــا
فأنلنـــا الخـــتم بالحســـ ::: نى وإنعامـــاً ومنـــا آمـــين.

وذيلته بقولي:

فأنلنـــا الخـــتم بـــالحس ::: نى وإنعامـــاً ومنـــا

آمين.

* * *

الباب الثامن

في ذكر تغلب العدو الكـــافر علـــى الجزيرة

الباب الثامن:

في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة

في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد إليها وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره، واستعماله في أمرها حيل فكره، حتى استولى - دمره الله تعالى - عليها، ومحا منها التوحيد واسمه، وكتب على مشاهدها ومعاهدها وسمه، وقرر مذهب التثليث، والرأي الخبيث، لديها، واستغاث أهلها استغاثة أضرابها بالنظم والنثر، أهل ذلك العصر، من سائر الأقطار، حين تعذرت بحصارها، مع قلة حماتها وأنصارها، المآرب والأوطار، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها، أعاد الله تعالى إليها كلمة الإسلام، وأقام فيها شريعة سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، ورفع يد الكفر عنها وعما حواليها، آمين.

* * *

ظهور بلاي وخلفائه

قال غير واحد من المؤلفين: أول من جمع فل النصارى بالأندلس - بعد غلبة العرب لهم - علج يقال له: بلاي، من أهل أشتوريش من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الثاني من أمراء العرب بالأندلس، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها، وهي سنة ثمان وتسعين من الهجرة، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن، فطردوه وملكوا البلاد، وبقي الملك فيهم إلى الآن وكان عدة من ملك منهم إلى آخر أيام الناصر لدين الله اثنين وعشرين ملكاً، انتهى.

وقال عيسى ابن أحمد الرازي: في أيام عنبسة ابن سحيم الكلبي قام بأرض جليقية علج خبيث يقال له: بلاي من وقعة أخذ النصارى بالأندلس، وجد الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك، ولقد

استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية وأجلوهم، وافتتحوا بلادهم، حتى بلغوا أريولة من أرض الفرنجة، وافتتحوا بلبونة من جليقية، ولم يبق إلا الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له: بلاي، فدخلها في ثلاثمائة رجل، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعاً، وبقي في ثلاثين رجلاً وعشر نسوة، ولا طعام لهم إلا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به، حتى أعيا المسلمين أمرهم، واحتقروا بهم، وقالوا: ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والمثرة ما لا خفاء به، وفي سنة مائة وثلاث وثلاثين، هلك بلاي المذكور، وملك ابنه فافله بعده، وكان ملك بلاي تسع عشرة سنة، وابنه سنتين، فملك بعدهما أذفونش بن بيطر جد بني أذفونش هؤلاء اللذين اتصل ملكهم إلى اليوم، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم، انتهى باختصار.

وقال المسعودي بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر، ما صورته: وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة ومدينة أربونة، خرجت عن أيدي المسلمين سنة ثلاثمائة وثلاين مع غيرها مما كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة آخذاً في الشمال إفراغه على نهر عظيم ثم لاردة، انتهى.

* * *

الاستيلاء على طليطلة

ومن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ::: فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ::: ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحـــن بـــين عـــدو لا يفارقنـــا ::: كيف الحيـــاة مـــع الحيـــات في ســـفط

ويروى صدر البيت الثالث هكذا:

ومن جـــاور الشـــر لا يـــأمن بوائقـــه ::: كيف الحيـــاة مـــع الحيـــات في ســـفط

وتروى الأبيات هكذا:

حثـــوا رواحلكـــم يـــا أهـــل أنـــدلس ::: فمـــا المقـــام بهـــا إلا مـــن الغلـــط
الســـلك ينثـــر مـــن أطرافـــه، وأرى ::: سلك الجزيـــرة منثـــوراً مـــن الوســـط
من جـــاور الشـــر لا يـــأمن عواقبـــه ::: كيف الحيـــاة مـــع الحيـــات في ســـفط

وقال آخر:

يـــا أهـــل أنـــدلس ردوا المعـــار فمـــا ::: في العـــرف عاريـــة إلا مـــردات
ألم تـــروا بيـــدق الكفـــار فرزنـــه ::: وشـــاهنا آخـــر الأبيـــات شـــهمات

وقال بعض المؤرخين: أخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ٤٧٨؛ انتهى. وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها، وسيأتي قريباً بعض ما يؤيده.

قال: وهي مدينة حصينة قديمة أزلية من بناء العمالقة، على ضفة النهر الكبير، ولها قصبة حصينة في غاية المنعة، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة، وطليطلة هذه دار مملكة الروم، وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب؛ انتهى.

وقد تقدم شيء من هذا فيما مر من هذا الكتاب.

وقد حكى ابن بدرون في شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصراً تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالاً كثيراً، وصنع فيه

بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد:

أتبني بناء الخالدين، وإنما ::: بقاؤك فيها، لو علمت، قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية ::: لمن كل يوم يعتريه رحيل

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيراً حتى قضى نحبه، انتهى.

وقال ابن خلكان: إن طليطلة أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد، انتهى.

وقال ابن علقمة: إن طليطلة أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة٤٧٨، وكانت وقعة الزلاقة في السنة بعدها، انتهى.

* * *

وقعة الزلاقة نقلاً عن الروض المعطار وغيره

ورأيت هنا أن أذكر وقعة الزلاقة التي نشأت عن أخذ طليطلة وما يتبع ذلك من كلام صاحب الروض المعطار وغيره فنقول: إنه لما ملك يوسف بن تاشفين اللمتوني المغرب، وبنى مدينتي تلمسان ومراكش الجديدة، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس، فهم بذلك، وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها، فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم، وأعدوا له العدة والعدد، وصعبت عليهم مدافعته، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم، وتغير تنهب، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنج

ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب، وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف ورعب في قلوب المنتدبين لقتاله، وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظله، ويحذرونه خوفاً على ملكهم، مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلما رأوا ما دلهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك، راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم في أمره، وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد، لأنه أشجع القوم، وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم، وأنهم تحت طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتاباً، وهو: أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم، ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل، ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في استباقك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت، والسلام. فلما وصله الكتاب مع تحف وهدايا، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي، لكنه ذكي الطبع، يجيد فهم المقاصد، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية، فقال له: أيها الملك، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك، وتحت طاعتك، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي، فإنهم مسلمون وذوو بيوتات، فلا تغير بهم، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل الغرب، فقال يوسف ابن تاشفين لكاتبه: فما ترى أنت؟ فقال: أيها الملك اعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذي لا يرد، فإنه خليق بما حصل في يده من الملك والمال أن يعفو إذا استعفي، وأن يهب إذا استوهب، وكلما وهب جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم، فإذا عظم قدره تأصل ملكه، وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته، وإذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس، ولم يتجشم المشقة إليهم، وكان وارث الملك من غير إهلاك

لآخرته، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال: من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد، فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته، فقال للكاتب: أجب القوم، واكتب بما يجب في ذلك، واقرأ علي كتابك، فكتب الكاتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، تحية من سالمكم وسلم عليكم، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصين منا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام. فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه، فاستحسنه، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط التي لا توجد إلا ببلاده، وأنفذ ذلك إليهم، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به، وعظموه، وسروا بولايته، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم، وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم، أو يمدهم بإعانة منه.

وكان ملك الإفرنج الأذفونش لما وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف، وكان كل من حاز بلداً وتقوى فيه ملكه وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف، فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك، وأخذ كثيراً من ثغورهم، فقوي شأنه، وعظم سلطانه، وكثرت عساكره، وأخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى ابن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فزاد لعنه الله تعالى بملكه طليطلة قوة إلى قوته، وأخذ يجوس من خلال الديار، ويستفتح المعاقل والحصون.

قال ابن الأثير في " الكامل ": وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس ومتملك أكثر بلادها، مثل قرطبة وإشبيلية، وكان - مع ذلك - يؤدي الضريبة إلى الأذفونش كل سنة، فلما تملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة المعتادة، فلم يقبلها منه، وأرسل إليه يهدده ويتوعده بالمسير إلى قرطبة ليفتحها،

إلا أن يسلم إليه جميع الحصون المنيعة، ويبقى السهل للمسلمين، وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس، فنازله المعتمد، وفرق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم من عنده من الكفرة، وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر، وكان متوجهاً إلى قرطبة ليحاصرها، فرجع إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار، ويكثر العدد والعدة، انتهى.

وقال الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن المنعم الحميري في كتابه الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار ما ملخصه: إنه لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المرية حتى تأخر الوقت الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها إليه بعد ذلك، استشاط الطاغية غضباً وتشطط، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التجني، وسأل في دخول امرأته القمجيطة إلى جامع قرطبة لتلد فيه، إذ كانت حاملاً، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة - وهي التي أنشأ بناءها الناصر لدين الله، وأمعن في بنائها، وأغرب في حسنها، وجلب إليها الرخام الملون والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والأقطار، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل، وأنفق فيها الأموال العظيمة، واشتغل بها، وكان يباشر الصناع بنفسه، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات، وحضر في الرابعة، وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد منذر بن سعيد البلوطي، فعرَّض به في الخطبة، ووبخه على رءوس الملأ، وقصته في ذلك مشهورة، وبناء الزهراء أيضاً من أغرب مباني الإسلام، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان.

ولنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء والقسوس لما أشاروا أن تكون المرأة

المذكورة ساكنة بالزهراء، وتتردد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور، وكان السفير في ذلك يهودياً كان وزير الأذفونش، فامتنع ابن عباد من ذلك، فراجعه، فأباه وأيأسه من ذلك، فراجعه اليهودي في ذلك، وأغلظ له في القول، وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي، فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة، واستفتى لما سكن غضبه الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي، فبادر الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة إلى ما استوجب به القتل، إذ ليس له في ذلك، وقال للفقهاء: إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً.

وبلغ الأذفونش ما صنعه ابن عباد، فأقسم بآلهته ليغزونه بإشبيلية، ويحاصره في قصره، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ويغير على تلك التخوم والجهات، ثم يمر على لبلة إلى إشبيلية، وجعل موعده إياه طريانة للاجتماع معه، ثم زحف الأذفونش بنفسه في جيش آخر عرمرم، فسلك طريقاً غير الطريق التي سلكها الآخر، وكلاهما عاث في البلاد وخرب ودمر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد، وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زارياً عليه: كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان، واشتد علي الحر، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي، فوقع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة: قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك، إن شاء الله تعالى. فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد، وقرئت عليه، وعلم مقتضاها، أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال.

وفشا في الأندلس توقيع ابن عباد، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف

بن تاشفين، والاستظهار به على العدو، فاستبشر الناس، وفرحوا بذلك، وفتحت لهم أبواب الآمال. وأما ملوك طوائف الأندلس فلما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك، اهتموا منه، ومنهم من كاتبه، ومنهم من كلمه مواجهة، وحذروه عاقبة ذلك، وقالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد، فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: رعي الجمال خير من رعي الخنازير، ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً له يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة. وقال لعذاله ولوامه: يا قوم إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة الشك، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة، فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه فحينئذ قصر أصحابه عن لومه.

ولما اعتزم أمر صاحب بطليوس المتوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة أن يبعث إليه كل منهما قاضي حضرته، ففعلا، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم، وكان أعقل أهل زمانه، فلما اجتمع عنده القضاة بإشبيلية أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وعرفهم أربعتهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ما لا بد منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية، وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيسمع إليهم، ويصغي لقولهم، وترق نفسه لهم.

فما عبرت رسل ابن عباد البحر إلا ورسل يوسف بالمرصاد، ولما انتهت

الرسل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم، وأكرم مثواهم، واتصل ذلك بابن عباد، فوجه من إشبيلية أسطولاً نحو صاحب سبتة، فانتظمت في سلك يوسف، ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات، ثم انصرفت إلى مرسلها، ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً، حتى أتى الجزيرة الخضراء، ففتحوا له، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق، وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيه، فامتلأت المساجد والرحبات بالمطوعين، وتواصوا بهم خيراً، هذا مساق صاحب الروض المعطار.

وأما ابن الأثير فإنه لما ذكر وقعة الزلاقة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالأرسال وقتلهم، وتخوف أكابر الأندلس من الأذفونش، وأنه اجتمع منهم رؤساء، وساروا إلى القاضي عبيد الله بن محمد بن أدهم وقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية، بعد أن كانوا يأخذونها، وقالوا: قد غلب على البلاد الفرنج، ولم يبق إلا القليل، وإن طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولاً، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، قال: وما هو قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية، ونبذل لهم إذا وصلوا إلينا شطر أموالنا، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل الله، فقال لهم: إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية، ويتركوا الإفرنج ويبدأوا بنا، والمرابطون أصلح منهم، وأقرب إلينا، فقالوا له: فكاتب أمير المسلمين، واسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسر من الجند، فبينما هم في ذلك يتراوضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد قرطبة، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه، فقال له ابن عباد: أنت رسولي إليه في ذلك، فامتنع، وإنما أراد أن يبرئ نفسه من ذلك، فألح عليه المعتمد، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فوجده بسبتة، وأبلغه الرسالة وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس، وأرسل إلى مراكش في طلب من بقي من

العساكر، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً، فلما تكاملت عنده عبر البحر، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضاً، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير، وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره، وحشد جنوده، وسار من طليطلة، وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول، ويصف ما معه من القوة والعَدد والعُدد، وبالغ في ذلك، فلما وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر ابن القصيرة أن يجيبه، وكان كاتباً مفلقاً، فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: هذا كتاب طويل، أحضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره: الذي يكون ستراه وأرسله إليه، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له، وعلم أنه بلي برجل لا طاقة له به.

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة، وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب، فكان يحدق بها عسكره، ويحضرها للحرب، فكانت خيل الفرنج تجمح منها، وقدم يوسف بين يديه كتاباً للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب، كما هي السنة، ومن جملة ما في الكتاب: بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك: {وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ} [الرعد: ١٤] انتهى بمعناه، وأكثره بلفظه.

ولنرجع إلى كلام صاحب " الروض المعطار " فإنه أقعد بتاريخ الأندلس، إذ هو منهم، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه، قال رحمه الله تعالى: فلما عبر يوسف وجميع جيوشه إلى الجزيرة الخضراء انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات، جيشاً بعد جيش، وأميراً بعد أمير، وقبيلاً بعد قبيل، وبعث المعتمد ابنه

إلى لقاء يوسف، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه أصحابه، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم، وركضوا نحوه، فبرز إليه يوسف وحده، والتقيا منفردين، وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص، وشكرا نعم الله تعالى، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرعا إلى الله تعالى في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه، مقرباً إليه، وافترقا، فعاد يوسف لمحلته، وابن عباد إلى جهته، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين، وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو إشبيلية، ففعل، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر أو أعان وخرج أو أخرج، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا.

وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب استنفر جميع أهل بلاده وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة ما لا يحصى عدده، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع، وبعث الأذفونش إلى ابن عباد: إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده، وخاض البحور، وأنال أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلفكم تعباً، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم، وقال لخاصته وأهل مشورته: إني رأيت أني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادي، فناجزوني فيها وبين جدرها، وربما كانت الدائرة علي من يستحكمون البلاد، ويحصدون من فيها غداة واحدة، ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي، وجبر لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أنا أن يكون في بلادي إذا ناجزوني في وسطها، ثم برز بالمختار من جنوده، وأنجاد

جموعه على باب دربه، وترك بيقة جموعه خلفه، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء، فالمقلل يقول: المختارون أربعون ألف ذراع، ولكل واحد أتباع. وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك، ويرون أنهم أكثر من ذلك كله. واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة، ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكب فيل يضرب نقيرة طبل، فهالته الرؤيا، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد، فدس يهودياً عمن يعلم تأويلها من المسلمين، فدل على معبر، فقصها عليه، ونسبها لنفسه، فقال له المعبر: كذبت، ما هذه الرؤيا لك، ولا أعبرها لك إلا إن صدقتني بصاحب الرؤيا، فقال له: اكتم علي، الرؤيا للأذفونش، فقال المعبر: صدقت ولا يراها غيره، والرؤيا تدل على بلاء عظيم، ومصيبة فادحة فيه وفي عسكره، وتفسيرها قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١)} [الفيل: ١] وأما ضربه النقيرة فتأويلها:{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩)} [المدثر: ٨ - ٩] فانصرف اليهودي وذكر للأذفونش ما وافق خاطره.

ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الأندلس، وتقدم السلطان يوسف فقصده، وتأخر ابن عباد لبعض مهماته، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور، ورؤساء الأندلس، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلاً مكملاً البيت المشهور:

لا بد من فرج قريب ::: يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك ::: سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنه نكس ::: على دين الصليب
لا بد من يوم يكو ::: ن له أخاً يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس، فأناخوا بظاهرها، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود، وجاءهم الخبر بشخوص الأذفونش، ولما ازدلف بعضهم إلى بعض أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد

الأذفونش، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه، حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات، وقد تقدم كتاب السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث المأمور بها شرعاً، فامتلأ الكافر غيظاً، وعتا وطغى، وراجعه بما يدل على شقائه، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم، ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ، وحضوهم على الصبر والثبات، وحذروهم من الفشل والفرار، وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم، ففجع الأذفونش، ورجع إلى إعمال المكر والخديعة، فعاد الناس إلى محلاتهم، وباتوا ليلتهم، ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: غداً هو الجمعة، وهو عيدكم، والأحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما، وهو السبت، فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة، وإنما قصد الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس. وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي - وكان في محلة ابن عباد - فرحاً مسروراً يقول: إنه رأى النبي ، في تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى.

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحرك الأذفونش، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: ابن المعتمد مسعر هذه

الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، واصبروا فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش، ويستحث نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين، فعرفه بجلية الأمر، فقال له: قل له إني سأقرب منه إن شاء الله تعالى، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً مع ابن عباد.

وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد، فلم يصله إلا وقد غشيته جنود الطاغية، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله، ومال الأذفونش عليه بجموعه، وأحاطوا به من كل جهة، فهاجت الحرب، وحمي الوطيس، واستحر القتل في أصحاب ابن عباد، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعضته الحرب، واشتد عليه وعلى من معه البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون وساءت الظنون، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبد الله، وأثخن ابن عباد جراحات، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه وجرحت يمنى يده، وطعن في أحد جانبيه، وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يميناً وشمالاً، وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مغرماً به تركه في إشبيلية عليلاً، وكنيته أبو هاشم، فقال:

أبا هاشم هشمتني الشفار ::: فلله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج ::: فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة، وكان بطلاً شجاعاً شهماً، فنفس بمجيئه عن ابن عباد، ثم أقبل يوسف بعد ذلك،

وطبوله تصعد أصواتها إلى الجو، فلما أبصره الأذفونش وجه حملته إليه، وقصده بمعظم جنوده، فبادر إليهم السلطان يوسف، وصدمهم بجمعه، فردهم إلى مركزهم، وانتظم به شمل ابن عباد، واستنشق ريح الظفر، وتياشر بالنصر، ثم صدقوا جميعاً الحملة، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم، وأظلم النهار بالعجاج والغبار، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبراً عظيماً، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف، وحمل معه حملة جاء معها النصر، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين، وصدقوا الحملة، فانكشف الطاغية، وفر هارباً منهزماً وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره.

وعلى سياق ابن خلكان أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء، وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت، فغدر الأذفونش ومكر، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد، والروم في أثرها، والناس على طمأنينة، فبادر ابن عباد للركوب، وبث الخبر في العساكر فماجت بأهلها، ووقع البهت، ورجفت الأرض، وصار الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة، ودهمتهم خيل العدو، فأحاطت بابن عباد، وحطمت ما تعرض لها، وتركت الأرض حصيداً خلفها، وجرح ابن عباد جرحاً أشواه، وفر رؤساء الأندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها، وظنوا أنه وهي لا يرقع، ونازلة لا تدفع، وظن الأذفونش أن السلطان يوسف في المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين، فركب أمير المسلمين، وأحدق به أنجاد خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل، وقصدوا محلة الأذفونش فاقتحموها ودخلوها، وفتكوا فيها، وقتلوا، وضربت الطبول، وزعقت البوقات، فاهتزت الأرض، وتجاوبت الجبال والآفاق، وتراجع الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها، فصدموا أمير المسلمين، فأفرج لهم عنها، ثم كر عليهم فأخرجهم منها، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير

المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف، ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهند ومزاريق الران، فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها، وأجمحت عن أقرانها، وتلاحق الأذفونش بأسود نقدت مزاريقه، فأهوى ليضربه بالسيف، فلصق به الأسود، وقبض على عنانه، وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به، فأثبته في فخذه، فهتك حلق درعه، ونفذ من فخذه مع بداد سرجه، وكان وقت الزوال، وهبت ريح النصر، فأنزل الله سكينته على المسلمين، ونصر دينه القويم، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه، فأخرجوهم عن محلتهم، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم، والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم، إلى أن لحقوا ربوة لجأوا إليها واعتصموا بها، وأحدقت بهم الخيل، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة، وأفلتوا بعدما تشبثت بهم أظفار المنية، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين، فاجتمع من ذلك تل عظيم، انتهى، وبعضه بالمعنى.

رجع إلى كلام صاحب الروض المعطار قال: ولجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلوم، وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابهم، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها، والمخذول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلا نكالاً محيطاً به وبأصحابه، وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وجميل صبره، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه، فقال له: هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك.

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية كتاباً مضمونه: كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب، وقد أعز الله الدين، ونصر المسلمين، وفتح لهم الفتح المبين، وهزم الكفرة والمشركين، وأذاقهم العذاب

الأليم، والخطب الجسيم، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة، والنعمة الجسيمة، في تشتيت شمل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره، أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم، بعد إتيان الذهب على محلاته، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحماته، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، فلله الحمد على جميل صنعه، ولم يصبني والحمد لله إلا جراحات يسيرة آلمت لكنها فرجت بعد ذلك، فلله الحمد والمنة، والسلام.

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس، مثل ابن رميلة صاحب الرؤية المذكورة، وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي، وغيرهما، رحمهما الله تعالى.

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قدم، إلا على ميت أو دم، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام، حتى جمعت الغنائم، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف، فعف عنها، وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه، وأحبوه وشكروا له ذلك.

ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابهم ففقدهم ولم يسمع إلا نواح الثكلى عليهم، اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك هماً وغما، وراح إلى أمه الهاوية، ولم يخلف إلا بنتاً واحدة وجعل الأمر إليها، فتحصنت بطليلة.

ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين، فأقام السلطان يوسف بن تاشفين بظاهر لإشبيلية ثلاثة أيام، وردت عليه من المغرب أخباراً تقتضي العزم فسافر وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع، وكانت جراحاته تورمت عليه، فسير معه ولده عبد الله إلى

أن وصل البحر، وعبر إلى المغرب.

ولما رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس، وهنئ بالفتح، وقرأت القراء، وقام على رأسه الشعراء، فأنشدوه، قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ القارئ:{إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ} [التوبة: ٤٠] فقلت: بعداً لي ولشعري، والله ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به.

ولما عزم السلطان يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر أحد قواده المشاهير، وترك معه جيشاً برسم غزو الفرنج، فاستراح الأمير المذكور أياماً قلائل، ودخل بلاد الأذفونش، وأطلق الغارة ونهى وسبى، وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة، وتوغل في البلاد، وحصل أموالاً وذخائر عظيمة، ورتب رجالاً وفرساناً في جميع ما أخذه، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله، وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملاومة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد العيش وأطيبه، وسأله مرسومه، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العدوة، فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصره وقاتله، ولا تنفس عليه، ولتبدأ بمن والى الثغور، ولا تتعرض للمعتمد بن عباد، إلا بعد استيلائك على البلاد، وكل بلد أخذته فول فيه أمراً من عساكرك، فأول من ابتدأ به من ملوك الأندلس بنو هود، وكانوا بروطة - بضم الراء المهملة، وبعدها واو ساكنة، وطاء مهملة مفتوحة، وبعدها هاء ساكنة، وهي قلعة منيعة من عاصمات الذرا، ومائها ينبع من أعلاها، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان - فحاصرها فلم يقدر عليها ورحل عنها، وجند أجناداً على هيئة الفرنج وزيهم، وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها، وكمن هو وأصحابه بقرب منها، فلما رآهم أهل القلعة استضعفوهم، فنزلوا إليهم، ومعهم صاحب القلعة، فخرج عليه سير المذكور، وقبضه باليد، وتسلم الحصن.

ثم نازل بني ضاهر بشرق الأندلس، فأسلموا له البلاد، ولحقوا ببر العدوة.

ثم نازل بني صمادح بالمرية، ولها قلعة حصينة، فحاصرهم وضيق بهم، ولما علم ابن صمادح الغلب أسف ومات غبناً، فأخذ القلعة واستولى على المرية وجميع أعمالها.

ثم قصد بطليوس، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس المتقدم ذكره، فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله، ولم يبق له إلا المعتمد بن عباد، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل، ويسأله مرسومه في ابن عباد، فكتب إليه يأمره أنه يعرض عليه النقلة لبر العدوة بجميع الأهل والعشيرة، فإن رضي، وإلا فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه، فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف، وسأله الجواب، فلم يجب بنفي ولا إثبات، ثم إنه نازل إشبيلية وحاصره بها وألح عليه فأقام الحصار شهراً، ودخل البلد قهراً، واستخرجه من قصره، فحمل وجميع أهله وولده إلى العدوة فأنزل بأغمات، وأقام بها إلى أن مات، رحمه الله تعالى وعفا عنه.

وأما ابن الأثير ففي كلامه تقديم وتأخير وبعض خلاف لما مر.

وأخبار المعتمد بن عباد، وما رآه من الملك والعز على كل حاضر وباد، وما قاساه في الأسر من الضيق والعسر وسوء العيش أمر عجيب، يتعظ به العاقل الأريب، وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم في حالي يسره وعسرهن وملكه وأسره، وطيه ونشره، وتجهمه وبشره، فهو كثير، وفي كتب التواريخ منه نظم ونثير، وقد قدمنا منه في هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير، وخصوصاً في الباب السابع من هذا التأليف الذي هو عند المنصف أثير، وفي المعتمد وأبيه المعتضد يقول بعض الشعراء:

من بني منذر وذاك انتساب ::: زاد في فخرهم بنوا عباد

فتية لم تلد سواها المعالي ::: والمعالي قليلة الأولاد

وقال ابن القطاع في كتابه " لمح الملح " في حق المعتمد: إنه أندى ملوك

الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثماداً، وأرفعهم عماداً، ولذلك كانت حضرته ملقى الرحال، وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك من أعيان الشعراء، وأفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشيتا جنابه.

وقال ابن بسام في " الذخيرة " : للمعتمد شعر، كما انشق الكمام عن الزهر، لو صار مثله ممن جعل الشعر صناعة، واتخذه بضاعة، لكان رائقاً معجباً، ونادراً مستغرباً، [فمن ذلك قوله]:

أكثرت هجرك غير أنك ::: ربما عطفتك أحياناً على أمور
فكأنما زمن التهاجر بيننا ::: ليل، وساعات الوصال بدور

وقال: وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من أبيات:

أسفر ضوء الصبح عن وجهه ::: فقام ذاك الخال فيه بلال
كأنما الخال على خده ساعات ::: هجر في زمان الوصال

وعزم على إرسال حظاياه من قرطبة إلى إشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح، فودعهن ورجع، وأنشد أبياتاً منها:

سيرتهم والليل عقد ثوبه ::: حتى تبدى للنواظر معلما
ووقفت ثم مودعاً وتسلمت مني ::: يد الإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى في نهاية الحسن، ثم ذكر من كلامه جملة.

عود وانعطاف:

ولما جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غرناطة - بعدما حصر بعض حصون الفرنج، فلم يقدر عليه - خرج على لقائه صاحب غرناطة عبد الله ابن بلكين، فسلم عليه، ثم عاد إلى بلده ليخرج له التقادم، فغدر به ودخل البلد، وأخرج عبد الله، ودخل قصره فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يحد ولا يحصى، ثم رجع إلى مراكش وقد أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها، وما بها من المباني والبساتين والمطاعم وسائر الأصناف التي لا توجد في بلاد

العدوة، إذ هي بلاد بربر وأجلاف عربان، فجعل خواص يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس ويحسنون له أخذها، ويوغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه، فتغير على المعتمد وقصد مشارفة الأندلس.

وحكى ابن خلدون أن علماء الأندلس أفتوا ابن تاشفين بجواز خلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف، وبقتاله إن امتنعوا، فجهز يوسف العساكر إلى الأندلس، وحاصر سير بن أبي بكر أحد عظماء دولة يوسف إشبيلية وبها المعتمد، فكان من دفاعه وشدة ثباته ما هو معلوم، ثم أُخذ أسيراً، وصار طرف الملك بعده حسيراً.

وفي وصف ذلك يقول صاحب القلائد بعد كلام: ثم جمع هو وأهله وحملتهم الجواري المنشآت، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعدما ضاق عنهم القصر، وراق منهم المصر، والناس قد حشروا بضفتي الوادي، يبكون بدموع كالغوادي، فساروا والنوح يحدوهم، والبوح باللوعة لا يعدوهم، انتهى.

ولما فرغ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين من أمر غزوة الزلاقة المتقدم ذكرها ورجع تكرم له ابن عباد، وسأله أن ينزل عنده، فعلاج إلى بلاده إذ أجابه إلى ما طلب، فلما انتهى ابن تاشفين إلى إشبيلية مدينة المعتمد - وهي من أحسن المدن وأجلها منظراً - أمعن يوسف النظر فيها وفي محلها، وهي على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع جالبة من بر المغرب وحاملة إليه، وفي غربيها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تين وعنب وزيتون، وهذا هو المسمى بشرف إشبيلية، وتمتاز بلاد المغرب كلها بهذه الأصناف منه، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمشروف وغير ذلك، فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها، وما هي عليه من النعمة

والإتراف، ويغرونه باتخاذ مثلها، ويقولون له: إن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة، كما هو المعتمد وأصحابه، وكان ابن تاشفين داهية عاقلاً مقتصداً في أموره، غير متطاول ولا مبذر، غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة والنعيم، إذ ذهب صدر عمره في بلاده بالصحراء في شظف العيش، فأنكر على من أغراه بذلك الإسراف، وقال له: الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل - يعني المعتمد - أنه مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الأموال الكثيرة التي تصرف في هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأخذه بالظلم وإخراجه في هذه الترهات من أفحش استهتار، ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى تستنجد همته في ضبط بلاده وحفظها، وصون رعيته والتوقير لمصالحها ولعمري لقد صدق في كل ذلك.

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته: هل تختلف فتنقص عما عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كل زمانه على هذا فقال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظًّا من ذلك؟ فقالوا: لا، قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا: لا رضى لهم عنه، فأطرق وسكت، وأقام عند المعتمد على تلك الحال أياماً.

وفي أثنائها استأذن رجل على المعتمد ودخل وهو ذو هيئة رثة، وكان من أهل البصائر، فلما مثل بين يديه قال: أصلحك الله أيها السلطان، وإن من أوجب الواجبات شكر النعمة، وإن من شكر النعمة إهداء النصائح، وإني رجل من رعيتك حالي في دولتك إلى الاختلال، أقرب منها إلى الاعتدال، ولكنني مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيته، فمن ذلك خبر وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم يرون أنفسهم وملكهم، أحق بهذه النعمة منك، وقد رأيت رأياً، فإن آثرت الإصغاء إليه قلته، فقال المعتمد له: قله، فقال له: رأيت أن هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك

مستأسد على الملوك، قد حطم على زناتة ببر العدوة، وأخذ الملك من أيديهم، ولم يبق على واحد منهم، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع في ملكك، بل في ملك جزيرة الأندلس كلها، لما قد عاينه من هناءة عيشك، وإنه لمتخيل في مثل حالك سائر ملوك الأندلس، وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يود له الحلول لما أنت فيه من خصب الجناب، وقد أردى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مجن، وبعد فإنه إن فات الأمر في الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم، فقال له المعتمد: وما هو الحزن اليوم فقال: أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له، ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضمر في نفسه عوداً إلى هذه الجزيرة إلا باتفاق منكم ومنه، وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء، فنفسه أعز عليه من جميع ما يلتمس منه، فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلا له، وتكون قد استرحت بعدما استرحت من الأذفونش، وتقيم في موضعك على غير حال، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة ويتسع ملكك وينسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحزم وتهابك الملوك، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة من عاملته هذه المعاملة، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر سماوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله، فلما سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه، وجعل يفكر بانتهاز الفرصة.

وكان للمعتمد ندماء قد انهمكوا معه في اللذات، فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح: ما كان المعتمد على الله - وهو إمام أهل المكرمات - ممن يعامل بالحيف، ويغدر بالضيف، فقال الرجل: إنما الغدر أخذ الحق من يد صاحبه، لا

دفع الرجل عن نفسه المحذور إذا ضاق به، فقال ذلك النديم: ضيم مع وفاء، خير من حزم مع جفاء. ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر وتلافاه، فشكر له المعتمد، ووصله بصلة. واتصل هذا الخبر بيوسف فأصبح غادياً، فقدم له المعتمد الهدايا السنية والتحف الفاخرة، فقبلها ثم رحل.

انتهى خبر وقعة الزلاقة وما يتبعه ملخصاً من كتب التاريخ.

ولما انقرض بالأندلس ملك ملوك الطوائف بني عباد وبنيهم ذي النون وبني الأفطس وبني صمادح وغيرهم انتضمت في سلك اللمتونيين، وكانت لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة في كتب التواريخ.

* * *

دخول الأندلس في طاعة الموحدين

ولما مات يوسف بن تاشفين سنة خمسمائة قام بالملك بعده ابنه أمير المسلمين علي بن يوسف، وسلك سنن أبيه، وإن قصر عنه في بعض الأمور، ودفع العدو عن الأندلس مدة، إلى أن قيد الله تعالى للثورة عليه محمد بن تومرت الملقب بالمهدي الذي أسس دولة الموحدين، فلم يزل يسعى في هدم بنيان لمتونة إلى أن مات ولم يملك حضرة سلطنتهم مراكش، ولكنه ملك كثيرًا من البلاد، فاستخلف عبد المؤمن بن علي، فكان من استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو معروف، ثم جاز إلى الأندلس وملك كثيراً منها، ثم أخرج الإفرنج من مهدية إفريقية، وملك بلاد إفريقية وضخم ملكه، وتسمى بأمير المسلمين.

* * *

عبد المؤمن بن علي

ولما كانت سنة ٥٤٥ سار الأذفونش صاحب طليطلة وبلاد الجلالقة إلى قرطبة ومعه أربعون ألف فارس فحاصرها، وكان أهلها في غلاء شديد، فبلغ

الخبر عبد المؤمن، فجهز إليهم جيشاً يحتوي على اثني عشر ألف فارس، فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب، فسلمها إلى صاحب جيش عبد المؤمن يحيى بن ميمون فبات فيها، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم، ونزلوا في المكان الذي كانوا فيه، فلما عاين ذلك رتب هنالك ناساً، وعاد إلى عبد المؤمن، ثم رحل الفرنج إلى ديارهم.

وفي السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفاً عليهم الهنتاتي، فصار إليه صاحب غرناطة ميمون وابن همشك وغيرهما، فدخلوا تحت طاعة الموحدين، وحرصوا على قصد ابن مردنيش ملك شرق الأندلس، وبلغ ذلك ابن مردنيش، فخاف وأرسل إلى صاحب برشلونة من الإفرنج يستنجده، فتجهز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس، وسار صاحب جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش، فبلغه أمر البرشلوني الإفرنجي فرجع، ونازل مدينة المرية وهي بأيدي الروم فحاصرها، فاشتد الغلاء في عسكره فرجع إلى إشبيلية فأقام فيها، وسار عبد المؤمن إلى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر.

ثم سار عبد المؤمن سنة٥٧٤ إلى المهدية فملكها، وملك إفريقية، وضخم ملكه كما قدمناه.

* * *

يوسف بن عبد المؤمن

ولما مات بويع بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن، ولما تمهدت له الأمور، واستقرت قواعد ملكه، دخل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسمائة، وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحدين والعرب، فنزل بحضرة إشبيلية، وخاف ملك شرق الأندلس - مرسية وما انضاف إليها - الأمير الشهير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف

بابن مردنيش، وحمل على قلب ابن مردنيش، فمرض مرضاً شديداً ومات، وقيل: إنه سم، ولما مات جاء أولاده وأهله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو بإشبيلية، فدخلوا تحت حكمه وسلموا لأحكامه البلاد، فصاهرهم وأحسن إليهم وأصبحوا عنده في أعز مكان، ثم شرع في استرجاع البلاد التي استولى عليها الإفرنج، فاتسعت مملكته بالأندلس، وصارت سراياه تغير إلى باب طليطلة، وقيل: إنه حاصرها، فاجتمع الفرنج كافة عليه، واشتد الغلاء في عسكره، فرجع عنها إلى مراكش حضرة ملكه، ثم ذهب إلى إفريقية فمهدها، ثم رجع إلى حضرته مراكش، ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين وخمسمائة ومعه جمع كثيف، وقصد غربي بلادها، فحاصر مدينة شترين، وهي من أعظم بلاد العدو، وبقي محاصراً لها شهراً، فأصابه المرض فمات في السنة المذكورة، وحمل في تابوت إلى إشبيلية، وقيل: أصابه سهم من قبل الإفرنج، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال.

وفي ابنه السيد أبي إسحاق يقول مطرف التجيبي رحمه الله تعالى:

سعد كما شاء العلا والفخار ::: تصرف الليل به والنهار
ما دانت الأرض لكم عنوة ::: وإنما دانت لأمر كبار
مهدتموها فصفا عيشها ::: واتصل الأمن، فنعم القرار

ومنها:

فالشاة لا يختلها ذئبها ::: وإن أقامت معه في وجار

* * *

يعقوب المنصور

ولما مات يوسف قام بالأمر بعده ابنه الشهير أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن، فقام بالأمر أحسن قيام، ولما مات يوسف المذكور رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها:

جـــل الأســـى فأســـل دم الأجفـــان ::: مـــاء الشـــؤون لغـــير هـــذا الشـــان

ويعقوب المنصور هو الذي أظهر أبهة ملك الموحدين، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط الأحكام الشرعية، وأظهر الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأقام الحدود على القريب والبعيد، وله في ذلك أخبار، وفيه يقول الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر المشهور:

أزال حجابـــه عـــني وعـــيني ::: تـــراه مـــن المهابـــة في حجـــاب

وقـــربني تفضـــله ولكـــن ::: بعـــدت مهابـــة عنـــد اقتـــرابي

وكثرت الفتوحات في أيامه، وأول ما نظر فيه عند صيرورة الأمر إليه بلاد الأندلس، فنظر في شأنها ورتب مصالحها، وقرر المقاتلين في مراكزهم، ورجع إلى كرسي مملكته مراكش المحروسة.

وفي سنة٥٨٦ بلغه أن الإفرنج ملكوا مدينة شلب وهي من غرب الأندلس، فتوجه إليها بنفسه وحاصرها وأخذها، وأنفذ في الوقت جيشاً من الموحدين والعرب، ففتح أربع مدن مما بأيدي الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة، وخافه صاحب طليطلة، وسأله الهدنة والصلح، فهادنه خمس سنين وعاد إلى مراكش.

وأنشد القائد أبو بكر بن وزير الشلبي وهو من أمراء كتائب إشبيلية قصيدة يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج كان الشلبي المذكور مقدماً فيها:

ولمـــا تلاقينـــا جـــرى الطعـــن بيننـــا ::: فمنـــا ومنـــهم طـــائحون عديـــد

وجـــال غـــرار الهنـــد فينـــا وفـــيهم ::: فمنـــا ومنـــهم قـــائم وحصـــيد

فـــلا صـــدر إلا فيـــه صـــدر مثقـــف ::: وحـــول الوريـــد للحســـام ورود

صبرنا ولا كهف سوى البـــيض والقنـــا ::: كلانـــا علـــى حـــر الجـــلاد جليـــد

ولكـــن شـــددنا شـــدة فتبلـــدوا ::: ومـــن يتبلـــد لا يـــزال يحيـــد

فولـــوا وللســـمر الطـــوال بهـــامهم ::: ركـــوع وللبـــيض الرقـــاق ســـجود

* * *

رجع إلى أخبار المنصور بعد هدنة الإفرنج

ولما انقضت مدة الهدنة، ولم يبق منها إلا القليل، خرج طائفة من الإفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عيثاً فظيعاً، فانتهى الخبر إليه، فتجهز لقصدهم في جيوش موفرة وعساكر مكتبة، واحتفل في ذلك، وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١، فعلم به الإفرنج، فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها، وأقبلوا نحوه، وقيل: إنه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض مرضاً شديداً، ويأس منه أطباؤه، فعاث الأذفونش في بلاد المسلمين بالأندلس، وانتهز الفرصة، وتفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان، فأرسل الأذفونش يتهدد ويتوعد ويرعد ويبرق، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس، وخلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك إلى لقاء النصارى، وتزاحف الفريقان، فكان المصاف شمالي قرطبة على قرب قلعة رباح في يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١، فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين.

وحكي أن يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيى ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحفصي الذي ملك بعد ذلك إفريقية، وخطب له ببعض الأندلس، فقصد الإفرنج الأعلام ظنًّا أن السلطان تحتها، فأثروا في المسلمين أثراً قبيحاً، فلم يرعهم إلا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كسر شوكتهم، فهزمهم شر هزيمة، وهرب الأذفونش في طائفة يسيرة، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر.

وحكي أن الذي حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد، ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه، وربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة. وقيل: إن فل الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح فتحصنوا بها، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها، وكانت قبل للمسلمين، فأخذها العدو، فردت في

هذه المرة، ثم حاصر طليطلة وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على أرجائها، وأخذ من أعمالها حصوناً وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها وترك الإفرنج في أسوأ حال، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة، ثم رجع إلى إشبيلية، وأقام إلى سنة ٥٩٣، فعاد إلى بلاد الفرنج، وفعل فيها الأفاعيل، فلم يقدر العدو على لقائه، وضاقت على الإفرنج الأرض بما رحبت، فطلبوا الصلح فأجابهم إليه، لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بإفريقية مع قراقوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام.

ثم توفي السلطان يعقوب سنة ٥٩٥. وما يقال: إنه ساح في الأرض وتخلى عن الملك ووصل إلى الشام، ودفن بالبقاع لا أصل فيه، وإن حكى ابن خلكان بعضه. وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي في شرح مقصورة حازم، وقال: إن ذلك من هذيان العامة، لولوعهم بالسلطان المذكور.

* * *

محمد الناصر ووقعة العقاب

وولي بعده ولده محمد الناصر المشؤوم على المسلمين، وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص، فإنه جمع جمعاً اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش، فصاف الإفرنج، فكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي خلا بسببها أكثر المغرب، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها، ولم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف فيما قيل، وهذه الوقعة هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعاً، وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، والله غالب على أمره، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة

تحمد.

* * *

نهاية الموحدين

ولما مات الناصر سنة عشرين وستمائة ولي بعده ابنه يوسف المستنصر، وكان مولعاً بالراحة، فضعفت الدولة في أيامه، وتوفي سنة ٦٢٠.

فتولى عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، فلم يحسن التدبير، وكان إذ ذاك بالأندلس العادل بن المنصور، فرأى أنه أحق بالأمر، فاستولى على ما بقي في أيدي المسلمين من الأندلس بغير كلفة، ولما خلع عبد الواحد وخنق بمراكش ثارت الإفرنج على العادل بالأندلس، وتصاف معهم، فانهزم ومن معه من المسلمين هزيمة شنعاء، فكانت الأندلس قرحاً على قرح، فهرب العادل، وهرب البحر يروم مراكش، وترك بإشبيلية أخاه أبا العلا إدريس، ودخل العادل مراكش بعد خطوب، ثم قبض عليه الموحدون، وقدموا يحيى بن الناصر صغير السن غير مجرب للأمور، فادعى حينئذ الخلافة أبو العلاء إدريس بإشبيلية، وبايعه أهل الأندلس، ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس، فثار على أبي العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجذامي، ودعا إلى بني عباس، فمال الناس إليه، ورجعوا عن أبي العلاء، فخرج عن الأندلس - أعني أبا العلاء - وترك ما وراء البحر لابن هود. ولم يزل أبو العلاء يتحارب مع يحيى بن الناصر إلى أن قتل يحيى، وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب، دون الأندلس، ثم مات سنة ٦٣٠.

وبويع ابنه الرشيد، وبايعه بعض أهل الأندلس، ثم توفي سنة٦٤٠.

وولي بعده أخوه السعيد، وقتل على حصن بينه وبين تلمسان سنة ٦٤٦.

وولي بعده المرتضى عمر بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن، وفي سنة ٦٦٥ دخل عليه الواثق المعروف بأبي دبوس ففر، ثم قبض وسيق إلى الواثق

فقتله، ثم قتل الواثق بنو مرين سنة ٦٦٨، وبه انقرضت دولة بني عبد المؤمن، وكانت من أعظم الدول الإسلامية، فاستولى بنو مرين على المغرب.

* * *

ظهور ابن هود وابن الأحمر

وأما المتوكل بن هود فملك معظم الأندلس، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته، وقتله غدراً وزيره ابن الرميمي بالمرية، واغتنم الإفرنج الفرصة بافتراق الكلمة، فاستولوا على كثير مما بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون.

ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر، وخطب بعض أهل الأندلس لأبي زكريا الحفصي صاحب إفيرقية، وقد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا، وأعدناه لتناسق الحديث، ولما في بعض من زيادة الفائدة على البعض الآخر، وذلك لا يخفى على المتأمل، وقد بسطنا في الباب الثالث أحوال ابن هود وابن الأحمر وغيرهما، رحم الله تعالى الجميع.

* * *

الدولة المرينية

ثم استفحل ملك يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب وحضرة ملك فاس، فانتصر به الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم، فاجتاز إلى الأندلس وهزم الإفرنج أشد هزيمة، حتى قال بعضهم: ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المريني وفتك في بعض غزواته بملك من النصارى يقال له: ذوننه، ويقال: إنه قتل من جيشه أربعين ألفاً وهزمهم أشد هزيمة، ثم تتابعت غزواته بالأندلس وجوازه للجهاد، وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك، وأعز الله تعالى به الدين بعد تمرد الفرنج المعتدين. ولما مات ولي بعده ابنه يوسف بن يعقوب، ففر إليه الأذفونش ملك النصارى لائذاً به وقبل يده، ورهن عنده تاجه، فأعانه على استرجاع

ملكه.

ولم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشكورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة.

ولما أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني، وخلص له المغرب وبعض بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس، واهتم بذلك غاية الاهتمام، فقضى الله تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب بعد أخذهم الجزيرة الخضراء، وكان الإفرنج جمعوا جموعاً كثيرة برسم الاستيلاء على ما بقي للمسلمين بالأندلس، فاستنفر أهل الأندلس السلطان أبا الحسن المذكور، فجاء بنفسه إلى سبتة فرضة المجاز ومحل أساطيل المسلمين، فإذا الإفرنج جاءوا بالسفن التي لا تحصى ومنعوه العبور وإغاثة أهل الأندلس حتى استولوا على الجزيرة الخضراء، وأنكوه في مراكبه أعظم نكاية، ولله الأمر. وقد أفصح عن ذلك كتاب صدر من السلطان أبي الحسن المذكور إلى سلطان مصر والشام والحجاز الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي الألفي، رحم الله الجميع.

* * *

نبذة من أخبار أبي الحسن

وقال بعض المشارفة في حق السلطان أبي الحسن، ما صورته: ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله، وجرت إلى المشرق أنواء نواله، وطابت نسماته، واشتهرت عزماته، كان حسن الكتابة، كثير الإنابة، ذا بلاغة وبراعة، وشهامة وشجاعة، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة، أقام في الملك عشر سنين وسبعة أيام، ثم صرف بولده أبي عنان بعد حروب يطول

شرحها، انتهى من كتاب نزهة الأنام.

ولما ذكر الإمام الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق في كتابه المسند الصحيح الحسن من أخبار السلطان أبي الحسن أمر الربعة التي أرسلها السلطان أبو الحسن بخطه قال ما ملخصه: وأرسل معها للسلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين، ومن الزمرد مائة وثمانية وعشرين، ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة وأربعة وستين، وأرسل حللاً كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر، ومن الإناق عشرين مذهبة، ومن الخلادي ستة وأربعين، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة، ومن المحررات المختمة ثمانمائة، ومن الرصان عشرين شقة، والأكسية المحررة أربعة وعشرين، والبرانس المحررة ثمانية عشر، والمشففات مائة وخمسين، وأحارم الصوف المحررة عشرين، ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المذبوق والحلل ثمانمائة، وأوجه اللحف المذهبة عشرين، وحائطان حلة وحنابل مائة واثني عشر كلها حرير، وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة، والسروج عشرة بركب ذهب ومهاميز ذهب كذلك، وثلاث ركب فضة، وست مزججة ومذهبة، ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك، وشاشية حرير مطوقة بذهب مكلل بالجوهر، ومن لزمات الفضة عشرة، وسرج مخروزة بالفضة عشرة، وعشر علامات معششة مذهبة، وعشر رايات مذهبة، وعشر براقع مذهبة، وعشر أمثلة مرقومة، وثلاثين جلد أشرك، وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة، وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقه لها أربعة أبواب، وقبة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهي حرير أبيض ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وأبنوس وأكبارها من فضة مذهبة، ومن البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين، ومن عتاق الخيل

العراب ثلاثمائة وخمسة وثلاثين، ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين، ومن الجمال سبعمائة، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحج مع الربعة المكرمة، وأعطى الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم آلاف وخمسمائة ذهباً، ولقاضي الركب ثلاثمائة وكسوة، ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعددة وبغلات، وللرسول المعين للهدية ألفاً، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة، ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة، ولشراء ربع ستة عشر ألفاً وخمسمائة ذهباً؛ انتهى.

وذكر في الكتاب المذكور أن السلطان أبا الحسن الموصوف أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك، ومنها لصاحب الأندلس صلة وصدقة في مرات، ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي، ومنها لصاحب إفريقية، ومنها لصاحب تلمسان؛ انتهى.

وقال مؤرخ مصر المقريزي في كتاب السلوك في سنة ٧٣٨ ما نصه:

وفي ثاني عشرين من رمضان قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي ابن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس تريد الحج، ومعها هدية جليلة إلى الغاية، نزل لحملها من الإصطبل السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال، كان من جملتها أربعمائة فرس منها مائة حجرة ومائة فحل ومائتا بغل، وجميعها بسرج ولجم مسقطة بالذهب والفضة، وبعضها سرجها وركبها كلها ذهب، وكذلك لجمها، وعدتها اثنان وأربعون رأساً، منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر، وفيها اثنان وثلاثون بازاً، وفيها سيف قرابه ذهب مرصع، وحياصته ذهب مرصع، وفيها مائة كساء، وغير ذلك من القماش العال، وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم، وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح، وهم جمع كبير جدًّا، وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة، ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم، حتى نفدت كلها سوى الجواهر

واللؤلؤ فإنه اختص به، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار، ثم نقلت الحرة إلى الميدان بمن معها، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ماعمهم وفضل عنهم، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم، ونصف إردب أرز، وقنطار حب رمان، وربع قنطار سكر، وثماني فانوسيات شمع، وتوابل الطعام، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وأربعين ألف درهم، وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم، ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم، حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره، وقيل لها أن تملي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء، وإنما تريد عناية السلطان بإكرامها وإكرام من معها حيث كانوا، فتقدم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد أقبغا بتجهيزها اللائق بها، فقاما بذلك، واستخدما لها السقائين والضوية، وهيئا كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبقسماط، وطلبا الحمالة لحمل جهازها وأزودتها، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل، ويمتثل كل ما تأمر به، وكتب لأميري مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة.

وقال في سنة خمس وأربعين وسبعمائة ما نصه: وفي نصف شعبان قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة، وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمن السلام، وأن يدعو له الخطباء يوم الجمعة وخطبها ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوهم، ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك، وذلك أن في السنة الخالية كانت بينه وبين الفرنج وقعة عظيمة قتل فيها ولده، ونصره الله تعالى بمنه على العدو، وقتل كثيراً منهم، وملكوا منهم الجزيرة الخضراء، فعمر الفرنج مائتي شيني، وجمعوا طوائفهم، وقصدوا المسلمين، وأوقعوا بهم على حين غفلة، فاستشهد عالم كثير، ونجا أبو الحسن في طائفة

من ألزامه بعد شدائد، وملك الفرنج الجزيرة، وأسروا وسبوا وغنموا شيئاً يجل وصفه، ثم مضوا إلى جهة غرناطة، ونصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم أهلها على قطيعة يقومون بها، وتهادنوا مدة عشر سنين، انتهى كلامه.

وقال ابن مرزوق في المسند الصحيح الحسن بعد كلام ما ملخصه: وكان يعني السلطان أبا الحسن مجتهداً في الجهاد بنفسه وحرمه، وجاز للأندلس برسم ذلك بنفسه، وأظهر آثاره الجميلة، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد أن أنفق عليه الأموال، وصرف إليه الجنود والحشود إذ كان من عمالته هو والجزيرة ورندة، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، وأنفق على بنائه أحمال المال، واعتنى بتحصينه، وبنى حصنه وأبراجه وسوره وجامعه ودوره ومخازنه، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو براً وبحراً، فصبر المسلمون صبر الكرام، فخيب الله تعالى أمل العدو، وعاد خاسراً، والمنة لله، فرأى أن يحصن سفح الجبل بسور يحيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته، ورأى الناس ذلك من المحال، فأنفق الأموال، وأنصف العمال، فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، وأما بناؤه للمحاسن والطوالع فأمر غير مجهول؛ انتهى.

* * *

ضياع المدن الأندلسية

وقال صاحب مناهج الفكر بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها، ما صورته:

ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمترفيها سيل العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مسقط رأسه، وجعله معقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كل منهم يشن الغارة على جاره، ويحاربه في عقر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدو في الدين

يعادي، ويراوح معاقلهم بالعيث ويغادي، حتى لم يبق في أيديهم منها إلا ما هو في ضمان هدنة مقدرة، وإتاوة في كل عام على الكبير والصغير مقررة، كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وقدراً في سابق علم الله مقدوراً، انتهى.

و هذا قاله قبل أن يستولي العدو على جميعها، والله وارث الأرض و من عليها وهو خير الوارثين.

* * *

طليطلة ٤٧٨

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من أخذ النصارى قواعد الأندلس فنقول: قد قدمنا أوائل هذا الباب أن طليطلة أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفار من المدن العظام بالأندلس، قال ابن بسام: لما توالت على أهل طليطلة الفتن المظلمة، والحوادث المصطلمة، وترادف عليهم البلاء والجلاء، واستباح الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم وأرواحهم، كان من أعجب ما جرى من النوادر الدالة على الخذلان أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها، فلما كانت السنة التي استولى عليها العدو فيها لم ترفع الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد، فعلم الناس أن ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر أراده، من شمول البلوى، وعموم الضراء، فاستولى العدو على طليطلة، وأنزل من بها على حكمه، وخرج ابن ذي النون منها على أقبح صورة، وأفظع سيرة، ورآه الناس وبيده إصطرلاب يأخذ به وقتاً يرحل فيه، فتعجب منه المسلمون، وضحك عليه الكافرون، وبسط الكافر العدل على أهل المدينة، وحبب التنصر إلى عامة طغامها، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطاق حمله، وشرع في تغيير الجامع كنيسة في ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعمائة.

ومما جرى في ذلك اليوم أن الشيخ الأستاذ المغامي رحمه الله تعالى صار

إلى الجامع، وصلى فيه، وأمر مريداً له بالقراءة، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى وتكاثروا لتغيير القبلة، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته، وعصمه الله تعالى منهم، إلى أن أكمل القراءة وسجد سجدة، ورفع رأسه، وبكى على الجامع بكاء شديداً، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه. وقيل لملك النصارى: ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك، فقال: حتى نأخذ قرطبتهم، وأعد لذلك ناقوساً تأنق فيه وفيما رصع به من الجواهر، فأكذبه الله وأزعجه. وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين، فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين، وإرغام الكافرين، واستدراك أمور المسلمين؛ انتهى ملخصاً، وقد مر مطولاً.

* * *

وقعة بطرنة ٤٥٦

وكانت قبلها وقعة بطرنة سنة ست وخمسين وأربعمائة، وذلك أن الفرنج - خذلهم الله تعالى - انتدبت منهم قطعة كثيفة، ونزلت على بلنسية في السنة المذكورة، وأهلها جاهلون بالحرب، مغترون بأمر الطعن والضرب، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها، والضعف عن مقاومة من فيها، وخدعوهم بذلك فانخدعوا، وأطعموهم فطمعوا، وكمنوا في عدة أماكن جماعة من الفرسان، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر، فاستدرجهم العدو - لعنهم الله تعالى - ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر، وما نجا منهم إلا من حصنه أجله، وخلص الأمير بنفسه، ومما حفظ عنه أنه أنشد لما أعياه الأمر:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد ::: أشيرا علي اليوم ما تريان

وفي أهل بلنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة والترفه:

لبسوا الحديد إلى الوغى ::: ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها ::: لو لم تكن ببطرنة ما كانا

قال ابن بسام: وهكذا جرى لأهل طليطلة، فإن العدو - خذله الله تعالى - استظهر عليهم، وقتل جماهيرهم، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم في ثياب الترفه ألف غفارة خارجاً عما سواها.

* * *

بربشتر

وقال ابن حيان: وكان تغلب العدو - خذله الله تعالى - على بربشتر قصبة بلد بريطانية، وهي تقرب من سرقسطة، سنة ست وخمسين وأربعمائة، وذلك أن جيش الأردمليس نازلها وحاصرها، وقصر يوسف بن سليمان بن هود في حمايتها، ووكل أهلها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يوماً، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، واتصل ذلك بالعدو، فشدد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مدرع، فدهش الناس، وتحصنوا بالمدينة الداخلة، وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة إفرنجي، ثم اتفق أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سرب موزون انهارت وفسدت، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره، فانقطع الماء عن المدينة، ويئس من بها من الحياة، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال، فأعطاهم العدو الأمان، فلما خرجوا نكث بهم وغدر، وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى، حتى إن الذي خص بعض مقدمي العدو لحصنه - وهو قائد خيل رومة - نحو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً، ومن أوقار الأمتعة والحلى والكسوة خمسمائة جمل، وقدر من قتل وأسر بمائة ألف نفس، وقيل: خمسون ألف نفس، ومن النوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها فيقول لها: أعطيني ما معك، فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيره.

قال: وكان السبب في قتلهم أنه خاف من يصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله، فشرع في القتل لعنة الله تعالى عليه، حتى قتل منهم نيفاً وستة آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين من بقي وأمر أن يخرجوا فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، ونزلوا من الأسوار في الجبال للخشية من الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء، وكان قد تحيز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم، وانتظروا ما ينزل بهم، فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله، وله الأمان، وأرهقوا وأزعجوا، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزلهم اقتسم الإفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك، وأخذ كل واحد داراً بمن فيها من أهلها، نعوذ بالله تعالى.

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برءوس الجبال، وتحصنوا بمواضع منيعة، وكادوا يهلكون من العطش، فأمنهم الملك على نفوسهم، وبرزوا في صور الهلكى من العطش، فأطلق سبيلهم، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة، فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله.

قال: وكان الفرنج لعنهم الله تعالى، لما استولوا على أهل المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها، والثيب بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، ومن لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهن خوله وغلمانه يعيثون فيهن عيثة، وبلغ الكفرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة، ولما عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثياب ذوات الجمال، ومن صبيانهم الحسان ألوفاً عدة حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه، وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفاً وخمسمائة، ومن الرجالة ألفين، انتهى.

قال ابن حيان: وأختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أولي الألباب بنادرة منها يكتفى باعتبارها عما سواها، وهي أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد

الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها حصلن في سهم قومس من الرابطة فيها كان يعرفه، قال: فهديت إلى منزله فيها، واستأذنت عليه، فوجدته جالساً مكان رب الدار، مستوياً على فراشه، رافلاً في نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما تخلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شيئاً من رياشهما وزينتهما، ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات في خدمته، فرحب بي، وسألني قصدي، فعرفته وجهه، وأشرت إلى وفور ما أبذله في بعض اللواتي على رأسه وفيهن كانت حاجتي، فتبسم وقال بلسانه: ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك! أعرض عمن هنا وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبيي وأسراي أقاربك فيمن شئت منهن، فقلت له: أما الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أنست، وفي كنفك اطمأننت، فسمني ببعض من هنا فإني أصير إلى رغبتك، فقال: وما عندك؟ قلت: العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب، فقال: كأنك تشهيني ما ليس عندي، يا مجة، ينادي بعض أولئك الوصائف، يريد بهجة فغيره بعجمته، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق، فقامت إليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلى، فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصه، ثم قال لها: أدني إلينا من تلك التخوت، فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر مما حار له ناظري وبهت، واسترذلت ما عندي، ثم قال لي: لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به، ثم حلف بإلهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ما سخت بها يدي، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد رد لنا الكرة عليهم، فصرنا فيما تراه، وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى، مغنية والدها التي كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة - يناديها بلكنته - خذي عودك تغني زائرنا بشجوك، قال: فأخذت العود، وقعدت تسويه، وإني لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه، واندفعت تغني بشعر

ما فهمته أنا فضلاً عن العلج، فصار من الغريب أن حث شربه هو عليه، وأظهر الطرب منه، فلما يئست ما عنده قمت منطلقاً عنه، وارتدت لتجارتي سواه، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به، فهذا فيه مقنع لمن تدبره، وتذكر لمن تذكره.

قال ابن حيان: قد أشفينا بشرح هذه الحادثة الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عمن قبلهم من أثارة، ولا شك عند ذمي الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع وقد أمرنا بالتواصل والألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة، انتهى ببعض اختصار.

وذكر بعده كلاماً في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس، وأنهم يعللون أنفسهم بالباطل، وأن من أدل الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم، وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغورهم، حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يجوس خلال ديارهم، ويستقري بسائط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرفاً، ويبيد أمة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهاة عن بثهم، ما إن سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا، مذكر لهم أو داع، فضلاً عن نفر إليهم أو ماش لهم، حتى كأنهم ليسوا منا أو كان بثقهم ليس بمفض إلينا، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا عليهم بالغناء، عجائب فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، ولله عاقبة الأمور، وإليه المصير.

ولقد صدق رحمه الله تعالى، فإن البثق سرى إليهم جميعاً كما ستراه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال قبله: إن بربشتر هذه تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة، من عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس، فرسخ فيها الإيمان، وتدورس القرآن، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا صدر رمضان من العام، فصك الأسماع، وأطار الأفئدة، وزلزل أرض الأندلس قاطبة، وصير لكل شغلاً

يشغل الناس في التحدث به، والتساؤل عنه، والتصور لحلول مثله، أياماً لم يفارقوا فيها لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل، والاغترار بالأمل، والاستناد إلى أمراء الفرقة الهمل، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل، يصدونهم عن سواء السبيل، ويلبسون عليهم وضوح الدليل، ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين هم كالملح فيهم الأمراء والفقهاء بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق ذياداً عن الجماعة، وجرياً إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم صدوف عما أكده الله تعالى عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا ما بين آكل من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذ في التقية في صدقهم، وأولئك هم الأقلون فيهم، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها، وما هي إلا مشفية من بوارها، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلا الفزع لحفر الخنادق، وتعلة الأسوار، وشد الأركان، وتوثيق البنيان، كاشفين لعدوهم عن السوأة، السوأى من إلقائهم يومئذ بأيديهم إليه - أمور قبيحات الصور، مؤذنات الصدور بأعجاز الغير:

أمور لو تدبرها حكيم ::: إذاً لنهى وهيب ما استطاعا

* * *

استرجاع بربشتر

ثم قال ابن حيان: فلما كان عقب جمادى الأولى سنة ٤٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها، والمتهم على أهلها، لانحرافهم إلى أخيه، صمد لها مع إمداد لحليفه عباد، وسعى لإصمات سوء المقالة عنه، وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يمحوه إلا عفوه، فتأهب لقصد بربشتر في جموع من المسلمين، فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة الشجعان، وحمي الوطيس بينهم

إلى أن نصر الله تعالى أولياءه، وخذل أعداءه، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة، فاقتحمها المسلمون عليهم، وملكوهم أجمعين، إلا من فر من مكان الوقعة، ولم يدخل المدينة، فأجيل السيف في الكافرين، واستؤصلوا أجمعين، إلا من استرق من أصاغرهم، وفدي من أعاظمهم، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبناءهم، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارئ، وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين في نصر الدين، نحو الخمسين، كتب الله تعالى لهم شهادتهم، وقتل فيه من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل، فغسلها المسلمون من رجس الشرك، وجلوها من صدإ الإفك، انتهى.

وليت طليطلة البائسة استرجعت كهذه، ومع هذا فقد غلب العدو بعد على الكل، والله سبحانه المرجو في الإدالة.

* * *

تطيلة وطرسونة

وقال ابن اليسع: أخذ العدو مدينة تطلية وأختها طرسونة سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

* * *

بلنسية والقنبيطور

ولما صار أمر بلنسية إلى الفقيه القاضي أبي أحمد بن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكن الأذفونش من طليطلة، فهجم عليه القاضي في لمة من المرابطين، وقتله، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان، ورجعت عنه طائفة الملثمين الذين كان يعتد بهم، وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيبطئ عليه، وفي أثناء ذلك أنهض يوسف ابن أحمد بن هود صاحب سرقسطة ردريق

الطاغية للاستيلاء على بلنسية، فدخلها، وعاهده القاضي ابن جحاف، واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر ابن ذي النون، فأقسم عليه أنها ليست عنده، فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله، فاتفق أنه وجدها عنده، فأحرقه بالنار، وعاث في بلنسية.

وكان استيلاء القنبيطور - لعنه الله تعالى - عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وقيل: في التي قبلها، وبه جزم ابن الأبار قائلاً: فتم حصار القنبيطور إياها عشرين شهراً، وذكر أنه دخلها صلحاً، وقال غيره: إنه دخلها عنوة، وعاث فيها، وممن أحرق فيها الأديب أبو جعفر ابن البني الشاعر المشهور رحمه الله تعالى وعفا عنه، فوجه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلي ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وتوالى عليها أمراء الملثمين، ثم صارت ليحيى بن غانية الملثم حين ولي جميع شرق الأندلس، فقدم عليها أخاه عبد الله بن غانية، ولما ثارت الفتنة في المائة السادسة أخرجه منها مروان بن عبد العزيز، إلى أن قام عليه جيش بلنسية سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وبايعوا لابن عياض ملك شرق الأندلس، ففر مروان إلى المرية، ثم رجعت بلنسية إلى أبي عبد الله ابن مردنيش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض، وقدم عليه أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، إلى أن رجع أبو الحجاج إلى جهة بني عبد المؤمن، إلى أن ولي عليها السيد أبو زيد عبد الرحمن ابن السيد أبي عبد الله ابن أبي حفص ابن أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي، فلما ثار العادل بمرسية تمنع واعتز، وأظهر طاعة في باطنها معصية، ودام على ذلك مع أبي العلاء المأمون، وكان قائد الأعنة المشار إليه في الدفاع عن بلنسية الأمير زيان بن أبي الحملات ابن أبي الحجاج بن مردنيش، فأخرجه من بلنسية، وملكه، وفر السيد إلى النصارى.

* * *

نهاية بلنسية

ولم يزل أمر بلنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصراني، فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبي زكريا ابن أبي حفص، وأوفد عليه في هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد الله بن الأبار القضاعي صاحب كتاب التكملة وإعتاب الكتاب وغيرهما، فقام بين يدي السلطان منشداً قصيدته السينية الفريدة التي فضحت من باراها، وكبا دونها من جاراها، وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ::: إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ::: فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ::: فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ::: للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة يعود ::: مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ::: تثني الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ::: إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ::: ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسماً ::: جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرها العوادي العائثات بها ::: يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرسا ::: ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً ::: وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ::: مدارساً للمثاني أصبحت درسا
وأربعاً نمنمت أيدي الربيع لها ::: ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة ::: فصوح النضر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ::: يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا ::: عيث الدبا في مغانيها التي كبسا
وابتز بزتها مما تحيفها ::: تحيف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً ::: وأين عصر جليناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح له ::: ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ::: فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلا له الجو فامتدت يداه ::: إلى إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا

وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ::: ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم ::: فما أبقى المراس لها حبلاً ولامرسا
وأحي ما طمست منها العداة ::: كما أحييت من دعوة المهدي ما طمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقاً ::: وبت من نور ذاك الهدي مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً ::: كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم ::: والصبح ماحية أنواره الغلسا
وتقتضي الملك الجبار مهجته ::: يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
هذي رسائلها تدعوك من كثب ::: وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ::: منك الأمير الرضى والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها ::: عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية ::: كما طلبت بأقصى شده الفرسا
تؤم يحيى ابن عبد الواحد ابن أبي ::: حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته ::: ديناً ودنيا فغشاها الرضى لبسا
من كل غاد على يمناه مستلماً ::: وكل صاد إلى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رمى نجماً لأثبته ::: ولو دعا أفقاً لبى وما احتبسا
تالله إن الذي ترجى السعود له ::: ما جال في خلد يوماً ولا هجسا
إمارة يحمل المقدار رايتها ودولة ::: عزها يستصحب القعسا
يبدي النهار بها من ضوئه شنباً ::: ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت ::: طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدر والعلياء هالته تحف ::: من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ::: وعرف معروفه واسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته ::: وأنشرت من وجود الجود ما رمسا
مبارك هديه باد سكينته ::: ما قام إلا إلى حسنى وما جلسا
قد نوره الله بالتقوى بصيرته ::: فما يبالي طروق الخطب ملتبسا
برى العصاة وراش الطائعين فقل ::: في الليث مفترساً والغيث مرتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل ::: حياً لقاحاً إذا وافيته بخسا
فرب أصيد لا تلفي به صيداً ::: ورب أشوس لا تلقى له شوسا
إلى الملائك ينمى والملوك معاً ::: في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا

من ساطع النور صاغ الله جوهره ::: وصان صيقله أن يقرب الدنسا
له الثرى والثريا خطتان فلا ::: أعز من خطتيه ما سما ورسا
حسب الذي باع في الأخطار يركبها ::: إليه محياه أن البيع ما وكسا
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته ::: عصاه محتزماً بالعدل محترسا
فظل يوطن من أرجائها حرماً ::: وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا ::: آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه ::: من البحار طريقاً نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحاً أسرته ::: من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقبل الجود طفاحاً غواربه ::: من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملك المنصور أنت لها علياء ::: توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من ::: يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس ::: ولا طهارة مال لم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم ::: حتى يطأطئ رأساً كل من رأسا
وانصر عبيداً بأقصى شرقها شرقت ::: عيونهم أدمعاً همي زكا وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ::: داء متى لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئاً لك التأييد ساحتها ::: جرداً سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ::: لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

فبادر السلطان بإعانتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال والأقوات والكسى، فوجدهم في هوة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس، وكان تغلب العدو على بلنسية صلحاً يوم الثلاثاء السابع عشر لصفر من سنة ست وثلاثين وستمائة، فهزت هذه القصيدة من الملك عطف ارتياح، وحركت من جنانه أخفض جناح، ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها، فجاوبها غير واحد، وحال العدو بين بلنسية وبينه، وتعاهد أهلها مع النصراني على أن يسلمهم في أنفسهم، وذلك سنة سبع وثلاثين وستمائة، أعادها الله تعالى للإسلام.

* * *

كتندة – ٥١٤

وقد كانت وقعة كتندة على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدة، وكتندة - ويقال قتندة بالقاف - من حيز دورقة من عمل سرقسطة من الثغر، وكانت الهزيمة على المسلمين جبرهم الله تعالى، قتل فيها من المطوعة نحو من عشرين قتيلاً، ولم يقتل فيها من العسكر أحد، وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف الفتح باسمه قلائد العقيان وكانت سنة أربع عشرة وخمسمائة، وممن حضرها الشيخ أبو علي الصدفي السابق الذكر، وقرينه في الفضل أبو عبد الله بن الفراء خرجا غازيين، فكانا ممن فقد فيها.

وقال غير واحد: إن العسكر انصرف مفلولاً إلى بلنسية، وإن القاضي أبا بكر ابن العربي كان ممن حضرها، وسئل مخلصه منها عن حاله، فقال: حال من ترك الخباء والعباء، بمعنى أنه ذهب جميع ما لديه.

* * *

لوشة – ٦٢٢

ودخل العدو لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة، مع السيد أبي محمد البياسي في الفتنة التي كانت بينه وبين العادل، فعاثوا فيها أشد العيث، ثم ردها المسلمون إلى أن أخذت بعد ذلك كما يأتي.

* * *

المرية – ٥٤٢

ودخل العدو مدينة المرية يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، عنوة، وحكى أبو زكريا الجعيدي عن أبي عبد الله بن سعاد الشاطبي المعمر أن أبا مروان ابن ورد أتاه في النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه في عضديه من خلفه، وهزه هزًّا عنيفاً حتى أرعبه، وقال له قل:

ألا أيها المغرور ويحك لا تنم ::: فلله في ذا الخلق أمر قد انبهم

فلا بــد أن يــرزوا بــأمر يســوؤهم ::: فقد أحدثوا جرماً على حــاكم الأمــم

قال: وكان هذا في سنة أربعين وخمسمائة، فلم يمض إلا يسير حتى تغلب الروم على المرية في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، بعد تلك الرؤيا بعامين أو نحوهما، وهو مما حكاه ابن الأبار الحافظ في كتاب التكملة له.

* * *

استرداد المرية وضياعها نهائياً

وبعد أخذ النصارى المرية هذه المرة رجعت إلى المسلمين، واستنقذها الله تعالى على يد الموحدين، وبقيت بأيدي أهل الإسلام سنين، وكان أول الولاة عليها حين استولى عليها أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلاً يقال له: يوسف بن مخلوف، فثار عليه أهل المرية وقتلوه وقدموا على أنفسهم الرميمي، فأخذها النصارى منه عنوة كما ذكرنا، وأحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفاً.

وقال ابن حبيش آخر الحفاظ بالأندلس: كنت في وقعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله تعالى للإسلام، فتقدمت إلى زعيم الروم السليطين، وهو ابن بنت الأذفونش، وقلت له: إني أحفظ نسبك منك إلى هرقل، فقال لي: قل، فذكرته له، فقال لي: اخرج أنت وأهلك ومن معك طلقاء بلا شيء.

ولما أخذت المرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين فحصرا النصارى بها، وزحف إليهما أبو عبد الله ابن مردنيش ملك شرق الأندلس محارباً لهما، فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلاً وخارجاً، ثم رأى ابن مردنيش العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى، فارتحل، فقال النصارى: ما رحل ابن مردنيش إلا وقد جاءهم مدد، فاصطلحوا، ودخل الموحدون المدينة، وقد خربت وضعفت، إلى أن أحيا رمقها الرئيس أبو العباس أحمد بن كمال، وذلك أن أخته أخذت سبية في دخلة عبد المؤمن لبجانة، فاحتلت بقصره واعتنت بأخيها، فولاه بلده، فصلح به حالها، وكان جواداً حسن المحاولة كثير الرفق، واشتهر من ولاتها في مدة بني عبد المؤمن في المائة السابعة الأمير أبو عمران بن أبي حفص عم ملك إفريقية أبي زكريا.

ولما كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثارت الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بمرسية قام في المرية بدعوة ابن هود أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن الرميمي، وجده أبو يحيى هو الذي أخذها

النصارى من يده، ولما قام بدعوة ابن هود وفد عليه بمرسية وولاه وزارته، وصرف إليه سياسته، وآل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة مرية، ويجعلها له عدة، وهو يبغي ذلك عدة لنفسه، وترك ابن هود فيها جارية تعلق ابن الرميمي بها، واجتمع معها، فبلغ ذلك ابن هود، فبادر إلى المرية، وهو مضمر الإيقاع بابن الرميمي، فتغدى به قبل أن يتعشى به، وأخرج من قصره ميتاً، ووجهه في تابوت إلى مرسية في البحر، واستبد ابن الرميمي بملك المرية، ثم ثار عليه ولده، وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملكها ابن الأحمر صاحب غرناطة، وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدو الكافر عندما طوي بساط بلاد الأندلس كما سننبه عليه، والله غالب على أمره.

* * *

ضياع ماردة

ودخل العدو كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست وعشرين وستمائة، وكانت مفتتح المصائب على يده، أعادها الله تعالى للإسلام، وهي قاعدة بلاد الجوف في مدة العرب والعجم، والحضرة المستجدة بعدها هي مدينة بطليوس، وبين ماردة وقرطبة خمسة أيام.

* * *

المظفر وابنه المتوكل

وملك بطليوس وماردة وما إليها المظفر بن المنصور بن الأفطس مشهور، وهو من رجال القلائد والذخيرة وهو أديب ملوك عصره بلا مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف الفائق، المترجم بالتذكر المظفري خمسون مجلداً اشتمل على فنون وعلوم من مغاز وسير ومثل وأخبار وجميع علوم الأدب، وابنه المتوكل من رجال القلائد والمسهب وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بن عباد بإشبيلية، قد أناخت الآمال بحضرتهما، وشدت رحال الآداب

إلى ساحتهما، يتردد أهل الفضائل بينهما كتردد النواسم بين جنتين، وينظر الأدب منهما عن مقلتين، والمعتمد أشعر، والمتوكل أكتب.

* * *

سقوط ميورقة عن ابن عميرة

ولما ثارت الأندلس على طائفة عبد المؤمن كان الوالي بجزيرة ميورقة أبو يحيى ابن أبي عمران التينمللي فأخذها الفرنج منه، كذا قال ابن سعيد، وقال ابن الأبار: إنها أخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع وعشرين وستمائة.

وقال المخزومي في تاريخ ميورقة: إن سبب أخذها من المسلمين أن أميرها محمد ابن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحد أعيانها، ووليها سنة ست وستمائة، واحتاج إلى الخشب المجلوب من اليابسة، فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية، فعلم بها والي طرطوشة، فجهز إليها من أخذها، فعظم ذلك على الوالي، وحدث نفسه بالغزو لبلاد الروم، وكان ذلك رأياً مشؤوماً، ووقع بينه وبين الروم، وفي آخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه أن مسطحاً من برشلونة ظهر على يابسة، ومركباً آخر من طرطوشة انضم إليه، فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل مرسى يابسة، ووجد فيه لأهل جنوة مركباً كبيراً، فأخذه وسار حتى وصل إلى المسطح، فقاتله وأخذه، وظن أنه غاب الملوك، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة، وأن الروم لما بلغهم الخبر قالوا لملكهم وهو من ذرية أذفونش: كيف يرضى الملك بهذا الأمر ونحن نقاتل بنفوسنا وأموالنا فأخذ عليهم العهد بذلك، وجمع عشرين ألفاً من أهل البلاد، وجهز في البحر ستة عشر ألفاً، وشرط عليهم حمل السلاح، وفي سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر أمر هذه الغزوة فاستعد لها الوالي، وميز نيفاً على ألف فارس من فرسان الحضر والرعية مثلهم، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفاً، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة، ومن سوء الاتفاق أن الوالي أمر صاحب شرطته

أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر، فساقهم وضرب أعناقهم، وكان فيهم ابنا خاله، وخالهما أبو حفص ابن سيري ذو المكانة الوجيهة، فاجتمعت الرعية إلى ابن سيري، فأخبره بما نزل، وعزوه فيمن قتل وقالوا: هذا أمر لا يطاق، ونحن كل يوم إلى الموت نساق، وعاهدوه على طلب الثأر، وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم، وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي، وأخبره بأن الروم قد أقبلت، وأنه عد فوق الأربعين من القلوع، وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال: إن أسطول العدو قد تظاهر، وقال: إنه عد سبعين شراعاً، فصح الأمر عنده، فسمح لهم بالصفح والعفو، وعرفهم بخبر العدو، وأمرهم بالتجهز، فخرجوا إلى دورهم، كأنما نشروا من قبورهم، ثم ورد الخبر بأن العدو قرب من البلد، فإنهم عدوا مائة وخمسين قلعاً، ولما عبر وقصد المرسى أخرج الوالي جماعة تمنعهم النزول، فباتوا على المرسى في الرجل والخيل، وفي الثامن عشر من شوال وهو يوم الاثنين وقع المصاف، وانهزم المسلمون، وارتحل النصارى إلى المدينة، ونزلوا منها على الحريبة الحزينة من جهة باب الكحل، ولم يزل الأمر في شدة وقد أشرفوا على أخذ البلد، ولما رأى ابن سيري أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديداً، ولما كان يوم الأحد لأخذ البلد، وأخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قتلوا على دم واحد، وأخذ الوالي وعذب، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يوماً، ومات تحت العذاب، وأما ابن سيري فإنه صعد إلى الجبل، وهو منيع لا ينال وتحصن فيه، وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل، وما زال يقاتل إلى أن قتل يوم الجمعة، عاشر ربيع الآخر سنة ٦٢٨، وجده من آل جبلة بن الأيهم الغساني، وأما الحصون فأخذت في آخر رجب سنة ٦٢٨، وفي شهر شعبان لحق من نجا من المسلمين إلى بلاد الإسلام، انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومي ملخصاً.

وكان بميورقة جماعة أعلام وشعراء.

* * *

سقوط عدة مدن

وأخذ العدو جزيرة شقر صلحاً سنة ٦٣٩ في آخرها.

وأخذ العدو - دمره الله تعالى - مدينة سرقسطة يوم الأربعاء لأربع خلون من رمضان سنة اثني عشرة وخمسمائة.

وكان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة وغيرها وإجلاء هم من يشاركهم من المسلمين فيما تغلبوا عليه منها في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة.

وكان استيلاء العدو - دمره الله تعالى - على مدينة قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال من سنة ست وثلاثين وستمائة.

وكان تملك العدو مرسية صلحاً ظهر يوم الخميس العاشر من شوال، قدم أحمد بن محمد بن هود ولد والي مرسية بجماعة من وجوه النصارى فملكهم إياها صلحاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وحصر العدو إشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة. وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب قشتالة صلحاً بعد منازلتها حولاً كاملاً وخمسة أشهر أو نحوها. وقال ابن الأبار في ترجمة أبي علي الشلوبين من التكملة ما صورته: وتوفي بين يدي منازلة الروم إشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس وأربعين وستمائة، وفي العام القابل ملكها الروم.

* * *

موقعة أنيشة - ٦٣٤

وكانت وقعة أنيجة التي قتل بها الحافظ أبو الربيع الكلاعي رحمه الله تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة، ولم يزل

رحمه الله تعالى متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار مقبلاً على العدو ينادي بالمنهزمين: أعن الجنة تفرون، حتى قتل صابراً محتسباً برَّد الله تعالى مضجعه، وكان دائماً يقول: إن منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها في صغره، فكان كذلك.

* * *

نهاية الأندلس كما يصورها كتاب " جنة الرضى " لابن عاصم

ورأيت أن أثبت هنا ما رأيته بخط الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته:

حدثني الفقيه العدل سيدي حسن ابن القائد الزعيم الأفضل سيدي إبراهيم العراف أنه حضر مرة لإنزال الطلسم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة من غرناطة بسبب البناء والإصلاح، وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوباً فيه:

إيوان غرناطة الغراء معتبرٌ ::: طلسمه بولاة الحال دوار

وفارس روحه ريحٌ تدبره ::: من الجماد، ولكن فيه أسرار

فسوف يبقى قليلاً ثم تطرقه ::: دهياء يخرب منها الملك والدار

وقد صدق قائل هذه الأبيات، فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس له في الحسن مثال، ونسل الخطب إليه من كل حدب وانثال، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه، ومقدميه وقضاته وأمرائه ووزرائه، فكل يروم الرياسة لنفسه، ويجر نارها لقرصه، والنصارى - لعنهم الله تعالى - يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد، ويضربون عمراً منهم بزيد، حتى تمكنوا من أخذ البلاد، والاستيلاء على الطارف والتلاد. قال الرائس القاضي العلامة الكاتب الوزير أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى في كتابه " جنة الرضى في التسليم لما قدر الله تعالى وقضى " ما صورة محل الحاجة منه: ومن استقرأ التواريخ المنصوصة، علم أن النصارى - دمرهم الله تعالى - لم يدركوا في المسلمين

ثأراً، ولم يدحضوا عن أنفسهم عاراً، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارًا، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها في الفتن المبيرة، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة، فالحرب إذ ذاك سجال، ولله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رحب ومجال، وروية وارتجال.

إلى أن قال: وتطاولت الأيام ما بين مهادنة ومقاطعة، ومضاربة ومقارعة، ومنازلة ومنازعة، وموافقة وممانعة، ومحاربة وموادعة، ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه منطوٍ لأهله على المقصد الأسنى، ومهتم بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يسر حسواً في ارتغائه، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه، فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجهٍ أو بحال، وليت المغرور لو يقبل هذا لو فكر في نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجريبات حدسه، وقاس عدوه التي لا ترجى مودته على أبناء جنسه، فأنا أناشده الله عل بات قط بمصالح النصارى وسلطانهم مهتماً، وأصبح من خطبٍ طرقهم مغتماً، ونظر لهم نظر المفكر في العاقبة الحسنة، أو قصد لخم قصد المدبر في المعيشة المستحسنة، أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القربة أربابهم وصلبانهم، أو عمر ضميره من تمكين عزمهم بما ترضاه أحبارهم ورهبانهم، فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث، ولم يشرب قبله حب التثليث، ويكون صادق اللهجة، منصفاً عند قيام الحجة، فسيعترف أن ذلك لم يخطر له

قط على خاطر ولا مر له ببال، وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال، وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال، وأشد على قلبه من وقع النبال، هذا وعقده التوحيد، وصلاته التحميد، وملته الغراء، وشريعته البيضاء، ودينه الحنيف القويم، ونبيه الرؤوف الرحيم، وكتابه القرآن الحكيم، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم، فكيف نعتقد هذه المريبة الكبرى، والمنقبة الشهرى، لمن عقده التثليث، ودينه المليث، ومعبوده الصليب، وتسميته التصليب، وملته المنسوخة، وقضيته المفسوخة، وختانه التغطيس، وغافر ذنبه القسيس، وربه عيسى المسيح، ونظره ليس البين ولا الصحيح، وأن ذلك الرب قد ضرج بالدماء، وسقي الخل عوض الماء، وأن اليهود قتلته مصلوباً، وأدركته مطلوباً، وقهرته مغلوباً، وأنه جزع من الموت وخاف، إلى سوى ذلك مما يناسب هذه الأقاويل السخاف، فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة، من الخير مقدار الذرة، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة اللهم احفظ علينا العقل والدين، واسلك بنا سبيل المهتدين.

ثم قال بعد كلام ما صورته: كانت خزانة هذه الدار النصرية مشتملة على كل نفيسة من الياقوت، ويتيمة من الجوهر، وفريدة من الزمرد، وثمينة من الفيروزج، وعلى كل واقٍ من الدروع، وحامٍ من العدة، وماضٍ من الأسلحة، وفاخر من الآلة، ونادر من الأمتعة، فمن عقود فذة، وسلوك جمة، وأقراط تفضل على قرطي مارية نفاسةً فائقة وحسناً رائقاً، ومن سيوف شواذ في الإبداع غرائب في الإعجاب، منسوبات الصفائح في الطبع، خالصات الحلى من التبر، ومن دروع مقدرة السرد متلاحمة النسج، واقية للناس في يوم الحرب، مشهورة النسبة إلى داوود نبي الله، ومن جواشن سابغة اللبسة، ذهبية الحلية، هندية الضرب، ديباجية الثوب، ومن بياضات عسجدية الطرق، جوهرية التنضيد، وزبرجدية التقسيم، ياقوتية المركز، ومن نطاق لجينية الصوغ، عريضة الشكل، مزججة الصفح، ومن درق لمطية، مصمتة المسام، لينة

المجسة، معروفة المنعة، صافية الأديم، ومن قسي ناصعة الصبغة، هلالية الخلقة، منعطفة الجوانب، زارية بالحواجب، إلى آلات فاخرة من أتوار نحاسية، ومنابر بلورية، وطيافير دمشقية، وسبحات زجاجية، وصحاف صينية، وأكواب عراقية، وأقداح طباشيرية، وسوى ذلك مما لا يحيط به الوصف، ولا يستوفيه العد، وكل ذلك التهبه شواظ الفتنة، والتقمه تيار الخلاف والفرقة، فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله، وتقصر ديار الملوك المؤثلة النعمة عن بعضه فضلاً عن كله؛ انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

ولما أخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة والمرية ومالقة ونحوها، وضاق الملك بعد اتساعه، وصار تنين العدو يلتقم كل وقت بلداً أو حصناً، ويهصر من دوح تلك البلاد غصناً، وملك هذا النزر اليسير الباقي من الجزيرة ملوك بني الأحمر، فلم يزالوا مع العدو في تعب وممارسة كما ذكره ابن عاصم قريباً، وربما أثخنوا في الكفار كما علم في أخبارهم، وانتصروا بملوك فاس بني مرين، في بعض الأحايين.

ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة في المائة الثامنة غرناطة ليأخذوها اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مرين يستنجدونه، وعينوا للرسالة الشيخ أبا إسحاق بن أبي العاصي والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي نفع الله تعالى بهم؛ ثم بعد سفرهم نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل، ولم يوافقهم سلطان المغرب، فقضى الله تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أن كسر النصارى في الساعة التي كسر خواطرهم فيها صاحب المغرب، وظهرت في ذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي رحمه الله تعالى.

ثم إن بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجل كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم، ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتهم الهرم

الذي يلحق الدول، فلما كان زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري الغالبي الأحمري، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل قد بويع بمالقة، بعد أن جاء به القواد من عند النصارى وبقي بمالقة برهة من الزمن، ثم ذهب إلى أخيه، وبقي من بمالقة من القواد والرؤساء فوضى، وآل الحال إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن، وانقضت الفتنة.

واستقل السلطان أبو الحسن بملك ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس، وجاهد المشركين، وافتتح عدة أماكن، ولاحت له بارقة الكرة على العدو الكافر، وخافوه، وطلبوا هدنته، وكثرت جيوشه، فأجمع على عرضها كلها بين يديه، وأعد لذلك مجلساً أقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غرناطة، وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجة عام اثنين وثمانين وثمانمائة، ولم تزل الجنود تعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرم السنة التي تليها، وهو يوم ختام العرض، وكان معظم المتنزهين والمتفرجين بالسبيكة وما قارب ذلك، فبعث الله تعالى سيلاً عارماً على وادي حدره بحجارة وماء غزير كأفواه القرب، عقاباً من الله سبحانه وتأديباً لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر، واحتمل الوادي ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق، وبلغ تيار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد.

وكان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف، فبعضهم استقل بملك قرطبة، وبعض بإشبيلية، وبعض بشريش، وعل ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات، وركن إلى الراحات، وأضاع الأجناد، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد والنظر في الملك، ليقضي الله تعالى ما شاء، وكثرت المغارم والمظالم، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه، وكان أيضاً قد قتل كبار القواد وهو يظن أن

النصارى لا يغزون بعد البلاد، ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد.

وافق أن صاحب قشتالة تغلب على بلادها بعد حروب، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد، وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف وهما من بنت عمه السلطان أبي عبد الله الأيسر، وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذرية، وكانت حظية عنده مقدمة في كل قضية، فخيف أن يقدم أولاد الرومية، على أولاد بنت عمه السنية، وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب، لميل بعضهم إلى أولاد الحرة، وبعض إلى أولاد الرومية، وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمدٍ حددوه وضربوه، ولما تم أمد الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد، وتشكى الناس مع ذلك بالوزير والعمال لسوء ما عاملوا به الناس من الحيف والجور، فلم يصغ عليهم، وكثر الخلاف واشتد الخطب، وطلب الناس تأخير الوزير، وتفاقم المر، وصح عند النصارى - لعنهم الله تعالى - ضعف الدولة واختلاف القلوب فبادروا إلى الحامية فأخذوها غدراً آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة، وغدوا للقلعة، وتحصنوا بها، ثم شرعوا في أخذ البلد، فملأوا الطرق خيلاً ورجالاً، وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين، ونهبوا الحريم، والناس في غفلة نيام من غير استعداد كالسكارى، فقتل من قضى الله تعالى بتمام أجله، وهرب البعض وترك أولاده وحريمه، واحتوى العدو على البلد بما فيه، وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماشٍ وفارس، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه، وإذا بالسرعان من أهل غرناطة وصلوا، فرجع العدو إلى البلد، فحاصرهم المسلمون، وشددوا في ذلك، ثم تكاثر المسلمون خيلاً ورجالاً من جميع بلاد الأندلس، ونازلوا الحامة، وطمعوا في منع الماء عن العدو، وتبين للعامة أن الجند لم ينصحوا، فأطلقوا ألسنتهم بأقبح

الكلام فيهم وفي الوزير، وبينما هم كذلك إذا بالنذير جاء أن النصارى أقبلوا في جمع عظيم لإغاثة من بالحامة من النصارى، فأقلع جند المسلمين من الحامة، وقصدوا ملاقاة الواردين من بلاد العدو، ولما علم بهم العدو ولوا الأدبار من غير ملاقاة محتجين بقتلهم، وكان رئيسهم صاحب قرطبة.

ثم إن صاحب إشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصارى الفرسان والرجالة، وأتى لنصره من في الحامة من النصارى، وعندما صح هذا عند العسكر اجتمعوا، وأشاعوا عند الناس أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد، والصلاح الرجوع إلى غرناطة، ليستعد الناس ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار من العدة والعدد، فعندما أقلع المسلمون عنها دخلتها النصارى الواردون، وتشاوروا في إخلائها أو سكناها، واتفقوا على الإقامة بها، وحصنوها، وجعلوا فيها جميع ما يحتاج إليه، وانصرف صاحب إشبيلية، وترك أجناده، وفرق فيهم الأموال، ثم عاد المسلمون لحصارها، وضيقوا عليها، وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة عنه، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين، وخاب السعد بذلك بأن شعر بهم النصارى، فعادوا عليهم، وتردى بعضهم من أعلى الجبل، وقتل أكثرهم، وكانوا من أهل بسطة ووادي آش، فانقطع أمل الناس من الحامة، ووقع الإياس من ردها.

وفي جمادى الأولى من السنة تواترت الأخبار أن صاحب قشتالة أتى في جنود لا تحصى ولا تحصر، فاجتمع الناس بغرناطة، وتكلموا في ذلك، وإذا به قصد لوشة ونازلها قصداً أن يضيفها إلى الحامة، وجاء بالعدة والعدد، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين، فقتلوا من لحقوه، وأخذوا جملة من المدافع الكبار، ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة، وناوشوا النصارى، فألجؤوهم إلى الخروج عن الخيام، وأخذوها وغيرها، فهرب النصارى، وتركوا طعاماً كثيراً وآلة ثقيلة، وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

وفي هذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفاً من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حظيته الرومية ثريا، واستقرا بوادي آش، وقامت بدعوتهما، ثم بايعتهما تلك المرية وبسطة وغرناطة، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة.

وفي صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميع رؤساء النصارى، وقصدوا قرى مالقة وبلش، في نحو الثمانية آلاف، وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة وغيرهم، فلم يتمكنوا من أخذ حصن، ونشبوا في أوعار ومضايق وخنادق وجبال، واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة، وصار المسلمون ينالون منهم في كل محل، حتى بلغوا مالقة، ففر كبيرهم، ومن بقي أسر أو قتل، وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرك لنواحي المنكب، وبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة ومعه بعض الجند، وقتل من النصارى في هذه الوقعة نحو ثلاثة آلاف، وأسر نحو ألفين، ومن جملتها خال السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب أنتقيرة وغيرهم، وهم نحو الثلاثين من الأكابر، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة، وبعقب ذلك سافر أهل مالقة لبلاد النصارى، فكسوا هنالك كسرة شنيعة قتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس.

ولما استقر السلطان أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن بغرناطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية، والتقوا في موضع يعرف بالدب، فكسر السلطان أبو عبد الله.

ولما سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأن عمه بمالقة غنم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية، وذلك في ربيع الأول من السنة، إلى أن بلغ نواحي لشانة، وقتل وأسر وغنم، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعه كبير قبرة، وحالوا بين المسلمين

وبلادهم في جبال وأوعار، فانكسر الجند، وأسر من الناس كثير وقتل آخرون، وكان في جملة من أسر السلطان أبو عبد الله، ولم يعرف، ثم علم به صاحب لشانة، وأراد صاحب قبرة أن يأخذ منه، فهرب به ليلاً، وبلغه إلى صاحب قشتالة، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد، وتفاءل به، فقلما توجه لجهةٍ أو بعث سريةً إلا وبعثه فيها.

ولما أسر السلطان أبو عبد الله اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس، وذهبوا به لغرناطة، وبايعوه، مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره، وأصابه ضرر، ولما تعذر أمره قدم أخاه أبا عبد الله، وخلع له نفسه، ونزل بالمذكب، فأقام بها إلى أن مات، واستقل أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده. وأما عبد الله ابن السلطان أبي الحسن فهو في أسر العدو.

وفي شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو في قوة إلى نواحي مالقة، بعد أن كان في السنة قبلها استولى على حصون، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون، وقصد ذكوان، فهد أسوارها، وكان جملة من أهل الغربية ورندة، ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة، فأظفر الله تعالى بهم أهل ذكوان، فقتلوهم جميعاً، ثم طلبوا الأمان وخرجوا.

ثم انتقل في جمادى الأولى إلى رندة وحاصرها، وكان أهلها خرجوا إلى نصرة ذكوان وسواها، فحاصر رندة وهد أسوارها، وخرج أهلها على الأمان، وطاعت له جميع تلك البلاد، ولم يبق بغربي مالقة إلا من دخل في طاعة الكافر وتحت ذمته، وضيق بمالقة، وفرق حصصه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة، وعاد إلى بلاده.

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحب غرناطة لتحصين بعض البلاد، وبينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه أن محلة العدو خارجة لذلك الحصن.

وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على

الحصن، كانوا قد سروا إليه ليلاً، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين، فقاتلهم المسلمون من غير تعبية، فاختل نظام المسلمين، ووصل النصارى إلى خباء السلطان، ثم التحم القتال واشتد، وقوى الله تعالى المسلمين فهزموا النصارى شر هزيمة، وقتل منهم خلائق، وقصر المسلمون خوفاً من محلة السلطان النصارى إذ كانت قادمة في إثر هذه، ولما رجعت إليهم الفلول رجعوا القهقرى، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات، وجعلوا ذلك كله بالحصن، ولم يحدث شيء بعد إلى رمضان، فتوجه الكافر إلى حصن قنديل ونازله وهد أسواره، ولما رأى المسلمون أن الحصن قد دخل طلبوا الأمان، وخرجوا بأموالهم وأولادهم مؤمنين، وفر الناس من تلك المواضع مع البراجلة هاربين، واستولى العدو على عدة حصون مثل مشاقر وحصن اللوز، وضيق العدو بجميع بلاد المسلمين، ولم يتوجه إلى ناحية إلا استأصلها، ولا قصد جهة إلا أطاعته وحصلها، ثم إن العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوة، فبعث إلى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسره وكساه ووعده بكل ما يتمناه، وصرفه لشرقي بسطة، وأعطاه المال والرجال، ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين وبايعه من أهل البلاد فإنه في الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلطانين، وخرج لبلش فأطاعه أهلها، ودخلت بلش في طاعته، ونودي بالصلح في الأسواق، وصرخت به في تلك البلاد الشياطين، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة، وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى، وتبعهم بعض المفسدين المحبين في تفريق كلمة المسلمين، وممن مال إلى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولة، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماسرتها بتقبيحٍ وتحسينٍ، إلى أن قام ربض البيازين بدعوة السلطان الذي كان مأسوراً عند المشركين، ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها بين المسلمين لما أراده الله تعالى من استيلاء العدو على تلك الأقطار، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة، وعظم الخطب، وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة، ودامت الفتنة إلى منتصف

جمادى الأولى من العام، وبلغ الخبر أن السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على روشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمه الزغل صاحب قلعة غرناطة، بأن العم يكون له الملك، وابن أخيه تحت إيالته بلوش أو بأي المواضع أحد، ويكونون يداً واحدة على عدو الدين، وبينهم في هذا إذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلة قوية وعدد وعدد، ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبد الله الذي كان أسيراً، وضيق بها الحصار، وكان قد دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد ولمعاضدة وليهم، وخاف أهل غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة، فلم يأت لنصرته غير البيازين، واشتد عليهم الحصار، وكثرت الأقاويل، وصرحت الألسن بأن ذلك باتفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة، ودخل على أهل لوشة في ربضهم، وخافوا من الاستئصال، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم، فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك، وأخذ البلد في السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة. وهي - أعني لوشة - كانت بلد سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب، كما ذكرناه مستوفى في غير هذا الموضع، وهاجر أهل لوشة إلى غرناطة، وبقي السلطان أبو عبد الله الذي كان مأسوراً مع النصراني في لوشة، فصرح عند ذلك أهل غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلا ليدخل إليها العدو الكافر ويجعلها فداء له، وقيل: إن سرح له حينئذٍ ابنه إذ كان مرهوناً في الفداء، وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين، فظهر بذلك ما كان كامناً بالقلوب، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور.

وفي نصف جمادى الثانية خرج إلى إلبيرة فهد بعض الأسوار، وتوعد الناس، فأعطاه أهله الحصن على الأمان، فخرجوا وقدموا على غرناطة، ثم فعل بحصن المتلين مثل ذلك، وقاتلوا قتالاً شديداً، ولما ضاقوا ذرعاً أعطوه بالمقادة على الأمان، فخرجوا إلى غرناطة وأطاع أهل قلنبيرة من غير قتال، فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى منتفريد، فرمى عليهم بالمحروقات

وغيرها وأحرق دار العدة، وطلبوا الأمان، وخرجوا إلى غرناطة، وانتقل للصخرة فأخذها، وحصن هذه الحصون كلها، وشحنها بالرجال والعدة، ورتب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة، ثم عاد الكافر لبلاده، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأن من دخل في حكمه وتحت أمره فهو في الأمان التام، وأشاعوا أن ذلك بسبب فتنة وقعة بينه وبين صاحب إفرنسية، فخرج لبلش وأطاعته، ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق، وأن من دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه، وأن معه وثائق بخطوط السلاطين، فلم يقبل الناس ذلك، إلا القليل منهم مثل أهل البيازين، فلهجوا بهذا الصلح وأقاموا على صفحته الدلائل، وتكلموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح، مع تمكن الفتنة والعداوة في القلوب، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتبعه الناس، وقاموا بدعوته من غير التباس، فأتى على حين غفلة، ولم يكن يظن إتيانه بنفسه، فأتى البيازين ودخلها ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح، فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة، وقالوا: ما بعهد لوشة من قدم، ودخل ربض البيازين سادس شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة، وعمه بالحمراء، انتقل للقلعة، واشتد أمر الفتنة، ثم إن صاحب قشتالة أمد صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها، واشتد أمره بذلك، وعظمت أسباب الفتنة، وفشا في الناس القتل والنهب، ولم يزل الأمر كذلك إلى السابع والعشرين من محرم سنة اثنين وتسعين وثمانمائة، فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عنوةً، وتكلم أهل العلم في من انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته، ومن أطاعه عصى الله ورسوله، فدخلوا على أهل البيازين دخول فشل، ثم إن صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بصرة ووادي آش والمرية والمنكب وبلش ومالقة وجميع الأقطار، وتجمعوا بغرناطة، وتعاهدوا، وتحالفوا على أن يدهم واحدة على أعداء الدين، ونصرة من قصده العدو من المسلمين، وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج لمحلته قاصداً نواحي بلش، وكان صاحب البيازين بعث وزيره

إلى ناحية مالقة وإلى حصن المنشأة يذكر ويخوف، ومعه نسخة من عقود الصلح، فقامت مالقة وحصن المنشأة بعونه، ودخلوا في إيالته خوفاً من صاحب قشتالة وصولته، وطمعاً في الصلح وصحته، ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة، والسبب الحامل لهم على ذلك، فلم يرجع أهل بلش عما عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق، وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلش مالقة، ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها، ولما صح عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس، فأشاروا بالمسير لإغاثة بلش للعهد الذي عقدوه، وأتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات، وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة، ووصل بلش، فوجد العدو نازلاً عليها برًّا وبحراً، فنزل بجبلٍ هنالك، وكسر لغط الناس، وحملوا على النصارى من غير تعبية، وحين حركتهم بالحملة بلغ السلطان الزغل أن غرناطة بايعت صاحب البيازين، فالتقوا مع النصارى فشلين وقبل الالتحام انهزموا، وتبدد جموعهم مع كون النصارى خائفين وجلين منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فرجعوا منهزمين، وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان، فقصدوا وادي آش، وعاد النصارى إلى بلش بعد أن كانوا رتبوا جيوشهم للقاء السلطان وأهل غرناطة، فلما عادوا إلى بلش دخلوا عنوة ربضها، وضيقوا بها، وكانت ثورة غرناطة، خامس جمادى الأولى.

ولما رأى أهل بلش تكالب العدو عليهم وإدبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة، وأطاعت النصارى جميع البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش.

ثم انتقل العدو إلى حصار مالقة، وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين، وأتى إليها النصارى بالميرة، ولما نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان

مأسوراً عندهم، فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش، وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة ونازلها براً وبحراً، وقاتله أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم، وطال الحصار حتى أداروا على مالقة من البر الخنادق والسور والأجفان من البحر، ومنع الداخل إليها، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار، وحاربوا حرباً شديداً، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض، وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشي والخيل والحمير، وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد، وأثر فيهم الجوع، وفشا في أهل نجدتهم القتل، ولم يظهروا مع ذلك هلعاً ولا ضعفاً، إلى أن ضعف حالهم، ويئسوا من ناصر أو مغيث من البر والبحر، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء، وقيل لهم

لما تحقق العدو التجاءهم: تؤمنون من الموت، وتعطون مفتاح القلعة والحصن، والسلطان ما يعاملكم إلا بالخير إذا فعلتم، وهذا خداع من الكفار، فلما تمكن العدو منهم أخذهم أسرى، وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، ولم يبق في تلك النواحي موضع إلا وملكه النصارى.

وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو الكافر إلى الشرقية وبلش التي كانت في الصلح، فاستولى عليها، واحتجوا بالصلح، فلم يلتفت إليهم، وأخذ تلك البلاد كلها صلحاً، ثم رجع لبلاده.

وفي عام أربعة وتسعين وثمانمائة خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب، واستولى على ما هنالك من الحصون، ثم نازل بسطة، وكان صاحب وادي آلما تعين العدو بمحلته بعث جميع جنده وقواده، وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش والمرية والمنكب والبشرات، فلما نزل العدو بسطة أتت الحشود المذكورة ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة

حتى تقهقر العدو عن قرب بسطة، ولم يقدر على منع الداخل والخارج، وبقي الأمر كذلك رجباً وشعبان ورمضان ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد، ثم إن العدو شد الحصار وجد في القتال، وقرب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخل والخارج بعض منعٍ، واشتد الحال في ذي القعدة وذي الحجة وقل الطعام، وفي آخر ذي الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا إلا القليل، وكانوا طامعين في إقلاع العدو عند دخول فصل الشتاء، وإذا بالعدو بنى وعزم على الإقامة، وقوي اليأس على المسلمين، فتكلموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن، وظن العدو أن الطعام لم يبق منه شيء، وأن ذلك هو الملجئ لهم للكلام، وفهموا عنه ذلك، فاحتالوا في إظهار جميع أنواع الطعام بالأسواق، وأبدوا للعدو القوة مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلم معهم وهو عين ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس، وعند تحققهم بقاء الطعام والقوة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون من أعانهم من أهل وادي آش والمنكب والمرية والبشرات، فإن دفعوا هؤلاء عنهم صح لهم الأمان، وإلا فلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا، وطال الكلام، وخاف أهل البلد من كشف الستر، فاتفقوا أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش والمرية والمنكب والبشرات، ففعلوا ذلك، ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو على شروط شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم، وقبض الخواص مالاً، وحصلت لهم فوائد.

وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام، وقالوا لهم: من بقي بموضعه فهو آمن، ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالماً، ثم أخرج العدو المسلمين من البلد، وأسكنهم بالربض خوف الثورة، ثم ارتحل العدو للمرية، وأطاعته جميع تلك البلاد، ونزل صاحب وادي آش للمرية ليلقاه بها، فلقيه وأخذ الحصون والقلاع والبروج، وبايع له السلطان أبو عبد الله على

أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحب، فوعده بذلك، وانصرف معه إلى وادي آش، ومكنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور، وأطاعته جميع البلاد، ولم يبق غير غرناطة وقراها، وجميع ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين، وجعل في كل قلعة قائداً نصرانياً، وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالاً من عند صاحب قشتالة إكراماً منه لهم بزعمهم، فتبًّا لعقولهم، وما ذلك منه إلا توفير لرجاله وعدته ودفع بالتي هي أحسن، ثم أخذ برج الملاحة وغيره، وبناه وحصنه، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة، وأظهر الصحبة والصلح مع صاحب وادي آش، وأباح الكلام بالسوء في حق صاحب غرناطة مكراً منه وخداعاً ودهاء، ثم بعث في السنة نفسها رسلاً لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكنه عمه من القلاع والحصون، ويكون تحت إيالته، ويعطيه مالاً جزيلاً على ذلك، وأي بلاء شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه، قالوا: وأطعمه صاحب غرناطة في ذلك، فخرج العدو في محلاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة، وهذا في سر بين السلطانين، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامة وأخبرهم بما طلب منه العدو وأن عمه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه، وليس لنا إلا إحدى خصلتين: الدخول تحته، أو القتال، فاتفق الرأي على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح، وخرج بمحلته.

ثم إن صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة، وطلب من أهل غرناطة الدخول في طاعته، وإلا أفسد عليهم زروعهم، فأعلنوا بالمخالفة، فأفسد الزرع، وذلك في رجب سنة خمس وتسعين وثمانمائة، ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة، ثم ارتحل العدو عند الإياس منهم ذلك الوقت، وهدم بعض حصون، وأصلح برج همدان والملاحة، وشحنهما بما ينبغي، ثم رجع إلى بلاده، وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التي

في يد النصارى ففتحها عنوة، وقتل من فيها من النصارى، وأسكنها المسلمين، ورجع لغرناطة، ثم أعمل الرحلة إلى البشرات في رجب المذكور، فأخذ بعض القرى، وهرب من بها من النصارى والمرتدين أصحابهم، ثم أتى حصن أندرش فتمكن منه، وأطاعته البشرات، وقامت دعوة الإسلام بها، وخرجوا عن ذمة النصارى، وهنالك عمه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملة وافرة، فقصدهم في شعبان من غرناطة، واستقر عمه بالمرية، وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجة، ثم تحرك عمه مع النصارى إلى أندرش فأخذها لرمضان، ورج صاحب غرناطة لقرية همدان، وكان برجها العظيم مشحوناً بالرجال والعدة والطعام، فحاصره أهل غرناطة، ونصبوا عليه أنواعاً من الحرب، ومات فيه خلق كثير منهم، ونقبوا البرج الأول والثاني والثالث، وألجؤوهم للبرج الكبير، وهو القلعة، فنقبوها ثم أسروا من كان بها، وهو ثمانون ومائة، واحتووا على ما هنالك من عدة وآلات حرب.

وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكب، فلما وصل حصن شلوبننية نزله، وأخذه عنوة بعد حصاره، وامتنعت القلعة، وجاءتهم الأمداد من مالقة بحراً فلم تقدر على شيء، وضيقوا بالقلعة، فوصلهم الخبر أن صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة، فارتحل صاحب غرناطة عن قلعة شلوبانية، وجاء غرناطة ثالث شوال، وبعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجنون، وبعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحة وإخلائه وبرج آخر، وتوجه إلى وادي آش، فأخرج المسلمين منها، ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الربض، وهدم قلعة أندرش، وحاف على البلاد، ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدوة فجاز لوهران، ثم لتلمسان، واستقر بها، وبها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الأندلس، ودخل صاحب قشتالة لأقاصي مملكته بسبب فتنة بينه وبين الإفرنج ثم تحرك صاحب غرناطة على

برشانة وحاصرها وأخذها، وأسر من كان بها من النصارى وأرادت فتيانه القيام على النصارى، فجاء صاحب وادي آش ففتك فيهم.

وفي ذي القعدة من السنة رفع صاحب غرناطة من الند وخلت تلك الأوطان من الإنس.

وفي ثاني عشري جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة، وأفسد الزرع، ودوخ الأرض، وهدم القرى، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير، وأحكم بناءه، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرف الهمة إلى الحصار والإقامة، وصار يضيق على غرناطة كل يوم، ودام القتال سبعة أشهر، واشتد الحصار بالمسلمين، غير أن النصارى على بعد، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير، إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد، ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وقطع الجالب، وقل الطعام، واشتد الغلاء، وعظم البلاء، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب، وضاق الحال، وبان الاختلال، وعظم الخطب، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب، ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة، وقل الطعام، ثم تفاقم الخطب، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم، وقالوا: انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة، وتكلموا في هذا المعنى، وأن العدو يزداد مدده كل يوم، ونحن لا مدد لنا، وكان ظننا أنه يقلع عنا في فصل الشتاء، فخاب الظن، وبنى وأسس، وأقام، وقرب منا، فانظروا لأنفسكم وأولادكم، فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس، ثم عددوا مطالب وشروطاً أرادوها، وزادوا أشياء على ما كان في صلح

وادي آش: منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود، وتكلم الناس في ذلك، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة، فانقادوا إليها، ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة، فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء.

وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعذ تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانيًّا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم

والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره.

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة، جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد، ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح، وشملهم حكمه على هذه الشروط، ثم أمر العدو الكافر ببناء ما يحتاج إليه في الحمراء وتحصينها، وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها، وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر، فدخل المدينة، وتطوف بها، وأحاط خبراً بما يرومه، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له وسكناه بأندرش، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها، ثم احتال في ارتحاله لبر العدوة، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور، فكتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له، فصرف في الحين بنص هذا الكتاب، وركب البحر، ونزل بمليلة، واستوطن فاساً، وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش، فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقي شدة وغلاء ووباء.

ثم إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر، ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا

قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانيًّا فأسلم فترجع نصرانيًّا، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم، وهذا كان السبب للتنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت، وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم وبادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر، واعتزلوا الناس، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً، إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي، فشدد عليهم النصارى في البحث، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس، ومحيت رسومها، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله، واسطة عقدهم، ومشيد مبانيهم الأنيقة، وسلطان دولتهم على الحقيقة، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس، العائد منها لملكه في أرفع الصنائع الحمانية العاطرة الأنفاس، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب، وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج " ابن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس، الأنصاري، الخزرجي، رحمهم الله تعالى جميعاً.

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهفاً على ما خلفه، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة، ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن، وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعدون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

القسم الثاني

في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب، وذكر أنبائه التي يروق سماعها ويتأرج نفحها ويطيب، وما يناسبها من أحوال العلماء الأفراد، والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد، وفيه أيضاً من الأبواب ثمانية، موصلة إلى جنات أدبٍ قطوفها دانية، وكل غصن منها رطيب

الباب الأول

في أولية لسان الدين وذكر أســـلافه، الذين ورث عنهم المجد وارتضـــع در أخلافه، وما يناسب ذلك مما لا يعدل المنصف إلى خلافه

الباب الأول:

في أولية لسان الدين وذكر أسلافه، الذين ورث عنهم المجد وارتضع در أخلافه، وما يناسب ذلك مما لا يعدل المنصف إلى خلافه

أقول: هو الوزير، الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصيت في المغرب والمشرق المزري عرف الثناء عليه بالعنبر والعبير، المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها ومصنفاته تخبر عن ذلك ولا ينبئك مثل خبير، علم الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذي خدمته السيوف والأقلام، وغني بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام، واعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام.

قال سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس رحمه الله في كتابه المسمى بفرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان في حق المذكور ما نصه: ذو الوزارتين، الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلده لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله، ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد، السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب.

وقال القاضي ابن خلدون المغربي المالكي رحمه الله في تاريخه الكبير، عندما أجرى ذكر لسان الدين، ما نصه: أصل هذا الرجل من لوشة، على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج، وعلى وادي شنحيل - ويقال شنيل - المخترق في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلك معدود في وزرائها، وانتقل أبوه عبد الله إلى غرناطة، واستخدم لملوك بني الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام؛ انتهى.

وقال غيره: إن بيتهم يعرف قديماً ببني الوزير، وحديثاً ببني الخطيب، وسعيد جده الأعلى أول من تلقب بالخطيب، وكان من أهل العلم والدين والخير،

وكذلك سعيد جده الأقرب كان على خلال حميدة من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب، خيراً صدراً، توفي عام ثلاثة وثمانين وستمائة، وأبوه عبد الله كان من أهل العلم بالأدب والطب، وقرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر بن الزبير وغيرهما وأجازه طائفة من أهل المشرق، وتوفي بطريف عام أحد وأربعين وسبعمائة شهيداً يوم الاثنين السابع من جمادى الأولى من العام المذكور مفقوداً ثابت الجأش، شكر الله فعله.

قلت: وما ذكره هؤلاء أكثره مأخوذ من كلامه عند تعريفه رحمه الله بنفسه آخر الإحاطة، ولنذكر ملخصه إذ صاحب البيت أدرى بالذي فيه، مع ما فيه من الزيادة على ما سبق، وهي تتم للطالب أمله وتوفيه.

قال رحمه الله: يقول مؤلف هذا الديوان تغمد الله خطله في ساعات أضاعها، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه استبدل بها اللهو لما باعها: أما بعد حمد الله الذي يغفر الخطية، ويحث من النفس اللجوج المطية، فتحرك ركائبها البطية، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد مسير السبل الخير الوطية، والرضى عن آله وصحبه منتهى الفضل ومناخ الطية، فإنني لما فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضل النشاط، مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية والارتباط، والتفت إليه فراقني منه صوان درر، ومطلع غرر، قد تخلدت مآثرهم مع ذهاب أعيانهم، وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب، ولباس تلك الأثواب، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب، وحرصت على أن أنال منهم قرباً، وأخذت أعقابهم أدباً وحبًّا، وكما قيل: ساقي القوم آخرهم شرباً، فأجريت نفسي مجراهم في التعريف، وحذوت بها حذوهم في بابي النسب والتصريف بقصد التشريف، والله سبحانه لا يعدمني وإياهم واقفاً يترحم، وركاب الاستغفار بمنكبه يزحم، عندما ارتفعت وظائف الأعمال، وانقطعت من التكسبات حبال الآمال، ولم يبق إلا رحمة الله التي تنتاش النفوس وتخلصها

وتعيذها بميسم السعادة وتخصصها، جعلنا الله ممن حسن ذكره، ووقف على التماس ما لديه فكره، بمنه.

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، قرطبي الأصل، ثم طليطلية، ثم لوشية، ثم غرناطيه، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين.

أوليتي: يعرف بيتنا في القديم بوزير، ثم حديثاً بلوشة ببني الخطيب، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثي وأمثاله عند وقعة الربض الشهيرة، إلى طليطلة، ثم تسربوا محومين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه، فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبهاء تضمن منهم ذكر خلق، كعبد الرحمن قاضي كورة باغه، وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها، المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها، جارياً مجرى التسمية بالمركب في تاريخ الغافقي وغيره، وسكن عقبهم بها، وسكن بعضهم منتقرير مملكين إياها مختطين جبل التحصن والمنعة فنسبوا إليها.

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل وزكاء الطعمة، أوقفني الوزير أبو الحكم بن محمد المنتقريري - وهو بقية هذا البيت وإخباريه - على جدار برج ببعض ربى أملاكنا بلوشة تطؤه الطريق المارة من غرناطة إلى إشبيلية، وقال: كان جدك يذيع بهذا المكان فصولاً من العلم، ويجهر بتلاوة القرآن، فيستوقف الرفاق المدلجة الحنين إلى نغمته، والخشوع إلى صدقه، فتعرس رحالها لصق جداره، وتريح ظهرها موهناً إلى أن يأتي على ورده. وتوفي وقد أصيب بأهله وحرمه عندما تغلب العدو على بلده عنوة في خبر طويل. وقفت على مكتوبات من المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود أمير المسلمين بالأندلس في غرض إعانته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة بما يدل على نباهته قديماً ويفيد إثارة عبرة، واستقالة عثرة.

وتخلف ولده عبد الله جارياً مجراه في التجلد والتمعش من حر النشب،

والتزيي بالانقباض، والتحلي بالنزاهة، إلى أن توفي وتخلف ولده سعيداً جدنا الأقرب، وكان صدراً خيراً مستولياً على خلال حميدة، من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب، نافس جيرته بني الطنجالي الهاشميين، وتحول إلى غرناطة عندما شعر بعملهم على الثورة، واستطلاعهم على النزوة التي خضدت الشوكة، واستأصلت منهم الشأفة، وصاهر بها الأعيان من بني أضحى بن عبد اللطيف الهمداني أشراف جند حمص الداخلين إلى الجزيرة في طليعة بلج بن بشر القشيري، ولحقه من جراء منافسيه لما جاهروا السلطان بالخلعان اعتقال أعتبه السلطان بعده، وأحظاه على تفئته، وولاه الأعمال النبيهة والخطط الرفيعة.

حدثني من أثق به قال: عزم السلطان على أن يقعد جدك أستاذاً لولده، فأنفت من ذلك أم الولد إشفاقاً عليه من فظاظة كانت فيه، ثم صاهر القواد من بني الجعدالة على أم أبي، ومتت إلى زوج السلطان ببنوة الخؤولة، فذبه القدر، وانفسحت الخطوة، وانثال على البيت الرؤساء والقرابة، وكان - على قوة شكيمته وصلابة مكسره - مؤثراً للخمول، محبًّا في الخير، حدثني أبي عن أمه قالت: قلما تهنأنا نحن وأبوك طعاماً حافلاً لإيثاره به من كان يكمن بمسجد جواره من أهل الحاجة وأحلاف الضرورة، يهجم علينا منهم بكل وارد، ويجعل يده مع يده، ويشركه في أكيلته، ملتذًا بموقعها من فؤاده. وتوفي في ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة، صهرته الشمس مستسقياً في بعض المحول، وقد استغرق في ضراعته، فدلت الحتف على نفسه.

وتخلف والدي نابتاً في الترف نبت العليق يكنفه رعي أم تجر ذيل نعمة وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم إذا سرى، ففاته لترفه حظ كبير من الاجتهاد؛ وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبي الحسن البلوطي والمقرئ أبي عبد الله ابن مسمغور وأبي جعفر بن الزبير خاتمة الجلة، وكان يفضله. وانتقل إلى لوشة بلد سلفه مخصوصاً بلقب الوزارة إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطياً إلى الحضرة هاوياً إلى الملك البيضة، فعضد أمره، وأدخله بلده، لدواع

يطول استقصاؤها، ولما تم له الأمر صحب ركابه إلى دار ملكه مستأثراً بشقص عريض من دنياه، وكان من رجال الكمال، طلق الوجه، مع الظرف، وتضمن كتاب التاج المحلى والإحاطة رائقاً من شعره، وفقد في الكائنة العظمى بطريف يوم الاثنين سابع جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ثابت الجأش، غير جزوع ولا هيابة. حدثني الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة الفقيه أبو عبد الله بن اللوشي قال: كبا بأخيك الطرف، وقد غشي العدو، وجنحت إلى إردافه، فانحدر إليه والدك، وصرفني، وقال: أنا أولى به، فكان آخر العهد بهما؛ انتهى.

وأما لوشة التي ينسب إليها لسان الدين فقد تقدم من كلام ابن خلدون أنها على مرحلة من حضرة غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمى بالمرج، وقد أجرى ذكرها لسان الدين في الإحاطة وقال: إنها بنت الحضرة، يعني غرناطة.

* * *

الباب الثاني

في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ، ثم قلبه له ظهر المجن على عادته في مصافاته ومنافاته ، وارتباكه في شباكه، وما لقي من إحن الحاسد، ذي المذهب الفاسد، ومحن الكائد المستأسد وآفاته ، وذكر قصوره وأمواله ، وغير ذلك من أحواله في تقلباته، عندما قابله الزمان بأهواله في بدئه وإعادته ، إلى وفاته.



الباب الثاني:

في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته

ومساعدة الدهر له، ثم قلبه له ظهر المجن على عادته في مصافاته ومنافاته ، وارتباكه في شباكه ، وما لقي من إحن الحاسد، ذي المذهب الفاسد ، ومحن الكائد المستأسد وآفاته، وذكر قصوره وأمواله، وغير ذلك من أحواله في تقلباته ، عندما قابله الزمان بأهواله في بدئه وإعادته ، إلى وفاته

أقول: كان مولد الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله كما في الإحاطة في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة، وقال الرئيس الأمير الوليد بن الأحمر رحمه الله: نشأ لسان الدين ابن الخطيب على حالة حسنة سالكاً سبيل أسلافه، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تكتباً ثم حفظاً ثم تجويداً، ثم قرأ القرآن أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وقرأ عليه العربية وهو أول من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله ابن الفخار البيري شيخ النحويين لعهده، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر، وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب، وروى عن كثير من الأعيان، وسرد ابن الأحمر المذكور هنا جملة أعلام من مشايخ لسان الدين سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى، ثم قال: وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا يحيى بن هذيل ولازمه؛ انتهى.

وقال بعضهم في حق لسان الدين: هو الوزير العلامة المتحلي بأجمل الشمائل وأفضل المناقب، المتميز في الأندلس بأرفع المراقي وأعلى المراتب، علم الأعلام، ورئيس أرباب السيوف والأقلام، جامع أشتات الفضائل، والمربي بحسن سياسته وعظيم رياسته على الأواخر والأوائل، حائز رتبة رياسة السيف والقلم، والقائم بتدبير الملك على أرسخ قدم، صاحب القلم الأعلى، الوارد من البراعة المنهل الأحلى، صاحب الأحاديث التي لا تمل على كثرة ما تتلى،

والمحاسن التي صورها على منصة التنويه تجلى؛ انتهى.

وقال لسان الدين في " الإحاطة " بعد ذكر سلفه رحمهم الله تعالى، ما ملخصه: وخلفني يعني أباه عبد الله عالي الدرجة، شهير الخطة، مشمولاً بالقبول، مكنوفاً بالعناية، فقلدني السلطان سره، ولما يستكمل الشباب ويجتمع السن، معززة بالقيادة ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه، ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي، وأعلى مجلسي، وقصر المشورة على نصحي، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى في أخوه المتغلب على الأمر به، فسجل الاختصاص، وعقد القلادة، ثم حمله أهل الشحناء من أهل أعوان ثورته على القبض علي، فكان ذلك، وتقبض علي، ونكث ما أبرم من أماني، واعتقلت بحال ترفيه، وبعد أن كسبت المنازل والدور، واستكثر من الحرس، وختم على الأعلاق، وأبرد إلى ما ناء، واستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربات الأمثال، في تبحر الغلة، وفراهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب، واستجادة العدة، ووفور الكتب إلى الآنية والفرش والماعون والزجاج والطيب والذخيرة والمضارب والأبنية، واكتسحت السائمة وثيران الحرث وظهر الحمولة وقوام الفلاحة والخيل، فأخذ ذلك البيع، وتناهبتها الأسواق، وصاحبها البخس، ورزأتها الخونة، وشمل الخاصة والأقارب الطلب، واستخلصت القرى، وأعملت الحيل، وطوقت الذنوب، وأمد الله تعالى بالعون، وأنزل السكينة، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى، وتعلقت الآمال به وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت عند إقالة العثرة والخلاص من الهفوة:

تخلصت منها نكبة مصحفية ::: لفقداني المنصور من آل عامر

ووصلت الشفاعة في مكتتبة بخط ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطاً في

العقدة ومسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب، وبالغ ملكه في بري منزلاً رحباً، وعيشاً خفضاً، وإقطاعاً جماً، وجراية ما وراءها مرمى، وجعلني بمجلسه صدراً، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة في مدينة سلا منوه الصكوك، مهنأ القرار، متفقداً باللها والخلع، مخول العقار، موفور الحاشية، مخلى بيني وبين إصلاح معادي، إلى أن رد الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه، وصير إليه حقه، فطالبني بوعد ضربته، وعمل في القدوم عليه بولده أحكمته، ولم يوسعني عذراً، ولا فسح في الترك مجالاً، فقدمت عليه بولده، وقد ساءه بإمساكه رهينة ضده، ونغص مسرة الفتح بعده، على كل حال من التقشف والزهد فيما بيده، وعزف عن الطمع في ملكه وزهد في رفده، حسبما قلت من بعض المقطوعات:

قالوا لخدمته دعاك محمد ::: فأنفتها وزهدت في التنويه

فأحببته أنا والمهيمن كاره ::: في خدمة المولى محب فيه

عاهدت الله تعالى على ذلك، وشرحت صدري للوفاء به، وجنحت إلى الانفصال لبيت الله الحرام نشيدة أملي، ومرمى نيتي وعملي، فعلق بي، وخرج لي عن الضرورة، وأراني أن موازرته أبر القرب، وراكنني إلى عهد بخطه فسح لعامين أمد الثواء، واقتدى بشعيب صلوات الله عليه في طلب الزيادة على تلك النسبة، وأشهد من حضر من العلية، ثم رمى إلي بعد ذلك بمقاليد رأيه، وحكم عقلي في اختيارات عقله، وغطى من جفائي بحلمه، وحثا في وجوه شهواته تراب زجري، ووقف القبول على وعظي، وصرف هواي في التحول فاذياً وقصدي، واعترف بقبول نصحي، فاستعنت الله تعالى، وعاملت وجهه فيه، من غير تلبس بجراية، ولا تشبث بولاية، مقتصراً على الكفاية، حذراً من النقد، خامل المركب، معتمداً على المنسأة، مستمشياً بخلق النعل، راضياً بغير النبيه من الثوب، مشفقاً من موافقة الغرور، هاجراً للزخرف، صادعاً بالحق في أسواق الباطل، كافًّا عن السخال براثن السباع. ثم صرفت الفكرة إلى بناء

الزاوية والمدرسة والتربة بكر الحسنات بهذه الخطة، بل بالجزيرة، فيما سلف من المدة، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية والأمن ورم الثغور وتثمير الجباية وإنصاف الحمات والمقاتلة ومقارعة الملوك المجاورة في إيثار المصلحة الدينية والصدع فوق المنابر ضماناً من السلطان بترياق سم الثورة وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ما الله تعالى المجازي عليه، والمعوض من سهر خلعته على أعطافه، وخطر اقتحمته من أجله، لا للثريد الأعفر، ولا للجرد تمرح في الأرسان، ولا للبدر تثقل للأكتاد، فهو الذي لا يضيع عمل من عمل ذكر أو أنثى سبحانه وتعالى. ومع ذلك فلم أعدم الاستهداف للشرور، والاستغراض للمحذور، والنظر الشزر المنبعث من خرز العيون، شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء، ورعاية سخطة أرزاق السماء، وقتلة الأنبياء، وعبدة الأهواء، ممن لا يجعل لله تعالى إرادة نافذة، ولا مشيئة سابقة، ولا يقبل معذرة، ولا يجمل في الطلب، ولا يتلبس مع الله في الأدب، ربنا لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، والحال إلى هذا العهد - وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة - على ما ذكرته، أداله الله بحال السلامة، وبفيأة العافية، والتمتع بالعبادة، وربك يخلق ما يشاء ويختار:

وعلـــــــي أن أســـــعى وليـــــــــس علـــــــــي إدراك النجـــــــاح

ولله سبحانه فينا علم غيب نحن صائرون إليه، ألحفنا الله لباس التقوى، وختم لنا بالسعادة، وجعلنا في الآخرة من الفائزين، نفثت عن بث، وتأوهت عن حمى، ليظهر بعد المنقلب قصدي، ويدل مكتتبي على عقدي، انتهى، وجله بلفظه.

وكان - رحمه الله تعالى - عارفاً بأحوال الملوك، سريع الجواب، حاضر الذهن، حاد النادرة. ومن حكاياته في حضور الجواب ما حكاه عن نفسه قال: حضرت يوماً بين يدي السلطان أبي عنان في بعض وفاداتي عليه لغرض الرسالة، وجرى ذكر بعض أعدائه، فقلت ما أعتقده في إطراء ذلك العدو، وما

عرفته من فضله، فأنكر علي بعض الحاضرين ممن لا يحطب إلا في حبل السلطان، فصرفت وجهي وقلت: أيدكم الله، تحقير عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أحق وأولى، فإن كان السلطان غالب عدوه كان قد غلب غير حقير، وهو الأولى بفخره، وجلال قدره، وإن غلبه العدو لم يغلب حقير، فيكون أشد للحسرة، وآكد للفضيحة، فوافق - رحمه الله تعالى - على ذلك واستحسنه، وشكر عليه، وخجل المعترض، انتهى.

وكان - رحمه الله تعالى - مبتلى بداء الأرق، لا ينام من الليل إلا النزر اليسير جدًّا، وقد قال في كتابه " الوصول لحفظ الصحة في الفصول ": العجب مني - مع تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب، وعملي ذلك - لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي، أو كما قال، ولذا يقال له: " ذو العمرين " لأن الناس ينامون في الليل وهو ساهر فيه، ومؤلفاته ما كان يصنف غالبها إلا بالليل، وقد سمعت بالمغرب بعض الرؤساء يقول: لسان الدين ذو الوزارتين، وذو العمرين، وذو الميتتين، وذو القبرين، انتهى. وسيأتي ما يعلم منه معنى الأخيرين.

* * *

رواية ابن خلدون عن نهاية لسان الدين

وقال ابن خلدون في تاريخه ما صورته: كان محمد بن الأحمر المخلوع قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة ثلاث وستين، وقتل له الطاغية عدوه الرئيس المنتزي على ملكهم حين هرب من غرناطة إليه وفاء بعهد المخلوع، واستوى على كرسيه، واستقل بملكه، ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب، فاستخلصه، وعقد له على وزارته، وفوض إليه في القيام بملكه، فاستولى عليه، وملك هواه، وكانت عينه ممتدة إلى المغرب وسكناه، إلى أن نزلت به آفة في رياسته فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه، وكان لأبناء السلطان أبي الحسن كلهم غيرة من ولد عمهم السلطان أبي علي،

ويخشونهم على أمرهم، ولما لحق الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب، واستخلصه لنجواه، ورفع في الدولة رتبته، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني عمه من الأعياص، فكانت له آثار في الاضطلاع بها، ولما استبد السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه، وكان ابن الخطيب ساعيًا في مرضاته عند سلطانه، فدس إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماساي، وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره، وحمل السلطان عليهما إلى أن سطا بهما ابن الأحمر، واعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز، وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم وتنكر له، فنزع له إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة لما قدم من الوسائل ومهد من السوابق، فقبله السلطان وأحله من مجلسه محل الاصطفاء والقرب، وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده فبعثهم إليه، واستقر في جملة السلطان، ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب، ونمي ذلك إلى ابن الأحمر، فبعث إلى السلطان عبد العزيز بهدية لم يسمع بمثلها انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه، فأبى السلطان من ذلك ونكره. ولما هلك السلطان واستبد الوزير ابن غازي بالأمر تحيز إليه ابن الخطيب وداخله، وخاطبه ابن الأحمر بمثل ما خاطب به السلطان عبد العزيز، فلجَّ واستنكف عن ذلك، وأقبح الرد وانصرف، رسوله إليه وقد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول، وقذف به إلى ساحل بطوية ومعه الوزير مسعود بن ماساي، ونهض - يعني ابن الأحمر - إلى جبل الفتح، فنازله بعساكره، ونزل عبد الرحمن ببطوية.

ثم ذكر ابن خلدون كلاماً كثيراً تركته لطوله، وملخصه أن الوزير أبا بكر

ابن غازي الذي كان تحيز إليه ابن الخطيب ولى ابن عمه محمد عثمان مدينة سبتة خوفاً عليها من ابن الأحمر، ونهض هو - أعني الوزير - إلى منازلة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ببطوية إذ كانوا قد بايعوه، فامتنع عليه، وقاتله أياماً ثم رجع إلى تازا، ثم إلى فاس، واستولى عبد الرحمن على تازا، وبينما الوزير أبو بكر بفاس يدبر الرأي إذ وصله الخبر أن ابن عمه محمد بن عثمان بايع السلطان أحمد بن أبي سالم، وهو المعروف بذي الدولتين، وهذه هي دولته الأولى، وذلك أن ابن عم الوزير وهو محمد بن عثمان لما تولى سبتة كان ابن الأحمر قد طاول حصار جبل الفتح، وأخذ بمخنقه وتكررت المراسلة بينه وبين محمد بن عثمان والعتاب، فاستعتب له، وقبح ما جاء به ابن عمه الوزير أبو بكر ابن غازي من الاستغلاظ له في شأن ابن الخطيب وغيره، فوجد ابن الأحمر في ذلك السبيل إلى غرضه، وداخله في البيعة لابن السلطان أبي سالم من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الحوطة والرقبة، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً ولا يتركهم فوضى وهملاً تحت ولاية الصبي الذي لم يبلغ ولا تصح ولايته شرعاً، وهو السعيد ابن أبي فارس الذي بايعه الوزير أبو بكر ابن غازي بتلمسان حين مات أبوه واستبد عليه، واختص ابن الأحمر أحمد بن أبي سالم من بين أولئك الأبناء لما سبق بينه وبين أبيه أبي سالم من المودات، وكان ابن الأحمر اشترط على محمد بن عثمان وحزبه شروطاً: منها أن ينزلوا له عن جبل الفتح الذي هو محاصر له، وأن يبعثوا إليه جميع أبناء الملوك من بني مرين ليكونوا تحت حوطته، وأن يبعثوا إليه بالوزير ابن الخطيب متى قدروا عليه، فانعقد أمرهم على ذلك، وتقبل محمد بن عثمان شروطه، وركب من سبتة إلى طنجة، واستدعى أبا العباس أحمد من مكان اعتقاله فبايعه، وحمل الناس على طاعته، واستقدم أهل سبتة على البيعة وكتابتها فقدموا وبايعوا، وخاطب أهل جبل الفتح فبايعوا، وأفرج ابن الأحمر عنهم، وبعث إليه محمد بن عثمان عن سلطانه بالنزول له عن جبل الفتح، وخاطب أهله بالرجوع إلى طاعته، فارتحل ابن الأحمر من مالقة إليه، ودخله، ومحا دولة بني مرين مما وراء

البحر، وأهدى للسلطان أبي العباس وأمده بعسكر من غزاة الأندلس، وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره. ولما وصل الخبر بهذا كله إلى الوزير أبي بكر بن غازي قامت عليه القيامة، وكان ابن عمه محمد بن عثمان كتب إليه يموه بأن هذا عن أمره، فتبرأ من ذلك، ولاطف ابن عمه أن ينقض ذلك الأمر، فاعتل له بانعقاد البيعة لأبي العباس، وبينما الوزير أبو بكر ينتظر إجابة ابن عمه إلى ما رامه منه بلغه الخبر بأنه أشخص الأبناء المعتقلين كلهم إلى الأندلس، وحصلوا تحت كفالة ابن الأحمر، فوجم وأعرض عن ابن عمه، ونهض إلى تازا لمحاصرة عبد الرحمن ابن أبي يفلوسن، فاهتبل في غيبته ابن عمه محمد بن عثمان ملك المغرب ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من رجال الأندلس الناشبة نحو ستمائة، وعسكر آخر من الغزاة، وبعث ابن الأحمر رسالة إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد مع ابن عمه ومظاهرته واجتماعهما على ملك فاس، وعقد بينهما الاتفاق على أن يختص عبد الرحمن بملك سلفه، فتراضيا.

وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس، وبلغ الخبر إلى الوزير أبي بكر بمكانه من تازا، فانفض معسكره، ورجع إلى فاس، ونزل بكدية العرائس وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره، فاختل مصافه، ورجع على عقبه مفلولاً، وانتهب عسكره، ودخل البلد الجديد، وجأجأ بالعرب أولاد حسين فعسكروا بالزيتون ظاهر فارس، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازا بمن كان معه من العرب الأجلاف، وشردهم إلى الصحراء، وشارف السلطان أبو العباس أحمد بجموعه من العرب وزناتة، وبعثوا إلى ولي دولتهم ونزمار ابن عريف بمكانه من قصره الذي اختطه بملوية، فجاءهم، وأطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق، فاجتمعوا بوادي النجا، وتحالفوا ثم ارتحلوا إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وبرز إليهم الوزير بعساكره، فانهزمت جموعه، وأحيط به، وخلص إلى البلد الجديد بعد غص الريق، واضطرب معسكر

السلطان أبي العباس بكدية العرائس ونزل الأمير عبد الرحمن بإزاءه، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاب، ووصلهم مدد السلطان ابن الأحمر، فأحكموا الحصار، وتحكموا في ضياع الوزير ابن الخطيب بفاس، فهدموها وعاثوا فيها، ولما كان فاتح سنة ست وسبعين داخل محمد بن عثمان ابن عمه الوزير أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان، لكون الحصار قد اشتد به ويئس وأعجزه المال، فأجاب واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي لهم عن أعمال مراكش بدل سجلماسة، فعقدوا له على كره، وطووا على المكر، وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان وبايعه، واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة، ودخل السلطان أبو العباس إلى البلد الجديد سابع المحرم، وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش، واستولى عليها، انتهى.

* * *

رواية ابن الأحمر

وقال حفيد السلطان ابن الأحمر في تاريخه ما صورته: لما لحق الرئيس أبو عبد الله ابن الخطيب بالمغرب عام اثنين وسبعين وسبعمائة، وكان من وفاة مجيره والمحامي عنه السلطان عبد العزيز ما ألمعنا بذكره، شد الوزير أبو بكر ابن غازي يده على ابن الخطيب بانياً على أشد الأشياء ألا يسلمه لمولانا جدنا مع توقع البغضاء، واقتدى هذا الوزير بالسلطان عبد العزيز في إعراضه عن العقود الموجهة من الأندلس بالمقذع من موبقات ابن الخطيب، ولجَّ في الغلواء، وسجل موجبات الوفاء، والبواعث من مولانا جدنا تتزايد، والأساطيل تتجهز، والآراء بالقصد الخطير ينتقى منها الصواب ويتخير، حتى خيم مولانا جدنا بظاهر جبل الفتح، وكان إذ ذاك راجعاً إلى إيالة المغرب، فأناخ عليه كلكل الجيش، وأهمهم ثقل الوطأة ولم يبال مولانا جدنا بما أرسلت آناء الليل وأطراف النهار من شآبيب الأنفاط، والجوار من باب الشطائين قريب، والخالصة من

الثقات مستريب، والنجاة من تلك الأهوال من الأمر الغريب، ولم يبق بغرناطة من له خلوص، ولا من تترامى به همة إلا وأعمل السير الحثيث ولحق بمولانا جدنا لحاق المحب بالحبيب، حتى أهل العلم، والرجاحة والحلم، ولا كالسيد الإمام الأستاذ أبي سعيد قطب الجملة، وعميد الملة، وهو الذي بلغنا نظمه في هذه الوجهة، وعندما ألقى عصا التسيار في الجهة القريبة من أولي العداوة، ومن ذلك قصيدته المشهورة التي أولها:

يا جبل الفتح استملت نفوسنا ::: فلا قلب إلا نحو مغناك قد سبق
فأرسلت إذ جئناك فينا صواعقاً ::: تخال بها جو السماء قد انطبق

وقوله في إجابة السفهاء من الهاتفين بالسور موطئاً معجباً رحمة الله تعالى عليه:

وذموا وما يعنون إلا مذمماً ::: وأنت بحمد الله تدعى محمداً

وقول حامل اللواء الآتي ذكره في تضاعيف الأسماء:

أما مرامك في عراض البيد ::: فمبلغ ما شئت من مقصود
والهجر إن ألقته ألسنة العدا ::: يأباه فضل مقامك المحمود
سحقاً لهم سفهاء كل قبيلة ::: شذت مقالتهم عن المعهود
قد ضلت الأحلام منهم رشدها ::: هذا، ومنك الحلم غير بعيد
مع عزمة لو شئت هدت كل ما ::: قد أحكموا من معلم ومشيد

إلى أن قال الخبر عن اجتماع الأميرين أبي العباس وأبي زيد متصاحبين ومترافقين على استخلاص مدينة فاس من يد الوزير أبي بكر ابن غازي بن الكاس: وكتب الرئيس أبو عبد الله ابن زمرك في مخلص هذه الكائنة حث الوزير محمد ابن عثمان السير في وسط عام خمسة وسبعين وسبعمائة، وتلاقى بسلطانه أبي العباس مع الأمير أبي زيد عبد الرحمن، واستقلا بالطائلة، وحصلا من التضييق على السعيد الطفل الصغير وعلى وزيره أبي بكر ابن غازي في متسع الخطة ورحيب ذرع الخلافة، وتصالحا عن رضى وتسليم منهما ومن أشياعهما على تسليم السعيد إلى اللحاق بمن كان في طنجة من الأمراء، واتصل

السلطان عبد الرحمن بمراكش، فكان ملكها وجابي أموالها، وتملك السلطان أبو العباس مدينة فاس وما والى البلاد الساحلة وسواها مما يحتوي عليه ملك المدينة البيضاء براً وبحراً.

وعبر كاتب الدولة عن المدينة وعن الطفل متملكها بقوله: وإلى هذا فقد ارتفع الالتباس، واطرد القياس، وغير خفي عن ذي عقل سليم، وذي تفويض للحق وتسليم، أن دار الملك المريني كمامة بلا زهر، ورياض بلا نهر، إن لم يعتقد كرسيها، من يزين جيدها ويجيد حليها، وآن أوان البشرى لمن يمتعض للدين، والآن قلادة التقوى منوطة بقلم أعلام الملوك المهتدين، ثم ذكر ما يطول من فصول، وربما اشتملت على فضول، وملخصه مثل ما ذكر ابن خلدون.

* * *

تتمة الخبر عن نهاية لسان الدين نقلاً عن ابن خلدون

ثم ساق قاضي القضاة ابن خلدون - بعد ما تقدم جلبه من تاريخه - الكلام على محنة لسان الدين ووفاته مقتولاً رحمه الله تعالى فقال ما صورته: ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فاتح ست وسبعين استقل بسلطانه، والوزير محمد بن عثمان مستبد عليه، وسليمان بن داود بن أعراب كبير بني عسكر رديفه، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر - عندما بويع بطنجة - على نكبة الوزير ابن الخطيب وإسلامه إليه، لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز بملك الأندلس، فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقيه أبو بكر ابن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولازمه بالحصار، أوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه، فلما استولى السلطان على البلد أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض على ابن الخطيب، فقبضوا عليه، وأودعوه السجن، وطيروا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر، وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب، لما كان سليمان قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس متى أعاده الله تعالى إلى

ملكه، فلما استقر إليه سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن الوزير عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان، فصده الوزير ابن الخطيب عن ذلك، محتجاً بأن تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من بني عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة، فرجع سليمان، وأثار حقد ذلك لابن الخطيب، ثم جاوز الأندلس لمحل إمارته من جبل الفتح فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفث كل واحد منهما لصاحبه بما يحفظه مما كمن في صدورهما، وحين بلغ خبر القبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر بعث كتابه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله بن زمرك، فقدم على السلطان أبي العباس، وأحضر ابن الخطيب بالمشور في مجلس الخاصة، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبة، فعظم النكير فيها، فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ، ثم تل إلى محبسه، واشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه، وأفتى بعض الفقهاء فيه، ودس سليمان بن داود لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلاً، ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر وقتلوه خنقاً في محبسه، وأخرج شلوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد على حافة قبره طريحاً، وقد جمعت له أعواد، وأضرمت عليه نار، فاحترق شعره، واسود بشره، فأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته، وعجب الناس من هذه الشنعاء التي جاء بها سليمان، واعتدوها من هناته، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته، والله الفعال لما يريد.

وكان - عفا الله تعالى عنه - أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجهش هواتفه بالشعر يبكي نفسه، ومما قال في ذلك رحمه الله تعالى:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ::: وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ::: كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً ::: وكنا نقوت فما نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ::: غربن فناحت علينا السموت

فكم جدلت ذا الحسام الظبى ::: وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة ::: فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ::: وفات، ومن ذا الذي لا يفوت
ومن كان يفرح منهم له ::: فقل يفرح اليوم من لا يموت

انتهى كلام ابن خلدون في ديوان العبر.

* * *

نبذة عن أعداء لسان الدين

واعلم أن لسان الدين لما كانت الأيام له مسالمة، لم يقدر أحد أن يواجهه بما يدنس معاليه أو يطمس معالمه، فلما قلبت الأيام له ظهر مجنها، وعاملته بمنعها بعد منحها ومنها، أكثر أعداؤه في شأنه الكلام، ونسبوه إلى الزندقة والانحلال من ربقة الإسلام، بتنقص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، والقول بالحلول والاتحاد، والانخراط في سلك أهل الإلحاد، وسلوك مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد، وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداوة والانتقاد، مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوي، وكلمات كدروا بها منهل علمه الروي، ولا يدين بها ويفوه إلا الضال الغوي، والظن أن مقامه رحمه الله تعالى من لبسها بري، وجنابه سامحه الله تعالى عن لبسها عري، وكان الذي تولى كبر محنته وقتله، تلميذه أبو عبد الله ابن زمرك الذي لم يزل مضمراً لختله، فلقد وقفت على خط ابن لسان الدين على أنه تسبب في قتل لسان الدين أبيه، وسيأتي الإلماع والإلمام بابن زمرك المذكور في تلامذة لسان الدين، مع أنه - أعني لسان الدين - حلاه في الإحاطة أحسن الحلى، وصدقه فيما انتحله من أوصاف العلا، وقد سبق في كلام ولي الدين بن خلدون أنه قدم على السلطان أبي العباس أحمد المريني في شأن الوزير ابن الخطيب، وأخرج إلى مجلس الخاصة، وامتحن والمجالس بالأعيان غاصة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن أعدائه الذين باينوه بعد أن كانوا يسعون في مرضاته سعي العبيد،

القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي، فكم قبل يده، ثم جاهره بعد انتقال الحال، وجد في أمره مع ابن زمرك حتى قتل لسان الدين، وانقضت دولته فسبحان من لا يتحول ملكه ولا يبيد.

وقد سبق فيما جلبناه من كلام ابن خلدون أن القاضي ابن الحسن قدم على السلطان عبد العزيز في شأن لسان الدين والانتقام منه بسبب تلك السجلات وإمضاء حكم الله فيه بمقتضاها، فأبى السلطان من ذلك، وقال: هلا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم وامتنع لذمته أن يخفره، فلما أراد الله بنفوذ الأمر، وعدم نفع زيد وعمرو، توفي السلطان عبد العزيز، واختلت الأحوال، واضطربت بالغرب نيران الأهوال، فقدم في شأنه الوزير الكاتب ابن زمرك خادمه الذي رباه وصنيعته، فكان ما كان مما سبق به الإلمام.

وقد ذكرنا في الباب الأول قول لسان الدين رحمه الله تعالى في قصيدته النونية:

تلــون إخــواني علــي وقــد جنــت ::: علــي خطــوب جمــة ذات ألــوان
ومــا كنــت أدري قبــل أن يتنكــروا ::: بــأن خــواني كــان مجمــع خــواني
وكانت وقد حــم القضــاء صــنائعي ::: علــي بمــا لا أرتضــي شــر أعــوان

ولقد صدق رحمه الله تعالى، على أنه قال هذه القصيدة في النكبة الأولى التي انتقل فيها مع سلطانه إلى المغرب، كما مر مفصلاً، وكأنه عبر عن هذه المحنة الأخيرة التي ذهبت فيها نفسه على يد صنائعه الكاتب ابن زمرك والقاضي ابن الحسن، سامح الله الجميع.

ويرحم الله أبا إسحاق التلمساني صاحب الرجز في الفرائض حيث يقول:

الغــدر في النــاس شــيمة ســلفت ::: قــد طــال بــين الــورى تصــرفها
ما كــل مــن قــد ســرت لــه نعــم ::: منــك يــرى قــدرها ويعرفهــا
بــل ربمــا أعقــب الجــزاء بهــا ::: مضــرة عــز عنــك مصــرفها
أما ترى الشمس كيف تعطــف بــالنو ::: ر علــى البــدر وهــو يكســفها

وقال لسان الدين، بعد ذكره أن ملك النصارى دون جانجه بن دون الفنش استنصر على أبيه بالسلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ولاذ به، ورهن عنده تاجه ذخيرة النصارى، ولقيه بصخرة عباد من أحواز رندة، فسلم عليه ويقال: إن أمير المسلمين لما فرغ من ذلك طلب بلسان زناتة الماء ليغسل يده به من قبلة الفنش أو مصافحته، ما نصه: والشيء بالشيء يذكر، فأثبت حكاية اتفقت لي بسبب ذلك، أستدعي بها الدعاء ممن يحسن عنده موقعها، وهي أن اليهودي الحكيم ابن زرزار على عهد ملك النصارى حفيد هذا الفنش المذكور وصل إلينا بغرناطة في بعض حوائجه، ودخل إليَّ بدار سكناي مجاور القصر السلطاني بحمراء غرناطة، وعندي القاضي اليوم بغرناطة وغيره من أهل الدولة، وبيده كتاب من سلطان المغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان الكبير المولى أبي الحسن، وكان محمد هذا قد فر إلى صاحب قشتالة، واستدعي من قبله إلى الملك، فسهل له ذلك، واشترط عليه ما شاء، وربما وصله خطابه بما لم يقنعه في إطراءه، فقال لي: مولاي السلطان دن بطره يسلم عليك، ويقول لك: انظر مخاطبة هذا الشخص، وكان بالأمس كلباً من كلاب بابه، حتى ترى خسارة الكرامة فيه، فأخذت الكتاب من يده وقرأته، وقلت له: أبلغه عني أن هذا الكلام ما جرك إليه إلا خلو بابك من الشيوخ الذين يعرفونك بالكلاب وبالأسود، وبمن تغسل الأيدي منهم إذا قبلوها، فتعلم من الكلب الذي تغسل اليد منه ومن لا، وإن جد هذا الولد هو الذي قبل جدك يده واستدعى الماء لغسل يده منه بمحضر النصارى والمسلمين، ونسبة الجد إلى الجد كنسبة الحفيد إلى الحفيد، وكونه لجأ إلى بلادك ليس بعار عليه، وأنت معرض إلى اللجإ إليه فيكافئك بأضعاف ما عاملته به.

فقام أبو الحسن المستقضي يبكي ويقبل يدي، ويصفني بولي الله، وكذلك من حضرني، وتوجه إلى المغرب رسولاً، فقص على بني مرين خبر ما شاهده مني وسمعه، وبالحضرة اليوم ممن تلقى منه ذلك كثير، جعل الله تعالى ذلك

خالصاً لوجهه؛ انتهى.

وقد أثنى لسان الدين في الإحاطة على القاضي ابن الحسن المذكور كما سيأتي، وقال في ترجمة السلطان ابن الأحمر ما نصه: ثم قدم للقضاء الفقيه الحسيب أبا الحسن، وهو عين الأعيان بمالقة، المخصوص برسم التجلة والقيام بالعقد والحل، فسدد وقارب، وحمل الكل، وأحسن مصاحبة الخطبة والخطة، وأكرم المشيخة مع النزاهة، ولم يقف في حسن التأتي على غاية، فاتفق على رجاحته، ولم يقف في النصح عند غاية، انتهى. وحين أظلم الجو بينه وبين لسان الدين ذكره في " الكتيبة الكامنة " بما يباين ما سبق، ولقبه بالجعسوس ولم يقنعه ذلك حتى ألف فيه " خلع الرسن في وصف القاضي أبو الحسن ".

* * *

نماذج من براعة لسان الدين في القدح

واعلم أن لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى الغاية في المدح والقدح، فتارة على طريق الترسل، وطوراً على غيرها، وقد أقذع وبالغ رحمه الله تعالى في هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال، وهو أشد من وقع النبال، ومنه ما وصف به الوزير، الذي كان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الثائر على سلطان ابن الخطيب، حسبما سبق الإلمام بذلك، والوزير هو إبراهيم بن أبي الفتح الأصلع الغوي، إذ قال في المذكور وفي ابن عمه محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح العقرب الردي، بعد كلام، ما صورته:

وما ظنك برجل مجهول الجد، موصوم الأبوة إلى أن قال: تنور خبز، وبركة مرقة، وثعبان حلواء وفاكهة، مغي في شح النفس، متهالك في مسترذل الطبع، عليه العذيوط الغبي ابن عمه بسذاجة، زعموا، مع كونه قبيح الشكل،

بشيع الطلعة، إلى أن قال: وفي العشر الأول من رمضان عام واحد وستين وسبعمائة تقبض على الوزير المشؤوم، وابن عمه الغوي الغشوم، وولد الغوي مرسل الظفيرة أبعد الناس في مهوى الاغترار يختال في السرق والحلية، سم من سم القوارير، وابتلاء من الله لذوي الغيرة، يروح نشوان العشيات، يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف، يعاقرون النبيذ في السكك الغاصة، وولد العقرب الردي بضده قماءة وتقطباً، تنهوا عنهما العيون، ويبكي منهما الخز، كأنهما صمتاً عند المحاورة وإظلاماً عند اللألاء، من أذلاء بني النضير، ومهتضمي خيبر، فثقفا ملياً، وبودر بهما إلى ساحل المنكب.

قال المخبر: فما رأيت منكوبين أقبح شكلاً، ولا أفقد صبراً، من ذينك التيسين الحبقين، صلع الرؤوس، ضخام الكروش، مبهوري الأنفاس، متلجلجي الألسنة، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منهما شحمة أترجية كأنها سنام الحوار، لا يثيرون دمعاً، ولا يستنزلون رحمة، ولا يمهدون عذراً، ولا يتزودون من كتاب الله آية، قد طبع الله على قلوبهم، وأخذهم ببغيهم، وعجل لهم سوء سعيهم. وللحين أركبوهم وجراءهم - يعني أولادهم - في جفن غزوي تحف بهم المساعير من الرجال، واقتفى بهم أثر قرقورة تحمل حاجاً إلى الإسكندرية تورية بالقصد، فلما لجحوا قذف بهم في لجة بعد استخلاص ما ضبثوا به، وتلكأ الأصلع الغوي فأثبت بجراحة أشعر بها هديه، واختلط العقرب الردي فنال من جناب الله سخطاً وضيقاً، تعالى الله عن نكيره، فكان فرعون هذا الزمان جبروتاً وعتوًّا وميتة، عجل الله لهم العذاب، وأغرقهم في اليم.

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، فسبحان من لا تضيع الحقوق مع عدله، ولا تنفسخ الآماد مع منازعة رداء كبريائه، مرغم الأنوف، وقاطع دابر الكافرين، وفي ذلك أقول مستريحاً وإن لم يكن - علم الله تعالى - شاني، ولا تكرر في ديواني:

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ::: ولكن من يبصر جفونك يعشق

ومن أمثالهم " من استغضب فلم يغضب فهو حمار " والله سبحانه يقول ومن أصدق من الله قيلا " وجزاء سيئة سيئة مثلها " والعفو أقرب للتقوى والقرب والبعد بيده سبحانه. وصدرت هذه الكلمة لحين تعرف إجلائهم في الجفن إلى الإسكندرية، وبعد ذلك صح هلاكهم:

كن من صروف الردى على حذر ::: لا يقبل الدهر عذر معتذر
ولا تعول فيه على دعة ::: فأنت في قلعة وفي سفر
فكل ري يفضي إلى ظمإ ::: وكل آمن يدعو إلى غرر
كم شامخ الأنف ينثني فرحاً ::: بال عليه زمانه وخري
قل للوزير البليد قد ركضت ::: في ربعك اليوم غارة الغير
يا ابن أبي الفتح نسبة عكست ::: فلا بفتح أتت ولا ظفر
وزارة لم يجد مقلدها ::: عن شؤمه في الوجود من وزر
في طالع النحس حزت رتبتها ::: وكل شيء في قبضة القدر
أي اختبار لم تأل نصبته ::: في جسد للنحوس أو نظر
بات له المشتري على غير ::: وأحرقت فيه قرصة القمر
يا طللاً ما عليه من عمل ::: يا شجراً ما لديه من ثمر
يا مفرط الجهل والغباوة لا ::: يحسب إلا من جملة البقر
يا دائم الحقد والفظاظة لا ::: يفرق بين ظالم وبري
يا كمد اللون ينطفي كمداً ::: من حسد يستطير بالشرر
يا عدل سرج يا دن مقتعد ::: ملآن من ريبة ومن قذر
يا واصلاً للجشاء ناشئة الليـ ::: ـل ورب الضراط في السحر
من غير لب ولا مراقبة ::: لله في مورد ولا صدر
يا خاملاً جاهه الفروج يرى ::: صهر أولي الجاه فخر مفتخر
كانوا نبيطاً في الأصل أو حبشاً ::: ما عنده عبرة بمعتبر
يا ناقص الدين والمروءة والعقـ ::: ـل ومجري اللسان بالهذر
يا ولد السحق غير مكتتم ::: حديثه، يا بن فاسد الدبر
يا بغل طاحونة يدور بها ::: مجتهد السير مغمض البصر
في أشهر عشرة طحنتهم ::: فيها رحى الشؤم والبوار در

والله مـــا كنـــت يـــا مشـــوم ولا ::: أنـــت ســـوى عـــرة مـــن العـــرر
ومن أبـــو الفـــتح في الكـــلاب وهـــل ::: لجـــاه في الأنـــام مـــن خطـــر
قـــد ســـتر الـــدهر منـــك عورتـــه ::: وكـــان لليـــوم غـــير مســـتتر
حـــانوت بـــز يمشـــي علـــى فـــرش ::: وثـــور عـــرس يختـــال في حـــبر
لا منـــة تتقـــى لمعتـــرك ::: ولا لســـان يـــبين عـــن خـــبر
ولا يـــد تنتمـــي إلى كـــرم ::: ولا صـــفاء يـــريح مـــن كـــدر
عهـــدي بـــذلك الجـــبين قـــد ملئـــت ::: غضـــونه الغـــبر بالـــدم الهـــدر
عهـدي بـذلك القفـا الغلـيظ وقـد ::: مـــد لوقـــع المهنـــد الـــذكر
أهـــدتك للبحـــر كـــف منـــتقم ::: ألقتـــك للحـــوت كـــف مقتـــدر
يـــا يـــتم أولادك الصـــغار ويـــا ::: حيرتهـــم بعـــد ذاك في الكـــبر
يـــا ثكـــل تلـــك الصـــماء أمهـــم ::: وظـــاعن المـــوت غـــير منتظـــر
والله لا نـــال مـــن تخلفـــه ::: مـــن أمـــل بعـــدها ولا وطـــر
والله يـــا مســـخفان لا انتقلـــت ::: رجلـــك منـــها إلا إلى ســـقر
ألحفـــك الله بـــالهوان ولا ::: رعـــاك فـــيمن تركـــت مـــن عـــرر
مـــا عوقـــب الليـــل بالصـــباح ومـــا ::: تقـــدم الـــبرق عـــارض المطـــر

انتهى.

وقال موريًّا بدم الأخوين، في شأن سلطان تلك الدولة الذي أضحى أثراً بعد عين:

بإسماعيـــل ثم أخيـــه قـــيس ::: تـــأذن ليـــل همـــي بـــانبلاج
دم الأخـــوين داوى جـــرح قلـــبي ::: وعـــالجني، وحســـبك مـــن عـــلاج

وهذه تورية بديعة، لأن الأطباء يقولون: إن في خاصية دم الأخوين الذفع من الجراح.

وقال رحمه الله تعالى: قلت في رأس الغادر بالدولة حين عرض علي:

في غـــير حفـــظ الله مـــن هامـــة ::: هـــام بهـــا الشـــيطان في كـــل واد
مـــا تركـــت حمـــداً ولا رحمـــة ::: في فـــم إنســـان ولا في فـــؤاد

وقال أيضاً في تلك الدولة بعد كلام، ما نصه:

" وانتدب قاضيهم الشيخ المتراخي الدبر والفك، المنحل العصب والعقدة، المعرق في العمومية، المشهور بقبول الرشوة، أبو فلان ابن فلان، الغريب السم والولاية، ومفتيهم معدن الرياء والهوادة، والبعد عن التخصص والحشمة، والمثل في العماه، والطرف في التهالك على الحطام، فلان البناء، المسخر في بناء الحفيرة، المستخدم في دار ابنه أجيراً، مختضباً بالطين، مضايقاً في رمق العيشة، وحسبك به دليلاً على الحياء وفضل البنوة، فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلدوا بها حل العقد الموثق، ديدنهم في معارضة صلب الملة بالآراء الخبيثة، يتحكم الوقاح منهم في الحكم الذي نزل به شديد القوى على الذي لا ينطق عن الهوى، بحسب شهوته، تحكمه في غزل أمه إيثاراً للعاجل، بالوعيد، ففسخوا النكاح، وحللوا محرم البضع للدائل، وقد تأذن الله بفسخه، وأجرى دمه نقداً قبل دفع فقده، سبحانه حكم الحكام، وقاهر الظلام، وباء مشيخة السوء بلعنة الله وسوء الأحدوثة، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً "؛ انتهى.

ومن كلامه في " نفاضة الجراب "، وقد ذكر وزير المغرب محمد بن علي مسعود ما ملخصه: " وأنه مجنون، أحول العين، وحش النظرة، يظن به الغضب في حال الرضى، يهيج به المرار فيكمن زماناً خلف كلة مرقده، يدخل إليه وعاء الحاجتين خوفاً من إصحاره إلى فضاء منزله، وتوحشه من أهله وولده، إلى أن تضعف سورة المرة فيخف أمره، قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة، وتوفر داعية الغبطة، لحلف جره الوسواس السوداوي، نستدفع بالله سر بلائه، فاستعان مستوزره منه برأي الفضل بن سهل ويحيى بن خالد وأمثالهما، تدارك الله رمق الإسلام بلطفه "؛ انتهى.

* * *

رسالته إلى ابن مرزوق ينصحه برفض الدنيا

ومن كلام لسان الدين - رحمه الله تعالى - رسالة في أحوال خدمة الدولة ومصائرهم، وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة بعيون بصائرهم، عبر

فيها عن ذوق ووجدان، وليس الخبر كالعيان، وخاطب بها الإمام الخطيب عين الأعيان، سيدي أبا عبد الله بن مرزوق، وكأنه - أعني لسان الدين - أشار ببعض فصولها إلى نفسه، ونطق بالغيب في نكبته التي قادته إلى رمسه، وكان ذلك منه عندما أراد التخلي عن خدمة الملوك، والتحلي بزينة أهل التصوف والسلوك، فلم يرد الله أن تكون مهجته نائية عن ساحة الظلمة خارجة، وأراد سامحه الله وغفر له عمراً وأراد الله خارجة، وصورة ما قال رحمه الله تعالى:

" وأحسست منه - يعني ابن مرزوق - في بعض كتبه الواردة إليَّ إلى الدنيا وحنيناً لما بلاه من غرورها، فحملني الطور الذي ارتكبته في هذه الأيام - بتوفيق الله - على أن أخاطبه بهذه الرسالة، وحقها أن يجعلها خدمة الملوك ممن ينسب إلى نبل، ويلم بمعرفة، مصحفاً يدرسه، وشعاراً يلتزمه، وهي: سيدي الذي يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافأة، ولم تختلف في مدحها الأفعال ولا تغايرت الصفات، ولا تزال تعترف بها العظام الرفات، أطلقك الله من أسر كل الكون كما أطلقك من أسلا بعضه، وزهدك في سمائه الفانية وفي أرضه، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يحملك على رفضه، اتصل بي الخبر السار من تركك لشانك، وإجناء الله تعالى إياك ثمرة إحسانك، وانجياب ظلام الشدة الحالك، عن أفق حالك، فكبرت، وفي الفرج من بعد الشدة اعتبرت، لا بسوى ذلك من رضى مخلوق يؤمر فيأتمر، ويدعوه القضاء فيبتدر، إنما هو فيء، وظل ليس له من الأمر شيء، ونسأله جل وعلا أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها، وأول معارج نفسك التي تقربها من الحق وتدنيها، وكأني والله أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك، ومضادتها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطبعك، وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله تعالى في عالم الإنسان، والآلة لبث العدل والإحسان، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان، فأقول: " ليت شعري ما الذي غبط سيدي في الدنيا، وإن بلغ من زبرجدها الرتبة العليا، ونفرض المثال بحال إقبالها، ووصل حبالها، وخشوع جبالها، وضراعة سبالها، ألتوقع

المكروه صباحاً ومساء، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعيم البأساء، ولزوم المنافسة التي تعادي الأشراف والرؤساء ألترتب العتب التقصير في الكتب، وضغينة جار الجنب، وولوع الصديق بإحصاء الذنب ألنسبة وقائع الدولة إليك وأنت بري، وتطويقك الموبقات وأنت منها عري ألاستهدافك للمضار التي تنتجها غيرة الفروج، والأحقاد التي تضبطها ركبة السروج، وسرحة المروج، ونجوم السماء ذات البروج ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك، وصحت إليه فاقتك، من حاجة لا يقتضي قضاءها الوجود، ولا يكفيها الركوع للملك والسجود ألقطع الزمان بين سلطان يعبد، وسهام للغيم تكبد، وعجاجة شر تلبد، وأقبوحة تخلد وتؤبد ألوزير يصانع ويدارى، وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويمارى، وعورة لا توارى ألمباكرة كل قرن حاسد، وعدو مستأسد، وسوق للإنصاف والشفقة كاسد، وحال فاسد ألوفود تتزاحم بسدتك مكلفة لك غير ما في طوقك، فإن لم يقع الإسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ألجلساء بابك، لا يقطعون زمان رجوعك وغيابك، إلا بقبيح اغتيابك، فالتصرفات تمقت، والقواطع توقت، والألاقي تبث، والسعايات تحث، والمساجد يشتكى في حلقها البث، يعتقدون أن السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور، واليتيم المحجور، والأسير المأمور، ليس له شهوة ولا غضب، ولا أمل في الملك ولا أرب، ولا موجدة لأحد كامنة، وللشر ضامنة، وليس في نفسه عن رأي ذفرة، ولا بإزاء ما لا يقبله نزوة ولا طفرة، إنما هو جارحة لصيدك، وعان في قيدك، وآلة لتصرف كيدك، وأنك علة حيفه، ومسلط سيفه:

" الشرار يسملون عيون الناس باسمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك، قد تنخلهم الوجود أخبث ما فيه، واختارهم السفيه فالسفيه إذ الخير يستره الله تعالى عن الدول ويخفيه، ويقنعه بالقليل فيكفيه، فهم يمتاحون بك ويولونك الملامة، ويفتحون عليك القول ويسدون طرق السلامة، وليس لك في أثناء هذه إلا ما لا يعوزك مع ارتفاعه، ولا يفوتك مع انقشاعه، وذهاب صداعه، من غذاء يشبع،

وثوب يقنع، وفراش ينيم، وخديم يقعد ويقيم، وما الفائدة في فرش تحتها جمر الغضا، ومال من ورائه سوء القضا، وجاء يحلق عليه سيف منتضى وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك، واللجاج حول المسقط الذي تعلم أنها فيه تهلك، فكيف تنسب إلى نبل، أو تسير من السعادة في سبل وإن وجدت في القعود بمجلس التحية، بعض الأريحية، فليت شعري أي شيء زادها، أو معنى أفادها إلا مباكرة وجه الحاسد، وذي القلب الفاسد، وموجهة العدو المستأسد، أو شعرت ببعض الإيناس، في الركوب بين الناس، ما التذت إلا بحلم كاذب، أو جذبها غير الغرور جاذب، إنما راكبت من يحدق إلى الحلية والبزة، ويستطيل مدة العزة، ويرتاب إذا حدثت بخبرك، ويتتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك، ويمنعك من مسايرة أنيسك، ويحتال على فراغ كيسك، ويضمر الشر لك ولرئيسك، وأي راحة لمن لا يباشر قصده، ويمشي إذا شاء وحده ولو صح في هذه الحال لله تعالى حظ وهبه زهيداً، وعين الرشد عملاً حميداً، لساغ الصاب، وخفت الأوصاب، وسهل المصاب، لكن الوقت أشغل، والفكر أوغل، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية، واستنفدت منه الكمية، أما ليله ففكر أو نوم، وعتب بجراء الضرائر ولوم، وأما يومه فتدبير وقبيل ودبير، وأمور يعيا بها ثبير، وبلاء مبير، ولغط لا يدخل فيه حكم كبير، وأنا بمثل ذلك خبير؛ ووالله يا سيدي ومن فلق الحب، وأخرج الأب، وذرأ من مشى ومن دب، وسمى نفسه الرب، لو تعلق المال الذي يجره هذا القدح، ويوري سقيطه هذا القدح، بأذيال الكواكب، وزاحمت البدر بدره بالمناكب، لما ورثه عقب، ولا خلص به محتقب، ولا فاز به سافر ولا منتقب، والشاهد الدول، والمشائيم الأول: فأين الرباع المقتناة وأين الديار المبتناة وأين الحوائط المغترسات وأين الذخائر المختلسات وأين الودائع المؤملة وأين الأمانات المحملة تأذن الله بتتبيرها، وإدناء نار التبار من دنانيرها، فقلما تلقى أعقابهم إلا أعراء الظهور، مترمقين لجرايات الشهور، متعللين بالهباء المنذور، يطردون من الأبواب التي حجب عنها آباؤهم، وعرف منها إباؤهم، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكبائهم، ولم تسامحهم الأيام إلا في إرث

محرر، أو حلال مقرر، وربما محقه الحرام، وتعذر منه المرام.

" هذه - أعزك الله - حال قبولها مع الترفيه، ومالها المرغوب فيه، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز مستوفيه، وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم، وحوت بغي يبتلع ويلتقم، ومطبق يحجب الهواء، ويطيل في التراب الثواء، وثعبان قيد يعض الساق، وشؤبوب عذاب يمزق الأبشار الرقاق، وغيلة يهديها الواقب الغاسق، ويجرعها العدو الفاسق، فصرف السوق، وسلعته المعتادة الطروق، مع الأفول والشروق. فهل في شيء من هذا مغتبط لنفس حرة، أو ما يساوي جرعة حال مرة واحسرتا للأحلام ضلت، وللأقدام زلت، ويا لها مصيبة جلت.

" ولسيدي أن يقول: حكمت باستثقال الموعظة واستجفائها، ومراودة الدنيا بين خلانها وأكفائها، وتناسي عدم وفائها، فأقول: الطبيب بالعلل أدرى، والشفيق بسوء الظن مغرى، وكيف لا وأنا أقف على السحاءات بخط يد سيدي من مطارح الاعتقال، ومثاقف النوب الثاقل، وخلوات الاستعداد، للقاء الخطوب الشداد، ونوشى الأسنة الحداد، وحيث يجمل بمثله أن لا في غير الخضوع لله تعالى بناناً، ولا يثني لمخلوق عناناً، وأتعرف أنها قد ملأت الجو والدو، وقصدت الجماد والبو، تقتحم أكف أولي الشمات، وحفظة المذمات، وأعوان النوب الملمات، زيادة في الشقاء، وقصداً برياً من الاختيار والانتقاء، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء، ومن النفاق على أشهر من البلقاء، فهذا يوصف بالإمامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهله، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله، إلى ما أحفظني والله من البحث عن السموم، وكتب النجوم، المذموم من العلوم، هلاكان من ينظر في ذلك قد قوطع بتاتاً، وأعتقد أن الله قد جعل لزمان الخير والشر ميقاتاً، وأنا لا نملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتاً، وأن اللوح قد حصر الأشياء محواً وإثباتاً، فكيف نرجو لما منع منالاً أو نستطيع مما قدر إفلاتاً أفيدونا ما يرجع العقيدة

المتقررة فنتحول إليه، وبينوا لنا الحق نعول عليه.

" الله لله يا سيدي في النفس المرشحة، والسلف الشهير الخير، والعمر المشرف على الرحلة بعد حث السير، ودع الدنيا لبنيها فما أوكس حظوظهم، وأخس لحوظهم، وأقل متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناءهم، وأقصر آناءهم:

ما ثم إلا ما رأيت، وربما تعيي السلامه ::: والناس إما جائر أو حائر يشكو ظلامه

وإذا أردت العز لا ترزأ بني الدنيا قلامه ::: والله ما احتقب الحريص سوى الذنوب أو الملامه

هل ثم شك في المعاد الحق أو يوم القيامه ::: قولوا لنا ما عندكم أهل الخطابة والإمامه

" وإن رميت بأحجاري، وأوجرت المر من أشجاري، فوالله ما تلبست اليوم منها بشيء قديم ولا حديث، ولا استأثرت بطيب فضلاً عن خبيث، وما أنا إلا عابر سبيل، وهاجر مرعى وبيل، ومرتقب وعداً قدر فيه الإنجاز، وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز، قد فررت من الدنيا كما يفر من الأسد، وحاولت المقاطعة حتى بين روحي والجسد، وغسل الله قلبي - ولله الحمد - من الطمع والحسد، فلم أبق عادة إلا قطعتها، ولا جنة للصبر إلا أدرعتها، أما اللباس فالصوف، وأما الزهد فيما بأيدي الخلق فمعروف، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف، ووالله لو علمت أن حالي هذه تتصل، وعراها لا تنفصل، وأن ترتيبي هذا يدوم، ولا يحيرني الوعد المحتوم، والوقت المعلوم، لمت أسفا، وحسبي الله وكفى.

" ومع هذا يا سيدي فالموعظة تتلقى من لسان الوجود، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود، ويأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا المحمود. ولقد أعملت نظري فيما يكافئ عني بعض يدك، أو تنهي في الفضل إلى أمدك، فلم أر لك الدنيا كفاء هذا لو كنت صاحب دنيا، وألفيت بذل النفس

قليلاً لك من غير شرط ولا ثنيا، فلما ألهمني الله لمخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة في قالب الجفاء، لمن لا يثبت عين الصفاء، ولا يشيم بارقة الوفاء، ولا يعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلي من المتدنسين بها المنهمكين، وينظر عوارها القادح بعين اليقين، ويعلم أنها المومسة التي حسنها زور، وعاشقها مغرور، وسرورها شرور، تبين لي أنني قد كافيت صنيعتك المتقدمة، وخرجت عن عهدتك الملتزمة، وأمحضت لك النصح الذي يعز بعز الله ذاتك، ويطيب حياتك، ويحيي مواتك، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا وأهلها في عينك إذا اعتبرت، ويلاشي عظائمها لديك إذا اختبرت.

" كل من تقع عينك عليه فهو حقير قليل، وفقير ذليل، لا يفضلك بشيء إلا باقتفاء رشد أو ترك غي، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل، وعروة عزه يفصلها الفاصل، وما له الحاضر الحاصل، يعيث فيه الحسام الفاصل، والله ما تعين للسلف، ولا مصير المجموع إلا إلى التلف، ولا صح من الهياط والمياط، والصياح والعياط، وجمع القيراط إلى القيراط، والاستظهار بالوزعة والأشراط، والخبط والخباط، والاستكثار والاغتباط، والغلو والاشتطاط، وبناء الصرح وعمل الساباط، ورفع العمد وإدارة الفسطاط، إلا أمل يذهب القوة، وينسي الآمال المرجوة، ثم نفس يصعد، وسكرات تتردد، وحسرات لفراق الدنيا تتجدد، ولسان يثقل، وعين تبصر الفراق وتمقل{ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) } [ص: ٦٧ - ٦٨]، ثم القبر وما بعده، والله منجز وعيده ووعده، فالإضراب الإضراب، والتراب التراب.

" وإن اعتذر سيدي بقلة الجلد، فهو ابن مرزوق لا ابن رزاق، وبيده من التسبب ما يتكفل بإمساك أرماق، أين النسخ الذي يتبلغ الإنسان بأجرته، في كن حجرته لا بل السؤال الذي لا عار عند الحاجة بمعرته. السؤال والله أقوم طريقاً، وأكرم رفيقاً، من يد تمتد إلى حرام، لا يقوم بمرام، ولا يؤمن من ضرام، أحرقت فيه الحلل، وقلبت الأديان والملل، وضربت الأبشار، ونحرت

العشار، ولم يصل منه على يدي واسطة السوء المعشار، ثم طلب عند الشدة ففضح، وبان شؤمه ووضح، اللهم طهر منها أيدينا وقلوبنا، وبلغنا من الانصراف إليك مطلوبنا وعرفنا بمن لا يعرف غيرك، ولا يسترفد إلا خيرك، يا الله.

" وحقيق على الفضلاء إن جنح سيدي منها إلى إشارة، أو أعمل في اجتلابها إضبارة، أو لبس منها شارة، أو تشوف لخدمة إمارة، أن لا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس، ولا يغتروا بسمة ولا خلق ولا لباس، فما عدا عما بدا تقضى العمر في سجن وقيد، وعمرو وزيد، وضر وكيد، وطراد صيد، وسعد وسعيد، وعبد وعبيد، فمتى تظهر الأفكار، ويقر القرار، وتلازم الأذكار، وتشام الأنوار، وتستجلى الأسرار ثم يقع الشهود الذي يذهب معه الإخبار، ثم يحق الوصول الذي إليه من كل ما سواه الفرار، وعليه المدار.

" وحق الحق الذي ما سواه فباطل، والفيض الرحماني الذي ربابه الأبد هاطل، ما شابت مخاطبتي لك شائبة تريب، ولقد محضت لك ما يمحضه الحبيب للحبيب، فتحمل جفائي الذي حملت عليه، ولا تظن بي غيره، وأن لم تعذرني مكاشفة سيادتك بهذا النث، في الأسلوب الرث، فالحق أقدم، وبناؤه لا يهدم، وشأني معروف في مواجهة الجبابرة على حين يدي إلى رفدهم ممدودة، ونفسي في النفوس المتهافتة عليهم معدودة، وشبابي فاحم، وعلى الشهوات مزاحم، فكيف لي اليوم مع الشيب، ونصح الجيب، واستكشاف العيب إنما أنا اليوم على كل من عرفني كل ثقيل، وسيف العدل في كفي صقيل، أعذل أهل الهوى، وليست النفوس في القبول سوا، ولا لكل مرض دوا، وقد شفيت صدري، وإن جهلت قدري، فاحملني - حملك الله تعالى - على الجادة الواضحة، وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة، والسلام ".

انتهت الرسالة البديعة في بابها، الآتية من الموعظة بلبابها، ذات النصيحة الصريحة التي يتعين على كل عاقل خصوصاً من يريد خدمة الملوك التمسك

بأسبابها.

وأما قصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثى بها بني الأفطس وذكر فيها كثيراً من الملوك الذين أبادهم الدهر وطحنهم برحاه وصيرهم أثراً بعد عين ففيها ما يوقظ النوام، وأولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ::: فما البكاء على الأشباح والصور

وبالجملة فالأمر كما قال ابن الهبارية:

الموت لا يبقي أحد ::: لا والداً ولا ولد
مات لبيد ولبد ::: وخلد الفرد الصمد

{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)} [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]، اللهم اختم لنا بالحسنى، وردنا إليك رداً جميلاً.

وتذكرت هنا أيضاً مرثية على روي مرثية المنجنيقي منها:

أين أهل الديار من قوم نوح ::: ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الأسرة والأنـ ::: ـماط أفضت إلى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن ::: بعد ذا الوعد كله والوعيد
وأطباء بعدهم لحقوهم ::: ضل عنهم سعوطهم واللدود
وصحيح أضحى يعود مريضاً ::: وهو أدنى للموت ممن يعود

وما أحكم قول السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد المريني يخاطب أخاه السلطان أبا الحسن وقد حصره بسجلماسة حتى أخذه قسراً:

فلا يغرنك الدهر الخئون فكم ::: أباد من كان قبلي يا أبا الحسن
الدهر مذ كان لا يبقي على صفة ::: لا بد من فرح فيه ومن حزن
أين الملوك التي كانت تهابهم ::: أسد العرين ثووا في اللحد والكفن
بعد الأسرة والتيجان قد محيت ::: رسومها وعفت عن كل ذي حسن
فاعمل لأخرى وكن بالله مؤتمراً ::: واستعن بالله في سر وفي علن
واختر لنفسك أمراً أنت آمره ::: كأنني لم أكن يوماً ولم تكن

ودخل السلطان أبو الحسن سجلماسة عنوة على أخيه السلطان أبي علي

عمر سنة ٧٣٤، وجاء به في الكبل لفاس، ثم قتله بالفصد والخنق في ربيع الأول من السنة، وكان القبض عليه في محرم، رحمه الله تعالى.

ومما وجد مكتوباً على قصر بعض السلاطين:

قد كان صاحب هذا القصر مغتبطاً ::: في ظل عيش يخاف الناس من باسه
فبينما هو مسرور بلذته ::: في مجلس اللهو مغبوط بجلاسه
إذ جاءه بغتة ما لا مرد له ::: فخر ميتاً وزال التاج عن راسه

رجع إلى أخبار ابن الخطيب - رحمه الله تعالى -.

قلت: وقد زرت قبره مراراً رحمه الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له: باب الشريعة، وهو يسمى الآن باب المحروق، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض، بل ينزل إليه بانحدار كثير، ويزعم الجل من عوام فاس أن الباب المذكور إنما سمي بباب المحروق لأجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين أخرجه بعض أعدائه من حفرته كما مر، وليس كذلك، وإنما سمي باب المحروق في دولة الموحدين، قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه، بسبب ثائر ثار على الدولة، فأمسك وأحرق في ذلك المحل، والله غالب على أمره. وحصل لي من الخشوع والحزن عند زيارة قبره - رحمه الله تعالى - ما لا مزيد عليه، جعل الله تلك المحن كفارة وطهرة، فإنه كان آية الله علماً وجلالة وحكمة وشهرة.

* * *

قطع زهدية

ويرحم الله القائل:

كل جمع إلى الشتات يصير ::: أي صفو ما شابه تكدير
أنت في اللهو والأماني مقيم ::: والمنايا في كل وقت تسير
والذي غره بلوغ الأماني ::: بسراب وخلب مغرور
ويحك يا نفس أخلصي إن ربي ::: بالذي أخفت الصدور بصير

ولا خفاء على ذوي الأحلام، من الأعلام، أن الدنيا أضغاث أحلام:

ينـــدم المـــرء علـــى مـــا فاتــــه ::: مـــــن لبانــــــات إذا لم يقضـــــها
وتـــــراه فرحــــــاً مستبشـــــــراً ::: بـــــالتي أمضـــى كــــأن لم يمضـــها
إنهـــا عنـــدي كـــأحلام الكـــرى ::: لقريـــــب بعضـــــها مـــــن بعضـــها

وقال أبو منصور أسعد النحوي:

يجمـــع المـــرء ثم يتـــرك مـــا يـــج ::: مـــع مـــن كســـبه لغـــير شـــكور
لـــيس يحظـــى إلا بـــذكر جميـــل ::: أو بعلـــم مـــن بعـــده مـــأثور

* * *

شيء من مواعظ ابن الجوزي

وقال الإمام الشهير أبو الفرج ابن الجوزي:

يـــــا ســـــاكن الـــــدنيا تـــــأ ::: هـــــب واتنظـــــر يـــــوم الفـــــراق
وأعـــــــد زاداً للرحيـــــــــــ ::: ل فســـــوف يحـــــدى بالرفــــاق
وابـــــك الـــــذنوب بـــــأدمع ::: تنـــــهل مـــــن ســـــحب المـــــآق
يـــــا مـــــن أضـــــاع زمانـــــه ::: أرضـــــيت مـــــا يفـــــنى ببـــــاق

وكان ابن الجوزي المذكور آية الله في كثرة التأليف والكتابة والوعظ والحفظ، وأقل من كان يحضر مجلسه عشرة آلاف، وربما حضر عنده مائة ألف، وقال في آخر عمره على المنبر: كتبت بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألف يهودي ونصراني، وأسمع رحمه الله تعالى الناس أكثر من أربعين سنة، وحدث بمصنفاته مراراً.

وقال الحافظ الذهبي في حقه: الحافظ الكبير، الواعظ المفتن، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في العلوم المتعددة، وعظ من صغره، وفاق فيه الأقران ونظم الشعر المليح، وكتب بخطه ما لا يوصف، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه، وحزر مجلسه غير مرة بمائة ألف، وحضر مجلسه المستضيء مراراً من وراء الستر؛ انتهى.

ومن كلامه في بعض مجالسه: والله ما اجتمع لأحد أمله، إلا وسعى في تفريقه أجله، وعقارب المنايا تلسع الناس، وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس، وقال في قوله : ♂**أعمار أمتي من الستين إلى السبعين**▬ إنما طالت أعمار القدماء لطول البداية، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل: حثوا المطي.

وقال في الذين عبدوا العجل: لو أن الله خار لهم ما خار لهم.

وقال يوماً وقد طرب أهل المجلس: فهمتم فهمتم.

وقال في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، بعد أن ذكر أحاديث تدل على خلافته كقوله : ♂**مروا أبا بكر فليصـــل بالنـــاس**▬ وغيره، ما صورته: فهذه أحاديث تجري مجرى النص، فهمها الخصوص، غير أن الرافضة في إخفائها كاللصوص، فقال السائل: لما قال: " أقيلوني " ما سمعنا مثل جواب علي رضي الله عنه " والله لا أقلناك "، فقال: لما غاب علي عن البيعة في الأول، أخلف ما فات بالمدح في المستقبل، ليعلم السامع والرائي أن بيعة أبي بكر وإن كانت من ورائي، فهي رائي، ومثل ذلك الصدر لا يرائي.

وقال في قول فرعون:{أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ} [الزخرف: ٥١]، يفتخر بما أجراه، ما أجراه.

وتواجد رجل في مجلسه فقال: عجباً! كلنا في إنشاد الضالة سوا، فلم وجدت وحدك ألم الجوى وأنشد:

قـــد كتمـــت الحـــب حـــتى شـــفني ::: وإذا مـــا كـــتم الـــداء قتـــل
بـــين عينيـــك عـــلالات الكـــرى ::: فـــدع النـــوم لربـــات الحجـــل

ونظر يوماً إلى أقوام يبكون في مجلسه ويتواجدون فأنشد:

ولـــو لم يهجـــني الظـــاعنون لهـــاجني ::: حمـــائم ورق في الـــديار وقـــوع
تداعين فاستبكين مـــن كـــان ذا هـــوى ::: نـــوائح لم تقطـــر لهـــن دمـــوع
وكيـــف أطيـــق العـــاذلين وذكـــرهم ::: يـــؤرقني والعـــاذلون هجـــوع

وقام رجل وتواجد فأنشد:

وما زال يشكو الشوق حتى كأنما ::: تنفس من أحشائه وتكلما
ويبكي فأبكي رحمة لبكائه ::: إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

وأعجبه يوماً كلامه فأنشد:

تزدحم الألفاظ والمعاني ::: على فؤادي وعلى لساني
تجري لي الأفكار في ميدان ::: أزاحم النجم على مكان

ووعظ المستضيء يوماً فقال: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، فأنا أقدم خوفي عليك، على خوفي منك، لمحبتي لدوام أيامك، إن قول القائل: " اتق الله " خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وقال الحسن البصري: لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تبلغ المأمن خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تبلغ المخاوف.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم. يا أمير المؤمنين، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط، لئلا ينسى الجياع، وكان عمر رضي الله عنه يصر بطنه عام الرمادة فيقول: قرقري إن شئت ولا تقرقري، فوالله لا شبعت والمسلمون جياع. فتصدق الخليفة المستضيء بصدقات كثيرة، وأطلق من في السجن.

وقال رحمه الله تعالى لبعض الولاة: اذكر عدل الله فيك، وعند العقوبة قدرة الله عليك، وإياك أن تشفي غيظك بسقم دينك.

وقال: الطاعة تبسط اللسان، والمعاصي تذل الإنسان.

وقال له قائل: ما نمت البارحة من شوقي إلى المجلس، فقال: نعم، لأنك تريد أن تتفرج، وإنما لا ينبغي أن لا تنام الليل لأجل ما سمعت فيه.

وقيل له: إن فلاناً أوصى عند الموت، فقال: طين سطوحه في كانون.

وقال له قائل: أسبح أم أستغفر فقال: الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون من البخور.

وسأله سائل: ما الذي وقر في قلب أبي بكر رضي الله عنه فقال: قوله ليلة المعراج " إن كان قال فلقد صدق " فله السبق.

ولما قال له بعضهم " سيف علي نزل من السماء فسعفة أبي بكر أين " أجابه بقوله: إن سعفة هزت يوم الردة فأثمرت سبياً جاء منه مثل ابن الحنفية لأمضى من سيوف الهند، ثم قال: يا عجباً للروافض، إذا مات لهم ميت تركوا معه سعفة، من أين ذا المصطلح.

وسئل عن معنى قوله : ♂**من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجـــه الأرض فلينظر إلى أبي بكر—** فقال: الميت يقسم ماله ويكفن، وأبو بكر أخرج ماله كله وتخلل بالعباء.

وقال في قوله تعالى{وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا } [الحجر: ٤٧].

قال علي: إني والله لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، ثم قال أبو الفرج: إذا اصطلح أهل الحرب فما بال النظارة.

وقال: قال جبريل لرسول الله : سلم على عائشة، ولم يوجهها بالخطاب احتراماً لزوجها، وواجه مريم لأنها لم يكن لها زوج، فمن يحترمها جبريل كيف يجوز في حقها الأباطيل.

قال أبو شامة: وكان ابن الجوزي رحمه الله تعالى مبتلى بالكلام في مثل هذه الأشياء، لكثرة الروافض ببغداد وتعنتهم بالسؤالات فيها، فكان بصيراً بالخروج منها لحسن إشارته.

وانقطع القراء يوماً عن مجلسه فأنشد:

ومـــا الحلـــي إلا زينـــة لنقيصـــة ::: يتمم من حســـن إذا الحســـن قصـــرا
وأمـــا إذا كـــان الجمـــال مـــوفراً ::: كحســـنك لم يحـــتج إلى أن يـــزوروا

وقيل له: لم تعلل موسى عليه السلام بسوف تراني فأنشد:

إن لم يكن وصل لديك لنا ::: يشفي الصبابة فليكن وعد

ولما ذكر بلالاً - رضي الله عنه - لما منع الطواف بالبيت كان يقف من بعيد وينظر إليه ويبكي أنشد:

أمر على منازلهم وإني ::: بمن أضحى بها صب مشوق
وأومي بالتحية من بعيد ::: كما يومي بإصبعه الغريق

ومن شعر أبي الفرج رحمه الله تعالى:

لعبت ومثلك لا يلعب ::: وقد ذهب الأطيب الأطيب
قد كنت في ظلمات الشباب ::: فلما أضاء انجلى الغيهب
ألا أين أقرانك الراحلون ::: لقد لاح إذ ذهبوا المذهب

ولنقتصر على هذا المقدار، ونرجع إلى أحوال لسان الدين رحمه الله تعالى وارتحاله، والاعتبار بحاله، فنقول:

ومما يناسب أن نذكره في هذا المحل ونثبته فيه ما حكاه العالم العلامة بلدينا سيدي أبو الفضل ابن الإمام التلمساني رحمه الله تعالى عن جدي الإمام قاضي القضاة سيدي أبي عبد الله المقري التلمساني رحمه الله تعالى، و هو أحد أشياخ لسان الدين كما يأتي إن شاء الله ذلك في محله، قال: كنت مع ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب في جامع إلبيرة من الأندلس إذ مر بنا الاعتبار، في تلك الآثار، فأنشد ابن الخطيب ارتجالاً:

أقمنا برهة ثم ارتحلنا ::: كذلك الدهر حال بعد حال
وكل بداية فإلى انتهاء ::: وكل إقامة فإلى ارتحال
ومن سام الزمان دوام حال ::: فقد وقف الرجاء على المحال

انتهى.

وحكى لسان الدين في الإحاطة عن نفسه أنه خطط هذه الأبيات في مرحلة نزلها رحمه الله تعالى حسبما يأتي ذلك في شعره.

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى:

لبسنا فلم نبل الزمان وأبلانا ::: يتابع أخرانا على الغي أولانا
ونغتر بالآمال والعمر ينقضي ::: فما كان بالرجعى إلى الله أولانا
وماذا عسى أن ينظر الدهر من عسا ::: فما انقاد للزجر الحثيث ولا لانا
جزينا صنيع الله شر جزائه ::: فلم نرع ما من سابق الفضل أولانا
فيا رب عاملنا بما أنت أهله ::: من العفو واجبر صدعنا أنت مولانا

وقد حكى غير واحد أنه رحمه الله تعالى رئى بعد موته في المنام، فقال له الرائي: ما فعل الله بك فقال: غفر لي ببيتين قلتهما، وهما:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم ::: والكون لم تفتح له أغلاق
أيروم مخلوق ثناءك بعدما ::: أثنى على أخلاقك الخلاق

وقد كرر رحمه الله تعالى هذا المعنى في قصيدة في حقه ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، وبارك وأنعم، وهو قوله:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ::: يثني على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ::: كان القصور قصار كل فصيح

وما أحسن قول لسان الدين - رحمه الله تعالى - بعدما عرف بنفسه وسلفه: وكأني بالحي ممن ذكر قد التحق بالميت، وبالقبر قد استبدل من البيت.

وقال رحمه الله تعالى بعد إيراد جملة من نظمه ما صورته: وقلت والبقاء لله وحده، وبه يختم الهذر:

عد عن كيت وكيت ::: ما عليها غير ميت
كيف ترجي حالة البق ::: يا لمصباح وزيت

وسيأتي ذلك، ولقد صدق رحمه الله تعالى، ورقى درجته في الجنة.

رجع إلى ما كنا فيه من أحوال لسان الدين ابن الخطيب: وكان رحمه الله تعالى قبيل موته لما توفي السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني بتلمسان وتغلب على الأمر الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس

مبايعاً لابن صغير السن أولاد السلطان عبد العزيز - ألف كتابه المسمى بأعمال الأعلام بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام ومراده بذلك تثبيت دولة الوزير الذي أبى أن يخفر عهده وذمته، وامتنع منه أهل الأندلس، فأكثروا القالة في الوزير بسبب مبايعته للصبي، وبنوا ظاهر الأمر على أن ذلك لا يجوز بالشرع، وأبدأوا وأعادوا في ذلك، وأسروا ما كان من أمرهم حسواً في ارتغاء. ومن جملة كلام لسان الدين ابن الخطيب في ذلك الكتاب قوله: فمتى نبس أهل الأندلس بإنكار بيعة صبي صغير، أو نيابة صاحب أو وزير، فقد عموا وصموا، وخطروا بربع الإنصاف فأعرضوا وما ألموا، وبما نسوه لغيرهم ذموا؛ انتهى.

وكان رحمه الله تعالى ألف للسلطان عبد العزيز حين انحيازه إليه المباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية: يذكر فيه نباهة سلفه، وما لهم من المجد، وقصده الرد على أهل الأندلس المجاهرين له بالعداوة، القادحين في فخر سلفه. ثم ألف للسلطان المذكور كتاب " خلع الرسم في التعريف بأحوال ابن الحسن " لكونه تولى كبر الحط منه، والسعي في هلاكه كما مر، وقال في حق هذا الكتاب: إنه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف، يسلس الثكالى، ونستغفر الله تعالى؛ انتهى.

ومع هذا كله لما أنشبت المنية أظفارها لم تنفعه مما كتب تميمة، ونال ما أمل فيه أهل السعاية والنميمة، وسجلوا عليه المقالات الذميمة، وقد صار الجميع إلى حكم عدل قادر يحيي من العظم رميمه، وننصف المظلوم من الظالم، ويجازي الجاهل والعالم، ويساوي بين المأمور والآمر، والشريف والمشروف، والعزيز والحقير والمنكر والمعروف، وعفوه سبحانه مؤمل بعد، وهو لا يخلف الوعد، ومن سبقت له العناية، لم تضره الجناية.

وقد كان لسان الدين بن الخطيب - رحمه الله تعالى - محبًا في العفو حتى إنه كان إذا جرى لديه ذكر عقوبة الملوك لأتباعهم تشمئز نفسه من ذلك ويقول

ما معناه: ما ضرهم لو عفوا! ورأيت له - رحمه الله تعالى - في بعض مؤلفاته وقد أجرى ذكر استعطاف ذي الوزارتين أبي بكر ابن عمار للسلطان المعتمد بن عباد حين قبض عليه بقوله:

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح ::: وعذرك إن عاقبت أولى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية ::: فأنت من الأدنى إلى الله أجنح
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا ::: سوى أن ذنبي ثابت ومصحح
وإن رجائي أن عندك غير ما ::: يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني بما بينك وبيني من رضى ::: له نحو روح الله باب مفتح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم ::: فكل إناء بالذي فيه يرشح
وقالوا: سيجزيه فلان بذنبه ::: فقلت: وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمي ::: ولكن حلماً للمؤيد يرجح
وبين ضلوعي من هواة تميمة ::: ستشفع لو أن الحمام يجلح
سلام عليه كيف دار به الهوى ::: إلي فيدنو أو علي فينزح
ويهنيه إن رمت السلو فإنني ::: أموت ولي شوق إليه مبرح

- ما نصه: ولابن عمار كلمات شهيرة تعالج بمراهمها جراح القلوب، وتعفي على هضبات الذنوب، لولا ما فرغ عنه من القدر المكتوب والأجل المحسوب؛ إلى أن قال: وما كان أجمل بالمعتمد أن يبقي على جان من عبيده، قد مكنه الله من عنقه، لا يؤمل الحصول على أمره، ولا يحذر تعصب قبيله، ولا يزيده العفو عنه إلا ترفعاً وعزة وجلالة وهمة وذكراً جميلاً وأجراً جزيلاً، فلا شيء أمحى للسيئة من الحسنة، ولا أقتل للشر من الخير، ورحم الله الشاعر إذ يقول:

وطعنتهم بالمكرمات وباللها ::: في حيث لو طعن القنا لتكسرا

وقد تذكرت هنا قول الأديب أبي عبد الله محمد بن أحمد التجاني رحمه الله تعالى ورضي عنه:

أتعجب إن حطت يد الدهر فاضلاً ::: عن الرتبة العليا فأصبح تحتها

أمـــا هـــذه الأشـــجار تحمـــل أكلـــها ::: وتسقط منه كل مـــا طـــاب وانتـــهى

* * *

الباب الثالث

في ذكر مشايخه الجلة، هداة النـــاس ونجوم الملة وما يتعلق بـــذلك مـــن الأخبار الشافية من العلة، ومـــواعظ المنجية من الأهواء المضلة، المناسبات الواضحة البراهين والأدلة

الباب الثالث:

في ذكر مشايخه الجلة، هداة الناس ونجوم الملة

وما يتعلق بذلك من الأخبار الشافية من العلة، ومواعظ المنجية من الأهواء المضلة، والمناسبات الواضحة البراهين والأدلة

أقول: لا خفاء أن الشيخ لسان الدين رحمه الله تعالى أخذ عن جماعة من أهل العدوة والأندلس عدة فنون، وحدث عنهم بما يصدق الأقوال ويحقق الظنون.

١ - فمن أشياخه رحمه الله تعالى الفقيد الجليل الشريف النبيه الشهير، رئيس العلوم اللسانية بالأندلس، قاضي الجماعة أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي، رحمه الله تعالى؛ كان هذا الشريف آية الله الباهرة في العربية والبيان والأدب، ويكفيه فضلاً أنه شرح الخزرجية، وافترع هضاب مشكلاتها بفهمه، من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها، وإيضاح رموزها، وشرح مقصورة أديب المغرب الإمام أبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني الأندلسي الذي مدح بها أمير المؤمنين المنتصر بالله أبا عبد الله محمد الحفصي، وسمى هذا الشرح بـ " رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة "، وهذا الشرح في مجلدين كبيرين، وفيه من الفوائد ما لا مزيد عليه، رأيته بالمغرب، واستفدت منه كثيراً.

ومن فوائد الشريف المذكور أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وضوء رسول الله " فأقبل بهما وأدبر " إن أحسن الوجوه في تأويله أن يكون قدم الإقبال تفاؤلاً، ثم فسر بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل، قال: والعرب تقدم بكلامها ألفاظاً على ألفاظ أخرى، وتلتزمه في بعض المواضع، كقولهم: قام وقعد ولا تقول: قعد وقام، وكذلك أكل وشرب، ودخل وخرج، وعلى هذا النمط كلام العرب، فتكون هذه المسألة من هذا، قال: ويؤيد ما قلناه - وهو موضع النكتة - تفسيره لأقبل وأدبر في باقي الحديث على معنى أدبر ثم أقبل، ولو كان

اللفظ على ظاهره لم يحتج إلى تفسير؛ انتهى.

ونقلت ممن نقل من خط الفقيه محمد بن علي بن الصباغ العقيلي ما صورته: كان الشريف الغرناطي - رحمه الله تعالى - آية زمانه، وأزمة البيان طوع بنانه، له شرح المقصورة القرطاجية أغرب ما تتحلى به الآذان، وأبدع ما ينشرح له الجنان، إلى العقل الذي لا يدرك، والفضل الذي حمد منه المسلك. حدثني بنادرة جرت بينه وبين مولاي الوالد من أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها قال: دخل والدك يوماً لأداء الشهادة عنده، فوجد بين يديه جماعة من الغزاة يؤدون شهادة، فسمع القاضي منهم، وقال لهم: هل من يعرفكم؟ فقالوا: نعم، يعرفنا علي الصباغ، فقال القاضي: أتعرفهم يا أبا الحسن؟ فقال له: نعم يا سيدي، معرفة محمد بن يزيد، فما أنكر عليه شيئاً بل قال لهم: عرف الفقيه أبو الحسن ما عنده، فانظروا من يعرف معه رسم حالكم، فانصرفوا راضين، ولم يرتهن والدي في شيء من حالهم، ولا كشف القاضي لهم ستر القضية.

قال محمد بن علي بن الصباغ: أما قول والدي " معرفة محمد بن يزيد " فإشارة إلى قول الشاعر:

أسائل عن ثمالة كل حي ::: فكلهم يقول وما ثماله
فقلت: محمد ابن يزيد منهم ::: فقالوا: الآن زدت بهم جهاله

فتفطن القاضي رحمه الله تعالى لجودة ذكائه إلى أنه لم يرتهن في شيء من معرفتهم، ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح، فكنى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح، رحمهما الله تعالى؛ انتهى. ومن فوائد الشريف ما حكاه عنه تلميذه الإمام النظار أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله تعالى، ونصه: قال لي الشيخ القاضي الكبير أبو القاسم الحسني يوماً وقد جرى ذكر حتى التي للابتداء، وأن معناها التي يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتم دونه أو لا، بل لا يكون الأمر إلا كذلك، قال: وقد حدثني بعض الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشفاع رمضان، فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى:{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾}

[الكهف: ٨٩] فوقف هنالك، وركع وسجد، قال: فظننت أنه نسي ما بعد ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويعيد أول الكلام، فلما قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله:{حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ } [الكهف: ٩٣] فلما أتم الصلاة قلت له في ذلك، فقال: أليست حتى الابتدائية قال القاضي الشريف المذكور: فيجب أن يفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذكر؛ انتهى. وقال الشاطبي: أنشدني أبو محمد ابن حذلم لنفسه:

شأن المحبين في أشجانهم عجب ::: وحالتي بينهم في الحب أعجبها
قد كنت أبعث من ريح الصبا رسلاً ::: تأتي فتطفئ أشواقي فتذهبها
والآن أرسل دمعي إثرها ديماً ::: فتلتظي نار وجدي حين أسكبها
فاعجب لنار اشتياق في الحشا وقفت ::: الريح تذهبها والماء يلهبها

قال ابن الخطيب القسمطيني في وفياته: وفي هذه السنة - يعني سنة ٧٦١ - توفي شيخنا قاضي الجماعة بغرناطة حرسها الله تعالى أبو القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسني، وكتب لي بالإجازة العامة بعد التمتع بمجلسه، وله شعر مدون سماه " جهد المقل " وله الشرح على الخزرجية في العروض، وأقدم عليها بعد أن عجز الناس عن فكها، وكان إماماً في الحديث والفقه والنحو، وهو على الجملة ممن يحصل الفخر بلقاءه، ولم يكن أحد بعده مثله بالأندلس؛ انتهى.

وقال في الإحاطة إن مولد الشريف كان سنة سبع وتسعين وستمائة، وأن وفاته سنة ستين وسبعمائة، وفي وفاته مخالفة لما تقدم، والله أعلم.

وما أحسن قول الشريف أبي القاسم المترجم به:

حدائق أنبتت فيها الغوادي ::: دروب النور رائقة البهاء
فما يبدو بها النعمان إلا ::: نسبناه إلى ماء السماء

رجع إلى مشايخ لسان الدين. رحمه الله تعالى ورضي عنه وسامحه، فنقول:

٢ - ومن مشايخ لسان الدين الإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد

ابن جابر الوادي آشي، ولد بتونس، و هو محمد بن الإمام المحدث معين الدين جابر ابن محمد بن قاسم بن أحمد القيسي، شيخ ممتع رحال متقن.

قال الخطيب بن مرزوق: وعاشرته كثيراً سفراً وحضراً، وسمعت بقراءته وسمع بقراءتي، وقرأت عليه الكثير، وقيدت من فوائده، وأنشدني الكثير، فأول ما قرأت عليه بالقاهرة بمسجد...، وقرأت عليه بمدينة فاس، وبظاهر قسنطينة، وبمدينة بجاية وبظاهر المهدية، وبمنزلي من تلمسان، وقرأت عليه أحاديث عوالي من تخريج الدمياطي، وفيها الحديث المسلسل بالأولية، وسلسلته عنه من غير رواية الدمياطي بشرطه، ثم قرأت عليه أكثر كتاب " الموطإ " رواية يحيى، وأعجله السفر فاتممته عليه في غير القاهرة، وحدثني به عن جماعة، ومعوله على الشيخين قاضي القضاة أبي العباس بن الغماز الخزرجي وهو أحمد بن محمد بن حسن والشيخ أبي محمد ابن هارون وهو عبد الله بن محمد القرطبي الطائي الكاتب المعمر الأديب، بحق سماعه لأكثره على الأول وقراءته بأجمعه على الثاني، قال الأول: أخبرنا أبو الربيع بن سالم بجميع طرقه فيها منها عن ابن مرزوق وأبي عبد الله بن أبي عبد الله الخولاني عن أبي عمرو عثمان بن أحمد المعافري عن أبي عيسى بسنده، وقال الثاني: أخبرنا أبو القاسم ابن بقي بقرطبة، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الحق عن محمد بن فرج مولى الطلاع عن يونس بتمام سنده.

قال شيخنا: وفي هذا السند غريبتان: إحداهما أنه ليس فيه إجازة، والثانية أن شيوخه كلهم قرطبيون.

قال ابن مرزوق: قلت ولا غرابة في اتصال سماع الموطإ وقراءته، فقد وقع لي قلة التحصيل متصلاً من طرق ولله الحمد، وقد روته عن قرطبي، وهو أبو العباس ابن العشاء. ثم قرأت عليه كتاب " الشفاء " لعياض، وحدثني به عن أبي القاسم عن أبي عبد الله بن أبي القاسم الأنصاري المالقي نزيل سبتة ويعرف بها بابن حكم وبابن أخت أبي صالح، عن أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن

عبد الرحمن الخزرجي، عن أبي جعفر أحمد بن حكم، عن المؤلف وحدثني به أيضاً عن قاضي الجماعة ابن أبي الربيع ابن سالم عن أبي جعفر ابن حكم.

وولد ابن جابر سنة ٦٧ وسمع بمصر على الجماعة، وكتب بخطه كثيراً، وله معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر، وله نظم حسن، وتوفي بتونس سنة ٧٧٩، وأخذ القراءات عن ابن الزيات وغيره، وترجمة الحافظ ابن جابر رحمه الله تعالى واسعة مشهورة، وقد ذكرناه في غير هذا الكتاب بما جمعناه.

٣ - ومن أكابر شيوخ ابن الخطيب رحمه الله تعالى جدي الإمام العلامة قاضي القضاة بحضرة الخلافة فاس المحروسة أبو عبد الله.

قال في " الإحاطة " محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن القرشي المقري، يكنى أبا عبد الله، قاضي الجماعة بفاس، تلمساني.

أوليته - نقلت من خطه قال: وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً، بعد أن كانت لمن قبله مزاراً، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقري صاحب الشيخ أبي مدين، الذي دعا له ولذريته بما ظهر فيهم قبوله وتبين، وهو أبي الخامس فأنا محمد ابن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروي الصلاة، حتى إنه ربما امتحن بغير شيء فلم يؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور، ويقال: إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين؛ انتهى.

٤ - ومنهم: الشيخ الفقيه القاضي بمكناسة الزيتون أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد، ذكره في نفاضة الجراب وقال: إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمائة، وكان من أهل المعرفة والحصافة، قائماً على كتاب أبي عمرو ابن الحاجب في مذهب مالك، وكان ممتازاً به فيما دون تلمسان، قرأه على الشيخين علمي الأفق المغربي أبي موسى وأبي زيد ابني الإمام

عالمي تلمسان والمغرب جميعاً قال لسان الدين في النفاضة: وتصدر المذكور لإقراءه الآن، فمل شئت من اضطلاع، ومعرفة واطلاع، وقيد جزءاً نبيلاً على فتوى الإمام القاضي أبي بكر بن العربي المسماة بالحاكمة، وسماه بـ " الخادمة على الرسالة الحاكمة " أجاد فيه وأحسن، وقرأت عليه بعضه وأذن في تحمله؛ انتهى.

٥ - ومن أشياخ لسان الدين الذين لقيهم بمكناسة الزيتون الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الونشريسي، له عناية بفروع الفقه، وولي القضاء بقصر كتامة.

٦ - ومنهم الفقيه الفاضل الخير أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي عفيف، المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوي، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الصباغ، وشاركه في قراءتها على الإمام أبي عبد الله الآبلي.

٧ - ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية: أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي، قال لسان الدين: حضرت مذاكرته في مسألة أعوزت عليه، وطال عنها سؤاله، وهي قول الشاعر:

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ::: ما لم يروا عنده آثار إحسان

وصورة السؤال: كيف صح وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف؛ إذ أوقع الشاعر " أكيس " بين الناس وبين أن يمدحوا، وهو مؤول بالمصدر وهو المدح، ولا يوصف بذلك؛ انتهى.

قلت: الإشكال مشهور، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر، وقد أشار إليه أبو حيان في الارتشاف وجماعة آخرون في قول بعض المؤلفين كصاحب التلخيص أكثر من أن تحصى ولولا السآمة لذكرت ما قيل في ذلك، وخلاصة ما قالوه أن في الكلام تقديراً، والله أعلم.

٨ - وممن لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون الفقيه العدل الأخباري الأديب المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي الخباز، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة، وهو كاتب عاقد للشروط، ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم، مؤلف، وقد ذكرنا في غير هذا المحل ما دار بينه وبين لسان الدين من المحاورة والمراجعة، فليراجع، قال لسان الدين رحمه الله تعالى: ناولني المذكور تأليفه الحسن الذي سماه المنهل المورود في شرح المقصد المحمود شرح فيه وثائق الجزيري فأربى بياناً وإفادة وإجادة، وأذن لي في حمله عنه، وهو في ثلاث مجلدات، وأنشدني كثيراً من شعره.

٩ - ومنهم القاضي بها أبو عبد الله ابن أبي رمانة، قال لسان الدين: لقيته بمكناس، وكان من أهل الحياء والحشمة، وذوي السذاجة والعفة، ثم ذكر ما داعبه به حين تأخر عن لقائه، وقد ذكرنا ذلك في غير هذا الموضع.

١٠ - وممن لقيه لسان الدين بمكناس الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان ابن عطية الونشريسي، قال: وكان فقيهاً عدلاً من أهل الحساب، والقيام على الفرائض، والعناية بفروع الفقه، ومن ذوي السذاجة والفضل، ويقرض الشعر، وله أرجوزة في الفرائض مبسوطة العبارة مستوفية المعنى؛ انتهى.

ومولده في حدود أربع وعشرين وسبعمائة.

وذكر صاحب " المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي إفريقية والأندلس والمغرب " جملة من فتاويه وقال في وثائقه، وقد أجرى ذكره، ما صورته: إن بلدينا الشيخ القاضي العلامة أبا علي الحسن وقعت له قضية مع عدول مكناسة، وذلك أم السلطان أبا عنان فارساً كان أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بمدينة مكناسة وكتب اسم الشيخ أبي علي هذا في العشرة، فشق ذلك على بعض شيوخ العدول المؤخرين لحداثة سن أبي علي، فلما علم تشغيبهم صنع رجزاً ورفعه إلى مقام المتوكل على الله أبي عنان نصه:

نبدأ أولاً بحمد الله ::: ونستعينه على الدواهي

ثم نـــوالي بالصـــلاة والســـلام ::: علـــى نـــبي دونـــه كـــل الأنـــام
وبعـــد ذا نســـأل رب العـــالمين ::: أن يهـــب النصـــر أمـــير المـــؤمنين
خليفـــــة الله أبـــــا عنـــــان ::: لا زال في خــــير وفي أمــــان
ملكـــــه الله مــــن الــــبلاد ::: مــــن ســـوس الأقصـــى إلى بغـــداد
ويســـر الحجـــاز والجهـــادا ::: وجعـــل الكـــل لـــه مهـــادا
يـــا أيهـــا الخليفـــة المظفـــر ::: دونـــك أمـــري إنـــه مفســـر
عبـــدكم نجـــل عطيـــة الحســـن ::: قـــد قيـــل لا يشـــهد إلا إن أســـن
وهـــو في أمـــركم المعهـــود ::: مـــن جملـــة العشـــرة الشـــهود
نـــص عليـــه أمـــركم تعيينـــا ::: وســـنه قـــارب أربعينـــا
مـــع الـــذي ينتســـب العبـــد إليـــه ::: مـــن طلـــب العلـــم وبحثـــه عليـــه
علـــى الفـــرائض لـــه أرجـــوزه ::: أبـــرز في نظامهـــا إبريـــزه
ومجلـــس لـــه علـــى الرســـاله ::: فكيـــف يرجـــو حاســـد زوالـــه
حاشـــا أمـــير المـــؤمنين ذاكـــا ::: وعدلـــه قـــد بلـــغ الســـماكا
وعلمـــه قـــد طبـــق الآفاقـــا ::: وحلمـــه قـــد جـــاوز العراقـــا
وجـــوده مشـــتهر في كـــل حـــي ::: قصـــر عـــن إدراكـــه حـــاتم طـــي

وحكى بعض الحفاظ أنه لما بلغت الأبيات السلطان أمر بإقراره على ذلك، وقد وقفت على رجزه المذكور، وله شرح عليه لم أره، والظاهر أنه ممن تدبج معه لسان الدين، رحم الله الجميع؛ وهو معدود في جملة من لقيه.

١١ - ومن مشايخ لسان الدين رحمه الله ذو الكرامات الكثيرة والمقامات الكبيرة، سيدي الحاج أبو العباس أحمد ابن عاشر الصالح المشهور، كان لسان الدين رحمه الله تعالى حريصاً على لقائه بسلا أيام كان بها، وقد لقيه، ولم يتمل منه لشدة نفوره من الناس، خصوصاً أصحاب الرياسة، ولذا قال لسان الدين، لما ذكر أنه لقيه في مفاضة الجراب، ما صورته: يسر الله لقاءه على تعذره؛ انتهى.

١٢ - ومنهم الأستاذ المحقق العلامة الكبير النحوي الشهير أبو عبد الله محمد ابن علي الفخار البيري، رحمه الله تعالى.

كان شيخ النحاة بالأندلس غير مدافع، وأخذ عنه خلق كثيرون كالشاطبي أبي إسحاق صاحب شرح الألفية والوزير ابن زمرك وغيرهما، وقد حكى عنه مسائل غريبة تلميذه الشاطبي، وقال لسان الدين في الإحاطة في ترجمة مشيخته ما صورته: ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير والمعتمد عليه العربية على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله بن الفخار البيري، الإمام المجمع على إمامته في فن العربية، المفتوح عليه من الله تعالى فيها حفظاً واطلاعاً واضطلاعاً ونقلاً وتوجيهاً بما لا مطمع فيه لسواه؛ انتهى.

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: لما توفي شيخنا الأستاذ الكبير، العلم الخطير، أبو عبد الله بن الفخار سألت الله عز وجل أن يرينيه في المنام فيوصيني بوصية أنتفع بها في الحالة التي أنا عليها من طلب العلم، فلما نمت في تلك الليلة رأيت كأني أدخل عليه في داره التي كان يسكن بها، فقلن له: يا سيدي أوصني، فقال لي: لا تعترض على أحد، ثم سألني بعد ذلك مسألة من مسائل العربية كالمؤنس لي، فأجبته عنها، ولا أذكرها الآن؛ انتهى.

وقال الشاطبي أيضاً ما صورته: حدثنا الأستاذ الكبير الشهير أبو عبد الله محمد ابن الفخار شيخنا - رحمه الله تعالى - قال: حدثني بسبتة بعض المذاكرين أن ابن خميس لما ورد عليها بقصد الإقراء بها اجتمع إليه عيون طلبتها، فألقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال، فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم: أنتم عندي كرجل واحد، يعني أن ما ألقوا عليه من المسائل إنما تلقوها من رجل واحد، وهو ابن أبي الربيع، فكأنه إنما يخاطب رجلاً واحداً ازدراء بهم، فاستقبله أصغر القوم سنًّا وعلماً بأن قال له: إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجبني عن هذه المسائل من باب معرفة علامات الإعراب التي أذكرها لك، فإن أجبت فيها بالصواب لم تحظ بذلك في نفوسنا لصغرها بالنظر إلى تعاطيك من الإدراك والتحصيل، وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد، وهي عشر: الأولى أنتم يا زيدون تغزون، والثانية أنتن يا هندات تغزون، والثالثة أنتم يا زويدن ويا

هندات تغزون، والرابعة أنتن يا هندات تخشين، والخامسة أنت يا هند تخشين، والسادسة أنت يا هند ترمين، والسابعة أنتن يا هندات ترمين، والثامنة أنتن يا هندات تمحون أو تمحين، كيف تقول والتاسعة أنت يا هند تمحين أو تمحون، كيف تقول والعاشرة أنتما تمحوان أو تمحيان، كيف تقول وهل هذه الأفعال كلها مبنية أو معربة أو بعضها مبني وبعضها معرب وهل هي كلها على وزن واحد أو على أوزان مختلفة علينا السؤال وعليك التمييز لنعلم الجواب، فبهت الشيخ، وشغل المحل بأن قال: إنما يسأل عن هذا صغار الولدان، قال له الفتى: فأنت دونهم إن لم تجب، فانزعج الشيخ، وقال: هذا سوء أدب، ونهض منصرفاً، ولم يصبح إلا بمالقة متوجهاً إلى غرناطة حرسها الله تعالى، ولم يزل بها مع الوزير ابن الحكيم إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه؛ انتهى.

قال الشاطبي: حدثنا الأستاذ الكبير أبو عبد الله بن الفخار قال: جلس بعض الطلبة إلى بعض الشيوخ المقرئين، فأتى المقرئ بمسألة الزوائد الأربعة في أول الفعل المضارع، وقال: يجمعها قولك: نأيت فقال له ذلك الطالب: لو جمعتها بقولك أنيت لكان أملح، ليكون كل حرف تضعيف ما قبله، فالهمزة لواحد وهو المتكلم، والنون لاثنين وهما: الواحد ومعه غيره، والواحد المعظم نفسه، والياء لأربعة: للواحد الغائب، وللغائبين، وللغائبين، وللغائبات، والتاء لثمانية: للمخاطب، وللمخاطبين، وللمخاطبين، والمخاطبة، والمخاطبتين، والمخاطبات، وللغائب، وللغائبتين، فاستحسن الشيخ ذلك منه.

وحكى الشاطبي أيضاً أن شيخه ابن الفخار أورد عليهم سؤالاً، وهو: كيف يجمع بين مسألة رجل أوقع الصلاة بثوب حرير اختياراً وبين قوله:

جرى الدميان بالخبر اليقين فلم ينقدح لنا شيء

فقال: الجواب أن الأول ممنوع عند الفقهاء شرعاً، ورد اللام في دم في التثنية ممنوع عند النحاة قياساً، وكلاهما في حكم المعدوم حساً، وإذا كان كذلك كان الأول بمنزلة من صلى بادي العورة اختياراً، فتلزمه الإعادة، وكان الثاني

بمنزلة ما باشر فيه عين دم علم التثنية، فتلزمه الفتحة، وإن كان أصلها السكون، قال: وهذه المسألة تشبه مسألة ابن جني في الخصائص، قال: ألقيت يوماً على بعض من كان يعتادني مسألة فقلت له: كيف تجمع بين قوله:

لدن بهز الكف يعسل متنه ::: فيه كما عسل الطريق الثعلب

وبين قوله اختصم زيد وعمرو فلم ينقدح له فيها شيء، وعاد مستفهماً، فقال له: اجتماعهما أن الواو اقتصر به على بعض ما وضع لنا من الصلاحية الملازمة مطلقاً، والطريق اقتصر به على بعض ما كان يصلح له.

قال الشاطبي: وحدثني أيضاً قال: كان لقاضي القضاة علماً وجزالة أبي جعفر ولد يقرأ علي بمالقة، وكان ابناً نبيهاً فهماً ونبلاً، فسأل مني يوماً مسألة يذكرها لأقرانه، وكان معجباً بالغرائب، فجرى على لساني أن قلت له: بين على زيد فعل أمر وفاعل، والأصل ابأين على زيد، ثم سهل بالنقل والحذف، على قياس التسهيل، فصار بين كما ترى، فأعجب بالمسألة حتى ناظر فيها ليلة أباه، وكان أنحى نحاة أهل عصره، فأعجب مما يرى من ابنه من النبل والتحصيل، فبلغت المسألة الشيخ الأستاذ أبا بكر ابن الفخار رحمه الله تعالى، فاعتنى بها، وحاول في استخراج وجه من وجوه الاعتراض على عادة المصلحين من طلبة العلم، فوجد في مختصر العين أن الكلمة من ذوات الواو، ولم يذكر صاحب المختصر غير ذلك، ولم يكن رحمه الله تعالى رأى قول أبي الحسن اللحياني في نوادره: إنه مما يتعاقب على لامه الواو والياء فيقال: بأى يبأى بأواً وبأياً، كما يقال شأى يشأى شأواً وشأياً، فلم يقدم شيئاً على أن اجتمع بالقاضي المذكور فقال له: ألم تسمع ما قاله فلان بين على زيد وإنما هو بون على زيد؛ لأنه من ذوات الواو، ونص على ذلك صاحب المختصر، وحمله على أن يرسل إلي ويردني عن ذلك الذي قلته في المسألة، واجتمعت أنا معه، وحدثني بما جرى له مع الأستاذ ابن الفخار، فذكرت له ما حكاه أبو الحسن اللحياني في نوادره، وما قاله ابن جني في سر الصناعة فسر بذلك، وأرسل بعد إلى القاضي ابن الفخار،

وذكر له نص اللدياني و قل ابن حني وجمع القاضي بيننا، وعقد في قلوبنا مودة، فكان الأستاذ ابن الفخار يومئذ يقصدني في منزلي وفي المواسم، ويستشيرني في أموره على سبيل التأنيس، رحمة الله عليه، فأواه على فقد الناس أمثاله.

١٣ - ومنهم الأستاذ ابن العواد، قال في " الإحاطة ": قرأت كتاب الله عز وجل على المكتب نسيج وحده، في تحمل المنزل حق حمله، تقوى وصلاحاً وخصوصية وإتقاناً ونغمة وعناية وحفظاً وتبحراً في هذا الفن، واضطلاعاً بغرائبه، واستيعاباً لسقطات الأعلام، الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن عبد الولي العواد تكتيباً ثم حفظاً ثم تجويداً، على مقرئ أبي عمرو، ثم نقلني إلى أستاذ الجماعة، ومطية الفنون، ومفيد الطلبة، الشيخ الخطيب المتفنن أبي الحسن علي القيجاطي، فقرأت عليه القرآن والعربية، وهو أول من انتفعت به؛ انتهى.

١٤ - ومن أشياخه رحمه الله الشيخ العلامة أبو عبد الله بن بيبش، وله رحمه الله تعالى نظم جيد، فمنه قوله ملغزاً في مسطرة الكتابة:

ومقصورة خلف الحجاب وسرها ::: مضاع، فما يلقاك من دونها ستر
لها جثة بيضاء أسبل فوقها ::: ذوائب زانتها، وليس لها شعر
إذا ألبست مثل الصباح وبرقعت ::: رأيت سواد الليل لم يمحه الفجر
عقيلة صون لا يفرق شملها ::: سوى من أهمته الخطابة والشعر

وقوله في ترتيب حروف الصحاح:

أساجعة بالواديين تبوئي ::: ثماراً جنتها حاليات خواضب
دعي ذكر روض زاره سقي شربه ::: صباح ضحى طير ظماء عواصب
غرام فؤادي قاذف كل ليلة ::: متى ما نأى وهناً هداه يراقب

وله جواب عن البيتين المشهورين:

يا ساكناً قلبي المعنى ::: وليس فيه سواك ثاني
لأي معنى كسرت قلبي ::: وما التقى فيه ساكنان

فقال:

نحلـــــــتني طائعـــــــاً فـــــؤاداً ::: فصـــــار إذ حزتــــــه مكــــــاني
لا غـــــرو إذ كـــــان لي مضـــــافاً ::: أني علـــــى الكســـــر فيـــــه بـــــاني

وقد ذكرت ذلك في غير هذا الموضع مع زيادة بلفظ لسان الدين، فليراجع في الباب الخامس من هذا الكتاب.

١٥ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى قاضي الجماعة الصدر المتفنن أبو عبد الله بن بكر، قال في الإحاطة: وقرأت على قاضي الجماعة أبي عبد الله ابن بكر رحمه الله تعالى؛ انتهى.

وقاضي الجماعة عند المغاربة هو بمعنى قاضي القضاة عند المشارقة، فليعلم ذلك. وابن بكر المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن أحمد بن بكر بن سعيد الأشعري المالقي، من ذرية أبي موسى الأشعري، كان من صدور العلماء، وأعلام الفضلاء، سذاجه ونزاهة ومعرفة وتفنناً، فسيح الدرس، أصيل النظر، واضح المذهب، مؤثراً للإنصاف، عارفاً بالأحكام والقراءة، مبرزاً في الحديث تاريخاً وإسناداً وتعديلاً وجرحاً، حافظاً للأنساب والأسماء والكنى، قائماً على العربية، مشاركاً في الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب، مخفوض الجناح حسن الخلق عطوفاً على الطلبة، محبًّا في العلم والعلماء، مطرحاً للتصنع، عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم، تقدم ببلده مالقة، ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة، ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة وترك الشوائب، وأنفذ الحق ملازماً للقراءة والإقراء، محافظاً للأوقات، حريصاً على الإفادة، ثم ولي القضاء بغرناطة المحروسة سنة ٧٣٧، فقام بالوظائف وصدع بالحق وبهرج الشهود فزيف منهم ما يزيد على سبعين، واستهدف بذلك إلى معاداة ومناضلة خاض ثبجها وصادم تياره، غير مبال بالمغبة ولا حافل بالتبعة، فناله لذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً ولا يطمئن على حاله، وجرت له في ذلك

حكايات، إلى أن عزم عليه الأمير أن يرد للعدالة بعض من أخره، فلم يجد في قناته مغمزاً ولا في عوده معجماً، وتصدر لبث العلم بالحضرة، يقرئ فنوناً جمة، فنفع وخرج وأقرأ القرآن ودرس الفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على انشراح صدره وحفظ تجمل وخفض جناح، قال القاضي ابن الحسن: إنه كان صاحب عزم ومضاء، وحكم صادع وقضاء أحرق قلوب الحسدة، وأعز الخطة بإزالة الشوائب، وذهب وفضض الحق بمعارفه، ونذف في المشكلات، وثبت في المعضلات، واحتج وبكت، وتفقه ونكت. وحدثنا صاحبنا أبو جعفر الشقوري قال: كنت جالساً بمجلس حكمه، فرفعت رقعة مضمنها أنها محبة في مطلقها، وتبتغي الشفاعة لها في ردها، فتناول الرقعة، ووقع على ظهرها بلا مهلة: الحمد لله، من وقف على ما بالقلوب فليصخ لسماعه إصاخة معيث، وليشفع للمرأة عند زوجها تأسياً بشفاعة الرسول لبريرة في مغيث، والله يسلم لنا العقل والدي، ويسلك بنا سبيل المهتدين، والسلام من كاتبه.

قال الشقوري: قال لي بعض الأصحاب: هلا كان هو الشفيع لها، فقلت: الصحيح أن الحاكم لا ينبغي أن يباشر ذلك بنفسه على المنصوص.

قرأ ابن بكر المذكور على الأستاذ ابن أبي السداد الباهلي القرآن جمعاً وإفراداً والعربية والحديث، ولازمه وتأدب به، وعلى الشيخ الصالح أبي عبد الله بن عياش كثيراً من كتب الحديث، وسمع عليه جميع صحيح مسلم إلا دولة واحدة، وأخذ عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير والخطيب بن رشد والولي الصالح أبي الحسين بن فضيلة والأستاذ أبي عبد الله بن الكماد، وأجازه العدل الراوية أبو فارس عبد العزيز ابن الهواري وأبو إسحاق التلمساني؛ ومن أهل الدمياطي، وجماعة من أهل الشام والحجاز، فقد رحمه الله تعالى في المصاف يوم المناجزة بطريف، زعموا أنه وقع عن بغلة ركبها، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يقدر، فقال له: انصرف هذا يوم الفرح، إشارة لقوله

تعالى: { فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ } [آل عمران: ١٧٠] وذلك ضحى يوم الاثنين ٧ جمادى الأولى سنة ٧٤١ رحمه الله تعالى.

١٦ - ومن أشياخ لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ أبو إسحاق ابن أبي يحيى الشهير الذكر في المغرب، وقد عرف به في الإحاطة في اسم إبراهيم من ترجمة الغرباء بما نصه: إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التسولي، من أهل تازى، يكنى أبا سالم، ويعرف بابن أبي يحيى.

حاله من الكتاب المؤتمن: كان هذا الرجل قيماً على التهذيب ورسالة ابن أبي زيد، حسن الإقراء لهما، وله عليهما تقييدان نبيلان قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصغير، حضرت مجالسه بمدرسة عدوة الأندلس من فاس، ولم أر في متصدري بلده أحسن تدريساً منه، كان فصيح اللسان، سهل الألفاظ، موفياً حقوقها، وذلك لمشاركته الحضر فيما بأيديهم من الأدوات، وكان مجلسه وقفاً على التهذيب والرسالة، وكان مع ذلك سمحاً فاضلاً، حسن اللقاء، على خلق بائنة على أخلاق أهل مصره، امتحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله في الرسائل، فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعاً لا في راحة دنيا ولا في نصب آخرة، ثم قال: وهذه سنة الله فيمن خدم الملوك، ملتفتاً إلى ما يعطونه، لا إلى ما يأخذون من عمره، وراحته أن يبوء بالصفقة الخاسرة، لطف الله بمن ابتلي بذلك وخلصنا خلاصاً جميلاً.

ومن كتاب " عائد الصلة ": الشيخ الفقيه الحافظ القاضي، من صدور المغرب، مشاركة في العلم، وتبحراً في الفقه، كان وجيهاً عند الملوك، صحبهم وحضر مجالسهم واستعمل في السفارة، فلقيناه بغرناطة، وأخذنا بها عنه، تام السراوة حسن العهد مليح المجالس أنيق المحاضرة، كريم الطبع صحيح المذهب.

تصانيفه - قيد على المدونة بمجلس شيخه أبي الحسن كتاباً مفيداً، وضم أجوبته على المسائل في سفر، وشرح كتاب الرسالة شرحاً عظيم الإفادة.

مشيخته - لازم أبا الحسن الصغير، وهو كان قارئ كتب الفقه عليه، وجل انتفاعه في التفقه به، وروى عن أبي زكريا ابن يس، قرأ عليه كتاب " الموطأ " إلا كتاب المكاتب وكتاب المدبر فإنه سمعه بقراءة الغير، وعن أبي عبد الله ابن رشد، قرأ عليه الموطأ وشفاء عياض، وعن أبي الحسن بن عبد الجليل السدراتي، قرأ عليه الأحكام الصغرى لعبد الحق، وأبي الحسن بن سليمان، قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد، وعن غيرهم.

وفاته - فلج بأخرة فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان ومن دونه، وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة؛ انتهى.

وقال ابن الخطيب القسمطيني: إن أبي يحيى المذكور توفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة؛ انتهى.

١٧ - ومن أشياخ لسان الدين الطنجالي الهاشمي، وهو محمد بن أحمد. قال في عائد الصلة: كان على سنن سلفه كثرة حياء وسمة صلاح وشدة انقباض وإفراط وقار وحشمة، بذ الكهولة على حداثة سنه في باب الورع والدين والإغراق في الصلاح والخير، وتقدم خطيباً ثم قاضياً ببلده، فأظهر من النزاهة والعدالة ما يناسب منصبه، ففزع الناس إليه من كائنة الوباء العظيم بأموالهم، وقلدوه عهود صدقاتهم، فاستقر في يده المال الصامت والحلى والذخيرة والعدة ما تضيق بيوت أموال الملك عنه وصرف ذلك مصارفه، ووضعه وفق عهوده، فلم يتلبس منه بنقير ولا قطمير، وكان مدركاً أصيل الرأي، قائماً على الفرائض والحساب، ثم تحرج وطلب الإعفاء فأسعف به على حال ضنانة.

١٨ - من أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الإمام الخطيب الرئيس سيدي أبو عبد الله ابن مرزوق، ولنلخص ترجمته من " الإحاطة " وغيرها. فنقول: هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين.

قال أبو الحسن على بن لسان الدين بن الخطيب في حقه: سيدي وسند أبي، فخر المغرب، وبركة الدول وعلم الأعلام، ومستخدم السيوف والأقلام، ومولى أهل المغرب على الإطلاق، أبقاه الله تعالى وأمتع بحياته وأعانني على ما يجب في حقه، قاله تربيته وولده علي ابن المؤلف، انتهى، يعني ابن الخطيب.

وقال لسان الدين: هذا الرجل من طرق دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة، مليح التوسل، حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأني، خير البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان، طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار السلاطين والأمراء يسحرهم بخلابة لفظه، ويفتلهم في الذروة والغارب بتنزله، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينة بحذقه، ويصطنع غاشيتهم بتلطفه ممزوج الدعابة بالوقار والفكاهة بالنسك والحشمة بالبسط، عظيم المشاركة لأهل وده والتعصب لإخوانه، آلف مألوف كثير الأتباع والعلق، يسخر الرقاع في سبيل الوساطة، مجدي الجاه، غاص المنزل بالطلبة، منقاد للدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة متسع الرواية، مشارك في فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع ولا هلوع، رحل إلى المشرق في كنف حشمة من جناب والده رحمه الله تعالى فحج وجاور ولقي الجلة، ثم فارقه وقد عرف بالمشرق حقه، وصرف وجهه إلى المغرب، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره اشتمالاً خلطه بنفسه، وجعله مفضى سره وإمام جمعه وخطيب منبره وأمين رسالته، فقدم في غرضها على الأندلس أواخر عام ثمانية وأربعين وسبعمائة، ولما حالت بالأمير المذكور الحال استقر بالأندلس مفلتاً من النكبة، في وسط عام اثنين وخمسين وسبعمائة، فاجتذبه سلطانها رحمه الله وأجراه على تلك الوتيرة فقلده الخطبة بمسجده في السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، وأقعده للإقراء بالمدرسة من حضرته، وفي أخريات عام أربعة وخمسين صرف عنه جفن بره في أسلوب

طماح ودالة وسبيل هوى وقحة، فاغتنم الفترة وانتهز الفرصة، وأنفذ في الرحيل العزمة وانصرف عزيز الرحلة مغبوط المنقلب، فاستقر بباب ملك المغرب أمير المؤمنين أبي عنان فارس في محل تجلة وبساط قرب، مشترك الجاه مجدي التوسط ناجع الشفاعة، والله يتولاه ويزيده من فضله.

١٩ - ومن مشايخ لسان الدين الرئيس أبو الحسن علي بن الجياب، وهو كما في " الإحاطة " علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن، الأنصاري الغرناطي، أبو الحسن، قال: وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ.

ومن مشايخه أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، وخلق، قال: وقد دونت شعره، فمن معشراته قوله في حرف الجيم:

جريئاً على الزلات غير مفكر ::: جباناً على الطاعات غير معرج
جمعت لما يفنى اغتراراً بجمعه ::: وضيعت ما يبقى، سجية أهوج
جنوناً بدار لا يدوم سرورها ::: فدعها سدى، ليست بعشك فادرجي
جيادك في شأو الضلال سوابق ::: تفوت مدى سن الوجيه وأعوج
جهلت سبيل الرشد فاقصد دليله ::: تجد دار سعد بابها غير مرتج
جناب رسول ساد أولاد آدم ::: وقرب في السبع الطباق بمعرج
جمال أنار الأرض شرقاً ومغرباً ::: فكل سناً من نوره المتبلج
جلا صدأ المرتاب أن سبح الحصى ::: لديه بنطق ليس بالمتلجلج
جعلت امتداحي والصلاة عليه لي ::: وسائل تحظيني بما أنا مرتج

وقال من المطولات:

لمن المطايا في السراب سوابحا ::: تفلي الفلاة غوادياً وروائحا
عوج كأمثال القسي ضوامر ::: يرمين في الآفاق مرمى نازحا

وقال يرثي ولده أبا القاسم رحمهما الله تعالى:

هو البين حتماً، لا لعل ولا عسى ::: فما بال نفسي لم تفض عند أسى
وما لفؤادي لم يذب منه حسرة ::: فتبًّا لهذا القلب سرعان ما قسا
وما لجفوني لا تفيض موردا ::: من الدمع يهمي تارة ومورسا

وما للساني مفصحاً بخطابه ::: وما كان لو أوفى بعهد لينسبا
أمن بعد ما أودعت روحي في الثرى ::: ووسدت مني فلذة القلب مرسما
وبعد فراق ابني أبا القاسم الذي ::: كساني ثوب الثكل لا كان ملبسا
أؤمل في الدنيا حياة وأرتضي ::: مقيلاً لدى أبنائها ومعرسا
فآهاً وللمفجوع فيها استراحة ::: ولا بد للمصدور أن يتنفسا
على عمر أفنيت فيه بضاعتي ::: فأسلمني للقبر حيران مفلسا
ظللت به في غفلة وجهالة ::: إلى أن رمى سهم الفراق فقرطسا
إلى الله أشكو برح حزني فإنه ::: تلبس منه القلب ما قد تلبسا
وهدة خطب نازلتني عشية ::: فما أغنت الشكوى ولا نفع الأسا
فقد صدعت شملي وأصمت مقاتلي ::: وقد هدمت ركني الوثيق المؤسسا
ثبت لها وقعاً لشدة وقعها ::: فما زلزلت صبري الجميل وقد رسا
وأطمع أن يلقى برحمته الرضى ::: وأجزع أن يشقى بذنب فينسكا
أبا القاسم اسمع شكو والدك الذي ::: حسا من كؤوس البين أفظع ما حسا
وقفت فؤادي مذ رحلت على الأسى ::: فأشهد لا ينفك وقفاً محبسا
وقطعت آمالي من الناس كلهم ::: فلست أبالي أحسن المرء أم أسا
تواريت يا بدري وشمسي وناظري ::: فصار وجودي مذ تواريت حندسا
وخلفت لي عبئاً من الثكل فادحاً ::: فما أتعب الثكلان نفساً وأتعسا
أحقاً ثوى ذاك الشاب فلا أرى ::: له بعد هذا اليوم حولي مجلسا
فيا غصناً نضراً ثوى عندما استوى ::: وأوحشني أضعاف ما كان أنسا
ويا نعمة لما تبلغتها انقضت ::: فأنعم أحوالي صار بها أبؤسا
لودعته والدمع همي سحابه ::: كما أسلم السلك الفريد المخمسا
وقبلت في ذاك الجبين مودعاً ::: لأكرم من نفسي علي وأنفسا
وحققت من وجدي به قرب رحلتي ::: وماذا عسى أن ينظر الدهر من عسا
فيا رحمة للشيب يبكي شبيبة ::: قياس لعمري عكسه كان أقيسا
فلو أن هذا الموت يقبل فدية ::: حبونا أموالاً كراماً وأنفسا
ولكنه حكم من الله واجب ::: يسلم فيه من بخير الورى ائتسى
تغمدك الرحمن بالعفو والرضى ::: وكرم مثواك الجديد وقدسا
وألف منا الشمل في جنة العلا ::: فنشرب تنسيماً ونشرب سندسا

ثم قال لسان الدين: وأما نثره فمطولات عرفت بما تخللها من الأحوال متونها، وقلت لمكان البديهة والاستعجال عيونها، وقد اقتنصت جزءاً منها سميته تافه من حجم ونقطة من يم وولد بغرناطة في جمادى الأولى عام ثلاثة وسبعين وستمائة، وتوفي ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة، وأنشدت من نظمي في رثائه خامس يوم دفنه على قبره هذه القصيدة:

ما لليراع خواضع الأعناق ::: طرق النعي فهن في إطراق
وكأنما صبغ الشحوب وجوهها ::: والسقم من الجزع ومن إشفاق
ما للصحائف صوحت روضاتها ::: أسفاً وكن نضيرة الأوراق
ما للبيان كؤوسه مهجورة ::: غفل المدير لها ونام الساقي
ما لي عدمت تجلدي وتصبري ::: والصبر في الأزمات من أخلاقي
خطب أصاب بني البلاغة والحجى ::: شب الزفير به عن الأطواق
أما وقد أودى أبو الحسن الرضى ::: فالفضل أودى على الإطلاق
كنز المعارف لا تبيد نقوده ::: يوماً ولا تفنى على الإنفاق
من للبدائع أصبحت سمر السرى ::: ما بين شام للورى وعراق
من لليراع يجيل من خطيها ::: سم العدا ومفاتح الأرزاق
قضب ذوابل مثمرات بالمنى ::: وأراقم ينفثن بالترياق
من للرقاع الحمر يجمع حسنها ::: خجل الخدود وصبغة الأحداق
تغتال أحشاء العدو كأنها ::: صفحات دامية الغرار رقاق
وتهز أعطاف الولي كأنها ::: راح مشعشعة براحة ساقي
من للفنون يجيل في ميدانها ::: خيل البيان كريمة الأعراق
من للحقائق أبهمت أبوابها ::: للناس يفتحها على استغلاق
من للمساعي الغر تقصد جاهه ::: حرماً فينصرها على الإخفاق
كم شد من عقد وثيق حكمه ::: في الله أو أفتى بحل وثاق
رحب الذراع بكل خطب فادح ::: أعيت رياضته على الحذاق
صعب المقادة في الهوادة والهوى ::: سهل على العافين والطراق
ركب الطريق إلى الجنان وحورها ::: يلقينه بتصافح وعناق

فاعجب لأنس في مظنة وحشة ::: ومقام وصل في مقام فراق
أمطيباً بمحامد العمل الرضى ::: ومكفناً بمكارم الأخلاق
ما كنت أحسب قبل نعشك أن أرى ::: رضوى تسير به على الأعناق
ما كنت أحسب قبل دفنك في الثرى ::: أن اللحود خزائن الأعلاق
يا كوكب الهدي الذي من بعده ::: ركد الظلام بهذه الآفاق
يا واحداً مهما جرى في حلبة ::: جلى بغرة سابق السباق
يا ثاوياً بطن الضريح وذكره ::: أبدا رفيق ركائب ورفاق
يا غوث من وصل الصريخ فلم يجد ::: في الأرض من وزر ولا من واق
ما كنت إلا ديمة منشورة ::: من غير إرعاد ولا إبراق
ما كنت إلا روضة ممطورة ::: ما شئت من ثمر ومن أوراق
يا مزمعاً عنا العشي ركابه ::: هلا ثويت ولو بقدر فواق
رفقاً أبانا جل ما حملتنا ::: لا تنس فينا عادة الإشفاق
واسمح ولو بمزار لقيا في الكرى ::: تبقي بها منا على الإرماق
وإذا اللقاء تصرمت أسبابه ::: كان الخيال تعلة المشتاق
عجباً لنفس ودعتك وأيقنت ::: أن ليس بعد نواك يوم تلاقي
ما عذرها إن لم تقاسمك الردى ::: في فضل كأس قد شربت دهاق
إن قصرت أجفاننا عن أن ترى ::: تبكي النجيع عليك باستحقاق
واستوقفت دهشاً فإن قلوبنا ::: نهضت بكل وظيفة الآماق
ثق بالوفاء على المدى من فتية ::: بك تقتدي في العهد والميثاق
سجعت بما طوقتها من منة ::: حتى زرت بحمائم الأطواق
تبكي فراقك خلوة عمرتها ::: بالذكر في طفل وفي إشراق
أما الثناء على علاك فذائع ::: قد صح بالإجماع والإصفاق
والله قد قرن الثناء بأرضه ::: بثنائه من فوق سبع طباق
جادت ضريحك ديمة هطالة ::: تبكي عليه بواكف رقراق
وتغمدتك من الإله سعادة ::: تسمو بروحك للمحل الراقي
صبراً بني الجياب إن فقيدكم ::: سيسر مقدمه بما هو لاق
وإذا الأسى لفح القلوب أواره ::: فالصبر والتسليم أي رواق

وأنشد الفقيه القاضي أبو جعفر بن جزي قصيدة أولها:

أبثكما والصبر للعهد ناكث ::: حديثاً أملته علي الحوادث

وأنشد القاضي أبو بكر بن علي القرشي قصيدة أولها:

هي الآمال غايتها نفاد ::: وفي الغايات تمتاز الجياد

وأنشد الفقيه الكاتب القاضي أبو القاسم بن الحكم قصيدة أولها:

لينع الحجى والحلم من كان ناعيا ::: ويرع العلا والعلم من كان راعيا

قصائد مطولات يخرج استقصاؤها عن الغرض، فكان هذا التأبين غريباً لم يتقدم به عهده بالحضرة لكونها دار ملك، والتجلة في مثل هذا مقصورة على أولي الأمر؛ انتهى ما لخصته من ترجمته في " الإحاطة ".

ومن نظم ابن الجياب ما كتب على باب المدرسة العلمية بغرناطة:

يا طالب العلم هذا بابه فتح ::: فادخل تشاهد سناه لاح شمس ضحى

واشكر مجيرك في حل ومرتحل ::: إذ قرب الله من مرماك ما نزحا

وشرفت حضرة الإسلام مدرسة ::: بها سبيل الهدى والعلم قد وضحا

أعمال يوسف مولانا ونيته ::: قد طرزت صحفاً ميزانها رجحا

ومنه قوله:

أبى الله إلا أن تكون اليد العليا ::: لأندلس من غير شرط ولا ثنيا

وإن هي عضتها بنوب نوائب ::: فصيرت الشهد المشور بها شريا

فما عدمت أهل البلاغة والحجى ::: يقيمون فيها الرسم للدين والدنيا

إذا خطبوا قاموا بكل بليغة ::: تجلي القلوب الغلف والأعين العميا

وإن شعروا جاءوا بكل غريبة ::: تخال النجوم النيرات لها حليا

فأسأل في الدنيا من الله ستره ::: علينا وفي الأخرى إذا حانت اللقيا

وقال أبو الحسن بن الجياب:

أرى الدهر في أطواره متقلباً ::: فلا تأمنن الدهر يوماً فتخدعا

فما هو إلا مثلما قال قائل: ::: مكر مفر مقبل مدبر معا

" وحكي أنه أهدى له الفقيه ابن قطبة رماناً ثم دخل عليه عائداً، فلما رآه قال له: يا فقيه، نعم بالهدنة زمانك، أراد: نعمت الهدية رمانك، وكان هذا قبل

موته من مرضه بيسير، وهو مما يدل على ثبوت ذهنه حتى قرب الموت، سامحه الله تعالى.

ومن نثر ابن الجياب رحمه الله تعال ما كتبه عن سلطانه إلى بعض سلاطين وقته، وهو السلطان أبو سعيد المريني صاحب فاس، ونصه: المقام لدى الملك المنصور الأعلام، والفضل الثابت الأحكام، والمجد الذي أشرقت به وجوه الأيام، والفخر الذي تتدارس أخباره بين الركن والمقام، والعز الذي تعلو به كلمة الإسلام، مقام محل الأب الواجب الإكبار والإعظام، السلطان الكذا أبقاه الله في ملك منيع الذمار، وسعد باهر الأنوار، ومجد رفيع المقدار، وسلطان عزيز الأنصار، كريم المآثر والآثار، كفيل بالإعلاء لدين الله والإظهار؛ معظم مقامه وموقره، ومجل سلطانه ومكبره، المثني على فضله الذي أربى على ظاهره مضمره، الشاكر لمجده الذي كرم أثره، المعتد بأبوته العلية في كل ما يقدمه ويؤخره، ويورده ويصدره، الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في سعد سام مظهره، حام عسكره، فلان: سلام كريم، طيب عميم، يخص مقامكم الأعلى، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذي أولاكم ملكاً منصوراً، وفخراً مشهوراً، وأحيا بدولتكم العلية لمكارم الأخلاق ذكراً منشوراً، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي اختاره بشيراً ونذيراً، وشرح بهدايته صدوراً، وجعل الملأ الأعلى له ظهيراً، والرضى عن آله وصحبه الذين ظاهروه في حياته، وخلفوه في أمته بعد وفاته، فنالوا في الحالين فضلاً مسطوراً، وأجراً موفوراً، والدعاء لمقامكم الأعلى أسماه الله تعالى بنصر لا يزال به الإسلام محبواً محبوراً، وسعد يملأ أرجاء البسيطة نوراً، فكتبته كتب الله لكم عوائد السعادة، وحباكم من آلائه بالحسنى والزيادة، من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وليس بفضل الله سبحانه ثم ببركة مقامكم أيد الله تعالى سلطانه إلا الخير الأكمل، واليسر الأشمل، والحمد لله كثيراً كما هو أهله، فلا فضل إلا فضله.

وأما الذي عند معظم أمركم من الإعظام لمقامكم والإكبار، والثناء المردد المجدد على توالي الأعصار، والشكر الذي تتلى سوره آناء الليل والنهار، والعلم بما لكم من المكارم التي سار ذكرها في الأقطار أشهر من المثل السيار، والاعتداد بسلطانكم العلي في الإعلان والإسرار، والاستناد إلى جنابكم الكريم في الأقوال والأفعال والأخبار، فذلك لا يزال بحمد الله تعالى محفوظاً ملحوظاً بعين الاستبصار، والله ولي العون على ذلك بفضله وطوله.

وإلى هذا أيد الله تعالى سلطانكم، ومهد أوطانكم، فقد تقدمت مطالعة مقامكم أسماه الله أن ملك قشتالة دس من يتحدث في عقد صلح يعود بالهدنة على البلاد، ويرتفع به عنها مكابدته من جهة الأعاد، وقد رنا أولاً أن ذلك ليس على ظاهر الحال فيه، وأنه يبدي به غير ما يخفيه، ولكن جرينا معه في ذلك المضمار قصداً للتشوف على الأخبار، فلما دار الحديث في هذا الحكم، ظهر منه أنه قد جنح للسلم، وكان خديمنا نقروز بحكم الاتفاق قد ورد إشبيلية لبعض أشغاله، فاستحضره وأخذ معه في أمر الصلح وشرح أحواله، وأعاده إلى معظمكم ليستفهم ما عنده، ويعلم مذهبه وقصده، فأعيد إليه بأنه إن أراد المصالحة على صلح والده على هذه الدار النصرية من غير زيادة على شروط تلك القضية، ولا يعرض لاسترجاع معقل من المعاقل التي أخلصت من يد النصرانية، وأن يكون عقده على الجزيرة الخضراء ورندة وغيرهما من البلاد الأندلسية، فلا بد من مطالعة محل والدنا السلطان أمير المسلمين أبي سعيد أيده الله واستطلاع ما يراه، وحينئذ نعمل بحسب نظره الجميل ومقتضاه، وأكد على نقروز في أنه إن انقاد لهذا الأمر فليعقد معه هدنة لأمد من الدهر بقدر ما يتسع لتعريفكم بهذه الحال وإعلامكم، ويستطلع فيها نظر مقامكم، فما هو إلا أن عاد يوم تاريخ هذا بكتاب ملك قشتالة، وقد أجاب إلى الصلح وانقاد إليه، على حسب ما شرط عليه، وأعطى مهادنة مدة شهر فبرير ليعرف فيها مقامكم، ويعلم ما لديه، ووافق ذلك وصول الشيخ الفقيه الأجل أبي عبد الله بن حبشية أعزه الله من بابكم

الكريم أسماه الله، فأخذ معه في هذا القصد، واستفهم عما لديه من مقامكم في ذلك من الإمضاء أو الرد، فذكر أنكم قد أذنتم لمعظمكم في عقد السلم على ما يراه من الأحكام، إذ ظهر فيها المصلحة لأهل الإسلام، فلما عرف مذهبكم الصالح، وقصدكم الناجح، رأى أن يوجه إلى ملك النصارى من يخلص معه حال الصلح، على ما يعود إن شاء الله تعالى على المسلمين بالنجح، وقدم تعريفكم بما دار من الحديث بين يدي جوابه الوافد على مقامكم صحبة الفقيه أبي عبد الله أعزه الله تعالى، ولا يخفى على مقامكم حاجة هذه البلاد في الوقت إلى هدنة يستدرك بها رمقها مما لقيته من جهد الحرب، وما حل بها في هذه السنين من القحط والجدب، فالصلاح بحمد الله في هذه الحال بادي الظهور، وإلى الله عاقبة الأمور.

" هذا ما تزيد لدى معظم مقامكم، وما يتزيد بعد فليس إلا المبادرة إلى مطالعتكم وإعلامكم، وما كان إمساك الفقيه أبي عبد الله ابن حبشية في هذه الأيام إلا لانتظار خبر الصلح، حتى يأتيكم به مستوفى الشرح، وها هو قد أخذ في الرجوع إلى بابكم الأسمى، والقدوم إلى حضرتكم العظمى، والله يصل سعودكم ويحرس وجودكم ويبلغكم أملكم ومقصودكم، والسلام.

ومن إنشاء ابن الجياب رحمه الله تعالى في العزاء بالسلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد الصدر:

" أما بعد حمد الله الواحد القهار، الحي القيوم حياة لا تتقيد بالأعصار، القادر الذي كل شيء في قبضة قدرته محصور بحكم الاضطرار، الغني في ملكوته فلا يلحقه لاحق الافتقار، المريد الذي بإراداته تصريف الأقدار، وتقدير الآجال والأعمار، العالم الذي لا تغرب عن علمه خفايا الأسرار، وخبايا الأفكار، مالك الملك وأهله، ومدبر الأمور بحكمته معدله، تذكرة لأولي الألباب وعبرة لأولي الأبصار، خالق الموت والحياة لينقلنا من دار الفناء إلى دار القرار، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار،

الذي نهتدي بهديه الكريم في الإيراد والإصدار، والأحلاء والإمرار، في الشدة والرخاء، والسراء والضراء، بسيره الكريمة الآثار، ونتعزى بالمصيبة به عما د هم من المصائب الكبار، ونقدم منه إلى ربنا شفيعاً ماحياً للأوزار، وآخذاً بالحجز عن النار، ونعلم أننا باتباع سبيله نسعد سعادة الأبرار، وبإقامة ملته وحماية شرعته ننال مرضاة الملك الغفار، والرضا عن آله وصحبه، وأوليائه وحزبه، الذين ظاهروه في حياته على إقامة الحق الساطع الأنوار، وخلفوه في أمته قائمين بالعدل حامين للذمار، والدعاء لمحل أبينا والدكم قدس الله روحه، وبرد ضريحه، بالرحمة التي تتعهد روضته التي هي أذكى من الروض المعطار، والرضوان الذي يتبوأ به مبوأ صدق في الملوك المجاهدين الأخيار، ولمقامكم الأعلى بسعادة المقدار، وتمهيد السلطان وبلوغ الأوطار، فإنا كتبناه - كتب الله لكم عوائد النصر، وربط على قلبكم بالصبر - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عندما تحقق لدينا النبأ الذي فت في الإعضاد، وشب نار الأكباد، والحادث الذي هد أعظم الأطواد، وزلزل الأرض لراسية الأوتاد، والواقع الذي لولا وجودكم لمحا رسم الأجواد، وعطل رسوم الجهاد، وكسا الآفاق ثوب الحداد، والخطب الذي ضاقت له الأرض بما رحبت، وأمرت الدنيا بما عذبت، من وفاة محل أبينا أكبر ملوك المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، والدكم ألحفه الله تعالى برود رضاه، وجعل جنته نزله ومثواه، ونفعه بما أسلف من الأعمال الكريمة، وما خلده من الآثار العظيمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون تسليماً لما قضاه، ورضى بما أنفذه وأمضاه، وعند الله نحتسب منه والداً شفيقاً، حانياً رفيقاً، لم يزل يولي الجميل قوله وفعله، ويصل لنا من أسباب عنايته ما اقتضاه فضله، وما هو أحق به وأهله.

" وكنا طول حياته لم نجد أثراً لفقد الوالد، لما أولانا من جميل العوائد، وكرم المقاصد، جزاه الله أحسن جزاءه، وأعاننا على توفية حقه وأدائه، ولمثل هذه المصيبة - ولا مثل لها - تظلم الأرجاء، ويضيق الفضاء، وتبكيه مسومة

الجياد، ومعالم الجهاد، والسيوف في الأغماد، وشتى العباد والبلاد، فلا تسألوا كيف هو عندنا موقع هذا الخطب العظيم، والحادث المقعد المقيم، والرزية التي لا رزية مثلها، والحادثة التي أصيبت بها الملة وأهلها، فوجدناه لفقده يتضاعف مع الآناء، ويتجدد تذكار ما أسلف من أعمال الملوك الفضلاء، ولكنه أمر حتم، وقضاء من الله جزم، وسبيل يسلك عليها الأول والآخر، والآني والغابر، وليس إلا التسليم، لما حكم به الحكيم العليم.

ولما انتهى إلينا هذا النبأ الذي ملأ القلب حسرة والعين عبرة، وتوارت شتى الأنباء، وغلب اليأس فيها على الرجاء، وجدنا له ما يوجد لفقد الأب الذي ابتدأ بالإحسان والإجمال، وأولى عوارف القبول والإقبال، ولكنه ما أطفأ نار ذلك الوجد، وجبر كسر ذلك الفقد، إلا ما من الله به علينا وعلى المسلمين من تقلدكم ذلك الملك الذي بكم سمعت معالمه، وقامت مراسمه، وعليكم انعقد الإجماع، وبولايتكم استبشرت الأصقاع، وكيف لا تستبشر بولاية الملك الصالح الخاشع الأواب، صاحب الحرب والمحراب، عدة الإسلام، وعلم الأعلام، من ثبتت فضائله أوضح من محيا النهار، وسارت مكارمه في الآفاق أشهر من المثل السيار.

" وقد كان محل أبينا والدكم رضي الله عنه لما علم من فضائلكم الكريمة الآثار، وما قمتم به من حقه الذي وفيتموه توفية الصلحاء الأبرار، ألقى إليكم مقاليد سلطانه، وآثر إليكم أثر قبوله ورضوانه، حتى انفصل عن الدنيا وقد ألبسكم من أثواب رضاه ما تنالون به قرة العين، وعز الدارين، والظفر بكلتا الحسنيين، فتلك المملكة بحمد الله تعالى قد قام بها حامي ذمارها، وابن خيارها، ومطلع أنوارها، الملك الرضي العدل الطاهر، قوام الدياجي وصوام الهواجر، حسنة هذا الزمان، ونخبة ذلك البيت المؤسس على التقوى والرضوان، فالحمد لله على أن جبر بكم صدع الإيمان، وانتضى منكم سيفاً مسلولاً على عبدة الصلبان، وأقر بكم ملك آبائكم الملوك الأعاظم، وتدارك بولايتكم أمر هذا الرزء

المتفاقم، فإن فقدنا أعظم مفقود، فقد ظفرنا بأكرم مقصود، وما مات من أبقى منكم سلالة طاهرة تحيي سنن المعالي والمكارم، وتعمل على شاكلة أسلافها الأكارم، فتلك المملكة قد أصبحت بحمد الله ونور سعدكم في أرجائها طالع، وسيف بأسكم في أعدائها قاطع، وعزمكم الأمضى لأمرها جامع مانع، وقد أوت منكم إلى الملجإ الأحمى، واستمسكت بإيالتكم العظمى، وعرفت أنكم ستبدون فيها من آثار دينكم المتين، وفضلكم المبين، ومعاليكم القاطعة البراهين، ما يملؤها عدلاً وإحساناً، وتبلغ به آمالها مثنى ووحداناً، فهنيئاً لنا ولها أن صارت في ملككم، وأن تشرفت بملككم، وألقت مقاليدها إلى من يحمي حماها، ويدفع عداها، وليهن ذلك المقام الأعلى ما أولاه من العز المكين، وما قلده من الملك الذي هو نظام الدنيا والدين، وأن أعطاه راية الجهاد فتلقاها باليمين، لينصر بها ملة الرسول الصادق الأمين، فله الفخر بذلك على جميع السلاطين، وأما هذه البلاد الأندلسية حماها الله فهي وإن فقدت من السلطان الأعلى أبي سعيد أكرم ظهير، ووقع مصابه منها بمحل كبير، فقد لجأت منكم إلى من يحميها، ويكف بأس أعاديها، ويبتغي مرضاة خالقها فيها، فملككم بحمد الله تعالى مقتبل الشباب، جديد الأثواب، عريق الأنساب، أصيل الأحساب، ومجدكم جار على أعراقه جري الجياد العراب.

" وإنا لما ورد علينا هذا النبأ معقباً بهذه البشرى، ووفد علينا ذلك الخبر مردفاً بهذه المسرة الكبرى، علمنا أن الله سبحانه قد رأب ذلك الصدع بهذا الصنع الجميل، وتلافى ذلك الخطب بهذا الخير الجزيل، فأخذنا من مساهمتكم في الأمور النصيب الوافر، ورأينا أن آمالنا منكم قد جلت من محياها السافر، وعينا للوفادة على بابكم لينوب عنا في العزاء والهناء عين الأعيان الفضلاء، ووجه القواد والكرماء.

ولنقتصر على هذا المقدار من كلام الرئيس ابن الجياب، رحمه الله تعالى؛ ويظهر لي أن نظمه إلى طبقة من نثره، وعلى كل حال فهو لا يتكلف نظماً ولا

نثراً، رحمه الله تعالى ورضي عنه وعامله بمحض فضله.

٢٠ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الفقيه الكاتب البارع العلامة النحوي اللغوي صاحب العلامة بالمغرب الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي قال في " الإحاطة " فيه ما ملخصه: عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن ابن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن محمد الحضرمي، أبو محمد، شيخنا الرئيس، صاحب القلم الأعلى بالمغرب.

من " الإكليل ": تاج المفرق، وفخر المغرب على المشرق، أطلع منه نوراً أضاءت له الآفاق، وأثر منه بذخيرة حملت أحاديثها الرفاق، ما شئت من مجد سامي المصاعد والمناقب، نشأ بسبتة بلده بين علم يقيده، وفخر يشيده، وطهارة يلتحف مطارفها، ورياسة يتفيأ وارفها، وأبوه رحمه الله تعالى قطب مدارها، ومقام حجها واعتمارها، فسلك الوعوث من المعارف والسهول، وبذ على حداثة سنه الكهول، فلما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلى، واشتهر اشتهار الصباح إذا تجلى، تنافست فيه همم الملوك الأخاير، استأثرت به الدول على عادتها في الاستئثار بالذخاير، فاستقلت بالسياسة ذراعه، وأخدم الذوابل والسيوف يراعه، وكان عين الملك التي بها يبصر، ولسانه الذي يسهب به أو يختصر، وقد تقدمت له إلى هذه البلاد الوفادة، وجلت به عليها الإفادة، وكتب عن بعض ملوكها، وانتظم في عقودها الرفيعة وسلوكها، وله في الآداب الراية الخافقة، والعقود المتناسقة، ومشيخته حافلة تزيد عن الإحصاء، وشعره منحط عن محله من العلم والشهرة، وإن كان داخلاً تحت طور الإجادة، فمن ذلك قوله:

أبت همتي أن يراني امرؤ ::: على الدهر يوماً له ذا خضوع
وما ذاك إلا لأني اتقيت ::: بعز القناعة ذل الخشوع

مولده بسبتة عام ستة وسبعين وسبعمائة، وتوفي في تونس ثاني عشر شوال عام تسعة وأربعين وسبعمائة في الطاعون، وكانت جنازته مشهورة رحمه الله تعالى؛ انتهى.

وحكي أن السلطان أبا الحسن المريني سب الشيخ عبد المهيمن الحضرمي بمجلس كتابه، فأخذ عبد المهيمن القلم وكسره، وقال: هذا هو الجامع بيني وبينك، ثم إن السلطان أبا الحسن ندم، وأفضل عليه، وخجل مما صدر منه وأحسن إليه. وكان عبد المهين ينطق بالكلام معرباً، ويرتفع نسبه إلى العلاء بن الحضرمي صاحب رسول الله ، وأصل سلفه من اليمن، وكان جدهم الأعلى عبدون لحقه الضيم ببلده، فارتحل إلى المغرب، فنزل سبتة.

ولعبد المهيمن الحضرمي شيخ أجلاء كابن أبي الربيع النحوي وابن الشاط وابن مسعود وغيرهم. وكان ذا سعد وسؤدد حسن الحظ، رأيت خطه بإجازته لأبي عبد الله ابن مرزوق وغيره. وكان عالي الهمة سرياً، أعطى المنصب حقه، وكان لا يحتمل الضيم واحتقار العلم، وكان سريع الجواب: حكي أن القاضي المليلي وأبا محمد عبد المهيمن الحضرمي المذكور صاحب العلامة للسلطان أبي الحسن حضرا مجلس السلطان، فجرى ذكر الفقيه ابن عبد الله الرزاق، فقال المليلي: جمع من الفنون كذا، حتى وضع يده على أبي محمد عبد المهيمن، وقال مخاطباً للسلطان: ويكتب لك أحسن من ذا، فوضع عبد المهيمن يده على المليلي وقال: نعم يا مولاي، ويقضي لك أحسن من ذا.

وقال ابن الخطيب القسمطيني الشهير بابن قنفذ في وفياته ما نصه: وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة توفي الشيخ الراوية المحدث المعروف بابن الكاتب أبو محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد الحضرمي، السبتي، ومن أشياخه الأستاذ ابن أبي الربيع وابن الغماز وابن صالح الكناني وغيرهم من الأعلام؛ انتهى.

وقال غيره: إن والد عبد المهيمن توفي غرة صفر سنة اثني عشر وسبعمائة، رحمه الله تعالى.

وحكي أن الشيخ أبا محمد عبد المهيمن ذكر يوماً بني العزفي فأثنى عليهم، فقال له أحد الحسنيين، وكان بينهم شيء: إنهم كانوا لا يحبون أهل البيت، فكيف

حبك أنت لهم يعني لأهل البيت، فقال: أحبهم حب التشرع، لا حب التشييع؛ انتهى.

قيل: يعني بالعزفيين أهل الدولة الثانية، وأما أهل الأولى فكانوا من المختصين بمحبة الآل، وهم أحدثوا بالمغرب تعظيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام.

ومن أغرب ما وقع للرئيس عبد المهيمن الحضرمي من التشبيه قوله:

لقد راقني مرأى سجلماسة الذي ::: يقر له في حسنه كل منصف
كأن رءوس النخل في عرصاتها ::: فواتح سورات بآخر مصحف

وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يسبق إليه فيما أظن. وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرك لقتال أخيه السلطان أبي علي عمر بسجلماسة فظفر بها استمطر أنواء أفكار الكتاب وغيرهم في تشبيه النخل، فقال عبد المهيمن ما مر، فلم يترك مقالاً لقائل.

وقد أنشد الحافظ ابن مرزوق الحفيد قال: أنشدني شيخنا ولي الدين الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي لشيخه الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي السبي رحمه الله تعالى قوله:

يجفى الفقير ويغشى الناس قاطبة ::: باب الغني، كذا حكم المقادير
وإنما الناس أمثال الفراش، فهم ::: يلفون حيث مصابيح الدنانير

قلت: ورأيت هذين البيتين في كتاب روح الشحر وروح الشعر للعالم الكاتب ابن الجلاب منسوبين لأبي المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي، قال: أنشدني أبو الحجاج الحافظ، قال: أنشدني الهيثم، فذكر البيتين، وكان تاريخ وفاته قبل أن يخلق عبد المهيمن، فتعين أن البيتين ليسا من نظمه، وإنما تمثل بهما ونسبتهما له وهم لا محالة، والله أعلم.

ولعبد المهيمن المذكور أخبار غير ما قدمناه منع منها الاختصار. وقد ألف الخطيب بن مرزوق باسم ولد ولده فهرسته المشهورة، وحلاه في صدرها

أحسن حلية، وهو أهل لذلك. وقد ذكره مولاي الجد في شيوخه كما تقدم، وقال فيه: إنه إمام الحديث والعربية، وكاتب الدولة العثمانية والعلوية، فليراجع ذلك فيما سبق في ترجمة الجد.

وأبو سعيد بن عبد المهيمن كان عالي الهمة كآبائه، ولما بويع السلطان أبو عنان طلب منه أن يكون مرتسماً في جملة كتاب بابه، فامتنع، وقال: لا أكون تحت حكم غيري، وعنى بذلك أن أباه كان رئيس الكتاب، فكيف يكون هو مرؤوساً بغيره فلم ترض همته رحمه الله تعالى إلا برتبة أبيه أو الترك، وارتحل أبو سعيد محمد المذكور، وكان فقيهاً عالماً، من فاس لسبتة إلى أن توفي بها سنة ٧٨٧، وكان قليل الكلام، جميل الرواء، حسن الهيئة والبزة والشكل، روى عن والده وعن الحجار وكتب له سنة ٧٢٤، وروى عن الفقيه أبي الحسن بن سليمان والرحالة ابن جابر الوادي آشي وابن رشيد وغيرهم.

وابن أبي سعيد هذا اسمه عبد المهيمن كجده، وكان صاحب القلم الأعلى، روى عن أبيه وجده وغيرهما، رحم الله الجميع.

٢١ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الإمام العلامة قاضي الجماعة أبو البركات بن الحاج البلفيقي: نادرة الزمان، وشاعر ذلك الأوان، وهو محمد ابن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن الشيخ الولي أبي إسحاق ابن الحاج البلفيقي، وكان أبو البركات أحد رجال الكمال علماً ومجداً وسؤدداً ومكتسباً، وقد عرف به في الإحاطة بترجمة مد فيها النفس، وكتب ابنه على أول الترجمة ما صورته:

رحمك الله تعالى يا فقيه الأندلس وحسيبها وصدرها وشيخها، وبرد ضريحك، فلله ما أفدت من نادرة واكتسبت من فائدة؛ انتهى.

وحكى في " الإحاطة " أنه لما استسقى وحصلت الإجابة أنشده لسان الدين:

ظمئت إلى السقيا الأباطح والربى ::: حتى دعونا العام عاماً مجديا

والغيث مسدول الحجاب، وإنما ::: علم الغمام قدومكم فتأدب

ثم ذكر في الإحاطة تأليف أبي البركات وشعره، إلى أن قال حاكياً عن أبي البركات ما صورته: ومما نظمته وقد أكثروا من التعجب لملازمتي البناء وحفر الآبار:

في احتفار الأساس والآبار ::: وانتقال التراب والجيار
وقعودي ما بين رمل وآجر ::: ر وجص والطوب والأحجار
وامتهاني بردي بالطين والما ::: ء ورأسي ولحيتي بالغبار
نشوة لم تمر قط على قلب ::: ب خليع وما لها من خمار
من غريب البناء أن بنيه ::: متعبون يهوون طول النهار
يبتغون الوصال من صانعيه ::: والبدار إليه كل البدار
فإذا حل في ذراهم تراهم ::: يشتهون منه بعيد المزار
من عذيري من لائم في بنائي ::: وهو لي الترجمان عن أخباري
ليس يدري معناه من ليس يدري ::: أن ما عنده على مقدار
أقتدي بالذي يقول بناها ::: ذلك الخالق الحكيم الباري
وبمن يرفع القواعد من بيـ ::: ـت عتيق للحج والزوار
وبمن كان ذا جدار وقد كا ::: ن أبوه من صالحي الأبرار
وبما قد أقامه الخضر المخـ ::: ـصوص علماً بباطن الأسرار
كان تحت الجدار كنز، وما أد ::: راك ما كان تحت كنز الجدار
وبمن من قضى من آبائي الغـ ::: ـر الألى شيدوا رفيع المنار
فالذي قد بنوه نبني له مثـ ::: ـلاً ونجري له على مضمار
قد بنينا من المساجد دهراً ::: ثم نبني لجارها خير جار
مثلما قد بنيت للمجد أمثا ::: ل مبانيهم بكل اعتبار
فالمباني لسان حالي ولي فيـ ::: ـها لعمري ذكر من الأذكار
روح أعمالنا المقاصد، لكن ::: حيث تخفى تخفى مع الأعذار
فعسى من قضى ببنيان هذي الـ ::: ـدار يقضي لنا بعقبى الدار

ثم قال في الإحاطة بعد كلام: ومن نظمه في الإنحاء على نفسه، واستبعاد وجود المطالب في جنسه، قال مما نظمته يوم عرفة عام خمسين وسبعمائة وأنا

منزو في غار ببعض جبال المرية:

زعمـــوا أن في الجبـــال رجـــالاً ::: صـــالحين قـــالوا مـــن الأبـــدال
وادعـــوا أن كـــل مـــن ســـاح فيهـــا ::: فســـيلقاهم علـــى كـــل حـــال
فاخترقنـــا تلـــك الجبـــال مـــراراً ::: بنعـــال طـــوراً ودون نعـــال
مـــا رأينـــا بهـــا خـــلاف الأفـــاعي ::: وشـــبا عقـــرب كمثـــال النبـــال
وســـباع يجـــرون بالليـــل عـــدواً ::: لا تســـلني عنـــهم بتلـــك الليـــالي
ولـــو أنـــا كنـــا لـــدى العـــدوة الأخ ::: رى رأينـــا نواجـــذ الرئبـــال
وإذا أظلـــم الـــدجى جـــاء إبلـــي ::: س إلينـــا يـــزور طيـــف خيـــال
هـــو كـــان الأنـــيس فيهـــا ولـــولا ::: ه أصـــيبت عقولنـــا بالخبـــال
خـــل عنـــك المحـــال يـــا مـــن تعـــنى ::: ليس يلقـــى الرجـــال غـــير الرجـــال

وجمع شعره وسماه العذب والأجاج من كلام أبي البركات بن الحاج، وسمى أبو القاسم ما استخرجه منه وبـ " اللؤلؤ والمرجان من بحر أبي البركات بن الحاج يستخرجان ".

وكان القاضي أبو البركات من بيت كبير علماً وصلاحاً وزهداً، وجده الإمام الولي العارف سيدي أبو إسحاق بن الحاج أشهر من نار على علم، وقبره مشهور بمراكش وقد زرته بها، وله كرامات مشهورة.

ولما وقع بينه وبين ابن صفوان ما يقع بين المتعاصرين رد عليه ابن صفوان، فانتصر لأبي البركات بعض طلبته بتأليف شواظ من نار ونحاس يرسل على من لم يعرف قدره وقدر غيره من الناس وهو قدر رسالة الشيخ أو أطول، وألفي على ظهره بخط الشيخ أبي البركات ما صورته:

قـــد شـــبع الكلـــب كمـــا ينبغـــي ::: مـــن حجـــر صـــلد ومـــن مقـــرع
فـــإن يعـــد مـــن بعـــد ذا الـــذي ::: قـــد كـــان منـــه فهـــو ممـــن نعـــي

ومن بديع نظم الشيخ أبي البركات رحمه الله تعالى قوله:

يلومونني بعـــد العـــذار علـــى الهـــوى ::: ومثلـــي في وجـــدي لـــه لا يفنـــد
يقولون أمسك عنه قد ذهـــب الصـــبا ::: وكيف أرى الإمساك والخـــيط أســـود

ولما أوقع الشيخ أبو البركات على زوجه الحرة العربية أم العباس عائشة بنت الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الكتاني ثم المغيلي طلقة كتب نسختها بما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد، يقول عبد الله الراجي رحمته محمد المدعو بأبي البركات بن الحاج خار الله له ولطف به: إن الله جلت قدرته لما أنشأ خلقه على طبائع مختلفة وغرائز شتى، ففيهم السخي والبخيل، والشجاع والجبان، والغبي والفطن، والكيس والعاجز، والمسامح والمناقش، والمتكبر والمتواضع، إلى غير ذلك من الصفات المعروفة من الخلق، كانت العشرة لا تستمر بينهم إلا بأحد أمرين: إما بالاشتراك في الصفات أو في بعضها، وإما بصبر أحدهما على صاحبه إذا عدم الاشتراك، ولما علم الشارع أن بني آدم على هذا الوضع شرع لهم الطلاق ليستريح إليه من عيل صبره على صاحبه، توسعة عليهم، وإحساناً منه إليهم، فلأجل العمل على هذا طلق كاتب هذا عبد الله محمد المذكور زوجه الحرة العربية المصونة عائشة ابنة الشيخ الوزير الحسيب النزيه الأصيل الصالح الفاضل الطاهر المقدس المرحوم أبي عبد الله محمد المغيلي، طلقة واحدة، ملكت بها أمر نفسها دونه، عارفاً قدره قصد بذلك إراحتها من عشرته، طالباً من الله أن يغني كلاً من سعته، مشهداً بذلك على نفسه في صحته وجواز أمره يوم الثلاثاء أول يوم من شهر ربيع الثاني عام أحد وخمسين وسبعمائة؛ انتهى.

ومن نوادره رحمه الله تعالى أنه لما استناب بعض قضاة المرية الفقيه أبا جعفر المعروف بالقرعة في القضاء بخارج المرية من عمله فاتفق أن جاء بعض الجنانين بفحص المرية يشتكي من جائحة أو أذاية أصابت جنانه، ففسدت غلته لذلك، فأخذ ذلك الجنان قرعة وأشار إليها مشتكياً، وقال: هذه القرعة تشهد بما أصاب جناني، فقال الشيخ أبو البركات عند ذلك: غريبتان في عام واحد: القرعة تقضي، والقرعة تشهد.

وكان له رحمه الله تعالى من هذا النمط كثير.

وحدث الشيخ أبو البركات قال: كنت ببجاية بمجلس الإمام ناصر الدين المشدالي أيام قراءتي عليه، وقد أفاض طلبة مجلسه بين يديه: هل الملائكة أفضل أم الأنبياء فقلت: الدليل لأن الملائكة أفضل أن الله أمرهم بالسجود لآدم، قال: فجعل الطلبة ينظر بعضهم إلى بعض، حتى قال لي بعضهم: استند يا سيدنا، كأنه يقول: استند إلى حائط ليزول هوس رأسك، وكانت عبارتهم في ذلك، وكل منهم يقول لي نحو ذلك إزراء، وقال لي الإمام ناصر الدين: أبصر فإنهم يقولون الحق، وكانت لغته أن يقول: أبصر، قال: فقلت: أتقولون إن أمر الله للملائكة بالسجود لآدم أمر ابتلاء واختبار قالوا: نعم، قلت: أفيختبر العبد بتقبيل يد سيده ليرى تواضعه قالوا: لا، فإن ذلك من شأن العبد دون أن يؤمر، بل السيد يختبر تواضعه بأن يأمر بالسجود للعبد، قلت: فكذا الملائكة، لو أمرت بالسجود لأفضل منها لكان بمنزلة أمر العبد بالسجود لسيده، قال: فكأنما ألقمتهم حجراً.

قال الشيخ أبو البركات: وهذه كحكاية أبي بكر ابن الطيب مع بعض رؤساء المعتزلة، وذلك أنه اجتمع معه في مجلس الخليفة، فناظره في مسألة رؤية الباري، فقال له رئيسهم: ما الدليل أيها القاضي على جواز رؤية الله تعالى قال: قوله تعالى:{لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ} [الأنعام: ١٠٣] فنظر بعض المعتزلة إلى بعض وقالوا: جن القاضي وذلك أن هذه الآية هي معظم ما احتجوا به على مذهبهم، وهو ساكت، ثم قال لهم: أتقولون إن من لسان العرب قولك الحائط لا يبصر قالوا: لا، قال: أتقولون أن من لسان العرب الحجر لا يأكل؟ قالوا: لا، قال: فلا يصح إذاً نفي الصفة إلا عما من شأنه صحة إثباتها له، قالوا: نعم، قال: فكذلك قوله تعالى:{لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ} [الأنعام: ١٠٣] لولا جواز إدراك الأبصار له لم يصح نفيه عنه فأذعنوا لما قال، واستحسنوه.

وقال الشيخ أبو البركات: كنت ببجاية، وقدم علينا رجل من فاس برسم الحج يعرف بابن الحداد، فركب الناس في الأخذ عنه والرواية لما يحمله كل صعب

وذلول، مع أنه لم تكن منزلته هناك في العلم، فعجبت لذلك، حتى قلت لبعض الطلبة: لقد أخذتموه بكلتا اليدين، ولم أركم مع من هو أعلى قدراً منه كذلك، فقالوا لي: لأنه قدم علينا ونحن لا نعرفه، وهو في زي حسن، بخادم يخدمه، يظن من يراه أن أباه من أعيان أهل بلده، فسألناه أحي أبوه أم لا قال: بل حي، قلنا: أهو من أهل العلم قال: لا، هو دلال في سوق الخدم، فلذلك آثرناه على من هو فوقه في العلم، قال: فقلت لهم: حق له أن ترتفع منزلته ويعلو صيته لتخلقه وفضله.

وتوفي الشيخ القاضي أبو البركات المذكور بشوال سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى.

٢٢ - ومن أشياخ لسان الدين رحمه الله تعالى الشيخ الحكيم العلامة التعاليمي، الشاعر البليغ، أعجوبة زمانه في الاطلاع على علوم الأوائل، أبو زكريا يحيى بن هذيل وقد قال في الإحاطة في حقه ما ملخصه: يحيى ابن أحمد بن هديل التجيبي، أبو زكريا، شيخنا؛ جرى ذكره في التاج المحلى بما نصه: درة بين الناس مغفلة، وخزانة على كل فائدة مقفلة، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة، أبدع من رتب التعاليم وعلمها، وركض في الألواح قلمها، وأتقن من صور الهيئة ومثلها، وأسس قواعد البراهين وأثلها، وأعرف من زوال شكاية، ودفع عن جسم نكاية، إلى غير ذلك من المشاركة في العلوم، والوصول من المجهول إلى المعلوم، والمحاضرة المستفزة للحلوم، والدعابة التي ما خالع العذار فيها بالملوم، فما شئت من نفس عذبة الشيم، وأخلاق كالزهر من بعد الديم، ومحاضرة تتحف المجالس والمحاضر، ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر، وله أدب ذهب في الإجادة كل مذهب، وارتدى من البلاغة بكل رداء مذهب، والأدب نقطة من حوضه، وزهرة من زهرات روضه، وسيمر له في هذا الديوان ما يبهر العقول، ويحاسن بروائه ورائق بهائه الفرند المصقول، فمن ذلك ما خرجته من ديوانه المسمى بالسليمانيات والعزفيات قوله:

ألا استودع الرحمن بدراً مكملاً ::: بفاس من الدرب الطويل مطالعه

ففـــي فلـــك الأزرار يطلـــع ســـعده ::: وفي أفـــق الأكبـــاد تلفـــى مواقعـــه
يصـــير مـــرآه مـــنجم مقلـــتي ::: فتصـــدق في قطـــع الرجـــاء قواطعـــه
تجســـم مـــن مـــاء الملاحـــة خـــده ::: ومـــاء الحيـــا فيـــه ترجـــرج مائعـــه
تلـــون كالحربـــاء في خجلاتـــه ::: فيحمـــر قانيـــه ويبـــيض ناصـــعه
إذا اهتـــز غـــنى حليـــه فـــوق نحـــره ::: كغصن النقـــا غنـــت عليـــه ســـواجعه
يؤكد حتـــف الصـــب عامـــل قـــدره ::: وتعطـــف مـــن واو العـــذار توابعـــه
أعد الـــورى ســـيفاً كســـيف لحاظـــه ::: فهـــذا هـــو الماضـــي وذاك مضـــارعه

ومات رحمه الله تعالى في الخامس والعشرين لذي قعدة لعام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ودفن بحذاء زوجته كما عهد رحمه الله تعالى؛ انتهى.

ومن نظم ابن هذيل:

وظـــبي زارني والليـــل طفـــل ::: إلى أن لاح لي منـــه اكتـــهال
وألغـــى الشـــك مـــن وصـــل فقلنـــا ::: بليـــل الشـــك يرتقـــب الهـــلال

٢٣ - ومن أشياخ لسان الدين: الشيخ أبو بكر بن ذي الوزارتين، وهو - أعني أبا بكر - الوزير الكاتب الأديب الفاضل المشارك المتفنن المتبحر في الفنون أبو بكر محمد ابن الشيخ الشهير ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم الرندي، ومن نظمه قوله:

تصـــبر إذا مـــا أدركتـــك ملمـــة ::: فصـــنع إلـــه العـــالمين عجيـــب
ومـــا يلحـــق الإنســـان عـــار بنكبـــة ::: ينكـــب فيهـــا صـــاحب وحبيـــب
ففي من مضى للمرء ذي العقل أســـوة ::: وعيش كـــرام النـــاس لـــيس يطيـــب
ويوشـــك أن همـــي ســـحائب نعمـــة ::: فيخضـــب ربـــع للســـرور جـــديب
إلهـــك يـــا هـــذا قريـــب لمـــن دعـــا ::: وكل الـــذي عنـــد القريـــب قريـــب

قال ابن خاتمة: وأنشدني الوزير أبو بكر مقدمه على المرية غازياً مع الجيش المنصور، قال: أنشدني أبي:

ولمـــا رأيـــت الشـــيب حـــل بمفرقـــي ::: نـــذيراً بترحـــال الشـــباب المفـــارق
رجعت إلى نفسي فقلـــت لهـــا انظـــري ::: إلى مـــا أرى، هـــذا ابتـــداء الحقـــائق

ترجمة أبي عبد الله ابن الحكيم

وبيتهم بيت كبير، وأخذ عن غير واحد وعن والده، وهو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى، اللخمي، الرندي، الكاتب البليغ الأديب الشهير الذكر بالأندلس، وأصل سلفه من إشبيلية من أعيانها، ثم انتقلوا إلى رندة في دولة بني عباد، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبه، وقدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد ابن نصر إثر قفوله من الحج في رحلته التي رافق بها العلامة أبا عبد الله ابن رشيد الفهري، فألحقه السلطان بكتابه، وأقام يكتب له في ديوان الإنشاء إلى أن توفي هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله المخلوع فقلده الوزارة والكتابة، وأشرك معه في الوزارة أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني، فلما توفي أبو سلطان أفرده السلطان بالوزارة، ولقبه ذا الوزارتين، وصار صاحب أمره إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلاً نفعه الله تعالى غدوة يوم الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه وخلافة أخيه أمير المسلمين أبي الجيوش مكانه، ومولده برندة سنة ستين وستمائة.

وكان رحمه الله تعالى علماً في الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق، كريم النفس واسع الإيثار، متين الحرمة عالي الهمة، كاتباً بليغاً أديباً شاعراً، حسن الخط، يكتب خطوطاً على أنواع كلها جميلة الانطباع، خطيباً فصيح القلم زاكي الشيم، مؤثراً لأهل العم والأدب برًّا بأهل الفضل والحسب، نفقت بمدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق. ورحل للمشرق كما سبق، فكانت إجازته البحر من المرية، فقضى فريضة الحج، وأخذ عمن لقي هنالك من الشيوخ، فمشيخته متوافرة، وكان رفيقه كما مر الخطيب أبا عبد الله ابن رشيد الفهري، فتعاونا على هذا الغرض، وقضيا منه كل نفل ومفترض، واشتركا فيمن أخذا عنه من الأعلام، في كل مقام، وكانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب، وصبابة باقتناء الكتب، جمع من أمهاتها العتيقة، وأصولها الرائقة

الأنيقة، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه، ولا ظفرت به يداه، أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبي العاصي، وتدبج معه رفيقه أبو عبد الله بن رشيد وغير واحد، وكان ممدحاً، وممن مدحه الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي والرئيس أبو الحسن بن الجياب، وناهيك بهما.

ومن نثر ذي الوزارتين آخر إجازة ما صورته: وها أنا أجري معه على حسن معتقده، إلى ما رآه بمقتضى تودده، وأجيز له ولولديه أقر الله بهما عينه، وجمع بينهما وبينه، رواية جميع ما نقلته وحملته، وحسن اطلاعه يفصل من ذلك ما أجملته، فقد أطلقت لهم الإذن في جميعه، وأبحت لهم الحمل عني ولهم الاختيار في تنويعه، والله سبحانه يخلص أعمالنا لذاته، ويجعلها في ابتغاء مرضاته، قال هذا محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم حامداً لله عز وجل، ومصلياً.

ومن شعر ذي الوزارتين ابن الحكيم قوله:

ما أحسن العقل وآثاره ::: لو كان لازم الإنسان إيثاره
يصون بالعقل الفتى نفسه ::: كما يصون الحر أسراره
لا سيما إن كان في غربة ::: يحتاج أن يعرف مقداره

وقوله رحمه الله:

إني لأعسر أحياناً فيلحقني ::: يسر من الله إن العسر قد زالا
يقول خير الورى في سنة ثبتت ::: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا

وهو من أحسن ما قال رحمه الله.

ومن شعر ذي الوزارتين المذكور قوله:

فقدت حياتي بالعراق ومن غدا ::: بحال نوى عمن يحب فقد فقد
ومن أجل بعدي عن ديار ألفتها ::: جحيم فؤادي قد تلظى وقد وقد

وقد سبقه إلى هذا القائل:

أواري أواري بالدموع تجلداً ::: وكم رمت إطفاء اللهيب وقد وقد

فلا تعذلوا من غاب عنه حبيبه ::: فمن فقد المحبوب فقد فقد

كذا رواه ابن خاتمة، ورواه غيره هكذا:

أواري أواري والدموع تبينه

وهو الصواب، قال ابن خاتمة: وأنشدني رئيس الكتاب الصدر البليغ الفاضل أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري، قال: أنشدني رئيس الكتاب الجليل أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمي، قال: أنشدني رئيس الكتاب ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم رحمه الله:

صح الكتاب وعنه ::: واختم على مكنونه
واحذر عليه من مخا ::: لسة الرقيب بجفنه
واجعل لسانك سجنه ::: كيلا ترى في سجنه

وقال لسان الدين في عائد الصلة في حق ذي الوزارتين ابن الحكيم ما صورته: كان رحمه الله فريد دهره سماحة وبشاشة ولوذعية وانطباعاً، رقيق الحاشية، نافذ العزمة، مهتزاً للمديح، طلقاً للآمل، كهفاً للغريب، برمكي المائدة مهلبي الحلوى، ريان من الأدب، مضطلعاً بالرواية، مستكثراً من الفائدة، يقوم على المسائل الفقهية، ويتقدم الناس في باب التحسين والتقبيح، ورفع راية الحديث والتحديث، نفق بضاعة الطلب، وأحيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تشغله السياسة عن النظر، ولا عاقة تدبير الملك عن المطالعة والسماع، وأفرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت تصوره عن خزائنها، وأثرت أنديته من ذخائرها، قام له الدهر على رجل، وأخدمه صدور البيوتات وأعلام الرياسات، وخوطب من البلاد النازحة، وأمل في الآفاق النائبة؛ انتهى المقصود منه.

وقال لسان الدين في الإحاطة في حق رحلة ذي الوزارتين ابن الحكيم ما صورته: رحل إلى الحجاز الشريف من بلده على فتاء سنه أول عام ثلاثة وثمانين وستمائة، فحج وزار، وتجول في بلاد المشرق منتجعاً عوالي الرواية

في مظانها، ومذقراً عنها عند مسني شيوخها، وقيد الأناشيد الغربية والأبيات المرقصة، وأقام بمكة شرفها الله من شهر رمضان إلى انقضاء الموسم، فأخذ بها عن جماعة، وانصرف إلى المدينة المشرفة، ثم قفل مع الركب الشامي إلى دمشق، ثم كر إلى المغرب، لا يمر بمجلس علم أو نعلم إلا روى أو روى، واحتل رندة حرسها الله أواخر عام خمسة وثمانين وستمائة، فأقام بها عيناً في فرابته، وعلماً في أهله، معظماً لديهم، إلى أن أوقع السلطان بالوزراء من بني حبيب الوقيعة البرمكية وورد رندة في أثر ذلك، فتعرض إليه وهنأه بقصيدة طويلة من أوليات شعره أولها:

هل إلى رد عشيات الوصال ::: سبب أم ذاك من ضرب المحال

فلما أنشدها إياه أعجب به وبحسن خطه ونصاعة ظرفه، فأثنى عليه، واستدعاه إلى الوفادة على حضرته، فوفد آخر عام ستة وثمانين، فأثبته في خواص دولته، وأحظاه لديه، إلى أن رقاه إلى كتابة الإنشاء ببابه، واستمرت حاله معظم القدر مخصوصاً بالمزية، إلى أن توفي السلطان ثاني الملوك من بني نصر، وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله، فزاد في إحظائه وتقريبه، وجمع له بين الكتابة والوزارة، ولقبه بذي الوزارتين، وأعطاه العلامة، وقلده الأمر فبعد الصيت وطاب الذكر، إلى أن كان من أمره ما كان؛ انتهى ملخصاً.

ومن توقيعه ما نقلته من خط ولده، يعني أبا بكر، في كتابه المسمى بالموارد المستعذبة وكان بوادي آش الفقيه الطرائفي، فكتب إلى خاصة والدي أبي جعفر ابن داود، قصيدة على روي السين، يتشكى فيها من مشرف بلدهم إذ ذاك أبي القاسم بن حسان منها:

فيا صفي أبي العباس كيف ترى ::: وأنت أكيس من فيها من أكياس
ولوه إن كان ممن ترتضون به ::: فقد دنا الفتح للأشراف في فاس

ومنها يستطرد ذكر ذي الوزارتين:

للشرق فضل فمنه أشرقت شهب ::: من نورهم أقبسونا كل مقباس

فوقع عليها رحمه الله تعالى:

إن أفرطت بابن حسان غوائله ::: فالأمر يكوه ثوب الذكر والباس
وإن تزل به في جورة قدم ::: كان الجزاء له ضرب على الراس
فقد أقامني المولى بنعمته ::: لبث أحكامه بالعدل في الناس

ثم أطال في أمره، إلى أن قال في ترجمة قتله ما صورته: واستولت يد الغوغاء على منازله، شغلهم بها مدبر الفتنة خيفة من أن يعاجلوه قبل تمام أمره، فضاع بها مال لا يكتب، وعروض لا يعلم لها قيمة من الكتب والذخيرة والفرش والآنية والسلاح والمتاع والخرثي، وأخفرت ذمته، وتعدى به عدوه القتل إلى المثلة، وقانا الله مصارع السوء، فطيف بشلوه، وانتهب، فضاع ولم يقبر، وجرت فيه شناعة كبيرة، رحمه الله تعالى؛ انتهى المقصود منه.

٢٤ - ومن مشايخ لسان الدين الأستاذ أبو الحسن علي القيجاطي.

وقال في حقه في الإحاطة ما محصله: علي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني، القيجاطي، أبو الحسن، أوحد زمانه علماً وتخلقاً وتواضعاً وتفنناً، ورد على غرناطة مستدعى عام اثني عشر وسبعمائة، وقعد بمسجدها الأعظم يقرأ فنوناً من العلم من قراءات وفقه وعربية وأدب، وولي الخطابة، وناب عن بعض القضاة بالحضرة، مشكور المأخذ حسن السيرة عظيم النفع، وقصده الناس وأخذوا عنه، وكان أديباً لوذعيًّا فكهاً حلواً، وهو أول أستاذ قرأت عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة المكتب، وله تآليف في فنون وشعر ونثر، مولده عام خمسين وستمائة، وتوفي بغرناطة ضحى السبت في السابع والعشرين لذي الحجة عام ثلاثين وسبعمائة، وحضره السلطان فمن دونه، رحمه الله تعالى؛ وانتهى.

٢٥ - ومنهم العلامة شيخ الشيوخ أبو سعيد فرج بن لب. قال في " الإحاطة " في حقه ما محصله: فرج من قاسم بن أحمد بن لب، قال ابن الصباغ: من شعر ابن لب يمدح رسول الله :

إذا القلـــب ثـــار أثـــار ادكـــارًا ::: لقلـــبي فـــأذكى عليـــه أوارًا
تـــروم جفـــوني لنـــار الهـــوى ::: خمـــوداً فتـــهمي دموعـــاً غـــزارًا
فمـــاء جفـــوني يســـح انهمـــالا ::: ونـــار فـــؤادي تهـــيج استـــعارًا
أطيـــل العويـــل صـــباحاً مســـاء ::: كئيبـــا ولســـت أطيـــق اصـــطبارًا
رقيـــت مراقـــي للحـــب شـــق ::: فـــأفنى مـــراراً وأحيـــا مـــرارًا
أحـــن اشـــتياقاً لـــريح ســـرت ::: وأبـــدي هيامـــاً لـــبرق أنـــارا
حنينـــاً وشـــوقاً إلى معلـــم ::: حـــوى شـــرفاً خالـــداً لا يجـــارى
بـــه أســـكن الله أسمـــى الـــورى ::: نبيًّـــا كريمـــاً وصـــحباً خيـــارا
هـــو المصـــطفى المنتقـــى المجـــتبى ::: أرى معجـــزات وآيـــاً كبـــارا
يحـــق علينـــا ركـــوب البحـــار ::: وجـــوب القفـــار إليـــه ابتـــدارا

ومنها:

فيـــا فـــوز مـــن فـــاز في طيبـــة ::: بلـــثم المغـــاني جـــداراً جـــدارا
وألصـــق خـــداً علـــى تربهـــا ::: وأكمـــل حجـــاً بهـــا واعتمـــارا
وأهـــدى الســـلام لخـــير الأنـــام ::: علـــى حـــين وافى عليـــه مـــزارا
فيـــا هـــادي الخلـــق دار نعـــيم ::: تناهـــت جمـــالاً وطابـــت قـــرارا
لأنـــت الوســـيلة والمرتجـــى ::: ليـــوم يـــرى النـــاس فيـــه ســـكارى
ومـــا هـــم ســـكارى، ولكنـــهم ::: دهتـــهم دواه فهـــاموا حيـــارى
تـــرى المـــرء للـــهول مـــن أمـــه ::: ومـــن أقربيـــه يطيـــل الفـــرارا
وكـــل يخـــاف علـــى نفســـه ::: فيكســـوه خـــوف الإلـــه انكســـارا
فصـــلى الإلـــه، رســـول الهـــدى ::: عليـــك، وأبقـــى هـــداك منـــارا
وقـــدس ربي ثـــرى روضـــة ::: يعـــم الجهـــات ســـناها انتشـــارا
أعـــبر شـــذا المســـك منـــها الثـــرى ::: بـــل المســـك منـــه شـــذاه اســـتعارا
هنيئـــاً لمـــن بهـــداك اهتـــدى ::: ومغنـــاك وافى، وإيـــاك زارا

وقصد رحمه الله تعالى بهذه القصيدة معارضة قصيدة الشهاب محمود التي نظمها بالحجاز في طريق المدينة الشرفة على ساكنها الصلاة والسلام، و هي طويلة، ومطلعها:

وصـــلنا الســـرى وهجرنـــا الـــديارا ::: وجئنـــاك نطـــوي إليـــك القفـــارا

وقال في الإحاطة في حقه ما محصله: فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي غرناطي أبو سعيد، من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن الخلق، رأس بنفسه وبرز بمزية إدراكه وحفظه، فأصبح حامل لواء التحصيل وعليه مدار الشورى وإليه مرجع الفتوى، لقيامه على الفقه وغزارة علمه وحفظه، إلى المعرفة بالعربية واللغة، ومعرفة التوثيق والقيام على القراءات والتبريز في التفسير، والمشاركة في الأصلين والفرائض والأدب، وجودة الحفظ؛ وأقرأ بالمدرسة النصرية في الثامن والعشرين لرجب عام أربعة وخمسين وسبعمائة، معظماً عند الخاصة والعامة، مقروناً اسمه بالتسويد، قعد للتدريس ببلده على وفور الشيوخ، وولي الخطابة بالجامع. قرأ على القيجاطي، والعربية على ابن الفخار، وأخذ عن ابن جابر الوادي آشي، وكان موجوداً عند تأليف الإحاطة رحمه الله تعالى؛ انتهى بالمعنى.

وقال الحافظ ابن حجر: إنه صنف كتاباً في الباء الموحدة، وأخذ عن شيخنا بالإجازة قاسم بن علي المالقي، ومات سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة؛ انتهى.

وقال تلميذه المنتوري ما نصه: من شيوخي الشيخ الأستاذ الخطيب المقرئ المتفنن المفتي أبو سعيد ابن لب، مولده سنة إحدى وسبعمائة، وتوفي ليلة السبت لسبع عشرة ليلة مضت من ذي الحجة عام اثنين وثمانين؛ انتهى.

وهو مخالف لما سبق عن ابن حجر، لكن صاحب البيت أدرى، إذ قال: شيخنا الفقيه الخطيب الأستاذ المقرئ العالم العلم الصدر الأوحد الشهير، كان شيخ الشيوخ وأستاذ الأستاذين بالأندلس، إليه انتهت فيها رياسة الفتوى في العلوم، كان أهل زمانه يقفون عندما يشير إليه، قرأ على أبي علي القيجاطي بالسبع، وتفقه عليه كثيراً في أنواع العلوم، ولازمه إلى أن مات، وأجازه عامة، وعليه اعتمد، وأخذ عن أبي جعفر ابن الزيات، وأبي إسحاق ابن أبي العاصي، وابن جابر الوادي آشي، وقاضي الجماعة أبي بكر، سمع عليه البخاري، وتفقه عليه، وقرأ عليه أكثر عقيدة المقترح تفهماً، وبعض الإرشاد وبعض التهذيب،

وعن أبي محمد ابن سلمون، والبركة أبي عبد الله الطنجالي الهاشمي، وأجازه؛ انتهى بمعناه.

وبالجملة فهو من أكابر علماء المالكية بالمغرب حتى قال المواق فيه: شيخ الشيوخ أبو سعيد بن لب، الذي نحن على فتاويه في الحلال والحرام؛ انتهى. وقل من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته، فممن أخذ عنه الشاطبي، وابن علاق، وأبو محمد بن جزي، والأستاذ ابن زمرك، في خلق كثير من طبقتهم، ثم من الطبقة الثانية أبو يحيى ابن عاصم، وأخوه القاضي أبو بكر ابن عاصم، والشيخ أبو القاسم ابن سراج، والمنتوري، في خلق لا يحصون. وله تواليف، فمنها شرح جمل الزجاجي، وشرح تصريف التسهيل، وكتاب " ينبوع عين الثرة في تفريع مسألة الإمامة بالأجرة "، وله فتاوى مدونة بأيدي الناس، وممن جمعها الشيخ ابن طركاط الأندلسي، وله كتابة في مسألة الأدعية إثر الصلوات على الهيئة المعروفة، وقد رد عليه في هذا التأليف تلميذه أبو يحيى ابن عاصم الشهيد في تأليف نبيل انتصاراً لشيخه أبي إسحاق الشاطبي، رحم الله تعالى الجميع.

٢٦ - ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب أبو القاسم ابن جزي، ففي " الإحاطة " ما ملخصه: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن ابن يوسف بن جزي، الكلبي، أبو القاسم، من أهل غرناطة، وذوي الأصالة والنباهة فيها، شيخنا، وأصل سلفه من ولبة من حصن البراجلة، نزل بها أولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وعند خلع دولة المرابطين كان لجدهم يحيى رياسة وإفراد بالتدبير، وكان رحمه الله تعالى على طريقة مثلى من العكوف على العلم، والاقتصار على الاقتيات من حر النشب، والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حفظة للتفسير، مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن

المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته، قرأ على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير العربية والفقه والحديث والقرآن، وعلى ابن الكماد، ولازم الخطيب أبا عبد الله بن رشيد وطبقتهم كالحضرمي وابن أبي الأحوص وابن برطال وأبي عامر ابن ربيع الأشعري والولي أبي عبد الله الطنجالي وابن الشاط.

وله تواليف منها وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم والأنوار السنية في الكلمات السنية والدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار، والقوانين الفقهية وتلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية وكتاب تقريب الوصول إلى علم الأصول وكتاب النور المبين في قواعد عقائد الدين، وكتاب المختصر البارع في قراءة نافع وكتاب أصول القراء الستة غير نافع وكتاب الفوائد العامة في لحن العامة إلى غير ذلك مما قيده في التفسير والقراءات وغير ذلك، وله فهرسة كبيرة اشتملت على جملة كبيرة من علماء المشرق والمغرب.

مولده يوم الخميس تاسع ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وستمائة، وفقد وهو يحرض الناس يوم الكائنة بطريف ضحوة يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى عام أحد وأربعين وسبعمائة، وعقبه ظاهر بين القضاء والكتابة؛ انتهى.

* * *

من نظم ابن جزي

ومن نظم ابن جزي المذكور قوله:

أيا من كففت النفس عنه تعففاً ::: وفي النفس من شوقي إليه لهيب غرام
ألا إنما صبري كصبر، وإنما ::: على النفس من تقوى الإله رقيب لجان

وهما من التخيير المعلوم في فن البديع.

وقول لسان الدين رحمه الله تعالى وله عقب ظاهر بين القضاء والكتابة يريد به بنيه البارع أبو بكر والعلامة أبا عبد الله والقاضي أبا محمد عبد الله.

ومن نظم ابن جزي المذكور قوله:

رعى الله عهداً بالمرية ما أرى ::: به أبداً ما عشت في الناس بالناسي
وكيف ترى بالله صحبة معشر ::: مجاهد بعض منهم وابن عباس

وقوله في الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان:

هذا محل الفضل والإيثار ::: والرفق بالسكان والزوار
دار على الإحسان شيدت والتقى ::: فجزاؤها الحسنى وعقبى الدار
هي ملجأ للواردين ومورد ::: لابن السبيل وكل ركب ساري
آثار مولانا الخليفة فارس ::: أكرم بها في المجد آثار
لا زال منصور اللواء مظفراً ::: ماضي العزائم سامي المقدار
بنيت على يد عبدهم وخديم با ::: بهم العلي محمد بن جدار
في عام أربعة وخمسين انقضت ::: من بعد سبع مئين في الإعصار

ومن نظمه قوله موريًّا:

وما أنسى الأحبة يوم بانوا ::: تخوض مطيهم بحر الدموع
وقالوا: اليوم منزلنا الحنايا ::: فقلت: نعم، ولكن من ضلوعي

وقوله مورياً أيضاً:

ورب يهودي أتى متطبباً ::: ليأخذ ثارات اليهود من الناس
إذا جس نبض المرء أودى بنفسه ::: سريعاً، ألم تسمع بفتكة جساس

وقوله:

من أي أشجاني التي جنت النوى ::: أشكو العذاب وهن في تنويع
من وصلي الموقوف أو من هجري الـ ::: موصول أو من نومي المقطوع
أو من حديث تولهي وتولعي ::: خبراً صحيحاً ليس بالموضوع
يرويه خدي مسنداً عن أدمعي ::: عن مقلتي عن قلبي المفجوع

رجع إلى ابن جزي، ومن نظمه:

يا دوحة الأنس من بطحاء واسجة ::: هل من سبيل إلى أيامك الأول
إذ نجتلي أواجه الإيناس مسفرة ::: ونجتني ثمر اللذات والغزل

ومن نظمه رحمه الله تعالى عند خروجه إلى بلاد المغرب، وروى بكتابي " تحفة القادم " و " زاد المسافر " فقال:

وإني لمن قوم يهون عليهم ::: ورود المنايا في سبيل المكارم
يطيرون مهما ازور للدهر جانب ::: بأجنحة من ماضيات العزائم
وما كل نفس تحمل الذل، إنني ::: رأيت احتمال الذل من شأن البهائم
إذا أنا لم أظفر بزاد مسافر ::: لديكم فعند الناس تحفة القادم

وزاد المسافر لصفوان، والتحفة لابن الأبار.

ومن نظمه قوله:

نصب الحبائل للورى بالحسن إذ ::: رفع اللثام وذيله مجرور
وأماله عني العواذل غيلة ::: فهو الممال وقلبي المكسور

وقوله أيضاً:

تلك الذؤابة ذبت من شوقي لها ::: واللحظ يحميها بأي سلاح
يا قلب فانج وما إخالك ناجياً ::: من فتنة الجعدي والسفاح

٢٧ - ومنهم القاضي الأديب جملة الظرف أبو بكر بن شبرين:

وقد استوفى ترجمته في الإحاطة وذكره أيضاً في ترجمة ذي الوزارتين بن الحكيم بأن قال بعد حكايته قتل ابن الحكيم ما صورته: وممن رثاه شيخنا أبو بكر بن شبرين رحمه الله تعالى بقوله:

سقى الله أشلاء كرمن على البلى ::: وما غض من مقدارها حادث البلا
ومما شجاني أن أهين مكانها ::: وأهمل قدراً ما عهدناه مهملا
ألا اصنع بها يا دهر ما أنت صانع ::: فما كنت إلا عبدها المتذللا
سفكت دماً كان الرقوء نواله ::: لقد جئتما شنعاء فاضحة الملا
بكفي سبنتى أزرق العين مطرق ::: عدا فغدا في غيه متوغلا
لنعم قتيل القوم في يوم عيده ::: قتيل تبكيه المكارم والعلا

ألا إن يوم ابن الحكيم مثكل ::: فؤادي، فما ينفك ما عشت مشكلا
فقدناه في يوم أغر محجل ::: ففي الحشر نلقاه أغر محجلا
سمت نحوه الأيام وهو عميدها ::: فلم تشكر النعمى ولم تحفظ الولا
تعاورت الأسياف منه ممدحاً ::: كريماً سما فوق السماكين مزحلا
وخانته رجل في الطواف به سعت ::: فناء بصدر للعلوم تحملا
وجدل لم يحضره في الحي ناصر ::: فمن مبلغ الأحياء أن مهلهلا
يد الله في ذاك الأديم ممزقاً ::: تبارك ما هبت جنوباً وشمألا
ومن حزني أن لست أعرف ملحداً ::: له فأرى للترب منه مقبلا
رويدك يا من قد غدا شامتاً به ::: فبالأمس ما كان العماد المؤملا
وكنا نغادي أو نراوح بابه ::: وقد ظل في أوج العلا متوقلا
ذكرناه يوماً فاستهلت جفوننا ::: بدمع إذا ما أحل العم أخضلا
ومازج منا الحزن طول اعتبارنا ::: ولم ندر ماذا منهما كان أطولا
وهاج لنا شجواً تذكر مجلس ::: له كان يهدي الحي والملأ الألى
به كانت الدنيا تؤخر مدبراً ::: من الناس حتماً أو تقدم مقبلا
لتبك عيون الباكيات على فتى ::: كريم إذا ما أسبغ العرف أجزلا
على خادم الآثار تتلى صحائحاً ::: على حامل القرآن يتلى مفصلا
على عضد الملك الذي قد تضوعت ::: مكارمه في الأرض مسكاً ومندلا
على قاسم الأموال فينا على الذي ::: وضعنا لديه كل إصر على علا
وأنى لنا من بعده متعلل ::: وما كان في حياتنا متعللا
ألا يا قصير العمر يا كامل العلا ::: يميناً لقد غادرت حزناً مؤثلا
يسوء المصلى أن هلكت ولم تقم ::: عليك صلاة فيه يشهدنا الملا
وذاك لأن الأمر فيه شهادة ::: وسنتها محفوظة لن تبدلا
فيا أيها الكريم الذي قضى ::: سعيداً حميداً فاضلاً ومفضلا
لتهنك من رب السماء شهادة ::: تلاقي ببشرى وجهك المتهللا
رثيتك عن حب في جوانحي ::: فما ودع القلب العميد وما قلى
ويا رب من أوليته منك نعمة ::: وكنت له ذخراً عتيداً وموئلا
تناساك حتى ما تمر بباله ::: ولم يدكر ذاك الندى والتفضلا
يرابض في مثواك كل عشية ::: صفيف شواء أو قديراً معجلا

لحى الله مـــن ينســـى الأذمـــة رافضـــاً	:::	ويذهل مهما أصــبح الأمـــر مشـــكلا
حنانيك يا بـــدر الهـــدى فلشـــد مـــا	:::	تركـــت بـــدور الأفـــق بعـــدك أفـــلا
وكنـــــت لآمـــــالي حيـــــاة هنيئـــــة	:::	فغـــادرت مـــني اليـــوم قلبـــاً مقـــتلاً
فلا وأبيـــك الخـــير مـــا أنـــا بالـــذي	:::	على البعد ينسى من ذمامك مـــا خـــلا
فأنـــــت الـــــذي آويـــــتني متغربـــــاً	:::	وأنـــت الـــذي أكـــرمتني مـــتطفلا
فآليـــت لا ينفـــك قلـــبي مكمـــداً	:::	عليـــك ولا ينفـــك دمعـــي مســـبلاً

وكتب ابن لسان الدين على هامش هذه القطعة ما صورته: شكر الله وفاءك يا ابن شربين وقدس لحدك، وأين مثلك في الدنيا حسناً ووفاء وعلماً لا كما فعل ابن زمرك في ابن الخطيب مخدومه، قاله علي بن الخطيب؛ انتهى.

٢٨ ـ ومن أشياخ لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الشيخ الأستاذ العلامة العلم الأوحد الصدر المصنف المحدث الأفضل الأصلح الأروع الأتقى الأكمل أبو عثمان سعد ابن الشيخ الصالح التقي الفاضل المبرور المرحوم أبي جعفر أحمد بن ليون، التجيبي، رضي الله عنه تعالى، وهو من أكابر الأئمة الذين أفرغوا جهدهم في الزهد والعلم والنصح، وله تواليف مشهورة، منها اختصار بهجة المجالس لابن عبد البر، واختصار المرتبة العليا لابن راشد لقفصي، وكتاب في الهندسة، وكتاب في الفلاحة، وكتاب كمال الحافظ وجمال اللافظ في الحكم والوصايا والمواعظ، وكان مولعاً باختصار الكتب، وتواليف تزيد عن المائة فيما يذكر، وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين.

ومما حكي عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلاً طوالاً فقال لمن حضره: لو رآه ابن ليون لاختصره، إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب.

ومن تواليفه كتاب نفح السحر في اختصار روح الشحر وروح الشعر لابن الجلاب الفهري، رحمه الله، ومنها كتاب أنداء الديم في الوصايا والمواعظ والحكم وكتاب الأبيات المهذبة في المعاني المقربة وكتاب نصائح الأحباب وصحائح الآداب أورد فيه مائتي قطعة من شعره تتضمن نصائح متنوعة، ولننقح منها نبذة فنقول: منها في التحريض على العلم قوله رحمه الله تعالى:

زاحـــم أولي العلـــم حـــتى ::: تعتـــد منـــهم حقيقـــه
ولا يـــردك عجـــز ::: عـــن أخـــذ أعلـــى طريقـــه
فـــإن مـــن جـــد يعطـــى ::: فيمـــا يحـــب لحوقـــه

وقوله:

شـــفاء داء العـــي حســـن الســـؤال ::: فاســـأل تنـــل علمـــاً، وقـــل لا تبـــال
واطلـــب فالاســـتحياء والكـــبر مـــن ::: موانـــع العلـــم فمـــا إن ينـــال

وقوله:

علمت شـــيئاً وغابـــت عنـــك أشـــياء ::: فانظر وحقـــق فمـــا للعلـــم إحصـــاء
للعلم قسمان: ما تـــدري، وقولـــك لا ::: أدري، ومن يـــدعي الإحصـــاء هـــذاء

وقوله:

من لم يكن علمـــه في صـــدره نشـــبت ::: يـــداه عنـــد الســـؤالات الـــتي تـــرد
العلم مـــا أنـــت في الحمـــام تحضـــره ::: وما سوى ذلـــك التكليـــف والكمـــد

وقوله:

الدرس رأس العلـــم فـــاحرص عليـــه ::: فكـــل ذي علـــم فقـــير إليـــه
مـــن ضـــيع الـــدرس يـــرى هاذيـــاً ::: عنـــد اعتبـــار النـــاس مـــا في يديـــه
فعـــزة العـــالم مـــن حفظـــه ::: كعـــزة المنفـــق فيمـــا عليـــه

وقال رحمه الله تعالى في غير ما سبق:

ثـــلاث مهلكـــات لا محالـــه ::: هـــوى نفـــس يقـــود إلى البطالـــه
وشـــح لا يـــزال يطـــاع دأبـــاً ::: وعجـــب ظـــاهر في كـــل حالـــه

وقال:

اللـــهو منقصـــة بصـــاحبه ::: فاحـــذر مذلـــة مـــؤثر اللـــهو
واللغـــو نـــزه عنـــه سمعـــك لا ::: تجـــنح لـــه، لا خـــير في اللغـــو

وقال:

لا تمـــالئ علـــى صـــديقك وادرأ ::: عنه ما اســـطعت مـــن أذى واهتضـــام
مـــا تناســـى الـــذمام قـــط كـــريم ::: كيف ينســـى الكـــريم رعـــي الـــذمام

تطعـــم الكلـــب مـــرة فيحـــامي ::: عنـــك، والكلـــب في عـــداد اللئـــام

وقال:

احـــذر مؤاخـــاة الـــدنيء فإنهـــا ::: عـــار يشـــين ويـــورث التضـــريرا
فالمـــاء يخبـــث طعمـــه لنجاســـة ::: إن خالطتـــه ويســـلب الـــتطهيرا

وقال:

تحفـــظ مـــن النـــاس تســـلم ولا ::: تكـــن في تقـــربهم ترغـــب
ولا تتـــرك الحـــزم في كـــل مـــا ::: تريـــد، ولا تبـــغ مـــا يصـــعب

وقال:

إخوانك اليـــوم إخـــوان الضـــرورة لا ::: تثق بهم يـــا أخـــي في قـــول أو فعـــل
لا خـــير في الأخ إلا أن يكـــون إذا ::: عرتـــك نائبـــة يقيـــك أو يســـلي

وقال:

طلـــب الإنصـــاف مـــن قلـــ ::: ة إنصـــاف فســـاهل
لا تنـــاقش وتغافـــل ::: فاللبيـــب المتغافـــل
قلمـــا يحظـــى أخـــو الإنـــ ::: صـــاف في وقـــت بطائـــل

وقال:

مـــن خافـــه النـــاس عظمـــوه ::: وأظهـــروا بـــره وشـــكره
ومـــن يكـــن فاضـــلاً حليمـــاً ::: فإنمـــا حظـــه المضـــره
فـــامرر وكـــن صـــارماً مـــبيراً ::: يهبـــك مـــن قـــد تخـــاف شـــره

وقال:

إن تبغ عدلاً فما ترضى لنفســـك مـــن ::: قول وفعل به أعمل في الـــورى تســـد
وكل مـــا لـــيس ترضـــاه لنفســـك لا ::: تفعله مـــع أحـــد تكـــن أخـــا رشـــد

وقال:

حســـبي الله لقـــد ضـــلت بنـــا ::: عن ســـبيل الرشـــد أهـــواء النفـــوس
عجبـــاً أن الهـــوى هـــون وأن ::: نـــؤثر الهـــون وإذلال الـــرءوس

وقال:

مـــن يخـــف شـــره يـــوف الكرامـــه ::: ويـــــوالى الرعايـــــة المســـــتدامه
وأخـــو الفضـــل والعفـــاف غريـــب ::: يحمـــل الـــذل والجـــف والملامـــه

وقال:

دع مـــن يســـيء بـــك الظنـــون ولا ::: تحفـــل بـــه إن كنـــت ذا همـــه
مـــن لم يحســـن ظنـــه أبـــداً ::: بـــك فاطرحـــه تكتفـــي همـــه

وقال:

نزه لســانك عــن قــول تعــاب بــه ::: وارغب بسمعك عن قيل وعــن قــال
لا تبغ غير الذي يعنيك واطــرح الـــ ::: فضــول تحيــا قريــر العــين والبــال

وقال:

كثـــرة الأصـــدقاء كثـــرة غـــرم ::: وعتـــاب يعيـــي وإدخـــال هـــم
فـــاغن بـــالبغض قانعـــاً وتغافـــل ::: عنـــهم في قبـــيح فعـــل وذم

وقال:

ذل المعاصـــي ميتـــة يـــا لهـــا ::: مـــن ميتـــة لا ينقضـــي عارهـــا
عـــز التقـــى هـــو الحيـــاة الـــتي ::: ذو العقـــل والهمـــة يختارهـــا

وقال:

لا تســـمع يومـــاً صـــديقك قـــولاً ::: فيـــه غـــض ممـــن يحـــب الصـــديق
إن بـــر الصـــديق لا شـــك منـــه ::: لصـــديق الصـــديق أيضـــاً فريـــق

وقال:

للجـــار حـــق فاعتمـــد بـــره ::: واحمـــل أذاه مغضـــياً ســـاترا
فـــالله قـــد وصـــى بـــه فـــاغتفر ::: زلـــه البـــاطن والظـــاهرا

وقال:

ســـالم النـــاس مـــا اســـتطعت وداري ::: أخســـر النـــاس أحمـــق لا يـــداري
ضـــرك النـــاس ضـــر نفســـك يجـــني ::: لا يقـــوم الـــدخان إلا لنـــار

وقال:

النصـــح عنـــد النـــاس ذنـــب فـــدع ::: نصـــح الـــذي تخـــاف أن يهجـــرك
النــــــاس أعــــــداء لنصـــــاحهم ::: فاترك هـــديت النصـــح فـــيمن تـــرك

وقال:

تجري الأمور على الـــذي قـــد قـــدرا ::: مـــا حيلـــة أبـــداً تـــرد مقـــدرا
فارض الذي يجـــري القضـــاء بـــه ولا ::: تضجر فمن عدم الرضـــى أن تضـــجرا

وقال:

أخوك الذي يحميك من الغيب جاهـــداً ::: ويستر ما تـــأتي مـــن الســـوء والقـــبح
وينشر ما يرضـــيك في النـــاس معلنـــاً ::: ويغضي ولا يألو مـــن الـــبر والنصـــح

وقال:

لا تصـــحب الأردى فتـــردى معـــه ::: وربمـــا قـــد تقتفـــي منـــزعه
فالحبـــل إن يجـــرر علـــى صـــخرة ::: أبـــدى بهـــا طريقـــة مشـــرعه

وقال:

ما فات أو كان لا تنـــدم عليـــه فمـــا ::: يفيد بعـــد انقضـــاء الحـــادث النـــدم
ارجع إلى الصبر تغـــنم أجـــره وعســـى ::: تســـلو بـــه فهـــو مســـلاة ومغتـــنم

وقال:

الســـخط عنـــد النائبـــات زيـــادة ::: في الكرب تنسي ما يكون مـــن الفـــرج
من لم يكن يرضـــى بمـــا يقضـــى فيـــا ::: لله مـــا أشـــقى وأصـــعب مـــا انتـــهج

وقال:

إن تبتـــغ الإخـــوان مـــا إن تجـــد ::: أخـــاً ســـوى الـــدينار والـــدرهم
فـــــلا تهنـــــهما وعززهمـــــا ::: تعـــش عزيـــزاً غـــير مستهضـــم

وقال:

مـــــن يســـــتهن بصـــــديقه ::: يعـــن العـــدو علـــى أذاتـــه
بـــــر الصـــــديق مهابـــــة ::: للمـــرء تخمـــل مـــن عداتـــه

فـــــاحفظ صـــــــديقك ولـــــتكن ::: تبـــــدي المحاســـــن مــــــن صـــــفاته

وقال:

نعوذ بـــالله مـــن شـــر اللســـان كمـــا ::: نعـــوذ بـــالله مـــن شـــر البريـــات
يجني اللســـان علـــى الإنســـان ميتتـــه ::: كـــم للســـان مـــن آفـــات وزلات

وقال:

مـــــن لم يكـــــن مقصـــــده مدحـــــة ::: فقـــــد أتـــــى بحبوحـــــة العافيـــــه
محبـــــة المدحـــــة رق بـــــــلا ::: عتـــــق، وذل يـــــا لــــــه داهيـــــه
مـــــن لا يبـــــالي النـــــاس مـــــدحاً ولا ::: ذمـــــاً أصـــــاب العيشـــــة الراضـــــيه

وقال:

شــــــر إخوانــــــك مــــــن لا ::: تهتـــــــدي فيـــــــه ســـــــبيلا
يظهـــــــر الـــــــود ويخفـــــــي ::: مكـــــــــره داء دخـــــــــيلا
يتقـــــــي منـــــــك اتقـــــــاء ::: وهـــــــو يوليـــــــك الجمـــــــيلا

وقال:

قـــوام العـــيش بالتـــدبير فاجعـــل ::: لعيشـــك منـــه في الأيـــام قســـطا
وخـــذ بالصـــبر نفســـك فهـــو عـــز ::: تلـــوذ بـــه إذا مـــا الخطـــب شـــطا

وقال:

العــــــيش ثلــــــث فطنــــــة ::: والغــــــير منــــــه تغافــــــل
فتغافــــــل إن كنــــــت امــــــرأ ::: إيثــــــار عيشــــــك تامــــــل

وقال:

ينفـــذ المقـــدور حتمـــاً لا يـــرد ::: فعـــلاء الحـــرص دأبـــاً والكمـــد
أرح الـــنفس تعـــش في غبطـــة ::: وكـــل الأمـــر إلى الله فقـــد

وقال:

زر مـــــن تحـــــب ثم زره ولا ::: تمـــل واجعلـــه دأبـــاً موضـــع النظـــر
لـــولا متابعـــة الأنفـــاس مـــا بقيـــت ::: روح الحياة ولا دامـــت مـــدى العمـــر

وقال:

لا تتـرك الحـزم في شـيء فـإن بـه ::: تمـام أمـرك في الـدنيا وفي الـدين
من ضيع الحـزم تصـحبه الندامـة في ::: أيامـــه ويـــرى ذل المهـــاوين

وقال:

كن إذا زرت حاضر القلـب واحـذر ::: أن تمـــل المـــزور أو أن تطـــيلا
لا تثقـــل علـــى جلـــيس وخفـــف ::: إن مـــن خـــف عـــد شخصـــاً نبـــيلا

وقال:

مـــن خـــلا عـــن حاســـد قـــد ::: مـــات في الأحيـــاء ذكـــره
إنمـــا الحاســـد كالنـــا ::: ر لعـــود طـــاب نشـــره
لا عـــدمنا حاســـداً في ::: نعمـــة ليســـت تســـره

وقال:

حبيبـــك مـــن يغـــار إذا زللتـــا ::: ويغلـــظ في الكـــلام مـــتى أســـأتا
يســـر إن اتصـــفت بكـــل فضـــل ::: ويحـــزن إن نقصـــت أو انتقصـــتا
ومـــن لا يكتـــرث بـــك لا يبـــالي ::: أحـــدت عـــن الصـــواب أم اعتـــدلتا

وقال:

لـــن لمـــن تخشـــى أذاه ::: والقـــه في بـــاب داره
إنمـــا الـــدنيا مـــدارا ::: ة فمـــن تخشـــاه داره

وقال:

حســـد الحاســـد رحمـــه ::: لا يـــرى إلا لنعمـــه
إنمـــا الحاســـد يشـــكو ::: حـــر أكبـــاد وغمـــه
لا عـــدمنا حاســـداً في ::: نعمـــة تكثـــر همـــه

وقال:

تبـــديل شـــخص بشـــخص ::: خســـران الاثـــنين جملـــه
فاشـــدد يـــديك علـــى مـــن ::: عرفـــت، وارفـــع محلـــه
فـــإن قطـــع خليـــل ::: بعـــد التواصـــل زلـــه

وقال:

أنــت بخــير مــا تركــت الظهــور ::: والقــال والقيــل وطــرق الشــرور
من خــاض بحــراً فهــو لا بــد يــب ::: تــل ومــن يجــر يصــبه العثــور
ســلامة المــرء اشــتغال بمــا ::: يهمــه لنفســه مــن أمــور

وقال:

أنــت حــر مــا تركــت الطمعــا ::: وعزيــز مــا تبعــت الورعــا
وكفــى بــالعز مــع حريــة ::: شــرفاً يختــاره مــن قنعــا

وقال:

خــل بنيــات الطــرق ::: ووافــق النــاس تفــق
مــن خــالف النــاس أتــى ::: أعظــم أبــواب الحمــق
فكــن مــع النــاس فتــر ::: ك جملــة النــاس خــرق

وقال:

لا تضــق صــدراً بحاســد ::: فهــو في نــار يكابــد
مــن يــرى أنــك خــير ::: منــه تعــروه شــدائد
إنمــا الحاســد يشــقى ::: وهــو لا يحظــى بعائــد

وقال:

من يستمع في صديق قــول ذي حســد ::: لا شك يقصيه فاحــذر غيلــة الحســد
يهابك الناس ما تــدني الصــديق فــإن ::: أقصــيته زدت للأعــداء في العــدد

وقال:

كــم مــن أخ صــحبته ::: والــنفس عنــه راغبــه
خشــيت، إن فارقتــه ::: بــالهجر، ســوء العاقبــه

وقال:

إذا كانــت عيوبــك عنــد نقــد ::: تعــد فأنــت أجــدر بالكمــال
مــتى ســلمت مــن النقــد البرايــا ::: وحســبك مــا تشــاهد في الهــلال

وقال:

إذا انطــوت القلــوب علــى فســاد ::: فــإن الصــمت ســتر أي ســتر
فــلا تنطــق وقلبــك فيــه شــيء ::: بغــير الحــق واحــذر قــول شــر

وقال:

إن كنــت لا تنصــر الصــديق فــدع ::: سماعــك القــول فيــه واجتنــب
سمــاع عــرض الصــديق منقصــة ::: لا يرتضــيها الكــريم ذو الحســب

وقال:

أنــــت في النــــاس تقــــاس ::: بالــــذي اختــــرت خلــــيلا
فاصــــحب الأخيــــار تعلــــو ::: وتنــــل ذكــــراً جمــــيلا
صــــحبة الخامــــل تكســــو ::: مــــن يواخيــــه خمــــولا

وقال:

اسمــــح يزنــــك السمــــاح ::: إن السمــــاح ربــــاح
لا تلــــق إلا ببشــــر ::: فالبشــــر فيــــه النجــــاح
تقطيبــــك الوجــــه جــــد ::: أجــــل منــــه المــــزاح

وقال:

من كنــت تعرفــه كــن فيــه متئــداً ::: يكفيك من خلقــه مــا أنــت تعرفــه
لا تبــغ مــن أحــد عرفتــه أبــداً ::: غير الــذي كنــت منــه قبــل تألفــه

وقال:

حاسب حبيبــك كالعــدو تــدم لــه ::: ولــك المحبــة، فالتناصــف روحهــا
من كان يغمــض في حقــوق صــديقه ::: نقصــت مودتــه وشــيب صــريحها

وقال:

تغافــل في الأمــور ولا تنــاقش ::: فيقطعــك القريــب وذو المــوده
مناقشــة الفــتى تجــني عليــه ::: وتبدلــه مــن الراحــات شــده

وقال:

إن شــئت تعــرف نعمــة الله الــتي ::: أولاك فانظر كــل مــن هــو دونكــا
لا تنظر الأعلــى فتنســى مــا لديــ ::: ــك ومن مــن الضــعفاء يســتجدونكا

وقال:

عجبـــاً أن تـــرى قبـــيح ســـواكا ::: وتعـــادي الـــذي يـــرى منـــك ذاكـــا
لو تناصفت كنـــت تنكـــر مـــا فيـــ ::: ك وترضـــى الوصـــاة ممـــن نهاكـــا

وقال:

جرب النـــاس مـــا اســـتطعت تجـــدهم ::: لا يرى الشخص منـــهم غـــير نفســـه
فالسعيد الســـعيد مـــن أخـــذ العفـــ ::: و وداری جميـــع أبنـــاء جنســـه

وقال:

فرط حـــب الشـــيء يعمـــي ويصـــم ::: فلـــيكن حبـــك قصـــداً لا يصـــم
نقص عقل أن يغطـــي حســـك الحـــ ::: ب أو يلـــهيك عـــن أمـــر مهـــم

وقال:

ســـلم وغـــض احتســـابا ::: فـــذا هـــو اليـــوم أســـلم
النقـــد نـــار تخلـــي ::: في القلـــب جمـــراً تضـــرم
فـــاطو اعتراضـــك واغفـــل ::: عـــن عيـــب غـــيرك تســـلم

وقال:

عـــدة الكـــريم عطيـــة ::: لا مطـــل في عـــدة الكـــريم
المطـــل تحـــريض العـــدا ::: ة، وذاك مـــن فعـــل اللئـــيم
فـــدع المطـــال إذا وعـــد ::: ت فإنـــه عمـــل ذمـــيم

وقال:

مـــن تناســـى ذنوبـــه قتلتـــه ::: وأبانـــت عنـــه الـــولي الحميمـــا
ذكـــرك الـــذنب نفـــرة عنـــه تبقـــي ::: لـــك إنكـــار فعلـــه مســـتديما

وقال:

عجبـــاً لمـــادح نفســـه لا يهتـــدي ::: لتـــنقص يبديـــه فيـــه مـــدحها
مدح الفـــتى عنـــد التحـــدث نفســـه ::: ذكـــرى معايبـــه فيـــدرى قبحهـــا

وقال:

من حسنت أخلاقه عاش في ::: نعمى وفي عز هنيء وود
ومن تسؤ للخلق أخلاقه ::: يعش حقيراً في هموم وكد

وقال:

من كان يحمي ناسه صار ذا ::: عز وهابته نفوس البشر
ومن يكن يخذل أحبابه ::: هان، ومن هان فلا يعتبر

وقال:

قارب وسدد إذا ما كنت في عمل ::: إن الزيادة في الأعمال نقصان
ما حالف القصد في كل الأمور هوى ::: نفس، وكل هوى شؤم وحرمان

وقال:

بقدر همته يعلو الفتى أبداً ::: لا خير في خامل الهمات ممتهن
هيهات يعلو فتى خمول همته ::: يقوده لابتذال النفس والمهن

وقال:

اصحب ذوي الحدة وارغب عن الـ ::: خبيث فالصحبة ذاك داؤها
وانظر إلى قول نبي الهدى ::: خيار أمتي أحداؤها

قال:

ما صديق الإنسان في كل حال ::: يا أخي غير درهم يقتنيه
لا تعول عن سواه فتغدو ::: خائب القصد دون ما تبتغيه

وقال:

يستفز الهوى للإنسان حتى ::: لا يرى غير محنة أو ضلال
ويرى الرشد غير الرشد، ويغدو ::: يحسب الحق من ضروب المحال

وقال:

لا تبالغ في الشر مهما استطعتا ::: وتغافل واحلم إذا ما قدرتا
فانقلاب الأمور أسرع شيء ::: وتجازى بضعف ما قدرتا

وقال:

مثل عواقب ما تأتي وما تذر ::: واحذر فقد ترتجي أن ينفع الحذر
لا تقدمن على أمر بلا نظر ::: فإن ذلك فعله كله خطر
وانظر وفكر لما ترجو توقعه ::: فعمدة العاقل التفكير والنظر

وقال:

حافظ على نفسك من كل ما ::: يشينها من خلل أو زلل
واحرص على تخليصها بالذي ::: تنجو به من قول أو من عمل

وقال:

سكر الولاية ما له صحو ::: وكلامها وحراكها زهو
يهذي الفتى أيام عزتها ::: فإذا تقضت نابه شجو
فحذار لا تغررك صولتها ::: وزمانها فثبوتها محو

وقال:

دع الجدال ولا تحفل به أبدا ::: فإنه سبب للبغض ما وجدا
سلم تعش سالماً من غير متعبة ::: قرير عين إذا لم تعترض أحدا

وقال:

إذا ترى المبتلى اشكر أن نجوت ولا ::: تشمت به ولتسل من ربك العافيه
وخف من أن تبتلى كما ابتلي فترى ::: كما تراه وما تقيك من واقيه

وقال:

العمر ساعات تقضى فلا ::: تقضها في السهو والغفله
واعمل لما أنت له صائر ::: ما دمت من عمرك في مهله
ولا تكن تأوي لدينا وقل ::: لا بد لا بد من النقله

وقال:

كن رفيقاً إذا قدرت حليما ::: وتغافل تسلك طريقاً قويما
لا تظن الزمان يبقي على من ::: سره أو ينيل عزاً سليما
إن للدهر صولة وانقلاباً ::: ولهذا نعيمه لن يدوما

وقال:

مـــن لم يكـــن ينفـــع في الشـــده ::: فـــــلا تكـــــن معتمــــــداً وده
لا تعتمـــــد إلا أخـــــا حرمـــــة ::: إن نــــاب خطـــب تلفـــه عـــده
وخـــــل مـــــن يهــــزأ في وده ::: ولا تـــــرى في معضـــــل جـــــده

وقال:

أخوك الـــذي تلفيـــه في كـــل معضـــلٍ ::: يدافع عنك الســـوء بالمـــال والعـــرض
ويستر مــــا تــــأتي مــــن القــــبح دائمــــاً ::: وينشر ما يرضـــي وإن ســـؤته يغضـــي

وقال:

لا تنـــــه عمـــــا أنـــــت فاعلـــــه ::: وانظـــــر لمـــــا تأتيـــــه مـــــن ذنـــــب
وابـــــدأ بنفســـــك فانهها فـــــإذا ::: تقفـــو الصـــواب فأنـــت ذو لـــب

وقال:

ليس الصديق الـــذي يلقـــاك مبتســـماً ::: ولا الذي في التـــهاني بالســـرور يـــرى
إن الصـــديق الـــذي يـــولي نصـــيحته ::: وإن عـــرت شـــدة أغـــنى بمـــا قـــدرا

وقال:

عجبـــاً لمســـتوف منـــافع نفســـه ::: ويـــرى منـــافع مـــن ســـواه تصـــعب
مـــا ذاك إلا عـــدم إنصـــاف ومـــن ::: عدم التناصف كيف يرجـــو يصـــحب

وقال:

مـــــن عـــــدم الهمـــــة في راحـــــة ::: مـــــن أمـــــره يكـــــرم أو يهتضـــــم
وإنمـــــا يشـــــقى أخـــــو همـــــة ::: فـــــإن الانكـــــاد بقـــــدر الهمـــــم

وقال:

قلمـــــا تنفـــــع المـــــداراة إلا ::: عنـــد أهـــل الحفـــاظ والأحســـاب
من يداري اللئيم فهـــو كمـــن يســـ ::: تعمـــل الـــدر في نحـــور الكـــلاب

وقال:

دنيــــاك هــــذي عــــرض زائــــل ::: تفـــــتن ذا الغـــــرة والغفلـــــه
فاعمــــل لأخــــراك وقــــدم لهــــا ::: مـــا دمـــت مـــن عمـــرك في مهلـــه

وقال:

نصيحة الصديق كنز فلا ::: ترد ما حييت نصح الصديق

وخذ من الأمور ما ينبغي ::: ودع من الأمور ما لا يليق

وقال:

أنت حر ما لم يقيدك حب ::: أو تكن في الورى يرى لك ذنب

الهوى كله هوان وشغل ::: والمعاصي ذل يعانى وكرب

وقال:

هون عليك الأمورا ::: تعش هنيئاً قريرا

واعلم بأن الليالي ::: تبلي جديداً خطيرا

وتستبيح عظيماً ::: ولا تجير حقيرا

وقال:

ألف صديق قليل ::: والود منهم جميل

كما عدو كثير ::: إذ ضره لا يزول

فلا تضيع صديقاً ::: فالنفع فيه جليل

وقال:

دع الحسود تعاتبه لظى حسده ::: حتى تراه لقى يموت من كمده

ما للحسود سوى الإعراض عنه وأن ::: يبقى إلى كربه في يومه وغده

وقال:

الناس حيث يكون الجاه والمال ::: فخل عنك ولا تحفل بما قالوا

وعد عمن يقول العلم قصدهم ::: أو الصلاح أما تبدو له الحال

انظر لماذا هم يسعون جهدهم ::: يبن لك الحق ولا يعروه إشكال

وقال:

توسط في الأمور ولا تجاوز ::: إلى الغايات فالغايات غي

كلا الطرفين مذموم إذا ما ::: نظرت وأخذك المذموم عي

وقال:

عامـــل جميـــع النـــاس بالحســـنى ::: إن شـــئت أن تحظـــى وأن تهنـــا
ولا تســـئ يومـــاً إلى واحـــد ::: فتجمـــع الراحـــة والأمنـــا

وقال:

لا تفكـــر فللأمـــور مـــدبر ::: وارض مـــا يفعـــل المهـــيمن واصـــبر
أنـــت عبـــد وحكـــم مـــولاك يجـــري ::: بالـــذي قـــد قضـــى عليـــك وقـــدر

وقال:

إذا رأيـــت القبيحـــا ::: فقـــل كلامـــاً مليحـــا
وأغـــض واســـتر وســـلم ::: وكـــن حليمـــاً صـــفوحا
تعـــش هنيئـــاً وتلقـــى ::: بـــرًّا وشـــكراً صـــريحا

وقال:

مـــن ينكـــر الإحســـان لا تولـــه ::: ما عشـــت إحســـاناً فـــلا خـــير فيـــه
البـــذر في الســـباخ مـــا إن لـــه ::: نفـــع فـــذره فهـــو فعـــل الســـفيه

وقال:

مـــن لم يكـــن ينفـــع في وده ::: دعـــه ولا تقـــم علـــى عهـــده
ود بـــلا نفـــع عنـــاء فـــلا ::: تعـــن بشـــيء حـــاد عـــن حـــده

وقال:

در مـــع الـــدهر كيفمـــا ::: دار إن شـــئت تصـــحبه
ودع الحـــذق جانبـــاً ::: لـــيس بالحـــذق تغلبـــه
وحـــذار انقلابـــه ::: فكـــثير تقلبـــه

وقال:

من لـــيس يغـــني في مغيـــب عنـــك لا ::: تحفـــل بـــه فـــوداده مـــدخول
يـــثني عليـــك وأنـــت معـــه حاضـــر ::: فـــإذا تغيـــب يكـــون عنـــك يميـــل

وقال:

دع نصـــح مـــن يعجبـــه رأيـــه ::: ومـــن يـــرى ينجحـــه ســـعيه
النصـــح إرشـــاد فـــلا تولـــه ::: إلا فـــتى يحزنـــه غيـــه

لا يقبـــل النصـــح ســـوى مهتـــد ::: يقـــــوده لرشـــــده هديـــــه

وقال:

البخت أفضل ما يـؤتى الفـتى فـإذا ::: يفوتـه البخـت لا ينفـك يتضـع
يكفيك في البخـت تيسـير المـور وأن ::: يكون ما ليس ترضـى عنـك ينـدفع

وقال:

افعل الخير ما اسـتطعت ففعـل الـ ::: ـخـير ذكـر لفاعليـه وذخـر
وتواضـع تنـل عـلاء وعـزًّا ::: فاتضـاع النفـوس عـز وفخـر

وقال:

صـديق المـرء درهمـه ::: بـه مـا دام يعظمـه
فصـنه مـا اسـتطعت ولا ::: تكـن في اللـهو تعدمـه
ففقـر المـرء ميتتـه ::: لـذا تغـدو فترحمـه

وقال:

لا تقرب مـا اسـطعت خـل عـدو ::: فخليـل العـدو حلـف عـداوه
وتحفـظ منـه وداره وانظـر ::: هل تـرى مـن سـيماه إلا القسـاوة

وقال:

لا تعد ذكـر مـا مضـى فهـو أمـر ::: قـد تقضـى وقـد مضـى لسـبيله
وتكلـم فيمـا تريـد مـن الآ ::: تِي ودبـر للشـيء قبـل حلولـه

وقال:

قسـاوة المـرء مـن شـقائه فـإذا ::: يلـين سـاد بـلا أيـن ولا نصـب
لا يـرحم الله إلا الـراحمين، فمـن ::: يرحم ينـل رحمـة في كـل منقلـب

وقال:

جئ بالسماح إذا ما جئـت في غـرض ::: ففي العبوس لدى الحاجـات تصـعيب
سماحـة المـرء تـنبي عـن فضـيلته ::: فلا يكن منك مهما اسـطعت تقطيـب

وقال:

لا تسامح يوماً دنياً إذا ما ::: قال في فاضل كلاماً رديا
إن قصد الدني إنزال أهل الـ ::: فضل حتى يرى عليهم عليا

وقال:

خذ من القول بعضه فهو أولى ::: وتحفظ مما يقول العداة
ربما تأخذ الكلام بجد ::: وهو هزل قد نمقته عدات
فاحترز من غرور الأقوال واعلم ::: أن الأقوال بعضها كذبات

وقال:

نافس الأخيار كيما ::: تحرز المجد الأثيلا
لا تكن مثل سراب ::: ريء لم يشف غليلا
إنما أنت حديث ::: فلتكن ذكراً جميلا

وقال:

الصمت عز حاضر ::: وسلامة من كل شر
فإذا نطقت فلا تك ::: ثر واجتنب قول الهذر
وحذار مما يتقى ::: وحذار من طرق الغرر

وقال:

سلامة الإنسان في وحدته ::: وأنسه فيها وفي حرفته
ما بقي اليوم صديق ولا ::: من ترتجي النصرة في صحبته
فقر في بيتك تسلم ودع ::: من ابتلي بالناس في محنته

وقال:

مطاوعة النساء إلى الندامه ::: وتوقع في المهانة والغرامه
فلا تطع الهوى فيهن واعدل ::: ففي العدل الترضي والسلامه

وقال:

كانت مشاورة الإخوان في زمن ::: قول المشاور فيهم غير متهم
والآن قد يخدع الذي تشاوره ::: إشماتاً أو حسداً يلقيك في الندم
فاضرع إلى الله فيما أنت تقصده ::: يهديك للرشد في الأفعال والكلم

وقال:

عـــد عمـــن يـــراك تصـــغر عنـــه ::: وتحفـــــظ مـــــن قربـــــه وأبنـــــه
إن مـــن لا يـــراك في النـــاس خـــيراً ::: منـــــه فـــــالخير في الـــــتحفظ منـــــه

وقال:

رزانـــة المـــرء تعلـــي قـــدره أبـــداً ::: وطيشـــه مســـقط لـــه وإن شـــرفا
فاربأ بنفسك مـن طـيش تعـاب بـه ::: وإن تكن حزت معه العلـم والشـرفا

وقال:

الصدق عز فلا تعـدل عـن الصـدق ::: واحذر من الكذب المـذموم في الخلـق
من لازم الصدق هابته الـورى وعـلا ::: فالزمـه دأبـاً تفـز بـالعز والسـبق

وقال:

ليس التفضـل يـا أخـي أن تحسـنا ::: لأخ يجـازي بالجميـل مـن الثنـا
إن التفضـل أن تجـازي مـن أسـا ::: لك بالجميـل وأنـت عنـه في غـنى

وقال:

مـن واصـل اللـذات لا بـد أن ::: تعقبـــه منـــها النـــدامات
فخـذ مـن اللـذات واتـرك ولا ::: تسـرف ففـي الإسـراف آفـات

وقال:

دع معجبـــاً بنفســـه ::: في غيـــه ولبســـه
لا يقبـــل النصـــح لهـــا ::: مـــن نخـــوة برأســـه
فخلـــه لكيـــده ::: وعجبـــه بنفســـه

وقال:

عتـــب الصـــديق دلالـــة ::: منـــه علـــى صـــدق المـــودة
فـــإذا يقـــول فقصـــده الـــ ::: تنـــزيه عمـــا قـــام عنـــده
فـــاحلم إذا عتـــب الصـــديق ::: ولا تخيـــب فيـــك قصـــده

وقال:

ترتجـــى في النوائـــب الإخـــوان ::: هـــم لـــدى كـــل شـــدة أعـــوان
فـــإذا لم يشـــاركوا فســـواء ::: هـــم والأعـــداء كيفمـــا قـــد كـــانوا

وقال:

انصـــر أخـــاك علـــى علاتـــه أبـــداً ::: تهب وتســـلك ســـبيل العـــز والظفـــر
ولا تدعـــه إلى الإشمـــات مطرحـــاً ::: فـــإن ذلـــك عـــين الـــذل والصـــغر

وقال:

من عـــز كانـــت لـــه الأيـــام خادمـــة ::: تريـــه آمالـــه في كـــل مـــا حـــين
ومن يهن أولغـــت فيـــه المـــدى وأرت ::: لـــه النوائـــب في أثوابهـــا الجـــون

وقال:

خـــل المـــنجم يهـــذي في غوايتـــه ::: واقصـــد إلى الله رب الـــنجم والفلـــك
لو كان للـــنجم حكـــم لم تجـــد أحـــداً ::: يخـــالف الـــنجم إلا الهـــد في درك

وقال:

حمايـــة المـــرء لمـــن يصـــحب ::: تـــدل أن أصـــله طيـــب
لا خـــير فـــيمن لا يـــرى ناصـــراً ::: صـــديقه وهـــو لـــه ينســـب

وقال:

يـــا عاتبـــاً مـــن لا لـــه همـــة ::: ألا اتئـــد إلى مـــتى تعتـــب
هل يســـمع الميـــت أو يبصـــر الـــ ::: أعمـــى محـــال كـــل مـــا تطلـــب

وقال:

لا يعـــرف الفضـــل لأهـــل الفضـــل ::: إلا أولو الفضـــل مـــن أهـــل العقـــل
هيهات يدري الفضل مـــن لـــيس لـــه ::: فضل، ولو كـــان مـــن أهـــل النبـــل

وقال:

لا تطلـــب المـــرء بمـــا اعتـــدت مـــن ::: أخلاقـــه والمـــرء في وهـــن
تنتقـــل الأخـــلاق لا شـــك مـــع ::: تنقـــل الحـــالات والســـن

وقال:

لا تعامل ما عشت غيرك إلا ::: بالذي أنت ترتضيه لنفسك
ذاك عين الصواب فالزمه ::: فيما تبتغيه من كل أبناء جنسك

وقال:

لا تعظم يا أخي نفـ ::: ـسك إن شئت السلامه
من يعظم نفسه يجـ ::: ـن امتهاناً وملامه
فتواضع تلق عزاً ::: واحتفاء وكرامه

وقال:

دع لذة الدنيا فمن يبتلي ::: بحبها ذاق عذاب السموم
لذاتها حلم، وأيامها ::: لمح، ولكن كم لها من هموم
محبة الدنيا هلاك، فمن ::: يرومها أهلكه ما يروم

وقال:

كل خل يعد ما أنت تخطي ::: لا تعول على صفاء وداده
إنما الخل من تناسى خطايا ::: ك ويبقى له جميل اعتقاده

وقال:

من عامل الناس بالإنصاف شاركهم ::: في مالهم وأحبوه بلا سبب
إنصافك الناس عدل لا تزال به ::: تعلو إلى أن ترى في أرفع الرتب

وقال:

قل جميلاً إن تكلمت ولا ::: تقل الشر فعقبى الشر شر
من يقل خيراً ينل خيراً، ومن ::: يقل الشر إذاً يخشى الضرر

وقال:

إذا التأمت أمورك بعض شيء ::: بأرضك فاستقم فيها ولازم
فما في غربة الإنسان خير ::: وما بالغربة الدنيا تلايم

وقال:

إلى متى تسرح مرخى العنان ::: قل يا أخي حتى متى ذا الحران
ارجع إلى الله وخل الهوى ::: فما الهوى يا صاح إلا هوان

قــد أنــذر الشــيب فهــل ســامع ::: أنــت فمصــغ للــذي قــد أبــان

وقال:

مــن يكفــر النعمــة لا بــد أن ::: يســلبها مــن حيــث لا يشــعر
ومــن يكــن يشــكرها معلنــاً ::: دامــت لــه ناميــة تكثــر

وقال:

اعــذر أخــا الفقــر في أن ::: يضــيق ذرعــاً بنفســه
الفقــر مــوت، ولكــن ::: مــن للفقــير برمســه
إن الفقــير لميــت ::: مــا بــين أبنــاء جنســه

وقال:

كمــا تــدين أنــت يــا صــاحبي ::: تــدان فاعمــل عمــل الفاضــل
أنــت كمــا أنــت فخــل الــذي ::: تــزين الــنفس مــن الباطــل
وأيــن أنــت ثم أنــت أدر ذا ::: حســبك فاحــذر زلــل العاقــل

وقال:

مالــك مــا أنفقتــه قربــة ::: لله، والبــاقي حســاب عليــك
فقــدم المــال تــرد آمنــاً ::: مــن بعــده وهــو ثــواب لــديك

وقال:

دع مدح نفســك إن أردت زكاءهــا ::: فبمدح نفسك مــن مقامــك تســقط
مــا أنــت تخفضــها يزيــد علاؤهــا ::: والعكس، فــانظر أيمــا لــك أحــوط

وقال:

ذو الــنقص يصــحب مثلــه ::: فالشــكل يــألف شــكله
فاصــحب أخــا الفضــل كيمــا ::: تقفــو بفعلــك فعلــه
أمــا تــرى المســك دأبــاً ::: يكســب طيبــاً محلــه

وقال:

من عــيني المــرء يبــدو مــا يكتمــه ::: حــتى يكــون الــذي يرعــاه يفهمــه
ما يضــمر المــرء يبــدو مــن شمائلــه ::: لنــاظر فيــه يهديــه توسمــه

وقال:

إنما الدنيا خيال ::: وأمانيها خبال
حبها سكر، ولكن ::: وصلها ما أن ينال
فتنزه عن هواها ::: فهوى الدنيا ضلال

وقال:

قلما يؤذيك من لا يعرفك ::: فتحفظ من صديق يألفك
لا تثق بالود ممن تصطفي ::: كم صديق تصطفيه يتلفك

وقال:

لا تضجرن بالأمور وارض بما ::: يقضي به الله فهو مكتتب
ما قدر الله لا مرد له ::: فما يفيد العناء والتعب

وقال:

تنزه عن دنيات الأمور ::: وخذ بالحزم في الأمر الخطير
فأشراف الأمر لها جمال ::: وخطر في البهاء وفي الظهور
وفي سفسافها لا شك وهن ::: وتمهين يشين مدى الدهور

وقال:

من يبتلى من أهله بمنغص ::: يصبر، فما أحد بغير منغص
من أزمنت بالوجه منه قرحة ::: يعزم على ضرر يشين مخصص

وقال:

من كان في عزته داره ::: وكرر المشي إلى داره
قبل يدًا تعجز عن قطعها ::: ولن لمن تخشى من أضراره

وقال:

لا تبتغ النعمة من جائع ::: لم يرها قبل لآبائه
لا يرشح الإناء ما لم يكن ::: ملآن قد أفعم من مائه

وقال:

مـــــروءة المـــــرء رأس مالـــــه ::: وصـــــونه أشـــــرف اعتمالـــــه
مـــن لم يصـــن نفســـه تـــردى ::: وزال عـــن رتبـــة اكتمالـــه

وقال:

تـــــرك المطـــــامع عـــــزه ::: واليـــــأس أهنـــــا وأنـــــزه
هيهـــــات يعتـــــز مثـــــر ::: أضـــــحى للأطمـــــاع نهـــــزه
نزاهـــــة الـــــنفس عـــــز ::: مـــــا ذل مـــــن يتنـــــزه

وقال:

تعظيمك النـــاس تعظـــيم لنفســـك في ::: قلـــوب الأعـــداء طـــرًّا والأوداء
من يعظم الناس يعظم في النفـوس بـلا ::: مؤونـــة وينـــل عـــز الأعـــزاء

وقال:

اقنـــع مـــن النـــاس بمقـــدار مـــا ::: يعطـــون لا تبتـــغ منـــهم مزيـــد
حسبك مـــن كـــل امـــرئ قـــدر مـــا ::: يعطيـــك فالأطمـــاع مـــا إن تفيـــد

وقال:

لـــن إذا كانـــت الأمـــور صـــعابا ::: وتواضـــع لهـــا تجـــدها قرابـــا
دار من شـئت تنتفـع منـه واتـرك ::: صـولة الكـبر فهـي تجـني عـذابا
لا تكـــن تأخـــذ الأمـــور بعنـــف ::: مـــن يعـــاني الأمـــور بـــالعنف خابـــا

وقال:

ســـامح النـــاس إن أســـاؤوا إليكـــا ::: وتغافـــل إذا تجنـــوا عليكـــا
ما ترى كيـف أنـت تعصـي ومـولا ::: ك يزيـــد الإنعـــام دأبـــاً لـــديكا

وقال:

اغتـــنم ســـاعة الأنـــس ::: وانـــس مـــا كـــان بـــالأمس
لـــيس للمـــرء مـــن الـــدن ::: يـــا ســـوى راحـــة نفـــس
مـــن يكـــن حلـــف همـــوم ::: بـــاع دنيـــاه بـــبخس

وقال:

حبـــك الشـــيء يغطـــي قبحـــه ::: فتـــراه حســـناً في كـــل حـــال

لا يــــرى المحبــــوب إلا حســــناً ::: كــان قــبح فيــه مــع ذا أو جمــال
حــتم الحــب علــى ذي الحــب أن ::: لا يــرى المحبــوب إلا في كمــال

وقال:

يحســب النــاقص أن النــاس قــد ::: غفلــوا عــن حالــه في ضــعته
لا يــرى النــاقص إلا أنــه ::: كامــل مــن نعتــه في صــفته
غلــط المــرء يغطــي عقلــه ::: أن يــرى الــنقص الــذي في جهتــه

وقال:

أيــام عمــرك هــذي ::: ســاعاتها رأس مالــك
فــاحرص علــى الخــير فيهــا ::: قبــل أوان ارتحالــك
فإنمــا أنــت طيــف ::: تجتــاب ســبل المهالــك

وقال:

تجــد النــاس علــى الــنقص ولا ::: تجــد الكامــل إلا مــن ومــن
زمــن الباطــل وافى أهلــه ::: وكــذاك النــاس أشــباه الــزمن

وقال:

قــل جميــلاً إذا أردت الكلامــا ::: تجــن عــزاً مهنــأ مســتداما
إن قــول القبــيح يــورث بغضــاً ::: وصــغاراً عنــد الــورى وملامــا

وقال:

حســن الظــن تعــش في غبطــة ::: إن حسن الظــن مــن أوقــى الجــنن
مــن يظــن الســوء يجــزى مثلــه ::: قلمــا يجــزى قبــيح بحســن

وقال:

إن تبــغ إخــوان الصــفاء فهــم ::: تحــت التــراب انتقلــوا للقبــور
إخوانــك اليــوم كأزمــانهم ::: مشــتبهون في جميــع الأمــور

وقال:

ومســتقبح مــن أخ خلــة ::: وفيــه معايــب تســترذل
كــأعمى يخــاف علــى أعــور ::: عثــاراً وعــن نفســه يغفــل

وقال:

مـــن يبتـــغ الـــود مـــن النـــاس ::: يكـــن لمـــا قـــالوه بالناســـي
أغـــض عـــن النـــاس تنـــل ودهـــم ::: إنـــك لا تغـــنى عـــن النـــاس

وقال:

أعيـــت مـــع النـــاس الحيـــل ::: وبـــار فـــيهم العمـــل
في أي وجـــه أملـــوا ::: يخيـــب منـــهم الأمـــل
فـــآثر العزلـــة عنـــ ::: ـهـــم تـــنج مـــن كـــل خلـــل

وقال:

لا تـــرج غـــير الله في شـــيء تنـــل ::: مـــا تبتغيـــه وتكـــف كـــل تخـــوف
الله أعظـــم مـــن رجـــوت فثـــق بـــه ::: فهو الذي أعطـــى وأنجـــى مـــن كفـــي

وقال:

توســـل إلى الله في كـــل مـــا ::: تحـــب بمحبوبـــه المصـــطفى
تنـــل مـــا تحـــب كمـــا تبتغـــي ::: وحســـبك جاهـــاً بـــه وكفـــى

انتهى ما لخصت واخترت من الكتاب المذكور.

وهذه نبذة من كتابه " الأبيات المهذبة في المعاني المقربة " فمن ذلك قوله:

اكتم الســـر واجعـــل الصـــدر قـــبره ::: لا تـــبح مـــا حييـــت منـــه بـــذره
أنـــت مـــا لم تـــبح بســـرك حـــر ::: فـــإذا بحـــت صـــرت عبـــداً بمـــره
مـــن يـــرد أن يعـــيش عيشـــاً هنيئـــاً ::: يـــتحفظ ممـــا عســـى أن يضـــره

وقال:

عـــداوة العاقـــل مـــع عســـرها ::: آمـــن مـــن صـــداقة الأحمـــق
يمكـــن الأحمـــق مـــن نفســـه ::: عمـــداً ومـــن أحبابـــه يتقـــي
لا يحفـــظ الأحمـــق خـــلاً ولا ::: يرضـــاه للصـــحبة إلا شـــقي

وقال:

إذا أمعنـــت في الـــدنيا اعتبـــاراً ::: رأيـــت ســـرورها رهـــن انتحـــاب

بعـــاد عـــن تـــدان، وافتقـــار ::: عن اســتغنا، وشــيب عــن شــباب
حيـــاة كلـــها أضـــغاث حلـــم ::: وعـــيش ظلـــه مثـــل الســـراب

وقال:

مـــن تـــره يســـرف مالـــه ::: يتلفـــه في لـــــذة وانهمـــاك
فـــذلك المغبـــون في رأيـــه ::: يســـلك بـــالنفس ســـبيل الهـــلاك

وقال:

مـــن لا يـــرى في النـــاس قاصـــرة ::: عـــن الكمـــالات لم يكمـــل لـــه أدب
ومن يكن راضـــياً عـــن نفســـه أبـــداً ::: فـــذاك غـــر عـــن الآداب محتجـــب
آداب الإنســـان تحقيقـــاً تواضـــعه ::: وجريـــه دائمـــاً علـــى الـــذي يجـــب

وقال:

يحـــق الحـــق حتمـــاً دون شـــك ::: وإن كـــره المشـــكك والملـــد
صـــريح الحـــق قـــد يخفـــى ولكـــن ::: بعيـــد خفائـــه لا شـــك يبـــدو

وقال:

كـــل مـــا قـــد فـــات لا رد لـــه ::: فلـــتكن عـــن ذاك مصـــروف الطمـــع
أيعـــود الحســـن مـــن بعـــد الصـــبا ::: قلمـــا أدبـــر شـــيء فرجـــع

وقال:

اغتـــنم غفلـــة الزمـــان وبـــادر ::: لـــذة العـــيش مـــا بقيـــت ســـليما
أمـــر هـــذي الحيـــة أيســـر مـــن أن ::: تغتـــدي فيـــه لائمـــاً أو ملومـــا

وقال:

لا تغرنـــك صـــولة الجـــاه يومـــاً ::: أو تظـــنن أنهـــا تتمـــادى
صـــولة الجـــاه لفـــح نـــار ولكـــن ::: كـــل نـــار لا بـــد تلفـــى رمـــادا

وقال:

تـــنح عـــن النـــاس مهمـــا اســـتطعت ::: ولا تـــك في النـــاس راغـــب
مـــن اعتمـــد النـــاس يشـــقى ولا ::: يـــرى غـــير منتقـــد عائـــب

وقال:

لا تقـــل يومـــاً أنـــا ::: فتقاســـي محنـــا
مـــن يعظـــم نفســـه ::: يلـــق هونـــا وعنـــا
شـــر مـــا يـــأتي الفـــتى ::: مدحـــه لـــو فطنـــا

وقال:

الناس إخوان ذي الـدنيا وإن قبحـت ::: أفعالـه، وغـدا لا يعـرف الـدنيا
يعظمـون أخـا الـدنيا وإن عثـرت ::: يومـاً بـه أولغـوا فيـه السـكاكينا

وقال:

العدل روح بهـا تحيـا الـبلاد كمـا ::: هلاكهـا أبـداً بـالجور ينحـتم
الجـور شـين بـه الـتعمير منقطـع ::: والعـدل زيـن بـه التمهيـد ينـتظم
يا قاتل الله أهل الجـور كـم خربـت ::: بهم بـلاد وكـم بـادت بهـم أمـم

وقال:

اليـــأس أســـلى وأغـــنى ::: مـــن نيـــل مـــا يـــتمنى
يســـلو أخـــو اليـــأس حـــتى ::: يهنـــا ولا يعـــنى
لليـــأس بـــرد فمـــن لم ::: يذقـــه لم يتـــهنا

وقال:

إذا عظمت نفس امـرئ صـار قـدره ::: حقيراً، وحيث احتل فالـذل صـاحبه
يسـود ويعلـو ذو التواضـع دائمـاً ::: ويحظى كما يرضـى وتقضـى مآربـه

وقال:

ود مـن يصـطفيك للنفـع زور ::: والجميـل الـذي يريـك غـرور
إنمـا الـود ود مـن لـيس يخشـى ::: فيـك ممـن يلـوم أو مـن يضـير

وقال:

اشـكر لمـن والاك معروفـا ::: تكـن بفضـل الـنفس معروفـا
شـكر أخـي المنـة عـدل فكـن ::: بالعـدل مهمـا اسـطعت موصـوفا
مـن يكفـر الإحسـان لا بـد أن ::: يلفـى عـن الإحسـان مصـروفا

وقال:

حسب الإنسان ماله ::: وهو في الدنيا كماله
يضجر الفقر أخا الحـ ::: ـلم وإن طال احتماله
عزة المرء غناه ::: وبه تحسن حاله

وقال:

لا تصاحب أبداً من ::: عقله غير متين
إن نقص العقل داء ::: يتقى مثل الجنون
صحبة الأحمق عار ::: لاحق في كل حين

وقال:

وافق الناس إن أردت السلامه ::: إن روح الوفاق روح كرامه
من يوافق يعش هنيئاً قريراً ::: آمناً من أذية وملامه
فتوق الخلاف واحذر أذاه ::: فركوب الخلاف عمداً ندامه

وقال:

ظلمات الخطوب مهما ادلهمت ::: يجلها كالصباح فجر انفراج
أرح النفس لا تبت حلف هم ::: كم هموم فيها السرور يفاجي

وقال:

من لم يكن يقصد أن يحمدا ::: يعش هنيئاً وينل أسعدا
من يبتغي المدحة لا بد أن ::: يلحقه الذل وأن يجهدا
عيش الفتى في ترك تقييده ::: وموته البحت إذا قيدا

وقال:

قل لأهل الحاجات مهما ابتغوها ::: حسبكم ما أتى من التنبيه
إن تريدوا الحاجات من غير بطء ::: فاطلبوها عند الحسان الوجوه

وقال:

خذ الأمور برفق واتئد أبداً ::: إياك من عجل يدعو إلى وصب
الرفق أحسن ما تؤتى الأمور به ::: يصيب ذو الرفق أو ينجو من العطب

من يصحب الرفق يستكمل مطالبه ::: كما يشاء بلا أين ولا تعب

وقال:

من يبتغي السؤدد لا بد أن ::: يرهقه الجهد فلا يضجر
يصعب إدراك المعالي فمن ::: يرم لحاق بعضها يصبر
لا يحصل السؤدد هيناً ولا ::: يظفر بالبغية إلا جري

وقال:

عاش في الناس من درى قدر نفسه ::: ثم دارى جميع أبناء جنسه
علم الإنسان قدره نبل عقل ::: وذكاء يبين عن فضل حدسه

وقال:

عظم الناس تنل تعظيمهم ::: واجتنب تحقيرهم فهو الردى
من ير الناس بتحقير يكن ::: عندهم مؤذى حقيراً أبدا
لا يغرنك إهمال امرئ ::: ربما يؤذي الذباب الأسدا

وقال:

حب الرياسة يا له من داء ::: كم فيه من محن وطول عناء
طلب الرياسة فت أعضاد الورى ::: وأذاق طعم الذل للكبراء
إن الرياسة دون مرتبة التقى ::: فإذا اتقيت علوت كل علاء

وقال:

لا تركنن إلى بشر ::: إن شئت تأمن كل شر
ذهب الذين إذا ركنـ ::: ـت لهم أمنت من الضرر
لم يبق إلا شامت ::: أو من يضر إذا قدر

وقال:

خل رأي الجهال ما اسطعت واتبع ::: رأي أهل الحلوم والتجريب
لا تحد عن مشورة في مهم ::: فهي مما تنمي حياة القلوب
رأي أهل الصلاح نور يجلي ::: ظلمة الكرب في ليالي الخطوب

وقال:

لا يرتضـــي بالـــدون إلا امــرؤ ::: مقصــــر ذو همــــة خاملـــه
المـــوت خـــير مـــن حيـــاة الفـــتى ::: مهتضــــماً ذا رتبــــة ســـافله
روح حيـــاة المـــرء مـــن عـــزه ::: مـــن ذل مـــات الميتـــة العاجلـــه

وقال:

اســـــتغن عمـــــن تشـــــاء ::: فـــــالله يغنيـــــك عنـــــه
مـــن أمـــل النـــاس يشـــقى ::: ولـــــيس يقنـــــع منـــــه
فـــإن ظفـــرت بحـــر ::: فـــاحفظ عليـــه وصـــنه

وقال:

خذ من صـديقك قـدر مـا يعطيكـا ::: لا تبـغ أزيـد واحـذر أن يجفوكـا
مـن يبـغ مقـدار الـذي يحتاجـه ::: مـن أخيـه يبـق مخيبـاً متروكـا
شأن الألى رزقـوا الحجـى أن يقنعـوا ::: فـابغ القناعـة إنهـا تغنيكـا

وقال:

هـــن إذا عـــز أخوكـــا ::: واخـــش أن يقـــرض فيكـــا
إن مـــن عانـــد أقـــوى ::: منـــه قـــد ضـــل ســـلوكا
نقـــص عقـــل أن تعـــادي ::: بشـــــراً لا يتقيكـــــا

وقال:

تنـــزه مـــا حييـــت عـــن القبـــيح ::: وخـــالف مـــن يـــرى رد النصـــيح
وخذ بالحزم مهمـا اسـطعت واحـذر ::: مـن أن يلقيـك حزمـك في فضـوح
فـلا تعـدل عـن الحـق التفاتـاً ::: لغـير الحـق مـن بعـد الوضـوح

وقال:

لا تخـــف في الحـــق لومـــا ::: صـــدقه ينجيـــك حتمـــا
ينجلـــي الحـــق ويبـــدو ::: نـــوره لا يتعمـــى
شـــأن ذي الحـــق اهتـــداء ::: وأخـــو الباطـــل أعمـــى

وقال:

عامل بجـد جميـع النـاس تحـظ بـه ::: وجنـب الهـزل إن الهـزل يرديكـا

الجد أحسن ما تبديه من خلق ::: والجد أشرف ما في الناس يعليكا
من لازم الجد هابته النفوس ومن ::: يهزل يكن أبداً في الناس مهتوكا

وقال:

كفاك الله شر من اصطفيتا ::: وضر من اعتمدت ومن عرفتا
جميع الناس موتى عنك إلا ::: معارفك الذين لهم ركنتا
تحفظ من قريب أو صديق ::: وكن في الغير دهرك كيف شئتا

وقال:

من كان يرغب عن أحبابه ويرى ::: تقريب أعدائه لا شك يهتضم
يدني العدو فلا تدنو مودته ::: هيهات كل معاد قربه ندم
فاحفظ صديقك واحذر أن تعاديه ::: إن الصديق إذا عاديته يصم

وقال:

جامل عدوك كي يلين حقده ::: فكيف بعض البعض من إيذائكما
واحفظ صديقك ما استطعت فإنه ::: أدرى بطرق الضر من أعدائكا

وقال:

إذا ظفرت بمن أنحى عليك فخذ ::: بالحلم فيه ودع ما منه قد فرطا
إن المسيء إذا جازيته أبداً ::: بفعله زدته في غيه شططا
العفو أحسن ما يجزى المسيء به ::: يهينه أو يريه أنه سقطا

وقال:

قاتل عدوك بالفضائل إنها ::: أعدى عليه من السهام النفذ
كسب الفضائل عدة تعليك في ::: رتب بها سبل السعادة تحتذي
فاحرص على نيل الفضائل جاهداً ::: إن الفضيلة صعبة في المأخذ

وقال:

وعد الكريم وفاء ::: تجنيه كيف تشاء
ما حال قط كريم ::: ولا ثناه التواء
فأنجز الوعد مهما ::: وعدت فهو الزكاء

وقال:

لـــيس الغـــنى عـــن كثـــرة الغـــرض ::: إن الغـــــنى في الــــنفس إن تـــرض
رأس الغـــنى تـــرك المطـــامع عـــن ::: زهــــد بــــلا ميــــل ولا غـــــرض
فازهـــد تعـــش أغـــنى البريـــة في ::: عـــز بـــــلا هـــم ولا مضـــض

وقال:

زمن الفضـائل قـد مضـى لسـبيله ::: ولوى بطيب العـيش وشـك رحيلـه
ركـدت ريـاح الجـد بعـد هبوبهـا ::: وعـلا فريـق الهـزل بعـد خمولـه
هيهات ما زمـن الكـرام ومـا هـم ::: ذهبـوا وجـد الـدهر في تحويلـه

وقال:

مــــروءة المــــرء ثوبــــه ::: والعــــري في النـــاس عيبـــه
بثوبـــــه المـــــرء يعلـــــو ::: قـــــدراً ويحفـــــظ قربـــــه
مــــن لم يصــــن ثوبـــه لم ::: يصـــــن وإن لاح شـــــيبه

وقال:

لا تصـــخ مـــا بقيـــت حيـــاً لقـــول ::: لـــيس يجـــني عليـــك إلا المضـــره
واطـــرح مـــا أتـــاك منـــه وجنـــب ::: مـــن يـــرى بالفضـــول واتـــق ضـــره

وقال:

ثقيل تراه الـنفس في العـين كالقـذى ::: وكالجبل الراسي على الصدر والقلـب
تـثير غمـوم المـرء رؤيـة وجهـه ::: وتشكو جفاه الأرض شكوى ذوي الكرب

وقال:

أمـــا تـــرى الأشـــجار مصـــفرة ::: أوراقهـــا كالشـــمس عنـــد المغيـــب
مـــا هـــي إلا صـــفرة آذنـــت ::: بأنهـــا ترحـــل عمـــا قريـــب

وقال:

كـــل مـــا تحـــب وتشـــتهي ::: ودع الطبيــــب ومــــا يــــرى
حفـــظ الغـــذاء مشـــقة ::: ليســــت تـــرد مقـــدرا
كــم عــد مــن متحفظ ::: كــم صــح ممــن قصــرا

كـــــل الـــــتحفظ زائـــــد ::: لا بـــــد ممـــــا قـــــدرا

وقال:

مـــن كـــان يأكـــل مـــا اشـــتهى ::: ويـــرى مخالفـــة الطبيـــب
ســـيرى مضـــرة مـــا أتـــى ::: بطـــراً وينـــدم عـــن قريـــب
إن الـــــتحفظ في الأمـــــو ::: ر لشـــيمة الفطـــن اللبيـــب
مـــــن لم يكـــــن متحفظـــــاً ::: يخطـــي ويبعـــد أن يصـــيب

وقال:

وللحمـــــام حـــــاءات إذا مـــــا ::: ظفـــرت بهـــا عثـــرت علـــى النعـــيم
فحنـــــاء وحكـــــاك مجيـــــد ::: وقـــل حجـــر يمـــر علـــى الأديم
وحـــوض مفعـــم مـــاء لذيـــذاً ::: وحجـــام علـــى النـــهج القـــويم
وللحلـــق الحديـــدة حـــين تنمـــى ::: وأطيبـــها حـــديث أخ كـــريم

وهذه نبذة من كتابه " أنداء الديم في المواعظ والوصايا والحكم " وكل ما فيه كالذي قبله من نظمه رحمه الله تعالى، فمن ذلك قوله رحمه الله:

العلـــــم نـــــور وهـــــدى ::: فكـــــن بجـــــد طالبـــــه
واحـــــرص عليـــــه واعتمـــــد ::: فيـــــه الأمـــــور الواجبـــــه
مـــــن لازم العلـــــم عـــــلا ::: علـــــى الأنـــــام قاطبـــــه

وقال:

خالف الـــنفس عنـــد قصـــد هواهـــا ::: تبق مـــا عشـــت ســـالماً مـــن أذاهـــا
فاتبـــاع الهـــوى هـــوان ولكـــن ::: هـــان للـــنفس وكـــي تنـــال مناهـــا

وقال:

من يخـــالف في شـــيء النـــاس يرجـــع ::: هـــدفاً للســـهام مـــن كـــل راشـــق
كن مع الناس كيـــف كـــانوا، ووافـــق ::: إن مـــن لا يوافـــق النـــاس مـــائق

وقال:

أرح الـــــنفس تنتفـــــع بحياتـــــك ::: واغـــنم العـــيش قبـــل يـــوم وفاتـــك
واطرح عيـــب مـــن ســـواك، وســـالم ::: جملـــة النـــاس يغفلـــوا عـــن أذاتـــك

واعتـــبر بالـــذين بـــادوا، وبـــادر ::: مـــا يـــدانيك مـــن ســـبيل نجاتـــك

وقال:

سالم النـــاس مـــا اســـتطعت، وجامـــل ::: مـــن يعاديـــك إن أردت الســـلامه
وتنـــزه عـــن القبـــيح وجنـــب ::: من يرى بالفضـــول واحـــذر كلامـــه

وقال:

صـــديقي أنـــت مـــا أبقـــى بخـــير ::: ومـــوتي وغـــير محتـــاج إليكـــا
فـــإن أحـــتج إليـــك فأنـــت مـــني ::: بـــريء لا صـــداقة لي عليكـــا

وقال:

مـــن أنـــت عنـــه غـــني ::: كـــن فيـــه مثـــل اعتقـــاده
فـــإن يكـــن منـــه ود ::: فجـــازه بـــوداده
وإن يكـــن منـــه بعـــد ::: فخلـــه لبعـــاده

وقال:

عليـــك بنفســـك لا تشـــتغل ::: بشـــيء ســـواها وخـــل الفضـــول
تعـــش رائـــح القلـــب في غبطـــة ::: فـــلا مـــن يضـــر ولا مـــن يقـــول

وقال:

اتـــرك الفكـــر في الأمـــور ودعهـــا ::: فكمـــا قـــدرت تكـــون الأمـــور
كـــل فكـــر وكـــل رأي وحـــزم ::: غـــير مجـــد إذا جـــرى المقـــدور

وقال:

هون عليك خطـــوب الـــدهر إن لهـــا ::: نهايـــة والتنـــاهي عنـــده الفـــرج
واصبر فـــإن لحســـن الصـــبر عاقبـــة ::: بصـــبحها ظلمـــة المكـــروب تنـــبلج

وقال:

احـــذر البخـــل إنـــه شـــر خلـــق ::: يتحلـــى بـــه وشـــر طريقـــه
من يجد غـــير مســـرف فهـــو في النـــا ::: س مـــوقى تـــثني عليـــه الخليقـــه

وقال:

الـــذل في طلـــب الإفـــادة عـــزة ::: فاحرص علـــى نيـــل الإفـــادة ترشـــد
إن التعـــزز في الـــذي تحتاجـــه ::: كـــبر، وكـــبر المـــرء أقـــبح مقصـــد

وقال:

دع من عرفت ولا تشـــدد عليـــه يـــداً ::: وداره وتحفـــظ منـــه مـــا بقيـــا
أما تـــرى البلـــد الـــذي نشـــأت بـــه ::: محقـــراً كلمـــا أصـــبحت معتليـــا
وغـــيره مـــن بـــلاد الله قاطبـــة ::: يعليـــك، لا ســـيما إن كنـــت متقيـــا

وقال:

ينبغـــي للـــذي تحلـــى بعقـــل ::: أن يـــرى كالبـــازي مـــدة عمـــره
بـــين أيـــدي الملـــوك أو في فـــلاة ::: خيفـــة مـــن شـــرور أبنـــاء دهـــره

وقال:

العـــــزل يضـــــحك ذلـــــه ::: مـــن تيـــه ســـلطان الولايـــه
فـــإذا وليـــت فســـر علـــى ::: نهـــج الدماثـــة والرعايـــه
واقصـــد مـــداراة الـــورى ::: واحـــذر كيـــود ذوي الســـعايه

وقال:

لا تقبـــل الحكـــم علـــى بلـــدة ::: نشـــأت فيهـــا، إنـــه يحقـــد
رياســـة المـــرء علـــى الأهـــل والـــ ::: جـــيران والخـــلان لا تحمـــد

وقال:

هـــي الـــدنيا إذا فكـــرت فيهـــا ::: رأيـــت نعيمهـــا سمـــاً نقيعـــا
فـــلا تحفـــل بهـــا واحـــذر أذاهـــا ::: فـــإن لســـمها قـــتلاً ذريعـــا
ولا تأســـف علـــى مـــا فـــات منـــها ::: وبـــادر في حياتـــك أن تطيعـــا

وقال:

كن وحيـــداً مـــا عشـــت تحيـــا بخـــير ::: ســـالماً مـــن شـــرور كـــل البريـــه
إن مـــن لا يخـــالط النـــاس يبقـــى ::: دهـــره لا تعـــروه منـــهم أذيـــه

وقال:

لا تـــبح مـــا حييـــت يومـــاً بســـر ::: لصـــديق ولا لغـــير صـــديق

إن ســـراً يجـــاوز الصـــدر فـــاش ::: يدريـــه العـــدا ومـــن في الطريـــق

وقال:

لا تصاحب مــا عشــت إلا الكبــارا ::: تـــنم ذكـــراً وتعتلـــي مقـــدارا
إن مـــن ماشـــى في طريـــق حقـــيراً ::: يكتســـي منـــه مهنـــة واحتقـــارا
فـــتحفظ مـــن أن تـــؤاخي دنيـــاً ::: فهـــو يعـــديك ذلـــة وصـــغارا

وقال:

محـــدثات الأمـــور أردى الشـــرور ::: فـــتحفظ مـــن محـــدثات الأمـــور
إنمـــا المحـــدثات غـــي فـــدعها ::: واجتهـــد أن تـــرى مـــع الجمهـــور
كـــل مـــن يتبـــع الحـــوادث يشـــقى ::: ويـــرى نفســـه بغـــير نظـــير

وقال:

مـــن تفضـــلت عليـــه ::: أنـــت لا شـــك أمـــيره
ومـــن احتجـــت إليـــه ::: أنـــت بـــالرغم أســـيره
ومـــن اســـتغنيت عنـــه ::: أنـــت في الـــدنيا نظـــيره

وقال:

لم يبـــق مـــن يطمـــع في وده ::: كـــلا ولا مـــن ترتضـــى صـــحبته
النـــاس أشـــباه ذئـــاب فهـــل ::: يعلـــم ذئـــب حســـنت عشـــرته
مـــن يبتغـــي اليـــوم صـــديقاً كمـــا ::: يرضـــى فقـــد زلـــت بـــه بغيتـــه

وقال:

فاعـــل الخـــير مـــوقى كـــل مـــا ::: يتقـــي مـــن ضـــر أو مـــن فتنـــة
لـــيس يخشـــى فاعـــل الخـــير أذى ::: إن فعـــل الخـــير أوقـــى جنـــة

وقال:

تحفـــظ مـــن صـــديقك في أمـــور ::: فربتمـــا يضـــر بـــك الصـــديق
مـــن اعتمـــد الصـــديق ولم يبـــال ::: يصـــبه الضـــر وهـــو بـــه خليـــق

وقال:

لا تـــركنن لمخلـــوق وكـــن أبـــداً ::: ممـــن توكـــل في الـــدنيا علـــى الله

ولا تمـــل لســـواه مـــا حييـــت فمـــن ::: يرجو ســـوى الله هـــاو حبلـــه واهـــي

وقال:

طلـــب الغايـــة اتبـــاع غوايـــه ::: فاعتمـــد في الأمـــور تـــرك النهايـــه
مـــن يكـــن راضـــياً بمـــا يتســـنى ::: عـــاش عـــيش الملـــوك دون أذايـــه

وقال:

لا تعتمـــد أبـــداً علـــى مخلـــوق أن ::: تبـــغ النجـــاح وتقصـــد الرشـــدا
مـــن يـــرج غـــير الله يحـــرم رشـــده ::: ويـــذل وهـــو مخيـــب قصـــدا

وقال:

ســـفر المـــرء قطعـــة مـــن عذابـــه ::: فيـــه تخليـــق جســـمه وثيابـــه
إنمـــا العـــيش للفـــتى بـــين أهلـــ ::: ـه وخلانـــــــه وفي أحبابـــــــه
مـــن يـــرده بخـــير الله يكفـــى ::: كـــرب تجوالـــه وذل اغترابـــه

وقال:

سلم ولا تعتـــرض يومـــاً علـــى أحـــد ::: إن شئت تسلم مـــن حقـــد وأضـــرار
من يعترض يعترض لا شك وهـــو حـــر ::: بـــذاك فالشـــر مقـــدار بمقـــدار

وقال:

إن الصـــــديق لعـــــون ::: في كـــــل مـــــا تبتغيـــــه
فـــــلا تســـــئ لصـــــديق ::: واحـــــذر وقوعـــــك فيـــــه
فـــــالمرء قيـــــل كـــــثير ::: بنفســـــــــــه وأخيـــــــــه

وقال:

افعل الخـــير مـــا اســـتطعت تنـــل مـــا ::: تبتغيـــه مـــن الثنـــاء الجميـــل
فاعـــل الخـــير آمـــن لـــيس يخشـــى ::: صـــرف دهـــر ولا حلـــول جليـــل

وقال:

بحـــق الحـــق حتمـــاً دون شـــك ::: وإن كـــره المشـــكك والملـــد
صـــريح الحـــق قـــد يخفـــى، ولكـــن ::: بعيـــد خفائـــه لا شـــك يبـــدو

وقال:

إن شـــئت عـــزاً دائمـــاً ::: فاســلك ســبيل مــن اقتنــع
إن القناعـــة عـــزة ::: والـــذل عاقبـــة الطمـــع
المـــرء إن قنـــع اعتلـــى ::: قـــدراً وإن طمـــع اتضـــع

وقال:

اســتعن في الأمــور بالكتمــان ::: وتحفــظ مــن شــر كــل لســان
كل ما لا يـدرى مـن أمـرك فضـل ::: لـيس فيـه شـيء مـن الخسـران

وقال:

مـــن مـــال عنـــك بشـــبر ::: مـــل أنـــت عنـــه بميـــل
فـــالله يغنيـــك عنـــه ::: فمنـــه كـــل جميـــل
فلـــيس في الـــود خـــير ::: مـــع تـــرك حســـن القبـــول

وقال:

لا تقطعـــــن صـــــديقاً ::: وإن يضـــق بـــك صـــدرا
واحــــرص عليــــه وزده ::: إن يجــف بــراً وشــكرا
فـــإن قطـــع صـــديق ::: لا شـــك يعقـــب ضـــرا

وقال:

خل التـأنق في اللبـاس وسـر علـى ::: نهـج الأفاضـل في اختصـار الملـبس
إن التـأنق في اللبـاس يكثـر الــ ::: حســاد والأعــداء للمتلــبس
فالبس كمثل الناس لا تخرج عـن الــ ::: معتـاد في شـيء فتخطـي أو تسـي

وقال:

لا تحقـــــرن عـــــدواً ::: ولـــو يكـــون كـــذره
واحــذره مــا اســطعت واجهــد ::: أن لا تحــــرك شــــره
إن البعوضــة تــؤذي الــــ ::: ملــوك فــوق الأســره

وقال:

مـــا أهنـــأ الإنســـان في عيشـــه ::: مـــا بـــين أهليـــه وفي منـــزله

الـــذل في الغربـــة يـــا كربهـــا ::: وكـــرب مـــن قـــوض عـــن معقلـــه
وفي اقتلـــوا أو اخرجـــوا شـــاهد ::: ســـاوى خـــروج المـــرء مـــع مقتلـــه

وقال:

المـــال يســـتر عيـــب النـــرء فاقتنـــه ::: واحفظـــه تبـــق مـــوقى مـــدة الـــزمن
من ضيع المـــال أبـــدى عيبـــه وجـــنى ::: تمهينـــه أبـــداً مـــن كـــل ممتـــهن

وقال:

ســـريرة المـــرء تبـــديها شمائلـــه ::: حتى يرى النـــاس مـــا يخفيـــه إعلانـــا
فاجعل سريرتك التقـــوى تـــرى أمـــلاً ::: في كـــل مـــا أنـــت تبغيـــه وبرهانـــا

وقال:

مـــا تمـــت الـــدنيا لشـــخص ولا ::: أمـــل ذا فيهـــا ســـوى مـــن فـــتن
عادتهـــا الفتـــك بمـــن رامهـــا ::: وكـــل مـــن أعـــرض عنـــها أمـــن
فـــلا تغرنـــــك بلـــــذاتها ::: فـــإن مـــن غـــر بهـــا قـــد غـــبن

وقال:

لا يكـــن عنـــدك الخـــديم نـــديماً ::: إن قـــدر الخـــديم دون النـــديم
مـــن ينـــادم خديمـــه يتـــأذى ::: ويصـــير الخـــديم غـــير خـــديم
إنمـــا يصـــلح الخـــديم ابتعـــاد ::: واشـــتغال بشـــأنه المعلـــوم

وقال:

تثبـــت في الأمـــور ولا تبـــادر ::: لشـــيء دون مـــا نظـــر وفكـــر
قبـــيح أن تبـــادر ثم تخطـــي ::: وترجـــع للتثبـــت دون عـــذر

وقال:

كن في زمانك كيـــف يرضـــى أهلـــه ::: لا تعـــد طـــورهم ولا تتبـــدل
فـــإذا تـــرى الحمقـــى تحـــامق معهـــم ::: وإذا تـــرى العقـــلاء فلتتعقـــل
مـــن لم يكـــن أبـــداً كأهـــل زمانـــه ::: يشـــقى، ولا يحظـــى بنيـــل مؤمـــل

وقال:

الفاضـــل اليـــوم غريـــب بـــلا ::: عـــون علـــى شـــيء مـــن الحـــق

إن غـــاب لم يحضـــر وإن قـــال لم ::: يســـمع يؤبـــه بمـــا يلقـــي
مـــا أضـــيع الفاضـــل يـــا ويحـــه ::: كأنـــه لـــيس مـــن الخلـــق

وقال وهو آخر أنداء الديم:

العـــــز عاقبـــــة التقـــــى ::: والـــــذل عاقبـــــة الرياســـــه
فـــإذا اتقيـــت علـــوت في ::: أهـــل المجـــادة والنفاســـه
وإذا رأســـــت نزلـــــت في ::: طـــرق التخلـــق والسياســـه
فلتختـــــــر التقـــــــوى ولا ::: تـــرأس فتخطيـــك الكياســـه

وكان تاريخ فراغه من كتاب أنداء الديم نصف شعبان عام واحد وثلاثين وسبعمائة.

* * *

الباب الرابع

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه، وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه، واجتلائهم أنوار رياسته الجلية، وكتبهم بعض المؤلفات باسمه، ووقوفهم عند إشارته ورسمه، وما يضاهي ذلك في حظه وقسمه، وسعيهم بين يديه

الباب الرابع:

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية

وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه، وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه، واجتلائهم أنوار رياسته الجلية، وكتبهم بعض المؤلفات باسمه، ووقوفهم عند إشارته ورسمه، وما يضاهي ذلك في حظه وقسمه، وسعيهم بين يديه

اعلم - سلك الله بي وبك الطريق الأقوم الأقوى، وحلى صدور جميعنا بزينة التقوى - أن لسان الدين ذكر في كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرهما جملة مما خاطبه به الملوك وغيرهم، من تبجيل وتنويه، ولنذكر بعض ذلك من كتبه ومن غيرهما تتميماً للمقصود وتبليغاً لنفوس الناظرين في هذه العجالة ما تؤمله وتنويه.

* * *

١ - ظهير من أبي زيان المريني للسان الدين

فمن ذلك ما ذكره في " الإحاطة " من إكرام السلطان أبي زيان المريني ابن الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن له، وسرد ما كتب له به من قوله: هذا ظهير إلى قوله: أيده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين ويسره وبعده ما صورته:

" للشيخ الفقيه الأجل الأسنى، الأعز الأحظى الأرفع الأمجد الأسمى الأوحد الأنوه الأرقى، والعالم العلم الرئيس الأعرف المتفنن الأبرع المصنف المفيد الصدر الأحفل الأفضل الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأمجد الوجيه الأنوه الأحفل الأفضل الحسيب الأصيل الأكمل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب، قابله أيده الله بوجه القبول والإقبال، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال، ورعى له خدمة السلف الرفيع الجلال، وما تقرر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال، وأمر في

جملة ما نسوغه من الآلاء الوارفة الظلال، الفسيحة المجال، بأن يجدد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مجبى مدينة سلا حرسها الله في كل شهر، ومن حيث جرت العادة أن يتمشى له، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه، وفيما يستفيده خدامه بخارجها وأحوازها من أعناب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك، فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف، ولا يتوجه فيه إليه بتكليف، يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديداً تامًّا، واحتراماً عاماً، أعلن بتجديد الحظوة واتصالها، وإتمام النعمة وإكمالها، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام، واتصال الأيام، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السخر مهما عرضت، والوظائف إذا افترضت، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف، وتتضاعف أسباب المنن والعوارف، بفضل الله، وتحرر له الأزواج التي يحرثها بتالمغت من كل وجيبة وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة، بالتحرير التام بحول الله وعونه، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه، وليمض ما أمضاه، إن شاء الله، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وكتب في التاريخ "؛ انتهى. وقوله " وكتب في التاريخ " هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان، يكتب بقلم غليظ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة " صح في التاريخ ".

ورأيت على هامش هذا المحل من الإحاطة بخط الخطيب الشهير الإمام أبي عبد الله ابن مرزوق التلمساني رحمه الله ما صورته: توفي يعني السلطان أبا زيان مغتالاً عام ستة وستين على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد الله ابن علي الوزير، رداه في بئر، وأشاع أنه أفرط في السكر، وألقى نفسه في البئر المعروفة برياض الغزلان، وبايع لعمه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن،

فسلطه الله عليه، وأخذ حقوق الخلائق على يديه، فقتله غيلة بعد أن كان تغلب عليه فأعمل الحيلة في قتله، واستمر ملك عبد العزيز ظاهراً ظافراً قد جمع بين المغرب إلى أقصاه وبين ملك تلمسان وقد شرد أهلها كل مشرد، فعندما أقبلت الدنيا عليه، واستقام ملكه، وكاد يلحق ملك أبيه أو يزيد مات رحمه الله تعالى، قيل: مطعونا، وقيل غير ذلك، وذلك في حدود أربع وسبعين، وولي ولده، ثم عزل بابن عمه العباس ابن السلطان أبي سالم، وحاز ملك المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع وسبعين وسبعمائة؛ انتهى ما ألفيته بخط سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق.

ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبي الحسن علي ما صورته: رحمة الله عليك يا عمر بن عبد الله بن علي، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من درن كبير، وقمت على ملك لهو وضعف شهير، وشهرت سيف الحق، على الزواكرة الخرق، فابتهج منبر الدين؛ انتهى.

ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق في ذمه للوزير عمر، وقوله " الزواكرة " لفظ يستعمله المغاربة، ومعناه عندهم المتلبس الذي يظهر النسك والعبادة، ويبطن الفسق والفساد، وعند الله تتجمع الخصوم.

* * *

٢ - رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول:

ومما خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى، من قبل سلطان المغرب المستعين بالله إبراهيم أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد الصلاة:

" من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن

ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق أيد الله وأعز نصره، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى الأوجه الأنور الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعرف الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبي محمد ابن الخطيب، وصل الله عزته ووالى رفعته، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

" أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى، والرضى عن آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعيني بالنصر الأعز والفتح الأسنى، فإذا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل، ونجح القول والعمل من منزلنا الأسعد بضفة وادي ملوية يمنه الله، وصنع الله جميل، ومنه جزيل، والحمد لله، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل، والعناية المتكفلة برعي الوسائل، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالجناب العلي، المولوي العلوي، جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه، وسقاه غيوث رحمته وحنانه؛ وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا، بخدمة ثراه الطاهر، والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر.

" وإلى هذا وصل الله حظوتكم ووالى رفعتكم، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده، المقابل بالإسعاف المستعذب ورده، فوقفنا على ما نصه، واستوفينا ما شرحه وقصه، فآثرنا حسن تلطفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا، وفي الحين عينا لكمال مطلبكم، وتمام مأربكم، والتوجه بخطابنا في حقكم، والاعتماد بوفقكم، خد يمينا أبا البقاء ابن تاسكورت وأبا زكريا بن فرقاجة، أنجدهما الله وتولاهما؛ وأمسى تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم، بعد التأكيد عليهما فيه، وشرح العمل الذي يوفيه، فكونوا على علم من ذلكم، وابسطوا له جملة آمالكم، وإنا

لنرجو ثواب الله في جبر أحوالكم، وبرء اعتلالكم، والله سبحانه وتعالى يصل مبرتكم، ويتولى تكرمتكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة ".

* * *

٣ - جواب لسان الدين

فراجعه ابن الخطيب بما نصه: مولاي خليفة الله بحق، وكبير ملوك الأرض عن حجة، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة، أبقاكم الله تعالى عالي الدرجة في المنعمين، وافر الحظ عند جزاء المحسنين وأراكم ثمرة بر أبيكم في البنين، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد، وأذاق العذاب الأليم من أراد في مثابتكم بإلحاد، عبدكم الذي ملكتم رقه، وآويتم غربته، وسترتم أهله وولده، وأسنيتم رزقه، وجبرتم قلبه، يقبل موطئ الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف النصر، الفارعة هضبة العز، المعملة الخطو في مجال السعد، وميسر الحظ ابن الخطيب، من شالة التي تأكد بملككم الرضي احترامها، وتجدد برعيكم عهدها وأستبشر بملككم دفينها، وأشرق بحسناتكم نورها.

" وقد ورد على العبد الجواب المولوي البر الرحيم، المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعساء، من رعي الدخيل والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الأب الكريم، فثاب الرجاء وأنبعث الأمل وقوي العضد وزار اللطف، فالحمد لله الذي أجرى الخير على يدكم الكريمة، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين، المتوسل إليكم أولاً بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجداثهم ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذي تسبب في وجودكم، واختصكم بحبه، وغمركم بلطفه وحنانه، وعلمكم آداب الشريعة، وأورثكم ملك الدنيا وهيأتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء، وفي علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من

الذعرة عن طائر داست أفراخه ناقة في جوار رئيس منهم، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك مما أهينت فيه الأنفس وهلكت الأموال وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولاً إلى رحماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها وصدقة حملتكم الحرية على بذلها ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب واهي الفزعة يتغطى بردائه ويستجير بعليائه كأنني تراميت عليهم في الحياة أمام الذعر الذي يذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقاده ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة: يا ليعقوب يا لمرين نسأل الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم ولا يسلبني عنايتكم ويستعملني ما بقيت في خدمتكم ويتقبل دعائي فيكم.

" ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعته بازائه وقلت يا مولاي يا كبير الملوك وخليفة الله وبركة بني مرين صاحب الشهرة والذكر في المشرق والمغرب عبدك المنقطع إليك المترامي بين يدي قبرك المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ابن الخطيب وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعي وجهك والتقرب إلى الله تعالى برعيك والاشتهار في مشرق الدنيا وغربها ببرك وأنتم من أنتم من إذا صنع صنيعه كملها وإذا من منة تممها وإذا أبدى يداً أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقضة وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك حتى يتم أملي ويخلص قصدي وتحف نعمتك بي ويطمئن إلي مأملك قلبي.

" ثم قلت للطلبة: أيها السادة بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم فأمنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم واندفعت في الدعاء والتوسل الذي نرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه وخاطب العبد مولاه شاكراً لنعمته مشيدًا بصنيعته مسروراً بقبوله وشأنه من التعلق والتطارح شأنه حتى يكمل القصد ويتم

الغرض معمور الوقت بخدمة يرفعها ودعاء يردده والله المستعان "؛ انتهى.

* * *

٤ - رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم

وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور وكان ما سبق من كتاب السلطان جواباً له وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراكش واستقراره في مدينة سلا برباط شالة مدفن السلاطين من بني مرين ومنهم السلطان أبو الحسن والد السلطان أبي سالم المذكور ونص الكتاب:

" مولاي المرجو لإتمام الصنيعة وصلة النعمة وإحراز الفخر أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الأمثال في البر والرضى وعلو الهمة ورعي الوسيلة مقبل موطئ قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة وتذمم بالتربة الزكية وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إيابه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب المعظمة وقد عزم ألا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعي حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم والتماس شفاعته في أمر سهل عليكم لا يجر إنفاد مال ولا اقتحام خطر إنما هو إعمال لسان وخط بنان وصرف عزم وإحراز فخر وأجر وإطابة ذكر وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب يعني ابن مرزوق سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم أنت يا فلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين.

“ وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم والعبد الآن يعرض عليكم الجواب وهو أني لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملأ الكبير والجم الغفير أكببت على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً وأصغيت بأذني عند قبره وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله فكأني به يقول لي: قل لمولاك يا ولدي وقرة عيني المخصوص برضاي وبري و[من] ستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك الدنيا دار غرور والآخرة خير لمن اتقى:

وما الناس إلا هالك وابن هالك... “ ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعرف فما أنكر وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري وتهمم بي وسبق الناس إلى رثائي وأنشدني ومجدني وبكاني ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك وعفر وجهه في تربي وأملني لما انقطعت مني آمال الناس فلو كنت يا ولدي حيًّا لما وسعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي وأن أستقل فيه الكثير واحتقر العظيم لكن لما عجزت عن جزائه وكلته إليك وأحلته يا حبيب قلبي عليك وقد أخبرني أنه سليب المال كثير العيال ضعيف الجسم قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن وأمل أن ينقطع بجواري ويستتر بدخيلي وخدمتي ويرد عليه حقه بخدمتي ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتي وقد كنت تشوفت إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة وخطيبنا العظيم المزية القديم القربة أبو عبد الله بن مرزوق فاسأله يذكرك واستخبره يخبرك فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء وله يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك وقد استقر بدارك قراره وتعين بأمرك مرتبه ودشاره، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب، هذه رغبتي منك

وحاجتي إليك واعلم أن هذا الحديث لابد له أن يذكر ويتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار فاعمل ما يبقى لك فخره ويتخلد ذكره وقد أقام مجاوراً ضريحي تالياً كتاب الله تعالى عليَّ منتظراً ما يصله منك ويقرؤه عليَّ من السعي في خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة فالله الله يا إبراهيم اعمل ما يسمع عني وعنك فيه ولسان الحال أبلغ من لسان المقال؛ انتهى.

" والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتتحققوا أني لو ارتكبت الجرائم ورزأت الأموال وسفكت الدماء وأخذت حسائف الملوك الأعزة ممن وراء النهر من الططر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى مني من غير عهد بعد أن بلغهم تذممي بهذا الدخيل ومقامي بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يغفلها الكبار للكبار إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل والعفو الذي لا تفسده المؤاخذة فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى بموالاتكم فهو فاضل وابن ملوك أفاضل وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم لاسيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم فقد كان يتبنى مولاي أبا الحجاج ويشمله بكنفه وصارخه بنفسه وأمده بأمواله ثم صير الله تعالى ملكه إليكم وأنتم من أنتم ذاتاً وقبيلاً فقد قرت يا مولاي عين العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم وكثرة جنودكم وترادف أموالكم وعددكم زادكم الله تعالى من فضله؛ ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم، وأعرضتم عن ذلك الوطن، استولت عليه يد عدوه.

" وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان، وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم، وشهرة حرمة شالة معروفة، وحاش لله أن يضيعها أهل الأندلس، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن،

وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة، وأملي منكم أن يتعين من بين أيديكم خديم بكتاب كريم، يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي، ويخبر بمثواي متراميا " على قبر والدكم ويقرر ما ألزمكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا، وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة، ومن المعلوم أني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب.... ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن، فالحياء والحشمة يأبيان العذر عن هذا في كل ملة ونحلة.

" وإذا تم هذا الغرض ولا شك في إتمامه بالله تعالى تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقده، ومدح النبي ليلة المولد في جواره وبين يديه وهو غريب مناسب لبركم به إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم، وأعود داعياً مثنياً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب، وأتعوض من ذمتي بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته، لكنهم أسرى وأفضل، وانقطاعي أيضاً لوالدكم مما لا يسمع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه، وها أنا أرتقب جوابكم بما لي عندكم من القبول، ويسعني مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا الغرض، والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به، والسلام. وكتب في الحادي عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة. فلما وصل الكاتب إلى السلطان أجابه بما مر آنفاً. ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان على هامش قول ابن الخطيب في هذه الرسالة: " ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم - إلخ " ما صورته: كذلك وقع آخر الأمر وكان الإستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في محرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة، فرحم الله تعالى ابن الخطيب، العاقل اللبيب،

وغفر له برحمته؛ انتهى.

* * *

٥ - رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى: ولما قضى الله عز وجل بالإدالة، ورجعنا إلى أوطاننا من العدوة واشتهر عني ما اشتهر من انقباض عن الخدمة والتيه على السلطان والدولة، والتكبر على أعلى رتب الخدمة، وتطارحت على السلطان في استنجاز وعد الرحلة، ورغبت في تبرئة الذمة، ونفرت عن الأندلس بالجملة، خاطبني يعني أبا جعفر ابن خاتمة بعد صدر بلغ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله: وإلى هذا يا سيدي ومحل تعظيمي وإجلالي، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم، وضاعف في العز درجات ارتقائكم، فإنه من الأمر الذي لم يغب عن رأي العقول، ولا اختلف فيه أرباب المعقول، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها، وتاج مفرقها، وواسطة سلكها، وطراز ملكها وقلادة نحرها، وفريدة دهرها، وعقد جيدها المنصوص، وتمام زينتها على العموم والخصوص، ثم أنتم مدار أفلاكها، وسر سياسة أملاكها وترجمان بيانها ولسان إحسانها وطب مارستانها والذي عليه عقد إدارتها وبه قوام إمارتها فلديه يحل المشكل وإليه يلجأ في الأمر المعضل فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار وتحدق نحوكم الأذهان والأفكار ويزجر عنكم السانح والبارح ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح استقراء لمرامكم واستطلاعاً لطالع اعتزامكم واستكشافاً عن مرام سهامكم لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق وظهوركم في ملتمع بروق واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق حتى تستقر بكم الديار ويلقي عصاه التسيار ولها العذر في ذلك إذ صدعها بفراقكم لم يندمل وسرورها بلقائكم لم يكتمل ولم يبرأ بعد جناحها المهيض ولا جم ماؤها المغيض ولا تميزت من داجيها لياليها البيض ولا استوى نهارها ولا تألفت أنهارها ولا اشتملت نعماؤها ولا نسيت غماؤها بل

هي كالناقه والحديث العهد بالمكاره يستشعر نفس العافية ويتمسح منكم باليد الشافية فبحنانكم عليها وعظيم حرمتكم على من لديها لا تشوبوا لها عذب المجاج بالأجاج وتفطموها عما عودت من طيب المزاج فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج.

" وإني ليخطر بخاطري محبة فيكم وعناية بما يعنيكم ما نال جانبكم صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء ثم أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم الوفاء وأن الوطن إحدى المواطن الأظآر التي يحق لهن جميل الاحتفاء وما يتعلق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء فيغلب على ظني أنكم لحسن العهد أجنح وبحق نفسكم عن حق أوليائكم أسمح وللتي هي أعظم قيمةً من فضائلكم أوهب وأسجح وهب أن الدر لا يحتاج في الإثبات إلى شهادة النحور واللبات والياقوت غني في المكان عن مظاهرة القلائد والتيجان أليس أنه أعلى للعيان وأبعد عن مكابرة البرهان تألقها في تاج الملك أنوشروان فالشمس وإن كانت أم الأنوار وجلاء الأبصار مهما أغما مكانها من الأفق قيل: " أليل هو أم نهار وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام وأولو الأحلام مواطن استقرارهم وأماكن قرارهم إلا برغمهم واضطرارهم واستبدال دار خير من دارهم ومتى توازن الأندلس بالمغرب أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعباد وما فوقه مرابط جهاد ومعاقد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد ثم يبوأ ولده مبوأ أجداده ويجمع له بين طارفه وتلاده أعيذ أنظاركم المسددة من رأيٍ فائل وسعي طويل لم يحل منه بطائل فحسبكم من هذا الإياب السعيد والعود الحميد "؛ وهي طويلة.

* * *

٦ – من لسان الدين إلى ابن خاتمة

قال لسان الدين رحمه الله تعالى: فأجبته بقولي:

لم في الهوى العذري أو لا تلم ::: فالعذل لا يدخل أسماعي

شأنك تعنيفي وشأني الهوى ::: كل امرئ في شأنه ساعي

أهلا بتحفة القادم وريحانة المنادم وذكر الهوى المتقادم لا يصغر الله مسراك فما أسراك لقد جبت إليَّ من همومي ليلاً وجست رجلاً وخيلاً ووفيت من صاع الوفاء كيلا وظننت بي الأسف على ما فات فأعملت الالتفات، لكيلا، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي أو كانت اللمة السوداء من عددي ما أفلت ما أشراكي المنصوبة لأمثالك حول المياه وبين السالك وما علمت هنالك لكنك طرقت حمىً كسعته الغارة العشواء وغيرت ربعه الأنواء فخمد بعد ارتجاجه وسكت أذين دجاجه وتلاعبت الرياح الهوج فوق فجاجه وطال عهده بالزمن الأول وهل عند رسم دارس من معول وحيا الله ندباً إلى زيارتي ندبك وبآدابه الحكيمة أدبك:

فكان وقد أفاد بك الأماني ::: كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهي شيمة بوركت من شيمة وهبة الله تعالى قبله من لدن المشيمة ومن مثله في صلة رعي وفضل سعي وقول وعي:

قسماً بالكواكب ال ::: زهر والزهر عاتمه

إنما الفضل ملةٌ ::: ختمت بابن خاتمه كساني حلة فضله

وقد ذهب زمان التجمل وحملني شكره وكتدي واه عن التحمل ونظرني بالعين الكليلة عن العيب فهلا أجاد التأمل واستطلع طلع ذثي ووالى في مبرك المعجزة حثي{إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي} [يوسف: ٨٦].

ولو ترك القطا ليلاً لناما ::: وما حال شمل وتده مفروق

وقاعدته فروق وصواع بني أبيه مسروق وقلب قرحه من عضة الدهر دامٍ وجمرة حسرته ذات احتدام هذا وقد صارت الصغرى التي كانت الكبرى لمشيب لم يدع أن هجم لما نجم ثم تهلل عارضه وانسجم:

لا تجمعي هجراً علي وغربةً ::: فالهجر في تلف الغريب سريع

نظرت فإذا الجنب ناب، والنفس فريسة ظفر وناب والمال أكيلة انتهاب

والعمر رهن ذهاب واليد صفر من كل اكتساب وسوق المعاد مترامية والله سريع الحساب:

ولـــو نعطـــى الخيـــار لمـــا افترقنـــا ::: ولكـــن لا خيـــار مـــع الزمـــان

وهب أن العمر جديد وظل الأمن مديد ورأي الاغتباط بالوطن سديد فما الحجة لنفسي إذا مرت بمطارح جفوتها وملاعب هفوتها ومثاقف قناتها ومظاهر عزاها ومناتها والزمان ولود وزناد الكون غير صلود:

وإذا امـــرؤ لدغتـــه أفعـــى مـــرةً ::: تركتـــه حـــين يجـــر حبـــلٌ يفـــرق

ثم إن المرغب قد ذهب والدهر قد استرجع ما وهب والعارض قد اشتهب وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة وأسماؤه على الجوار مخفوضة والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة والتوبة بفضل الله عز وجل منقودة والمعاملة سامرية ودروع الصبر سابرية والاقتصاد قد قرت العين بصحبته والله قد عوض حب الدنيا بمحبته فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق وقد رقى لدغتها ألف راق وجمعتني بها الحجرة ما الذي تكون الأجرة جل شاني وإن رضي الوامق وسخط الشاني إني إلى الله تعالى مهاجر وللعرض الأدنى هاجر ولأظعان السرى زاجر لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر لكن دعاني للهوى إلى هذا المولى المنعم هوى خلعت نعلي الوجود وما خلعته وشوقي أمرني فأطعته وغالب والله صبري فما استطعته والحال أغلب وعسى أن لا يخيب المطلب فإن يسر رضاه فأمر كمل وراحل احتمل وحادٍ أشجى الناقة والجمل وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق والتسليم بمقامي لائق:

مـــا بـــين غمضـــة عـــين وانتباهتـــها ::: يصرف الأمـــر مـــن حـــال إلى حـــال

وأما تفضيله هذا الوطن ليمن طيره وعموم خيره وبركة جهاده وعمران رباه ووهاده بأشلاء عباده وزهاده حتى لا يفضله إلا أحد الحرمين فحقٌ برئ من المين لكنني للحرمين جنحت وفي جو الشوق إليهما سنحت فقد أفضت إلى طريق قصدي محجته ونصرتني والمنة لله تعالى حجته وقصد سيدي أسنى

قصد توخاه الحمد والشكر ومعروف عرف به الذكر والآمال من فضل الله بعد تمتار والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ودعاؤه بظهر الغيب مدد وعدة وعدد وبره حالي الظعن والإقامة معتمل معتمد ومجال المعرفة بفضله لا يحصره أمد والسلام؛ انتهى.

ومن خط ابن الصباغ ما صورته يكفي ابن خاتمة الغاية التي سلمها له إمام الطريقة وواحدها الفذ على الحقيقة حيث قال:

إنمـــــا الفضـــــــل ملـــــــةٌ ::: ختمــــــت بـــــــابن خاتمـــــــه

ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة وطلب منه أن يعود فأبى وأنشد:

تقضـــــى في الكتابــــة لي زمـــــانٌ ::: كشــــأن العبــــد ينتظــــر الكتابــــه
فمــــن الله مــــن عتقــــي بمـــا لا ::: يطيــــق الشــــكر أن يمــــلا كتابــــه
وقــــالوا هــــل تعــــود فقلــــت كــــلا ::: وهــــل حــــر يعــــود إلى الكتابــــه

فانظر حسن هذه التورية العجيبة؛ انتهى.

* * *

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثره الـــذي عبـــق أريج البلاغة من نفحاته ونظمه الذي تألق نور البراعة من لمحاته وصفحاته، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته، ومناسبات رائقـــة في فنـــون الأدب ومصطلحاته



الباب الخامس:

في إيراد جملة من نثره الذي عبق أريج البلاغة من نفحاته ونظمه الذي تألق نور البراعة من لحاته وصفحاته ، وما يتصل به من أزجاله وموشحاته ، ومناسبات رائقة في فنون الأدب ومصطلحاته

اعلم - سلك الله تعالى بي وبك أوضح محجه، وجعلنا ممن انتحى صوب الصواب ونهجه - أن هذا الباب، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب، وغيره كالتبغ له، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالمحاسن متقنعة، ولبدائع منتعلة، فأقول:

أما نثره فهو البحر الزخار، بل الدر الذي به الافتخار، وناهيك أن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلون، وسوق درر هم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحلون، وخصوصاً كتابه ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، فإنه، وإن تعددت مجلداته، على فن الإنشاء والكتابة مقصور، وقد اشتمل على السلطايات وغيرها ومخاطباته لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين علم بلاغتهم منصور، وقد تركت نسختي منه في المغرب، ولو حضرتني لكفتني عن هذه الفوائد التي أتعبت خاطري في جمعها من مقيداتي التي صبتها معي، وهي قليلة.

وقد مر في هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه، والذي نجلبه هنا زيادة على ما سبق.

وقال رحمه الله تعالى في " الإحاطة " عند ترجمة نثره ما صورته: وأما النثر فبحر زاخر، ومدى طوله مستاخر، وإنك لم يفخر عليك مفاخر، وقد مر منه في تضاعيف هذا الديوان كثير، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مشير؛ انتهى.

١ - فمن ذلك قوله في غرض التحميد مما افتتح به الكتاب في التاريخ

المتضمن دولة بني نصر: الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك، تطلعها من المشارق نيرة، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة، ثم تذهب بها غائرة متغيرة، السائق عجل، وطبع الوجود مرتجل، والحي من الموت وجل، والدهر لا معتذر ولا خجل، بينما ترى الدست عظيم الزحام، والموكب شديد الالتحام، والوزعة تشير، والأبواب يقرعها البشير، والسرور قد شمل الأهل والعشير، والأطراف تلثمها الأشراف، والطاعة يشهرها الاعتراف، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف، والرايات تعقد، والأعطيات تنقد، إذ رأيت الأبواب مهجورة، والدسوت لا مؤملة ولا مزورة، والحركات قد سكنت، وأيدي الإدالة قد تمكنت، فكأنما لم يسمر سامر، ولا نهى ناه، ولا أمر آمر، ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة إنما مثل الحياة الدنيا:{كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ} [الكهف: ٤٥].

٢ - ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحض على الجهاد: " أيها الناس رحمكم الله تعالى، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قصمه الله تعالى ساحتهم، ورام الكفر خذله الله تعالى استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تحفزوه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد الجهاد فقد تعين، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين، الله الله في الإسلام، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، واسوا أنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنة رسول الله قائمة فيكم، والله سبحانه يقول له:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم} [الصف: ١٠].

ومما صح عنه قوله: من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده:

ماذا يكون جوابكم لنبيكم ::: وطريق هذا العذر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي ::: وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف ::: لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبابك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. انتهى.

٣ - ومن ذلك قوله في صداق أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس في فصل منه تضمن ذكر أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته.

فضرب بفاس - عمرها الله تعالى - حلته، وأورث منها بالبقعة الزكية الرفيعة وجلته، فتبوأوا من ذلك الغور، المعشب الروض الأرج النور، هالة سعد، وأفق برق ورعد، ودست وعيد ووعد، يتناقلون رتب الشرف الصريح كابراً عن كابر، ويروي مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجد كل حريص على عوالي المعالي مثابر:

فالكف عن صلة، والأذن عن حسن ::: والعين عن قرة، والقلب عن جابر

حيث الأنوف الشم والوجوه الغر، والعزة القعساء والنسب الحر، والفواطم في صدف الصون من لدن الكون كأنهن الدر، آل رسول الله ونعم الآل،

والموارد الصادقة إذا كذب الآل، وإذا لم يصل عليهم في الصلاة حبطت منها الأعمال، طلبة الراكب، ونشدة الطالب، وسراة لؤي بن غالب، وملتقى نور الله تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب. انتهى، وهو طويل لم يحضرني منه الآن سوى ما ذكرته.

٤ - ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى: كتبت إلى بعض السادة الفضلاء، وقد بلغني مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المرينية:

وردت علي فئتي التي إليها في معركة الدهر أتحيز، وبفصل فضلها في الأقدار المشتركة أتميز، سحاءة سرت وساءت، وبلغت من القصدين ما شاءت، أطلع بها سيدي صنيعة وده من شكواه على كل عابث في السويداء، موجب اقتحام البيداء، مضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل، ولا من إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاها الخليل، فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله، أو عابد نوزع في تقبل أعماله، أو آمل ضويق في فذلكة آماله، لكني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق، ورأيت الخط يبهر والحمد لله تعالى ويروق، واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بروق، فقلت: ارتفع الوصب، ورد من الصحة المغتصب، وآلة الحس والحركة هي العصب، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه، والروح خليط البدن والمرء بخليطه، وعلى ذلك فبليد احتياطي لا يقنعه إلا الشرح، فيه يسكن الظمأ البرح، وعذراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار، والإطناب والإكثار، وزند الفلق في مثلها أورى، والشفيق بسوء الظن مغري، والسلام.

٥ - ومن نثر لسان الدين ما ذكره في " الإحاطة " في ترجمة أبي عبد الله الشديد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الجياني الأصل ثم المالقي إذ قال ما صورته:

" جملة جمال من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله، بلبل دوح السبع

المثاني، ومائطة عروس أبي الفرج بن الجوزي، وآية صقعه ونسيج وحده في حسن الصوت وطيب النغمة، اقتحم لذلك دسوت الملوك، وجر أذيال الشهرة، عذب الفكاهة، ظريف المجالسة، قادراً على المحاكاة، متسوراً حمى الوقار، ملبيًّا داعي الانبساط، قلد شهادة الديوان بمالقة فكان مغار حيل الأمانة، شامخ مارن النزاهة، لوحاً للألقاب، وعززت ولايته ببعض الألقاب النبيهة، وهو الآن الناظر في أمور الحسبة ببلده، ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشير إلى أضداده بما نصه:

يا أيها المحتسب الجزل ::: ومن لديه الجد والهزل
يهنيك والشكر لمولى الورى ::: ولاية ليس لها عزل

كتبت أيها المحتسب، المنتمي إلى النزاهة المنتسب، أهنيك ببلوغ تمنيك، وأحذرك من طمع نفس بالغرور تمنيك، فكأنني بك وقد طافت بركابك الباعة، ولزم أمرك السمع والطاعة، وارتفعت في مصانعتك الطماعة، وأخذت أهل الريب بغتة كما تقوم الساعة، ونهضت تقعد وتقيم، وسطوتك الريح العقيم، وبين يديك القسطاس المستقيم، ولا بد من شرك ينصب، وجماعة على ذي جاه تعصب، ودالة يمت بها الجناب الأخصب، فإن غضضت طرفك، أمنت على الولاية صرفك، وإن ملأت ظرفك، رحلت عنها حرفك، وإن كففت فيها كفك، حفك العز فيمن حفك، فكن لقالي المجبنة قالياً، ولحوت السلة سالياً، وأبد لدقيق الحواري زهد حواري، وازهد فيما بأيدي الناس من العواري، وسر في اجتناب الحلواء، على السبيل السواء، وارفض في الشواء، دواعي الأهواء، وكن على الهراس وصاحب ثريد الراس، شديد المراس، وثب على طبيخ الأعراس ليثاً مرهوب الافتراس، وأدب أطفال الفسوق في السوق، لا سيما من كان قبل البلوغ والبسوق، وصمم على استخراج الحقوق، والناس أصناف فمنهم خسيس يطمع منك في ألة، ومستعد عليك بوكزة أو ركلة، وحاسد في مطية تركب وعطية تسكب، فاخفض للحاسد جناحك، وسدد إلى حربه رماحك، وأشبع الخسيس منهم مرقة فإنه حنق، ودس له فيها عظماً لعله يختنق، واحفر

لشريرهم حفرة عميقة، فإنه العدو حقيقة، حتى إذا حصل، وعلمت أن وقت الانتصار قد اتصل، فأوقع وأوجع ولا ترجع، وأولياءه من الشياطين فافجع، والحق أقوى، وأن تعفو أقرب لتقوى، سددك الله تعالى إلى غرض التوفيق، وأعلقك من الحق بالسبب الوثيق، وجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق؛ انتهى.

٦ - ومما كتب به لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي بن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق من مدينة سلا ما نصه:

يا جملة الفضل والوفاء ::: ما بمعاليك من خفاء
عندي بالود فيك عقد ::: حفه الدهر باكتفاء
ما كنت أقضي حلاك حقًّا ::: لو جئت مدحاً بكل فاء
فأول وجه القبول عذري ::: وحسبك الشك في صفاء

سيدي الذي هو فصل جنسه، ومزية يومه على أمسه، فإن افتخر الدين من أبيك بدره افتخر منك بشمسه، رحلت على المنشا والقرارة، ومحل الصبوة والفرارة، فلم تتعلق نفسي بذخيرة، ولا عهد جيرة خيرة، كتعلقها بتلك الذات التي لطفت لطافة الراح، واشتملت بالمجد الصراح، شفقة أن تصيبها معرة والله تعالى يقيها، ويحفظها ويبقيها، إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل، والضد عن ضده منحرف بالطبع ومائل، فلما تعرفت خلاص سيدي من ذلك الوطن، وإلقاءه وراء الفرضة بالعطن، لم تبق لي تعلة، ولا أحرضتني له علة، ولا أوتي جمعي من قلة، فكتبت أهنئ نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى، وأعترف للزمان باليد الطولى، فالحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته، وأحيا الأنس بعد مماته، سبحانه لا مبدل لكلماته، وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه، فلا يستطيع حادث أن يصيبه، وأنا أخرج له عن بث كمين، ونصح أنا به قمين، بعد أن أسبر غوره، وأخبر طوره، وأرصد دوره، فإن كان له في التشريق أمل، وفي ركب الحجاز ناقة وجمل، والرأي فيه قد نجحت منه نية وعمل، فقد غني عن عرف البقرات، بأزكى الثمرات، وأطفأ هذه الجمرات،

برمي الجمرات، وتأنس بوصل السرى ووصال السراة، وأنا به إن رضيتني أرضى مرافق، ولواء عزي به خافق، وإن كان على السكون بناؤه، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه، فأمر له ما بعده، والله يحفظ من الغير سعده، والحق أن تحذف الأبهة وتختصر، ويحفظ اللسان ويغض البصر، وينخرط في الغمار، ويخلي عن المضمار، ويجعل من المحظور مداخلة من لا خلاق له، ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا عمله، فلا يكتم سراً، ولا يتطوق من الرجولة زراً، ويرفض زمام السلامة، وترك العلامة على النجاة علامة، وأما حالي فكما علمتم ملازم كن، ومهبط تجربة وسن، أزجي الأيام، وأروم بعد التفرق الالتئام، خالي اليد، مليء القلب والخلد، بفضل الواحد الصمد، عامل على الرحلة الحجازية التي أختارها لكم ولنفسي، واصل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور، والخلوص المشهور، وما أطلت في شيء عند قدومي على هذا الباب الكريم إطالتي فيما يختص بكم من موالاته، وبذل مجهود القول والعمل في مرضاته، وأما ذكركم في هذه الأوضاع فهو مما يقر عين المجادة، والوظيفة التي ينافس فيها أولو السادة، والله يصل بقاءكم، وييسر لقاءكم، والسلام " انتهى.

٧ - ومن نثر لسان الدين ما أثبته في الإحاطة في ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذي تكرر نقلنا منه في هذا التأليف:

ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول: قال رحمه الله تعالى في " الإحاطة " ما نصه: " عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثوار الأندلس، وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر، وحاله عند القدوم على رسول الله معروفة، انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة،

وتصرف جد المترجم به في القيادة. وأما المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الخصل، رفيع القدر، ظاهر الحياء، أصيل المجد، وقور المجلس، خاصي الزي، عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لقنن الرياسة، خاطب للحظ، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الخط، مغري بالتجلة، جواد حسن العشرة، مبذول المشاركة، مقيم لرسم التعيين، عاكف على رعي خلال الأصالة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية. قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال، والعربية على المقرئ الزواوي وغيره، وتأدب بأبيه، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله ابن جابر الوادي آشي، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله ابن عبد السلام، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطي، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلي وانتفع به، انصرف من إفريقية منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة، وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة، عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، وعرف فضله، وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان، واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأتي، وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك، فأغروا به السلطان إغراء عضده ما جبل عليه عهدئذ من إغفال التحفظ مما يريب لديه، فأصابته شدة تخلصه منها أجله، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك وهناة جواره، وإحدى العوازل لأولي الهوى في القول بفضله وعدم الخشوع وإهمال التوسل وإبادة المكسوب في سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجار المنزل الخشن، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده، فأعتبه قيم الملك لحينه، وأعاده إلى رسمه، ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة، إلى آخر أيامه. ولما ألقت الدولة مقادها بعده إلى الوزير

عمر بن عبد الله مدبر الأمر، وله إليه وسيلة وفي حيله شركة وعنده حق، رابه تقصيره عما ارتمى إليه أمله، فساء ما بينهما بما آل انفصاله عن الباب المريني، وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة، واهتز له السلطان، وأركب خاصته لتقليه، وأكرم وفادته، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه، ولم يدخر عنه براً ومؤاكلة ومطايبة وفكاهة.

٨ - وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن، فأجبته عنها بقولي:

حللت حلول الغيث في البلد المحل ::: على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه ::: من الشيخ والطفل المهدإ والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة ::: تنسي اغتباطي بالشبيبة والأهل

أقسمت بمن حجت قريش لبيته، وقبر صرفت أزمة الأحياء لميته، ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزيته، لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيفة، بين رجع الشباب يقطر ماء ويرف نماء، ويغاز عيون الكواكب فضلاً عن الكواعب إشارة وإيماء، بحيث لا الوخط يلم بسياج لكته، أو يقدح ذبالة في ظلمته، أو يقوم حواريه في ملته، من الأحابش وامته، وزمانه روح وراح، ومغدى في النعيم ومراح، وقصف صراح، ورقى وجراح، وانتحاب واقتراح، وصدور ما بها إلا انشراح، ومسرات تردفها أفراح، وبين قدومك خليع الرسن، ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن، محكماً في نسك الجنيد أو فتك الحسن، ممتعاً بظرف المعارف، مالئاً أكف الصيارف، ماحياً بأنوار البراهين شبه الزخارف، لما اخترت الشباب وإن راقني زمنه، وأعياني ثمنه، وأجرت سحائب دمعي دمنه، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي، وملكني أزمة آرابي، وغبطني بمائي وترابي، ومألف أترابي، وقد أغصني بلذيذ شرابي، ووقع على سطوره المعتبرة إضرابي، وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية، ومنتهى الطية، وملتقى السعود غير البطية، وتهني الآمال

الوثيرة الوطية، فما شئت من نفوس عاطشة إلى ربك، متجملة بزيك، عاقلة خطى مهريك، ومولى مكارمه نشيدة أمثالك، ومظان مثالك، وسيصدق الخبر ما هنالك، ويسع فضل مجدك في التخلف عن الإصحار، لا بل اللقاء من وراء البحار، والسلام.

٩ - ومن نثر لسان الدين ما ذكره في الإحاطة في ترجمة يحيى بن إبراهيم بن يحيى البرغواطي من بني الترجمان، ولنذكر الترجمة بجملتها لاشتمالها على ما ذكر وغيره في حق المذكور بعد قوله إنه من بني الترجمان ما صورته:

" عزف عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين، وصحبة الفقراء المتجردين، وكان نسيج وحده في طلاقة اللسان، حافظاً لكل غريبة من غرائب الصوفية، يتكلم في مشكلاتهم، حفظ " منازل السائرين " للهروي، وتائية ابن الفارض؛ مليح الملبس، مترفع عن الكدية، حسن الحديث، صاحب شهرة، ومع ذلك فمغضوض منه، محمول عليه، لما جبل عليه من رفض الاصطلاح، واطراح التغافل، مولع بالنقد، والمخالفة في كل ما يطرق سمعه، مرشحاً ذلك بالجدل المبرم، ذاهباً أقصى مذاهب القحة، كثير الفلتات، نالته بسبب هذه البلية محن، ووسم بالرهق في دينه مع صحة العقل، وهو الآن عامر الرباط المنسوب إلى اللجام على رسم الشياخة، عديم التابع، مهجور الفناء، قيد الكثير من الأجزاء منها في نسبة الذنب إلى الذاكر جزء نبيل غريب المأخذ، ومنها فيما أشكل من كتاب أبي محمد ابن الشيخ، وصنف كتاباً كبير الحجم في الاعتقادات جلب فيه كثيراً من الحكايات، رأيت عليه بخط شيخنا أبي عبد الله المقري ما يدل على استحسانه. ومن البرسام الذي يجري على لسانه، بين الجد والقحة والجهالة والمجانة، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق في شيء أضجره منقولاً من خطه - بعد رد كثير منه للإعراب - ما نصه: الله نور السموات من غير نار ولا غيرها، والسلطان ظل له وسراجه في الأرض، ولكل منهما فراش مما

يليق به ويتهافت عليه، فهو تعالى محرق فراشه بذاته، مغرقهم بصفاته وسراجه، وظله هو السلطان محرق فراشه بناره، مغرقهم بزيته ونواله، ففراش الله تعالى ينقسم إلى حافين ومسبحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين، وفراش السلطان ينقسمون إلى أقسام لا يشذ أحدهم عنها، وهم وزعة ابن وزغة، وكلب ابن كلب، وكلب مطلقاً، وعار ابن عار، وملعون ابن ملعون، وقط، فأما الوزغة فهو المغرق في زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصح وبذل الجهد، والكلب ابن الكلب هو الكيس المتحرز في تهافته من إحراق وإغراق يعطي بعض الحق ويأخذ بعضه، وأما الكلب مطلقاً فهو المواجه وهو المشرد للسفهاء عن الباب المعظم القليل النعمة، وأما العار ابن العار فهو المتعاطي في تهافته ما فوق الطوق، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مر بهم جلف أو متعاظم يقولون: هذا العار ابن العار، يحسب نفسه رئيساً، وذلك لقرب المناسبة؛ فهو موضوع لبعض الرياسة، كما أن، الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة، وأما الملعون ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربه المنعم عليه في كبريائه وسلطانه، وأما القط فهو الفقير مثلي المستغني عنه لكونه لا تختص به رتبة، فتارة في حجر الملك، وتارة في السنداس، وتارة في أعلى الرتب، وتارة محسن، وتارة مسيء، تغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة، إذ هو من الطواقين، متطير بقتله وإهانته، تياه في بعض الأحايين بعزة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع، وكل ذلك لا يخفى. وأما الفراش المحرق فهو عند الدول نوعان: تارة يكون ظاهراً وحصته مسح المصباح وتصفية زيته وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه، ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً، وأما المحرق الباطن فهو المشار إليه في دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظمه الخلق ويترك لما هو بسبيله، فيكون وسيلة بينهم وبين ربهم وخليفته الذي هو مصباحهم، فإذا أراد الله تعالى إهلاك المروءة وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة، وكان الأمر كما رأيتم، والكل فراش متهافت، وكل يعمل على شاكلته ".

١٠ - قال الوزير لسان الدين: وطلب مني الكتب عليه بمثل ذلك، فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره، واستدعاء لفكاهة انزعاجه، ما نصه:

وقفت الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام محموم، واختلاط مذموم، وانتساب زنج في روم، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها، ويتجنب عقيلة لم يملكها، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول، ولا نظر في الإعراب في فصل من الفصول، إنما هي قحة وخلاف، وتهاون بالمعارف واستخفاف، وغير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة، وفيه رجولية ظاهرة، وعنده طلاقة لسان، وكفاية قلما تتأتى لإنسان، فإلى الله تضرع أن يعرفنا مقادير الأشياء، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء.

١١ - ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق، ولنثبت الكل هنا فنقول: قال الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى، عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن بن زيان رحمه الله تعالى، ما صورته: وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب كثيراً ما يوجه إليه بالامداح، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة، وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه، لتمهد له مثواه، وتحصل له المستقر، إذا ألجأه الأمر إلى المفر، فلم تساعده الأيام، كما هو شأنها في أكثر الأعلام.

١٢ - ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب شيخه أبي عبد الله مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزمة أمر المغرب بيده أيام السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني رحم الله تعالى الجميع، ما صورته:

سيدي بل مالكي بل شافعي، ومنتشلي من الهفوة ورافعي، وعاصمي عند تجويد حروف الصنائع ونافعي، الذي بجاهه أجزلت المنازل قراي، وفضلت

أولاي والمنة لله تعالى أخراي، وأصبحت وقول الحسن هجيراي:

علقت بحبل من حبال محمد ::: أمنت به من طارق الحدثان
تغطيت من دهري بظل جناحه ::: فعيني أرى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت ::: وأين مكاني ما عرفن نكاني

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حداني حدو نداك، سحائب لولا الخصال المبرة قلت: يداك، وكان الوطن لاغتباطه بجواري، أوما رآه من انتياب زواري، أوغر إلى بهت يقطع الطريق، وأطلع يده على التفريق، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق، فلم يسع إلا المقام أياماً قعوداً في البر وقياماً، واختياراً لضروب الأنس واعتياماً، ورأيت بلدة معارفها أعلام، وهواؤها برد وسلام، ومحاسنها تعمل فيها ألسنة وأقلام، فحيا الله تعالى سيدي فلكم من فضل أفاد، وأنس أحياه وقد باد، وحفظ منه على الأيام الذخر والعتاد، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد، وأنا أتطارح عليه في صلات تفقده، وموالاة يده، بأن يسهمني في فرض مخاطبته مهما خاطب معتبراً بهذه الجهات، ويصحبني من مناصحته بكؤوس مسرة يعمل فيها هاك و هات، فالعز بعزه معقود، والسعد بوجوده موجود، ومنهل السرور بسروره مورود، والله عز وجل يبقيه بقاء الدهر، ويجعل حبه وظيفة السر وحمده وظيفة الجهر ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر، ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام والشهر بالشهر، آمين آمين انتهى.

١٣ - ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد الله ابن أبي القاسم بن أبي مدين يهينه بتقلد المنصب من رسالة قوله:

تعود الأماني بعد انصراف ::: ويعتدل الشيء بعد انحراف
فإن كان دهرك يوماً جنى ::: فقد جاء ذا خجل واعتراف

طلع البشير أبقاك الله تعالى بقبول الخلافة المرينية، والإمامة السنية، خصها الله تعالى ببلوغ الأمنية، على تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت، وتأوهت

العلياء لتذكر عهدها وبكت، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث الذي تركت، فلولا العذر الذي تأكدت ضرورته، والمانع الذي ربما تقررت لديكم صورته، لكنت أول مشافه بالهناء، ومصارف لهذا الاعتناء، الوثيق البناء، بنقود الحمد لله والثناء، وهي طويلة.

١٤ - ومما خاطب به رحمه الله تعالى قاضي الجماعة وقد نالته مشقة جرها غلط الخدام السوء واشتراك الأسماء، أعتبه عندها السلطان وخلع عليه وأشاد بقدرة بما نصه:

تعرفت أمراً ساءني ثم سرني ::: وفي صحة الأيام لا بد من مرض
تعمدك المحبوب بالذات بعدما ::: جرى ضده، والله يكفيه بالعرض

في مثلها سيدي يحمد الاختصار، وتقصر الأنصار، وتصرف الأبصار، إذ لم يتعين ظالم، ولم يتبين يقظ ولا حالم، وإنما هي هدية أجر، وحقيقة وصل أعقبت مجاز هجر، وجرح جبار، وأمر ليس به اعتبار، ووقيعة لم يكن فيها إلا غبار، وعثرة القدم لا تنكر، والله سبحانه يحمد في كل حالة ويشكر، وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يشبه شائب، وحسن الولاية لم يعبه عائب، والرعي دائب، والجاني تائب، فما هو إلا الدهر الحسود، لمن يسود، خمش بيد ثم سترها، ورمى عن قوس ما أصلحها - والحمد لله - ولا أوترها، إنما باء بشينه، وجنى من مزيد العناية محنة عينه، ولا اعتراض على قدر، أعقب بحظ معتذر، وورد نغص بكدر، ثم أنس بإكرام صدر، وحسبنا أن نحمد الدفاع من الله تعالى والذب، ولا نقول مع الكظم إلا ما يرضي الرب، وإذا سابق أولياء سيدي في مضمار، وحماية ذمار، واستباق إلى بر وابتدار، بجهد اقتدار، فأنا ولا فخر متناول القصبة، وصاحب الدين من بين العصبة، لما بلوت من بر أوجبه الحسب، والفضل الموروث والمكتسب، ونصح وضح منه المذهب، وتنفيق راق منه الرداء المذهب، هذا مجمل وبيانه إلى وقت الحاجة مؤخر، ونبذة شره لتعجيلها يراع مسخر، والله سبحانه يعلم ما أنطوي عليه لسيدي من

إيجاب الحق، والسير على أوضح الطرق، والسلام؛ انتهى.

١٥ - وقال رحمه الله تعالى: خاطبت بعض الفضلاء بقولي مما يظهر من الجملة غرضة:

تعرضت قرب الدار ممن أحبه ::: فكنت أجد السير لولا ضروره
لأتلو من آي المحامد سورة ::: وأبصر من شخص المحاسن صوره

كنت أبقاك الله تعالى لاغتباطي بولائك، وسروري بلقائك، أود أن أطوي إليك هذه المرحلة، وأجدد العهد بلقياك المؤملة، فمنع مانع، وما ندري في الآتي ما الله صانع، وعلى كل حال فشأني قد وضح منه سبيل مسلوك، وعلمه مالك ومملوك، واعتقادي أكثر مما تسعه العبارة، والألفاظ المستعارة، وموصلها ينوب عني في شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة، المتصفة بالعفاف والطهارة، والسلام.

١٦ - وقال سامحه الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله ابن نصر جبره الله تعالى عند وصول ولده من الأندلس:

الدهر فسحة من أن يرى ::: بالحزن والكمد المضاعف يقطع
وإذا قطعت زمانه في كربة ::: ضيعت في الأوهام ما لا يرجع
فاقنع بما أعطاك ربك واغتنم ::: منه السرور وخل ما لا ينفع

مولاي الذي له المنن، والخلق الجميل والخلق الحسن، والمجد الذي وضح منه السنن، كتبه عبدك مهنئاً بنعم الله تعالى التي أفاضها عليك، وجلبها إليك، من اجتماع شملك، بنجلك، وقضاء دينك، من قرة عينك، إلى ما تقدم من إفلاتك، وسلامة ذاتك، وتمزق أعدائك، وانفرادك بأودائك، والزمن ساعة في القصر، لا بل كلمح البصر، وكأني بالبساط قد طوي، والتراب على الكل قد سوي، فلا تبقى غبطة ولا حسرة، ولا كربة ولا يسرة، وإذا نظرت ما كنت فيه تجدك لا تنال منه إلا أكلة وفراشاً، وكناً ورياشاً، مع توقع الوقائع وارتقاب الفجائع، ودعاء المظلوم وصداع الجائع، فقد حصل ما كان عليه التعب، وأمن

الرهب، ووضح الأجر المذهب، والقدرة باقية، والأدعية راقية، وما تدري ما تحكم به الأقدار، ويتمخض عنه الليل والنهار، وأنت اليوم على زمانك بالخيار، فإن اعتبرت الحال واجتنبت المحال، لم يخف عليك أنك اليوم خير منك أمس، من غير شك ولا لبس، وكان من أملي التوجه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتني موانع، ولا ندري في الآتي ما الله تعالى صانع، فاستنبت هذه في تقبيل قدمه، والهناء بمقدمه، والسلام.

١٧ - وقال رحمه الله تعالى: قلت أخاطب محمد بن نوار، وقد أعرس ببنت مزوار الدار السلطانية، وهو معروف بالوسامة وحسن الصورة:

إن كنـــت في العـــرس ذا قصـــور ::: فـــلا حضـــور ولا دخالـــه
ينـــوب نظمـــي منـــاب تـــيس ::: والنشـــر عـــن قفـــة النخالـــة

هنـاكم الله سـبحانه دعـاء وخبـراً، وألبسـكم مـن السـرور حبـراً، وعـوذكم بالخمس، حتى من عين الشمس، فعمري لقد حصلت النسبة، ورضيت هذه المعيشة الحسبة، ومن يكن المزوار ذواقه، كيف لا يشق البدر أطواقه، وينشر القبول عليه رواقه، وأنتم أيضاً بركان جمال، وبقية رأس مال، ويمين في الانطباع وشمال، بمنزلكم اليوم بدر وهلال، ولعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال، فأنا أهنيكم بتسني أمانيكم، والسلام.

١٨ - وقال رحمه الله تعالى مخاطباً عميد مراكش المتميز بالرأي والسياسة والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي الهنتاني:

تقول لي الأظعان والشـوق في الحشـا ::: له الحكـم يمضـي بـين نـاه وآمـر
إذا جبل التوحيـد أصـبحت فارعـاً ::: فخـيم قـرار العـين في دار عـامر
وزر تربـــة المعلـــوم إن مزارهـــا ::: هو الحج يفضـي نحـوه كـل ضـامر
ســتلقى بمثــوى عــامر ابــن محمــد ::: ثغــور الأمــاني مــن ثنايــا البشــائر
ولله مـــا تبلـــوه مـــن ســـعد وجهـــه ::: ولله مـــا تلقـــاه مـــن يمـــن طـــائر
وتستعمل الأمثـال في الـدهر منكمـا ::: بخـــير مـــزور أو بـــأغبط زائـــر

لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيام والليال، إذ الشمل جميع، والزمان كله ربيع، والدهر مطيع سميع، إلا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية، فلما حم الواقع، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع، وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع، وحسنت من استدعائك إياي المواقع، وقوي العزم وإن لم يكن ضعيفاً، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً، والتمست الإذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريفاً، واستقبلتك بصدر مشروح، وزند للعزم مقدوح، والله سبحانه يحقق السول، ويسهل بمثوى الأماثل المثول، ويهيئ من قبل هنتاتة القبول، بفضله.

١٩ - وللسان الدين ابن الخطيب مقامة عظيمة بديعة وصف بها الأندلس والعدوة، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العجاب، وقد تركتها مع كتبي بالمغرب، ولم يحضرني منها الآن إلا قوله في وصف مدينة سبتة ما صورته:

" قلت: فمدينة سبتة، قال: عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى، تبرجت تبرج العقلية، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أسوارها، وكان جبل بنيونش شمامة أزهارها، والمنارة مناة أنوارها، كيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها إلى المينا الفلكية، والمراقي الفلكية، والركية الزكية، غير المنزورة ولا البكية، ذات الوقود الجزل، المعد للأزل، والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجوه الزهر السحن، المضنون بها عن المحن، دار الناشبة، والحامية المضرمة للحرب المناشبة، والأسطول المرهوب، المحذور الألهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب، كرسي الأمراء والأشراف، والوسيطة، لخامس أقاليم البسيطة، فلا حظ لها في الانحراف، بصرة علوم

اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ } [النحل: ٩٠]، الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتان، وكفاها السكنى ببنيونش في فصول الأزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم، غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم، إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب، لغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تعد من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة، وتلكفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز في الوائم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساجم، فلا يفضون على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة " انتهى.

وقد سلك في هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتفقيه، ووفاها من المدح وضده أكمل توفية، وعكس هذه الطريقة في نفاضة الجراب فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القراب.

٢٠ - فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة مكناسة الزيتون: وأطلت مدينة مكناسة في مظهر النجد، رافلة في حلل الدوح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل المراد، قد أحكم وضعها الذي أخرج المرعى، قيد النص وفذلكة الحسن، فنزلها بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً من بلد دارت به المداشر المغلة، والتفت بسوره الزياتين المفيدة، وراق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف، ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف ربوة، ومثلت بإزائها الزاوية القدمى المعدة للوارد، ذات

البركة النامية، والمئذنة السامية، والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين الغلق الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتغون من فضل الله.

تعالى، تقابلها غرباً الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال، إلى أن قال: وبداخلها مدارس ثلاث لبث العم، كلفت بها الملوك الجلة الهمم، وأخذها التنجيد، فجاءت فائقة الحسن، ماشئت من أبواب نحاسية، وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية، وفيها جزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين، وتفضل هذه المدينة كثيراً من لداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر لجوار ترابها سليماً من الفساد معافًى من العفن، إذ تقام ساحات منازلها غالباً على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة، قال ابن عبون من أهلها ولله دره:

إن تفتخـــر فـــاس بمـــا في طيهـــا ::: وبأنهـــا في زيهـــا حســـناء
يكفيـــك مـــن مكناســـة أرجاؤهـــا ::: والأطيبـــان: هواؤهـــا والمـــاء

ويسامتها شرقاً جبل زرهون، المنبجس العيون، الظاهر البركة، المتزاحم العمران، الكثير الزياتين والأشجار، قد جلله سكراً ورزقاً حسناً، فهو عنصر الخير، ومادة المجبى، وفي المدينة دور نبيهة، وبنى أصيلة، والله سبحانه ول من اشتملت عليه بقدرته، وفيها أقول:

بالحســـن مـــن مكناســـة الزيتـــون ::: قـــد صـــح عـــذر النـــاظر المفتـــون
فضـــل الهـــواء وصـــحة المـــاء الـــذي ::: يجـــري بها وســـلامة المخـــزون
ســـحت عليهـــا كـــل عـــين ثـــرة ::: للمـــزن هاميـــة الغمـــام هتـــون
فـــاحمر خـــد الـــورد بـــين أبـــاطح ::: وافتـــر ثغـــر الزهـــر بـــين غصـــون
ولقد كفاهـــا شـــاهداً مهمـــا ادعـــت ::: قصب السباق القـــرب مـــن زرهـــون
جبـــل تضـــاحكت الـــبروق بجـــوه ::: فبكـــت عـــذاب عيونـــه بعيـــون
وكأنمـــا هـــو بربـــري فاقـــد ::: في لوحـــه والـــتين والزيتـــون

حييت من بلد خصيب أرضه ::: مثوى أمان أو مناخ أمون
وضفت عليك من الإله عناية ::: تكسوك ثوبي أمنة وسكون

- ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر إلى سيد العالمين إثر نظم، ونص الكل هو:

إذا فاتني ظل الحمى ونعيمه ::: فحسب فؤادي أن يهب نسيمه
ويقنعني أني به متكنف ::: فزمزمه دمعي، وجسمي حطيمه
يعود فؤادي ذكر من سكن الغضا ::: فيقعده فوق الغضا ويقيمه
ولم أر شيئاً كالنسيم إذا سرى ::: شفى سقم القلب المشوق سقيمه
نعلل بالتذكار نفساً مشوقة ::: نُدير عليها كأسه ونديمه
وما شفني بالغور قد مرنح ::: ولا شافني من وحش وجرة ريمه
ولا سهرت عيني لبرق ثنية ::: من الثغر يبدو موهناً فأشيمه
براني شوق للنبي محمد ::: يسوم فؤادي برحه ما يسومه
ألا يا رسول الله ناداك ضارع ::: على النأي محفوظ الوداد سليمه
مشوق إذا ما الليل مد رواقه ::: تهم به تحت الظلام همومه
إذا ما حديث عنك جاءت به الصبا ::: شجاه من الشوق الحثيث قديمه
أيجهر بالنجوى وأنت سميعها ::: ويشرح ما يخفي وأنت عليمه
وتعوزه السقيا، وأنت غياثه ::: وتتلفه الشكوى، وأنت رحيمه
بنورك نور الله قد أشرق الهدى ::: فأقماره وضاحة ونجومه
لك انهل فضل الله بالأرض ساكباً ::: فأنواؤه ملتفة وغيومه
ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى ::: خليل الذي أوطاكها وكليمه
لك الخلق الأرضي الذي جل ذكره ::: ومجدك في الذكر العظيم عظيمه
يجل مدى علياك عن مدح مادح ::: فموسر در القول فيك عديمه
ولي يا رسول الله فيك وراثة ::: ومجدك لا ينسى الذمام كريمه
وعندي إلى أنصار دينك نسبة ::: هي الفخر لا يخشى انتقالاً مقيمه
وكان بودي أن أزور مبوأ ::: بك افتخرت أطلاله ورسومه
وقد يجهد الإنسان طرف اعتزامه ::: ويعوزه من بعد ذاك مرومه
وعذري في تسويف عزمي ظاهر ::: إذا ضاق عذر العزم عمن يلومه

عدتني بأقصى الغرب عن تربك العـــدا ::: جلالقـــة الثغـــر الغريـــب ورومـــه
أجاهـــد منـــهم في ســـبيلك أمـــة ::: هي البحر يعيـــي أمرهـــا مـــن يرومـــه
فلولا اعتناء منك يـــا ملجـــأ الـــورى ::: لريـــع حمـــاه واســـتبيح حريمـــه
فلا تقطع الحبـــل الـــذي قـــد وصـــلته ::: فمجـــدك موفـــور النـــوال عميمـــه
وأنت لنـــا الغيـــث الـــذي نســـتدره ::: وأنـــت لنـــا الظـــل الـــذي نســـتديمه
ولمـــا نـــأت داري وأعـــوز مطمعـــي ::: وأقلقـــني شـــوق يشـــب جحيمـــه
بعثـــت بهـــا جهـــد المقـــل معـــولاً ::: على مجدك الأعلى الذي جـــل خيمـــه
وكلت بهـــا همـــي وصـــدق قـــريحتي ::: فســـاعدني هـــاء الـــروي وميمـــه
فلا تنسني يا خير مـــن وطـــئ الثـــرى ::: فمثلـــك لا ينســـى لديـــه خديمـــه
عليـــك صـــلاة الله مـــا ذر شـــارق ::: وما راق من وجـــه الصـــباح وســـيمه

إلى رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب، وطبيب أدواء القلوب، والوسيلة إلى علام الغيوب، نبي الهدى الذي طهر قلبه، وغفر ذنبه، وختم به الرسالة ربه، وجرى في النفوس مجرى الأنفاس حبه، الشفيع المشفع يوم العرض، المحمود في ملأ السماء والأرض، صاحب اللواء المنشور يوم النشور، والمؤتمن على سر الكتاب المسطور، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور، المؤيد بكفاية الله وعصمته، الموفور حظه من عنايته ونعمته، الظل الخفاق على أمته، من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقاً، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقاً، فائدة الكون ومعناه، وسر الوجود الذي يبهر الوجود سناه، وصفي حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه، البشير الذي سبقت له البشرى، ورأى من آيات ربه الكبرى، ونزل فيه{سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ } [الإسراء: ١]، من الأنوار من عنصر نوره مستمدة والآثار تخلق وآثاره مستجدة، من طوي بساط الوحي لفقده، وسد دون حده، الذي انتقل في الغرر الكريمة نوره، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره، وطفقت الملائكة تجيئه وفودها وتزوره، وأخبرت الكتب المنزلة على الأنبياء بأسمائه

وصفاته، وأخذ عهد الإيمان به على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته، المفزع الأمنع الفزع الأكبر، والسند المعتمد عليه في أهوال المحشر، ذو المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس، وأقر بها الجن والإنس، من جماد يتكلم، وجذع لفراقه يتألم، وقمر له ينشق، وحجر يشهد أن ما جاء به هو الحق، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس، وماء من بين أصابعه يتبجس، وغمام باستسقائه يصوب، وطوي بصق في أجاجها فأصبح ماؤها وهو العذب المشروب، المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب، المسمى بالحاشر العاقب، ذو المجد البعيد المرامي والمراقب، أكرم من رفعت إليه وسيلة المعترف المغترب، ونجحت لديه قربة البعيد المقترب، سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي فاز بطاعته المحسنون، واستنقذ بشفاعته المذنبون، وسعد باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ما لمع برق، وهمع ودق، وطلعت شمس، ونسخ اليوم أمس: من عتيق شفاعته، وعبد طاعته، المعتصم بسببه، المؤمن بالله ثم به، المستشفي بذمره كلما تألم، المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلم، الذي إن ذكر تمثل طلوعه بين أصحابه وآله، وإن هب النسيم العاطر وجد فيه طيب خلاله، وإن سمع الأذان تذكر صوت بلاله، وإن ذكر القرآن استشعر تردد جبريل بين معاهده وخلاله، لاثم تربه، ومؤمل قربه، ورهين طاعته وحبه، المتوسل به إلى رضى ربه، يوسف بن إسماعيل بن نصر:

كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح، وخيل الوجد ذات جماح، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر، وانكسار لا يتاح له إلا بدنو مزارك الجبر، وكيف لا يعيي مشوقك الأمر، وتوطأ على كبده الجمر، وقد مطلت الأيام بالقدوم على تربك المقدسة اللحد، ووعدت الآمال ودانت بإخلاف الوعد، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت، والركائب إليك ما رحلت، والعزائم قالت وما فعلت، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرح، وطيور الآمال عن وكور العجز لم تبرح، فيا لها من معاهد فاز من حياها، ومشاهد ما أعطر رياها، بلاد

نيطت بها عليك التمائم، وأشرقت بنورك منها النجود والتهائم، ونزل في حجراتها عليك الملك، وانجلى بضياء فرقانك فيها الحلك، مدارس الآيات والسور، ومطالع المعجزات السافرة الغرر، حيث قضيت الفروض وحتمت، وافتتحت سورة الرحمن وختمت، وابتدئت الملة الحنيفية وتممت، ونسخت الآيات وأحكمت:

أما والذي بعثك بالحق هادياً، وأطلعك للخلق نوراً بادياً، لا يطفئ غلتي إلا شربك، ولا يسكن لوعتي إلا قربك، فما أسعد من أفاض من حرم الله إلى حرمك، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك، وعفر الخد في معاهدك ومعاهد أسرتك، وتردد ما بين داري بعثتك وهجرتك، وإني لما عاقتني عن زيارك العوائق، وإن كان شغلي عنك بك، وعدتني الأعداء فيك عن وصل سببي بسببك، وأصبحت بين بحر تتلاطم أمواجه، وعدو تتكاثف أفواجه، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه - في طائفة من المؤمنين بك وطنوا على الصبر نفوسهم، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم، ورفعوا إلى مصارختك رءوسهم، واستعذبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك بوشهم، يطيرون من هيعة إلى أخرى، ويلتفتون والمخاوف عن يمنى ويسرى، ويقارعون وهم الفئة القليلة جموعاً كجموع قيصر وكسرى، لا يبلغون من عدو هو الذر عند انتشاره، عشر معشاره، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، فيا له من سرب مروع، وصريخ إلا منك ممنوع، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع، وصبية حمر الحواصل، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل، والصليب قد تمطى فمد ذراعيه، ورفعت الأطماع بضبعيه، وقد حجبت بالقتام السماء، وتلاطمت أمواج الحديد، والبأس الشديد، فالتقى الماء، ولم يبق إلا الذماء، وعلى ذلك فما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى تكاد تشاهده العيون، إلى أن نلقاك غذاً إن شاء الله تعالى وقد أبلينا العذر، وأرغمنا الكفر، وأعملنا في سبيل الله

تعالى سبيلك البيض والسمر - استنبت رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق، وتسعد من نيتي التي تصحبها برفيق موافق، فتؤدي عن عبدك وتبلغ، وتعفر الخد في تربك وتمرغ، وتطيب بريا معاهدك الطاهرة وبيوتك، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك، وتقول بلسان التملق، عند التشبث بأسبابك والتعلق، منكسرة الطرف، حذراً بهرجها من عدم الصرف: يا غياث الأمة، وغمام الرحمة، ارحم غربتي وانقطاعي، وتغمد بطولك قصر باعي، وقوِّ على هيبتك خور طباعي، فكم جزت من لج مهول، وجبت من حزون وسهول، وقابل بالقبول نيابتي، وعجل بالرضى إجابتي، ومعلوم من كمال تلك الشيم، وسجايا تيك الديم، أن لا يخيب قصد من حط بفنائها، ولا يظمأ وارد أكب على إنائها.

اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى، وآخرهم بالصورة، وأعطيته لواء الحمد يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة، وملكت أمته ما زوي له من زوايا البسيطة المعمورة، وجعلتني من أمته المجبولة على حبه المفطورة، وشوقتني إلى معاهده المبرورة، ومشاهده المزروة، ووكلت لساني بالصلاة عليه، وقلبي بالحنين إليه، ورغبتني بالتماس ما لديه، فلا تقطع منه أسبابي، ولا تحرمني من حبه ثوابي، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي.

هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره، وشط مزاره، ولم يجعل بيده

اختياره. فإن لم تكن للقبول أهلاً فأنت للإغضاء والسماح أهل، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل، وإن كان الحب يتوارث كما أخبرت، والعروق تدس حسبما إليه أشرت، فلي بانتسابي إلى سعد عميد أنصارك مزية، ووسيلة أثيرة حفية، فإن لم يكن لي عمل ترتضيه فلي نية، فلا تنسني ومن بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك، على أيدي خيار أمتك، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك، نعوذ بوجه ربك من إغفالك، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة، ونرتقب من محيا قبولك لمحة، ندافع بها عدواً طغى وبغى، وبلغ نم

مضايقتنا ما ابتغى، فمواقف التمحيص قد أعيت من كتب وورخ، والبحر قد أصمت من استصرخ، والطاغية في العدوان مستبصر، والعدو محلق والولي مقصر، وبجاهك ندفع ما لا نطيق، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق، فلا تفردنا ولا تهملنا، وناد ربك فينا: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا} [البقرة: ٢٨٦]، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم، وربك يقول لك وقوله الحق: { وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ } [الأنفال: ٣٣]، والصلاة والسلام عليك يا خير من طاف وسعى، وأجاب داعياً إذا دعا، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك، صلاة تليق بجلالك، وتحق لكمالك، وعلى ضجيعيك وصديقيك، وحبيبيك ورفيقيك، خليفتك في أمتك، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرِّك ونحلتك، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك، بدر سمائك ووالد أهلتك، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيراً أثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته، وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة، صانها الله تعالى ووقاها، ودفع عنها ببركتك كيد عداها انتهت الرسالة.

* * *

وكتب أيضاً إلى رسول الله على لسان مخدومه

السلطان الغني بالله محمد ابن السلطان أبي الحجاج - رحم الله تعالى الجميع - ما صورته:

دعاك بأقصى المغربين غريب ::: وأنت على بعد المزار قريب
مدل بأسباب الرجاء وطرفه ::: غضيض على حكم الحياء مريب
يكلف قرص البدر حمل تحية ::: إذا ما هوى والشمس حين تغيب
لترجع من تلك المعالم غدوة ::: وقد ذاع من رد التحية طيب
ويستودع الريح الشمال شمائلاً ::: من الحب لم يعلم بهن رقيب
ويطلب في جيب الجيوب جوابها ::: إذا ما أطلت والصباح جنيب
ويستفهم الكف الخضيب ودمعه ::: غراماً بحناء النجيع خضيب
ويتبع آثار المطي مشيعاً ::: وقد زمزم الحادي وحن نجيب

إذا أثـر الأخفـاف لاحـت محاربـاً ::: يخـر عليهـا راكعـاً وينيـب
ويلقي ركـاب الحـج وهـي قوافـل ::: طـلاح وقـد لـبى النـداء لبيـب
فـلا قـول إلا أنـة وتوجـع ::: ولا حـول إلا زفـرة ونحيـب
غليـل ولكـن مـن قبولـك منـهل ::: عليـل ولكـن مـن رضـاك طبيـب
ألا ليـت شـعري والأمـاني ضـلة ::: وقـد تخطـئ الآمـال ثم تصـيب
أينجـد نجـد بعـد شـحط مـزاره ::: ويكثـب بعـد البعـد منـه كثيـب
وتقضى ديـوني بعـدما مطـل المـدى ::: وينفـذ بيعـي والمبيـع معيـب
وهل أقتضي دهـري فيسـمح طائعـاً ::: وأدعـو بحظـي مسـمعاً فيجيـب
ويا ليت شعري هـل لحـومي مـورد ::: لـديك وهـل لي في رضـاك نصـيب
ولكنـك المـولى الجـواد وجـاره ::: على أي حـال كـان لـيس يخيـب
وكيف يضيق الـذرع يومـاً بقاصـد ::: وذاك الجنـاب المسـتجار رحيـب
ومـا هـاجني إلا تـألق بـارق ::: يلـوح بفـود الليـل منـه مشـيب
ذكرت بـه ركـب الحجـاز وجـيرة ::: أهـاب بها نحـو الحبيـب مهيـب
فبـت وجفـني مـن لآلـئ دمعـه ::: غـني وصـبري للشـجون سـليب
تـرنحني الـذكرى ويهفـو بي الجـوى ::: كما مال غصـن في الريـاض رطيـب
وأحضـر تعلـيلاً لشـوقي بـالمنى ::: ويطـرق وجـد غالـب فأغيـب
مرامـي، لـو أعطـى الأمـاني، زورة ::: يبـث غـرام عنـدها ووجيـب
فقـول حبيـب إذا يقـول تشـوقاً ::: عسـى وطـن يـدنو إلي حبيـب
تعجبت من سيفي وقد جـاور الغضـا ::: بقلـبي فلـم يسـكبه منـه مـذيب
وأعجب أن لا يورق الـرمح في يـدي ::: ومن فوقـه غيـث المشـوق سـكيب
فيا سرح ذاك الحي لـو أخلـف الحيـا ::: لأغناك من صـوب الـدموع صـبيب
ويـا هـاجر الجـو الجـديب تلبثـاً ::: فعهـدي رطـب الجـانبين خصـيب
ويا قـادح الزنـد الشـحاح ترفقـاً ::: عليـك فشـوقي الخـارجي شـبيب
أيـا خـاتم الرسـل المكـين مكانـه ::: حديث الغريب الـدار فيـك غريـب
فـؤادي علـى جمـر البعـاد مقلـب ::: يمـاح عليـه للـدموع قليـب
فـوالله مـا يـزداد إلا تلـهباً ::: أأبصـرت مـاءً ثـار عنـه لهيـب
فليلتـه ليـل السـليم ويومهـا ::: إذا شد للشـوق العصـاب عصـيب
هواي هـدى فيـك اهتـديت بنـوره ::: ومنتسـبي للصـحب منـك نسـيب

وحسبي على أني لصحبك منتم ::: وللخزرجيين الكرام نسيب
عدت عن مغانيك المشوقة للعدا ::: عقارب لا يخفى لهن دبيب
حراً على إطفاء نور قدحته ::: فمستلب من دونه وسليب
فكم من شهيد في رضاك مجدل ::: يظلله نسر ويندب ذيب
تمر الرياح الغفل فوق كلومهم ::: فتعبق من أنفاسها وتطيب
بنصرك عنك الشغل من غير منة ::: وهل يتساوى مشهد ومغيب
فإن صح منك الحظ طاوعت المنى ::: ويبعد مرمى السهم وهو مصيب
ولولاك لم يعجم من الروم عودها ::: فعود الصليب الأعجمي صليب
وقد كانت الأحوال، لولا مراغب ::: ضمنت ووعد بالظهور، تريب
فما شئت من نصر عزيز وأنعم ::: أثاب بهن المؤمنين مثيب
منابر عز أذن الفتح فوقها ::: وأفصح للعضب الطرير خطيب
نقود إلى هيجائها كل صائل ::: كما ريع مكحول اللحاظ ربيب
ونجتاب من سرد اليقين مدارعاً ::: يكفتها من يجتني ويثيب
إذا اضطربت الخطي حول غديرها ::: يروقك منها لجة وقضيب
فعذراً وإغضاء ولا تنس صارخاً ::: بعزك يرجو أن يجيب مجيب
وجاهك بعد الله نرجو، وإنه ::: لحظ مليء بالوفاء رغيب
عليك صلاة الله ما طيب الفضا ::: عليك مطيل بالثناء مطيب
وما اهتز قد للغصون مرنح ::: وما افتر ثغر للبروق شنيب

إلى حجة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره، وفائدة الكون ونكتة أدواره، وصفوة نوع البشر ومنتهى أطواره، إلى المجتبى وموجود الوجود لم يغن بمطلق الوجود عديمه، المصطفى نم ذرية آدم قبل أن يكسو العظام أديمه، المحتوم في القدم، وظلمات العدم، عند صدق القدم، تفضيله وتقديمه، إلى وديعة النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر، ودرة الأنبياء التي لها الفضل على الدرر، وغمام الرحمة الهامية الدرر، إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتبائه، وحبيبه الذي له المزية على أحبائه، وذرية أنبياء الله تعالى آبائه، إلى الذي شرح صدره وغسله، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله، وأتم عليه إنعامه الذي أجزله، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله، إلى بشرى المسيح

والذبيح، ومن لهم التجر الربيح، المنصور بالرعب والريح، المخصوص بالنسب الصريح، إلى الذي جعله في المحول غماماً، وللأنبياء إماماً، وشق صدره لتلقي روح أمره غلاماً، وأعلم به في التوراة والإنجيل إعلاماً، وعلم المؤمنين صلاة عليه وسلاماً، إلى الشفيع الذي لا ترد في العصاة شفاعته، والوجيه الذي قرنت بطاعة الله تعالى طاعته، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى الله تعالى في أهل الجرائم ضراعته، صاحب الآيات التي لا يسع ردها، والمعجزات التي أربى على الألف عدها، فمن قمر شق، وجذع حن له وحق، وبنان يتفجر بالماء، فيقوم بري الظماء، وطعام يشبع الجمع الكثير يسيره، وغمام يظلل به مقامه ومسيره، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض، وأول من تنشق عنه الأرض، ووسيلة الله تعالى التي لولاها ما أقرض القرض، ولا عرف النفل والفرض، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذي الجلال، الشاهد بصدقه صحف الأنبياء وكتب الإرسال، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال، ما ذر شارق، وأومض بارق، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق، صلاة تتأرج على شذا الزهر، وتتبلج عن سنا الكواكب الزهر، وتتردد بين السر والجهر، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر، وتدوم بدوام الدهر:

من عبد هداه، ومستقري مواقع نداه، ومزاحم أبناء أنصاره في منتداه، وبعض سهامه المفوقة إلى نحور عداه، مؤمل العتق من النار بشفاعته، ومحرز طاعة الجبار بطاعته، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى وإضاعته، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة، وذخائر في الشدائد مرتجاة، متاجر بضائعها غير مزجاة، الذي ملأ بحبه جوانح صدره، وجعل فكره هالة لبدره، وأوجب حقه على قدر العبد لا على قدره، محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي، نسيب سعد بن عبادة من أصحابه، وبوارق سحابه، وسيوف نصرته، وأقطاب دار هجرته، ظلله الله تعالى يوم الفزع الأكبر من رضاك عنه

بظلال الأمان، كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان، وجعله من أهل السياحة في فضاء حبك والهيمان:

كتبه إليك يا رسول الله - واليراع تقتضي الهيبة صفرة لونه، والمداد يكاد أن يحول سواد جونه، وورقة الكتاب يخفق فؤادها حرصاً على حفظ اسمك الكريم وصونه، والدمع يقطر به الحروف وتفصل الأسطر، وتوهم المثول، بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر، عن قلب بالبعد عنك قريح، وجفن بالبكاء جريح، وتأوه عن تبريح، كلما هب من أرضك نسيم ريح، وانكسار ليس له إلا جبرك، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك، وإن يقض فقبرك، وكيف لا يسلم في مثلها الأسى، ويوحش الصباح والمسا، ويرجف جبل الصبر بعدما رسا، لولا لعل وعسى، فقد سارت الركبان إليك ولم يقض مسير، وحومت الأسراب عليك والجناح كسير، وعدت الآمال فأخلفت، وحلفت العزائم فلم تف بما حلفت، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل، إلا على التمثيل، ولا من المعالم المتمسة التنوير، إلا على التصوير، مهبط وحي الله تعالى ومتنزل أسمائه، ومتردد ملائكة سمائه، ومدافن أوليائه، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه، رزقني الله تعالى الرضا بقضائه، والصبر على جاحم البعد ورمضائه - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك، ومسحبة رجلك يا رسول الله وخيلك، وأنأى مطارح دعوتك ومساحب ذيلك، حيث مصاف الجهاد في سبيل الله وسبيلك قد ظللها القتام، وشهبان الأسنة أطلعها منه الإعتام، وأسواق بيع النفوس من الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام، حيث الجراح قد تحلت بعسجد نجيعها النحور، والشهداء نتحف بها الحور، والأمم الغريبة قد قطعها عن المدد البحور، حيث المباسم المفترة، تجلوها المصارع البرة، فتحييها بالعراء ثغور الأزاهر، وتندبها صوادح الأدواح برنات تلك المزاهر، وتحلي السحاب أشلاءها المعطلة من ظلها بالجواهر، وحيث الإسلام من عدوه المكايد بمنزلة قطرة من عارض

غمام، وحصاة من ثبير أو شمام، وقد سدت الطريق، وأسلم الفراق الفريق، وأغص الريق، ويئس من الساحل الغريق، إلا أن الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل الله تعالى وحبلك، المهتدية بأدلة سبلك، سالم والحمد لله تعالى من الانصداع، محروس بفضل الله تعالى من الابتداع، مقدود من جديد الملة، معدوم فيه وجود الطوائف المضلة، إلا ما يخص الكفر من هذه العلة، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلة.

ولهذه الأيام يا رسول الله أقام الله تعالى أوده براً بوجهك الوجيه ورعياً، وإنجازاً لوعدك وهو الذي لا يخلف وعداً ولا يخيب سعياً، وفتح لنا فتوحاً أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب، وبشرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع التثريب، ونصرنا وله المنة على عبدة الصليب، وجعل لألفنا الرديني ولامنا السردي حكم التغليب، وإذا كانت الموالي التي طوقت الأعناق مننها، وقررت العوائد الحسان سيرها وسننها، تبادر إليها نوابها الصرحاء وخدامها النصحاء بالبشائر، والمسرات التي تشاع في العشائر، وتجلو لديها نتائج أيديها، وغايات مباديها، وتتاحفها وتهاديها، بمجاني جناتها وأزاهر غواديها، وتطرف محاضرها بطرف بواديها، فبابك يا رسول الله أولى بذلك وأحق، ولك الحق الحق، والحر منا عبدك المسترق، حسبما سجله الرق، وفي رضاك من كل من يلتمس رضاه المطمع، ومثواك المجمع، وملوك الإسلام في الحقيقة عبيد سدتك المؤملة، وخول مثابتك المحسنة بالحسنات المجملة، وشهب تعشو إلى بدورك المكملة، وبعض سيوفك المقلدة في سبيل الله تعالى المحملة، وحرسة مهادك، وسلاح جهادك، وبروق عهادك.

وإن مكفول احترامك الذي لا يخفر، وربي إنعامك الذي لا يكفر، وملتحف جاهك الذي يمحى ذنبه بشفاعتك إن شاء الله تعالى ويغفر، يطالع روضة الجنة المفتحة أبوابها بمثواك، ويفاتح صوان القدس الذي أجنك وحواك ويذثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذي طواك، ويعرض جنى ما غرست وبذرت،

ومصداق ما بشرت به لما بشرت وأنذرت، وما انتهى إليه طلق جهادك، ومصب عهادك، لتقر عين نصحك التي أنام العيون الساهرة هجوعها، وأشبع البطون، ورواها ظمؤها في الله تعالى وجوعها، وإن كانت الأمور بمرأى من عين عنايتك، وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنايتك، ومجمله يا رسول الله صلى الله عليك، وبلغ وسيلتي إليك، هو الله سبحانه لما عرفني لطفه الخفي في التمحيص، المقتضي عدم المحيص، ثم في التخصيص، المغني بعيانه عن التنصيص، وفق ببركاتك السارية رحماتها في القلوب، ووسائل محبتك العائدة بنيل المطلوب، إلى استفادة عظة واعتبار، واغتنام إقبال بعد إدبار، ومزيد استبصار، واستعانة بالله تعالى وانتصار، فسكن هبوب الكفر بعد إعصار، وحل مخنق الإسلام بعد حصار، وجرت على سنن السنة بحسب الاستطاعة والمنة السيرة، وجبرت بجاهك القلوب الكسيرة، وسهلت المآرب العسيرة، ورفع بيد العزة الضيم، وكشف بنور البصيرة الغيم، وظهر القليل على الكثير، وباء الكفر بخطة التعثير، واستوى الدين الحنيف على المهاد الوثير، فاهتبلنا يا رسول الله غرة العدو وانتهزناها، وشمنا صوارم عزة الغدو وهززناها، وأزحنا علل الجيوش وجهزناها.

فكان مما ساعد عليه القدر، والخطب المبتدر، والورد الذي حسن بعده الصدر، أننا عاجلنا مدينة برغه، وقد جرعت الأختين مالقة ورندة، من مدائن دينك، ومزابن ميادينك، أكواس الفراق، وأذكرت مثل من بالعراق، وسدت طرق التزاور عن الطراق، وأسألت المسيل بالنجيع المراق، في مراصد المراد والمراق، ومنعت المراسلة مع هدير الحمام، لا بل مع طيف المنام عند الإلمام، فيسر الله تعالى اقتحامها، وألحمت بيض الشفار في زرق الكفار إلحامها، وأزال السيوف من بين تلك الحروف إقحامها، فانطلق المسرى، واستبشرت القواعد الحسرى، وعدمت بطريقها المخيف مصارع الصرعى ومثاقف الأسرى، والحمد لله على فتحه الأسنى، ومنحه الأسرى، ولا إله إلا هو منفل قيصر

وكسرى، و فاتح مغلفاتهما المنيعة قسراً؛ وا ستولى الإ سلام منها على قرار جنات، وأم بنات، وقاعدة حصون، وشجرة غصون، طهرت مساجدها المغتصبة المكر هة، وفجع بحفظها الفيل الأفيل وأبر هة، وانطلقت بذكر الله الألسنة المدرهة، و فاز بسبق ميدانها جيادك الفر هة، هذا وطاغية الروم على توفر جمو عه، و هول مرئيه ومسموعه، قريب جواره، بحيث يتصل خواره، وقد حرك إليها الحنين حواره.

" ثم نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذي أعيا النطاسي علاجه، وكرك هذا القطر الذي لا تطاول أعلامه ولا تصاول أعلاجه، وركاب الغارات التي تطوي المراحل إلى مكايدة المسلمين طي البرود، وحجر الحيات التي لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود، و منغص الورود في العذب المورود، ومقض المضاجع، وحلم الهاجع، ومجهز الخطب الفاجئ الفاجع، ومستدرك فاتكة الراجع، قبل هبوب الطائر الساجع، حصن آشر حماه الله تعالى دعاء لا خبراً، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبراً، فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجيد، وأذلوا عزته بعزة ذي العرش المجيد، وحفت به الرايات يسمها وسمك، ويلوح في صفحاتها اسم الله تعالى واسمك، فلا ترى إلا نفوساً تتزاحم على مورد الشهادة أسرابها، وليوثاً يصدق في الله تعالى ضرابها، وأرسل الله عليها رجزاً إسرائيلياً من جراد السهام، تنش آياته عن الإفهام، وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام، من بعد الاستغلاق والاستبهام، وقد عبثت جوارح صخوره في قنائص الهام، وأعيا صعبه على الجيش اللهام، فأخذ مسائغه النقض والنقب، ورغا فوق أهله السقب، ونصبت المعارج والمراقي، وقرعت المناكب والتراقي، واغتنم الصادقون مع الله تعالى الحظ الباقي، وقال الشيهد السابق: يا فوز استباقي، ودخل البلد فألحم السيف، واستلبت البحت والزيف، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامك في أبراجها المشيدة، وظفر ناشد دينك منها بالنشيدة، وشكر الله تعالى في قصدها مساعي النصائح الرشيدة، وعمل ما يرضيك يا

رسول الله في سد ثلمها، وصون مستلمها، ومداواة ألمها، حرصاً على الاقتداء في مثلها بأعمالك، والاهتداء بمشكاة كمالك، ورتب فيها الحماة تشجي العدو، وتصل في مرضاة الله تعالى، ومرضاتك برواحها الغدو.

ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلتها بالجناح الساتر، وأنامتها في ضمان الأمان للحسام الباتر، وقد وتر الإسلام من هذه المومسة البائسة بوتر الواتر، وأحفظ منها بأذى الوقاح المهاتر، لما جرته على أسرة من عمل الخاتل الخاتر، حسب المنقول لا بل المتواتر، فطوى إليها المسلمون المدى النازح، ولم تشك المطي الروازح، وصدق الجد جدها المازح، وخففت فوق أوكارها أجنحة الأعلام، وغشيتها أفواج الملائكة الموسومة وظلال الغمام، وصابت من السهام ودق الرهام، وكاد يكفي السهام على الأرض ارتجاج أجوائها بكلمة الإسلام، وقد صم خاطب عروس الشهادة عن الملام، وسمح بالعزيز المصون مبايع الملك العلام، وتكلم لسان الحديد الصامت وصمت إلا بذكر الله لسان الكلام، ووفت الأوتار بالأوتار، ووصل بالخطي ذرع الأبيض البتار، وسلطت النار على أربابها، وأذن الله تعالى في تبار تلك الأمة وتبابها، فنزلوا على حكم السيف آلافاً، بعد أن أتلفوا بالسلاح إتلافاً، واستوعب المقاتلة كتافاً، وقرنوا في الجدل أكتافاً أكتافاً، وحملت العقائل والخرائد، والولدان والولائد، إركاباً من فوق الظهور وإردافاً، وأقلت منها أفلاك الحمول بدوراً تضيء من ليالي المحاق أسدافاً، وامتلأت الأيدي من المواهب والغنائم، بما لا يصوره حلم النائم، وتركت العوافي تتداعى إلى تلك الولائم، وتفنن من مطاعمها في الملائم، وشنت الغارات على حمص فجلت خارجها مغاراً، وكست كبار الروم بها صغاراً، وأجحرت أبطالها إجحاراً، واستاقت من النعم ما لا يقبل الحصر استبحاراً.

ولم يكن إلا أن عدل القسم، واستقل بالقفول العزيز الرسم، ووضح من التوفيق الوسم، فكانت الحركة إلى قاعدة جيان قيعة الظل الأبرد، ونسيجة

المنوال المفرد، وكناس الغيد الخرد، وكرسي الإمارة، وبحر العمارة، ومهوى هوى الغيث الهتون، وحزب التين والزيتون، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجانيه، وتشرق بشواطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانيه، والقلعة التي تختمت بنان شرفاتها بخواتيم النجوم، وهمت من دون سحابها البيض سحائب الغيث السجوم، والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها، وهجوم فراقها، سمة الوجوم لذلك الهجوم، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة، وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصادعة، وحبتها بالفادحة الفادعة، فغصت الربى والوهاد بالتكبير والتهليل، وتجاوبت الخيل بالصهيل، وانهالت الجموع المجاهدة في الله تعالى انهيال الكثيب المهيل، وفهمت نفوس العباد المجاهدة في الله تعالى حق الجهاد معاني التيسير من ربها والتسهيل، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل، وأربت المحلات المسلمة على التأميل، ولما صبحتها النواصي المقبلة الغرر والأعلام المكتتبة الطرر، برز حاميتها مصحرين، وللحوزة المستباحة منتصرين، فكاثرهم من سرعان الأبطال رجل الدبا، وذبت الوهاد والربى، فأقحموهم من وراء السور، وأسرعت أقلام الرماح في بسط عددهم المكسور، وتركت صرعاهم ولائم للنسور، ثم اقتحموا ربض المدينة الأعظم ففرعوه، وجدلوا من دافع عن أسواره وصرعوه، وأكواس الحتوف جرعوه، ولم يتصل أولى الناس بأخراهم، ويحمد بمخيم النصر العزيز سراهم، حتى خذل الكافر الصبر وأسلم الجلد، ونزل على المسلمين النصر فدخل البلد، وطاح في السيل الجارف الوالد منه والولد، وأتهم المطرف والمتلد، فكان هولاً بعيد الشناعة، وبعثاً كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود، والسلالم عن مطاولة النجود، والأيدي عن ردم الخنادق والأغوار، والأكبش عن مناطحة الأسوار، والنفوط عن إصعاق الفجار، وعمد الحديد، ومعاول البأس الشديد، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار، فهيلت الكثبان، وأبيد الشيب والشبان، وكسرت الصلبان، وفجع بهدم الكنائس الرهبان، وأهبطت النواقيس من مراقيها العالية وصروحها المتعالية، وخلعت ألسنتها الكاذبة، ونقل ما استطاعته الأيدي

المجاذبة، وعجزت عن الأسلاب ذوات الظهور، وجلل الإسلام شعار العز والظهور، بما خلت عن مثله سوالف الدهور والأعوام والشهور، وأعرست الشهداء ومن النفوس المبيعة من الله تعالى نحل الصدقات والمهور، ومن بعد ذلك هدم السور، ومحيت عن محيطه المحكم السطور، وكاد يسير ذلك الجبل الذي اقتعدته ويدك ذلك الطور، ومن بعد ما خرب الوجار، عقرت الأشجار، وعفر المنار، وسلطت على بنات التراب والماء والنار، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب، وأصمى لبتها السهم الصائب، وجللتها القشاعم العصائب، فالذئاب في الليل البهيم تعسل، والضباع من الحدب البعيد تنسل، وقد ضاقت الجدل عن المخانق، وبيع العرض الثمين بالدائق، وسبكت أسورة الأسوار، وسويت الهضاب بالأغوار، واكتسحت الأحواز القاصية سرايا الغوار، وحجبت بالدخان مطالع الأنوار، وتخلفت قاعتها عبرة للمعتبرين وعظة للناظرين، وآية للمستبصرين، ونادى لسان الحمية، يا لثارات الإسكندرية، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين، وأحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين.

ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى، ولدتها الحزينة عليها العبرى، مدينة أبدة ذات العمران المستبحر، والربض الخرق المصحر، والمباني الشم الأنوف، وعقائل المصانع الجمة الحلي والشنوف، والغاب الأنوف، بلدة التجر، والعسكر المجر، وأفق الضلال الفاجر الكذب على الله تعالى الكاذب الفجر، فخذل الله تعالى حاميتها التي يعيي الحسبان عدها، وسجر بحورها التي لا يرام مدها، وحقت عليها كلمة الله تعالى التي لا يستطاع ردها، فدخلت لأول وهلة، واستوعب جمها والمنة لله تعالى في نهلة، ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة، فلا تناولها العفا والتخريب، واستباحها الفتح القريب، وأسند عن عواليها حديث النصر الحسن الغريب، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب، وأضرعت مسيفها لهول المصاب، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذي عظم صيته، والعز الذي سما طرفه واشرأب ليته، والعزم الذي حمد مسراه ومبينه، والحمد لله ناظم

الأمر وقد راب شتيته، وجابر الكسر وقد أفات الجبر مفتيه.

ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومثوى الطارف والتلاد، قرطبة، وما قرطبة المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان أعمل، والكرسي الذي بعصاه رعي الهمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل، والأفق الذي لشمس الخلافة العبشمية الحمل، فخيم الإسلام بعقوتها المستباحة، وأجاز نهرها المعيي على السباحة، وعم دوحها الأشب بواراً، وأدار المحلات بسورها سواراً، وأخذ بمخنقها حصاراً، وأعمل النصر بشجر يصلها اجتناءً ما شاء واهتصاراً، وجدل من أبطالها من لم يرض انحجاراً، فأعمل إلى المسلمين إصحاراً، حتى فرغ بعض جهاتها غلاباً جهاراً، ورفعت الأعلام إعلاماً بعز الإسلام وإظهاراً، فلولا استهلال الغوادي، وأن أتى الوادي، فأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي، ولقضى تفثه العاكف والبادي، فاقتضى الرأي ولذنب الزمان في اغتصاب الكفر إياها متاب، تعمل ببشراه بفضل الله تعالى أقتاد وأقتاب، ولكل أجل كتاب أن يراض صعبها حتى يعود ذلولاً، وتعفى معاهدها الآهلة فتترك طلولاً، فإذا فجع الله تعالى بمارج النار طوائفها المارجة، وأباد بخارجها الطائرة والدارجة، خطب السيف منها أم خارجة، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارق الهضاب بالهشيم قد شابت، والغلات المستغلات قد دعا بها القصل فما ارتابت، وكأن صحيفة نهرها لما أضرمت النار في ظهرها ذابت، وحيته فرت أمام الحريق فانسابت، وتخلفت لغمائم الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح، وتنشرها بعد الركود أيدي الاجتياح، وأغريت بأقطارها الشاسعة، وجهاتها الواسعة، جنود الجوع، وتوعدت بالرجوع، فسلب لتوقع الهجوم منزور الهجوع، فأعلامها خاشعة خاضعة، وولدانها لثدي البؤس راضعة، والله سبحانه يوقد بخبر فتحها القريب ركاب البشرى، وينشر رحمته قبلنا نشراً.

ثم تنوعت يا رسول الله لهذا العهد أحوال العدو تنوعاً يوهم إفاقته من

الغمرة، وكادت فتنته تؤذن بخمود الجمرة، وتوقع الواقع، وحذر ذلك السم الناقع، وخيف الخرق الذي يحار فيه الراقع، فتعرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك، وموصول عنايتك، فأنزل النصر والسكينة، ومكن العقائد المكينة، فثابت العزائم وهبت، واطردت عوائد الإقدام واستتبت، وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله، وشم الحق توجب ظلاله، وهداك الذي هديت يدحض ضلاله، ونازلنا حصني قنبيل والحائر، وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سراراً، وقد اتخذا بين النجوم قراراً، وفصل بينهما حسام النهر يروق غراراً، والتف معصمه في حلة العصب وقد جعل الجسر سواراً، وفخذل الصليب بذلك الثغر من تولاه، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه، وتبرجت عروس الفتح المبين بمجلاه، والحمد لله تعالى على ما أولاه.

ثم تحركنا على تفئة تعدي ثغر المواسطة على عدوة المساور في المضاجع، ومصحبه بالفاجئ الفاجع، فنازلنا حصن روطة الآخذ بالكظم، المعترض بالشجا اعتراض العظم، وقد شحنه العدو مدداً بئيساً، ولم يأل اختياره رأياً ولا تلبيساً، فأعيا داؤه، واستقلت بالمدافعة أعداؤه، ولما أتلع إليه جيد المنجنيق، وقد برك عليه بروك الفنيق، وشد عصام العزم الوثيق، لجأ أهله إلى التماس العهود والمواثيق، وقد غصوا بالريق، وكاد يذهب بأبصارهم لمعان البريق، فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمي ذماره، ويقرر اعتماره، واستولى أهل الثغور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستغفلة ففتحوها؛ وشرعوا أرشية الرماح إلى قلب قلوبها فمتحوها.

ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفض عن الأعراف متراكم الغبار، وترخي عن آباط خيلها شد حزم المغار، حتى عاودت النفوس شوقها، واستتبعت ذوقها، وخطبت التي لا فوقها، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية، والمدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي منه طرق وادعه، ومطلع الحق الذي صدع الباطل صادعه، وثنيه الفتح

التي برق منا لامعه، ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه، وفرضة المجاز التي لا تنكر، ومجمع البحرين في بعض ما يذكر، حيث يتقارب الشطان، ويتوازى الخطان، وكاد أن تلتقي حلقتنا البطان، وقد كان الكفر قدر قدر هذه الفرضة التي طرق منها حماه، ورماه الفتح الأول بما رماه، وعلم أن لا تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم إلا من تلقائها، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها، فأجلب عليها برجله وخيله، وسد أفق البحر بأساطيله، ومراكب أباطيله، بقطع ليله، وتداعى المسلمون بالعدوتين إلى استنقاذها من لهواته، أو إمساكها من دون مهواته، فعجز الحول، ووقع بملكه إياها القول، واحتازها قهراً، وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهراً، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم، واسودت الوجوه لخبرها الهاجم، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم، وانقطع المدد إلا من رحمة من ينفس الكروب، ويغري بالإدالة الشروق والغروب، ولما شكنا بشبا الله تعالى نحرها، وأغصصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تكاثر نجم السماء برها وبحرها، ونازلناها نذيقها شديد النزال، ونحجها بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال، رأينا بأواً لا يظاهر إلا بالله تعالى ولا يطال وممنعة يتحاماها الأبطال، وجناباً روضه الغيث الهطال، أسواقها فهي التي أخذت النجد والغور، واستعدت بجدال الجلاد عن البلاد فارتكبت الدور، تحوز بحراً من العمارة ثاذياً، وتشكك أن يكون الإنس لها باذياً، وأما أبراجها فصفوف وصفوف، تزين صفحات المسايف منها أنوف، وآذان لها من دوامغ الصخر شنوف، وأما خندقها فصخر مجلوب، وسور مقلوب، فصدقها المسلمون القتال بحسب محلها من نفوسهم، واقتران اغتصابها ببوسهم، وأفول شموسهم، فرشقوها من الذبال بظلالة تحجب الشمس فلا يشرق سناها، وعرجوا في المراقي البعيدة يفرعون مبناها، ونفوسها أنقاباً، وحصونها عقباً، ودخلوا مدينة إلبنة بنتها غلاباً، وأحسبوا السيوف استلالاً والأيدي اكتساباً، واستوعب القتل مقاتليها السابغة الجنن، البالغة المتن، فأخذهم الهول المتفاقم، وجدلوا كأنهم الأراقم، لم تفلت منهم عين تطرف، ولا لسان يلبي من يستطلع الخبر أو

يستشرف.

ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سواراً على سورها، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها، وأدانوا إليها بالضروب من حيل الحروب، بروجاً مشيدة، ومجانيق توثق حبالها منها نشيدة، وخفقت بنصر الله تعالى عذبات الأعلام، وأهدت الملائكة مدد السلام، فخذل الله تعالى كفارها، وأكهم شفارها، وقلم بيد قدرته أظفارها، فالتمسوا الأمان للخروج، ونزلوا على مراقي العروج، إلى الأباطح والمروج، من سمائها ذات البروج، فكان بروزهم إلى العراء من الأرض، تذكرة بيوم العرض، وقد جلل المقاتلة الصغار، وتعلق بالأمان النساء والصغار، وبودرت المدينة بالتطهير، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير، والذكر الجهير، وطرحت كفارها التماثيل عن المسجد الكبير، وأزرى بألسنة النواقيس لسان التهليل والتكبير، وأنزلت عن الصروح أجرامها يعيي الهندام مرامها، وألفي منبر الإسلام بها مجفواً فأنست غربته، وأعيد إليه قربه وقربته، وتلا واعظ الجمع المشهود، قول منجز الوعود ومورق العود " وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب،{وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾} [هود: ١٠٢ - ١٠٣]، فكان الدمع يغرق الآماق، والوجد يستأصل الأرماق، وارتفعت الرغبات، وعلت السيات، وجيء بأسرى المسلمين يرسفون في القيود الثقال، وينسلون من أحداب الاعتقال، ففكت عن سوقهم اساود الحديد، وعن أعناقهم فلكات الباس الشديد، وظلوا بجناح اللطف العريض المديد، وترتبت في المقاعد الحامية، وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية، وعادت المدينة لأحسن أحوالها، وسكنت من بعد أهوالها، وعادت الجالية إلى أموالها، ورجع إلى القطر شبابه، ورد على دار الإسلام بابه، واتصلت بأهل لا إله إلا الله أسبابه، فهي

اليوم في بلاد الإسلام قلادة النحر، وحاضرة البر والبحر، أبقى الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك، وودائع الله تعالى في ذمتك، بكلمة دينك الصالحة الباقية، وسدل عليه أستار عصمته الواقية؛ وعدنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول، وهجيراً الشروق والأفول، والجهاد يا رسول الله الشأن المعتمد، ما امتد بالأجل الأمد، والسمتان الفرد الصمد.

ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك، وبلغ وسيلتي إليك، بلغ من هذا القطر المرتدي بجاهك الذي لا يذل من ادرعه، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذي شرعه، إلى أن لاطفنا ملك الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها، ورفع التماثيل ببيوت الله تعالى ونصبها، فانجاب عنها بنورك الحلك، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذي نزل به على قلبك الملك، فوجبت مطالعة مقرك النبوي بأحوال هذه الأمة المكفولة في حجرك، المفضلة بإدارة تجرك، المهتدية بأنوار فجرك، وهل هو إلا ثمرات سعيك، ونتائج رعيك، وبركة حبك، ورضاك الكفيل برضى ربك، وغمام رعدك، وإنجاز وعدك، وشعاع من نور سعدك، وبذر يجنى ريعه من بعدك، ونصر رايتك، وبرهان آيتك، وأثر حمايتك ورعايتك.

واستنبت هذه الرسالة مائحة بحر الندى الممنوح، ومفاتحة باب الهدى بفتح الفتوح، وفارعة المظاهر والصروح، وملقية الرجل بمنتزل الملائكة والروح، لمد إلى قبولك يد استمناح، وتطير إليك من الشوق الحثيث بجناح، ثم تقف موقف الانكسار، وإن كان تجرها آمناً من الخسار، وتقدم بأنس القربة، وتحجم بوحشة الغربة، وتتأخر بالهيبة، وتجهش لطول الغيبة، وتقول: ارحم بعد داري، وضعف اقتداري، وانتزاح أوطاني، وخلو أعطاني، وقلة زادي، وغراق مزادي، وتقبل وسيلة اعترافي، وتغمد هفوة افترافي، وعجل بالرضى انصراف متحملي لانصرافي، فكم جبت من بحر زاخر، وقفر بالركاب ساخر، وحاش لله تعالى أن يخيب قاصدك، أو تتخطاني مقاصدك، أو تطردني موائدك، أو تضيق

عني عوائدك، ثم تمد مقتيضة مزيد رحمتك، مستدعية دعاء من حضر من أمتك، وأصحبتها يا رسول الله عرضاً من النواقيس التي كانت بهذه البلاد المفتتحة تعيق الإقامة والأذان، وتسمع الأسماع الضالة والآذان، مما قبل الحركة، وسالم المعركة، ومكن من نقله الأيدي المشتركة، واستحق بالقدوم عليك والإسلام بين يديك، السابقة في الأزل البركة، وما سواها فكانت جبالاً عجز عن نقلها الهندام، فنسخ وجودها الإعدام، وهي يا رسول الله جنى من جنانك، ورطب من أفنانك، وأثر ظهر علينا من مسحة حنانك.

هذه هي الحال والانتحال، والعائق أن تشد إليك الرحال، ويعمل الترحال، إلى أن نلقاك في عرصات القيامة شفيعاً، ونحل بجاهك إن شاء الله تعالى محلاً رفيعاً، ونقدم في زمرة الشهداء الدامية، كلومهم من أجلك، الناهلة غللهم في سجلك، ونبتهل إلى الله تعالى الذي أطلعك في سماء الهداية سراجاً، وأعلى لك في السبع الطباق معراجاً، وأم الأنبياء منك بالنبي الخاتم، وقفى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغريبة أسبابك، ولا يسد في وجوهها أبوابك، ويوقفها لاتباع هداك، ويثبت في أقدامها على جهاد عداك، وكيف تعدم ترفيها، أو تخشى بخساً وأنت موفيها، أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها وصلاة الله وسلامه تحط بفنائك رحال طيبها، وتهدر في ناديك شقاشق خطيبها، ما أذكر الصباح الطلق هذاك، والغمام السكب نداك، وما حن مشتاق إلى لثم ضريحك، وبليت نسمات الأسحار عما استرقت من ريحك، وكتب في كذا. انتهت الرسالة، وفيها ما لا خفاء به من براعة لسان الدين، رحمه الله تعالى وقدس روحه الطاهرة، آمين.

- وله رحمه الله تعالى في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور: المولى الذي طوق المنن، وأحيا السنن، وأنبت الله تعالى حبه في القلوب النبات الحسن، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها، ومقيل عثارها، والأخذ بثارها، والمخلد لآثارها، السلطان أبو زيان... إلخ - أبقاكم الله تعالى عالي القدم، منصور العلم، ظاهراً

على الأمم، مقصود الحمى كالركن الملتزم، عبد مقامكم الذي آويتموه غريباً، وأنستموه دركاً وتثريباً، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريباً، ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق، ويرقم الأوراق، ويخلق الجيوب والأطواق، وحب بهر نوراً وراق، وجاس اشتهاره الشام والعراق، ويطالع العبد محل مولاه الذي خلف ببابه قلبه وولده، وصبره وجلده، وصير وطنه داره الحقيقية وبلده، أنه لما قدم على محل أخيه، المعتد بما أودع الله تعالى من الخلال الشريفة فيه، مولاي ابن مولاي أبي عبد الله - كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده، وحكم بإعلاء جده ومضاء حده - رعى الوسيلة، وصدق المخيلة، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة، فلم يدع حقًّا إلا صرفه، ولا ذكرة إلا عرفه، ولا نعمة إلا سكبها، ولا مزية إلا أوجبها، ولا رتبة إلا أعلاها، ولا نعمة إلا أولاها، وما ذاك يا مولاي وإن تعددت الرسائل والأذمة، وادكرت القرب بعد أمة، إلا بوصاتكم التي لا تُهمل، وحُرمتكم التي لا تُجهل، وعطف مقامكم الذي اشتهر، واعتنائكم بعبدكم الذي راق وبهر، فالعبد الرفيع المقدار، والأمل في مقامكم غير منقطع السبب، والأهل والولد تحت كنف مقامكم الأصيل الحسب، حتى يمن الله تعالى بحج بيته وزيارة رسوله على يديكم، ويكون قضاء هذا الوطر منسوباً إليكم، وبعد هذا يستقر القرار، حيث يختار من يخلق ما يشاء ويختار، بحول الله تعالى.

والعبد يذكر مولاه بما بشره بين يدي وداعه، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه، من انجلاء الحركة عن عزه وظهوره، ونجاح أحواله واستقامة أموره، ويهنيه بصدق الوعد، وأمطار الرعد، وظهور السعد، وهي وسيلة إذا عدت الوسائل، وروعيت الذمم الجلائل، ومثل مولاي من رعى وأبقى، وسلك التي هي أبر وأتقى، وما قصر عنه القلم من حق مولاي فالرسول أعزه الله تعالى يتممه، وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه، وهو جل وعلا يديم أيام مولاي ويبقي مجده، ويصل سعده، والسلام انتهى.

- ومما خاطب به لسان الدين شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق التلمساني رضي الله تعالى عنه شافعاً: يا سيدي أبقاكم الله تعالى محط الآمال وقبلة الوجوه، وبلغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه، وكلأ بعين حفظه ذاتكم الفاخرة، وجعل عز الدنيا متصلاً لكم بعز الآخرة، بعد تقبيل يدكم التي يدها لا تزال تشكر، وحسنتها عند الله تعالى تذكر، أنهي إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان - مع كونه مستحق التجلة هجرة إلى أبوابكم الكريمة قدمت، ووسائل من أصالة وحشمة كرمت، وفضل ووقار، وتنويه لولاية أن كانت ذات احتقار، وسن اقتضى الفضل بره، وأدب شكر الاختبار عليه وسره - له معرفة سلفكم الأرضي وسيلة مرعية، وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية، وتوجه إلى بابكم، والتمسك بأسبابكم، والمؤمل من سيدي ستره بجناح رعيه في حال الكبرة، ولحظه بطرف المبرة، غما في استعمال يليق بذوي الاحتشام، أو سكون تحت رعي واهتمام، وإعانة على عمل رسم مصله، على الله تعالى الذي يجزي المحسنين بفضله، ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العلي محروساً من النوائب، مبلغ الآمال والمآرب، والمملوك قد قرر شأنه في إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم، والتحسب في هذه الأبواب عليكم، وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذي يعطي ويمنع، ويملك الأمر أجمع، والسلام.

- وكتب إليه أيضاً في الشفاعة بما نصه: سيدي الأعظم، وملاذي الأعصم، وعروة عزي الوثقى التي لا تفصم، أبقاك الله تعالى آثارك آية للعز تأمر الدهر فيأتمر، ويلبي بفنائك الطائف والمعتمر، بأي لسان أثني على فواضلك وهي أمهات المنن، وطرف الشام واليمن، ومقامات بديع الزمن، والتحف المرتفعة عن الثمن فحسبي دعاء أردده وأواليه، وأرتقب مطلوب الإجابة من مقدمه وتاليه، وإن تشوف المنعم للحال الموقوف خيره بمشيئة الله تعالى على جميل سعيه، الموسد على وطاء لطفه المغشى بغطاء رعيه، قلب خافق، وقلب مؤمن يجول به وسواس منافق، وقد تجاوز موسى مجمع البحرين، وأصبح سري بابه

سري العين، ولقد كانت مراحل الرمل قصيرة قبل أن يكسبها زجلي ثقل الحركة، ويخلط خاصتي في وظائفها المشتركة، وليت أمري برز إلى طرف، وأفضى إلى منصرف، وربما ظفر آيس بما يرجوه، وبرز المحبوب من المكروه، والله تعالى لا يفضح جاه الكتاب الذي أحيا وأنشر، وحيا وبشر، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابتكم المحشر، وموصل كتابي، ينوب في تقبيل اليد العليا منابي.

وليعلم سيدي أن هذا القطر على شهرته، وتألق مشتريه وزهرته، إذا انتحل كرامه، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه، فهو لبابه المتخير، وزلاله الذي لا يتغير، أصالة معروفة، وهمة إلى الإيثار مصروفة، ونبلاً على السن والكبرة، ورجولية خليقة بصلة الحرمة والمبرة، والوسيلة لا تطرح، والمعنى الذي لا يفسر لوضوحه ولا يشرح، وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثاً وقديماً، واعترافه بنعمه مديراً لها ومديماً، والله تعالى يوفي إيثار سيدي حظه، ويجدد لديه رعيه ولحظه، حتى يعود علم إقباله، معلماً برد اهتباله، مسروراً ببلوغ آماله، فلعمري إن محل ولايته لكفي، وإن عهد أمانته لوفي، وإن عامل جده لظاهر وخفي، وما يفعله سيدي من رعيه، وإنجاح سعيه، محسوب من مناقبه، ومعدود في فضل مذاهبه، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته " انتهى.

وقد تكررت في كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظماً ونثراً؛ إذ كان - أعني ابن مرزوق - رئيس الدولة، ومعتمد الجلة، وسبق منا التعريف ببعض أحواله في باب مشايخ لسان الدين مما جرته المناسبة، فليرجع إليه من أراده، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة.

- ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله: ومما صدر عني في السياسة: حدث من امتاز باعتبار الأخبار، وحاز درجة الاشتهار، بنقل حوادث الليل والنهار، وولج بين الكمائم والأزهار، وتلطف لخجل الورد من تبسم البهار،

قال: سهر الرشيد ليله، وقد مال في هجر النبيذ ميله، وجهد ندماؤه في جلب راحته، وإلمام النوم بساحته، فشحت عهادهم، ولم يغن اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طرق سماها ورسمها، وأمهات قسمها، فمن عثرتم عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلغوه، والامنة سوغوه، واسدعوه، ولا تدعوه، فطاروا عجالى، وتفرقوا ركباناً ورجالاً، فلم يكن إلا ارتداد طرف، أو فواق حرف، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتوسطهم الأشعث الأغبر، واللج الذي لا يعبر: شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة، سبلته مشمطة، وعلى أنفه من القبع مطة، وعليه ثوب مرقوع، لطير الحرق عليه وقوع، يهينم بذكر مسموع، وينبئ عن وقت مجموع، فلما مثل سلم، وما نبس بعدها ولا تكلم، فأشار إليه الملك فقعد، بعد أن انشمر وابتعد، وجلس، فما استرق النظر ولا اختلس، إنما حركة فكره، معقودة بزمام ذكره، ولحظات اعتباره، في تفاصيل أخباره، فابتدره الرشيد سائلاً، وانحرف إليه مائلاً، وقال: ممن الرجل فقال: فارسي الأصل، أعجمي الجنس عربي الفصل، قال: بلدك وأهلك وولدك قال: أما الولد فولد الديوان، وأما البلد فمدينة الإيوان، قال: النحلة، وما أعملت إليه الرحلة قال: أما الرحلة فالاعتبار، وأما النحلة فالأمر الكبار، قال: فنك، الذي اشتمل عليه دنك فقال: الحكمة فني الذي جعلته أثيراً، واضجعت فيه فراشاً وثيراً، وسبحان الذي يقول:{وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢٦٩]، وما سوى ذلك فتبع، ولي فيه مصطاف ومرتبع، قال: فتعاضد جذل الرشيد وتوفر، كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، وقال: وما رأيت كالليلة أجمع لأمل شارد، وأنعم بمؤانسة وارد، يا هذا إني سائلك، ولن تخيب بعد وسائلك، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بلينا بحمل أعبائه، ومنينا بمراوضة إبائه، فقال: هذا الأمر قلادة ثقيلة، ومن خطة العجز مستقيلة، ومفتقرة لسعة الذرع، وربط السياسة المدنية بالشرع، يفسده الحكم في غير محله، ويكون ذريعة إلى حله، ويصلحه مقابلة الشكل بشكله، ومن لم يكن سبعاً آكلاً تداعت سباع إلى أكله.

فقال الملك: أجملت ففصل، وبريت فنصل، وكلت فأوصل، وانثر الحب لمن يحوصل، واقسم السياسة فنوناً، واجعل لكل لقب قانوناً، وابدأ بالرعية، وشروطها المرعية.

فقال: رعيتك ودائع الله تعالى قبلك، ومرآة العدل الذي عليه جبلك، ولا تصل إلى ضبطها إلا بإعانة الله تعالى التي وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم، وكفايته التي تكفيهم، تقويم نفسك عند قصر تقويمهم، ورضاك بالسهر لتنويمهم، وحراسة كهلهم ورضيعهم، والترفع عن تضييعهم، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها، أخذاً يحوط مالها، ويحفظ عليها كمالها، ويقصر عن غير الواجبات آمالها، حتى تستشعر عليتها رأفتك وحنانك، وتعرف أوساطها في النصب امتنانك، وتحذر سفلتها سنانك، وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها، وسد فيها سبل الذريعة، وأقصر جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة، وامنع أغنياءها من البطر والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتمشدق والإطالة، وليقل فيما شجر بين الناس كلامها، ويرفض منا تنذر به أعلامها، فإن ذلك يسقط الحقوق، ويرتب العقوق، وامنعهم من فحش الحرص والشره، وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المره، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب، وانههم عن التحاسد على المواهب، ورضهم على الإنفاق بقدر الحال، والتعزي عن الفائت فرده من المحال، وحذر البخل على أهل اليسار، والسخاء على أولي الإعسار، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر، وامنعهم من تأويلها منع القاهر، ولا تطلق لهم التجمع على نم أنكروا أمره في نواديهم، وكف عنهم أكف تعديهم، ولا تبح لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، ولتكن غايتهم، فيما توجهت إليه إبايتهم، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم، إنهاءه إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره، وحمدت على الإنصاف شكره، ومن كثر حياؤه من التأذيب، وقابل الهفوة باستتابة

المنيب، ومن لا يتخطى عندك محله الذي حله، فربما عمد إلى المبرم فحله، وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة، واغتفر المكاره في جنب حسن الطاعة، وإن ثار جرادهم، واختلف في طاعتك مرادهم، فتحصن لثورتهم، وأثبت لفورتهم، فإذا سألوا وسلوا، وتفرقوا وانسلوا، فاحتقر كثرتهم، ولا تقل عثرتهم، واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالاً، ولا تترك لهم على حلمك اتكالاً.

ثم قال: والوزير الصالح أفضل عددك، وأوصل مددك، فهو الذي يصونك عن الابتذال، ومباشرة الأنذال، ويثب لك على الفرصة، وينوب في تجرع الغصة، واستجلاء القصة، ويستحضر ما نسيته من أمورك، ويغلب فيه الرأي بموافقة مأمورك، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه، حتى يستوفيه، واحذر مصادمة تياره، والتجوز في اختياره، وقدم استخارة الله تعالى في إيثاره، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره، وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك، معقود الرضى والغضب برضاك وصولتك، زاهداً عما في يديك، مؤثراً لكل ما يزلف لديك، بعيد الهمة، راعياً للأذمة، كامل الآلة، محيطاً بالإيالة، رحيب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحي والميت، مؤثراً للعدل والإصلاح، دريّاً بحمل السلاح، ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرزاً من النقد، جاداً عند لهوك، متيقظاً في حال سهوك، يلين عند غضبك، ويصل الإسهاب بمقتضبك، قلقاً من شكره دونك وحمده، ناسباً لك الإصابة بعمده، وإن أعيا عليك وجود أكثر هذه الخلال، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال، فاطلب منه سكون النفس وهدوئها، وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى قدره دونها، وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب، وهي للفضائل فذلكة الحساب، وساو في حفظ غيبه بين قربه ونأيه، واجعل حظه من نعمتك موازياً لحظك من حسن رأيه، واجتنب منهم من يرى في نفسه إلى الملك سبيلاً، أو يقود من عيصه للاستظهار عليك قبيلاً، أو من كاثر ماله، أو من تقدم لعدوك استعماله، أو من سمت لسواك آماله، أو من يعظم عليه إعراض وجهك، ويهمه

نادر نجهك أو من يداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحداً ببابك.

وأما الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة، والمكايدة والمخاتلة، واستوف عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، ووف ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة، وتعاهدهم عند الغناء بالعلافة والطعمة، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب في الذب عن ظنك ثناؤه، وول عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم، ولا توطئهم الدعة مهاداً، وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً، ولا تلين لهم في الإغماض عن حسن طاعتك قياداً، وعودهم حسن المواساة بأنفسهم اعتياداً، ولا تسمح لأحد منهم في إغفال شيء من سلاح استظهاره، أو عدة اشتهاره، وليكن ما فضل من شبعهم وريهم، مصروفاً إلى سلاحهم وزيهم، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم، من غير اعتبار لأثمانهم، وامنعهم من المستغلات والمتاجر، وما تكسب به غير المشاجر، وليكن من الغوار اكتسابهم، وعلى المغانم حسابهم، كالجوارح التي تفسد باعتيادها، أن تطعم من غير اصطيادها.

واعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان، ويملك حركاتها بالتقويم، ورتبها بالميزان القويم، ومن تثق بإشفاقه على أولادها، ويشتري رضى الله تعالى بصبره على طاعته وجلادها، فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك إلى مواقف التلف، مطيعة دواعي الكلف، واثقة منك بحسن الخلف، واستبق إلى تمييزهم استباقاً، وطبقهم طباقاً، أعلاها من تأملت منه في المحاربة عنك أخطاراً، وأبعدهم في مرضاتك مطاراً، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزماً ووقاراً، واستهانة بالعظائم واحتقاراً، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جواراً، إذا أجدت اختباراً، وأشدهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطباراً، ومَن بلاَ فِي الذي عنَّ لك إحلاء وإمراراً، ولحقه الضر في معارض الدفاع عنك مراراً، وبعده من كانت محبته لك أزيد من نجدته، وموقع رأيه أنفع من موقع صعدته، وبعدهما من

حسن انقياده لأمرائك، وإحماده لآرائك، ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعله، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله، واحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع، ولم يستحي من التزيد بأضعاف ما بذله من الدفاع، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك، وقاس بين عوائد عدوك وعوائدك، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله، وأظهر الكراهية لحاله.

وأما العمال فإنهم ينبئون عن مذهبك، وحالهم في الغالب شديدة الشبه بك، فعرفهم في أمانتك السعادة، وألزمهم في رعيتك العادة، وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم في الاتصاف، بالعدل والإنصاف، وأحلهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية، وقفهم عند تقليد الأرجاء، مواقف الخوف والرجاء، وقرر في نفوسهم أن أعظم ما به إليك تقربوا، وفيه تدربوا، وفي سبيله أعجموا وأعربوا، إقامة حق ودحض باطل، حتى لا يشكو غريم مطل ماطل، وهو آثر لديك من كل رباب هاطل، وكفهم من الرزق الموافق، عن التصدي لدني المرافق، واصطنع منهم من تيسرت كلفته، وقويت للرعايا ألفته، ومن زاد على تأميله صبره، وأربى على خبره خبره، وكانت رغبته في حسن الذكر، تشف على بنات الفكر، واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق في الإنفاق، وعدم الإشفاق، والتنافس في الاكتساب، وسهل عليه سوء الحساب، وكانت ريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصي والكفاية، ومن كان منشؤه خاملاً، ولأعباء الدناءة حاملاً، وابغ من يكون الاعتذار في أعماله، أوضح من الاعتذار في أقواله، ولا يفتننك ممن قلدته اجتلاب الحظ المقناع، والتنفق بالسعي المسمع، ومخالفة السنن المرعية، واتباعه رضاك بسخط الرعية، فإنه قد غشك، من حيث بلك ورشك، وجعل من يمينك في شمالك، حاضر مالك، ولا تضمن عاملاً مال عمله، وحل بينه فيه وبين أمله، فإنك تميت رسومك بمحياه، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه، ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد، والاحتجاج على والد بولد، واحرص على أن يكون

في الولاية غريباً، ومنتقله منك قريباً، ورهينة لا يزال معها مريباً، ولا تقبل مصالحته على شيء أختانه، ولو برغيبة فتانه، فتقبل المصانعة في أمانتك، وتكون مشاركاً له في خيانتك، ولا تطل مدة العمل، وتعاهد كشف الأمور ممن يرعى الهمل، ويبلغ الأمل.

وأما الولد فأحسن آدابهم، واجعل الخير دأبهم، وخف عليهم من إشفاقك وحنانك، أكثر من غلظة جنانك، واكتم عنهم ميلك، وأفض فيهم جودك ونيلك، ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلك، وأثبهم على حسن الجواب، وسبق لهم خوف الجزاء على رجاء الثواب، وعلمهم الصبر على الضرائر، والمهلة عند استخفاف الجرائر، وخذهم بحسن السرائر، وحبب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس، وحسن الاصطناع والاحتراس، والاستكثار من أولي المراتب والعلوم، والسياسات والحلوم، والمقام المعلوم، وكره إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهد أهواءهم عن عقولهم، وحذر الكذب على مقولهم، ورشحهم إذا آنست منهم راشداً أو هدياً، وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثدياً، لتمرنهم على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورضهم رياضة الجياد، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم، وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت، وأقدعها إذا هجمت، قبل أن يظهر تضعيفها، ويقوى ضعيفها، فإن أعجزتك في الصغر الحيل، عظم الميل:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ::: ولن تلين إذا قومتها الخشب

وإذا قدروا على التدبير، وتشوفوا للمحل الكبير، إياك أن توطنهم في مكانك، جهد إمكانك، وفرقهم في بلدانك، تفريق عبدانك، واستعملهم في بعوث جهادك، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك، فإن حضرتك تشغلهم بالتحاسد، والتباري والتفاسد، وانظر إليهم بأعين الثقات فإن عين الثقة، تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقة.

وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع، وتبصر وتسمع،

فرضهم بالصدق والأمانة، وصنهم صون الجمانة، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما آثرته، والتقليل مما استكثرته، واحذر منهم من قويت شهواته، وضاقت عن هواه لهواته، فإن الشهوات تنازعك في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخيرهم من ذلك منه بلطف الحيلة، وآداب للفساد محيلة، وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستنزلته، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته، وأن من تصفح منهم أمورك فقد أذنب، وباين الأدب وتجنب، وأعط من أكددته، واضقت منه ملكه وشددته، روحة يشتغل فيها بما يعينه، على حسب صعوبة ما يعانيه، تغبطهم فيها بمسارحهم، وتجم كليلة جوارحهم، ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذي لا يبطر أعلامهم، ولا يؤسف الأصاغر فيفسد أحلامهم، ولا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك، واترك لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك، واحذر عليهم مخالفتك ولو في صلاحك، بحد سلاحك، وامنعهم من التواثب والتشاجر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر، واستخلص منهم لسرك من قلت في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبر على ما ينوبه، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك، أكثر من رغبته في إحسانك، وضبطه لما تقلد من وديعتك، أحب إليه من حسن صنيعتك، وللسفارة عنك من حلا الصدق في فمه، وآثره ولو باختطار دمه، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله، وعني بلفظه حتى لا يهمله، ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، ومن كانت قسوته زائدة على رحمته، وعظمه في مرضاتك آثر من شحمته، ورأيه في الحذر سديد، وتحرزه من الحيل شديد؛ ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه، وامتد في حسن السجية باعه، وأمن كيده وغدره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فما طمع، واستثقل إعادة ما سمع، وكان بريئاً من الملال، والبشر عليه أغلب الخلال، ولا تؤنسهم منك بقبيح فعل ولا قول، ولا تؤيسهم من طول، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعائهم، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم، إصابة الغرض فيما به وكلوا، وعليه شكلوا، فإنك لا تعدم بهم انتفاعاً، ولا يعدمون لديك ارتفاعاً.

وأما الحرم فهن مغارس الولد، ورياحين الخلد، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار، والنفس التي تقسمها الإحماد إلى المساعي والإفكار، فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم، المترفعة عن القيم، ما لا يسوؤك في خلدك، أن يكون في ولدك، واحذر أن تجعل لفكر بشر دون بصر إليهن سبيلاً، وانصب دون ذلك عذاباً وبيلاً، وأعهن من النساء العجز من بانت في الديانة والأمانة سبله، وقويت غيرته ونبله، وخذهن بسلامة النيات، والشيم السنيات، وحسن الاسترسال، والخلق السلسال، وحذر عليهن التغامز والتغاير، والتنافس والتخاير، وآس بينهن في الأغراض، والتصامم عن الإعراض، والمحاباة بالأعراض، وأقلل من مخالطتهن هو أبقى لهمتك، وأسبل لحرمتك، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال، وضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، وعند الغضب والنوم، والفراغ من نصب اليوم، واجعل مبيتك بينهن تتم بركاتك، وتستتر حركاتك، وافصل من ولدت منهن إلى مسكن تختبر به استقلالها، وتعتبر بالتفرد خلالها، ولا تطلق لحرمة شفاعة ولا تدبيراً، ولا تنط بها من الأمر صغيراً ولا كبيراً، واحذر أن يظهر على خدمهن في خروجهن عن القصور، وبروزهن من أجمة الأسد الهصور، زي بارع، ولا طيب للأنوف مسارع، واخصص بذلك من طعن في السن، ويئس من الإنس والجن، ومن توفر النزوع إلى الخيرات قبله، وقصر عن جمال الصورة ورسم بالبله.

ثم لما بلغ إلى هذا الحد حمي وطيس اسحنفاره، وختم حزبه باستغفاره، ثم صمت مليًّا، واستعاد كلاماً أوليًّا.

ثم قال: واعلم يا أمير المؤمنين - سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته - أنك في مجلس الفصل، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل، في طائفة من عز الله تعالى تذب عنك حماتها، وتدافع عن حوزتك كماتها، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه بضاعة، أو يهجم بك رضا على إضاعة، ولتكن قدرتك وقفاً على الانصاف، بالعدل والإنصاف،

واحكم بالسوية، واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية، وخف أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين، أو تستفزك العجلة في أمر لم يتبين، وأطع الحجة ما توجهت إليك، ولا تحفل بها إذا كانت عليك، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك، والحق أجدى من نفرك، ولا تردن النصيحة في وجه، ولا تقابل عليها بنجه، فتمنعها إذا استدعيتها، وتحجب عنك إن استوعيتها، ولا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها، واحرص على أن لا ينقضي مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، إلا وقد أحرزت زائدة، أو وثقت منه في معادك بفائدة.

ولا يزهدنك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمال المصون، أمنع الحصون، ومن قل ماله، قصرت آماله، وتهاون بيمينه شماله، والملك إذا فقد خزينه، أخنى على أهل الجدة التي تزينه، وعاد على رعيته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء معتاد عيشه، وصغر في عيون جيشه، ومنوا عليه بنصره، وأنفوا من الاقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، وتربط آمال أهل السلاح به، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه، واستأنس بحسن جوارها، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها، فإن فضل المال عن الأجل فأجل، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عز وجل، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسد الذريعة، مأمول خلفه، وما سواه فمتعين تلفه.

واستخلص لنواديك الغاصة، ومجالسك العامة والخاصة، من يليق بولوج عتبها، والعروج لرتبها، أما العامية فمن عظم عند الناس قدره، وانشرح بالعلم صدره، أو ظهر يساره، وكان لله تعالى إخباته وانكساره، ومن كان للفتيا منتصباً، وبتاج المشورة معتصباً، وأما الخاصية فمن رقت طباعه، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه، ومن تبحر في سير الحكماء، وأخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع للدينة منافر، ولديه من كل ما تستتر به الملوك عن العوام

حظ وافر، وصف ألبابهم بمحصول خيرك، وسكن قلوبهم بيمن طيرك، وأغنهم ما قدرت عن غيرك. واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألقة، والمصابيح المتعلقة، وعلى قدر تعاهدها تبذل من الضياء، وتجلو بنورها صور الأشياء، وفرغها ما يزين مدتك، ويحسن من بعد البلاء جدتك، وبعناية الأواخر ذكرت الأول، وإذا محيت المفاخر خربت الدول.

واعلم أن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان، فاحرص على ما يوضح في الدهر سبلك، ويحرز المزية على من قبلك، وأن خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهر، ويبذل الإنصاف في السر والجهر، مع التمكن من المال والظهر، ويسار الرعية جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلب أليق الحالين بمحلك، وأولاهما بظعنك وحلك.

واعلم أن كرامة الجور دائرة، وكرامة العدل متكاثرة، والغلبة بالخير سيادة، وبالشر هوادة، واعلم أن حسن القيام بالشريعة يحسم عنك نكاية الخوارج، ويسمو بك إلى المعارج، فإنها تقصد أنواع الخدع، وتوري بتغيير البدع، وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء، وألسنة اللفيف من الضعفاء، واستشعر عند نكثه شعار الوفاء.

ولتكن ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تنجدها، فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تكتسب، ويمهد لك مع الأوقات نصراً لا يحتسب.

والتمس أبداً سلم من سالمك بنفيس ما في يدك، وفضل حاصل يومك على منتظر غدك، فإن أبى وضحت محجتك، وقامت عليه للناس بذلك حجتك، فللنفوس على الباغين ميل، ولها من جاذبه نيل، واستهد في كل يوم سيرة من يناويك، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك، وأكذب بالخير ما يشيعه من مساويك، ولا تقبل من الإطراء إلا ما كان فيك فضل عن غطالته، وجد يزري على بطالته، ولا تلق المذنب بحميتك وسبك، واذكر عند حركة الغضب

ذنوبك إلى ربك، ولا تنس أن رب المذنب أجلسك مجلس الفصل، وجعل في قبضتك رياش النصل. وتشاغل في هدنة الأيام بالاستعداد، واعلم أن التراخي منذر بالاشتداد، ولا تهمل عرض ديوانك، واختبار أعوانك، وتحصين معاقلك وقلاعك. وعم إيالتك بحسن اطلاعك، ولا تشغل زمن الهدنة بلذاتك، فتجني في الشدة على ذاتك، ولا تطلق في دولتك ألسنة الكهانة والإرجاف، ومطاردة الآمال العجاف، فإنه يبعث سوء القول، ويفتح باب العول، وخذ على المدرسين والمتعلمين، والعلماء والمتكلمين، حمل الأحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الوالجة، فإنه يفسد طباعهم، ويغري سباعهم، ويمد في مخالفة الملة باعهم، وسد سبيل الشفاعات فإنها تفسد عليك حسن الاختيار، ونفوس الخيار، وابذل في الأسرى من حسن ملكتك ما يرضي من ملكك رقابها، وقلدك وعقابها، وتلق بدء نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتذالك، واختم اليوم بمثل ذلك.

واعلم أنك مع كثرة حجابك، وكثافة حجابك، بمنزلة الظاهر للعيون، المطالب بالديون، لشدة البحث عن أمورك، وتعرف السر الخفي بين أمرك ومأمورك، فاعمل في سرك ما لا تستقبح أن يكون ظاهراً، ولا تأنف أن تكون به مجاهراً، وأحكم بريك في الله ونحتك، وخف من فوقك يخف من تحتك، واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسن قرضه، أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفرضه، فاصمت الحج، وتوق اللجج، واسترب بالأمل، ولا يحملنك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل، ولا تحقرن صغير الفساد، فيأخذ في الاستئساد، واحبس الألسنة عن التخالي باغتيابك، والتشبث بأذيال ثيابك، فإن سوء الطاعة ينتقل من الأعين الباصرة، إلى الألسن القاصرة، ثم إلى الأيدي المتناصرة، ولا تثق بنفسك في قتال عدوٍ ناواك، حتى تظفر بعدو غضبك وهواك، وليكن خوفك من سوء تدبيرك، أكثر من عدوك الساعي في تتبيرك، وإذا استنزلت ناجماً، أو منت ثائراً هاجماً، فلا تقلده البلد الذي فيه نجم، وهمى

عارضه فيه وانسجم، يعظم عليك القدح في اختيارك، والغض نم إيثارك، واحترز من كيده في حورك ومأمك، فإنك أكبر همه وليس بأكبر همك، وجمل المملكة بتأمين الفلوات، وتسهيل الأقوات، وتجديد ما يتعامل من الصرف في البياعات، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات، ولا تبخس عيار قيم البضاعات، ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة، وفي احترامها إلا عن الثلاثة مأجورة: مال من عدا طوره طور أهله، وتخارق في الملابس والزينة، وفضول المدينة، يروم معارضتك بجهله؛ ومن باطن أعداك، وأمن اعتدال؛ ومن أساء جوار رعيتك بإخساره، وبذل الأذاية فيهم بيمينه ويساره.

وأضر ما منيت به التعادي بين عبدانك، أو في بلد من بلدانك، فسد فيه الباب، واسأل عن الأسباب، وانقلهم بوساطة أولي الألباب، إلى حالة الأحباب، ولا تطوق الأعلام أطواق المنون، بهواجس الظنون، فهو أمر لا يقف عند حد، ولا ينتهي إلى عد، واجعل ولدك في احتراسك، حتى لا يطمع في افتراسك.

ثم لما رأى الليل، قد كاد ينتصف، وعموده يريد أن ينقصف، ومجال الوصايا أكثر مما يصف؛ قال: يا أمير المؤمنين، بحر السياسة زاخر، وعمر المتمتع يناديك مستاخر، فإن أذنت في فن من فنون الأنس يجذب بالمقاد، إلى راحة الرقاد، ويعتق النفس بقدرة ذي الجلال، من ملكة الكلال.

فقال: أما وقد استحسنا ما سردت، فشانك وما أردت.

فاستدعى عوداً فأصلحه حتى حمده، وأبعد في اختباره أمده، ثم حرك بمه، وأطال الجس ثمه، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات، ويصدع الحصاة، ويستفز الحليم عن وقاره، ويستوقف الطير ورزق بنيه في منقاره، وقال:

صاح ما أعطر القبول بنمه ::: أتراها أطالت اللبث ثمه
هي دار الهوى منى النفس فيها ::: أبد الدهر والأماني جمه
إن يكن ما تأرج الجو منها ::: واستفاد الشذا وإلا فممه
من لطرفي بنظرة ولأنفي ::: في رباها وفي ثراها بشمه

ذكـــر العهـــد فانتفضـــت كـــأني ::: طـــرقتني مـــن الملائـــك لمـــه
وطـــن قـــد نضـــيت فيـــه شـــباباً ::: لم تـــدنس منـــه الـــبرود مذمـــه
بنت عنه والنفس من أجـل مـن قـد ::: خلفتـــــه خلالــــه مغتمــــــه
كان حلماً فـويح مـن أمـل الدهــــ ::: ر وأعمـــــاه جهلـــــه وأصـــــمه
تأمل العيش بعـد أن خلـق الجســـ ::: م وبنيانـــــه عســـــير المرمـــــه
وغـــدت وفـــرة الشـــيبة بالشيـــ ::: ب علـــى رغـــم أنفهـــا معتمـــه
فلقـــد فـــاز ســـالك جعـــل الله ::: إلى الله قصـــــــده ومأمـــــــه
مـــن يبـــت مـــن غـــرور دنيـــا بهـــم ::: يلـــدغ القلـــب أكثـــر الله همـــه

ثم أحال اللحن إلى لون التنويم، فأخذ كل في النعاس والتهويم، وأطال الجس في الثقيل، عاكفاً عكوف الضاحي في المقيل، فخاط عيون القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم المراقد، كأنما أدار عليهم الفراقد، ثم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف، ولما أفاق الرشيد جد في طلبه، فلم يعلم بمنقلبه، فأسف للفراق، وأمر بتخليد حكمه في بطون الأوراق، فهي إلى اليوم تتلى وتنقل، وتجلى القلوب بها وتصقل، والحمد لله رب العالمين انتهى.

قال فبالإحاطة بعد إيراد نبذة ما صورته: فهذا ما حضر من المنثور وحظه من الإجادة ضعيف، وغرضه كما شاء الله تعالى سخيف، لكن الله سبحانه بعباده لطيف؛ انتهى.

رجع إلى نظم لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى، فنقول: ومن مداعباته رحمه الله تعالى قوله:

ومولـــــع بالكتـــــب يبتاعهـــــا ::: بـــــأرخص الســـــوم وأغـــــلاه
في نصـــف الاســـتذكار أعطيتـــه ::: مختصـــــر العـــــين فأرضـــــاه

ويعني بمختصر العين الزبيدي فافهم، وقال رحمه الله تعالى من قصيدة:

ووالله مــا اعتــل الأصــيل، وإنمــا ::: تعلــم مــن شــجوي فبــان اعتلالــه

وهذا غاية في المنالغة وحسن التعليل.

وقال رحمه الله تعالى: وقفت على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات في

حركة راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية، باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار، عام واحد وستين وسبعمائة، و هو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض، وقد حفت به سدرة، وإلى جنبه قبر " اعتماد " حظية مولاه رميك، وعليهما هيئة التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما، فأنشدت في الحال:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ::: رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً ::: ويا سراج الليالي المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه ::: إلى حياتي لجادت فيه أبياتي
أناف قبرك في هضب يميزه ::: فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حيًّا وميتاً واشتهرت علا ::: فأنت سلطان أحياء وأموات
ما ريء مثلك في ماض ومعتقدي ::: أن لا يرى الدهر في حال ولا آت

* * *

الباب الخامس

تتمـــة



الباب الخامس:

تتمـــة

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه الله تعالى، فنقول:

وأمّا موشّحاته وأزجاله فكثيرة، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن، كما صرح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير، ولنذكر بعض كلامه، إذ لا يخلو من فائدة زائدة، قال رحمه الله تعالى ما ملخصه: وأما أهل الأندلس فلمّ كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخّرون منهم فنّاً منه سمّوه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد، وتجاوزوا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس وحمده الخاصّة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه، وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المرواني، وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربّه صاحب العقد، ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشّحاتهما، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المريّة، وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنّه سمع أبا بكر ابن زهر يقول: كل الوشّاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله:

بـــــدر تمّ شمـــــس ضـــــحى ::: غصـــــن نقـــا مســـك شـــم

مـــــا أتمّ مـــــا أوضـــــحا ::: مـــــا أورقـــــا مـــــا أنمّ

لا جـــــرم مـــــن لمـــــا ::: قـــــد عشـــــقا قـــــد حـــــرم

وزعموا أنّه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك

الطوائف، وجاء مصليًّا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في الموشحة التي طارت له حيث يقول:

العـــود قـــد تـــرنم بأبـــدع تلحـــين ::: وشـــقّت المـــذانب ريـــاض البســـاتين

وفي انتهائه حيث يقول:

تخطـــر ولم تســـلم عســـاك المـــأمون ::: مروّع الكتائب يحـــيى بـــن ذي النـــون

ثمّ جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملثّمين فظهرت لهم البدائع، وفرسان حلبتهم: الأعمى التطيلي، ثمّ يحيى بن بقي، وللتطيلي من الموشحات المذهبة قوله:

كيـــف السّـــبيل إلى صـــبري ::: وفي المعـــــال أشـــــجان
والركـــب وســـط الفـــلا بـــالخرّد ::: النـــــواعم قـــــد بـــــانوا

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشّاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنّق فيها، فتقدم الأعمى التطيلي للإنشاد، فلمّا افتتح موشحته المشهورة بقوله:

ضـــــاحك عـــــن جمـــــان ::: ســـــافر عـــــن بـــــدر
ضـــــاق عنـــــه الزمـــــان ::: وحـــــــواه صـــــــدري

خرّق ابن بقي موشحته وتبعه الباقون.

وذكر الأعلم البطليوسي أنّه سمع ابن زهر يقول: ما حسدت قط وشاحاً على قول إلاّ ابن بقي حين وقع له:

أمـــــا تـــــرى أحمـــــد ::: في مجـــــده العـــــالي لا يلحـــــق
أطلعـــــه المغـــــرب ::: فأرنـــــا مثلـــــه يـــــا مشـــــرق

وكان في عصرهما من الوشّاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض، وكان في عصرهم أيضاً الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة.

ومن الحكايات المشهورة أنّه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشّحته:

جـــرّر الـــذيل أيّمـــا جـــرّ ::: وصـــل الســـكر منـــك بالســـكر

فطر الممدوح لذلك، وختمها بقوله:

عقـــد الله رايـــة النصـــر ::: لأمـــير العـــلا أبي بكـــر

فلمّا طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح: واطرباه! وشقّ ثيابه، وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت، وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشي ابن باجة لداره إلا على الذهب فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه.

ثم قال ابن خلدون بعد كلام: واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف إلى أن قال: وابن هردوس الذي له:

يـــا لَيلَـــةَ الوَصـــلِ وَالسُـــعودِ ::: بِاللَـــــــهِ عـــــــودي

وابن مؤهل الذي له:

مـــا العيـــد في حلـــة ::: وطـــاق وشـــم طيـــب
وإنمـــا العيـــد في التلاقـــي ::: مع الحبيب وأبـو إسـحاق الزويلـي

قال أبو سعيد: سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: إنه دخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زي البادية إذ كان يسكن بحصن سبتة فلم يعرفه فجلس حيث انتهى به المجلس، وجرّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها:

كحـــل الـــدجى يجـــري مـــن ::: مقلـــة الفجـــر علـــى الصـــباح
ومعصـــم النـــهر في حلـــل ::: خضـــر مـــن البطـــاح

فتحرك ابن زهر، وقال: أنت تقول هذا قال: اختبر، قال: ومن تكون فأختبره، فقال: ارتفع، فوالله ما عرفتك.

قال ابن سعيد: وسابق الحلبة التي أدركت هو أبو بكر ابن زهر، وقد شرّقت موشّحاته وغرّبت، قال: وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول: قيل لابن

زهر: لو قيل لك: ما أبدع ما وقع لك في التوشيح فقال: كنت أقول:

مــــا للمولّـــه مـــن ســـكره ::: لا يفيـــق يـــا لـــه ســـكران
مـــن غـــير خمـــر مـــا ::: للكثيب المشـوق ينـدب الأوطـان
هـــــل تســـــتعاد ::: أيامنـــا بـــالخليج وليالينـــا
إذ يســـــتفاد مـــــن ::: النسـيم الأريـج مسـك دارينـا
وإذ يكـــــاد حســـــن ::: المكـــان البـــهيج أن يحيينـــا
نهـــــر أظلّـــــه دوح ::: عليـــه أنيـــق مؤنـــق فينـــان
والمـــاء يجـــري وعـــائم ::: وغريـــق مـــن جـــنى الريحـــان

واشتهر بعده ابن حيون؛ إلى أن قال: وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسية، ذكر ابن ارائس أن يحيى الخزرجي دخل عليه في مجلسه، فأنشده موشّحة لنفسه، فقال له ابن حزمون: ما الموشّح بموشح حتى يكون عارياً من التكليف، فقال: على مثل ماذا فقال:

على مثل قولي:

يـــا هـــاجري هـــل ::: إلى الوصـــال منـــك ســـبيل
أو هـــل يـــرى عـــن ::: هـــواك ســـال قلـــب العليـــل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطة، قال ابن سعيد: كان والدي يعجب بقوله:

إن ســـيل الصـــباح في الشـــرق ::: عـــاد بحـــراً في أجمـــع الأفـــق
فتـــداعت نـــوادب الـــورق ::: أتراهـــا خافـــت مـــن الغـــرق

فبكت سحرةً على الورق

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل، قال ابن سعيد عن والده: سمعت سهل بن مالك يقول له: يا ابن الفضل، لك على الوشّاحين الفضل، بقولك:

واحســـرتي لزمـــان مضـــى ::: عشـــيّة بـــان الهـــوى وانقضـــى

وأفـــردت بـــالرغم لا بالرضـــى ::: وبـــت علـــى جمـــرات الغضـــا
أعـــانق بـــالفكر تلـــك الطلـــول ::: وألـــثم بـــالوهم تلـــك الرســـوم

قال: وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الأستاذ أبا الحسن الدبّاج موشّحاته غير ما مرّة فما سمعته يقول " لله درّك " إلا في قوله:

قســـماً بـــالهوى لـــذي حجـــر ::: مـــا لليـــل المشـــوق مـــن فجـــر
خمـــد الصـــبح لـــيس يطـــرد ::: مـــا لليلـــي فيمـــا أظـــن غـــد

صحّ يا ليل أنك الأبد

أو تفضّـــــت قـــــوادم النســـــر ::: فنجـــــوم الســـــماء لا تســـــري

ومن موشّحات ابن الصابوني قوله:

ما حال صـــبٍّ ذي ضـــنًى واكتئـــاب ::: أمرضـــه يـــا ويلتـــاه الطبيـــب
عاملـــــه محبوبـــــه باجتنـــــاب ::: ثم اقتـــدى فيـــه الكـــرى بالحبيـــب
جفـــا جفـــوني النـــوم لكـــنّني ::: لم أبكـــه إلاّ لفقـــد الخيـــال
وذو الوصـــال اليـــوم قـــد غـــرّني ::: منـــه كمـــا شـــاء وشـــاء الوصـــال
فلســـت بـــاللائم مـــن صـــدّني ::: بصـــورة الحـــق ولا بالمحـــال

واشتهر بير العدوة بن خلف الجزائري صاحب الموشّحة المشهورة:

يـــد الإصـــباح قـــد قـــدحت ::: زنـــاد الأنـــوار مـــن مجـــامر الزهـــر

وابن خزر البجائي، وله من موشحة:

ثغـــــر الزمـــــان موافـــــق ::: حيّـــــاك منـــــه بابتســـــام

ومن محاسن الموشّحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها:

هل درى ظـــبي الحمـــى أن قـــد حمـــى ::: قلـــب صـــبٍّ حلّـــه عـــن مكـــنس
فهـــو في حـــر وخفـــق مثلمـــا ::: لعبـــت ريـــح الصـــبا بـــالقبس

وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره فقال:

جـــادك الغيـــث إذا الغيـــث همـــى ::: يـــا زمـــان الوصـــل بالأنـــدلس

لم يكـــن وصــــلك إلا حلمـــا ::: في الكـــرى أو خلســـة المخـــتلس
إذ يقـــود الـــدهر أشـــتات المـــنى ::: ينقـــل الخطـــو علـــى مـــا يرســـم
زمـــراً بـــين فـــرادى وثنـــا ::: مثلمـــا يـــدعو الوفـــود المواســـم
والحيـــا قـــد جلّـــل الـــروض ســـنا ::: فثغـــور الزهـــر منـــه تبســـم
وروى النعمـــان عـــن مـــاء الســـما ::: كيـــف يـــروي مالـــك عـــن أنـــس
فكســـاه الحســـن ثوبـــاً معلمـــا ::: يزدهـــي منـــه بـــأبهى ملـــبس
في ليـــال كتمـــت ســـرّ الهـــوى ::: بالـــدجى لـــولا شمـــوس الغـــرر
مـــال نجـــم الكـــأس فيهـــا وهـــوى ::: مســـتقيم الســـير ســـعد الأثـــر
وطـــر مـــا فيـــه مـــن عيـــب ســـوى ::: أنّـــه مـــرّ كلمـــح البصـــر
حـــين لـــذ الأنـــس شـــيئا أو كمـــا ::: هجـــم الصـــبح هجـــوم الحـــرس
غـــارت الشـــهب بنـــا أو ربمـــا ::: أثـــرت فينـــا عيـــون النـــرجس
أي شـــيء لامـــرىء قـــد خلصـــا ::: فيكـــون الـــروض قـــد مكّـــن فيـــه
تنـــهب الأزهـــار منـــه الفرصـــا ::: أمنـــت مـــن مكـــره مـــا تتقيـــه
فـــإذا المـــاء تنـــاجى والحصـــى ::: وخـــلا كـــلّ خليـــل بأخيـــه
تبصـــر الـــورد غيـــوراً برمـــا ::: يكتســـي مـــن غيظـــه مـــا يكتســـي
وتـــرى الآس لبيبـــاً فهمـــا ::: يســـرق الســـمع بـــأذني فـــرس
يـــا أهيـــل الحـــيّ مـــن وادي الغضـــا ::: وبقلـــبي ســـكن أنـــتم بـــه
ضاق عن وجدي بكم رحـــب الفضـــا ::: لا أبـــالي شـــرقه مـــن غربـــه
فأعيـــدوا عهـــد أنـــس قـــد مضـــى ::: تعتقـــوا عـــانيكم مـــن كربـــه
واتقـــوا الله وأحيـــوا مغرمـــا ::: يتلاشـــى نفســـاً في نفـــس
حـــبس القلـــب علـــيكم كرمـــا ::: أفترضـــون عفـــاء الحـــبس
وبقلـــبي مـــنكم مقتـــرب ::: بأحاديـــث المـــنى وهـــو بعيـــد
قمـــر أطلـــع منـــه المغـــرب ::: شـــقوة المغـــرى بـــه وهـــو ســـعيد
قـــد تســـاوى محســـن أو مـــذنب ::: في هـــواه بـــين وعـــد ووعيـــد
ســـاحر المقلـــة معســـول اللمـــى ::: جـــال في الـــنفس مجـــال الـــنفس
ســـدّد الســـهم وسمّـــى ورمـــى ::: ففـــؤادي نهبـــة المفتـــرس
إن يكـــن جـــار وخـــاب الأمـــل ::: وفـــؤاد الصـــبّ بالشـــوق يـــذوب
فهـــو للـــنفس حبيـــب أول ::: لـــيس في الحـــبّ لمحبـــوب ذنـــوب

أمـــــره معتمـــــــل ممتثـــــــل ::: في ضـــلوع قـــد براهـــا وقلـــوب
حكّـــم اللّحــــظ بهــــا فاحتكمـــا ::: لم يراقـــب في ضـــعاف الأنفـــس
منصـــف المظلـــوم ممّـــن ظلمـــا ::: ومجـــازي البّـــر منـــها والمســـي
مـــا لقلـــبي كلمّـــا هبـــت صـــبا ::: عـــاده عيـــد مـــن الشـــوق جديـــد
كـــان في اللـــوح لـــه مكتتبـــا ::: قولـــه: " إن عـــذابي لشـــديد "
جلـــب الهـــمّ لـــه والوصـــبا ::: فهـــو للأشـــجان في جهـــد جهيـــد
لاعـــج في أضـــلعي قـــد أضـــرما ::: فهـــي نـــار في هشـــيم اليـــبس
لم يـــدع في مهجـــتي إلا ذمـــا ::: كبقـــاء الصـــبح بعـــد الغلـــس
سلّمي يـــا نفـــس في حكـــم القضـــا ::: واعمـــري الوقـــت برجعـــى ومتـــاب
دعك من ذكـــرى زمـــان قـــد مضـــى ::: بـــين عـــتبى قـــد تقضّـــت وعتـــاب
واصـــرفي القـــول إلى المـــولى الرضـــى ::: ملـــهم التوفيـــق في أمّ الكتـــاب
الكـــريم المنتـــهى والمنتمـــى ::: أســـد الســـرج وبـــدر المجلـــس
ينـــزل النصـــر عليـــه مثلمـــا ::: ينـــزل الـــوحي بـــروح القـــدس

إلى هذا الحد انتهى ابن خلدون من موشحة لسان الدين، ولا أدري لِمَ لَمْ يكملها، وتمامها قوله:

مصـــطفى الله سمـــيّ المصـــطفى ::: الغـــني باللّـــه عـــن كـــلّ أحـــد
مـــن إذا مـــا عقـــد العهـــد وفى ::: وإذا مـــا فـــتح الخطـــب عقـــد
من بـــني قـــيس ابـــن ســـعدٍ وكفـــى ::: حيث بيـــت النصـــر مرفـــوع العمـــد
حيث بيـــت النصـــر محمـــي الحمـــى ::: وجـــنى الفضـــل زكـــي المغـــرس
والهـــوى ظـــل ظليـــل خيّمـــا ::: والنـــدى هـــبّ إلى المغتـــرس
هاكهـــا يـــا ســـبط أنصـــار العـــلا ::: والـــذي إن عثـــر الـــدهر أقـــال
غـــادة ألبســـها الحســـن مـــلا ::: تبـــهر العـــين جـــلاء وصـــقال
عارضـــت لفظـــا ومعـــنى وحلـــى ::: قـــول مـــن أنطقـــه الحـــبّ

فقال:

هل درى ظـــبي الحمـــى أن قـــد حمـــى ::: قلـــب صـــبّ حلّـــه عـــن مكـــنس
فهـــو في خفـــقٍ وحـــرٍ مثلمـــا ::: لعبـــت ريـــح الصّـــبا بـــالقبس

" ثمّ قال ابن خلدون: وأما المشارقة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من

الموشحات، ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري التي اشتهرت شرقاً وغرباً، وأولها:

يـــا حبـــيبي ارفـــع حجـــاب ::: النـــــور عـــــن العـــــذار
تنظـــــر المســـــك علـــــى ::: كـــــافور في جلّنـــــار
كللـــــي ياســـــحب تيجـــــان ::: الـــــربى بـــــالحلي
واجعلـــــي ســـــوارها ::: منعطـــــف الجـــــداول

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناجيهم إلى هذا العهد فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال، بحسب لغتهم المستعجمة، وأوّل من أبدع في هذه الطريقه الزجلية أبو بكر ابن قزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس، لكن لم تظهر حلاها، ولا انسبكت معانيها، واشتهرت رشاقتها، إلا في زمانه، وكان لعهد الملثّمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق، قال ابن سعيد: رأيت أزجاله مرويّة ببغداد أكثر ممّا رأيتها بحواضر المغرب، قال: وسمعت أبا الحسن بن جحدر الإشبيلي إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحد من أئمّة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه، فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء على صفائح من الحجر، فقال:

وعـــريش قـــد قـــام علـــى ::: دكـــــان بحـــــال رواق
وأســـد قـــد ابتلـــع ثعبـــان ::: مـــــن غلـــــظ ســـــاق
وفـــتح فمـــو بحـــال ::: إنســـــان بـــــه الفـــــواق
وانطلـــق مـــن ثم علـــى ::: الصّـــفاح والقـــي الصـــياح

وكان ابن قزمان مع أنه قرطبي الدار كثيراً ما يتردد إلى إشبيلية، وينتاب نهرها.

إلى أن قال ابن خلدون: وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدغليس، وقعت له العجائب في هذه الطريقة، فمن قوله في زجله المشهور:

ورذاذ دق ينـــــــــــــزل ::: وشـــعاع الشـــمس يضـــرب
فتـــرى الواحـــد يفضـــض ::: وتـــرى الآخـــر يـــذهّب
والنبـــات يشـــرب ويســـكر ::: والغصـــون تـــرقص وتطـــرب
وتريـــد تجـــي إلينـــا ::: ثمّ تســـتحي وترجـــع

ومن محاسن أزجاله قوله:

لاح الضّيا والنجوم سكارى

ثم قال: وظهر بعد هؤلاء في إشبيلية ابن جحدر الذى فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل المشهورالذي أوّله:

من يعانـد التوحيـد بالسـيف يمحـق ::: أنـا بـرى ممّـن يعانـد الحـق

قال ابن سعيد: لقيته ولقيت تلميذه البعبع صاحب الزجل المشهور الذي أوله:

ليـــتني إن ريـــت حبـــيبي ::: أقتـــل أدنـــو بالرســـيلا
لشـــن أخـــذ عنـــق الغزيّـــل ::: وســـرق فـــم الحجـــيلا

* * *

رجع إلى موشّحات ابن الخطيب

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى: وممّا قلته من الموشّحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها:

ربّ ليـــلٍ ظفـــرت بالبـــدر ::: ونجـــوم الســـماء لم تـــدرِ
حفـــظ الله ليلنـــا ورعـــى ::: أيّ شمـــلٍ مـــن الهـــوى جمعـــا

غفل الدهر والرقيب معا

ليـــت نهـــر النـــهار لم يجـــرِ ::: حكـــم الله لي علـــى الفجـــرِ

علِّـــل الــــنفس يـــا أخـــا العـــرب ::: بحـــديث أحلـــى مـــن الضّـــرَب

في هوى من وصاله أربي

كلّمـــا مـــرّ ذكـــر مـــن تـــدري ::: قلـــت يـــا بـــرده علـــى صـــدري

صـــاح لا تهـــتمم بـــأمر غـــد ::: وأجـــز صـــرفها يـــداً بيـــد

بين نهرٍ وبلبلٍ غرد

وغصـــون تميـــل مـــن ســـكر ::: أعلنـــت يـــا غمـــام بالشـــكر

يـــا مـــرادي ومنتـــهى أملـــي ::: هاتهـــا عســـجدية الحلـــل

حلّت الشمس منـزل الحمل

وبـــرود الربيـــع في نشـــر ::: والصّـــبا عنبريـــة النّشـــر

غـــرة الصـــبح هـــذه وضـــحت ::: وقيـــان الغصـــون قـــد صـــدحت

وكأنّ الصّبا إذا نفحت

وهفـــا طيبـــها عـــن الحصـــر ::: مدحـــة في عـــلا بـــني نصـــر

هـــم ملـــوك الـــورى بـــلا ثنيـــا ::: مهّـــدوا الـــدين زيّنـــوا الـــدنيا

وحمى الله منهم العليا

بالإمـــام المرفّـــع الخطـــر ::: والغمـــام المبـــارك القطـــر

إنّمـــا يوســـف إمـــام هـــدى ::: حـــاز في المعلـــوات كـــلّ مـــدى

قل لدهرٍ بملكه سعدا

افتخـــر جملـــةً علـــى الـــدهر ::: كافتخـــار الربيـــع بـــالزهر

يـــا عمـــاد العـــلاء والمجـــدِ ::: أطلـــع العيـــد طـــالع الســـعدِ

ووفى الفتح فيه بالوعدِ

وتجلّـــت فيـــه علـــى القصـــر ::: غـــرر مـــن طلائـــع النصـــر

فتـــهنّأ مـــن حســـنه البـــهج ::: بحيـــاة النفـــوس والمهـــج

واستمعها ودع مقال شجي

قســـماً بـــالهوى لـــذي حجـــر ::: مـــا لليـــل المشـــوق مـــن فجـــر

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله:

كـــم ليـــوم الفـــراق مـــن ::: غصّـــه في فـــؤاد العميـــد
نرفـــع الأمـــر فيـــه ::: والقصّـــةْ للـــوليّ الحميـــد
رحـــل الرّكـــب يقطـــع ::: البيـــدا بســـفين النّيـــاق
كـــلّ وجنـــاء تتلـــع ::: الجيـــدا وتبـــذّ الرفـــاق
حســـبت ليلـــة اللّقـــا عيـــدا ::: فهـــي ذات اشـــتياق
صـــائمات لا تقبـــل الرّخصـــه ::: قبـــل فطـــر وعيـــد
فهـــي مـــذ أمّلتـــه ::: مختصـــه بجهـــاد جهيـــد

ومنه في آخره:

يـــا إمـــام العـــلاء والفخـــر ::: ذا السّـــنا المبـــهج
هاكهـــا لا عـــدمت في ::: الـــدهر آمـــلاً يرتجـــي
عارضـــت قـــول بـــائع ::: التمـــر بمقـــال شـــجي
غرّبـــوك الجمـــال يـــا حفصـــةْ ::: مـــن مكـــان بعيـــد
مـــن سجلماســـة ومـــن ::: قصـــةْ وبـــلاد الجريـــد

وقد ألف - رحمه الله تعالى - في هذا الفن كتابه المسمى " بجيش التوشيح " وأتى فيه بالغرائب، وذيّل عليه صاحبنا وزير القلم بالمغرب العلم الشهير المنفرد في عصره بحيازة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي - رحمه الله تعالى - بكتاب سمّاه " مدد الجيش " واستهلّه بقوله: حمداً لمن أمدّ جيش محمد بعترته. وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة، وضمنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسني - رحمة الله تعالى ورضوانه عليه - ما زاده زيناً، وأخبرني - رحمه الله تعالى - أنّه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين المذكور أزيد من ثلاثمائة موشّح، ولا حرج في إيراد بعضها هنا، فمنها قول أحد الوافدين من أهل مكّة على عتبة السلطان مولانا المنصور، وهو رجل يقال له: أبو الفضل ابن محمد العقاد وقد عارض بها موشّحتي لسان الدين وابن سهل

السابقتين:

ليت شعري هل أروّي ذا الظما	:::	من لمى ذاك الثّغير الألعس
وترى عيناي ربّات الحمى	:::	باهيات بقدود ميّس
يدخلون السّقم من دار اللوى	:::	كلم الهجر فؤادي وأسر
هدّ من ركن اصطباري والقوى	:::	مبدلاً أجفان نومي بالسّهر
حين عزّ الوصل عن وادي طوى	:::	هملت أعين دمعي كالمطر
فعساكم أن تجودوا كرما	:::	بلقاكم في سواد الحندس
وتداووا قلب صبّ مغرما	:::	من جراحات العيون النّعّس
كلّما جنّ ظلام الغسق	:::	هزّني الشوق إليكم شغفا
واعتراني من جفاكم قلقي	:::	مذ تذكرت جياداً والصفا
وتناهت لوعتي من حرقي	:::	ثمّ زاد الوجد في التلفا
فانعموا لي ثم جودوا لي بما	:::	يُطف نيران الجوى ذي القبس
ساعة لي من رضاكم مغنما	:::	وتداوي جثّتي مع نفسي
كنت قبل اليوم في زهوٍ وتيه	:::	مع أحبابي بسلعٍ ألعب
ومعي ظبيٌ بإحدى وجنتيه	:::	مشرق الشمس وأخرى مغرب
فرماني بسهامٍ من يديه	:::	ضارب البين فقلبي متعب
لست أرجو للقاهم سلّما	:::	غير مدحي للإمام الأرأس
أحمد المحمود حقّاً من سما	:::	الشريف ابن الشريف

* * *

الباب السادس

في مصنفاته في الفنـــون ، ومؤلّفاتـــه المحقّقـــة للواقـــف عليهـــا الآمـــال والظنون، وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون



الباب السادس:

في مصنفاته في الفنون، ومؤلّفاته المحقّقة

للواقف عليها الآمال والظنون، وما كمل منها أو اخترمته دون إتمامه المنون

اعلم أن تصانيف لسان الدين التي علمت نحو الستين، وكلّها في غاية البراعة، بحيث إنّه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به، بل وكثير من غير أهل عصره رحمه الله تعالى، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها، وفيها أقول مضمناً ببعض تغيير:

تصانيف الوزير ابن الخطيب ::: ألذ من الصّبا الغضّ الرّطيب
فأية راحةٍ ونعيم عيشٍ ::: توازي كتبه أم أيّ طيب

قال رحمه الله تعالى في تعريفه بنفسه آخر " الإحاطة " ما صورته:

التواليف: " التاج المحلى في مساجلة القد المعلى، و " الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة "، و " الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر " ثم " النقاية بعد الكفاية " هذا في نحو القلائد والمطمحين لأبي نصر الفتح بن محمد، و " طرفة العصر في دولة بني نصر " في أسفار ثلاثة، و " بستان الدول " موضوع غريب ما سمع بمثله، قلّ أن شذّ عنه فن من الفنون، يشتمل على شجرات عشر: أوّلها شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء والصلاة، ثم شجرة الشرطة والحسبة، ثم شجرة العمل، ثمّ شجرة الجهاد، وهي فرعان: أسطول، وخيول، ثمّ شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجّمين والبيازرة والبياطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين، ثمّ شجرة الرعايا، وتقسيم هذا كلّه غريب يرجع إلى شعب، وأصول، وجراثيم، وعمد، وقشر، ولحاء، وغصون، وأوراق، وزهرات مثمرة، وغير مثمرة، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء بالصبغ اسم الفن المراد به، وبرنامجه صورة بستان، كمل منه نحو من ثلاثين سفراً، ثم قطّع عنه الحادث على الدولة، وديوان شعري في سفرين سميته الصيّب والجهام

والماضي والكهام، والنثر في غرض السلطانيات كثير، والكتاب المسمى باليوسفي في صناعة الطب في سفرين كبيرين، كتاب ممتع، وعائد الصلة وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير، في سفرين، وكتاب الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة كتاب كبير في أسفار تسعة، هذا متصل بآخرها، وتخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الدبيات الثلاثة، وجيش التوشيح في سفرين، ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كياد الدولة نفاضة الجراب في علالة الاغتراب موضوع جليل في أربعة أسفار، وكتاب عمل من طبّ لمن حب ومنزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبي عمرو ابن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية، لا نظير له، ومن الأراجيز المسمّاة رقم الحلل في نظم الدول والأرجوزة المسمّاة بالحلل المرقومة في اللمع المنظومة ألفية من ألف بيت في أصول الفقه، والأرجوزة المسماة بالمعلومة معارضة للمقدمة المسماة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم إذا أضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالاً لا يشينه نقص، والأرجوزة المسمّاة بـ " المعتمدة في الأغذية المفردة " والأرجوزة " في السياسة المدنية "، إلى ما يشذ عن الوصف كالرجز " في عمل الترياق الفاروقي "، و " الكلام على الطاعون المعاصر "، و " الإشارة "، و " قطع السلوك "، و " مثلى الطريقة في ذم الوثيقة " حتى في الموسيقى والبيطرة والبيزرة، هذر كثف به الحجاب، ولعب بالنفس الإيجاب، وضاع الزمان ولا تسل بين الرد والقبول والنفي والإيجاب، ولله در القائل - وهو المؤلف:

والكون أشراك نفوس الورى ::: طوبى لنفسٍ حرة فازت
إن لم تحز معرفة الله قد ::: أورطها الشيء الذي حازت

وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ انتهى ما له في آخر " الإحاطة " بحروفه.

قلت: ولنذكر ما تأخّر تأريخه عن الإحاطة أو أشير إليه فيها مجملاً فنقول:

من أشهر تواليفه رحمه الله تعالى كتاب " ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب " في عدة مجلدات، وهو داخل في قوله السابق في الإحاطة: والنثر في غرض السلطانيات كثير؛ وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض شتى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى، وذكر في صدره خطب بعض كتبه، وفي آخره بعض مقاماته وتحليته لأهل عصره، وغير ذلك، وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابه.

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه الله تعالى في كتابه " نثير فرائد الجمان فيمن نظمني وإيّاه الزمان " ما صورته: لابن الخطيب الأوضاع المصنفات، التي آذان إحسانها هي المقرّطات المشنّفات، منها في التصوف، الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوف روضة التعريف بالحب الشريف؛ انتهى، وسرد غير هذا الكتاب ممّا قدمنا ذكره وغيره.

وهذا الكتاب - أعني روضة التعريف - غريب المنزع، وعارض به ديوان الصبابة لابن أبي حجلة صاحب السكردان، وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العجاب، وتكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة، وبذلك سجل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه، ونسبوه إلى مذهب الحلول وغيره، ممّا ذكره يطول حسبما ألمعنا بذلك فيما سبق، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود، مشتمل على القشر والعود، وأوراق، وصورة طائر فوقها، ولم أر في فنّه مثله، جازاه الله تعالى عن نيته؛ فإنّه في الحب الشريف الرباني، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته.

* * *

اللمحة البدرية في الدولة النصرية

ومن تواليفه رحمه الله تعالى غير ما سبق اللمحة البدرية في الدولة

النصرية وكتاب السحر والشعر ومعيار الأخبار ومفاضلة مالقة وسلا وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف وقد ذكرهما في الريحانة بنصهما، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه، والمسائل الطبية في مجلد، والكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة ورسالة تكوّن الجنين والوصول لحفظ الصحة في الفصول وكتاب الوزارة ومقامة السياسة والغيرة على أهل الحيرة وحمل الجمهور على السّنن المشهور والزبدة المخوضة والرد على أهل الإباحة وسد الذريعة في تفضيل الشريعة وتقرير الشبه وتحرير الشبه واستنزال اللطف الموجود في سر الوجود وأبيات الأبيات فيما اختاره رحمه الله تعالى من مطالع ما له من الشعر، وفتات الخوان ولقط الصوان في سفر يتضمن المقطوعات فقط، وكناسة الدكان بعد انتقال السكان، والدرر الفاخرة واللجج الزاخرة جمع فيه نظم ابن صفوان، وأعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام والمباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية وخلع الرسن في أمر القاضي ابن الحسن وتدوين شعر شيخه ابن الجياب، وجمع نثر المذكور وسمّاه تافه من جمّ ونقطة من يمّ وشرحه لكتاب نفسه رقم الحلل في نظم الدول؛ فهذا ما حضرني علمه من تواليف لسان الدين رحمه الله تعالى، فأما البيزرة ففي مجلد، وأما البيطرة فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغير ذلك، وأما رجز الأصول فقد شرحه قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور، وأمّا رقم الحلل في نظم الدول فهو في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة، وقد كنت بالمغرب أحفظ أكثره، فنسيته الآن، وابتداه بقوله:

الحمـــــد لله الـــــذي لا ينكـــــره ::: مـــن ســـرحت في الكائنـــات فكـــره

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد:

ثمّ الوليـــد ابـــن يزيـــد العائـــث ::: قـــد نقلـــت مـــن فعلـــه خبائـــث

وفي آخر دولة بني أمية قوله:

وصار قصر الملك من أميّه ::: أقفر ربعاً من ديار ميّه

وفي الأمين:

باع العلا بشادن وكاس ::: وصحبة الشيخ أبي نواس

وفي المعتصم:

وهو الذي تألّف الأتراكا ::: فنصبوا لقومه الأشراكا

ومن أبيات هذا الكتاب قوله:

ويفسد الملك بالاحتجاب ::: كذاك بالزّهو وبالإعجاب

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك:

وأقفرت من ملكه أوطانه ::: سبحان من لا ينقضي سلطانه

* * *

معلومات عن كتاب الإحاطة

وأمّا كتاب الإحاطة فهو الطائر الصيت بالمشرق والمغرب، والمشارقة أشد إعجاباً به من المغاربة، وأكثر لهجاً بذكره، مع قلّته في هذه البلاد المشرقية، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي، وسمّاه مركز الإحاطة في أدباء غرناطة وهو في مجلدين بخطّه، رأيت الأخير منهما بمصر، وقال في آخره ما نصّه: هذا آخر ما أردت إيراده، وفوّفت أبراده، من كل طرفة وتحفة وفائدة أدبية ونادرة تاريخية، في كتاب الإحاطة بتاريخ غرناطة، ولما كان المعول عليه، والباعث الداعي إليه، ذكر أدبائه، ومآثر علمائه، سميته مركز الإحاطة بأدباء غرناطة والحمد لله أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً، علقه لنفسه ثم لمن شاء الله تعالى من بعده الفقير إلى عفو ربّه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي، لطف الله تعالى به بمنّه وكرمه، مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل؛ انتهى.

وقد جعل كل أربعة أجزاء من الأصل في مجلّد، إذ هو في مجلدين كما

سبق، ونسخة الأصل في ثمانية مجلّدات، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها.

ولمّا وقف سلطان الأندلس من كتاب الإحاطة نسخة على بعض مدارس غرناطة كتب ابن عاصم حجة الوقفية بخطّه، ولنثبتها لما فيها من الفوائد، قال الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان المحروسة: كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال، والفائقة الكمال، من الإحاطة بتاريخ غرناطة المحبّسة على المدرسة اليوسفية، من الحضرة العلية، بخط قاضي الجماعة، ومنفذ الأحكام الشرعية المطاعة، صدر البلغاء، وعلم العلماء، ووحيد الكبراء، وأصيل الحسباء، الوزير الرئيس المعظّم أبي يحيى ابن عاصم - رحمة الله تعالى عليه - ما نصّه: الحمد لله الجاعل الاستدلال بالأثر على المؤثر مما سلمه الأعلام، وشهدت به العقول الراجحة والأحلام، وهو الحجّة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عرضت الأوهام، وحسبك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلة، وما يعتمد في هذا المجال المتضايق من البراهين المستقلّة، فحقيق أن يتلقى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفن المشار إليه بالقبول، ويستنبل المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول، وإذا ثبت أن المستدل بهذه الأدلّة سالك على سواء سبيل، ومنتمٍ من صحة النظر إلى أكرم قبيل، فلا خفاء أن كتاب الإحاطة للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - من أثر هذه الدولة النّصرية أدامها الله تعالى بكل اعتبار، ومآثرها التي هي عبرة لأولي الألباب وذكرى لذوي الأبصار، أما الأول فلأن الأنباء التي أظهرت بهجتها، وأوضحت حجّتها، وشرفت مقصدها، وكرمت مصعدها، إنّما هي مناقب ملوكها الكرام، ومكارم خلفائها الأعلام، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حملة السيوف والأقلام، وأفذاذ حفظة الدّين والدنيا، والشرف والعليا، والملك والإسلام، أو ما يرجع إلى مفاخر

حضرة الملك، وينتظم نظم الجمان في ذلك السلك، من حصانة قلعتها، وأصالة منعتها، وقديم اختطاطها، وكريم جهادها ورباطها، وحسن ترتيبها ووضعها، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس آهل ربعها، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل، وممّا يرجع إلى شرف الحضرة ممّن انتابها من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل، وأما ثانياً فإن راسم آياتها المتلوة، ومبدع محاسنها المجلوة، وناقل صورتها من الفعل إلى القوّة، إنّما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النّصرية الكريمة، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الدّيمة، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف، على الإنصاف، فأخلاف هذه المكارم النصرية أرضعته، وعناياتها الجميلة أسمته فوق الكواكب ورفعته، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب، ومن كريم تشريفها اكتسب، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قدره، بل أفقه الذي أشرق فيه بدره، والتشريفات السلطانية التي فتقت اللّها باللّها، وأحلّت من مراقي العز فوق السها، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق، وطوّقت المنن كالقلائد في الأعناق، وقلدت الرياسة والأقلام أقلام، وثنت الوزارة والأعلام أعلام، فبهرت أنواع المحاسن، وورد معين البلاغة غير المطروق ولا الآسن، وبرعت التواليف في الفنون المتعدّدة، واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكّدة، إذ أظهر هذا الاستدلال، وأوضح البيان ما كتمه الإجمال، فلنفصح الآن بما قصد، ولنحقق من أنجم السعادة ما رصد، وذلك أن لمولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الغالب بالله المؤيد بنصره أبي عبد الله محمد ابن الخلفاء النصريين، أيده الله ونصره، وسنّى له الفتح المبين ويسره، مآثر لم يسبق إليها، ومكارم لم يجر أحد ممّن وسم بالكرم عليها، لجلالة قدرها، وضخامة أمرها، من ذلك هذا المقصد الذي أثر لها كالكتاب المذكور وسواه، ممّا هو واحد في فنّه وفذ في معناه، عقد في جميعها التحبيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع، ويعم به الانتفاع، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم، ويتولى المثوبة على هذا العقد الجسيم، وهذه النسخة في اثني عشر

سفراً متفقة الخط والعمل، اكتتب هذا على ظهر الأول منها، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة، عرف الله تعالى بركته بمنّه؛ انتهى.

وكان لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - أرسل في حياته نسخة من الإحاطة إلى مصر، ووقفها على أهل العلم، وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء، وقد رأيت منها المجلّد الرابع، وهذا نص وقفيته: الحمد لله وحده، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمرو ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي - نفع الله تعالى به - عن موكّله مصنّفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السّلماني - فسح الله تعالى في مدّته، وفتح لنا وله أبواب رحمته، ومنحنا وإيّاه من رفده وعطيته، وأسكننا وإيّاه أعالي جنّته - جميع هذا الكتاب تاريخ غرناطة، وهو ثمانية أجزاء، هذا رابعها، عن مصنّفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره، وهو أنّه فوّض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلّها، وشؤونه جميعها، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها، تفويضاً تاماً على العموم والإطلاق، والشمول والاستغراق، لم يستثن شيئاً ممّا تجوز النيابة فيه إلاّ أسنده إليه، وهو ثابت على سيّدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بثغر الإسكندرية المحروس أدام الله تعالى أيامه كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذي الحجّة عام سبعة وستين وسبعمائة، وقفاً شرعيّاً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخاً ومطالعة، وجعل مقرّه بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء، رحم الله تعالى واقفها، وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة، حرسه الله تعالى، ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة، فلا يحل لأحد، يؤمن بالله العظيم، ويعلم أنّه صائر إلى ربّه الكريم، أن يبطله ولا شيئاً منه، ولا يبدله ولا شيئاً منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنّما إثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميع عليم، ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور

جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعمائة؛ انتهى.

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوط جماعة من العلماء، فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقريزي المؤرخ، ونصّه: انتقى منه داعياً لمؤلّفه أحمد بن علي المقريزي في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة:

وما رقمه الحافظ السيوطي ونصّه: الحمد لله وحده، طالعته على طبقات النحاة واللغويين، وكتبه عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين وثمانمائة؛ انتهى.

وبعد هذين ما صورته: انتقى منه داعياً لمؤلّفه محمد بن محمد القوصوني سنة أربع وخمسين وتسعمائة.

وبعده ما صورته: أنهاه نظراً وانتقاء علي الحموي الحنفي، لطف الله به.

وبخط مولانا العارف الرباني علامة الزمان وبركة الأوان سيدي الشيخ محمد البكري الصديقي ما نصّه: طالعته مبتهجاً برياضه المونقة، وأزهار معانيه المشرقة، مرتقياً في درج كلماته العذاب سماء الاقتباس، مقتنياً من لطائفه درراً وجواهر بل أحاشيها بذلك القياس، كتبه محمد الصديقي غفر الله له؛ انتهى.

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابة جماعة من أهل المشرق والمغرب كابن دقماق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر، ومن المغاربة ابن المؤلف أبي الحسن علي بن الخطيب، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق، والعلامة أبي الفضل ابن الإمام التلمسانى، والنحوي الراعي، والشيخ الفهامة الشهير يحيى العجيسي شارح الألفية وصاحب التآليف، وغير هؤلاء ممّن يطول تعدادهم، رحمهم الله تعالى جميعهم.

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني بالله تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيراً له ثم انفصل عنه حسبما تقدّم إلى ما يتعلّق بكتاب الإحاطة في جملة كلام نصّه: وتلقينا ممّن نثق به أن الكاتب المجيد الأصيل حسباً، البارع أدباً، أبا عبد الله ابن جزي وفد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، فأكرم جنابه، وكمل من تقريبه واصطناعه آرابه، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي، وصاح بمن عذله: أيا ويح الشجيّ من الخلي... وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه، فلم يكن شيء من الكلام إلاّ قال الإحسان وأنا معه، استوعب ما شاء، وأبدع في كل ما نقل سواء كان شعراً أو إنشاء، لكن سابق أجله منع من الإمتاع بمجمله ومفصّله، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدّنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرّة شوّال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعين لتعريف صاحب المغرب بالكائنة خاص الدولة ورئيس الجملة أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب، فوقف من تاريخ ابن جزي على شاطئ نهر فياض، وانتشق من ورقاته أزاهر رياض، وحمله النظر في بدائعه على أن يأخذ في جمع كتابه المسمى بالإحاطة فيما تيسّر من تاريخ غرناطة ووجد لذلك موجباً أغراه بجمعه، وهو أن الشيخ الحجّة الشاعر المفلق أبا إسحاق بن الحاج وفد على الأندلس بعد جوبه في الآفاق، وترحله إلى ما وراء الشام والعراق، وإعلامه أنّه يذهب في بدأة تاريخ مذهب ابن جزي وغيره، وكان وحيداً في فنون الآداب، والمساجلة لأعلام الكتّاب، وبحكم الاتفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وجد الحاجب الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمى، وبأن وقفه دون طموحه إلى عادته من المرقب الأسمى، فأنتج الانتباذ من تلك الرياسة الخطيبية أن ألفى الخطبة على جلالة مقدارها، وتوضّح أنوارها، في مرتقى إجلالها وإكبارها، وأخذ في تأليف الإحاطة مستدعياً تصحيح الموالد والوفيات، والأسماء والمسميات، ومستكثراً من طرف المصنّفات، ليتم قصده من الإطناب، ونقله العيون الرائقة من كلّ كتاب،

وألقى جميع مقاصده، والمعظم من تنظيم فرائده، بيد الشيخ العمدة معلم الجملة من كتاب الله وسنة رسوله أبي عبد الله الشريشي، قدس الله تعالى ضريحه، وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سنّ الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولى من المبيضات نقله، وأحكم جنسه وفصله، وانختم على مجلدات ستة. ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس بعودة جدنا الغني بالله تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروع من كتاب الإحاطة بالأصول، وأنجز من التبحر فيه الوعد الممطول، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء نسخته المتمّمة من اثني عشر سفراً؛ انتهى كلامه.

وقد علمت أن المكتوب في الوقفيّة كما مر ثمانية مجلدات، لا اثنا عشر، فلعل ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر، والله سبحانه وتعالى أعلم.

والكاتب أبو عبد الله بن جزي الذي أشار إليه قد عرّفنا به فيما سبق فليراجع.

* * *

الباب السابع

ذكر بعض تلامذته الآخــذين عنــه المستهدين به على المنهاج ، المــتلقّين أنواع العلوم منه والمقتبســين أنــوار الفهوم من سراجه الوهاج

الباب السابع:

ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه

المستهدين به على المنهاج ، المتلقّين أنواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهاج

اعلم أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون، إلاّ أنه لم يرزق السعادة في كثير منهم، بل بارزوه بالعداوة واجتهدوا في إيصال المكروه إليه.

١ - فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله بن زمرك، وارث مرتبته من بعده، ومقتعد أريكة سعده، وقد ألمع به في الإحاطة وكان إذ ذاك من جملة أتباعه، إذ قال ما محصله: محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن زمرك.

أصله من شرقي الأندلس، وسكن سلفه ربض البيازين من غرناطة، وبه ولد ونشأ، وهو من مفاخره.

حالــــه – هذا الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها، مختصر مقبول هش خلوب، عذب الفكاهة حلو المجالسة، حسن التوقيع خفيف الروح. عظيم الانطباع شره المذاكرة، فطن بالمعاريض حاضر الجواب، شعلة من شعل الذكاء تكاد تحتدم جوانبه، كثير الرقة فكه غزل مع حياء وحشمة، جواد بما في يده مشارك لإخوانه، نشأ عفّاً طاهراً، كلفاً بالقراءة عظيم الدّؤوب، ثاقب الذهن، أصيل الحفظ ظاهر الذّبل، بعيد مدى الإدراك جيد الفهم، فاشتهر فضله وذاع أرجه وفشا خبره، واضطلع بكثير من الأغراض وشارك في كثير من الفنون، وأصبح متلقف كرة البحث وصارخ الحلقة وسابق الحلبة ومظنة الكمال، ثم ترقى في درج المعرفة والاضطلاع وخاض لجة الحفظ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق، ونصب نفسه للناس متكلماً فوق الكرسي المنصوب، وفوق المحفل المجموع، مستظهراً بالفنون التي بعد فيها شأوه من العربية

والبيان واللغة وما يقذف به في لج النقل من الأخبار والتفسير، متشوفاً مع ذلك إلى السلوك مصاحباً للصوفية آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة، ثم عانى الأدب فكان أملك به، وأعمل الرحلة في طلب العلم والازدياد، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبي سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب، ثم عن السلطان، وعرف في بابه بالإجادة.

ولمّا جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس، واستقر بالمغرب، أنس له وانقطع إليه، وكر في صحبة ركابه إلى استرجاع حقه، فلطف منه محله وخصه بكتابة سره، وثابت الحال ودالت الدولة وكانت له الطائلة، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية كثير الدالّة، مضطلعاً بالخطة خطّاً وإنشاء ولسناً ونقداً، فحسن منابه واشتهر فضله وظهرت مشاركته وحسنت وساطته، ووسع الناس تخلقه، وأرضى للسلطان حمله، وامتد في ميدان النظم والنثر باعه، فصدر عنه من المنظوم في أمداحه قصائد بعيدة الشأو في مدى الإجادة، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد، أعانه الله تعالى وسدده.

شيوخه – قرأ العربية على الأستاذ رحلة المغرب في فنها أبي عبد الله ابن الفخار، ثمّ على القاضي الشريف إمام الفنون اللسانية أبي القاسم محمد بن أحمد الحسني، والفقه والعربية على الأستاذ المفتي أبي سعيد بن لب، واختص بالفقيه الخطيب الصدر المحدث أبي عبد الله بن مرزوق فأخذ عنه كثيراً من الرواية، ولقي القاضي الحافظ أبا عبد الله المقّري عندما قدم على الأندلس وذاكره، وقرأ الأصول الفقهية على أبي علي منصور الزواوي، ويروي عن جملة منهم القاضي أبو البركات ابن الحاج، والمحدث أبو الحسين بن التلمساني، والخطيب أبو عبد الله ابن اللوشي، والمقرئ أبو عبد الله ابن بيبش، وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبي عبد الله العلّوني التلمساني، واختص به اختصاصاً لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة في الصنعة.

شعره – وشعره مترام إلى هدف الإجادة، خفاجي النزعة، كلف بالمعاني

البديعة والألفاظ الصقيلة، غزير المادة، فمن ذلك ما خاطبني به، وهو من أول ما نظمه قصيدة مطلعها:

أما وانصداع النور من مطلع الفجر... وهي طويلة.

٢ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى، الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا، وشرحه عليها من أبدع الشروح، وقد نقل عن لسان الدين كثيراً، واعتمد عليه في أمور الطب، وقد طال عهدي به الآن، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب، ولم أره بهذه الديار المشرقية.

٣ - من تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى: الأديب الكاتب العالم العلامة القاضي أبو بكر بن جزيّ الكلبي، وأبوه الشيخ أبو القاسم ابن جزي شيخ لسان الدين، وبيت بني جزي بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس، وقد عرّفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين الناظمين الناثرين الكاتب أبي عبد الله محمد والقاضي أبي بكر المذكور، فليراجع في الباب الثالث.

ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - جميع تواليفه مع أنّه مقاربه في السن، ولكن الإنصاف في ذلك الزمان غير معدوم، وقد عرّف به لسان الدين في الإحاطة والذي فهمت من عبارته في الإحاطة أنّه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالباً إلا على تلامذته، وربما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه، رحمه الله تعالى؛ وأتقن تاريخ أهل المغرب والأندلس، رحم الله تعالى الجميع.

٤ - ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى: مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنّة رسول الله أبو عبد الله الشريشي، وهو الذي تولى أولاً نقل " الإحاطة " من مبيضتها، كما يبقت الإشارة إليه في كلام حفيط السلطان ابن الأحمر، وأحكم النسخة، فكانت في مجلدات ستة، وكان لسان الدين ألقى إليه

بالمبيضات اعتماداً منه عليه، وثقة به، لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة.

٥ - ومن تلامذة لسان الدين: القاضي الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي.

قال في " الإحاطة ": صاحبنا الفقيه الخطيب، كاتب الإنشاء بالباب السلطاني أبو محمد، نسيج وحده في أصالة البيت وعفاف النشأة، مقصود المنزل، نبيه الصهر، معم مخول في الأصالة، بارع الخط، جيّد القريحة، سيّال المداد، نشيط البنان، جلد على العمل، خطيب ناظم ناثر، قرأ بغرناطة، وولي الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء سنتين ببلده في حداثة السن، ثم انتقل إلى غرناطة فجأجأت به الكتابة السلطانية داحضة بالحق، آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل كفاية، فاستقل رئيساً في غرض إعانتي وانتشالي من هفوة الكلفة على جلل الضعف وإلمام المرض. ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة، وإزعاجها من الأندلس عن سوأة لا توارى، وعورة لا يرتاب في أشنوعتها ولا يتمارى، فسبحان من علّم النفس فجورها وتقواها، إذ لصق بالدائل الفاسق فكان آلة انتقامه، وجارحة صيده، وأحبولة كيده، فسفك الدماء، وهتك الأستار، ومزق الأسباب، وبدل الأرض غير الأرض، وهو يزقه في أذنه زقوم النصيحة، وينحله لقب الهداية، ويبلغ في شدّ أزره إلى الغاية، عنوان عقل الفتى اختياره، يجري في سبيل دعوته طوالاً، أخرق يسيء السمع فيسيء الإجابة، بدويّاً قحّاً جهوريّاً ذاهلاً عن عواقب الدنيا والآخرة، طرفاً في سوء العهد وقلّة الوفاء، مردوداً في الحافرة، منسلخاً من آية السعادة، تشهد عليه بالجهل يده، ويقيم عليه الحجج شرهه، وتبوئه هفوات الندم جهالته، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه، وتبرأ منه، ولحقته بعده مطالبة مالية لقي لأجلها ضغطاً، وهو الآن بحال خزي، واحتقاب تبعات، واستدعيت شيئاً من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به، فكتب إليّ ما نصّه:

يا سيّداً فاق في مجد وفي شرف ::: وفات سبقاً بفضل الذات والسلف

وفاضلاً عـن سـبيل الـذمّ منحرفـاً ::: وعن سـبيل المعـالي غـير منحـرف
وتحفـة الـزّمن الآتي بـه فلقـد ::: ربا بمـا حـازه منـها علـى التحـف
ومعـدناً لنفـيس الـدرّ فهـو لمـا ::: حواه منه لـدى التشـبيه كالصـدف
وبحـر علـم جميـع النـاس مغتـرف ::: منـه، ونيـل المعـالي خـير مؤتلـف
وسـابقاً بـذّ أهـل العصـر قاطبـة ::: فالكـل في ذاك منـهم غـير مختلـف
مـن ذا يخـالف في نـار علـى علـم ::: أو يجحد الشمس نوراً وهو غير خفـي
ما أنـت إلاّ وحيـد العصـر في شـيم ::: وفي ذكـاء وفي علـم وفي ظـرف
لله مـن منـتم للمجـد منتسـب ::: بالفضـل متّسـم، بـالعلم متصـف
لله مـن حسـب عـدّ ومـن كـرم ::: قد شاده السـلف الأخيـار للخلـف
إيه أيـا مـن بـه تبـأى الـوزارة إذ ::: كنت الأحقّ بها في الـذات والشـرف
يا صاحب القلم الأعلى الـذي جمعـت ::: فيه المعالي فـبعض الـبعض لم أصـف
يا من يقصّر وصـفي في عـلاه ومـن ::: أنسـي مـديح حبيـب في أبي دلـف
شرّفتني عندما استدعيت مـن نظمـي ::: نظمـاً تدوّنـه في أبـدع الصـحف
وربمـا راق ثغـر في تبسّـمه ::: حـتى إذا نالـه إلمـام مرتشـف
أجـلّ قـدرك أن ترضـى لمنتجـع ::: بسـوء كيلتـه حظًّـا مـع الحشـف
هـذا، ولـو أنّـني فيمـا أتيـت بـه ::: نافحت بالطيب زهر الروضـة الأنـف
لكنت أفضي إلى التقصير مـن خجـل ::: إذ لسـت بـالبعض ممّـا تسـتحق أفي
فنحسبي العجز عمّا قـد أشـرت بـه ::: فالعجز حتماً قصـارى كـلّ معتـرف
لكـن أجبـت إلى المطلـوب ممتـثلاً ::: وإن غدوت بمرمـى القـوم كالهـدف
فانظر إليها بعين الصـفح عـن زلـل ::: واجعل تصفّحها مـن جملـة الكلـف
بقيـت للـدهر تطويـه وتنشـره ::: تسمو من العزّ باسـمٍ غـير منصـرف

ثـم ذكـر نثـراً، وأن مولـده بـوادي آش آخـر عـام تسـعة وسـبعمائة، وتـولّى الخطابـة والإمامـة بهـا عـام ثمانيـة وثلاثـين وسـبعمائة، ثـم ولـي القضـاء بهـا وبأعمالها عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستّة وخمسـين وسـبعمائة، وقـال لسـان الـدين رحمـه الله تعـالى: ولـيس لهـذا الرجـل انتحال لغير الشعر والكتابة وغير هذا الشعر قران، فقلّ أن ينتهي هذا الشعر في الضعة والاسترذال إلى ما دون هذا النمط، فهو بغير ثان شعراً وشكلاً وبلداً،

لطف الله تعالى بنا وبه؛ انتهى باختصار.

٦ - ومن تلامذة لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون، ومن نظمه على لسان من يرمى بالداء العضال في فرج عبد ابن زمرك الوزير بعد ابن الخطيب:

قالوا كلفت به غلاماً حالكاً ::: فأجبتهم في فيه ما يرضي المهج
مهما جننت بحسنه وبحبّه ::: علّقت فوقي منه حرزاً من سبجْ

ورأيت بخط الوادي آشي ما صورته: وجدت بخط لسان الدين، وخاتمة أعلام البيان المجيدين، ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب رحمه الله تعالى في طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون، المختص به، المتأدب بما انفرد به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصّه: يسقط هذا الساقط من الديوان؛ انتهى.

ولعلّ لسان الدين إنّما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يتّهم به من معنى بيتيه السابقين، ويحتمل أن يكون لغير ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

* * *

الباب الثامن

في ذكر أولاده الرافلين في حلل الجلاله المقتفين أوصافه الحميدة وخلاله، الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلالة ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا، المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلا ثنيا، المنقذة من أنواع الضلالة ، وما يقع في ذلك من المناسبات القوية، والأمداح النبوية، التي لها على حسن الختام أظهر دلاله.



الباب الثامن:

في ذكر أولاده الرافلين في حلل الجلاله

المقتفين أوصافه الحميدة وخلاله ، الوارثين العلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلالة ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا ، المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلا ثنيا ، المنقذة من أنواع الضلالة ، وما يقع في ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية، التي لها على حسن الختام أظهر دلالة

اعلم - وفقني الله تعالى وإياك لمرضاته، وجعلنا ممّن يعتبر بالدهر في معضاته - أن أولاد لسان الدين ثلاثة: عبد الله، ومحمد، وعلي، وكلّهم حدّث عن أبيه وعن ابن الجياب.

أما محمد فقد نال حظه من التصوّف، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف، ولم يحضرني الآن نص من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التي هي مظّان ذلك، إذ قد تركتها بالمغرب.

وقد سبق فيما مرّ من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من ندماء السلطان وأهل خلوته، وأن عليّاً كان خالصة السلطان، رحم الله تعالى الجميع.

وأمّا عبد الله فقد كتب بالعدوتين، لملوك الحضرتين، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبر الدولة، وأكثر الناس بها كالخواص حوله، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه، وقد ألمّ ببعض التعريف بمبدأ أحواله أبوه لسان الدين في كتاب " الإحاطة في تاريخ غرناطة " فقال في حقّه ما ملخصه: عبد الله بن محمد بن علي بن سعيد بن الخطيب التلمساني، حسن الشكل، جيد الفهم، يغطي منه رماد السكون جمرة حركة، منقبض عن الناس قليل البشاشة، حسن الخط، وسط النظم، كتب عن الأمراء بالمغرب، وأنشدهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات والإحسان، واختال في خلعهم، ثم لما كانت الفتنة كتب

عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة، قرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني، والخطيب أبي سعيد فرج بن لب التغلبي، واستظهر بعض المبادئ في العربية، واستجيز له من أدركه ميلاده من أهل المشرق والمغرب. وشعره مترفع عن الوسط إلى الإجادة، يكلّله عذر الحداثة، مولده بغرناطة، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة؛ انتهى.

* * *

أشعار للسان الدين

وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور ما في النفاضة من قوله: أنشدت ابني عبد الله وقد وصل لزيارتي من الباب السلطاني حيث جرايته ووظيفته، وانجر حديث ما فقد بغرناطة في شجون الكلام:

يا بنيّ عبد الإله احتساباً ::: عن أثاب ومنزل وعقار
كيف يأسى على خسارة جزء ::: من يرى الكلّ في سبيل الخسار
هدف لا تني سهام الليالي ::: عن سباق تجاهه وبدار
واحد طائش وسهم مصيب ::: ليس ينجي منها اشتمال حذار
غير ذي الدار صرف الهم فيها ::: فمناخ الرحيل ليس بدار

انتهى.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: ممّا أنشدته ولدي عبد الله، وأمرته بحفظه والتأدب به واللهج بحكمته:

إذا ذهبت يمينك لا تضيّع ::: يسارك في البكاء ولا المصيبهْ
ويسراك اغتنم فالقوس ترمي ::: وما تدري أرشقتها قريبهْ
وما بغريبة نوب اللّيالي ::: ولكنّ النجاة هي الغريبهْ

قال: ومن المنظوم في قريب من هذا قولي:

أيا أهل هذا القطر ساعده القطر ::: دهيت فدلوني لمن يرفع الأمر

تشاغلت بالدنيا ونمت مفرّطاً ::: وفي شغلي أو نومتي سرق العمر

وقال رحمه الله تعالى: وممّا قلته وقد انصرف عني الولد عبد الله إلى مدينة فاس لإقامة رسمه من الخدمة، وأشجاني انصرافه لوقوع قرحة على قرح، والله المستعان:

بان يوم الخميس قرّة عيني ::: حسبي الله أيّ موقف بين
لو جنى موقف النوى حين حيّا ::: حان يوم الوداع والله حيني
ضايقتني صروف هذي الليالي ::: وأطالت همّي وألوت بديني
وطن نازح وشمل شتيت ::: كيف يبقى معذّب بعد ذين
يا إلهي أدرك بلطفك ضعفي ::: إنّ ما أشتكيه ليس بهين

وقال رحمه الله تعالى: أنشدت يوماً ولدي عبد الله وقد رأيت منه نشاطاً ومرحاً انتقل مني إليه بعد السن:

سرق الدهر شبابي من يدي ::: وفؤادي مشعر بالكمد
جملة الأمر إذا أبصرته ::: باع ما أفقدني من ولدي

ومن محاسنه أيضاً البديعية المشهورة، وهي المعروفة ببديعية العميان، ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التي في التورية بسور القرآن ومدح النبي لكفى وهي من غرر القصائد، وكثر من الناس ينسبها للقاضي الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض، وكنت أنا في أوّل الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة، حتى وقفت عليه شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبي جعفر، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر، وهي:

في كلّ فاتحة للقول معتبره ::: حق الثناء على المبعوث بالبقره
في آل عمران قدماً شاع مبعثه ::: رجالهم والنساء استوضحوا خبره
من مدّ للناس من نعماه مائدة ::: عمّت فليست على الأنعام مقتصره
أعراف نعماه ما حلّ الرجاء بها ::: إلاّ وأنفال ذاك الجود مبتدره
به توسّل إذ نادى بتوبته ::: في البحر يونس والظلماء معتكره
هود ويوسف كم خوف به أمنا ::: ولن يروّع صوت الرعد من ذكره

مضمون دعـوة إبـراهيم كـان، وفي ::: بيت الإله وفي الحجـر الـتمس أثـره
ذو أمّـة كـدويّ النحـل ذكـرهم ::: في كلّ قطر، فسـبحان الـذي فطـره
بكهف رحماه قـد لاذ الـورى، وبـه ::: بشرى ابن مريم في الإنجيـل مشـتهره
سمـاه طـه، وخـصّ الأنبيـاء علـى ::: حجّ المكان الذي مـن أجلـه عمـره
قد أفلح الناس بـالنور الـذي غمـروا ::: مـن نـور فرقانـه لّمـا جـلا غـرره
أكابر الشعراء اللّسـن قـد عجـزوا ::: كالنمـل إذا سمعـت آذانهـم سـوره
وحسـبه قصـص للعنكبـوت أتـى ::: إذ حاك نسجاً بباب الغار قـد سـتره
في الروم قد شـاع قـدماً أمـره وبـه ::: لقمـان وفّـق للـدرّ الـذي نثـره
كم سجدة في طلى الأحزاب قد سجدت ::: سـيوفه فـأراهم ربّـه عـبره
سباهم فـاطر السـبع العـلا كرمـاً ::: لمن بياسين بـين الرسـل قـد شـهره
في الحرب قد صفّت الأمـلاك تنصـره ::: فصاد جمـع الأعـادي هازمـاً زمـره
لغـافر الـذنب في تفصـيله سـور ::: قـد فصّـلت لمعـان غـير مختصـره
شـوراه أن تهجـر الـدنيا فزخرفهـا ::: مثل الدخان فيعشي عـين مـن نظـره
عزّت شـريعته البيضـاء حـين أتـى ::: أحقاف بـدر وجنـد الله قـد نصـره
فجـاء بعـد القتـال الفـتح متصـلاً ::: وأصبحت حجـرات الـدين منتصـره
بقـاف والـذاريات الله أقسـم في ::: أنّ الـذي قالـه حـقّ كمـا ذكـره
في الطور أبصر موسـى نجـم سـؤدده ::: والأفق قد شـقّ إجـلالاً لـه قمـره
أسـرى فنـال مـن الـرحمن واقعـة ::: في القـرب ثبـت في ربّـه بصـره
أراه أشـياء لا يقـوى الحديـد لهـا ::: وفي مجادلـة الكفـار قـد نصـره
في الحشر يوم امتحان الخلـق يقبـل في ::: صف من الرّسـل كـل تـابع أثـره
كـفّ يسـبّح لله الحصـاة بهـا ::: فاقبل إذا جاءك الحـق الـذي قـدره
قد أبصـرت عنـده الـدنيا تغابنـها ::: نالت طلاقـاً ولم يصـرف لهـا نظـره
تحريمـه الحـبّ للـدنيا، ورغبتـه ::: عن زهرة الملك حقّـاً عنـدما نظـره
في نون قد حقّت الأمـداح فيـه بمـا ::: أثـنى بـه الله إذ أبـدى لنـا سـيره
بجاهـه سـال نـوح في سـفينته ::: سفن النجاة وموج البحر قـد غمـره
وقالـت الجـنّ جـاء الحـق فـاتبعوا ::: مـزملاً تابعـاً للحـقّ لـن يـذره
مـدثّراً شـافعاً يـوم القيامـة هـل ::: أتـى نـبيٌّ لـه هـذا العـلا ذخـره
في المرسلات من الكتـب انجلـى نبـأ ::: عن بعثه سـائر الأخبـار قـد سـطره

ألطافه النازعات الضيم في زمن ::: يوم به عبس العاصي لما ذعره
إذ كوّرت شمس ذاك اليوم وانفطرت ::: سماؤه ودعت ويل به الفجره
وللسماء انشقاق والبروج خلت ::: من طارق الشهب والأفلاك منتشره
فسبّح اسم الذي في الخلق شفعه ::: وهل أتاك حديث الحوض إذ نهره
كالفجر في البلد المحروس غرّته ::: والشم من نوره الوضاح مستتره
واللّيل مثل الضحى إذ لاح فيه ألم ::: نشرح لك القول في أخباره العطره
ولو دعا التين والزيتون لابتدرا ::: إليه في الحين واقرأ تستبن خبره
في ليلة القدر كم قد حلّ من شرف ::: في الفخر لم يكن الإنسان قد قدره
كم زلزلت بالجياد العاديات له ::: أرض بقارعة التّخويف منتشره
له تكاثر آيات قد اشتهرت ::: في كلّ عصر فويل للذي كفره
ألم تر الشمس تصديقاً له حبست ::: على قريش، وجاء الروح إذ أمره
أريت أنّ إله العرش كرمه ::: بكوثر مرسل في حوضه نهره
والكافرون إذا جاء الورى طردوا ::: عن حوضه فلقد تبّت يدا الكفره
إخلاص أمداحه شغلي، فكم فلق ::: للصبح أسمعت فيه الناس مفتخره
أزكى صلاتي على الهادي وعترته ::: وصحبه؛ وخصوصاً منهم عشره
صدّيقهم عمر الفاروق أحزمهم ::: عثمان ثمّ عليّ مهلك الكفره
سعد سعيد عبيد طلحة وأبو ::: عبيدة وابن عوف عاشر العشره
وحمزة ثمّ عبّاس وآلهما ::: وجعفر وعقيل سادة خيره
أولئك الناس آل المصطفى وكفى ::: وصحبه المقتدون السادة البرره
وفي خديجة والزهرا وما ولدت ::: أزكى مديحي سأهدي دائماً درره
عن كلّ أزواجه أرضى، وأوثر من ::: أضحت براءتها في الذكر منتشره
أقسمت لا زلت أهديهم شذا مدحي ::: كالروض ينشر من أكمامه زهره

معارضات لقصيدة ابن جابر في تضمين السور:

انتهت القصيدة؛ وقد عارض منحاها جماعة فما شقّوا لها غباراً، ومن معارضاتها قول بعضهم:

بسم الإله افتتاح الحمد والبقره ::: مصلّيًا بصلاة لم تزل عطره
على نبي له الرحمن ممتدح ::: في آل عمران أيضاً والنسا ذكره

كـــذا بمائـــدة الأنعـــام فضّـــله ::: ووصفه التم في الأعــراف قــد نشــره
أنفالــه نزلــت أيضــاً بــراءة مــن ::: يحبّــه وهــو مشــغول بمــا أمــره
بــه نجــا يــونس مــن حوتــه ونجــا ::: هود ويوسف مــن ســجن بــه عــبره
أقســـم برعـــد إبـــراهيم أنّ لـــه ::: في حجر نحل تــرى الآيــات مشــتهرة
ســبحان جاعلـــه كهفـــاً لأمّتـــه ::: ومـــريم زوجـــة في جنّـــة نضـــره
طه بــه الأنبيــا للحــج قــد وفــدوا ::: والمؤمنون علــى النــور اقتفــوا أثــره
آيــات فرقانــه ذلّــت لهــا الشــعرا ::: وسورة النمل قد قصّــت لنــا ســيره
والعنكبوت على غــار لــه نســجت ::: والروم ولّت برعــب منــه منكســره
لقمان حكمتــه مــن بعــض حكمتــه ::: فاسجد لربّ على الأحزاب قد نصــره
كم في سبا عبرة للقلــب قــد فطــرت ::: فلذ بياســين تنجــو يــا أخــا الــبرره
قد صــفّت الأنبيــا والرســل قاطبــة ::: خلــف الــنبي بــأمر الله مــؤتمره
إن صاد قلــبي الهــوى تتريــل منقــذه ::: وغافر الذنب كــم ذنــب لــه غفــره
كــم خلعــة فصّــلت للطــائعين لــه ::: وأمرهم بينــهم شــورى بــلا نكــره
لم تلـــههم زينـــة الـــدنيا وزخرفهـــا ::: كــانوا يروهــا كــدخان لــه قتــره
إذا جثا الخلق والأحقاف قــد شــرفت ::: فذاك يوم علــى الكفــار قــد نصــره
محمـــد خـــصّ بـــالفتح المــبين وقــد ::: أتــاه في الحجــرات الــوحي بــالخبره
قاف الوفاق وذر الطــور نجــم هــدى ::: وشقّ ربّ السّــما للمصــطفى قمــره
مــن يمــتحن صــفّنا في يــوم جمعتنــا ::: فلــيس يلفــى بــه غــشّ ولا كــدره
مطهّــر مــن نفــاق لــيس بينـــهم ::: تغــابن طلّقــوا دنيــاهم القــذره
وحرموهــا وفي ملــك لهــا زهــدوا ::: كزهد صــاحب نــون حقّقــن خــبره
إن تسألوني عــن نــوح نــبيّ هــدى ::: والمصطفى سامع الجــن الــذي جهــره
مزّمّـــل اسمـــه مـــدّثّر، ولـــه ::: يــوم القيامــة للإنســان مــا ضــمره
للمرســلات نبــأً في يــوم نازعــة ::: عبوس تكــوير شمــس فيــه منفطــره
مطفف الكيــل قــد بانــت خســارته ::: في سوم شقّ السّما أبراجهــا النضــره
كم طــارق ســبّح الأعلــى بغاشــية ::: والفجــر بلدتــه بالشــمس مســتتره
والليل قمه ولا تتــرك صــلاة ضــحى ::: يشرح لك الصدر والخــيرات مــدّخره
بســورة الــتين اقــرأ أنّهــا نزلــت ::: في ليلــة القــدر، والأنــوار منتشــره
ولم يكن مثــل خــير الرّســل أحمــدنا ::: منــه تزلزلــت الكفّــار والفجــره

بعاديـــات لهـــا قـــرع بهامتـــه ::: أعمى التكاثر مـــن قلـــب لـــه بصـــره
مـــن كـــان في عصـــه همّـــازة أبـــداً ::: يلقـــاه قبـــل قـــريش قـــاهر قهـــره
ويـــل لمـــانع مـــاعون تـــراه غـــداً ::: مباعداً كـــوثر الهـــادي الـــذي أثـــره
الكـــافرون إذا جـــا نصـــر خالقنـــا ::: تبّـــاً لهـــم لعنـــوا هـــم أمّـــة كفـــره
أخلص لـــربّ فلـــق النـــاس تـــنج إذا ::: يوم المعـــاد غـــدا مـــن شـــرّة عســـره
وصـــلّ ربّ علـــى الهـــادي وعترتـــه ::: وآلـــه وعلـــى أصـــحابه العشـــره

وممّن سلك هذا المنهج القلقشندي إذ قال:

عوّذت حبّـــي بـــرب النـــاس والفلـــق ::: المصـــطفى المجـــتبى الممـــدوح بـــالخلق
إخلاص وجدي لـــه والعـــذر يقلقـــني ::: تبّت يـــدا عـــاذل قـــد جـــاء بـــالملق
يهـــدي لأمّتـــه والنصـــر يعضـــده ::: والكـــافرون وعـــذّالي علـــى نســـق
هـــذا لـــه كـــوثر والـــدين شـــرعته ::: والمصطفى مـــن قـــريش ديّـــنٌ وتقـــي
ألم تـــر المـــاء قـــد ســـحّت أصـــابعه ::: ويـــل لكـــل جهـــول بـــالنبي وشـــقي
في كل عصـــر تـــرى آياتـــه كثـــرت ::: أضـــحى تكاثرهـــا في ســـائر الأفـــق
وعنـــد قارعـــة فهـــو الشـــفيع لنـــا ::: والعاديـــات مـــن الأجفـــان في طلـــق
وزلزلت مـــن غرامـــي كـــلّ جارحـــة ::: وكـــلّ بيّنـــة تحكـــي لكـــم علقـــي
يا عالي القـــدر رفقـــاً مسّـــني ضـــرر ::: فالله قد خلـــق الإنســـان مـــن علـــق
ولو دعا الـــتين والزيتـــون جـــاء لـــه ::: والشـــرح عنـــه طويـــل غـــير مختلـــق
يبدو كشمس الضحى والليـــل طرتـــه ::: كالشمس في بلـــد والفجـــر في أفـــق
إنّـــي بغاشـــية لـــولاك يـــا أملـــي ::: أنت الشفيع إلى الأعلـــى وخـــير تقـــي
كم طارق منـــك بالإحســـان يطـــرقني ::: مثل البروج أتـــى في أحســـن الطـــرق
وفي انشـــقاق فـــؤادي عـــبرة، وبـــه ::: ويل مـــن الصـــد، والأجفـــان في أرق
والانفطـــار بـــه ممّـــا يكابـــده ::: والشمس قد كورت في القلب ذي الحرق
والصـــب في عـــبس والنازعـــات بـــه ::: وقد أتـــى نبـــأ مـــن دمعـــه الغـــدق
ومرســـلات دم الإنســـان جاريـــة ::: إلى القيامة مـــن دمعـــي ومـــن حرقـــي
وبالمـــدّثّر إنّـــي ماســـك أبـــداً ::: وبالمزّمّـــل إن ألجمـــت بـــالعرق
فـــالجن والإنـــس في خـــير ببعثتـــه ::: هذا ونـــوح بـــه أنجـــى مـــن الغـــرق
وفي المعـــارج معـــراج الرســـول عـــلا ::: حقـــاً، وفي حاقـــة كنـــز لمختـــرق

والله مرسله في نون بشّره ::: والملك خيّره حتى رأى ولقي
وجاء بالحلّ والتحريم أمّته ::: وبالطّلاق من الدّنيا لمنطلق
وفي التغابن هجّار به ربحوا ::: إذ المنافق في خسر وفي نفق
يا صاحب الجمعة الغرّاء يا أملي ::: في الصف عند امتحاني أنج من زلقي
وأنت في الحشر عوني في مجادلتي ::: عسى تزيل حديد النار من عنقي
وعند واقعة إن كان لي رمق ::: فاشفع إلى ربّك الرحمن من رمقي
لم أرع يا قمري للنّجم في سهر ::: إلا لعلّك من نار الجحيم تقي
قلبي الكليم غدا للطّور مرتقياً ::: ودرّ دمعي غدا بالذاريات سقي
وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم ::: وليس في حجرات الدمع من رمق
إنّا فتحنا قتالاً للعذول ففي ::: أحقاف جاثية في الغيظ والحنق
دخان زخرف ما العذّال فيه هبا ::: شوراي تتركه في أنف محترق
وعزّ من فصّلت في مدحه سور ::: نبينا المصطفى الهادي إلى الطرق
فغافر الذنب كم أهدى به زمراً ::: وكم سقى كفّه صاد بمندفق
وليس غيرك في الصافات أقصده ::: وأنت ياسين لي من سائر الفرق
يا فاطراً قد سبا الأحزاب طلعته ::: كم سجدة لك في الأسحار والغسق
لقمان يشهد أن الروم تعرفه ::: والعنكبوت فقد سدت عن الغلق
هذا ولي قصص بالنمل قد كتبت ::: هامت بها الشعرا في خدّه اليقق
تبارك الله من بالنور كلّله ::: قد أفلح الحج لمّا زاره فوقي
يا أيّها الأنبيا طه ختامكم ::: ويا ابن مريم خذ من مسكه العبق
لاذوا بكهف لهم سبحان خالقه ::: حتى أتى الأمر بعد الخوف والفرق
فالركن والحجر حقّاً قد أضاء له ::: وذاك دعوة إبراهيم ذي الخلق
والله ربي برعب الرعد ينصره ::: مسير شهر بلا سيف ولا درق
فيوسف مع هود والخليل إذاً ::: ويونس شربوا من كأسه الدهق
لتوبتي أرتجي الأنفال منه غداً ::: فإنّني رجل أضحيت في قلق
أعراف أنعام إنعام له اشتهرت ::: وكم لمائدة أسدى لمرتزق
كلّ النسا لم تلد مثل الرسول إذاً ::: فينا وفي آل عمران ولم تطق
أعطيت خاتمة من سورة البقرة ::: لم يعطها أحد فيما مضى وبقي
فأنت فاتحة الأنبا وخاتمهم ::: وكلّهم قد أتوا بالود والملق

والقلقشـــندي محـــبّ قـــال ســـيرته ::: في مدح خير الورى الممـــدوح بـــالخلق
فاقبـــل هديـــة عبـــد أنـــت مالكـــه ::: وانظـــر إليـــه فـــإنّ العبـــد في قلـــق
صلى عليك إله العـــرش مـــا طلعـــت ::: ورقا على فـــنن والـــورق في الـــورق

و هذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهي ممّا يتبرك به، والأعمال بالنيات.

ووقفت على أخرى من هذا النمط هي بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى قصيدة ابن جابر، وهي:

بحمد إلـــه العـــرش أســـتفتح القـــولا ::: وفي آيـــة الكرســـيّ أســـتمنح الطّـــولا
وفي آل عمـــران أتـــى ذكـــر أحمـــد ::: نساؤهم بالعقـــد قـــد أنعمـــوا القـــولا
بـــأعراف رحمـــاه بأنفـــال جـــوده ::: شـــرفنا وفضّـــلنا وتبنـــا إلى المـــولى
له يـــونس نـــادى وهـــود ويوســـف ::: وذاكره في الرعـــد لا يســـمع الهـــولا
ودعـــوة إبـــراهيم كـــان محمـــد ::: وفي الحجر خير الخلق قد فضل الرســـلا
له أمة كالنحـــل قـــد صـــح فضـــلهم ::: فسبحان مـــن أســـرى بأحمـــدنا لـــيلا
علا فضـــله والنـــاس في كهـــف نيلـــه ::: ومريم في الأخـــرى يكـــون لهـــا بعـــلا
وطه له فضـــل علـــى الخلـــق كلّهـــم ::: ولكـــن جميـــع الأنبيـــاء عـــلا فضـــلا
ولـــولاه مـــا حـــجّ المقـــام وكعبـــة ::: فأفلح من قد طاف فيهـــا ومـــن حـــلاّ
ومـــن نـــوره الوهـــاج كـــل منـــوّر ::: وفرقانه قـــد أحمـــد الكفـــر والـــبطلا
ترى الشـــعرا كالنمـــل حـــول محمـــد ::: إذا قصص في العنكبـــوت لهـــم تتلـــى
عـــلا ديننـــا رومـــا ولقمـــان عـــالم ::: بأنّ السيوف أسجدت كلّ مـــن ضـــلاّ
والأحـــزاب يســـبيهم بحكمـــة فـــاطر ::: وياسين قد صفّت لـــه المـــلأ الأعلـــى
وصـــاد جميـــع الكـــافرين بزمـــرة ::: له غافر في الحرب قد فصـــلت فصـــلا
وشـــوراه في الـــدنيا بهـــا كـــل زلفـــة ::: وقد زخرف الكفّار في دينـــهم جهـــلا
لقـــد رأوا الـــدخان حـــول بيـــوتهم ::: بجاثيـــة الأحقـــاف قـــد قتلـــوا قـــتلا
محمـــــدنا لم يخلـــــق الله مثلـــــه ::: وفي الحجـــرات فضـــله أبـــداً يتلـــى
وقـــد أنـــزل الجبّـــار قافـــاً بـــذكره ::: كما تـــذر الكفّـــار ريـــح بهـــا تبلـــى
بطور سما والـــنجم مـــا ضـــوء أحمـــد ::: كما قمر بل نور خـــير الـــورى أجلـــى
بـــه الله رحمـــن وفي وقعـــة تـــرى ::: حديـــداً بـــه الكفّـــار يجـــدلهم جـــدلا

وقـــد سمـــع الغفّـــار دعـــوة أحمـــد ::: بحشـــر، ولكـــن بامتحـــان بـــه تبلـــى
صـــففنا بجمـــع للأعـــادي فمنـــهم ::: منـــافقٍ إنّ الكفـــر في درك ســـفلى
يرى غبنـه في الخـبر منـهم مطلّـق ::: ولكنّ من يحـرم نعيمـاً فقـد ضـلاّ
لأحمـــد ملـــك لا يوازيـــه ســـيّد ::: ونون لقد قلنـا مقـالاً بـه اسـتعلى
بحـــقّ لقـــد ســـالت أبـــاطح مكّـــة ::: بفضل الذي قد كان نوح بـه اسـتعلى
صحيح بـأنّ الجـن جـاءت لأحمـد ::: ومزّمّـل كـان الغمـام لـه ظـلا
لمـــدّثّر فضـــل القيامـــة واضـــح ::: أتاه، وجمع المرسـلات حـوت سـبلا
وعـــمّ بجـــدواه فـــلا مـــن منـــازع ::: فحيـث تـراه لا عبوسـاً ولا بخـلا
لقد كوّرت شمس بهـا انفطـر السـما ::: لويل أتى الكفـار وانشـقّ واسـتولى
ولكـــن بـــروج الجـــوّ تزهـــو بأحمـــد ::: وفي طارق الأفـلاك فضّـله الأعلـى
وغاشـــية كـــالفجر حلّـــت ببلـــدة ::: بها حرم أمـن كشـمس جلـت لـيلا
وفاق الضـحى حقّـاً جـبين محمـد ::: كما بانشراح الصدر قد خصّـه المـولى
فأقســـم بـــالتين الـــذي عـــمّ نفعـــه ::: وبـالقلم الأعلـى لقـدر لـه أعلـى
ألم يكن الكفّـار قـد ضـل سـعيهم ::: وقد زلزلـوا بالعاديـات كمـا يتلـى
وقارعـــة جلّـــت وألهـــاهم الهـــوى ::: ووالعصـر إنّ الويـل يقـريهم نـزلا
ألم تـــر أنّ الله فضّـــل أحمـــداً ::: لأمن قريش حيثمـا سـلكوا السـبلا
أريت بـأنّ الكـوثر العـذب خصّـه ::: به، وجميع الكفـر لـن يـردوا أصـلا
لقـــد نصـــر الـــرحمن ربي محمـــداً ::: فأردى أبـا لهـب ولم يكتسـب نـيلا
فيـــا أحـــد إنّـــي بفضـــلك عائـــذ ::: إذا غسق الديجور ناديـت يـا مـولى

ولم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة، وقد سقط منها كما رأيت سورة الناس، فقلت مكملاً على نمطه:

ويـــا مالكـــاً للنـــاس إنّـــي لائـــذ ::: بعفوك فاغفر عمـد عبـدك والجهـلا
ويـا رب عاملنـا بمـا أنـت أهلـه ::: من الجود والرحمى وإن لم نكـن أهـلا
وصـــلّ علـــى مســـك الختـــام محمـــد ::: أتمّ صـلاة تمـلأ الحـزن والسـهلا

* * *

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى

ومن قصيدة موشّحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين بن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه وبينه، جواباً عن رسالة خاطب بها لسان الدين ابن الخطيب أولاده صدر نظم له لم يحضرني ذلك الآن قوله:

مــــا لي بحمــــل الهـــوى يــــدان ::: مـــن بعـــد مـــا أعـــوز التــــداني
أصــــبحت أشـــكوه مـــن زمـــان ::: مـــا بـــتّ منـــه علـــى أمـــان
مـــا بـــال عينيـــك تســـجمان ::: والـــدمع يـــرفض كالجمـــان
نـــاداك والإلـــف عنـــك وان ::: والبعـــد مـــن بعـــده كـــواني
يـــا شـــقّة الـــنفس مـــن هـــوان ::: لجّـــج في أبحـــر الهـــوان
لم يثنـــه عـــن هـــواك ثـــان ::: يـــا بغيـــة القلـــب قـــد كفـــاني

وقال بعض الحفّاظ في ترجمة أبي الحسن عليّ بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق: إنّه أخذ عن جماعة غيرهم، كالشريف القاضي الفقيه أبي عليّ الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسني السبتي نزيل تلمسان، والفقيه الإمام العلامة قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبي عبد الله محمد المقّري التلمساني القرشي، والشريف العالم أبي القاسم محمد ابن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن عليّ بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم، وليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب وجدّ الأدارسة.

قال: وروي أيضاً عن القاضي ابن شبرين الإشبيلي ثمّ السبتي نزيل غرناطة، والقاضي أبي البركات البلفيقي، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبي جعفر بن صفوان القيسي المالكي، وابن خاتمة، والفقيه الحاج أبي القاسم محمد ابن الفقيه الصالح العالم أبي عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أبي القاسم محمد الغساني الرحبي نزيل فاس، وغيرهم ممّن يطول تعدادهم من الأئمّة الأعلام، نجوم الإسلام؛ انتهى.

* * *

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى

وقد قدمنا أن علي بن لسان الدين كان نديم السلطان وخاصّته، كما ذكرنا في مخاطبته لابن مرزوق في الباب الخامس قوله: فالسلطان يرعاه الله تعالى يوجب ما فوق مزية التعظيم، والولد هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم، والخاصة والعامة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم وترك لما بالأيدي وتسليم، وتدبير عاد على عدوّها بالعذاب الأليم، إلا من أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد بحال السليم؛ انتهى.

ولقد صدق رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصح وغيره.

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطان، ونصّه: من عبد الله أمير المسلمين محمد وصل الله تعالى سعده، وبلّغه من فضله العميم قصده، إلى أوليائنا المخصوصين منّا ومن سلفنا بذمام الجوار القريب، والمساكنة التي لا يتطرق إلى حقّها الذي بني استرابة المستريب، المعتمدين إذا عدّت الرعايا، وذكرت المزايا، بمزيد الاعتناء والتقريب، من الأشياخ الجلّة الشرفاء والعلماء، والصّدور الفقهاء، والعدول الأذكياء، والأعيان الوزراء، والحماة المدافعين عن الأرجاء، والأمناء الثّقات الأتقياء، والكافة الذين نصل إيهم عوائد الاعتناء، ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السّواء، من أهل حضرتنا غرناطة المرحوسة بفضل الله تعالى وربضها، شرح الله تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صدورهم، وكنف بنتائج الاستقامة سرورهم، وأصلح بعنايته أمورهم، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم ومأمورهم: سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته.

أمّا بعد حمد الله الذي إذا رضي عن قوم جعل لهم التقوى لباساً، والذكرى لبناء المتاب أساساً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي هدانا إلى

الفوز العظيم ابتغاء لرحمته والتماساً، والرضى عن آله الذين اختارهم له ناساً، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداء واقتباساً، فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى إعزازكم وحرس أحوازكم؛ وجعل للعمل الصالح اهتزازكم؛ وبقبول النصائح امتيازكم - من مستقرنا بمحروسة الحمراء، حماها الله سبحانه، ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هداية تظهر على الأقوال والأعمال، وعناية تحفّ من اليمين والشمال، وتوكّل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال، وأنتم أولياؤنا الذين لا ندّخر عنهم نصحاً، ولا نهمل في تدبيرهم ما يثمر نجحاً، وبحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحة ترشدكم إذا غفلتم، وموعظة نقصدّها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله واختلفتم، وذب عنكم تارة بسلم نعقدها، ومطاولة نسدّدها، وتارة بسيوف في سبيل الله تعالى نحدّدها، وعمارة للشهادة نرددها، ونفوس بوعد الله نعدها، ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم، وبالكدّ لتّتّدع صبيانكم وولدانكم، وباقتحام المخاوف ليتّصل أمانكم، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا، أو أمكننا أن لا تفضلكم رعية بصلاح دين أو دنيا لفعلنا، هذا شغل زماننا منذ عرفناه، ومرمى همّنا مهما استهدفناه، وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم، وملأنا طاعتكم، وحرّم علينا إضاعتكم والراعي إذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيبة، وينتجع مساقط الغمائم الصيّبة، ويوردها الماء النمير، ويبتغ لها الدماء والتثمير، ويصلح خللها، ويداو عللها، قلّ عددها، وعدمت غلّتها وولدها، فندم على ما ضيعه في أمسه، وجنى عليها وعلى نفسه.

وألفيناكم في أيامنا هذه الميامن عليكم قد غمرتكم آلاء الله تعالى ونعمه، وملأت أيديكم مواهبه وقسمه، وشغل عدوّكم بفتنة قومه فنمتم للعافية فوق مهاد، وبعد عهدكم بما تقدم من جهد وجهاد، ومخمصة وسهاد، فأشفقنا أن يجركم توالي الرخاء إلى البطر، أو تحملكم العافية على الغفلة عن الله تعالى وهي أخطر الخطر، أو تجهلوا مواقع فضله تعالى وكرمه، أو تستعينوا على معصيته بنعمه، فمن عرف الله تعالى في الرخاء وجده في الشّدّة، ومن استعد في المهل

وجد منفعة العدّة، والعاقل من لا يغتر في الحرب أو السلم بطول المدة، فالدهر مبلي الجدّة، ومستوعب العدّة، والمسلمون إخوانكم اليوم قد شغلوا بأنفسهم عن جبركم، وسلموا لله في نصركم، ونشبت الأيدي ولا حول ولا قوّة إلا بالله بثغركم، وأهمتهم فتن تركت رسوم الجهاد خالية خاوية، ورياض الكتائب الخضر ذابلة ذاوية، فإن لم تشمّروا لما بين أيديكم في هذه البرهة فماذا تنتظرون وإذا لم تستنصروا بالله مولاكم فبمن تستنصرون وإذا لم تستعدّوا في المهل فمتى تستعدون لقد خسر من رضي في الدنيا والآخرة بالدون، فلا تأمنوا مكر الله:{فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩].

ومن المنقول عن الملل، والمشهور في الأواخر والأول، أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت فيهم المثلات والنقمات، وشحّت السماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفّت الضّروع، وأخلفت الرضوع.

فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة، والذكرى التي توقظ من السّنة، ونقرع آذانكم بقوارع الألسنة، فأفزعوا الشيطان بوعيها، وتقربوا إلى الله تعالى برعيها، الصلاة الصلاة فلا تهملوها، ووظائفها المعروفة فكملوها، فهي الركن الوثيق، والعلم الماثل على جادة الطريق، والخاصة التي يتميز بها هذا الفريق، وبادروا صفوفها الماثلة، وأتبعوا فريضتها النافلة، وأشرعوا إلى تاركها أسنّة الإنكار، واغتنموا بها نواشئ الليل وبوادي الأسحار، والزكاة أختها المنسوبة، ولدتها المكتوبة المحسوبة، فمن منعها فقد بخل على مولاه، باليسير ممّا أولاه، وما أحقّه بذهاب هبة الوهاب وأولاه؛ فاشتروا من الله تعالى كرائم أموالكم بالصّدقات، وأنفقوا في سبيله بربحكم أضعاف النفقات، ووسوا سؤالكم كلّما نصبت الموائد، وأعيدت للترفّه العوائد، وارعوا حق الجوار، وخذوا على أيدي الدّعرة والفجّار، وأخرجوا الشّنآن من الصدور، واجعلوا صلة الأرحام من عزم الأمور، وصونوا عن الاغتياب أفواهكم، ولا تعوّدوا السفاهة شفاهكم، وأقرضوا

القرض الحسن إلهكم، وعلموا القرآن صبيانكم، فهو أسّ المبنى، وازرعوه في تراب ترائبهم فعسى أن يجنى، ولا تتركوا النصيحة لمن استنصح، وردوا السلام على من بتحية الإسلام أفصح، وجاهدوا أهواءكم فهي أولى ما جاهدتم، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، وثابروا على حلق العلم والتعلّم، وحفوا بمراقي التكلّم، وتعلّموا من دينكم ما لا يسعكم عند الله تعالى جهله، ويتبين أذكم أهله، فمن القبيح أن يقوم أحدكم على وقاية برّه وشعيره، ورعاية شاته وبعيره، ولا يقوم على شيء يخلص به قاعدة اعتقاده، ويعدّه منجاة ليوم معاده، والله عزّ وجل يقول ولقوله يرحل المنتجعون{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾} [المؤمنون: ١١٥].

وائنفوا من الحوادي الشنيعة، والبدع التي تفتّ في عضد الشريعة، فقد شنّ علينا الملبّسة بأهل التصوّف المغار، ونال حملتها بل جملتها بإغماضهم الصغار، وتؤوّل المعاد والجنّة والنار، وإذا لم يغر الرجل على دينه ودين أبيه فعلى من يغار، فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء، هم أئمة الاقتداء، والكواكب التي عيّنها الحق للاهتداء، فاحذروا معاطب هذا الداء، ودسائس هذه الأعداء.

وأهم ما صرفتم إليه الوجوه، واستدفعتم به المكروه، العمل بأمره جل وعلا في الآية المتلوّة، والحكمة السافرة المجلوّة، من ارتباط الخيل وإعداد القوّة، فمن كان ذا سعة في رزقه، فليقم لله بما استطاع من حقّه، وليتخذ فرساً يعمر محلّته بصهيله، ويقتنه من أجل الله وفي سبيله، فكم يتحمل من عيال يلتمس مرضاتهن باتخاذ الزينة، والتنافس في ترف المدينة، ومؤونة الارتباط أقل، وعلى الهمّة والدين أدل، إلى ما فيه من حماية الحوزة، وإظهار العزة، ومن لم يحسن الرمي فليتدرب، وباتخاذ السلاح إلى الله فليتقرب، وقبل الرمي تراش السّهام، وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام.

والسكّة الجارية في حوادث نواديكم، وأثمان العروض التي بأيديكم، من تحيّف حروفها، ونكّر معروفها، أو سامح في قبول زيف، أو مبخوس حيف، فقد

اتّبع هواه، وخان نفسه وسواه، قال الله عزّ وجل:{۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾} [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣]، ولتعلموا أن نبيّكم صلوات الله عليه إنّما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضياً، وعن الهفوات حليماً متغاضياً، فتمسّكوا بحبله، ولا تعدلوا عن سبله، يروكم الله تعالى من سجله، ويراعكم من أجله، مراعاة الرجل لنجله، فهو الذي يقول:{ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾} [الأنفال: ٣٣]، وإن كان في وطنكم اليوم سعة، وقد ألحفكم أمن من الله تعالى ودعة، فاحسبوا أنّكم في بلد محصور، وبين لحيي أسد هصور، اكتنفكم بحر يعبّ عبابه، ودار بكم سور بيد عدوّكم بابه، ولا يدرى متى ينتهي السّلم، وينشعب الكلم، فإن لم تكونوا بناء مرصوصاً، وتستشعروا الصبر عموماً وخصوصاً، أصبح الجناح مقصوصاً، والرأي قد سلبته الحيرة، والمال والحريم قد سلبت فيه الضنانة والغيرة، وإن شاء الله تهبّ ريح الحميّة، ونصرة النفوس على الخيالات الوهمية، فإن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، والله متم نوره على رغم الجاحدين وكره الكافرين:{كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩].

واعتقدوا أن الله تعالى لم يجعل الظهور مقروناً بعدد كثير، ولو مثل جراد مزرعة أثارها مثير، بل بإخلاص لا يبقي لغير الله افتقاراً، ونفوس توسع ما سوى الحق اقتداراً، ووعد يصدق، وبصائر أبصارها إلى مثابة الجزاء تحدق، وهذا الدين ظهر مع الغربة، وشظف التربة، فلم ترعه الأكاسرة وفيولها، والقياصرة وخيولها، دين حنيف، وعلم منيف، من وجوه شطر المسجد الحرام تولى، وآيات على سبعة أحرف تتلى، وزكاة من الصميم تنتقى، ومعارج ترتقى، وحج وجهاد، ومواسم وأعياد، ليس إلا تكبير شهير، وأذان جهير، وقوّة تعد، وثغور تسد، وفيء يقسم، وفخر يرسم، ونصيحة تهدى، وأمانة تؤدى، وصدقة تخفى وتبدى، وصدور تشرح وتشفى، وخلق على خلق القرآن تحذى

وتقفى، قُبض رسول الله و هذا العقلد قد سجّل، والوعد به قد عجّل:{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا} [المائـدة: ٣]، ولا ينقطع لهذا الفرع عادة وصله، ما دام شبيهاً بأصله، وإنّما هو حلبٌ لكم زبدته الممخوضة، وخلاصته الممحوضة، والعاقبة للمتقين:{وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾} [ص: ٨٨].

وحضرتكم اليوم قاعدة الدين، وغاب المجاهدين، وقد اخترعت بنا أيامنا هذه وأيام والدنا المقدس الآثار الكبار، والحسنات التي تنوقلت بها الأخبار وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة، والمنقبة المبرورة، وهي بيمارستان يقيم منكم المرضى المطّرحين، والضعفاء المغتربين منهم والمعترضين في كلّ حين، فأنتم تطرونهم بالأقدام، على مرّ الأيّام، ينظرون إليكم بالعيون الكليلة، ويعربون عن الأحوال الذليلة، وضرورتهم غير خافية، وما أنتم بأولى منهم بالعافية، والمجانين تكثر منهم الوقائع، وتفشو منهم إماتة العهد الذائع، عار تحظه الشرائع، وفي مثله تسدّ الذرائع.

وقد فضلتم أهل مصر وبغداد، بالرباط الدائم والجهاد، فلا أقل من المساواة في معنى، والمنافسة في مبنى، يذهب عنكم لؤم الجوار، ويزيل عن وجوهكم سمات العار، ويدل على همتكم، وفضل شيمتكم، أهل الأقطار، وكم نفقة هانت على الرجل في مشروع، وحرص اعتراه على ممنوع، فأسرعوا فالنظر في هذا المهم خير مشروع، ولولا اهتمامنا بمرتزقة ديوانكم، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم، لسبقناكم إلى هذه الزّلفة، وقمنا في هذا العمل الصالح بتحمّل الكلفة، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنّة ببنائه، وأسهمناكم في فريضة أجره وثنائه، فنحن إن شاء الله تعالى نعيّن له الأوقاف التي تجري عنها المرفقة، وتتصل عليه بها الصدقة، تأصيلاً لفخركم، وإطابة في البلاد لذكركم، فليشاور أحدكم همّته ودينه، ويستخدم يساره في طاعة القصد الكريم ويمينه، ونسأل الله تعالى أن يوفّق كلاًّ لهذا القصد ويعينه، ومن وراء هذه النصائح عزم

ينهيها إلى غايتها، ويجبر الكافة على اتباع رأيها ورايتها، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول، وتلقّوا داعي الله تعالى فيها بالقبول، والدنيا مزرعة الآخرة، وكم معتبر للنفوس الساخرة، بالعظام الناخرة:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥} [فاطر: ٥]، وأنتم اليوم أحقّ النّاس بقبول الموعظة نفوساً زكية، وفهوماً لا قاصرة ولا بطيّة، وموطن جهاد، ومستسقى غمام من رحمة الله تعالى وعهاد، وبقايا السلف بالأرض التي فتحوا فيها هذا الوطن، وألقوا فيها العطن، فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم، وصحّة إيمانكم، وتساوي إسراركم وإعلانكم، اللهمّ إنّا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحمّلة، وبلّغناهم نصيحتك المكملة، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤملة، فيسّرنا وإياهم لليسرى، وعرّفنا لطائفك التي خفي فيها المسرى، ولا تجعلنا ممّن صمّ عن النداء، وأصبح شماتة الأعداء، فما ذلّ من استنصر بجنابك، ولا ضل من استبصر بسنّتك وكتابك، ولا انقطع من توسّل بأسبابك، والله سبحانه يصل لكم عوائد الصنع الجميل، ويحملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل، ويصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته. انتهى.

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان السلطان بعد كلام:

الله الله في الهمم فقد خمدت ريحها، والله الله في العقائد فقد خفيت مصابيحها، والله الله في الرجولية فقد فلّ حدّها، والله الله في الغيرة فقد تعسّر جدّها، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله، والله الله في الحريم فقد مدّ إلى استرقاقه يد تأميله، والله الله في الملّة التي يريد إطفاء سناها، وقد كمل فضلها وتناهى، والله الله في الحريم، والله الله في الدين الكريم، والله الله في القرآن، والله الله في الجيران، والله الله في الطارف والتالد، والله الله في الوطن الذي توارثه الولد عن الوالد، اليوم تستأسد النفوس المهينة، اليوم يستنصر الصبر والسكينة، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الّمم، اليوم يسلك سبيل العزم

والحزم والشدّة والشّمم، اليوم يرجع إلى الله المصرّون، اليوم يفيق من نوم الغفلة المغترّون، قبل أن يتفاقم الهول، ويحق القول، ويسد الباب، ويحيق العذاب، ويسترق الكفر الرقاب، فالنساء تقي بأنفسهن أولادهن الصغار، والطيور ترفرف لتحمي الأوكار، إذا أحست العيث بأفراخها والإضرار، تمر الأيام عليكم مرّ السحاب، وذهاب اللّيالي لكم ذهاب، فلا خبر يفضي إلى العين، ولا حديث في الله تعالى يسمع بين اثنين، ولا كد إلا لزينة يحلّى بها نحر وجيد، ولا سعي إلا لمتاع لا يغني في الشدائد ولا يفيد، وبالأمس ندبتم إلى التماس رحمى مسخّر السحاب، واستقالة كاشف العذاب، وسؤال مرسل الديمة، ومحيي البشر والبهيمة، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء، واغبرّت جوانبكم المخضرة احتياجاً إلى بلالة الماء:{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾} [الذاريات: ٢٢]، وإليها الأكف تمدون، وأبوابها بالدعاء تقصدون، فلم يصحر منكم عدد معتبر، ولا ظهر للإنابة ولا الصّدقة خبر، وتثوقل عن إعادة الرغبة إلى الولي الحميد، والغني الذي:{إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [إبراهيم: ١٩]، وأيم الله لو كان لهواً لارتقبت الساعات، وضاقت المتسعات، وتزاحمت على أنديته الجماعات.

أتعززاً على الله وهو القوي العزيز أتلبيساً على الله وهو الذي يميز الخبيث من الطيب والشّبه من الإبريز أمعاندة والنواصي في يديه أغروراً بالأمل والرجوع بعد إليه من يبدأ الخلق ثم يعيده من ينزل الرزق ويفيده من يرجع إليه في الملمات من يرجّى في الشدائد والأزمات من يوجد في المحيا والممات أفي الله شك يختلج القلوب أثمّ غير الله يدفع المكروه وييسّر المطلوب تفضلون على اللاجإ إليه عوائد الفضل، ونزه الجهل، وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته تمد إليه الأيدي والرقاب، وتستكشف بالخضوع لعظمته العقاب، وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب، وكأنّكم عن كرمه قد استغنيتم، أو على الامتناع من الرجوع إليه ونيتم.

أما تعلمون كيف كان نبيّكم صلوات الله عليه من التبلّغ باليسير، والاستعداد

للرحيل إلى دار الحق والمسير، ومداومة الجوع، وهجر الهجوع، والعمل على الإياب إلى الله تعالى والرجوع: دخلت فاطمة رضي الله تعالى عنها وبيدها كسرة شعير فقال: ما هذا يا فاطمة فقالت: يا رسول الله خبزت قرصة وأحببت أن تأكل منها، فقال: يا فاطمة أما إنّه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث. وكان يستغفر في اليوم سبعين مرّة يلتمس رحماه، ويقوم وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر حتى ورمت قدماه، وكان شأنه الجهاد، ودأبه الجد والاجتهاد، ومواقف صبره تعرفها الرّبى والوهاد، ومقامات رفقه تحوم على مراتبها الزُّهاد، فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون وإذا لم تهتدوا به فبمن تهتدون وإذا لم ترضوه باتباعكم فكيف تعتزون إليه وتنتسبون وإذا لم ترغبوا في الاتصاف بصفاته غضباً لله تعالى وجهاداً، وتقللاً من العرض الأدنى وسهاداً، ففيم ترغبون فابتروا حبال الآمال فكل آت قريب، واعتبروا بمثلات من تقدّم من أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب، وتفكروا في منابرها التي يعلو عليها واعظ وخطيب، ومطيل ومطيب، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة، المعمورة بأنواع الطاعة، وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم، وعاقب الجمهور بما أغضوا عنه عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله تعالى عقبى جميعهم، وذهبت النقمات بعاصيهم ومن داهن في أمره من مطيعهم، وأصبحت مساجدهم مناصب للصلبان، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان، هذا والناس ناس والزمان زمان.

فما هذه الغفلة عمن إليه الرجعى وإليه المصير وإلى متى التساهل في حقوقه وهو السميع البصير وحتى متى مد الأمل في الزمن القصير وإلى متى نسيان اللاجإ إلى الولي النصير قد تداعت الصلبان مجلبة عليكم، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم، أفيخلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم وألسنة الآيات تناديكم، لم تمتح سطورها، ولا احتجب نورها، وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل، وصابر فيها كل خطب جليل، فوالله لو تمحض الإيمان، ورضي

الرحمن، ما ظهر التثليث في هذه الجزيرة على التوحيد، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأييد، لكن شمل الداء، وصم النداء، وعميت الأبصار فكيف الاهتداء والباب مفتوح، والفضل ممنوح، فتعالوا نستغفر الله جميعاً فهو الغفور الرحيم، ونستقل مقيل العثار فهو الرءوف الحليم، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم، سدت الأبواب، وضعفت الأسباب، وانقطعت الآمال إلا منك يا فتّاح يا وهّاب:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾} [محمد: ٧]،{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾} [التوبة: ١٢٣]،{وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾} [آل عمران: ١٣٩]،{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾} [آل عمران: ٢٠٠]، أعدوا الخيل وارتبطوها، وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها، فمن خاف الموت رضي بالدنية، ولا بد على كلّ حال من المنيّة، والحياة مع الذلّ ليست من شيم النفوس السنية، واقتنوا السلاح والعدة، وتعرفوا إلى الله تعالى في الرخاء يعرفكم في الشدّة، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم، واستميتوا من دون أبنائكم، وكونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدو النازل بفنائكم، وحوطوا بالتعويل على الله تعالى وحده بلادكم، واشتروا من الله جل جلاله أولادكم. ذكروا أن امرأة احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين، فأشار عليها بالصدقة، فتصدقت برغيف، فأطلق السبع ولدها، وسمعت النداء: يا هذه لقمة بلقمة، وإنا لما استودعناه لحافظون.

واهجروا الشهوات، واستدركوا البقية من بعد الفوات، وأفضلوا لمساكينكم من الأقوات، واخشعوا لما أنزل الله تعالى من الآيات، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات، والمواساة في المهمات، وأيقظوا جفونكم من السّنات، واعلموا أنّكم رضعاء ثدي كلمة التوحيد، وجيران البلد الغريب والدين الوحيد، وحزب التمحيص، ونفر المرام العويص، فتفقدوا معاملاتكم مع الله تعالى، ومهما رأيتم

الصدق غالباً، والقلب للمولى الكريم مراقباً، وشهاب اليقين ثاقباً، فثقوا بعناية الله التي لا يعلبكم معها غالب، ولا ينالكم لأجلها عدو مطالب، فإنكم في الستر الكثيف، وكنف الخبير اللّطيف، ومهما رأيتم الخواطر متبدّدة، والظنون في الله مترددة، والجهات التي تخاف وترجى متعددة، والغفلة عن الله ملامسها متجددة، وعادة دواعي الخذلان دائمة، وأسواق الشهوات قائمة، فاعلموا أن الله تعالى منفذ فيكم وعده ووعيده في الأمم الغافلين، وأنّكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عدوان إلاّ على الظالمين، والتوبة تردّ الشادر إلى الله تعالى والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهو القائل:{إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ} [هود: ١١٤] هود: ١١٤.

وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحّت العزائم، وتوالت على حزب الشيطان الهزائم، وخملت الدنيا لا غريبة في العيون، وصدقت فيها عند الله الظنون:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾} [فاطر: ٥]، وثوبوا سراعاً إلى طهارة الثوب، وإزالة الشّوب، واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب، واعلموا أن سوء الأدب مع الله تعالى يفتح أبواب الشدائد، ويسد طرق العوائد، فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم، ولا تأمنوا مكر الله فتغشوا إيمانكم، ولا تعلقوا متابكم بالضّرائر ، فهو علاّم السرائر، وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنّا أولى بالنصيحة، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة، الصادرة - علم الله تعالى - عن صدق القريحة، وإن شاركناكم في الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار، وإنّما لكم لدينا نفس مبذولة في جهاد الكفار، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التي لا ترضى بالفرار، واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعقبى الدار، والاختيار لله ولي الاختيار، ومصرّف الأقدار، وها نحن نسرع في الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدي بنفوسنا البلاد والعباد، والحريم المستضعف والأولاد، ونصلى من دونهم نار الجلاد، ونستوهب منكم الدعاء لمن وعد بإجابته، فإنّه يقبل

من صرف إليه وجه إنابته، اللّهم كن لنا في هذا الاهتمام نصيراً، وعلى أعدائك ظهيراً، ومن انتقام عبدة الأوثان كفيلاً، اللّهم قوّ من ضعفت حيلته فأنت القوي المعين، وانصر من لا نصير له إلاّ أنت فإيّاك نعبد وإيّاك نستعين، اللّهم ثبّت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام، ولا تسلمنا عند لقاء عدو الإسلام، فقد ألقينا إليك يد الاستسلام، اللّهم دافع بملائكتك المسوّمين، اللّهم اجعلنا على تيقّظ وتذكر من:{قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾} [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

وقد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الذين عرفنا في القديم والحديث اجتهادهم، وشكرنا في ذات الله تعالى جهادهم، بني مرين أولي الامتعاض لله تعالى والحميّة، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية، بعزمهم على الامتعاض لحقّ الجوار، والمصارخة التي تليق بالأحرار، والنذرة لانهتاك ذمار نبيّهم المختار، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار، والسعي الضمين للعزّ والأجر والفخار، والسلام الكريم يخصّكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته؛ انتهى.

وممّا كتبه ابن لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطانه الغني بالله تعالى والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته:

هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحاً للصدور، مصلحاً بإعانة الله تعالى للأمور، ملحفاً العدل والإحسان الخاصة والجمهور، يعلم من يسمعه أو يقف عليه، ومن يقرؤه ويتدبر ما لديه، ما عاهدنا الله تعالى عليه من تأمين النفوس وحقن الدماء، والسير في التجافي عنها على السّنن السّواء، ورفع التناوب عن البعيد منها والقريب، والمساواة في العفو والغفران بين البريء منها والمريب، وحمل من ينظر بعين العداوة في باطن الأمر محمل الحبيب،

وترك ما يتوجّه بأمر المطالبات، ورفض التبعات، ممّا لا يعارض حكماً شرعياً، ولا يناقض سنناً في الدين مرعيّاً، فمن كان رهن تبعة أو طريد تهمه، أو منبوزاً في الطاعة بريبة توجب أن نريق دمه، فقد سحبنا عليه ظلال الأمان وألحفناه أثواب العفو والغفران، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق والإحسان، حكماً عامّاً، وعفواً تامّاً، فاشياً في جميع الطبقات، منسحباً على الأصناف المختلفات، عاملنا في ذلك من يتقبل الأعمال، ولا يضيع السؤال، واستغفرنا عن نفسنا وعمن أخطأ علينا من رعيتنا ممن يدرأ الشرع غلطته، ويقبل الحق فيأتـــه{ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾} [النساء: ١١٠]، رأينا من وجوب اتفاق الأهواء والضمائر، وخلوص القلوب والسرائر، في هذا الوطن الذي أحاط به العدو والبحر، ومسّه بتقدم الفتنة الضر، وصلة لما أجراه الله تعالى على أيدينا، وهيأه بنا في نادينا، فلم يخف ما سكن بنا من نار الفتنة، ورفع من بأس وإحنة، وكشف من ظلامة، وسدل من نعمة، وأصفى من مورد عافية، وأولى من عصمة كافية، بعدما تخربت الثغور، وفسدت الأمور، واهتضم الدين، واشتد على العباد كلب الكافرين المعتدين:{ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ} [يوسف: ٣٨]، فله الحمد دائباً، والشكر واجباً، ومن الله نسأل أن يتمم نعمته علينا كما أتمها على أبوينا من قبل إن ربّك حكيم عليم.

ونحن قد شرعنا في تعيين من ينوب عنّا من أهل العلم والعدالة، والدين والجلالة، للتطوّف في البلاد الأندلسية، ومباشرة الأمور بالبلاد النّصرية، ينهون إلينا ما يستطلعونه، ويبلغون من المصالح ما يتعرفونه، ويقيدون ما تحتاج إليه الثغور، وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور، ونحن نستعين بفضلاء رعيتنا وخيارهم، والمراقبين الله تعالى منهم في إيرادهم وإصدارهم، على إنهاء ما يخفى عنّا من ظلامة تقع، أو حادث يبتدع، ومن اتخذت بجواره خمر فاشية، أو نشأت في جهته للمنكر ناشية، فنحن نقلده العهد، وتطوّقه

القلادة، ووراء تنبيهنا على ما خفي من الشكر لمن أهداه، وإحماد سعي من أبلغه وأداه، ما نرجو ثواب الله تعالى عليه، والتقرب به إليه، فمن أهدى لنا شيئاً من ذلك فهو شريك في أجره، ومقاسم في مثوبته يوم ربح تجره، وحسبنا الله ونعم الوكيل انتهى.

* * *

وصية لسان الدين لأبنائه

وإذ أجرينا طرف القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه الله تعالى من النصائح والمواعظ والوصايا، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا، كلّ دون شأوه، وقصر عن أمده مديد خطوه، وقد تقدم في هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة، فلتراجع في محالها المتكاثرة، وقد آن أن نسرد في هذا المحل الوصية التي أوصى لسان الدين رحمه الله تعالى بها أولاده، وهي وصية جامعة نافعة، يحصل بها انتعاش، لاشتمالها على ما لا بد منه في المعاد والمعاش، ونصّها: الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذي تطمئن به القلوب، وموضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب، لا سيما للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ} [البقرة: ١٣٣]، {وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ} [البقرة: ١٣٢]، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرّت على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تصمه العيوب، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والاقتداء الموصل للمرغوب، والعز والأمن من اللغوب.

وبعد، فإنّي لما علاني المشيب بقمته، وقادني الكبر في رمّته، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكّد

وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلّق بعيني سعيه، وأمّلت أن تتعدى إليّ ثمرة استقامته وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك - وعسى أن لا يكون ذلك - على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمن عليّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، والهادي إلى خير المسالك:

اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضّلاّل، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشمال - أنّي مودعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا ممّا بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومنادي الرحيل يسمع، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة تعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفّل لكم بحسن العواقب من بعدي، وتوضح لكم من الشفقة والحنّو قصدي، حسبما تضمّن وعد الله من قبل وعدي، فهي أربكم الذي لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفّ عليكم سقفه، وكأنّي بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل السام من كل حدب قد نسل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء عسكر مجر، وغداً شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يتّعظ به في أمر، وقال: بيدي لا بيد عمرو، فاقتنوها من وصية، ومرام في النصح قصية، وخصّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا، وحسبي وحسبكم الله الذي لم يخلق الخلق هملاً، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ولا رضي الدنيا منزلاً، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلاً.

ولتلقنوا تلقيناً، وتعلموا علماً يقيناً، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش التراب جنبي، ويسح انسكابي، وتهرول عن المصلّى ركابي، أحرص مني على سعادة إليكم تجلب، أو غاية كمال بسببكم ترتاد وتطلب، حتى لا يكون في الدين والدنيا أورف منكم ظلاً، ولا أشرف محلاً، ولا إبط نهلاً وعلاً، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الآذان، وتستلمحوا صبح نصحي فقد بان، وسأعيد عليكم وصية لقمان: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ } [لقمان: ١٣ - ١٩]، وأعيد وصية خليل الله وإسرائيله، حكم ما تضمنه حكم تنزيله:{يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [البقرة: ١٣٢]، والدين الذي ارتضاه واصطفاه، وأكمله ووفّاه، وقرّره مصطفاه، من قبل أن يتوفّاه، إذا أعمل فيه انتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مقرر، ومستمد من عقل أو نقل محرر، والعقل متقدم، وبناؤه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد، تنزه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، الذي لا يسأل عن شيء وهم يسألون، الحي العليم المدبّر القدير:{لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ } [الشورى: ١١]، أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء، وتوجّه الحجّة في مصيرهم إلى دار البقاء، مؤيدة بالمعجزات التي لا تتصف أنوارها بالاختفاء، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء، ثمّ ختم

ديوانهم بنبي ملّتنا المرعيّة الهمل، الشاهدة على الملل، فتلخصت الطاعة، وتعيّنت الإمرة المطاعة، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة، ثمّ إن الله تعالى قبضه إذ كان بشراً، وترك دينه يضم من الأمة نشراً، فمن تبعه لحق به، ومن تركه تورّط عنه في منتشبه، وكانت نجاته على قدر سببه، روي عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال:♂**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدي: كتاب الله، وسنّتي، فعضوا عليهما بالنواجذ▬.**

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد، ومشفق شفقة والد، واستشعروا حبه الذي توفّرت دواعيه، وعوا مراشد هديه فيا فوز واعيه، وصلوا السبب بسببه، وآمنوا بكل ما جاء به مجملاً أو مفصّلاً على حسبه، وأوجبوا التجلة لصحبه الذي اختارهم الله تعالى لصحبته، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته، واشملوهم بالتوقير، وفضلوا منهم أولي الفضل الشهير، وتبرأوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داع، ولا تع التشاجر بينهم أذن واع، فهو عنوان السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملّة، وأئمتها الجلّة، فهم صقلة نصولهم، وفروع نائشة من أصولهم، وورثتهم وورثة رسولهم.

واعلموا أنّني قطعت في البحث زماني، وجعلت النظر شاني، منذ براني الله تعالى وأنشاني، مع نبل يعترف به الشاني، وإدراك يسلّمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط ورق، ولا مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلّف فطام، ولا مقتحم بحر طام، إلاّ وغايته التي يقصدها قد نضلتها الشريعة وسبقتها، وفرعت ثنيتها وارتقتها، فعليكم بالتزام جادّتها السابلة، ومصاحبة رفقتها الكاملة، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين:{ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥} [آل عمران: ٨٥]، وقد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابذلوا دونه النفوس فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الآبدين، ولا يضر

مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللهم قد بلّغت فأنت خير الشاهدين.

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود، وتستدعي شوه الوجوه ونضج الجلود، واستعيذوا برضى الله من سخطه، واربأوا بنفوسكم عن غمطه، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم، واقتنعوا منه بما تيسر، ولا تأسوا على ما فات وتعذر، فإنّما هي دجنة ينسخها الصباح، وصفقة يتعاقبها الخسار والرباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها.

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفؤه عمل، وكل ما سوى الراعي همل، وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت أمل، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة، وتفكروا في آياته ومعانيه، وامتثلوا أوامره ونواهيه، ولا تتأولوه ولا تغلوا فيه، وأشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه، وأكثروا من بواعث حبه، وصونوا شعائر الله صون المحترم، واحفظوا القواعد التي ينبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

الله الله في الصلاة ذريعة التجلة، وخاصة الملّة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم، وأم العبادة، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر وإن عرض الشيطان عرضهما، ووطّأ للنفس الأمّارة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بل الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضامنة حسن العشرة من الجار، وداعية للمسالمة من الفجار، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شانه طبع، والخير الذي كل ما سواه له تبع، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، وتؤثروا على العلية الدنية، فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذي لا

يغيره الغدو ولا الأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وذلك أحرى بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض.

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطها محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسيف برئاسه. واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلاّ من ضبط نفسه بعقال، وكان في درج الرجولية ذا انتقال، واشتقاض صدأه بصقال، وإن تراخى قهقر الباع، وسرقته الطباع، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع.

والزكاة أختها الحبيبة، ولدتها القريبة، مفتاح السماحة بالعرض الزائل، وشكران المسئول على الضدّ من درجة السائل، وحق الله تعالى في مال من أغناه، لمن أجهده في المعاش وعنّاه، من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه، ولا علّة إلاّ القدر الذي يخفيه، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه. فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عرضها ونتاجها، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلّما عذل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدر، وأورد بفضله وأصدر، ليرتب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتنموا رضاه ببعض نواله.

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زلفى، الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد،

وإيثار التهجد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننته المرعية، ولواحقه الشرعية، فبذلك تحسن الوجوه، وتحصل من الرقة على ما ترجوه، وتذهب قسوة الطباع، ويمتدّ في ميدان الوسائل الباع.

والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بين رسول الله قدره فيما فرض عن ربّه وسنّه، وقال ليس له جزاء عند الله إلاّ الجنّة.

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممّن يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه.

هذه عمد الإسلام وفروضه، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناويكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مبدّلين ولا مغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أن بالعلم تستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلاً بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللّباب، والله عزّ وجلّ يقول: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ} [الزمر: ٩]، والعلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيفة، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة، وخاصة الملأ الأعلى، وصفة الله في كتبه التي تتلى، والسبيل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة، والذخر الذي قليله ينفع، وكثيره يشفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدوّ المناصب، ولا يبتزّه الدهر إذا مال، ولا يستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جم ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنيكم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودرسه، واجعلوا طباعهم ثرىً لغرسه، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، وسهر يهجر له الجفن كراه، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تعزل، وتحلّوهم مثابة رفعة لا يحطّ فارعها ولا يستنزل، واختاروا

من العلوم التي ينفّقها الوقت، ما لا يناله في غيره المقت.

وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابتها المريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنّما هي آلات لغير، وأسباب إلى خير منها وخير، فمن كان قابلاً لازدياد، وألفى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنّة، المهدي كنوز الكتاب والسنّة، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة، والتدرّب في طرق النظر وتصحيح الأدلّة، وهذه هي الغاية القصوى في الملّة، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى، وتقاعد عن التي هي أسمى، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً، ورأياً ركيكاً، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصّغار، وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجدال، هذا ابن رشد ومفتيه، وملتمس الرشد ومو ليه، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورّط في ازدحامها، ولا تخلطوا سامكم بحامها، إلا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحة، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور.

وأمروا بالمعروف أمراً رفيقاً، وانهوا عن المنكر نهياً حريّاً بالاعتدال حقيقاً، واغبطوا من كان من سنة الغفلة مفيقاً، واجتنبوا ما تنهون عنه حتى لا تسلكوا منه طريقاً.

وأطيعوا أمر من ولاه الله تعالى من أموركم أمراً، ولا تقربوا من الفتنة جمراً، ولا تداخلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً.

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، وأهم ما أضى عليه الآباء ألسنة

البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثر من شيء عرف به. وإياكم والكذب فهو العورة التي لا توارى، والسوأة التي لا يرتاب في عارها ولا يتمارى، وأقل عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعد الله له من العذاب، أن لا يقبل منه صدقة إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحق نطق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لوم، وفي وجه الديانة كلوم، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى لأهلها، وحافظوا على الحشمة والصّيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة، ولا توجدوا للغدر قبولاً، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً{وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا} [الإسراء: ٣٤]، ولا تستأثروا بكنز ولا خزن، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حزن، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كل أو وزن، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أن الإنسان في فسحة ممتدة، وسبل الله تعالى غير منسدة، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه، ويغمس في الحرام بيده أو لسانه، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سنناً قويماً، وجلى من الجهل والضلال ليلاً بهيماً{ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾} [النساء: ٩٣]، واجتناب الزنا وما تعلّق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلقّ نور الله الذي لم يهد شعاعهه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يزنى بأهله، والله قد أعدّ للزاني عذاباً وبيلاً، وقال:{ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾} [الإسراء: ٣٢].

والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطا، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوّغ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقوام لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة

الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجساً محرماً على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السّداد.

ولا تقربوا الربا فإنّه من مناهي الدين، والله تعالى يقول:{وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ} [البقرة: ٢٧٨]، وقال:{فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ} [البقرة: ٢٧٩]، في الكتاب المبين، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه، ولا تلجأوا إلى المتشابه إلاّ عند عدمه، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع، والمحافظ عليه مغبوط، وإياكم والظلم فالظالم ممقوت بكل لسان، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان. والنميمة فساد وشتات، لا يبقى عليه متات، وفي الحديث:♂**لا يدخل الجنّة قتّات**▬.

واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود، والبخر فما رؤي البخيل وهو مودود. وإياكم وما يعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها، وتفقّدوا أنفسكم مع الساعات، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في البضاعات. وعوّلوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام، والوشائج البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزور فإنّها تقطع الظهر، وتفسد السرّ والجهر؛ والرّشا فإنّها تحط الأقدار، وتستدعي المذلّة والصّغار، ولا تسامحوا في لعبة قمر، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر. وصونوا المواعيد من الإخلاف، والأيمان من حنث الأوغاد والأجلاف، وحقوق الله تعالى من الإزراء والاعتساف، ولا تلهجوا بالآمال العجاف، ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف. واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتعاد. واعلموا أن الله سبحانه بالمرصاد، وأن الخلق زرع وحصاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم،

واحذروا القواطع عن السعادة كما تحذر السموم. واعلموا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذاية المؤذين، ولا تقارضوا مقالات الظالمين، فالله لمن بغي عليه خير الناصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلّما نزلت، ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت، فكل منقرض حقير، وكل منقض وإن طال قصير، وانتظروا الفرج، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرج، وأوسعوا بالرجاء الجوانح، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، والجأوا إليه في البأساء والضرّاء، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد، ويعذب الوارد، وأسهموا منها للمساكين وافضلوا عليهم، وعيّنوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار " يا عائشة، أحسني جوار نعم الله، فإنّها قلّما زالت عن قوم فعادت إليهم ". ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها، وتلفّكم الجهالة بسكرها، وتتوهموا أن سعيكم جلبها، وجدّكم حلبها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتّقين، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كل منكم لأخيه، ما يشتد به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبر، ومراعاة في علانية وسر، وللإنسان مزية لا تجهل، وحق لا يهمل. وأظهروا التعاضد والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور، ترغموا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقروه.

والله الله لا تنسوا مقارضة سجلي، وبروا أهل مودّتي من أجلي، ومن رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلّة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلب العدوّ على بلده في الافتضاح والافتقار، ومعوقاً عن الانتقال، أمام النّوب الثقال،

وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أولى، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرّها، ونفعها لا يقوم بضرّها، وأعقاب من تقدّم شاهدة، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة، ومن بلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلل من المال، وليحذر معاداة الرجال، ومزلات الإدلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السر، وسكر الاغترار، وليصن الديانة، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة، ويسر من رضى الله على أوضح الطرق، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق، وليقف في التماس أسباب الجلال دون إكمال غير النقصان، والزعازع تسالم اللّدن اللطيف من الأغصان، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً، واستظهاراً على الحظوظ وغلاباً، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم اختياراً، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً، فليتلقّ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقع عزل، وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل، ومزلّة قدم، واستتباع ندم، ومآل العمر كلّه موت ومعاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممّن نفعه بالتبصير والتنبيه، وممّن لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها، وتجارتي التي لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، وبقدر ما أمضيتم من فروعها، واستغشيتم من دروعها، اقتنيتم من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، وبقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القيم، استكثرتم من بواعث الندم. ومهما سئمتم إطالتها، واستغزرتم مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كل حال، فالدنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار البقاء، جعلها الله من وراء خطة النجاة، ونفّق بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة، والسلام

عليكم من حبيبكم المودع، والله سبحانه يلأمه حيث شاء من شمل متصدع، والدكم محمد بن عبد الله ابن الخطيب، ورحمة الله وبركاته.

انتهت الوصية الفريدة في حسنها، الغريبة في فنها، المبلغة نفوس الناظرين فيها فوق ظنّها، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضي القضاة العلامة سيدي الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التآليف العديدة كالمعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب - وهو في ست مجلدات، ولو لم يكن له غيره لكان كافياً، وله مصنّفات كثيرة غيره أكثرها في مذهب مالك، ولم يؤلف في المذهب مثلها - كثيراً ما يدخل منها في خطبه.

* * *

ومن نثر ابن الجنان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى

لمحمد خير الأنام، ولبنة التمام، عليه أفضل الصّلاة والسلام، خيرة المفاخر، يتضاءل لعظمتها المفاخر، والمعالي، يتصاغر لعزّتها المعالي، والمكارم، يعجز عن مساجلتها المكارم، والمناقب، لا تضاهي سناها النجوم الثواقب، والمحامد، لا يبلغ مداها الحامد، والمماجد، لا يتعاطى رتبهن المماجد، والمناسب، سمت بجلالهن المناصب، والعناصر، طيّبها الشرف المتناصر، والفضائل، تفجرت في أرجائهن الفواضل، والشمائل، تأرّجت بعرفهن الجنائب والشمائل، فلا مجاري لسيد البشر، الآتي بالنذارات والبشر، فيما حباه الله تعالى به وخصّه، وقصّه علينا من خلقه العظيم ونصّه، عند رسم مدائحه يوجد المعوّل، وفي الثناء عليه يستقصر الكلام المطوّل، هو الآخر في ديوان الرسالة والأوّل، وله في الفضيلة، وقبول الوسيلة، النص الذي لا يؤوّل، نوره صدع الظلم، وظهوره رفع لدين الله تعالى العلم، بدأه الوحي و هو بحراء، وأسرّ إليه سر تقدم الإسراء، حتى إذا نصب له المعراج، وتوقد في منارة السماء ذاك السراج، ناجى الحبيب حبيبه، وجلا عن وجه الجلاء جلابيبه، فتلقى ما تلقى، لما علا وترقى، ثم صدر عن حضرة القدس، وجبين هدايته يبهر سنا الشمس، فشق لمعجزاته القمر، ونهى بأمر ربّه وأمر، وأزال الجهالة، وأزاح الضلالة، وكسر منصوب الأوثان، ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان، وبنى الملّة على قواعدها الخمس، وأحيا دين إبراهيم وكان رفاتاً بالرَّمْسِ، فرفلت الحنيفية البيضاء في بردة الجدّة، وبيضت بيضاء غرتها أوجه الأيام المسودّة، وانتشرت الرحمة بنبيها، ومطرت المرحمة من سحب حيها، وافتنت الآيات الباقيات البينات في مساقها واتساقها، وإشراقها في آفاقها وائتلاقها.

و شهد الحجر والشجر، والماء من بين البنان يتفجر، والظبية والضب، والجذع المشاق الصب، والشاة والبعير، والليث إذ هدأ أو سمع من الزئير والحي والجماد، والقصعة والزاد، بأن محمداً رسول الملك الحق، والمبلغ عنه

بواسطة الملك إلى الخلق، وصاحب اللواء المعقود، والمقام المحمود، والحوض المورود، والقول المسموع، والذكر المرفوع، والصدر المشروح، والفخر الباهر الوضوح، والأنوار المتناقلة، والآثار المتداولة، والنبوّة التي عهدها تقادم، من قبل خلق آدم، والمزية المعروف قدرها الجليل، المقبول فيها ما دعا به الخليل، والرتبة التي استشرف إليها الكليم، حتى قال له:{وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ } [الأعراف: ١٤٤]، ربّه الكريم، والبشارة التي كان بها يصيح حين يسيح، روح الله تعالى وكلمته عيسى المسيح، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم، ويقرع بها الباب المرتج المبهم، فما لنبينا المختار، من علوّ المقدار، واصطفاء الجبار، والاختصاص بالأثرة، والاستخلاص للحضرة، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً.

" وحسب هذا الوجود من الفضل الرباني والجود الذي لم يزل عظيماً، أن بعث الله تعالى فيه رسولاً رؤوفاً بالمؤمنين رحيماً، عزيزاً على ربّه الكريم كريماً، بسرّه سجدت الملائكة لآدم تعظيماً، وبذكره بنظم سلك المادح لحضرته العلية تنظيماً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً صلاة تتصل ما دار كأس محبته على أحبّته فكان مزاجه تسنيماً، وسلاماً ينزل دار دارين فيرسل ببضائعها إلى روضة الرضى نسيماً ".

ومن خطبه المرتجلة قوله سامحه الله تعالى:

" الحمد لله الذي حمده من نعمائه، وشكره على آلائه من آلائه، أحمده حمد عارف بحق سنائه، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به في كل آنائه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحّد بعظمته وكبريائه، المتقدس عمّا يقوله الملحدون في أسمائه. وأصلي على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه، محمد المفضل على العالمين باجتبائه واصطفائه، المنتقى من صميم الصميم وصريح الصريح بجملة آبائه، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه، أرسله الله للناس كافة عموماً

لا يتخصص باستثنائه، وفضّله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونظرائه، ورقّاه إلى الدرجات العلا وأنهاه إلى سدرة المنتهى ليلة إسرائه، وحباه بالخصائص التي لا يضاهى بها بهاء كمله وكمال بهائه، وردّاه رداء العصمة فكانت عناية الله تكذفه عن يمينه وشماله وأمامه وورائه، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزيته على الليث والغيث في إبائه وانهمائه، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه، صلاة تتصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره والقطر باندفاق أنوائه، وسلّم تسليماً ".

ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين ، وهي:

السلام العميم الكريم، والرحمة التي لا تبرح ولا تريم، والبركة التي أوّلها الصلاة وآخرها التسليم، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة، المؤيدة بالعصمة والأيد والقوة، ومثابة البر والتقوى فهي لقلوب الطيبين صفاً ومروة، مقام سيد العالمين طرّاً، وهاديهم عبداً وحرّاً، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألفوا العيش ضنكاً والدهر مرّاً، ومقر الأنوار المحمدية، والبركات السرمدية، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها، وكلاءة ظلالها العلية وأفيائها، وأقر عين عبدها بلثم ثراها، والانخراط في سلك من يراها.

" السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا أبا القاسم، سلام من يمدّ إليك يد الغريق، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق، ويتقطع أسفاً ويتنفس صعداً كلّما ازدلف إليك فريق، وعمرت نحوك طريق، ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق.

كتبته يا رسول الله وقد رحل المجدون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت، وبيني وبين لثم ثراك النبوي، ولمح سناك المحمدي، مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه، بماء توبه، وستر وصم عيبه، بظهر غيبه، فكلّما رمت المتاب رددت، وكلّما يممت الباب صددت، وقد أمرنا الله تعالى

بالمجيء إليك، والوفادة عليك، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تنئي وتبعد، والأيام لا تدني ولا تسعد، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المقيم المقعد، ولئن كنت ممّن خلّفته عيوبه، وأوبقته ذنوبه، ولم يرض للوفادة وهو مدنس، على ذلك المقام وهو المطهر المقدس، فعندي من صدق محبتك، وحبّ صحبتك، والاعتلاق بذمتك، ما يقدمني وإن كنت مبطئاً، ويقربني وإن كنت مخطئاً.

" فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى، وتوسل لي إلى مولىً بيّن فضيلتك، وتقبّل وسيلتك، في النقلة من هناك إلى هنا، واقبلني وإن كنت زائفاً، وأقبل عليّ وإن أصبحت إلى الإثم متجانفاً، فأنت عماد أمتك جميعاً وأشتاتاً، وشفيعهم أحياء وأمواتاً. ومن نأت به الدار، وقعدت بعزمه الأقدار، ثم زار خطّه ولفظه، فقد عظم نصيبه من الخير وحظّه، وإن لم أكن سابقاً فعسى أن أكون مصلّياً، وإن لم أعدّ مقبلاً فلعلي أعد مولياً، ووحقك وهو الحق الأكيد، والقسم الذي يبلغ به المقسم ما يريد، ما وخدت إليك ركاب، إلا وللقلب إثرها التهاب، وللدمع بعدها سحّ وانسكاب، ويا ليتني ممّن يزورك معها ولو على الوجنتين، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين، وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال، ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال، والله تعالى يمن على كتابي بالوصول والقبول، وعلي بلحاقي ببركتك ولو بعد طول.

ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا سيد الخلق، وأقربهم من الحق، ولمولاه بإحراز قصب السّبق، ومن طهّر الله تعالى مثواه وقدّسه، وبناه على التقوى والرضوان وأسسه، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفسه، وعلى ضجيعيك السابقين لمهاجريك وأنصارك، الفائزين بصحبتك العلية وجوارك، وعلى أهل بيتك المطهرين أوائل وأواخر، الشهيرين مناقب ومفاخر، وصحابتك الذين عزروك ووقروك، وآووك ونصروك، وقدموك على الأنفس والأموال والأهل وآثروك، وأقرئك سلاماً تنال بركته من مضى من أمّتك

وغبر، ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وسطر، إن شاء الله تعالى.

كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى، اللائذ بحرمك الأمنع الأوقى، المتأخر جسماً المتقدم نطقاً، فلان، والسلام عليك يا رسول الله تسليماً كثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته ".

وله من خطبة طويلة: ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الصوفة المجتبى، الكريم أمّاً طاهرة وأبا، المختار من الطيبين مباركاً طيبا، المصطفى نبيّاً إذ كان آدم بين الماء والطين متقلّبا، المتقدم بمقام تأخّر عنه مقام الملائكة المقربين، انتخبه الله وانتجبه، وأظهره على غيب عن غيره حجبه، وشرفه في الملإ الأعلى وأعلى رتبه، وخطّ اسمه على العرش سطراً وكتبه، فهو وسيلة النبيين، والمرشّح أوّلاً لإمامة المرسلين، بعثه ربّه لختم الرسالة، ونعته بنعت الشرف والجلالة، وأيده بالحجّة البالغة والدلالة، وجعله نوراً صادعاً لظلام الضلالة، وأثنى في ذكره الحكيم، على خلقه العظيم، فما عسى أن يبلغ بعد ثناء المثنين، بفضله التصريح وإليه الإشارة، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى البشارة، وعليه راقت من صفة الرؤوف الرحيم الحلية والشارة، وهو المخيّر بين الملك والعبودية فاختار العبودية بعد الاستخارة والاستشارة، فبتواضعه حل بمكان عند ذي العرش مكين أسرى به ربه إليه، ووفد أكرم وفادة عليه، وأدناه قاب قوسين لديه، ووضع إمامة الرسالة العظمى في يديه، وقال له:{ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾} [الحجر: ٩٤]، فصدع بأمر الله صدعاً، وأوتي من المثاني سبعاً، ومن الآيات البينات آلافاً وإن كان أوتي موسى تسعاً.

فما مشي الشجر إليه يجر عروقه إلا كرجوع العصا حية تسعى، وما تفجر الحجر بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعا، فارتوى منه خمسمائة وقد كان يكفي آلافاً فكيف المئين، وكم له عليه الصلاة والسلام من معجزة تبهر، وآية هي من أختها أكبر، رجعت له الشمس وانشقّ القمر، وكلّمه الضب وأخبر به الذئب وسلّم عليه الشجر والحجر، وكان للجذع عند فراقه إعلاناً

بوجده واشتياقه أنّة وحنين، أعطي من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر، وكانت له في الغار آيات بيّنات خفي بها على القوم الأثر، وارتج لمولده إيوان كسرى وخمدت نار فارس وكان ضرمها يتسعر، وأتته أخبار السماء فما عمي في الأرض الخبر، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين، وجعل له القرآن معجزة تتلى، يبلى الزمان وهي لا تبلى، وتعلو كلماتها على الكلم ولا تعلى، وتجلى آياتها في عين آيات الشمس حين تهجلى، فيتوارى منها بالحجاب حاجب وجبين، بهر إعجاز التنزيل العلي، وظهر به صدق النبي العربي، فكم نادى لسان عزّه في النّديّ، بأهل البديهة من الفصحاء والروي: قل فأتوا بسورة من مثله فلم يكونوا لها مستطيعين.

لقد خص نبينا عليه السلام بالآيات الكبر، والدلالات الواضحة الغرر، والمقامات السامية المظهر، والكرامات المخلّدة للمفخر، فهو سيد الملإ النبوي والمعشر، وحامل لواء الحمد في المحشر، وصاحب المقام المحمود والكوثر، والشفيع المشفّع يوم يقوم الناس لرب العالمين، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وذريته المباركين، وصحابته الأكرمين، وأزواجه أمهات المؤمنين، صلاةً موصولة تتردد إلى يوم الدين، وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتاباً في علّيّين، وسلّم تسليماً.

ومن نثره في خطبة قوله: أيّها الناس، رحمكم الله تعالى، أصيخوا أسماعكم لمواعظ الأيام، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهى والأحلام، وأحضروا لفهم موادّها أوعى القلوب وأصحّ الأفهام، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النّوام، ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خدعها المموّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدوث الحوادث وإلمام الآلام؛ دار صفوها أكدار، وسلمها حرب تدار، وأمنها خوف وحذار، ونظمها تفرق وانتشار، واتصالها انقطاع وانصرام، ووجودها فناء وانعدام، وبناؤها

تضعضع وانهدام، ينادي كل يوم بناديها منادي الحمام، فلا قرار بهذه الغرّارة ولا مقام، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام.

فبئست الدار داراً لا تدارى، ولا تقيل لعاثرها عثارا، ولا تقبل لمعتذر اعتذارا، ولا تقي من جورها حليفاً ولا جارا، وليس لها من عهد ولا ذمام، كم فتكت بقوم غافلين عنها نيام، كم نازلت بنوازلها من قباب وخيام، كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسقام، كم رمت أغراض القلوب بمصميات السّهام، كم جردت في البرايا للمنايا من حسام، كم بددت بأكف النائبات الناهبات من عطايا جسام، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل وغلام. لا تبقي على أحد، ولا ترثي لوالد ولا ولد، ولا تخلد سروراً في خلد، ولا يمتد فيها لآمل أمد، بينا يقال قد وجد، إذ قيل قد فقد. بعداً لها قد طبعت على نكد وكمد، فالفرح فيها ترح، والحبرة عبرة، والضحك والابتسام، بكاء وأدمع سجام. تفرق الأحبة بعد اجتماعهم، وتسكن الوحشة مؤنس رباعهم، وتبيح بالحمام حمى الأعزّة فلا سبيل إلى امتناعهم، وتستحثّ ركائب الخلائق على اختلاف أنواعهم، إلى مصيرهم إلى الله عزّ وجل وارتجاعهم، فيسيرون طوع الزمام، ويلقون مقادة التذلل والاستسلام، حتى يلجأوا بالرغام، وينزلوا بطون الرجام، ويحلّوا الوهد بعد المقام السام، فلا نناج من خطبها العظيم ولا سليم، يتساوى في حكم المنية الأغر والبهيم، والأعز والمضيم.

ولو أنّه ينجو من ذلك مجد صميم، وجدّ كريم، وحظ عظيم، ومضاء وعزيم، ومزية وتقديم، وحديث في الفضل وقديم، وشرف لسمك السّماوات مُسام، وعليً على ساق العرش المجيد ذو ارتسام، لنجا حبيب الملك العلام، وسيّد السادات الأعلام، وصفوة الصفوة الكرام، وخاتم الأنبياء ولبنة التمام، وصباح الهدى ومصباح الظلام، والأبيض المستسقى به غيث الغمام، ثمال الأرامل وعصمة الأيتام، عليه أفضل الصلاة والسلام، لكن مع قدره الجليل وفضله الجلي، أقدم الموت على جانبه العلي، وتقدم ملك الموت لقبض روحه

القدسي وتغيب في الثرى جمال ذلك الوجه البهي، وتغيض ماء السّماء والندى، لملك السماحة النبويّة والندى، وأصيب المسلمون وأعظم بها مصيبة بذبيّهم العربي، الهاشمي القرشي، فيا له وللإسلام، من مصاب أسلمنا للحزن أيّ إسلام، وأسال مياه الدموع عن احتراق للضلوع واضطرام، وأرانا أن الأسى في رزية لخير البرية واجب وأن التأسي حرام.

وهل يسوغ الصبر الجميل، في فقيد بكنه الملائكة وجبريل، وكثر له في السماوات السبع النحيب والعويل انقطع به عن الأرض الوحي الحكيم والتنزيل، وعظمت الرزية به أن يؤدي حقيقتها الوصف والتمثيل، غداة أقفر منه الرّبع المحيل، وأوحش من أنسه السفح والنخيل، وكان من تلك الروح الطاهرة الوداع والرحيل، وقامت البتول تندب أباها بقلب قريح وجفن دام، وتنادت الأمّة مات الرسول ففي كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام، وحارت الألباب والعقول فلا صبر هنالك لقد زلّت عن الصبر الأقدام. ولمّا نعيت إليه نفسه، وآن أن تأفل من تلك المطالع شمسه، آذن آمّته بالفراق وأعلمهم، وناشدهم في أخذ القصاص وكلّمهم، مخافة أن يمضي إلى الملك الحق، وعليه تباعة لأحد من الخلق، وحاشاه عليه الصلاة والسلام، من صفات جائر للأمّة ظلاّم، ولكنّه تعريف من نبي الرحمة بما يجب وإعلام، ثم استمر به صلوات الله وسلامه عليه وتمادى، وزاد به السقم المنتاب وتهادى، حتى واراه ملحده، وخلا منه ربعه ومسجده، فعمّ الحزن والاكتئاب، وتوارى النور فأظلم الجناب، وعاد الأصحاب، وكأنّما دموعهم السحاب، فقالت فاطمة وقد رابها من دفن أبيها الكريم ما راب: أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب فكأن كلامها للقلوب المفجعة كلام، وللعيون المفجرة بالدموع انسفاح وانسجام.

وفي مثل هذا الشهر شهر ربيع، المشيد بذكر الأشجان المذيع، كانت وفاة هذا النبي الهادي الشفيع، وانتقاله إلى الملإ الأعلى والرفيق الرفيع، حين ناداه ربّه إلى قربه، فلبى بشوق قلبه تلبية المهطع المطيع، وحنّ إلى حضرة القدس

فانتظم حين حل بها ما كان من شمله الصديع، وانتظر من صنع الرب جميل الصنيع، وإنجاز وعد الشفيع في الجميع، إذ أعطي لواء الحمد وقام محمود المقام، ووقف على الحوض ينادي: هلموا إليّ أروكم من العطش والأوام.

اللّهم اسقنا من حوضه المورود، وشرّفنا بلوائه المعقود، وشفّعه فينا في اليوم المشهود، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللّحود، اللّهم اجعله لنا تعزية من كل مفقود، وأوجد لنا من بركاته أشرف موجود، وجازه عنّا بما أنت أهله من فضل وإحسان وجود، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الرّكّع السّجود، واجعلنا معهم في الجنّة دار الخلود ودار السلام. واخصصهم عنّا بأكرم تحيّة وأفضل سلام، وصلّ عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أيّ استلام، وتنتظم له كرامات إحسانك أيّ انتظام.

فصلوات الله عليه، وأطيب تحياته ورحمته تتوالى لديه، وأجزل بركاته ما تجدد في ربيع ذكر وفاته، وتمهد كهف القبول لطالبي فضله وعفاته، وتعزى به كل مصاب في مصيباته، وترجّى شفاعته كل محب فيه متبع لهداياته، وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جنباته، حظوظ من برّ الله تعالى وأقسام:{ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾} [الأحزاب: ٥٦]، اللّهم صلّ عليه من نبي لم يزل بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، اللّهم صلّ عليه من نبي أوجبت حبه وعظّمته تعظيماً، اللّهم صلّ عليه من نبي صليت عليه تجلة وتكريماً، وأمرتنا بالصلاة عليه إرشاداً وتعليماً، فلنا بأمرك اقتداء وائتمام، وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام، وكلامك يا ربّنا أشرف الكلام، ولوجهك وحده البقاء والدوام:{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾} [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]،{ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾} [غافر: ٦٥]، انتهى.

ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا التخميس في مدح سيد الوجود، ، وشرف وكرم:

الله زاد محمـــــــــــداً تكريمـــــــــا ::: وحبـــاه فضـــلاً مـــن لدنـــه عظيمـــا
واختصّـــــه في المرســـــلين كريمـــا ::: ذا رأفـــــة بـــــالمؤمنين رحيمـــــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

جلّـــت معـــاني الهـــاشميّ المرســـل ::: وتجلّـــت الأنـــوار منـــه لمجتلـــي
وسمـــا بـــه قـــدر الفخـــار المعتلـــي ::: فاحتـــلّ في أفـــق السّـــماء مقيمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

حـــاز المحامـــد والممـــادح أحمـــد ::: وزكـــت مناســـبه وطـــاب المحتـــد
وتأثلـــت عليـــاؤه الســـؤدد ::: مجـــداً صـــميماً حادثـــاً وقـــديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

شمـــس الهدايـــة، بـــدرها الملتـــاح ::: قطـــب الجلالـــة، نورهـــا الوضّـــاح
غيـــث الســـماحة للنـــدى يرتـــاح ::: يـــروي بكـــوثره الظمـــاء الهيمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

تـــاج النبـــوّة، خـــاتم الأنبـــاء ::: صـــفو الصـــريح، خلاصـــة العليـــاء
نجـــل الـــذبيح، ســـلالة العلمـــاء ::: بشـــرى المســـيح، دعـــاء إبراهيمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فخـــر لآدم قـــد تقـــادم عصـــره ::: من قبـــل أن يـــدري ويجـــرى ذكـــره
ســـرّ طـــواه الطـــين فهّـــم نشـــره ::: معـــنى الســـجود لآدم تفهيمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لله فضـــل المصـــطفى المختـــار ::: مـــا إن لـــه في المكرمـــات مجـــاري
ولا مبـــارٍ باختصـــاص البـــاري ::: بـــالحقّ قـــدّم مجـــده تقـــديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أوصـــاف ســـيّدنا الـــنبيّ الهـــادي ::: مـــا نالهـــا أحـــد مـــن الأمجـــاد
فالرســـل في هـــدي وفي إرشـــاد ::: قـــد ســـلّموا لنبيّنـــا تســـليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

آياتـــه بهـــرت ســـنا وســـناء ::: وأفـــادت القمـــرين منـــه ضـــياء
وعلـــت بـــأعلام الظهـــور لـــواء ::: فهـــدى بـــه الله الصـــراط قويمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

دنت النجـوم الزّهـر يـوم ولادتـه ::: ورأت حليمـــة آيـــةً لســـيادته
وتحـــدثت ســـعد بـــذكر ســـعادته ::: فتفـــاءلوا نعـــم اليتـــيم يتيمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لّمـــا ترعـــرع جـــاءه الملكـــان ::: بالطســـت فيهـــا حكمـــة الـــرحمن
فاســتخرجا القلــب العظــيم الشــان ::: منـــه وطهّـــر ثمّ عـــاد ســـليما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

كرمت مناشـي أحمـد خـير الـورى ::: وجرى له القلـم العلـيّ بمـا جـرى
مـا كـان ذلكـم حـديثاً يفتـرى ::: لكنّـه الحـقّ الجلـيّ رسـوما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

مـا زال برهـان الـنبيّ يلـوح ::: يغـدو بـه الإعجـاز ثمّ يـروح
حـتى أتـاه بعـد ذاك الـروح ::: يـوحي لـه وحـي الإلـه حكيمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

شـهدت لـه بمزيـة التفضـيل ::: سـور وآيـات مـن التّنـزيل
وصـلاة خالقـه أدلّ دليـل ::: فافهمـه واسمـع قولـه تعظيمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

إنّ الرسـول المعتلـي المقـدار ::: لمؤيـدٌ مـن ربّـه القهّـار
بـالمعجزات جلـت عمـى الأبصـار ::: وشفت مـن أدواء الضـلال سـقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

كـم شـاهد لمحمّـد بنبوّتـه ::: في أيـد تأييـد الإلـه وقوّتـه
فبـذاك أعلـى الله دعـوة حجّتـه ::: فمضـت حسـاماً صـارماً وعزيمـا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

البـــدر شـــقّ لـــه ليظهـــر صـــدقه ::: والشمس قـــد وقفـــت تعظّـــم حقّـــه
والمـــزن أرســـل إذ توسّـــل ودقـــه ::: فاخضرّ ما قـــد كـــان قبـــل هشـــيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

والمـــاء بـــين بنانـــه قـــد ســـالا ::: عـــذباً معينـــاً ســـائغاً سلســـالا
كنـــداه يمـــنح رفـــده مـــن ســـالا ::: وينيـــل راجيـــه النـــوال جســـيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

بركاتـــه أربـــت علـــى التعـــداد ::: كم أطعمت مـــن حاضـــرين وبـــادي
مـــن قصـــعة أو حثيـــة مـــن زاد ::: رزقـــاً كريمـــاً للجيـــوش عميمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ســـجد الـــبعير لـــه ســـجود تـــذلل ::: وشـــكا إليـــه بحرقـــة وتملمـــل
والشـــاة قـــال ذراعهـــا: لا تأكـــل ::: منّـــي فـــإنّي قـــد ملئـــت سمومـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

والغصن جـــاء إليـــه يمشـــي مســـرعا ::: والصـــغر أفصـــح بالتحيّـــة مســـمعا
والظبيـــة العجمـــاء فيهـــا شـــفّعا ::: والضـــبّ كلّـــم أحمـــداً تكليمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

والجـــذع حـــنّ لـــه حـــنين الـــوال ::: يبـــدي الـــذي يخفيـــه مـــن بلبالـــه
أفـــلا يحـــنّ متـــيّم بجمالـــه ::: يشـــتاق وجهـــاً للـــنبيّ وســـيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

مـــا بالنـــا نســـلو وحـــبّ حبيبنـــا ::: يقضـــي ببـــثّ غرامنـــا ونحيبنـــا
لو صح في الإخـــلاص عقـــد قلوبنـــا ::: لم نـــنس عهـــداً للرســـول كريمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أيـــن الـــدموع نفيضـــها هتّانـــا ::: أيـــن الضـــلوع نقضّـــها أشـــجانا
حـــتى نقـــيم علـــى الأســـى برهانـــا ::: لمـــتمم إرشـــادنا تتميمـــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أو لــيس هادينــا إلى ســبل الهــدى ::: أو ليس منقذنا مــن اشــراك الــردى
أو ليس أكــرم مــن تعمّــم وارتــدى ::: أولم يكــن أزكــى البريّــة خيمــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ذاك الشــفيع مقامــه محمــود ::: ولــواؤه بيــد العــلا معقــود
فــإذا توافــت للحســاب وفــود ::: قــالوا: تقــدّم بالأنــام زعيمــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فيقــوم بالبــاب العلــيّ ويســجد ::: ويقــول: يــا مــولاي آن الموعــد
فيجاب: قــل يســمع إليــك محمــد ::: ونريــك منّــا نضــرةً ونعيمــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

أعظــم بعــزّ محمّــد وبجاهــه ::: أكــرم بــه متوســلاً لإلهــه
شربت كــرام الرّســل فضــل مياهــه ::: فغــدت تعظّــم حقّــه تعظيمــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

يــا ســامعي أخبــاره ومفــاخره ::: ومطــالعي آثــاره ومــآثره
ومــؤملي وافي الثــواب ووافــره ::: إن شــئتم فــوزاً بــذاك عظيمــا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

قلت: وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب في مجالس التدريس، وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم في منازل الأمداح النبوية مقيل وتعريس، وهي قصيدة ميلادية كأنّما لم ينظمها مؤلفها إلاّ مقدّمة لهذه القصيدة الفريدة، وهي:

اسمــع حــديثاً قــد تضــمّن شــرحه ::: روضــاً مــن الإينــاس أينــع دوحــه
فيــه الشــفاء لمــن تكــاثر برحــه ::: وافى ربيــع قــد تعطّــر نفحــه

أذكى من المسك الفتيق نسيما

شهر حــوى بوجــود أحمــد أســعدا ::: بالمصــطفى بــين الشّــهور تفــرّدا
يــا مــا أجــلّ ســنا عــلاه وأمجــدا ::: لــولادة المختــار أحمــد قــد غــدا

يزهو به فخراً تراه عظيما

يـــا مـــن بـــأدمع مقلتيـــه يغتـــذي ::: كم ذا تنادي حســـرة: مـــن منقـــذي
وتقول للزفـــرات: هـــل مـــن منفـــذ ::: بشـــرى بشـــهر فيـــه مولـــده الـــذي

سر الزمان علوّه تعظيما

يـــا ليلـــة رفعـــت بأحمـــد حجبـــها ::: لّمـــا دنـــا بعـــد التباعـــد قربهـــا
وتطلعـــت للســـعد فينـــا شـــهبها ::: ضاءت لهـــا شـــرق الـــبلاد وغربهـــا

وتأنّقت أرجاؤها تنعيما

أسدى إليك الـــدهر حســـن صـــنيعه ::: وحبـــاك مـــن غـــضّ الجـــنى ببديعـــه
وافى هـــــلال محمـــــد بربيعـــــه ::: فـــاعتزّ أمـــر الله عنـــد طلوعـــه

وغدا به دين الإله قويما

نظـــم الزمـــان بجيـــد عمـــرك درّه ::: فاشـــكر مـــآثره وواصـــل بـــرّه
وافـــاك بالســـرّ المصـــون فســـرّه ::: واعـــرف لهـــذا الشـــهر حقّـــاً قـــدره

فلقد غدا بين الشهور كريما

يـــا صـــاح جـــاءت بالأمـــاني أســـعد ::: وأطـــلّ بالبشـــرى الكريمـــة مولـــد
هـــذا ربيـــع فيـــه أنجـــز موعـــد ::: شـــهر كـــريم جـــاء فيـــه محمـــد

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

ثم قلت أنا عند ختم درس " الشفا "، موطّئاً لقصيدة ابن الجنان المذكور ولعذب براعتها مرتشفا، ما نصه والأعمال بالنيات:

انشـــق أزاهـــر عـــن فنـــون ريـــاض ::: للعلم واكـــرع مـــن عـــذاب حيـــاض
واســـق الريـــاض بـــذكره الفيّـــاض ::: واحفـــظ كلامـــاً للإمـــام عيـــاض

قد تممت أقسامه تتميما

لله روض منـــــه أينـــــع دوحـــــه ::: يجـــنى بـــه مـــن الكـــريم ومنحـــه
فهـــو الشـــفاء لمـــن تكـــاثر برحـــه ::: مســـك الختـــام بـــه تعطـــر نفحـــه

فشذاه في الأرجاء صار شميما

فاضت علينا من هداه عوارف ::: زهر وأنوار وظلّ وارف
وغمارق مصفوفة ومطارف ::: يا حسن ما أبداه فذّ عارف

درّاً بأسلاك الحديث نظيما

لم لا وبالملك الشّفيع تشرّفا ::: خير البريّة ركن أرباب الصفا
من أسعد الراجي وقصداً أسعفا ::: طه النبيّ الهاشمي المصطفى

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

وقد رأيت بعد وصولي إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصدية ابن الجنان المذكور في رويّ تلك القصيدة غير مخمسة مستقلة بنفسها، و هي قوله رحمه تعالى:

صلّوا على خير البريّة خيما ::: وأجلّ من حاز الفخار
صلوا على من شرّفت بوجوده ::: أرجاء مكّة زمزماً وحطيما
صلوا على أعلى قريش منزلاً ::: بذراه خيّمت العلا تخييما
صلوا على نور تجلّى صبحه ::: فجلا ظلاماً للضلال بهيما
صلّوا على هاد أرانا هديه ::: نهجاً من الدين الحنيف قويما
صلّوا على هذا النبيّ فإنّه ::: من لم يزل بالمؤمنين رحيما
صلّوا على الزاكي الكريم محمد ::: ما مثله في المرسلين كريما
ذاك الذي حاز المكارم فاغتدت ::: قد نظّمت في سلكه تنظيما
من كان أشجع من أسامة في الوغى ::: ولدى الندى يحكي الحيا تجسيما
طلق المحيّا ذو حياء زانه ::: وسط النّديّ وزاده تعظيما
حكمت له بالفضل كلّ حكيمة ::: في الوحي جاء بها الكتاب حكيما
وبدت شواهد صدقه قد قسّمت ::: بدر الدّجى لقسيمه تقسيما
والشمس قد وقفت له لّما رأت ::: وجهاً وسيماً للنبي وسيما
كم آية نطقت تصدّق أحمدا ::: حتى الجماد أجابه تكليما
والجذع حنّ حنين صبّ مغرم ::: أضحى للوعات الفراق غريما
جلّت مناقب خاتم الرّسل الذي ::: بالنّور ختّم والهدى تختيما
وسمت به فوق السماء مراتب ::: بمقام صدق عزّ فيه مقيما

فلــه لــواء الحمــد غــير مــدافع ::: ولــه الشــفاعة إذ يكــون كليمــا
نرجــوه في يــوم الحســاب، وإنّمــا ::: نرجــو لموقفــه العظــيم عظيمــا
مــا إن لنــا إلاّ وســيلة حبّــه ::: وتحيــة تــذكو شــذاً وشميمــا
ولخــير مــا أهــدى امــرؤ لنبيّــه ::: أرج الصــلاة مــع الســلام جســيما
يــا أيّهــا الراجــون منــه شــفاعةً ::: صــلّوا عليــه وســلّموا تســليما

ورأيت تسديساً آخر لم يرتبه على حروف المعجم، وجعل روي الشطرين الأخيرين حرف اللام، فأحببت ذكره هنا زيادة في التبرك بمدح المصطفى عليه أجلّ الصلاة والسلام، وهو:

نــور الــنّبي المصــطفى المختــار ::: أربــت محاســنه علــى الأنــوار
مــرآه يخجــل بهجــة الأقمــار ::: نــور ينجّــي مــن عــذاب النّــار
قــد زان ذاك النّــور إسمــاعيلا ::: صــلّوا عليــه بكــرةً وأصــيلا
صــلوا علــى البــدر المــنير المشــرق ::: صــلوا عليــه بمغــرب وبمشــرق
صلوا على غصــن الكمــال المــورق ::: بالمصــطفى المختــار بــرق الأبــرق
يهــدي غرامــاً للنفــوس دخــيلا ::: صــلّوا عليــه بكــرةً وأصــيلا
صلوا على مــن قــد تنــاهى فخــره ::: صلوا على مــن قــد تعــاظم قــدره
صلوا علــى مــن قــد تــأرج نشــره ::: صــلوا علــى مــن قــد تناســق دره
عقــد السّــناء لجــده إكلــيلا ::: صــلّوا عليــه بكــرةً وأصــيلا
صــلّوا علــى خــير الأنــام المرســل ::: صلّوا علــى البــدر المعــين السلســل
صــلّوا علــى أســنى ســنا المتوســل ::: صلّوا علــى نــور الهــدى المسترســل
ظــلّ علينــا لا يــزال ظلــيلا ::: صــلّوا عليــه بكــرةً وأصــيلا
صــلّوا علــى النّــور الأتمّ الأكــبر ::: صلّوا على مــن فــاق عــرف العنــبر
صــلّوا عليــه فهــو أصــدق مخــبر ::: كم زان ذكــر المصــطفى مــن منــبر
وأراح مــن داء الضّــلال علــيلا ::: صــلّوا عليــه بكــرةً وأصــيلا
صــلّوا علــى النّــور الأتمّ الأنــور ::: صلّوا علــى مــن فــاق كــلّ مبشّــر
صــلّوا عليــه هــديتم مــن معشــر ::: صلّوا علــى بــدر يــرى في المحشــر
حــاز الجمــال فــلا يــزال جمــيلا ::: صــلّوا عليــه بكــرةً وأصــيلا
صلّوا علــى النّــور البــهيّ المغــرب ::: صــلّوا عليــه بمشــرق وبمغــرب

صلّوا على الـورد الشـهي المشـرب ::: بالفكر يشرب ويـح مـن لم يشـرب
منـه، وينقـع بـالورود غلـيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صـلّوا علـى مـن فخـره لا ينكـر ::: صلّوا علـى مـن في النجـاة يفكّـر
صـلّوا علـى مـن بـالنبوّة يـذكر ::: صـلّوا علـى مـن بالهدايـة يشـكر
شـكراً علـى مـرّ الزمـان حفـيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صلّوا على مـن بالسّـيادة قـد سمـا ::: صلّوا على مـن في الكمـال تقسّـما
صـلّوا علـى صـبح بـدا متبسـما ::: صلّوا علـى طيـب سـرى وتنسّـما
وغـدا وراح معطّـراً وبلـيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صـلّوا علـى مسـك يخـالط عنـبرا ::: صلّوا عليه سرى وفـاح ومـا انـبرى
صلّوا عليه حـوى الكمـال الأكـبرا ::: لـبس الجمـال مطـرزاً ومحـبرا
وبـذاك قـد خـص الجليـل جلـيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صـلّوا علـى مـن بـالنبوّة توّجـا ::: صـلّوا علـى صـبح بـدا وتبلجـا
صـلّوا عليـه لقـد أضـاء وأبهجـا ::: ومحـا برونـق نـوره ظلـم الـدجى
نـور يعـود الطـرف منـه كلـيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صـلّوا علـى نـور تـبلّج لائحـا ::: صـلّوا علـى نـور تـبرّج واضـحا
صـلّوا علـى مسـك تـأرّج فائحـا ::: وبطيبـه مـلأ الوجـود روائحـا
وبحبّـه يسـتوجب التبجـيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صلّوا على مـن نـوره مـلأ الفضـا ::: صلّوا عليه لقد أضـاء ومـا انقضـى
صلّوا على من خـصّ حقّـاً بالرضـى ::: لنجاتنـا خـير الأنـام تعرّضـا
وهـدى إلى نيـل الرشـاد سـبيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صـلّوا علـى بـدر يـدوم كمالـه ::: بـاق علـى مـرّ الزمـان جمالـه
صلّوا علـى مـن قـد تعـاظم حالـه ::: ودنـاً إلى ورد الرضـي ترحالـه
وإلى الـورود بـه أجـدّ رحـيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صلوا بـأجمعكم علـى شمـس الهـدى ::: صـلّوا علـى بـدر يـزين المشـهدا
صـلّوا عليـه فمـن رآه تشـهدا ::: صـلّوا عليـه بـه الرشـاد تمهـدا
أرضـى النـزيل وبـيّن التنـزيلا ::: صـلّوا عليـه بكـرةً وأصـيلا
صلّوا علـى مـن قـد تأثـل مجـده ::: فسـما بـه غـور الحجـاز ونجـده
مـا زهـره لـولاه أو مـا ورده ::: بالمصـطفى المختـار يعـذب ورده

في تربـــه مـــا أعـــذب التقبـــيلا ::: صـــلّوا عليـــه بكـــرةً وأصـــيلا
صـــلّوا علـــى محبوبنـــا مطلوبنـــا ::: صـــلّوا عليـــه فهـــو روض قلوبنـــا
صـــلّوا عليـــه فهـــو عطـــر جيوبنـــا ::: صـــلّوا علـــى مطلوبنـــا محبوبنـــا
لا نرتضـــي عـــن حبّـــه تبـــديلا ::: صـــلّوا عليـــه بكـــرةً وأصـــيلا
صـــلّوا علـــى خـــير الأنـــام الأطهـــر ::: صـــلّوا علـــى النـــور الأتم الأزهـــر
صلّوا علـــى الصـــبح المـــنير الأشـــهر ::: صـــلّوا عليـــه باتصـــال الأشـــهر
الله فضّـــــلنا بـــــه تفضـــــيلا ::: صـــلّوا عليـــه بكـــرةً وأصـــيلا
صلّوا على من قـــد تنـــاهى في العـــلا ::: صلّوا على مـــن كـــان أكمـــل أجمـــلا
صـــلّوا علـــى در تـــزان بـــه الحلـــى ::: المجـــد ألبســـه الكمـــال مكمّـــلا
والله كمّـــــل مجـــــده تكمـــــيلا ::: صـــلّوا عليـــه بكـــرةً وأصـــيلا

وأظن أنّي رأيت بعض هذه القصيدة في كتاب لعروسي المغربي، وهو متأخر.

* * *

قصائد ومقطعات في مدح الرسول

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بابن المغربي، وهي:

أهدت لنـــا طيـــب الـــروائح يثـــرب ::: فهبوبهـــا عنـــد التنســـم يطـــرب
رقت فـــرقّ مـــن الصـــبابة والأســـى ::: قلـــب بـــنيران البعـــاد يعـــذّب
شـــوقاً إلى اســـنى نـــبيّ حبّـــه ::: يحلـــو علـــى مـــرّ الزمـــان ويعـــذب
المصـــطفى أعلـــى البريـــة منصـــباً ::: قـــد جـــل في العليـــاء ذاك المنصـــب
فزنـــا بـــه بـــين الأنـــام بديمـــة ::: أبـــداً علينـــا بالأمـــاني تســـكب
حـــاز الســـيادة والكمـــال محمـــد ::: فإليـــه أشـــتات المحامـــد تنســـب
محبوبنـــــا ونبيّنـــــا وشـــــفيعنا ::: يـــدني إلى ورد الرضـــى ويقـــرّب
بضـــيائه الملتـــاح أشـــرق مشـــرق ::: وبنـــوره الوضـــاح أغـــرب مغـــرب
وبـــه وردنـــا الأمـــن عـــذباً صـــافياً ::: وبـــه ترقـــى في المعـــالي يشـــجب
صـــبح الهـــدى أنـــواره بنبيّنـــا ::: صـــبحاً تـــروق النـــاظرين وتعجـــب
إن طابت الأنفـــاس مـــن زهـــر الـــرّبى ::: ريّـــاه أذكـــى في النفـــوس وأطيـــب

صـــيّرت أمـــداح الـــنبيّ المصـــطفى ::: لي مـــذهباً يـــا حبّـــذاك المـــذهب
فعلـــيّ مـــن أمـــداح أحمـــد خلعـــة ::: موشـــيّة ولهـــا طـــراز مـــذهب
وبمدحه شمس الرضـــى طلعـــت علـــى ::: أفقـــي تضـــيء ونورهـــا لا يغـــرب
أتـــرى يبشـــرني البشـــير بقربـــه ::: وأبـــثّ أشـــواق الفـــؤاد وأنـــدب
ويقال لي بشـــراك قـــد نلـــت المـــنى ::: يـــا مغـــربي إلى مـــتى تتغـــرب
هـــذا مقـــرّ الـــوحي هـــذا المصـــطفى ::: هـــذا الـــذي أنـــواره لا تحجـــب
رد ورد طيبة واشـــف مـــن ألم النـــوى ::: قلبـــاً علـــى جمـــر الأســـى يتقلـــب
كـــم ذا التـــواني عـــن زيـــارة مـــورد ::: عـــذب المقـــام بـــه ولـــذّ المشـــرب
منّـــا الســـلام علـــى الـــنّبيّ محمـــد ::: ما أسفرت شمـــس وأشـــرق كوكـــب

وقد سمي هذا الكتاب " بنظم الدرر في مدح سيد البشر " والورد العذب المعين في مولد سيّد الخلق أجمعين وليس هو بابن العطار المشرقي الذي كان معاصراً لابن حجّة الحموي، فإن ذلك متأخر عن هذا، و هذا مغربيّ وذاك مشرقي، فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان، سوى اشتراكهما في الشهرة بابن العطار.

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته: ممّا أنشأه الشيخ الفقيه القاضي العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبي بكر بن يوسف العطار، ورواية العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشهري، قرأت هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضي المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر من أقصى إفريقية - حرست - في دول متفرقة، وآخرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائة، ونصّ ما كتب على نص قراءتي عليه: صحيح ذلك، وكتبه محمد بن عبد الله ابن محمّد ابن محمد بن العطار، والحمد لله رب العالمين؛ انتهى.

ورأيت أثر ما تقدم بخط الأقشهري ما صورته: سمع من لفظي جميع " نظم الدرر في نسب سيد البشر " لجامعه، القاضي المذكور أعلاه القاضي شمس

الدين محمد ابن المرحوم عبد المنعم الشيبي وولده أبو محمد عبد الدائم وابن أخيه أبو محمد عبد الباقي بن تاج الدين بن حفص بن أبي بكر البوري وغيرهم، نحو سماعي قراءة مني على مؤلفه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبي بكر العطّار سنة سبع وسبعمائة، قاله راسمه الأقشهري؛ انتهى.

ومن قصائد هذا الكتاب قوله:

أبداً تشوقك أو تروقك يشرب ::: فإلى متى يقصيك عنها المغرب
هي جنة في النفس يعذب ذكرها ::: والقرب منها والتداني أعذب
المسك معترف بأنّ نسيمها ::: أسمى وأسرى في النفوس وأطيب
والعنبر الورديّ دان لطيبها ::: منه التعطر والتأرج يطلب
جيش الصبابة شنّ غارات الأسى ::: من بعدها فالصبر منها ينهب
والشوق يثنينا إليها كلّما ::: وقف الحمام على الأراكة يخطب
حتى النسيم إذا سرى من ربعها ::: يثني من الروض الغصون ويطرب
حيّا فأحيا المستهام بطيبه ::: فنفوسنا بهبوبه تتطيّب
يا حبّذا في ربع طيبة وقفة ::: بين الركائب والمدامع تسكب
حتى يرقّ للوعتي وصبابتي ::: ودموع عيني كلّ من يتغرب
شوقاً لمن زان الوجود، وحبه ::: يدني إلى ربّ الرضى ويقرّب
ساد الأنام المصطفى بكماله ::: فإليه أجناس السيادة تنسب
بالنّور زان حلىً علا آياته ::: وبحسن ذاك النور أعرب معرب
الشمس يغرب نورها وضياؤها ::: أبداً ونور المصطفى لا يغرب
الله أرسله إلينا رحمة ::: فبجاهه عنّا الرضى لا يحجب
بمحمّد فزنا فإدراك المنى ::: فالوقت طاب لنا وطاب المشرب
خير الورى محبوبنا ونبيّنا ::: حزنا به الجاه الذي لا يسلب
روض النفوس محمد ونعيمها ::: وبه يفضض حليها ويذهّب
شرف تقادم قبل آدم عهده ::: للنّور أطناب عليه تطنّب
منّا عليه مدى الزمان تحية ::: يثني عليها المندليّ ويطنب

ومنها قوله رحمه الله تعالى:

طلعت، وقارنها البهاء، بدور ::: أبداً على قطب السعود تدور
من نور أحمد يستمدّ ضياؤها ::: وبهاؤها، يا حبذاك النّور
ويزيد ذاك النّور حسناً فائقاً ::: يوم القيامة والنام حضور
محبوبنا أسمى البريّة منصباً ::: يوم النّشور لواؤه منشور
فزنا بخير العالمين محمد ::: وجرى بوفق مرادنا المقدور
لاحت لنا أنواره فزماننا ::: نور، وأنس دائم وسرور
بالمصطفى المختار قابلنا الرضى ::: بين الأنام فسعينا مشكور
الله فضّله على كلّ الورى ::: فهو الحبيب، وفضله مشهور
القرب خصّصه وعظّم قدره ::: فسما ببهجة نوره ناحور
خير النبيّين الكرام نبيّنا ::: بالنور في العرش اسمه مسطور
يا صاحبيّ نداء صبّ مغرم ::: قلبي بحبّ المصطفى معمور
عوجا عليّ بوقفة وبعطفة ::: إنّي على ألم الفراق صبور
إن لم أزر بالجسم قبر المصطفى ::: فالقلب من بعد المزار يزور
نيران قلبي بالبعاد توقّدت ::: ومدامعي خدّي بها ممطور
فمن الفراق الحتم نيران لها ::: لهب، ومن فيض الدموع بحور
فمتى أفوز بوقفة في طيبة ::: والقلب مني فارح مسرور
ويقال لي إنزل بأكرم منزل ::: وأبشر فأنت على النوى منصور
إن جاد دهري بالوصول لطيبة ::: بعد المطال فذنبه مغفور
هي جنّة من حلّها نال المنى ::: وسما وساد وصافحته الحور
حتى النسيم إذا سرى من نحوها ::: يصبو إليه المسك والكافور

ومنها قوله رحمه الله تعالى:

أمّا النّسيم فقد حيّاك عاطره ::: وبارق المنّحنى أحياك ماطره
خاطر بروحك في نيل الوصال فكم ::: من نازح نال طيب الوصل خاطره
زهر الرّبى باسم تندى كمائمه ::: رقّ النّسيم بها إذ راق ناظره
ما حلّ روض المنى الغض الجنى دنف ::: فاستضحكت فيه من عجب أزاهره
والنهر أبرز للبدر الأتم حلىً ::: والبدر طرز ماء النهر زاهره

والغصن تلعب أنفاس الرياح به ::: والطلّ قد نثرت منه جواهره
والليل قد رقمت بالشّهب حلته ::: والبرق يبسم في الظلماء ساهره
والنور محض جنىً فوق الندى درر ::: وعقدها زيّن الأغصان دائره
وملبس الروض قد زانته خضرته ::: والليل بالفجر قد شابت غدائره
والصبح سلّ على جيش الظلام ظبيً ::: وعندما سلّها ولّت عساكره
للزهر سرّ وعرف الروض فاضحه ::: والمسك إن فضّ لا تخفى سرائره
هل زار طيبة ذاك العرف حين سرى ::: فتربها أبداً مسك يخامره
طابت بطيب رسول الله فهي به ::: سمت وراقت بمن فاقت مفاخره
به معدّ تسامى للعلا، وبه ::: حاز المكارم واعتزت عشائره
أسنى النبيّين قدراً نوره أبداً ::: يزيد حسناً على الأقمار باهره
وأفضل الخلق من عرب ومن عجم ::: أربت على الرمل أضعافاً مآثره
إن كان للرّسل عقد وهو آخرهم ::: نظماً فقد زان عقد الرّسل آخره
روض من الحلم غضّ راق منظره ::: بحر من العلم عذب فاض زاخره
إن جاد صاح بلقياه الزمان فمل ::: إلى مقام حبيب أنت زائره
وصف له حال صبّ مغرم دنف ::: رام الدنوّ فأقصته جرائره
واذكر هناك بعيد الدار غرّبه ::: غرب فما غائب من أنت ذاكره
أهدى الّسلام بلا حدّ ولا أمد ::: إلى محلّ رسول الله عامره

ومنها قوله رحمه الله تعالى:

أمنزلنا جادت ثراك السحائب ::: وإلا فجادته الدموع السواكب
ووشّاك وسميّ الغمام بدرّه ::: وحلّى محلاً حلّ فيه الحبائب
وحيّا نسيم الريح بالجزع آنساً ::: فما عاب ذاك الأنس بالجزع عائب
فيا عهدنا بالخيف هل أنت عائد ::: ويا أنسنا بالجزع هل أنت آيب
وهل راجع عصر الشباب الذي انقضى ::: وقد شيبت سود الشعور الشوائب
وهيهات أن يقضى لنا برجوعه ::: كما كان غصناً مورقاً وهو ذاهب
وقد سلب الدهر المفرق أنسنا ::: وأودى به والدهر للأنس سالب
فما وهب الإيناس إلا مغالطاً ::: وأي بخيل للنفائس واهب
أطالب أيام العقيق بعودة ::: وقد عزّ مطلوبٌ له أنا طالب

فيا صاحبي كن مسعدي في صبابتي ::: وإلا فما أنت الصديق المصاحب
إذا ما بدا برق الحجاز فأدمعي ::: تفيض إلى الورّاد منها المشارب
أعاتب أيام البعاد، وقلّما ::: يبرّد حرّ الشوق بالعتب عاتب
وأبخل بالصبر الجميل، وإنّه ::: لينهبه من وارد البين ناهب
ولّما بدت أعلام طيبة قصّرت ::: من الشوق ما قد طولته السباسب
وقفنا وسلمنا وفاضت دموعنا ::: وحنّت إلى ذاك الجناب الركائب
نزلنا وقبّلنا من الشوق تربها ::: وطابت بذاك الترب منّا الترائب
فللعين من تلك المعاهد نزهة ::: وللقلب في تلك الرسوم مآرب
حوت سيد الرسل الذي جلّ قدره ::: له في مقام القرب تقضى المطالب
به غالب حاز المفاخر سالفاً ::: ولا شرف إلا الذي حاز غالب
بهادي الورى طرّاً مناصبه سمت ::: وراقت بخير الرسل تلك المناصب
محمد الهادي بإشراق نوره ::: تمزق من ليل الضلال غياهب
ترقّى إلى السبع الطباق وما بدا ::: له في ترقّيه من الحجب حاجب
وخاطبه في حضرة القدس ربّه ::: وأدناه في حال الخطاب المخاطب
نبيّ بدت أنواره وتلألأت ::: فمنها تضيء النيرات الثواقب
لقد أشرقت شمس النهار بنوره ::: وبدر الدجى لّما بدا والكواكب
أعلّل قلبي بالوصول لقبره ::: وإن غبت ما قلبي وحقّك غائب
وإنّي أناديه وإن كنت نازحاً ::: نداء غريب غرّبته المغارب
إذا كنت لي يا سيد الرسل شافعاً ::: فما أنا من نيل السعادة خائب
بمدحك يا من جلّ قدراً وحظوة ::: وجاهاً وتمكيناً تنال المواهب
فيا معشر الأحباب إنّ نبيّنا ::: إلى فوزنا داع وساع وخاطب
ألا فاذكروه كلّ حين وسلّموا ::: عليه، بذاك الذكر تسم المراتب
وقوموا على أقدامكم عند ذكره ::: فذلك في شرع المحبّة واجب

ومنها قوله رحمه الله تعالى:

شمس الهدى وضحت بأشرف مرسل ::: ودحت دجى ليل الضلال المسبل
من وجه عبد الله كان ظهورها ::: للخلق طرّاً في ربيع الأول
خلعت على الآفاق أشرف ملبس ::: وبدت فأيّ دجنّة لم تنجل

فـــالنيّران المشـــرقان كلاهمـــا ::: للمصـــطفى اعترفـــا بعجـــز مجمـــل
فالشـــمس لّمـــا أن بـــدت أنـــواره ::: أومـــت إليـــه بالسّـــلام الأحفـــل
والبـــدر قابلـــه بحســـن كامـــل ::: فانشـــقّ للبـــدر الأتمّ الأكمـــل
ولليلـــة الإســـراء أجمـــل منظـــر ::: بجمـــال إســـراء الحبيـــب الأجمـــل
فضلت على الأيـام مـن شـرف لمـا ::: حازته مـن شـرف الـنبيّ الأفضـل
وبـدا بهـا نـور الـنّبيّ المصـطفى ::: وبدت لنـا نـار الكلـيم المصـطلي
إذ جـاءه الـروح الأمـين مسـلّماً ::: ومبشّـراً بـورود أعـذب منـهل
فسـرى إلى أسـنى محـلّ وارتقـى ::: والجفـن منـه بنومـه لم يكحـل
رفعت لـه حجـب الجـلال بأسـرها ::: فـرأى جـلالاً لم يكـن بممثّـل
حـتى انتـهى الـروح الأمـين لحـده ::: وبحيث يـذهل عقـل مـن لم يـذهل
نـاداه لّمـا أن ترقّـى وحـده: ::: لك يـا محمـد ذا التقـرب لـيس لي
ارقـا إلى الأفـق المـبين مشـاهداً ::: واترك حظوظك بالحضـيض الأسـفل
واسـعد بـزورة مـن تعـاظم ملكـه ::: واصـعد إلى عـرش الحبيـب الأول
فسما فشاهد حضـرة القـدس الـتي ::: سـبحاتها تغشـى حجـى المتأمّـل
وبدا الكمـال لـه ونـودي مقـبلاً: ::: أهـلاً وسـهلاً بالحبيـب المقبـل
أنـت المـراد لسـرنا ولوحينـا ::: أقبـل إلينـا يـا محمـد تقبـل
والبس بحضرة قدسـنا خلـع الرضـى ::: منّـا وجـرّ الـذيل منـها وارفـل
ولـك الوسـيلة يـا محمـد عنـدنا ::: وبهـا نجيـب وسـيلة المتوسـل
فاحكم بما يوحى إليـك مـن الهـدى ::: وانـزل بـأنوار الكتـاب المنـزّل
فيـه شـفاء للصـدور فبرؤهـا ::: بمفصّـل منـه وغـير مفصّـل
يا نفـس هـل تشـفيك زورة طيبـة ::: فرسـومها بـرء لكـلّ مقبّـل
ولّـى زمانـك في التصـابي والمـنى ::: فـدعي التصـابي والأمـاني وارحلـي
يا قلب، روعات الجوى هـل تنقضـي ::: عني ولوعـات الجـوى هـل تنجلـي
وأزور قـبر الهـاشمي محمـد ::: قبل الرحيـل وقبـل عـذل العـذّل
إنّـي وإن بخـل الزّمـان بقربـه ::: فبلـوعتين وبـدمعتي لم أبخـل
أسـقي الثـرى تسـكابها، فمعينـها ::: يهمـي، ونـار صـبابتي مـا تـأتلي
لهفـي علـى بعـد المـزار مـتى أرى ::: يقضي الزمـان بقـرب ذاك المنـزل
ومـتى أبشّـر بـالمنى، ويقـال لي: ::: هـذا مقـرّ الـوحي دونـك فـانزل

وهَبّ تلقائي نواسم طيبة ::: إنّي أجود بها إليك وحقّ لي
فلقد بليت بلوعة وبدمعة ::: وهبوبك الأزكى شفاء المبتلي
خيلت قربك برء داء صبابتي ::: ضن البعاد به فطال تخيّلي
شوقاً إلى خير الأنام بأسرهم ::: سؤلي وأسنى مقصدي ومؤملي
فبه أنا متوسّل في مقصدي ::: أسنى التوسل بالرسول المرسل
وبجاهه عند الأنام مآربي ::: ووسائلي تقضى وإن لم أسأل
وبه الأماني قد حللن بساحتي ::: وحوادث الحدثان صرن بمعزل
بشراك نفسي فالأماني أعجلت ::: نحوي تبشّرني بخير معجّل
بمديحه أضحى الزّمان مسالمي ::: تندى أسرّة وجهه المتهلّل
فبه إلهي قد رجوتك راغباً ::: دون الأنام فباب جودك موئلي
وإليك ربّي رغبتي وتوسّلي ::: وعليك في كلّ الأمور توكّلي

وثبت في آخر هذا الكتاب ما صورته: قال محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن أبي بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم: كان الفرغ من إكمال هذا الفصل وإتمامه، حسب نثره ونظامه، ضحوة يوم الجمعة الثاني من شعبان المكرم سنة ست وتسعين وستمائة، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها، فإنّها تقدمت على إنشائه، أودعتها فيه، والله سبحانه المستعان، وذلك بمدينة الجزائر - جزائر بني مزغنة - من أقصى إفريقية من أرض متيجة، صانها الله تعالى؛ انتهى.

وثبت في آخره بخط بعض الأكابر ما نصّه: تأليف الفقيه العالم الأديب البارع أبي عبد الله محمد بن العطار الجزائري؛ انتهى.

وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر، فالله تعالى يجازي صاحبه أفضل الجزاء، بمنّه وكرمه.

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة على ما ذكر هنا فنقول: قال العارف بالله تعالى ابن العريف في كتاب " مطالع الأنوار ومنابع الأسرار ":

وحقّك يا محمّد إنّ قلبي ::: يحبك قربة نحو الإله

جرت أمواه حبك في فؤادي ::: فهام القلب في طيب المياه

فصرت أرى الأمور بعين حقّ ::: وكنت أرى الأمور بعين ساهي

إذ شغف الفؤاد به وداداً ::: فهل ينهاه عن ذكراه ناهي

يهيم بذكره ويحنّ شوقاً ::: حنين المستهام إلى الملاهي

يخامره ارتياح منه حتى ::: يقول أولو الجهالة: ذاك لاهي

وما هو حقّ فضل قد رآه ::: فصار يجدّ في طلب الملاهي

فسوف ينال في الدنيا سروراً ::: وفي الدار الأخيرة كلّ جاه

ويعطى ما تمنى من أمان ::: كما قد حبّ محبوب الإله

وقال الشيخ أبو عبد الله بن عمران مادحاً لرسول الله مرتباً على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب، كما تقدم:

ألف: أيا خير البريّة هذي ::: مدحي، وما أنا في مقالي هاذي

باء: بها أظهرت صدق محبتي ::: وبذلك الجاه الكريم لياذي

تاء: تخذت وسيلة ما حكته ::: وجعلته يوم المعاد عياذي

ثاء: ثنائي ليس يحصر فضلك الـ ::: زاهي ولا يحويه باستحواذ

جيم: جلالك جلّ طور فخاره ::: عن شبه مثل أو لحاق محاذي

حاء: حبيت بمعجزات ذكرها ::: يولي ذوي الإيمان كلّ لذاذ

خاء: خصصت بها بفضل عناية ::: منها لجأت إلى أجلّ ملاذ

دال: دحضت بحقّها مستقرياً ::: إبطال زور مشعوذ ملاّذ

ذال: ذراع الشاة أفصح مخبراً ::: عمّا يحاذر ضره بنفاذ

راء: رميت عصائباً قد ألّبوا ::: فعموا ولمّا ينصروا بلواذ

زاي: زعيم بالوجاهة أنت إذ ::: كلّ بجاهك عاذ كلّ عياذ

طاء: طلابهم لديك شفاعة ::: فيها بذذت الجمع أيّ بذاذ

ظاء: ظماؤهم بحوضك سوّغوا ::: ريّاً كأنّ به مذاقة ماذي

كاف: كفك بما تلته والضحى ::: لجماعة الجارين باستنقاذ

لام: لدعوتك المجابة أسبلت ::: ثروات هتّان الحيا بهماذ

ميم: معين يديك إذ غلب الظّما ::: أروى الورى من توأم وفذاذ

نـــون: نجـــارك أصـــله متخيّـــر ::: من بطن ذات عـــلا وأطهــر حـــاذي
صـــاد: صـــعدت ذرا لموقــف زلفــة ::: تـــرك الســـعود مقطّـــع الأفـــلاذ
ضـــاد: ضـــويت إلى جـــلال كافـــل ::: لـــك بالرضـــى درّ الجلالـــة غـــاذ
عين: عـــلا ذكـــر افتخـــارك وارتقـــي ::: عـــن غمـــز مغتـــاب وزور البـــاذي
غـــين: غمـــام قـــد عـــلاك مظلّـــلاً ::: يمشـــي بمشـــيك دائمـــاً ويحـــاذي
فـــاء: فصـــاحتك البليغـــة أعجـــزت ::: للقـــوم مـــن قـــربى ومـــن شـــذّاذ
قاف: قواعد صرح كســرى زلزلــت ::: لـــولادة أوهـــت قـــوى ابـــن قبـــاذ
سين: ســبقت بكـــل فضـــل يغتـــدي ::: جفـــن المعـــالي منـــه لـــيس بقـــاذ
شين: شـــأوت مفـــاخراً كـــل الـــورى ::: وتركتـــــهم غرقـــــى بلجّـــــة آذي
هـــاء: هتفـــت علـــى تنـــائي شـــقّتي ::: بعلاك هـــذي، ومـــا نحلتـــك هـــذي
أو: ولـــو أني اســـتطعت لســـابقت ::: قلمـــي خطـــا قـــدميّ بالإغـــذاذ
لا: لا أكيّـــف قـــدر شـــوق باعـــث ::: لعزائمـــــي مســـــتنهض شـــــحّاذ
يـــاء: يمينـــاً لـــو قـــدرت إذن لمـــا ::: أخّـــرت ســـعي مبـــادر حـــذحاذ
دامت عليك صلاة ربـك مـا همـت ::: ديم بوبـــــل هاطـــــل ورذاذ

رجع إلى الكاتب أبي عبد الله ابن الجنان الأندلسي:

قال - تقبل الله تعالى منه - يمدح النبي :

يـــا مـــن تقـــدّس عـــن أن ::: يحـــيط وصـــف بذاتـــه
ومـــن تعـــالى جـــلالاً ::: عـــن مشـــبه في صـــفاته
ومـــن قبـــول ثنـــائي ::: إليـــه أســـنى هباتـــه
صـــلى علـــى مـــن تبـــدّى ::: نـــور الهـــدى مـــن سماتـــه
ومـــن عـــلا الفخـــر لّمـــا ::: نمـــى إلى معلواتـــه
محمـــد خـــير هـــاد ::: بحلمـــه وأناتـــه
محمـــد خـــير داع ::: بالصـــدق مـــن كلماتـــه
محمّـــد خـــير مبـــدٍ ::: لنـــا ســـنا معجزاتـــه
أكـــرم بـــه مـــن نـــبيّ ::: همـــت سمـــا مكرماتـــه
أعـــزز بـــه مـــن رســـول ::: سمـــت عـــلا درجاتـــه
وخصّـــه الله منـــه ::: بالفضـــل مـــن تكرماتـــه

لّمـــــا حبـــــاه بـــــأوفى ::: صــــــــلاته في صــــــــلاته

وقال:

يــــــا ربّ بلّـــــغ ســــــلامي ::: لأحمــــــــد ذي الشّــــــفاعه
لخـــــاتم الرّســــــل أعــــــني ::: إمــــــام تلــــك الجماعــــــه
لأبهـــــر الخلـــــق مجــــــداً ::: يحكـــــي الصــــباح نصـــاعه
لمـــــــن صـــــــفات عـــــلاه ::: تعجــــــز أهـــــل البراعـــــه
لســــــــيّد لســـــــــناه ::: يزهـــــى الســـــنا واليراعـــــه
لمرشـــــــــد بهـــــــداه ::: قـــــد فـــــاز عبـــــد أطاعـــــه
شمـــــس النبـــــوّة معـــــط ::: شمـــــس الســـــماء شـــــعاعه
ونــــــاظم الحســــــن نظمــــــاً ::: قـــــد ضـــــمّ منـــــه شـــــعاعه
وســـــرّ ســـــرك يـــــا مـــــن ::: أرى العيـــــــون اطّلاعــــــه
ومـــــن حبـــــا بـــــذكاء ::: خلالــــــــه وطباعـــــــــه
ومـــــدّ في كـــــلّ فضـــــل ::: لصــــفوة الرســـــل باعـــــه
فـــــزده يـــــا ربّ فخـــــراً ::: وزد محبّيــــــــه طاعـــــــه

وقال أيضاً غيره:

لقـــد رفـــع الإلـــه عـــن البرايـــا ::: ببعـــث محمّـــد محـــن الصـــروف
أتـــى والنـــاس في الآفـــاق نهـــب ::: لســـمر الخـــطّ أو بـــيض الســـيوف
فأنقـــــذهم، ولـــــولاه لكــــانوا ::: لقـــىً بـــين الضـــلالة والحتـــوف
نـــــبيّ لا يغـــــلّ عليـــــه إلاّ ::: ســـخيف العقـــل ذو رأي مـــؤوف
كأغمـــار اليهـــود أو النصـــارى ::: أو الفلكـــــيّ أو كالفيلســـــوف
فـــبعض للتجاهـــل والتعـــامي ::: وبعـــض للتحيّـــر والوقـــوف
زعـــانف لا يهلـــك لهـــا رواء ::: فـــإنّ الجهـــل مائحـــة الظـــروف
إذا جـــارى بمختـــلّ ضـــعيف ::: فـــإنّ صـــحاحنا فـــوق الألـــوف
فبرهـــان النبـــوّة مســـتفيض ::: نـــدلّ بـــه علـــى رغـــم الأنـــوف
شـــفوف الرّســـل متضـــح ولكـــن ::: لأحمـــد الشـــفوف علـــى الشـــفوف
حـــروف الخـــطّ أصـــل للمعـــاني ::: وللألـــف التقـــدّم للحـــروف

وما أحسن قول القائل رحمه الله تعالى:

لـــــــولا الـــــــنبيّ محمـــــــد ::: هلـــك الـــورى في ســـوء حالـــه
أعلـــى الـــورى قـــدراً وأك ::: رمهـــم وأظهـــرهم دلالـــه
خـــتم الإلـــه بـــه النبـــ ::: وّة والطهـــارة والرســـاله
واختصّـــــه دون الـــبر ::: يّـــة بالمكانـــة والجلالـــه
بـــدر الرســالة والصـــحا ::: بـــة حـــول ذاك البـــدر هالـــه
قـــذف الحصـــى في أعـــين الـــ ::: كفّـــار فـــاعتنقوا الجدالـــه
وتـــدرعوا ثـــوب الكـــآ ::: بـــة بعـــد إظهـــار الجزالـــه
فأصـــــخ إلى أنبائـــــه ::: تعلـــم بـــأنّ المنتـــهى لـــه
وإذا ابتغيـــت وســـيلة ::: ومدحتـــه ومـــدحت آلـــه
فـــاقطع بأنّـــك آمـــنٌ ::: يـــوم القيامـــة لا محالـــه

وقال أبو القاسم سعد بن محمد رحمه الله تعالى:

أطلق لسـانك بالصـلاة علـى الـ ::: نـبيّ الأبطحـيّ الهـاشميّ محمـد
واجعل شـعارك ذاك تـنج بـه غـدا ::: إنّ النجـاة بـذكر يـوم للغـد

ولأبي اليمن ابن عساكر رحمه الله تعالى:

يـا ربّ صـلّ علـى الـنبي وآلـه ::: صـلواتنا مـا دامـت الأيـام
واخصـص ختـوم سـلامنا بجنابـه ::: كالمسـك يعبـق فـضّ عنـه ختـام
واحـرس شـريعته وأوضـح سـبلها ::: تبـدو بهـا للسـالك الأعـلام
وأدم كرامتـه وأعـل منـاره ::: وأنلـه أعلـى مـا لـديك يـرام
وارفع له الـدرجات في رتـب العـلا ::: فهـو الـذي للمرشـدين إمـام
وأقمـه بـين يـديك زلفـى موقـف ::: للحمـد مـا لسـواه فيـه مقـام
وأنـل شـفاعته وأورد حوضـه ::: مـن لـو أتـاه (...) منـه أوام
يشـتاقه ويعوقـه علـقٌ بـه ::: لزمانـه وزمانـة وسـقام
فبـه إليـه غلّـة مـا تشـتفي ::: إلاّ بلقيـاه، وعـزّ مـرام
ولـه عليـه في الأصـائل والضـحى ::: تهـدى إليـه تحيّـة وسـلام
وبـه إلى تقبيـل مـوطىء نعلـه ::: وجـدٌ لـه بـين الضـلوع أوام

وله أيضاً رحمه الله تعالى:

ألا إنّ الصـــلاة علـــى الرســـول ::: شـــفاء للقلـــوب مـــن الغليـــل
فصـــلّ عليـــه؛ إن الله صـــلّى ::: عليـــه ولا تكـــونن بالبخيـــل
وصـــلّ عليـــه قـــد صـــلّت عليـــه ::: ملائكـــة الســـماء بجبرئيـــل
ألا إنّ الصـــلاة عليـــه نـــور ::: لـــدى الظلمـــات في اليـــوم المهـــول
وتثقيـــل لميـــزان خفيـــف ::: وتخفيـــف مـــن الـــوزر الثقيـــل
إذا صـــلّيت صـــلّى الله عشـــراً ::: بواحـــدة عليـــك علـــى الرســـول
وتحظـــى بالشـــفاعة يـــوم تضـــحى ::: ومـــا لـــك مـــن مقيـــل أو منيـــل
فـــأكثر أو أقـــل فأنـــت تجـــزى ::: بـــذلك مـــن كـــثير أو قليـــل
فصـــلّ عليـــه تجـــز جـــزاء ضـــعف ::: وتجـــز مضـــاعف الأجـــر الجزيـــل
وأولى النـــاس أكثـــرهم صـــلاة ::: عليـــه بـــه وأحـــرى بـــالقبول
وأنجـــاهم مـــن الأهـــوال عبـــد ::: بهـــا لهـــج بـــدل قـــال وقيـــل
فكـــن لهجـــاً بـــذكراه حفيّـــاً ::: بلقيـــاه ومنصـــبه الجليـــل
وصـــلّ صـــلاة مشـــتاق إليـــه ::: وداو بـــذكره ســـقم العليـــل
وصـــلّ مـــدة الزمـــان علـــى رســـول ::: كـــريم مصـــطفى بـــرّ وصـــول
وصـــلّ علـــى حبيـــب فـــاق فضـــلاً ::: مـــدى شـــأو الكـــيم مـــع الخليـــل
فصـــلّى الله أفضـــل مـــن يصـــلّي ::: عليـــه في الصـــباح مـــع الأصـــيل
وآتـــاه الوســـيلة مســـتجيباً ::: وبلّغـــه نهايـــة كـــلّ ســـول
وأزلفـــه وشـــفّعه ليـــأوي ::: إليـــه النـــاس في ظـــلّ ظليـــل
وأطّـــد شـــرعه وحمـــى حمـــاه ::: وأيّـــده بواضـــحة الـــدليل
وشـــرّفه ولم يـــبرح شـــريفاً ::: فيجمـــع جملـــة المجـــد الأثيـــل
وزاد محبّـــه شـــرفاً وفخـــراً ::: بتفضـــيل وتنويـــل جزيـــل
وزاد عـــلاه منـــه بطـــول عمـــر ::: قصـــيّ مـــن مواهبـــه طويـــل
وأوردنـــا عليـــه الحـــوض وفـــداً ::: لنـــروى بـــالرّوى مـــن سلســـبيل

وله رحمه الله تعالى:

أدم الصـــلاة علـــى الـــنبيّ المصـــطفى ::: تخلص بـــذاك مـــن الجحـــيم ونارهـــا
وتـــولّ إقبـــالاً عليهـــا كلّمـــا ::: هتـــف المـــؤذن مشـــعراً بشـــعارها
فـــالفخر أجمعـــه لـــه فتلقّـــه ::: مـــن نوبـــة الأســـحار فـــوق منارهـــا

فهذه عدة قصائد في مدحه ، أرجو من الله سبحانه أن تكون مكفرة لما ارتكبته على وجه الفخر والشهرة من الهزل واللّغو، فإن ذلك والله قول لا فعل له، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر وغير واحد ممّن ألف في الأدب وجمعه.

ولا بأس أن نعززها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة، وحقّ لمن توسل بسيد الوجود أن لا تضيع وسائله، وكيف وهو صاحب المقام المحمود والشفاعة والسيادة، فمنها قول ابن الجنان المذكور آنفاً رحمه الله تعالى:

إلى أحمد المختار هدي تحيّة ::: تفاوح روض الحزن بللـه المزن
إذا نافحت مغناه زاد تأرجاً ::: وإن لثمت يمناه قابله اليمن
أسيّر أشواقي رسولاً بعرفها ::: لتسعدها منه العوارف والمن
وأرجو لديه الفضل فهو منيله ::: وما خاب لي فيه الرجاء ولا الظن
عليه اعتمادي حين لا لي حيلة ::: إليه استنادي حين ينبو بي الركن
به وثقت نفسي الضعيفة بعدما ::: أضرّ بها من ضعف قوتها الوهن
إليه صلاتي قد بعثت مشفّعاً ::: سلاماً به الإحسان ينساق والحسن

وقوله رحمه الله تعالى:

أيذهب يوم لم أكفّر ذنوبه ::: بذكر شفيع في الذنوب مشفّع
ولم أقض في حقّ الصلاة فريضةً ::: على ذي مقام في الحساب مرفّع
أرجّي لديه النفع في صدق حبّه ::: ومن يرتج المختار لا شك ينفع
وأهدي إلى مثواه مني تحيّة ::: إذا قصدت باب الرضى لم تدفّع

وقوله رحمه الله تعالى:

يا أرحم الخلق يوم الحشر والندم ::: ارحم عبيدك يا ذا الطّول والنعم
إني توسلت بالمختار ملجأنا ::: الطاهر المجتبي من خيرة الأمم
إليك من سيئاتي إنها عظمت ::: يا واحداً لم يزل فرداً ولم يتم
عليه منه صلاة كلما طلعت ::: شمس وما خطّ في الأوراق بالقلم
فهو الشفيع الذي أرجو النجاة به ::: من الجحيم إذ الكفار كالحمم

وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجلّ أبي الحجاج يوسف بن موسى

المنتشاقري الأندلسي - نفعه الله تعالى بنيته، وبلغه غاية أمنيته - وترتيبها على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيما عدا الروي فإنه على حرف الميم، وكذا آخر الشطر الذي قبله فإنه ميم أيضاً، و هذا نصه بحروفه ما عدا حرف الواو فإني لم أجده وكملته على منواله:

حلّ في طيبة رسول كريم ::: فعليه الصلاة والتسليم
صفوة الخلق خاتم الأنبياء ::: مرشد الناء للطريق السوّاء
والعماد الملاذ في الأواء ::: وشفيع العصاة يوم الجزاء
يوم يبدو لديه جاه عظيم ::: فعليه الصلاة والتسليم
أذهب الغيّ نوره والغياهب ::: فأضاءت مشارق ومغارب
وغدا الحقّ غالباً للأكاذب ::: وبدت منه للأنام عجائب
صدق أقواله بها معلوم ::: فعليه الصلاة والتسليم
لبراهين صدقه معجزات ::: حيثما حلّ حلّت البركات
وسمت أربع به وجهات ::: فبه قد تعرفت عرفات
وبه تاه زمزم والحطيم ::: فعليه الصلاة والتسليم
لم يزل هادياً صدوق الحديث ::: ووفيّاً بالعهد غير نكوث
ومجيباً لدعوة المستغيث ::: وكريماً نداه فوق الغيوث
ويداه بالجود جود سجوم ::: فعليه الصلاة والتسليم
بهج الحق أوضح الابتهاج ::: سيد نوره أضاء الدياجي
خصه الله ليلة المعراج ::: باصطفاء ورفعة ونتاج
وبتكليمه له التكريم ::: فعليه الصلاة والتسليم
مصطفى مجتبى كريم صفوح ::: للنبيّين جاهه ممنوح
فلإكرامه أجير الذبيح ::: ونجا آدم وخلّص نوح
وكذاك الخليل إبراهيم ::: فعليه الصلاة والتسليم
كلّ دين بدينه منسوخ ::: فسوى ما قضى به مفسوخ
لهداه بكلّ قلب رسوخ ::: فالورى مادح له ومصيخ
كلهم في هوى النبي يهيم ::: فعليه الصلاة والتسليم
بعثه كان رحمة للعباد ::: دلّهم بالهدى طريق الرشاد

ونفــــى كــــلّ باطــــل وعنــــاد ::: ودعــــا للإلــــه دعــــوة هــــادي
فــــإذا الحــــق واضــــح مســــتقيم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
أمّــــه بالشّــــكاة ظــــبيٌ أخيــــذ ::: مســــتجيراً بجاهــــه يســــتعيذ
وبــــه كانــــت الوحــــوش تلــــوذ ::: ولــــه خاطــــب الــــذراع الحنيــــذ
لا تــــذقني فــــإنني مســــموم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
أشــــبع الجــــيش والطعــــام يســــير ::: ودعــــا نخلــــةً فجــــاءت تســــير
وهمــــى مــــن يديــــه عــــذب نمــــير ::: ولــــه البــــدر شــــقّ وهــــو مــــنير
معجــــزات تحــــار فيهــــا الفهــــوم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
حجب النــور في الســماوات جــازا ::: فــاحتوى الفضــل والعــلاء وحــازا
فبــــه في غــــد ننــــال المفــــازا ::: وكفــــى أمّــــة الرســــول اعتــــزازا
أن تمــــنى يكــــون منــــها كلــــيم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
إنمــا الحكــم منــه عــدل وقســط ::: لم يجــر في القضــاء والحكــم قــطّ
حبــه في بلــوغ قصــدي شــرط ::: وبأمداحــــه ذنــــوبي تحــــطّ
ويــزول العنــا وتجلــى الهمــوم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
قــد حمــى ديننــا برعــي ولحــظ ::: ونفــــى روعنــــا بــــأمن وحفــــظ
وحبانــا بمــا لــدى الــربّ يحظــي ::: هاديــــاً راحمــــاً لنــــا غــــير فــــظّ
مثــل مــا نصّــه الكتــاب الكــريم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
نــور برهانــه جــلا كــلّ شــكر ::: وهــــداه أجــــرا مــــن كــــلّ هلــــك
أخــير العــالمين مــن غــير شــكّ ::: فلكــــم رامــــه العــــداة بشــــكّ
وهــو في كــلّ حالــة معصــوم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
مــا لخــير الأنــام منــهم عــديل ::: إنّــــه مجــــتبىً نــــبيّ رســــول
مــا عســى مــادح الشــفيع يقــول ::: وبأمداحــــه أتــــى التنــــزيل
وثنــاه خلالــه مرســوم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
نحــن لــولا اتّباعــه لشــقينا ::: نــــور برهانــــه أرانــــا يقينــــا
وغــدا مــا نخــاف منــه يقينــا ::: وكؤوســــاً بحوضــــه قــــد ســــقينا
مــن رحيــق مزاجــه مختــوم ::: فعليــــه الصــــلاة والتســــليم
أحمــد عنــد ربــه ذو اختصــاص ::: جاهــــه كامــــل بغــــير انتقــــاص
عــدة للمســيء يــوم القصــاص ::: وشــــفيع لكــــل جــــان وعاصــــي

يـوم يجفـو الحمـيم فيـه الحمـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
بيديـه حـوائج الكـلّ تقضـى ::: ويجـازي الـذي أجـاز وأمـى
وينـادي الحبيـب أنـت المرضـى ::: سوف نعطيـك مـا تحـب وترضـى
فـتحكّم يمضـى لـك التحكـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
فـاق بالمولـد السـعيد ربيـع ::: إن فيـه بـدا الجـلال الرفيـع
مـن هـو الـذخر والعمـاد المنيـع ::: فمـلاذ للمـذنبين شـفيع
ورؤوف بـالمؤمنين رحـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
أفصـح النـاس في حـديث وأبلـغ ::: بـيّن الـوحي للأنـام وبلّـغ
طيـب الحـل قـد أبـاح وسـوّغ ::: ولكـم نعمـة مـن الله سـوّغ
فلإحسـانه علينـا عمـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
كـان بـالحقّ والهـدى معروفـا ::: أجـود النـاس بالنـدى موصـوفا
شـرّف الله قـدره تشـريفا ::: هاديـاً مرشـداً رسـولاً شـريفا
مجـده في العـلاء مجـدٌ صـميم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
وجهـه بالبـها أضـاء وأشـرق ::: مجـده في صـميمه الأصـل أعـرق
مـسّ في كفـه قضـيباً فـأورق ::: باصـبع قـد أشـار للبـدر فانشـقّ
ثمّ قـد عـاد وهـو بـدر سـليم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
جـاءه الـوحي أنـت خـير النـاس ::: بلّـغ الأمـر لا تخـف مـن بـاس
وخـذ العفـو للأنـام وواس ::: واحمهـم مـن مكايـد الوسـواس
فعليـك الـبلاغ والتعلـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
كـان في الله أثبـت النـاس جاشـا ::: لـيس مـن غـيره يخـاف ويخشـى
فبكـفّ مـن الحصـى فـلّ جيشـا ::: وعيـون العـداة بـالترب أعشـى
فنجـا المصـطفى وخـاب الظلـوم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
قـد سمـا قـدره بغـير تنـاهي ::: وعـلا جاهـه علـى كـلّ جـاه
آخـر بـالتّقى عـن الشـرّ نـاهي ::: مـن يطعـه ينـل ثـواب الإلـه
ولـه عنـده النعـيم المقـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
عمـدة الخلـق للمفـاخر حـاوي ::: بحمـاه يلـوذ كـلّ ويـاوي
مبلـغ المعتفـي الـذي هـو نـاوي ::: كيـف يحصـي ثنـاء أحمـد راوي
وعليـه أثـنى الكتـاب الحكـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم

حسـنه كالصـباح بـل هـو أجلـى ::: ونـدى كفّـه مـن الشـهد أحلـى
واعـتلا قـدره مـن السـبع أعلـى ::: مدحـه في الكتـاب مـا زال يتلـى
فلـه الفخـر والثنـاء العظـيم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم
خصّـه الله مـن رسـول نـبيّ ::: في جميـع الـورى بقـدر علـيّ
وحبـاه منـه بنـور بهـيّ ::: فهـدى الخلـق للصـراط السّـويّ
وصـراط الهـدى سـويّ قـويم ::: فعليـه الصـلاة والتسـليم

* * *

خاتمة الكتاب

قال مؤلف هذا الكتاب العبد الفقير أحمد بن محمد المقري المالكي، وفقه الله تعالى إلى حسن المتاب، وحباه الدخول في زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى الإصر والعتاب: هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل، من هذا المقصد الجليل، الذي يكون إلى ما وراءه من الطّرف الأدبية خير دليل، ووضعته والقلب حليف شجن وغربة، والفكر أليف حزن وكربة، وأنا أسأل الله تعالى الذي لا يرجى سواه، أن يجعل بناءه ثابتاً بحسن النية حيث البناء الذي فيه حظ النفس واه، وأن يكون ما جلبته فيه من الهزل بالجد المذكور فيه مكفراً، وأن ينفع به من وجّه إليه وجهته، فإني قد جمعت فيه ما يندر جمعه في غيره وكل الصيد في جوف الفرا.

يا من عليه اتكالي ::: ومن إليه متابي
جد لي بعفوك عنّي ::: إذا أخذت كتابي

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من البيان السحر، وفيه من حكايات الأولياء والعلماء، ما نظمت في لبة السطور منه السلوك. وفيه من الوعظ والاعتبار، ما لم يذكره المنصف عند الاختبار، وكفاه أنه لم ير مثله في فنه فيما علمت، ولا أقوله تكية له، ويعلم الله تعالى أني تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت، ولو لم يحز من الشرف إلاّ ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفة، ذات الظلال الوريفة، لكان كافياً شافياً، و ها أنا أجعل آخره تنبيهاً للّبيب، قول ابن حبيب:

يا خير مبعوث له طلعة ::: نور الهدى منها أقرّ العيون
جئت إلى ناديك أرجو القرى ::: من غيث كفّيك المغيث الهتون
كن لي شفيعاً فارتكاب الهوى ::: أوقعني بين الشّجا والشجون
صلّى عليك الله سبحانه ::: ما هزّت الريح قدود الغصون

وقول النواجي:

لقد أفرطت في حسن ابتداء ::: ورمت تخلّصي يوم الزحام
فبالمختار أرجو عفو ربي ::: ليرشدني إلى حسن الختام

وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف، بالقاهرة المحروسة، والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وألحقت فيه كثيراً في السنة بعدها؛ فيكون جميعه آخر الحجة تتمة سنة تسع وثلاثين وألف، وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، دائماً أبداً إلى يوم الدين، آمين.

وجاء في ختام النسخة " ق ":

قال محرر هذه النسخة المباركة العبد الفقير، الضعيف الحقير، الراجي من الله سبحانه العفو والغفران، أحمد بن محمد الحمودي العطار، غفر الله ذنوبه، وستر في الدارين عيوبه، كان الفراغ من كتابه عشية يوم الأربعاء المسفر صباحها عن الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين لذي القعدة الحرام من شهور سنة ثلاثين ومائة وألف، حامداً لله مصلياً ومسلماً على رسول الله طالباً لمؤلفه المغفرة رحمه الله تعالى ورضي عنه وعن جميع العلماء العاملين وعن الأربعة الأئمة المجتهدين وعن مقلديهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا وعن والدينا ومشايخنا، ومن علمنا ومن هدانا ومن أسدى إلينا معروفاً، وعن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، من أهل السنة والجماعات، إنه غفور رحيم، شكور حليم، وقد تمت هذه النسخة الميمونة المباركة المصونة بعون الله وإرادته القادرة ومشيئته الصادرة برسم افتخار السادة الأشراف مولانا وسيدنا السيد محمد عاصم أفندي ابن المرحوم السيد عبد المعطي أفندي الشهير نسبه بالفلاقنسي... وذلك بمنزلي العامر الكائن بمحلة القيمرية من دمشق الشام (ثم قصيدة قالها الناسخ في تقريظ الكتاب مؤرخاً: قد تم عرف الطيب أنجز به وعدي: ١١٣٠).

* * *

الفهرس

* * *

صدر حديثًا للدكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

تاريخ الدولة الأيوبية	تاريخ دولة المماليك	تاريخ الإسلام في الأندلس	تاريخ المغول وسقوط بغداد	تاريخ الإسلام في أذربيجان	الفتح الإسلامي لبلاد القوقاز
الشيعة..... التاريخ الكامل	ماذا يعني حب النبي صلى الله عليه وسلم؟	سلاج المؤمن..... الذكر والدعاء	مختصر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	مختصر سير أعلام النبلاء	مختصر السلوك في معرفة دول الملوك
فاعتبروا يا أولي الأبصار	مطالب الظالمين في الدنيا والآخرة	الظالمون وكيف كانت نهايتهم	ألف حكمة وحكمة من حكم الحكماء ومواعظ الصالحين	ألف قصة وقصة من قصص الأئمة الأربعة	قصص ونوادر الأنام في الرؤي والأحلام
قصص ونوادر البلاغيين والطفيليين والنحاة	قصص ونوادر البخلاء	شهداء العلماء	مختصر أسد الغابة في معرفة الصحابة	مختصر الكامل في التاريخ لابن الأثير	مختصر الطبقات الكبري لابن سعد
مختصر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب					

* * *